تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف

الإمام العلامة محمّد جمال الدين القاسمي
المتوفى سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م

ضبطه وصححه وخرّج آياته وأحاديثه

محمّد باسل عيون السّود

المحتوى

من أول سورة يونس - إلى آخر سورة الإسراء

الجزء السادس

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



دار الكتب العلمية

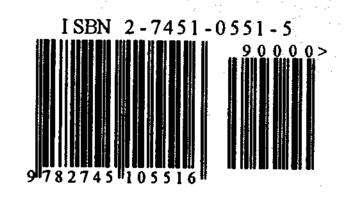
الطبعة الثانية
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

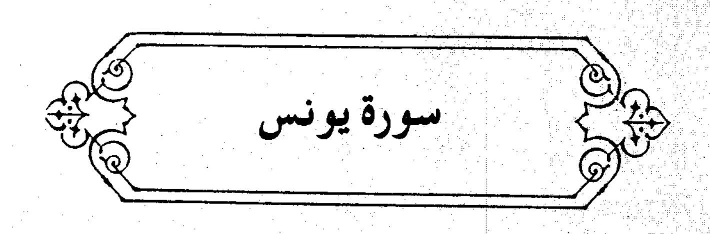
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-0551-5


http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة يونس

سميت به، عليه السلام، لتضمنها قوله: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُس﴾ [يونس:٩٨]، ففيه غاية ما يفيد فيه الإيمان وضرر تركه وتأخيره، وهو المقصد الأعلى من إنزال الكتاب – قاله المهايميّ – .

وهذه السورة مكية، واستثنى منها قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ في شَكٍّ... ﴾ [يونس:٩٤–٩٥]. الآيتين. وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ...﴾ [يونس:٤٠] الآية، قيل: نزلت في اليهود. وقيل: من أولها إلى رأس أربعين مكيّ، والباقي مدنيّ– حكاه ابن الفرس والسخاويّ في (جمال القراء) .

وآياتها مائة وتسعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾

﴿آلر﴾ مسرود على نمط التعديد بطريق التحدي. أو اسمٌ للسورة فمحله الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف.اي هذه السورة مسماة بـ ﴿آلر﴾ والإشارة إليها قبل جريان ذكرها لما أنها باعتبار كونها على جناح الذكر وبصدده، صارت في حكم الحاضر، كما يقال: هذا ما اشترى فلان، أو النصب بتقدير: اقرأ.

وكلمة ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إليها، إما على تقدير كون ﴿آلر﴾ مسرودة على نمط التعديد، فقد نزّل حضور مادتها، التي هي الحروف المذكورة، منزلة ذكرها فأشير إليها، كأنه قيل: هذه الكلمات المؤلفة من جنس هذه الحروف المبسوطة... الخ.

وأما على تقدير كونه اسماً للسورة، فقد نوهت بالإشارة إليها بعد تنويهها بتعيين اسمها، أو الأمر بقراءتها. وما في اسم الإشارة من معنى البعد، للتنبيه على بعد منزلتها في الفخامة، ومحله الرفع على أنه مبتدأ، خبره قوله تعالى:

﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾، وعلى تقدير كون ﴿آلر﴾ مبتدأ، فهو مبتدأ ثان، أو بدل من الأول. والمعنى: هي آيات مخصوصة منه، مترجمة باسم مستقل، والمقصود ببيان بعضيتها منه، وصفاً بما اشتهر اتصافه به من النعوت الفاضلة، والصفات الكاملة.

والمراد بـ ﴿الكتاب﴾: إما جميع القرآن العظيم، وإن لم ينزل الكل حينئذ، لاعتبار تعينه وتحققه في علم الله تعالى؛ وإما جميع القرآن النازل وقتئذ، المتفاهم بين الناس إذ ذاك.

و﴿الحكيم﴾ أي ذو الحكمة، وإنما وصف به لاشتماله على فنون الحكم الباهرة، ونطقه بها، أو هو من باب وصف الكلام بصفة صاحبه، أو من باب الاستعارة المكنيّة المبنية على تشبيه الكتاب الحكيم الناطق بالحكمة - أفاده أبو السعود -.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

﴿أكان للنَّاس عَجَبًا أنْ أوْحينا إلى رَجُلٍ منْهمْ أنْ أنذِرِ النَّاسَ وبَشِّر الَّذين آمنُوا أنَّ لهمْ قَدَمَ صدْقٍ عنْدَ ربِّهم﴾ الهمزة لإنكار التعجب والتعجيب منه، وإنما أنكر ذلك لكون سنة اللّه جارية أبداً على هذا الأسلوب في الإيحاء إلى الرجال، وإنما كان تعجبهم لبعدهم عن مقامه، وعدم مناسبة حالهم لحاله، ومنافاة ما جاء به لما اعتقدوه و«القدم» بمعنى السبق مجازاً، لكونه سببه وآلته، كما تطلق «اليد» على النعمة، و«العين» على الجاسوس، و«الرأس» على الرئيس. ثم إن السبق مجاز عن الفضل والتقدم المعنويّ إلى المنازل الرفيعة، فهو مجاز بمرتبتين أو «القدم» بمعنى المقام، كـ ﴿مَقْعَد صِدْق﴾ [القمر: ٥٥]، بإطلاق الحالّ وإرادة المحلّ، وإضافته إلى الصدق من إضافة الموصوف إلى الصفة. وأصله «قدمٌ صدقٌ» أي محققة مقررة. وفيه مبالغة لجعلها عين الصدق، وتنبيه على أنهم إنما نالوا ما نالوا بصدقهم، ظاهراً وباطناً.

قال في (الانتصاف): ولم يرد في سابقة السوء تسميتها «قدماً» إما لأن المجاز لايطرد، وإما أن يكون مطرداً، ولكن غلب العرف على قصرها، كما يغلب في الحقيقة.

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ وهم المتعجبون ﴿إنَّ هَذَا﴾ أي الكتاب الحكيم ﴿لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي ظاهر. وقرئ «لَسَاحِرٌ» على أن الإشارة إلى الرسول صلوات اللّه عليه. وهو دليل عجزهم واعترافهم، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً، وذلك لأن التعجب أولاً، ثم التكلم بما هو معلوم الانتفاء قطعاً، حتى عند نفس المعارض، دأب العاجز المفحَم.

ثم بيّن تعالى بطلان تعجبهم، وما بنوا عليه، وحقق فيه حقية ما تعجبوا منه، وصحة ما أنكروه، بالتنبيه على بعض ما يدل عليها من شؤون الخلق والتقدير، ويرشدهم إلى معرفتها بأدنى تذكير، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

﴿إنَّ رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَ السَّمَوات والأرضَ في ستَّة أيَّامٍ ثُمَّ استوى على العَرْشِ﴾ قال

البخاري[١] في صحيحه في الرد على الجهمية:

قال أبو العالية: استوى إلى السماء ارتفع. وقال مجاهد: استوى على العرش علا، أي بلا تمثيل ولا تكييف، والعرش: هو الجسم المحيط بجميع الكائنات، وهو أعظم المخلوقات و«الأيام» قيل: كهذه، وقيل: كل يوم كألف سنة.

﴿**يُدَبِّرُ الأَمْرَ**﴾ أي يقضي ويقدر، على حسب مقتضى الحكمة أمر الخلق كله، و﴿**مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ**﴾ تقرير لعظمته وعز جلاله، ورد على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله. ﴿**ذَلِكُمُ اللّهُ**﴾ إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة، أي ذلك العظيم الموصوف بما وصف هو ﴿**رَبُّكُمْ**﴾ أي الذي رباكم لتعبدوه ﴿**فَاعْبُدُوهُ**﴾ أي وحّدوه بالعبادة. ﴿**أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**﴾ أي تتفكّرون أدنى تفكّر فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة. لا ما تعبدونه.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

﴿**إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا**﴾ أي الموت أو النشور. أي لا ترجعون في العافية إلا إليه، فاستعدوا للقائه ﴿**وَعْدَ اللّهِ حَقًّا**﴾ أي صدقاً، ثم علل وجوب المرجع إليه بقوله سبحانه: ﴿**إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ**﴾ أي من النطفة ﴿**ثُمَّ يُعِيدُهُ**﴾ أي بعد الموت ﴿**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ**﴾ أي بعدله أو بعدالتهم وقيامهم على العدل في أمورهم، أو بإيمانهم، لأنه العدل القويم، كما أن الشرك ظلم عظيم، وهو الأوجه لمقابلة قوله: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ**﴾ أي من ماء حارّ قد انتهى حره ﴿**وَعَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ وجيع يخلص ألمه إلى قلوبهم ﴿**بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ**﴾ تعليل لقوله. لمقابلة قوله، فإن معناه ليجزي الذي كفروا بشراب من حميم، وعذاب أليم، بسبب كفرهم، لكنه غيّر النظم للمبالغة في استحقاقهم للعقاب بجعله حقًا مقرراً لهم، كما تفيده «اللام» وللتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة. والعقاب واقع بالعرَض بكسبهم، وعلى أنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما لا تحيط

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، ٢٢- باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم.

العبارة به لفخامته وعظمته ولذلك لم يعينه.

ثم نبه تعالى، للاستدلال على وحدته في ربوبيته، بآثار صنعه في النيرين، إثر الاستدلال بما مرّ من إبداع السموات والأرض، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

﴿**هو الّذي جعَلَ الشّمْسَ ضياءً**﴾ للعالمين بالنهار ﴿**والْقمرَ نوراً**﴾ أي لهم بالليل: والضياء أقوى من النور ﴿**وقَدَّرَهُ منازِلَ**﴾ الضمير لهما، بتأويل كل واحد منهما، أو للقمر، وخص بما ذكر، لكون منازله معلومة محسوسة، وتعلق أحكام الشريعة به، وكونه عمدة في تواريخ العرب ﴿**لتعلَموا عددَ السّنين والْحساب**﴾ أي حساب الشهور والأيام، مما نيط به المصالح في المعاملات والتصرفات ﴿**ما خلَقَ اللّهُ ذلكَ إلاّ بالْحقّ**﴾ أي بالحكمة البالغة ﴿**يُفصّلُ الآيات لقوْمٍ يعْلَمُونَ**﴾ أي يبين الآيات التكوينية أو التنزيلية المنبهة على ذلك لقوم يعلمون الحكمة في إبداع الكائنات، فيستدلون بذلك على وحدة مبدعها.

قال السيوطيّ: هذه الآية أصل في علم المواقيت والحساب ومنازل القمر والتاريخ ثم نبه للاستدلال على وحدانيته سبحانه أيضاً بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

﴿**إنَّ في اخْتلاَف اللّيْلِ والنّهارِ**﴾ أي في تعاقبهما وكون كل منهما خلفة للآخر ﴿**وما خلَقَ اللّهُ في السّموات والأرضِ**﴾ أي من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب والجبال والبحار وغير ذلك ﴿**لآيات لقوْمٍ يتقُون**﴾ أي لآيات عظيمة دالة على وحدة مبدعها، وكمال قدرته، وبالغ حكمته. وخص «المتقين» لأنهم المنتفعون بنتائج التدبر فيها، فإن الداعي إلى النظر والتدبر إنما هو تقواه تعالى، والحذر من العاقبة.

تنبيه:

في هذه الآيات إشارة إلى أن الذي أوجد هذه الآيات الباهرة، وأودع فيها

المنافع الظاهرة،وأبدع في كل كائن صنعه، وأحسن كل شيء خلقه، وميز الإنسان وعلمه البيان - يكون من رحمته وحكمته اصطفاء من يشاء لرسالته، ليبلغ عنه شرائع عامة، تحدد للناس سيرهم في تقويم نفوسهم، وكبح شهواتهم، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم في الآخرة، كما أشار إلى ذلك بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي فلا يتوقعون الجزاء ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بها وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتنا غافلُونَ﴾ أي لا يتفكرون فيها ﴿أولئكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بما كانُوا يَكْسِبُونَ، إنَّ الَّذين آمنوا وعَمِلُوا الصَّالحَات يَهدِيهِم رَبُّهمْ بإِيمانِهِمْ﴾ أي بسببه، إلى مأواهم، وهي الجنة، وإنما لم تذكر تعويلاً على ظهورها، وانسياق النفس إليها، لاسيما بملاحظة ما سبق من بيان مأوى الكفرة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ في جنَّاتِ النَّعيم﴾ أي من تحت منازلهم أو بين أيديهم. ﴿دَعْوَاهُمْ فيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي دعاؤهم هذا الكلام، لأن ﴿اللهم﴾ نداء، ومعناه: اللهم إنما نسبحك، كقول القانت: اللهم إياك نعبد. يقال: دعا يدعو دعاء ودعوى، كما يقال: شكا يشكو شكاية وشكوى، ويجوز أن يراد بالدعاء العبادة، ونظيره آية ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم:٤٨]: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ﴾ أي ما يحيي به بعضهم بعضاً، أو تحية الملائكة إياهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمَلائكَةُ يَدْخُلُون عَلَيْهِم مِّنْ كُلِّ بابٍ سلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد:٥٨]، أو تحية الله عز وجل لهم كما في قوله تعالى: ﴿سلامٌ قَوْلاً مِّنْ رَّبٍ رَّحيمٍ﴾ [يس:٣٦]. و«التحية» التكرمة بالحالة الجلية أصلها: أحياك الله حياة طيبة. و«السلام» بمعنى السلامة من كل مكروه. ﴿وآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ أي وخاتمة دعائهم هو التسبيح ﴿أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالمينَ﴾ أي حمده تعالى: والمراد من الآية أن دعاء أهل الجنة وعبادتهم هو قولهم. سبحانك اللهم وبحمدك. وإيثار التعبير عن

(وبحمدك) بقوله: ﴿وَآخِرُ﴾ الخ رعاية للفواصل، واهتماماً بالحمد وما معه من النعوت الجليلة تذكيراً بمسماها، والآية تدل على سموّ هذا الذكر لأنه دعاء أهل الجنة وذكر الملائكة كما قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] ولذلك ندب قراءته بعد تكبيرة الإحرام.

قال الرازي لما استسعد أهل الجنة بذكر «سبحانك اللهم وبحمدك»، وعاينوا ما فيه من السلامة عن الآفات والمخافات، علموا أن كل هذه الأحوال السنية، والمقامات القدسية، إنما تيسرت بإحسان الحق سبحانه وإفضاله وإنعامه، فلا جرم اشتغلوا بالحمد والثناء.

ولما بيّن تعالى وعيده الشديد، أتبعه بما دل على أن من حقه أن يتأخر عن هذه الحياة الدنيوية لأن حصوله في الدنيا كالمانع من بقاء التكليف فقال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿**ولَو يُعَجِّلُ اللهُ للنَّاس**﴾ وهم الذين لا يرجون لقاءه تعالى لكفرهم ﴿**الشَّرَّ**﴾ أي الذي كانوا يستعجلون به، فإنهم كانوا يقولون: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] ونحو ذلك ﴿**اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ**﴾ أي تعجيلاً مثل استعجالهم الدعاء بالخير ﴿**لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ**﴾ أي لأميتوا وأهلكوا ﴿**فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ أي في ضلالهم وشركهم يترددون.

لطيفة:

زعم الزمخشري أن معنى استعجالهم بالخير، أي تعجيله لهم الخير وضع الأول موضع الثاني إشعاراً بسرعة إجابته لهم، وإسعافه بطلبتهم، حتى كأنّ استعجالهم بالخير تعجيلٌ لهم، وعندي أنه صرف اللفظ الكريم عن ظاهره بلا داع. ولا بلاغة فيه أيضاً، وإن توبع فيه والحرص على موافقة عامل المصدر له ليكونا من باب واحد - غير ضروريّ في العربية، والشواهد كثيرة.

وجوز الرازيّ أن يكون ﴿**يعجل**﴾ أصله يستعجل. عدل عنه تنزيهاً للجناب الأقدس عن وصف طلب العجلة، فوصف بتكوينها، ووصف الناس بطلبها، لأنه الأليق.

ولعل الأليق أن ﴿استعجالهم﴾ مصدر لفعل دل عليه ما قبله والتقدير، ولو يعجل الله للناس الشر الذي يستعجلون به استعجالهم. وإنما حذف إيجازاً، للعلم به، ويوافقه قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء:١١]. فإنه في معنى ما هنا.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا﴾ أي لكشفه وإزالته ﴿لِجَنْبِهِ﴾ حال من فاعل (دعا) واللام بمعنى (على) أي على جنبه، أي مضطجعاً ﴿أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ﴾ أي مضى على طريقته الأولى، ﴿كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ﴾ أي كشفه ﴿مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي من الإعراض عن الذكر، واتباع الشهوات. والآية سيقت احتجاجاً على المشركين، بما جبلوا عليه كغيرهم من الالتجاء إليه تعالى عند الشدائد، علماً بأنه لا يكشفها إلا هو، ليطرحوا عبادة ما لا يضر ولا ينفع، ويستيقنوا أنه الإله الأحد، الذي لايعبد سواه. وفيها نعي عليهم سوء منقلبهم، إثر كشف كرباتهم، وتحذير من مثل صنيعهم.

ثم ذكرهم تعالى بعظيم قدرته مما وصل إليهم من نبأ الأقدمين ليتقوه، بقوله سبحانه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي بالتكذيب والكفر ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي فقرر عليهم الحجة بالوجوه الكثيرة. وما كانوا ليؤمنوا بتلك البينات ولا بغيرها، فجزاهم بالإهلاك المعروف فيهم. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ .

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ الخطاب للذين

بعث إليهم النبي ﷺ أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكناها، لننظر كيف تعملون من خير أو شر، فنعاملكم حسب عملكم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

﴿وَإذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنات قالَ الَّذين لا يَرْجونَ لقاءَنَا ائْت بِقرءَانٍ غيْرِ هذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُل مَا يَكُونُ لي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلقَاءِ نَفْسي إنْ أتَّبعُ إلاَّ ما يُوحَى إليَّ إنِّي أخافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي عذابَ يَوْمٍ عظيم﴾ يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش، بأنهم إذا قرأ عليهم النبيّ ﷺ كتاب اللّه وحججه الواضحة، قالوا له: ائت بقرآن غير هذا، أي جئنا بغيره من نمط آخر أو بدله إلى وضع آخر. قال تعالى لنبيه: **﴿قُلْ مَا يَكونُ لي أنْ أُبدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسي﴾** : أي ليس ذلك إليّ، إنما أنا مبلغ عن اللّه تعالى.

قيل: إنما اكتفى بالجواب عن التبديل، للإيذان بأن استحالة ما اقترحوه أولاً، من الظهور بحيث لاحاجة إلى بيانها. وأن التصدي لذلك، مع كونه ضائعاً، ربما يعدّ من قبيل المجاراة مع السفهاء، إذ لا يصدر مثل ذلك الاقتراح عن العقلاء. ولأن ما يدل على استحالة الثاني يدل على استحالة الأول بالطريق الأولى، فهو جواب عن الأمرين بحسب المآل والحقيقة وقوله: **﴿إنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾** اي بالتبديل والنسخ من عند نفسي.

قال السيوطيّ في (الإكليل) استدل به مَنْ منع نسخ القرآن بالسنة.

قال الزمخشري: فإن قلت: فما كان غرضهم، وهم أدهى الناس وأمكرهم، في هذا الاقتراح؛ قلت :الكيد والمكر.أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ففيه أنه من عندك، وأنك قادر على مثله، فأبدل مكانه آخر، وأما اقتراح التبديل والتغيير فللطمع، ولاختبار الحال، وأنه إن وجد منه تبديل فإما أن يهلكه اللّه فينجو منه، أو لا يهلكه فيسخروا منه، ويجعلوا التبديل حجة عليه، وتصحيحاً لافترائه على اللّه – انتهى –.

ولما بيّن بطلان ما اقترحوا الإتيان به واستحالته، أشار إلى تحقيق حقية القرآن، وكونه من عنده تعالى بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

﴿قُل لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُم﴾.

قال الزمخشري: يعني أن تلاوته ليست إلا بمشيئه اللّه وإحداثه أمرًا عجيبًا خارجًا عن العادات، وهو أن يخرج رجل أميّ لم يتعلمّ ولم يستمع، ولم يشهد العلماء ساعة من عمره، ولا نشأ في بلد فيه علماء، فيقرأ عليكم كتابًا فصيحًا، يبهر كلَّ كلام فصيح، ويعلو على كل منثور ومنظوم، مشحوناً بعلوم من علوم الأصول والفروع، وأخبار مما كان ويكون ناطقًا بالغيوب التي لا يعلمها إلا اللّه، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تطلعون على أحواله، ولايخفى عليكم شيء من أسراره، وما سمعتم منه حرفًا من ذلك، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه، والصقهم به.

﴿وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أي ولا أعلمكم به على لساني **﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِن قَبْلِهِ﴾** أي من قبل نزوله، لا أتعاطى شيئًا مما يتعلق بنحوه، ولا كنت متواصفًا بعلم وبيان، فتتهموني باختراعه. **﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾** أي فتعلموا أنه ليس إلا من اللّه، لا من مثلي.

قال الزمخشري: وهذا جواب عما دسّوه تحت قولهم: **﴿ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هذَا﴾** من إضافة الافتراء إليه.

تنبيه:

رأى أبو السعود أن الأنسب ببناء الجواب فيما سلف على مجرد امتناع صدور التغيير والتبديل عنه عليه الصلاة والسلام، لكونه معصية موجبة للعذاب العظيم، واقتصار حاله عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحي، وامتناع الاستبداد بالرأي، من غير تعرض هناك ولا هاهنا، لكون القرآن في نفسه أمرًا خارجًا عن طوق البشر، ولا لكونه عليه السلام غير قادر على الإتيان بمثله، أن يستشهد ههنا على المطلوب مما يلائم ذلك من أحواله المستمرة في تلك المدة المتطاولة، من كمال نزاهته عما يوهم شائبة صدور الكذب والافتراء عنه في حق أحد كائنًا من كان. كما ينبئ عنه تعقيبه بتظليم المفتري على اللّه تعالى. والمعنى: قد لبثت فيما بين ظهرانيكم قبل الوحي، لا أتعرض لأحد قط بتحكم ولا جدال، ولا أحوم حول مقال فيه شائبة شبهة. فضلاً

عما فيه كذب أو افتراء، أفلا تعقلون أن من هذا شأنه المطّرد في هذا العهد البعيد، مستحيل أن يفتري على الله، ويتحكم على الخلق كافة، بالأوامر والنواهي الموجبة لسفك الدماء، وسلب الأموال، ونحو ذلك. وأن ما أتي به وحي مبين، تنزيل من رب العالمين – انتهى –.

وما استنسبه رحمه الله، اقتصر عليه ابن كثير، ثم استشهد بقول[1] هرقل ملك الروم لأبي سفيان، فيما سأله من صفة النبي ﷺ: قال هرقل له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان فقلت: لا! وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة، وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق، * والفضل ما شهدتِ به الأعداء*، فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يكذب على الله.

وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشيّ ملك الحبشة[2]: بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة.

وعن ابن المسيب: ثلاثًا وأربعين سنة. والصحيح المشهور الأول.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

﴿فمنْ أظلَمُ ممَّن افترَى عَلَى الله كَذباً أوْ كَذَّبَ بآياته﴾ استفهام إنكاريّ معناه الجحد. أي لا أحد أظلم ممن تقوّل على الله تعالى، وزعم أنه تعالى أرسله وأوحى إليه، أو كفر بآياته، كما فعل المشركون بتكذيبهم للقرآن، وحملهم على أنه من جهته عليه الصلاة والسلام.

﴿إنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي لاينجون من محذور، ولايظفرون بمطلوب، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ومَنْ أظْلَمُ ممَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذبًا أوْ قَالَ أُوحِيَ إليَّ ولمْ يُوحَ إلَيْه شيءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مثلَ مَا أنْزَلَ اللهُ﴾ [الأنعام:٩٣]، وترتيب عدم الفلاح على من افترى الوحي، وعدُه صادق بلا مرية، فإن مفتريه، يبوء بالخزي والنكال، ولا يشتبه أمره على أحد بحال.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في: بدء الوحي، ٦– حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/٢٠٢، والحديث رقم ١٧٤٠.

وقد ذكر أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب - وكان صديقًا له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعدُ - فقال له مسيلمة: ويحك ياعمرو! وماذا أنزل على صاحبكم - يعني رسول اللّه ﷺ - في هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة. فقال: وماهي؟ فقال: ﴿والْعَصْرِ، إنَّ الإنْسَانَ....﴾ الخ [العصر: ١-٣]، ففكر مسيلمة ساعة ثم قال: وأن قد أنزل عليّ مثله! فقال: وما هو؟ فقال: يا وبر يا وبر.. إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر نقرا! كيف ترى ياعمرو؟ فقال له عمرو: واللّه! إنك لتعلم أني أعلم أنك لكذاب!

وقال عبد اللّه بن سلام[1]: لما قدم رسول اللّه ﷺ المدينة انجفل الناس، فكنت فيمن انجفل منه، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب. قال: فكان أول ماسمعته: يقول: أيها الناس! افشوا السلام، واطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام. قال حسان:

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

﴿**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ ولايَنفَعُهُمْ**﴾ أي الأوثان التي هي جماد لا تقدر على نفع ولا ضرّ، أي ومن شأن المعبود القدرة على ذلك. ﴿**وَيَقُولونَ هؤلاءِ شُفَعَاؤُنا عندَ اللَّهِ، قُلْ أتُنَبِّئُون اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ في السَّموات ولا في الأرْضِ**﴾ أي أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده، وهو إنباء بما ليس بمعلوم اللّه، وإذا لم يكن معلوماً له - وهو العالم المحيط بجميع المعلومات - لم يكن موجوداً، فكان خبراً ليس له مخبر عنه.

فإن قلت: كيف أنبأوا اللّه بذلك؟ قلت: هو تهكم بهم، وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام، وإعلام بان الذي أنبأوا به باطل، فكأنهم يخبرونه بشيء لايتعلق علمه به، كما يخبر الرجل بما لا يعلمه.

وقوله: ﴿**في السَّموَاتِ ولاَ في الأرْضِ**﴾ تأكيد لنفيه، لأن ما لم يوجد فيهما فهو

---

(١) اخرجه الترمذي في القيامة، ٣٢- باب حدثنا محمد بن بشار.
واخرجه ابن ماجة في الإقامة، ١٧٤- باب ما جاء في قيام الليل، حديث رقم ١٣٣٤.

منتف معدوم – كذا في الكشاف – ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن الشركاء الذي يشركونهم به، أو عن إشراكهم.

ثم أشار تعالى إلى أن التوحيد والإسلام ملة قديمة كان عليها الناس أجمع، فطرة وتشريعًا، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

﴿وما كانَ النَّاسُ إلاَّ أُمَّةً وَاحِدةً﴾ أي حنفاء متفقين على ملة واحدة، وهي فطرة الإسلام والتوحيد التي فطر عليها كل أحد ﴿فَاختَلفُوا﴾ باتباع الهوى وعبادة الأصنام، فالشرك وفروعه جهلات ابتدعها الغواة صرفًا للناس عن وجهة التوحيد، ولذلك بعث الله الرسل بآياته وحججه البالغة، ﴿ليهلك من هلك عن بيّنة، ويحي من حيّ عن بيّنة﴾ [الأنفال:٤٢]، ﴿ولَولاَ كَلِمةٌ سَبَقتْ مِنْ ربِّكَ﴾ أي بتأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِي بيْنَهُمْ﴾ أي عاجلاً ﴿فِيما فيه يخْتَلِفُونَ﴾ بتمييز الحق من الباطل، بإبقاء المحق، وإهلاك المبطل.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

﴿ويَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ ربِّه﴾ أي من الآيات التي اقترحوها تعنتاً وعناداً، وكانوا لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة، التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر، بديعة غريبة في الآيات. ﴿فَقُلْ إنَّمَا الْغَيْبُ للّه﴾ أي هو المختص بعلم الغيب، المستأثر به، لا علم لي ولا لأحد به. يعني أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيّب لا يعلمه إلا هو.

﴿فَانْتَظِرُوا إنّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنْتَظرينَ﴾ أي فما يقضيه الله تعالى في عاقبة تعنتكم، فإن العاقبة للمتقين. وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أن نُّرْسِلَ بالآيات إلاّ أنْ كذَّبَ بهَا الأوّلُونَ﴾ [الإسراء:٥٩]، وقال تعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمةُ رَبّكَ لاَيُؤمنُونَ، وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيةٍ﴾ [يونس:٩٦-٩٧]، وقال تعالى:

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الأنعام:٧]، أي فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا لمقترحهم، لفرط عنادهم. ولا يخفى أن القرآن الكريم لما قام به الدليل القاهر على صدق نبوته، عليه السلام، لإعجازه، كان طلب آية أخرى سواه من مقترحهم - مما لا حاجة له في صحة نبوته، وتقرير رسالته. فمثلها يكون مفوضاً إلى مشيئته تعالى، فتردّ إلى غيبه، وسواء أنزلت أو لا، فقد ثبتت نبوته، وصحت رسالته، صلوات الله عليه.

ثم أكد تعالى ما هم عليه من العناد واللجاج مشيراً إلى أنهم لايُذعنون ولو أجيبوا لمقترحهم، بما يعهد منهم من عدولهم عنه تعالى بعد كشفهم ضرهم، إلى الإشراك بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ ﴾ أي خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم ﴿ إِذَا لَهُم مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾ أي يتبين مكرهم ويظهر كامن شركهم ، فهم في وقت الضراء في الإقبال عليه تعالى لكشفها، كالمخادع الذي يظهر خلاف ما يبطن، ثم ينجلي أمره بعد: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ أي عقوبة، أي عذابه أسرع وصولاً إليكم مما يأتي منكم في دفع الحق. وتسمية العقوبة بالمكر، لوقوعها في مقابلة مكرهم وجوداً أو ذكراً. ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا ﴾ أي الذي يحفظون أعمالكم ﴿ يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ أي مكركم، أو ما تمكرونه. وهوتحقيق للانتقام، وتنبيه على أن ما دبروا في إخفائه غير خاف على الحفظة فضلاً عن العليم الخبير.

ثم بين تعالى نوعًا من أنواع مكرهم في آية إنجائهم من لجج البحر بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ ﴾ أي السفن

﴿وَجَرَيْنَ﴾ أي السفن ﴿بِهِمْ﴾ أي بالذين فيها ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي لينة الهبوب، موافقة للمرغوب ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ لأمن الآيات ﴿جاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي ذات شدة ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِم﴾ أي أحاط بهم أسباب الهلاك. وهي شدة الموج والريح ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ أي للتخلص منها ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهو الدعاء لأنهم حينئذ لا يدعون معه غيره ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي العابدين لك شكراً.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ أي يفسدون فيها، ويسارعون إلى ما كانوا عليه من الشرك ونحوه ﴿يا أَيُّها النَّاسُ﴾ أي الناسين نعمة الخلاص بالإخلاص واستجابة الدعاء ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي وباله عليكم. ﴿مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ خبر محذوف أو هو متاع. أوخبر ثان أو هو الخبر لـ (بغيكم) و(على) متعلق به. وقرئ بالنصب مصدر لمحذوف، أي نمتعكم. أو مفعول به له. أي تبغون. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي في الدنيا وهو وعيد بجزائهم على البغي.

ثم بيّن تعالى شأن الدنيا وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع. الموعود بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ أي امتزج به لسريانه فيه، فالباء للمصاحبة، أو هي للسببية أي اختلط بسببه حتى خالط بعضه بعضاً، أي التف بعضه ببعض، والأول أظهر ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ﴾ من الزروع

والثمار والكلأ والحشيش ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي حسنها وبهجتها ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ أي بأصناف النبات ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أي متمكنون من تحصيل حبوبها وثمرها وحصدها ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا ﴿لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أي كالمحصود من أصله ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ أي لم تنبت ﴿بِالأَمْسِ﴾ أي قبيل ذلك الوقت. و(الأمس) مَثَلٌ في الوقت القريب ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أي بالأمثلة تقريبًا ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي في معانيها.

تنبيه:

قال القاشانيّ: البغي ضد العدل، فكما أن العدل فضيلة شاملة لجميع الفضائل، وهيئة وحدانية لها، فائضة من نور الوحدة على النفس، فالبغي لا يكون إلا عن غاية الانهماك في الرذائل بحيث يستلزمها جميعًا، فصاحبها في غاية البعد عن الحق، ونهاية الظلمة، كما قال: الظلم ظلمات يوم القيامة[١]. فلهذا قال: ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ لا على المظلوم، لأن المظلوم سعد به، وشقي الظالم غاية الشقاء، وهو ليس إلا متاع الحياة الدنيا. إذ جميع الإفراطات والتفريطات المقابلة للعدالة تمتعات طبيعية، ولذّات حيوانية، تنقضي بانقضاء الحياة الحسّية التي مثلها في سرعة الزوال، وقلة البقاء، هذا المثل الذي مثل به، من تزيّن الأرض بزخرفها من ماء المطر، ثم فسادها ببعض الآفات سريعًا قبل الانتفاع بنباتها، ثم تتبعها الشقاوة الأبدية والعذاب الأليم الدائم.

وفي الحديث[٢]: أسرع الخير ثوابًا صلة الرحم، وأعجل الشر عقابًا البغي واليمين الفاجرة،لأن صاحبه تتراكم عليه حقوق الناس، فلا تحتمل عقوبته المهل الطويل الذي يحتمله حق الله تعالى. انتهى.

وسمعت بعض المشايخ يقول: قلما يبلغ الظالم والفاسق أوان الشيخوخة، وذلك لمبارزتهما الله تعالى في هدم النظام المصروف عنايته تعالى إلى ضبطه، ومخالفتهما إياه في حكمته وعدله. انتهى -.

ولما ذكر تعالى الدنيا وسرعة تقضيها، رغّب في الجنة ودعا إليها، وسماها دار

---

(١) أخرجه البخاري في: المظالم والغصب، ٨- باب الظلم ظلمات يوم القيامة، حديث ١٢٠٤.
ومسلم في: البرّ والصلة والآداب، حديث رقم ٥٧.

(٢) أخرجه ابن ماجة في: الزهد، ٢٣- باب البغي، حديث رقم ٤٢١٢.

السلام، أي من الآفات والنقائص، لذكر الدنيا بما يقابله من كونها معرضاً للآفات كما مرّ، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾

﴿والله يدْعُوا إلى دارِ السَّلامِ﴾ أي يدعو الخلق بتوحيده إلى جنته ﴿ويَهْدي من يشاء إلى صراط مُستقيم﴾ أي دين قيم يرضاه، وهو الإسلام

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيادَةٌ﴾ أي للذين احسنوا النظر، فعرفوا مكر الدنيا والشهوات فاعرضوا عنها، وتوجهوا إلى الله تعالى، فعبدوه كأنهم يرونه، المثوبة الحسنى، وهي الجنة، وزيادة على المثوبة، وهي التفضل كما قال تعالى: ﴿ويَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِه﴾[النساء:١٧٣]، و[النور:٣٨]، و[فاطر:٣٠]، و[الشورى:٢٦]، وأعظم أنواعه النظر إلى وجه تعالى الكريم. ولذا تواتر تفسيرها بالرؤية عن غير واحد من الصحابة والتابعين. ورفعها ابن جرير إلى النبي صلوات الله عليه، عن أبي موسى وكعب بن عجرة، وأُبيّ. وكذ ابن أبي حاتم.

وروى الإمام أحمد[١] عن صهيب رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ....﴾ الخ. وقال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار، نادى مناد: يا أهل الجنة! إن لكم عند الله موعداً، يريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوالله! ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم. وهكذا رواه مسلم[٢].

﴿ولاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي لايغشاها غبرة سوداء من أثر حب الدنيا والشهوات ﴿ولاَ ذِلَّةٌ﴾ أي أثر هوان، وكسوف بال، من أثر الالتفات إلى ما دون الله تعالى.

---

(١) أخرجه في مسنده ٦/١٥.
(٢) أخرجه مسلم في: الإيمان، حديث رقم ٢٩٧.

قال الناصر: وفي تعقيب الزيادة بهذه الجملة مصداق لصحة تفسير الزيادة بالرؤية الكريمة فإن فيه تنبيهاً على إكرام وجوههم بالنظر إلى وجه الله تعالى، فجدير بهم أن لايرهن وجوههم قتر البعد، ولاذلة الحجاب؛ عكس المحرومين المحجوبين، فإن وجوم مرهقة بقتر الطرد وذلة البعد.

وقوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أي الذين أحسنوا ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أي الشرك والمعاصي ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي واق يقيهم العذاب ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ ﴾ أي ألبست ﴿ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا ﴾ أي أجزاء ﴿ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ لفرط سوادها وظلمتها. وذلك لارتكابهم الهيئة المظلمة من الميول الطبيعية، والأعمال الردية والقصد الإخبار بأبدع تشبيه عن سواد وجوههم. وقد ذكر هذا المعنى في غير ما آية ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

ثم بين تعالى ما ينال المشركين يوم الحشر من التوبيخ والخزي بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ يعني المشركين ومعبوداتهم للمقاولة بينهم ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ أي معبوديهم بالله مع توقعهم الشفاعة منهم ﴿ مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ أي الزموا مكانكم، لاتبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم.

قال القاشاني: معناه قفوا مع ما وقفوا معه في الموقف من قطع الوصل والأسباب التي هي سبب محبتهم وعبادتهم، وتبرؤ المعبود من العابد لانقطاع الأغراض الطبيعية التي توجب تلك الوُصَل.

ومعنى قوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي مع كونهم في الموقف معًا، فرقنا بينهم، وقطعنا الوُصَل التي بينهم، فلا يبقى من العابدين توقع شفاعة، ولا من المعبودين إفادتها، لو أمكنتهم ﴿وقالَ شُرَكاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إيَّانَا تَعْبُدُون﴾ إذ لم تكن عبادتكم عن أمرنا بل عن أمر الشيطان فكنتم عابديه بالحقيقة، بطاعتكم إياه، وعابدي ما اخترعتموه في أوهامكم من أباطيل فاسدة، وأمانيّ كاذبة.

قيل: القول مجاز عن تبرئهم من عبادتهم، وأنهم عبدوا أهواءهم وشياطينهم، لأنها الآمرة لهم دونهم، لأن الأوثان جمادات وهي لا تنطق. وقيل: ينطقها ﴿اللَّهُ الَّذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]. فتشافههم بذلك، مكان الشفاعة التي كانوا يتوقعونها.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ۝٢٩﴾

﴿فَكَفَى باللهِ شَهيداً بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ إنْ كُنَّا عنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ أي لنا ﴿لَغَافِلِينَ﴾ أي الله يعلم أنا ما أمرناكم بذلك وما أردنا عبادتكم إيانا.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٣٠﴾

﴿هُنَالِكَ﴾ أي في ذلك المقام المدهش، حين قطع المواصلة، وإنكار الشركاء العبادة ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أي تختبر وتذوق كل نفس ما أسلفت من العمل، فتعاينْ أثره من قبح وحسن، وردّ وقبول، كما يختبرالرجل الشيء ويتعرفه، ليكتنه حاله. وهذا كقوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]. وقوله: ﴿يَوْمَ تُبلَى السَّرائرُ﴾ [الطارق: ٩].

﴿وَرُدُّوا إلى اللهِ مولاهُمُ الحقِّ﴾ الضمير للذين أشركوا، أي ردوا إلى الله المتولي جزاءهم بالعدل والقسط ﴿وَضَلَّ عَنهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي ضاع عنهم ما افتروه من اختراعاتهم، وأصول دينهم ومذهبهم، وتوهماتهم الكاذبة، وأمانيّهم الباطلة. أي ظهر ضياعه وضلاله ولم يبق له أثر فيهم.

وفي هذه الآية تبكيت شديد للمشركين الذي عبدوا ما لا يسمع ولا يبصر،

ولا يغني عنهم شيئًا، و لم يأمرهم بذلك، ولا رضي به ولا أراده، بل تبرأ منهم، أحوج ما يكونون إلى المعونة. والمشركون أنواع وأقسام، وقد ذكرهم تعالى في كتابه، وبين أحوالهم، ورد عليهم أتم رد.

ثم احتج على المشركين على وحدانيته باعترافهم بربوبيته وحده بقوله سبحانه وتعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾

﴿**قُلْ من يَرْزُقُكُم مِّن السَّمَاء والأَرْضِ**﴾ بالإمطار والإنبات وهل يمكن إلا ممن له التصرف العام فيها ﴿**أم مَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ**﴾ أي من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سويا عليه من الفطرة العجيبة، كقوله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ الَّذي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ**﴾ [الملك:٢٣].

﴿**ومَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّت**﴾ يعني النسمة من النطفة، أو الطير من البيضة، أو السنبلة من الحب، ﴿**وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ**﴾ كأن يخرج النطفة من الإنسان والبيضة من الطائر. وقيل: المراد أن يخرج المؤمن من الكافر أو الكافر من المؤمن. ﴿**وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ**﴾ أي ومن يلي تدبير أمر العالم كله، بيده ملكوت كل شيء، تعميم بعد تخصيص ﴿**فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ**﴾ إذ لا مجال للمكابرة لغاية وضوحه ﴿**فَقُلْ أَفلاَ تَتَّقُونَ**﴾ أي أفلا تخافون بعد اعترافكم، من غضبه لعبادة غيره اتباعًا للهوى.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾

﴿**فَذَلِكُمُ**﴾ إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله ﴿**اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ**﴾ الثابت وحدانيته ثباتاً لا ريب فيه، لمن حقق النظر ﴿**فَماذا بَعْدَ الْحَقِّ إلاَّ الضَّلالُ**﴾ يعني أن الحق والضلال لا واسطة بينهما، فمن تخطى الحق وقع في الضلال. أي فما بعد حقّية ربوبيته إلا بطلان ربوبية ما سواه، وعبادة غيره، انفرادًا أو شركة ﴿**فَأَنَّى تُصْرَفُونَ**﴾

أي عن الحق الذي هو التوحيد، إلى الضلال الذي هو الشرك، وأنتم تعترفون بأنه الخالق كل شيء.

القول في تأويل قوله تعالى:

كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِين فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ثبت حكمه وقضاؤه على الذي تمردوا في كفرهم؛ وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه. وقوله ﴿أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ بدل من الكلمة، أي حق عليهم انتفاء الإيمان. وعلم الله منهم ذلك. أو أراد بالكلمة العدة بالعذاب، ﴿أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ تعليل بمعنى (لأنَّهُم لايُؤْمِنُونَ) أفاده الزمخشري - أي كقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَاب عَلى الكَافِرين﴾ [الزمر:٧١]، وقوله تعالى: ﴿افَمَنْ حقّتْ عَلَيْه كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَانْتَ تُنْقِذُ مَنْ في النّارِ﴾ [الزمر:١٩]، قيل: ﴿الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ مظهر وضع موضع ضمير المخاطبين للإشعار بالعلية، و(الفسق) هنا التمرد في الكفر، فآل الكلام إلى أن كلمة العذاب حقت عليهم، لتمردهم في كفرهم، ولأنهم لايؤمنون، وهو تكرار. وأجيب بأنه تصريح بما علم ضمنًا من ﴿الَّذِينَ فَسَقُوا﴾، أو دلالة على شرف الإيمان بأن عذاب المتمردين في الكفر بسبب انتفاء الإيمان.

ثم احتجّ أيضًا على حقّية التوحيد وبطلان الشرك بما هو من خصائصه تعالى، من بدء الخلق وإعادته، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي من يبدؤه من النطفة. ويجعل فيه الروح ليتعرف إليه، ويستعمله أعمالاً، ثم يحييه يوم القيامة، ليجزيه بما أسلف في أيامه الخالية. وإنما نظمت الإعادة في سلك الاحتجاج، مع عدم اعترافهم بها، إيذانا بظهور برهانها، للأدلة القائمة عليها سمعًا وعقلاً، وإن إنكارها مكابرة وعنادًا لا يلتفت إليه، وإشعاراً بتلازم البدء والإعادة وجوداً وعدماً، يستلزم الاعترافُ به الاعترافَ بها. ثم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يبين لهم من يفعل ذلك، فقيل له: ﴿قُلِ اللَّه يَبدَأُ الْخَلْق ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكون﴾ أي فكيف تصرفون إلى عبادة الغير، مع

عجزه عمّا ذكر. ثم احتج عليهم أيضًا، إفحامًا إثر إفحام، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾

﴿ **قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدي إِلَى الْحَقِّ** ﴾ أي بوجه من الوجوه، كبعثة الرسل، وإيتاء العقل. وتمكين النظر في آيات الكون، والتوفيق للتدبر. ﴿ **قُلِ اللَّهُ يَهْدي للْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدي إِلى الحق** ﴾ وهوتبارك وتعالى - ﴿ **أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ** ﴾ أي يعبد ويطاع ﴿ **أَمَّن لاَّ يَهِدِّي** ﴾ أي إلا أن يهديه الله تعالى - نزل منزلة من يعقل لإفحامهم - وقيل معناه: أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه إلا أن ينقل. أو لا يهتدي ولايصح منه الاهتداء، إلا أن ينقله اللّهُ من حاله إلى أن يجعله حيوانًا مكلفًا، فيهديه. وقد قرئ ﴿ **أَمَّنْ لا يَهَدِّي** ﴾ بفتح الياء والهاء وتشديد الدال، أصله يهتدي، أدغمت التاء في الدال ونقلت فتحة التاء المدغمة إلى الهاء؛ وقرئ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال، لأنه لما نقلت الحركة التقى ساكنان، فكسر أولهما للتخلص من التقائهما، وقرئ بسكون الهاء وبتخفيف الدال، على معنى (يهتدي) والعرب تقول:يهدي بمعنى يهتدي. يقال: هديته فهدى أي اهتدى.

وقوله تعالى: ﴿ **فَمَا لَكُمْ** ﴾ مبتدأ وخبر، والاستفهام للإنكار والتعجب. أي: أيّ شيء لكم في اتخاذ هؤلاء العاجزين عن هداية أنفسهم، فضلاً عن هداية غيرهم، شركاء وقوله: ﴿ **كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴾ مستأنف أي كيف تحكمون بالباطل، حيث تزعمون أنهم أنداد الله؟!.

القول في تأويل قول تعالى:

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ **وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ** ﴾ أي في اعتقادهم الوهية الأصنام ﴿ **إِلاَّ ظَنّاً** ﴾ اعتقاداً غير مستند لبرهان، بل لخيالات فارغة، وأقيسة فاسدة. والمراد (بالأكثر): الجميع. ﴿ **إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْني منَ الْحَقِّ** ﴾ أي من العلم والاعتقاد الحق ﴿ **شَيْئًا** ﴾ أي من الإغناء فـ(شيئًا) في موضع المصدر، أي غناءً ما. أو مفعول لـ (يغني). و﴿ **مِنَ الحَقِّ** ﴾ حال منه. ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعلُونَ** ﴾ وعيد على اتباعهم الظن، وإعراضهم عن البرهان.

تنبيه:

قال الرازي في هذه الآية:

اعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولاً، ثم بالهداية ثانيًا، عادة مطردة في القرآن. فحكى تعالى عن الخليل عليه السلام أنه ذكر ذلك فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٧٨]، وعن موسى عليه السلام مثله فقال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:٥٠]، وأمر محمداً ﷺ بذلك فقال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى،الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى، والَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى:١-٣]، وهو في الحقيقة دليل شريف، لأن الإنسان له جسد وروح، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هوالخلق، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية فههنا أيضاً، لما ذكر دليل الخلق في الآية الأولى وهوقوله: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [النمل:٦٤]، اتبعه بدليل الهداية في هذه الآية. والمقصود من خلق الجسد حصول الهداية للروح، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، وهذا كان كالتصريح بأنه تعالى إنما خلق الجسد، وإنما أعطى الحواس، لتكون آلة في اكتساب المعارف والعلوم. وأيضاً، فالأحوال الجسدية خسيسة يرجع حاصلها إلى الالتذاذ بذوق شيء من الطعوم، أو لمس شيء من الكيفيات الملموسة. أما الأحوال الروحانية ، والمعارف الإلهية. فإنها كمالات باقية أبد الآباد، مصونة عن الكون والفساد. فعلمنا أن الخلق تبع للهداية، والمقصود الأشرف الأعلى حصول الهداية. ولاضطراب العقول وتشعب الأفكار كانت الهداية وإدراك الحق بإعانته تعالى وحده. والهداية إما أن تكون عبارة عن الدعوة إلى الحق، أو عن تحصيل معرفتها. وعلى كلٍ فقد بينا أنها أشرف المراتب، وأعلى السعادات، وأنها ليست إلا منه تعالى وأما الأصنام فإنها جمادات لا تأثير لها في الدعوة إلى الحق، ولا في الإرشاد إلى الصدق، فثبت أنه تعالى هو الموصل إلى جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، والمرشد إلى كل الكمالات في النفس والجسد، وأن الأصنام لا تأثير لها في شيء من ذلك، وإذا كان كذلك، كانت عبادتها جهلاً محضاً، وسفهًا صرفًا. فهذا حاصل الكلام في هذا الاستدلال.

ثم بين تعالى حقيّة هذا الوحي المنزل ، رجوعًا إلى ما افتتحت به السورة من صدق نبوة المنزَل عليه، ودلائلها في آيات اللّه الكونية، والمنبئة عن عظيم قدرته، وجليل عنايته بهداية بريته، فقال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾

﴿ **وَمَا كَانَ هذَا القُرْءانُ أَنْ يُفْتَرىَ منْ دُونِ اللّه** ﴾ لامتناع ذلك؛ إذ ليس لمن دونه تعالى كمال قدرته التي بها عموم الإعجاز ﴿ **وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْه** ﴾ أي مصدقًا للتوراة والإنجيل والزبور بالتوحيد، وصفة النبي ﷺ و(تصديق) منصوب على أنه خبر (كان) أو علة لمحذوف، أي أنزله تصديقَ الخ. وقرئ بالرفع خبراً لمحذوف، أي: هو تصديق الذي بين يديه. أي وبذلك يتعين كونه من اللّه تعالى، لأنه لم يقرأها، ولم يجالس أهلها، ﴿ **وَتَفْصِيلَ الْكتَاب** ﴾ أي وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع، من قوله: ﴿ كتَابَ اللّه عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٤]، كما قال عليّ رضي اللّه عنه[١]: فيه خبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وفصل ما بينكم. ﴿ **لاَ رَيْبَ فيه منْ رَبِّ الْعَالَمينَ** ﴾ أي منتفيًا عنه الريب، كائنًا من رب العالمين، أخبار أخر لما قبلها.

قال أبو مسعود: ومساق الآية، بعد المنع عن اتباع الظن، لبيان ما يجب اتباعه.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾

﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ** ﴾ أي بل أيقولون. فـ(أم) منقطعة مقدرة بـ (بل والهمزة) عند الجمهور، والهمزة للإنكار أي ما كان ينبغي ذلك. وقيل: متصلة، ومعادلها، مقدر. أي أيقرون به بعدما بيّنا من حقيقته أم يقولون افتراء. ﴿ **قُلْ فَأْتُوا بِسُورةٍ مِّثْله** ﴾ أي إن كان الأمر كما تزعمون، فأتوا، على وجه الافتراء، بسورة مثله في البلاغة، وحسن الصياغة، وقوة المعنى، فأنتم مثل في العربية والفصاحة، وأشد تمرناً في النظم ﴿ **وَادْعُوا مِّنِ اسْتَطَعْتُم مِّنْ دُونِ اللّه إنْ كُنْتمْ صادقينَ** ﴾ أي ادعوا من دونه تعالى، ما استطعتم من خلقه، للاستعانة به على الإتيان بمثله – إن صدقتم في أني اختلقته – فإنه لا يقدر عليه أحد.

---

(١) أخرجه الترمذيّ في: ثواب القرآن، ١٤ – باب ما جاء في فضل القرآن.

قال أبو السعود: وإخراجه سبحانه من حكم الدعاء، للتنصيص على براءتهم منه تعالى، وكونهم في عدوة المضادة والمشاقّة، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ماكُلِّفوه، فإن ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ إضراب وانتقال عن إظهار بطلان ما قالوا في حق القرآن العظيم بالتحدي، إلى إظهاره ببيان أنه كلام ناشئ عن جهلهم بشأنه الجليل. أي سارعوا إلى التكذيب به، وفاجؤوه في بديهة السماع، وقبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه، ويقفوا على تأويله ومعانيه وما في تضاعيفه من الشواهد الدالة على كونه ليس مما يمكن أن يقدر عليه مخلوق، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم، كالناشئ على التقليد من الحشوية، إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه، وإن كانت أضوأ من الشمس في ظهور الصحة، وبيان الاستقامة، أنكرها في أول وهلة، واشمأز منها، قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه، وفساد ما عداه من المذاهب. وسر التعبير ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ الإيذان بكمال جهلهم به، وأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم علمهم به - كذا في الكشاف وأبي السعود -

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي بيان ما يؤول إليه، مما توعدهم فيه. وهذا المعنى هو الصحيح في الآية. وقد مشى عليه غير واحد.

قال في (تنوير الاقتباس): أي عاقبة ما وعدهم في القرآن.

وقال الجلال: أي عاقبة ما فيه من الوعيد.

وقال القاشانيّ: تأويله: أي ظهور ما أشار إليه في مواعيده، وأمثاله مما يؤول أمره وعلمه إليه، فلا يمكنهم التكذيب، لأنه إذا ظهرت حقائقه لا يمكن لأحد تكذيبه.

﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ اي بآيات الرسل، قبل التدبر في معانيها، ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ اي من هلاكهم بسبب تكذيبهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ اي يصدق به في نفسه، ولكن يكابر بالتكذيب ﴿ وَمِنْهُم مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾.

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ اي إن أصروا على تكذيبك، فتبرأ منهم، فقد أعذرت.

ثم اشار إلى انهم ممن طبع على قلوبهم بقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي إذا قرأت القرآن ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ ابرزهم في عدم انتفاعهم بسماعهم، لكونهم لا يعون ولا يقبلون، بصورة الصم المعتوهين: اي اتطمع أنك تقدر على إسماع الصم، ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم؟ لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع في صماخه دويّ الصوت، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل فقد تم الأمر.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ كذلك ابرزهم، لدعم انتفاعهم بمشاهدة أدلة الصدق وأعلام النبوة، بصورة العمي المضموم إلى عماهم فقد البصيرة. اي أتحب هداية من كان كذلك؟ لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنن، أما مع الحمق فجهد البلاء. يعني أنهم في اليأس من أين يقبلوا ويصدقوا، كالصم والعمي الذين لا بصائر لهم ولا عقول - كذا في الكشاف -

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ﴾ بتعذيبهم من غير أن تقوم الحجة عليهم، بإرسال

الرسل، وإنزال الكتب، ومن غير أن يكونوا سليمي الحواس والمدارك، فإنه لعدله لايفعل ذلك. ﴿ وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر والتكذيب وعدم استعمال حاساتهم ومداركهم فيما خلقت له.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَم يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ﴾ أي شيئًا قليلاً ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يعرف بعضهم بعضًا، كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذين كَذَّبوا بلقاءِ اللَّهِ ﴾ أي بالبعث بعد الموت ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ أي من الكفر والضلالة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذي نَعِدُهُمْ ﴾ أي من العذاب ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ أي قبل ذلك ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أي فننجزهم ما وعدناهم كيفما دار الحال ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴾ أي من مساوئ الأفعال.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ﴾ أي منهم، أرسل لهدايتهم، وتزكيتهم بما يصلحهم ﴿ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ ﴾ أي فبلّغهم ما أرسل به فكذبوه ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالْقِسط ﴾ أي بالعدل فأنجي الرسول واتباعه، وعذب مكذبوه ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ أي في ذلك القضاء المستوجب لتعذيبهم، لأنه من نتائج أعمالهم.

وقال القاشانيّ في قوله تعالى ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُم ﴾: أي بهداية من اهتدى منهم، وضلالة من ضل وسعادة من سعد، وشقاوة من شقي، لظهور ذلك بوجوده، وطاعة بعضهم إياه لقربه منه، وإنكار بعضهم له لبعده عنه. أو قضى بينهم بإنجاء من اهتدى به وإثابته، وإهلاك من ضل وتعذيبه، لظهور أسباب ذلك بوجوده – انتهى –

فالآية على هذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥]، وجوز أن يكون المعنى لكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب

إليه، وتدعى به، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان، قضى بينهم بإنجاء المؤمنين، وعقاب الكافرين. كقوله تعالى: ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهداء وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ [الزمر:٦٩].

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

﴿ ويَقُولُون مَتى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ استبعاداً له، واستهزاء به **﴿ إنْ كُنتُمْ صادِقِينَ ﴾ أي في** أنه يأتينا. ولما فيه من الإشعار بكون إتيانه بواسطة النبيّ صلوات اللّه عليه، قيل: **﴿ قُلْ لا أمْلِكُ لِنفسي ضراً ولا نَفْعًا ﴾** أي مع أن ذلك أقرب حصولاً، فكيف أملك لكم حتى أستعجل في جلب العذاب لكم، وتقديم الضر، لما أن مساق النظم لإظهار العجز عنه. وأما ذكر النفع فلتوسيع الدائرة تعميما. والمعنى لا أملك شيئًا ما.

﴿ إلاّ مَا شاءَ اللّهُ ﴾ أي أن أملكه، أو لكن ماشاء اللّه كائن فالاستثناء متصل أو منقطع. وصوب أبو السعود الثاني، بأن الأول يأباه مقام التبرؤ من أن يكون، عليه الصلاة والسلام، له دخل في إتيان الوعد. وبَسَطَ تقريره.

وأفاد بعض المحققين أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن الكريم للدلالة على الثبوت والاستمرار، كما في هذه الآية، وقوله: ﴿ خَالِدينَ فيها مَادَامَت السموات والأرْضُ إلاّ ماشَاءَ رَبُّكَ ﴾ [هود:١٠٧]، قال: والنكتة في الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة اللّه تعالى، لا بطبيعتها في نفسها، ولو شاء تعالى أن يغيرها لفعل. وهو نفيس جداً فليحرص على حفظه.

وقوله تعالى: **﴿ لِكُلِّ أمَّةٍ أجَلٌ ﴾** أي لكل واحد من آحاد كل أمة أجل معين **﴿ إذَا جاءَ أجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتأخِرُونَ ساعَةً ولا يسْتَقْدِمُون ﴾** قال القاشانيّ: درّجهم إلى شهود الأفعال بسلب الملك والتأثير عن نفسه، ووجوب وقوع ذلك بمشيئة اللّه، ليعرفوا آثار القيامة. ثم لوح إلى أن القيامة الصغرى هي بانقضاء آجالهم المقدرة عند اللّه بقوله: ﴿ لِكُلِّ أمّةٍ أجلٌ... ﴾ الآية.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ﴾ أي الذي تستعجلون به ﴿بَيَاتاً﴾ أي ليلاً ﴿أَوْ نَهَاراً ماذا يستعجل منه الْمُجْرِمُونَ﴾ أي ولاشيء منه بمرغوب البتة.

لطائف:

الأولى - (أرأيت) يستعمل بمعنى الاستفهام عن الرؤية البصرية أو العلمية، وهو أصل. وضعه ثم استعملوه بمعنى (أخبرني) والرؤية فيه يجوز أن تكون بصرية وعلمية فالتقدير: أأبصرت حالته العجيبة، أو أعرفتها؟ فأخبرني عنها. ولذا لم يستعمل في غير الأمر العجيب. ولما كانت رؤية الشيء سبباً لمعرفته، ومعرفته سبباً للإخبار عنه، أطلق السبب القريب أو البعيد، وأريد مسببه، وهل هو بطريق التجوز كما ذهب إليه كثير، أو التضمين كما ذهب إليه أبو حيان - كذا في (العناية)

الثانية - سر إيثار (بياتًا) على (ليلاً) مع ظهور التقابل فيه، الإشعار بالنوم والغفلة، وكونه الوقت الذي يبيت فيه العدوّ، ويتوقع فيه، ويغتم فرصة غفلته، وليس في مفهوم الليل هذا المعنى، ولم يشتهر شهرة النهار بالاشتغال بالمصالح والمعاش، حتى يحسن الاكتفاء بدلالة الالتزام كما في النهار، أو النهاركله محل الغفلة، لأنه إما زمان اشتغال بمعاش أو غذاء، أو زمان قيلولة. كما في قوله: ﴿بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ﴾ [الأعراف:٤] بخلاف الليل، فإن محل الغفلة فيه ما قارب وسطه وهو وقت البيات، لذا خص بالذكر دون النهار. و(البيات) بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم، ولا بمعنى البيتوتة.

الثالثة - قيل: إن استعجالهم العذاب، كان المقصود منه الاستبعاد والاستهزاء، دون ظاهره، فورود (ما) هنا في الجواب على الأسلوب الحكيم. لأنهم ما أرادوا بالسؤال إلا الاستبعاد أن الموعود منه تعالى، وأنه افتراء، فطلبوا منه تعيين وقته تهكماً وسخرية، فقال في جوابهم هذا التهكم لا يتم إذا كنت مقراً بأني مثلكم، وأني لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً فكيف أدعي ما ليس لي به حق؟ ثم شرع في الجواب الصحيح، ولم يلتفت إلى تهكمهم واستبعادهم - أفاده الطيبي -

الرابعة - سر إيثار ﴿مَاذا يَستعجِل مِنهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ على (مَاذا يَسْتَعْجِلُونَ مِنْهُ) هو الدلالة على موجب ترك الاستعجال، وهوالإجرام، لأن من حق المجرم أن يخاف

التعذيب على إجرامه، ويهلك فزعًا من مجيئه، وإن أبطأ، فضلاً عن أن يستعجله - كذا في (الكشاف) -.

قال في (الانتصاف): وفي هذا النوع البليغ نكتتان:

إحداهما: وضع الظاهر مكان المضمر.

والأخرى: ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر.

وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة والمبالغة - والله أعلم.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾

﴿أثمَّ إذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ إنكار لإيمانهم بنزول العذاب بعد وقوعه حقيقة، داخل مع ما قبله من إنكار استعجالهم به بعد إتيانه حكمًا، تحت القول المأمور به. اي: أبعد ما وقع العذاب وحلّ بكم حقيقة، آمنتم به حين لا ينفعكم الإيمان؟ إنكاراً لتأخيره إلى هذا الحد، وإيذانًا باستتباعه للندم والحسرة، ليقلعوا عما هم عليه من العناد، ويتوجهوا نحو التدارك قبل فوت الفوات - أفاده أبو السعود.

وقوله تعالى: ﴿آلآنَ وَقَدْ كُنتُمْ به تَسْتَعْجِلُون﴾ على إرادة القول. اي: قيل لهم إذا آمنوا بعد معاينة العذاب (آ لآنَ آمَنْتُمْ بِه)؟ وذلك إنكارًا للتأخير، وتوبيخًا عليه. وسر وضع ﴿تستعجلون﴾ موضع (تكذبون) الذي يقتضيه الظاهر، الإشارة إلى أن المراد به الاستعجال السابق، وهوالتكذيب والاستهزاء، استحضاراً لمقالتهم فهو أبلغ من (تكذبون).

وقيل: الاستعجال كناية عن التكذيب، وفائدة هذه الحال استحضارها. وهذا ما ذكروه، ولا مانع من بقاء الاستعجال على حقيقته، يدل عليه آية: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذَا هُو الْحَقَّ منْ عنْدكَ فَأَمْطرْ عَلَيْنَا حجَارةً...﴾ [الأنفال:٣٢] الخ، فهم مع تهكمهم رضوا بأن يعاينوا آية يعذبون بها، لما في قلوبهم من مرض العناد العضال، والجهل المصم المعمي، ولذلك أجيبوا بأن العذاب هل فيه ما يستعجل منه. أي فمثل هذا الاستعجال لا يصدر ممن له مسكة من عقل، إذ لا يستعجل إلا ما يرجى خيره، ثم أعلمهم بعدم فائدة إيمانهم وقتئذ، وما يوبخون به إنكاراً للتأخير - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلذينَ ظَلَموا﴾ اي أشركوا ﴿ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ في الآخرة ﴿إلاّ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ اي تقولون وتعملونَ في الدنيا.

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ اي يستخبرونك ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ اي الوعد بعذاب الخلد،أو ادعاء النبوة أو القرآن ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ اي بفائتين العذاب. فهو. لاحق بكم لا محال من (أعجزه) الشيء إذا فاته. يصح كونه (أعجزه) بمعنى وجده عاجزاً. اي: ما أنتم بواجدي العذاب أو من يوقعه بكم عاجزاً عن إدراككم، وإيقاعه بكم.

لطائف:

الأولى: دل سؤالهم هذا على محض جهلهم أو عنادهم، لما ثبت من البرهان القاطع على نبوته بمعجز القرآن، وإذا صحت النبوة لزم القطع بصحة كل ما ينبئهم عنه، مما يصدعهم به.

الثانية – إنما أمر بالقسم لاستمالتهم وللجري على ما هو المألوف في المحاورة، من تحقيق المدعي، فإن من اقسم على خير، فقد كساه حلة الجد، وخلع عنه لباس الهزل: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٣ – ١٤].

الثالثة ـ لما كانت الناس طبقات، كان منهم من لا يسلم إلا ببرهان حقيقيّ، ومنهم من لا ينتفع به، ويسلم إلا بالامور الإقناعية، نحو القسم، كالأعرابيّ[1] الذي قدم على النبيّ ﷺ وساله عن رسالته وبعثه، وأنشده بالذي بعثه، ثم اقتنع بقوله صلوات الله عليه: «اللّهم نعم، فقال: آمنت بما جئت به وأنا رسول مَن ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة» – رواه البخاري في أوائل كتاب العلم –.

الرابعة – قال ابن كثير: هذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) أخرجه البخاريّ في: العلم، ٦ – باب ما جاء في العلم وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾، حديث رقم ٥٥.

لا تَأتينا السَّاعةُ قُلْ بَلَى وربِّي لَتأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:٣]، وفي التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وربِّي لَتُبْعَثُنَّ ثمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلكَ عَلى اللهِ يَسيرٌ﴾ [التغابن:٧] - انتهى - .

وقد استمد ابن كثير هذا مما ذكره شيخه الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) قال: وحلف ﷺ في أكثر من ثمانين موضعًا، وأمره الله سبحانه بالحلف في ثلاثة مواضع، ثم ذكر هذه الآيات، ثم قال: وكان إسماعيل بن إسحاق القاضي يذاكر أبا بكر بن داود الظاهريّ ولا يسميه بالفقيه - فتحاكم إليه يومًا هو وخصم له فتوجهت اليمين على أبي بكر بن داود، فتهيأ للحلف فقال له القاضي إسماعيل: وتحلف ومثلك يحلف يا أبا بكر؟ فقال: وما يمنعني عن الحلف، وقد أمر الله تعالى نبيه بالحلف في ثلاثة مواضع من كتابه؟ قال: أين ذلك؟فسردها أبو بكر، فاستحسن ذلك منه جداً، ودعاه بالفقيه من ذلك اليوم. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

﴿وَلَوْ أنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمتْ﴾ أي بالشرك بالله، أو التعدي على الغير، أو مطلقًا ﴿مَا في الأرْضِ﴾ أي من الأموال ﴿لافْتَدَتْ بهِ﴾ أي لجعلته فدية لها من العذاب ﴿وأَسَرُّوا النَّدامَةَ﴾ أي أخفوها أسفًا على ما فعلوا من الظلم. وضمير ﴿أسرُّوا﴾ للنفوس، المدلول عليها بـ(كل نفس). والعدول إلى صيغة الجمع، لتهويل الخطب، بكون الخطب بطريق الاجتماع ﴿لمَّا رأَوُا الْعَذابَ﴾ أي عاينوه ﴿وقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالْقِسْطِ وَهمْ لا يُظْلَمونَ﴾ أي فيما فعل بهم من العذاب، لأنه جزاء ظلمهم، وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

﴿ألاَ إنَّ للهِ ما في السَّموات والأرْضِ ألاَ إنَّ وعْدَ اللهِ حقٌّ ولكنَّ أكثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ، هُو يُحْيي ويُميتُ وإليهِ تُرْجَعُونَ﴾ إعلام بأن له الملك كله، وأنه المثيب المعاقب، وما

وعده من الثواب والعقاب فهو حق، وهو القادر على الإحياء والإماتة، لا يقدر عليهما غيره، وإلى حسابه وجزائه المرجع، ليعلم أن الأمر كذلك، فيخاف ويرجى، ولا يغتر به المغترون - كذا في الكشاف.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ**﴾ أي تزكية نفوسكم بالوعد والوعيد، والإنذار والبشارة، والزجر عن الذنوب المورطة في العقاب، والتحريض على الأعمال الموجبة للثواب، لتعملوا على الخوف والرجاء ﴿**وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ**﴾ أي القلوب من أمراضها، كالشك والنفاق، والغل والغش، وأمثال ذلك، بتعليم الحقائق، والحكم الموجبة لليقين، وتصفيتها بقبول المعارف، والتنوّر بنور التوحيد ﴿**وهُدىً**﴾ أي لنفوسكم من الضلالة ﴿**ورَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ أي لمن آمن به بالنجاة من العذاب والارتقاء إلى درجات النعيم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ**﴾ يعني القرآن الذي أكرموا به ﴿**وبِرَحْمَتِهِ**﴾ يعني الإسلام ﴿**فَبِذَلِكَ**﴾ أي فبمجيئهما ﴿ **فَلْيَفْرَحُوا**﴾ أي لا بالأمور الفانية القليلة المقدار، الدنيئة القدر والوقع، ﴿**هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يجمعون**﴾ أي من الأموال وأسباب الشهوات، إذ لا ينتفع بجميعها ولا يدوم، ويفوت به اللذات الباقية، بحيث يحال بينهم وبين ما يشتهون.

والفاء داخلة في جواب شرط مقدر، كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فبهما فليفرحوا. أو هي رابطة لما بعدها بما قبلها، لدلالتها على تسبب ما بعدها عما قبلها. والفاء الثانية زائدة لتأكيد الأولى، أو الزائدة الأولى، لأن جواب الشرط في الحقيقة ﴿**فليفرحوا**﴾ و(بذلك) مقدم من تأخير، وزيدت فيه الفاء للتحسين. وكذلك جوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿**بفضل الله وبرحمته**﴾.

ثم بين تعالى أن من فضله على الناس تبيين الحرام من الحلال على السنة

الرسل، لئلا يفتروا عليه الكذب بتحريم ما أحل أو عكسه كما فعل المشركون، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ**﴾ أي ما خلق لكم من حرث وأنعام ﴿**فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً**﴾ أي أنزله تعالى رزقًا حلالاً كله، فبغضتموه، وقلتم: هذا حلال وهذا حرام، كقولهم: ﴿هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام:١٣٨]، ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام:١٣٩]، ﴿**قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ**﴾ في الحكم بالتحريم والتحليل، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه ﴿**أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ**﴾ أي تختلقون الكذب، ثم بين وعيد هذا الافتراء بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿**وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ أي فيما فعل بهم، وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة، وهو وعيد عظيم، حيث أبهم أمره ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ**﴾ في إنزال الوحي وتعليم الحلال والحرام ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ**﴾ أي هذه النعمة، فيستعملون ما وهب إليهم من الاستعداد والعلوم في مطالب النفس الخسيسة ولا يتبعون ما هدوا إليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ**﴾ أي أمر ما ﴿**وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ**﴾ أي التنزيل ﴿**مِنْ قُرْآنٍ**﴾ أي سورة أو آية ﴿**وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ**﴾ أي تخوضون

وتندفعون فيه ﴿وما يَعْزُبُ﴾ أي يغيب ﴿عن رَبِّكَ من مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي نملة أو هباء ﴿في الأرْضِ ولا في السَّماءِ﴾ أي في دائرة الوجود والإمكان.

وقوله تعالى: ﴿ولا أصغَرَ منْ ذَلكَ ولا أكْبَرَ إلاَّ في كتابٍ مُّبينٍ﴾ كلام برأسه، مقرر لما قبله، أي مكتوب مبين، لا التباس فيه، والمراد بالآية البرهان على إحاطة علمه تعالى بحال أهل الأرض، بأن من لايغيب عن علمه شيء كيف لا يعرف حال أهل الأرض، وما هم عليه مع نبيه ﷺ. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

﴿ألاَ إنَّ أوْلِيَاءَ اللهِ﴾ جمع وليّ. وهو في الأصل ضد العدوّ، بمعنى المحب وجاز كونه هنا بمعنى الفاعل، أي الذين يتولونه بالطاعة، كقوله تعالى: ﴿وَمنْ يَتَولَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ والَّذينَ آمَنُوا فَإنَّ حِزْبَ الله هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦] وبمعنى المفعول أي الذي يتولاهم بالإكرام كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وليُّ الذَّينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ منَ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقوله: ﴿إنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ....﴾ [المائدة:٥٥] الآية - وكلا المعنيين متلازمان: ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه، ﴿ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي من الفزع الأكبر، كما في قوله تعالى: ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأكْبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠٣].

﴿الَّذينَ آمَنُوا﴾ أي بكل ما جاء من عند الله تعالى ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي يخافون ربهم؛ فيفعلون أوامره، ويتجنبون مناهيه، من الشرك والكفر والفواحش. ومحلُّ الموصول الرفع على أنه خبر لمحذوف، كأنه قيل: منَ أولئك وما سبب فوزهم بذاك الإكرام؟ فقيل: هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى المفضييْن إلى كل خير، المنجييْن من كل شر. أو النصب بمحذوف.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى في الْحيَاةِ الدُّنْيَا وفي الآخرَةِ﴾ ﴿الْبُشْرَى﴾ مصدر إما باق على مصدريته، والمبشر به محذوف، أي لهم البشارة فيهما بالجنة، وإنما حذف للعلم به من آيات أخر كقوله تعالى: ﴿الَّذين آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا.....﴾ إلى قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ ورِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لَهمُ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾

[التوبة: ٢٠-٢١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ الاَّ تخَافُوا ولا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ توعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وإما مراد به المبشر به، وتعريفه للعهد. كقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِين والْمُؤمِنَات يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبأَيْمانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي لمواعيده ﴿ذَلِكَ﴾ أي بشراكم، وهي الجنة. ﴿هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ أي المنال الجليل. الذي لا مطلب وراءه. كيف؟ وقد فازوا بالجنة وما فيها، ونجوا من النار وما فيها.

تنبيه:

هذه الآية الكريمة أصل في بيان أولياء الله، وقد بيّن تعالى في كتابه، ورسولُهُ في سنته، أن لله أولياء من الناس، كما أن الشيطان أولياء، وللإمام تقيّ الدين بن تيمية، عليه الرحمة، كتاب في ذلك سماه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) نقتبس منه جملة يهم الوقوف عليها. لكثرة ما يدور على الألسنة من ذكر الوليّ والأولياء. قال رحمه الله:

إذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء، كما فرق الله ورسوله بينهما. فأولياء الله هم المؤمنون المتقون، كما في هذه الآية، وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاريّ وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال[1]: يقول الله: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، أو فقد آذنته بالحرب[2] ... الحديث - وهذا أصح حديث يروى في الأولياء، دل على أن من عادى ولياً لله، فقد بارز الله بالمحاربة.

وفي حديث آخر: وإني لأثار لأوليائي كما يثأر الليث الحرب. أي: آخذ ثارهم ممن عاداهم، كما يأخذ الليث الحرب ثاره، وهذا، لأن أولياء الله هم الذي آمنوا به ووالوه، فأحبوا ما يحب، وأبغضوا ما يبغض، ورضوا بما يرضى، وسخطوا بما يسخط، وأمروا بما يأمر، ونهوا عما نهى، وأعطوا لمن يحب أن يعطى، ومنعوا من يحب أن يمنع.

---

(١) أخرجه ابن ماجة في: الفتن، ١٦ - باب من ترجى له السلامة من الفتن، حديث رقم ٣٩٨٩.
(٢) أخرجه البخاريّ في: الرقاق، ٣٨ - باب التواضع، حديث رقم ٢٤٤٠.

والولاية ضد العداوة. وأصل الولاية المحبة والقرب. وأصل العداوة البغض والبعد.

وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، أفضلهم محمد ﷺ خاتم النبيين، وإمام المتقين، الذي بعثه الله بأفضل كتبه، وشرع له أفضل شرائع دينه، وجعله الفارق بين أوليائه، وأعدائه، فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به، وبما جاء به، واتبعه ظاهراً وباطناً. ومن ادعى محبة الله وولايته، وهو لم يتبعه، فليس من أولياء الله، بل من خالفه كان من أعداء الله، وأولياء الشيطان. وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم من أولياء الله، ولا يكونون من أوليائه. فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه. قال تعالى: ﴿قُلْ فلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خلَقَ.. ﴾ [المائدة:١٨] الآية، وكان مشركو العرب يدعون أنهم أهل الله، لسكناهم مكة، ومجاورتهم البيت، فانزل تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال:٣٤]، وكما أن من الكفار من يدعي أنه وليّ الله، وليس وليًا لله، بل عدوّ له، فكذلك من المنافقين الذين يظهرون الإسلام، يقرون في الظاهر بالشهادتين، ويعتقدون في الباطن ما يناقض ذلك، مثل ألا يقروا باطناً برسالته عليه السلام، وإنما كان ملكًا مطاعًا، ساس الناس، برأيه، من جنس غيره من الملوك. أو يقولون إنه رسول الله إلى الأميين خاصة. أو يقولون إنه مرسل إلى عامة الخلق، وأن للّ أولياء خاصة لم يرسل إليهم، ولا يحتاجون إليه، بل لهم طريق إلى الله من غير جهته، كما كان الخضر مع موسى. أو أنهم يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه، وينتفعون به من غير واسطة، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة، وهم موافقون له فيها. وأما الحقائق الباطنة، فلم يرسل بها، أو لم يكن يعرفها. أو هم أعرف بها منه، أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته. فهؤلاء كلهم كفار، مع أنهم يعتقدون في طائفتهم أنهم أولياء الله. وإنما أولياء الله: الذي وصفهم تعالى بولايته بقوله: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، الّذِينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

ولا بد في الإيمان من أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وأن محمداً ﷺ خاتم النبيين، مرسل إلى جميع الثقلين الإنس والجن. فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن، فضلاً عن أن يكون من أولياء الله المتقين ومن آمن ببعض ما جاء به، وكفر ببعض، فهو كافر ليس بمؤمن.

ومن الإيمان به، الإيمان بأنه الواسطة بين الله وبين خلقه، في تبليغ أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وحلاله وحرامه. فالحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما

حرمه الله ورسوله، والدين ما شرعه الله رسوله ﷺ فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ، فهو كافر من أولياء الشيطان.

وأما خلق الله تعالى للخلق، ورزقه إياهم، وإجابته لدعائهم، وهدايته لقلوبهم، ونصرهم على أعدائهم، وغير ذلك من جلب المنافع، ودفع المضار، فهذا لله وحده، يفعله بما يشاء من الأسباب، لايدخل في مثل هذا وساطة الرسل.

ثم لو بلغ الرجل في الزهد والعبادة والعلم ما بلغ، ولم يؤمن بجميع ما جاء به محمد ﷺ فليس بمؤمن، ولا وليّ لله تعالى. كالأحبار والرهبان من علماء اليهود والنصارى وعبّادهم، وكذلك المنتسبون إلى العلم والعبادة من مشركي العرب والترك والهند وغيرهم، ممن كان من حكماء الهند والترك. وله علم أو زهد وعبادة في دينه، وليس مؤمناً بجميع ما جاء به، فهو كافر، عدوّ لله، وإن ظن طائفة أنه وليّ لله. كما كان حكماء الفرس من المجوس كفاراً مجوساً، وكذلك حكماء اليونان مثل أرسطو وأمثاله، كانوا مشركين، يعبدون الأصنام والكواكب. وفي أصناف المشركين من هذه الطوائف من له اجتهاد في العلم والزهد والعبادة، ولكن ليس بمؤمن بالرسل، ولايصدقهم فيما أخبروا به ولايطيعهم فيما أمروا، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين، ولاأولياء لله، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين وتنزل عليهم، فيكاشفون الناس ببعض الأمور، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر، وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تنزل عليهم الشياطين. قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ، تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ -٢٢٣]، وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلى المكاشفات، و خوارق العادات، إذا لم يكونوا متبعين للرسل، فلا بد أن يكذبوا وتكذبهم شياطينهم، لا بد أن يكون في أعمالهم ما هو إثم وفجور، مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع في العبادة، ولهذا تنزلت عليهم الشياطين، واقترنت بهم، فصاروا من أولياء الشيطان، لا من أولياء الرحمن.

ومن الناس من يكون فيه إيمان، وفيه شعبة من نفاق، كما في الصحيحين[(١)] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان». وفي صحيح مسلم[(٢)]: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الإيمان، ٢٤ – باب علامة المنافق، حديث رقم ٣١.
ومسلم في: الإيمان، حديث رقم ١٠٧ و ١٠٨.

(٢) أخرجه مسلم في: الإيمان، حديث ١٠٩و ١١٠ .

وإذ كان أولياء اللّه هم (المؤمنون المتقون) فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته للّه تعالى،. فمن كان أكمل إيمانًا وتقوى، كان أكمل ولاية للّه. فالناس متفاضلون في ولاية اللّه عزّ وجّل، بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى، وكذلك يتفاضلون في عداوة اللّه بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق.

وأولياء اللّه على طبقتين: سابقون ومقربون وأصحاب يمين مقتصدون، ذكرهم اللّه في عدة مواضع من كتابه العزيز. فالأبرار أصحاب اليمين، هم المتقربون إلى اللّه بالفرائض، يفعلون ما أوجب اللّه عليهم، ويتركون ما حرم اللّه عليهم، ولايكلفون أنفسهم بالمندوبات، ولا الكفّ عن فضول المباحات. وأما السابقون المقربون، فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، ففعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم، أحبهم الرب حبًّا تامًا، كما قال تعالى[1]: «ولاَ يَزالُ عَبدي يَتَقَربُ إلِيَّ بالنَّوَافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ» يعنى الحب المطلق.

ثم إذا كان العبد لا يكون وليّاً للّه إلا إذا كان مؤمناً تقيّاً، لهذه الآية – فمعلوم أن أحداً من الكفار والمنافقين لا يكون وليّاً للّه. وكذلك من لا يصح إيمانه وعباداته، وإن قدر أنه لا إثم عليه، مثل أطفال الكفار، ومن لم تبلغه الدعوة، وإن قيل إنهم لايعذبون حتى يُرْسِل إليهم رسولاً، فلا يكونون من أولياء اللّه، إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين. فمن يتقرب إلى اللّه. لا بفعل الحسنات ولا بفعل السيئات، لم يكن من أولياء اللّه.

وكذلك المجانين والأطفال، فإن النبيّ ﷺ قال[2]: رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبيّ حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ. وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث عائشة رضي اللّه عنها، واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول. ولكن الصبي المميّز تصح عباداته، ويثاب عليها عند جمهورالعلماء،وأما المجنون الذي رفع عنه القلم، فلا يصح شيء من عباداته باتفاق العلماء، ولايصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات، بل لا يصلح هو، عند عامة العقلاء، لأمور الدنيا. كالتجارة والصناعة. فلا يصح أن يكون بزازاً ولا

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الرقاق، ٣٨ – باب التواضع، حديث ٢٤٤٠.

(٢) أخرجه البخاريّ في: الحدود، ٢٢ – باب لا يرجم المجنون والمجنونة، وقال عليّ لعمر: أما علمت أن القلم رفع عن المجنون حتى يفيق وعن الصبيّ حتى يدرك وعن النائم حتى يستيقظ.

عطاراً ولا حداداً ولا نجاراً، ولا تصح عقوده باتفاق العلماء. فلا يصح بيعه ولاشراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إقراره ولا شهادته، ولا غير ذلك من أقواله، بل أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعيّ. ولا ثواب ولا عقاب. بخلاف الصبيّ المميز فإن له أقوالاً معتبرة في مواضع، بالنص والإجماع، وفي مواضع فيها نزاع وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى اللّه بالفرائض والنوافل، وامتنع أن يكون وليًّا للّه، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه وليّ للّه، لا سيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه، أو نوعًا من تصرف، مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فمات أو صرع. فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين من المشركين وأهل الكتاب، لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية، كالكهان والسحرة وعبّاد المشركين وأهل الكتاب، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص وليًا للّه، إن لم يعلم ما يناقض ولاية اللّه، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية اللّه؟ مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبيّ ﷺ ظاهراً وباطناً، بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر، دون الحقيقة الباطنة، أو يعتقد أن لأولياء اللّه طريقاً إلى اللّه غير طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. أو يقول إن الأنبياء ضيقوا الطريق، أو هم قدوة العامة دون الخاصة، ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعي الولاية. فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان، فضلاً عن ولاية اللّه عزّ وجلّ. فمن احتج بما يصدر عن أحدهم، من خرق عادة، على ولايتهم، كان أضل من اليهود والنصارى. وكذلك المجنون، فإن كونه مجنونًا يناقض أن يصح منه الإيمان والعبادات، التي هي شرط في ولاية اللّه. ومن كان يجن أحيانًا، ويفيق أحياناً، إذا كان في حال إفاقته مؤمناً باللّه ورسوله، ويؤدي الفرائض، ويجتنب المحارم، فهذا إذا جن، لم يكن جنونه مانعًا من أن يثيبه الله على إيمانه وتقواه، الذي أتى به في حال إفاقته، ويكون له من ولاية اللّه بحسب ذلك. وكذلك من طرأ عليه الجنون، بعد إيمانه وتقواه، فإن اللّه يثيبه ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه، ولا يحبطه بالجنون الذي ابتلي به من غير ذنب فعله، ولا قلم مرفوع عنه في حال جنونه.

فعلى هذا، فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدي الفرائض، ولا يجتنب المحارم، بل قد يأتي بما يناقض ذلك، لم يكن لأحد أن يقول: هذا وليّ للّه، فإن هذا إن لم يكن مجنونًا، بل كان متولهاً من غير جنون، أوكان يغيب عقله بالجنون تارة، ويفيق أخرى، وهو لا يقوم بالفرائض بل يعتقد أنه لايجب عليه اتباع الرسول ﷺ فهو كافر؛ وإن كان مجنوناً باطناً وظاهراً قد ارتفع عنه القلم. فهذا وإن لم يكن معاقباً عقوبة

الكافرين، فليس هو مستحقًا لما يستحقه أهل الإيمان والتقوى من كرامة اللّه عزّ وجَل، فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه وليّ للّه، لكن إن كان له حالة في إفاقته كان فيها مؤمناً باللّه متقياً، كان له من ولاية اللّه بحسب ذلك، وإن كان له في حال فيه كفر أو نفاق، أو كان كافراً أو منافقاً ثم طرأ عليه الجنون، فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه، وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق.

فصـــل

وليس لأولياء اللّه شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات، فلا يتميزون بلباس دون لباس، ولابحلق شعر أو تقصيره أو ضفره، إذا كان كلاهما مباحًا، كما قيل: كم من صديق في قباء، وكم من زنديق في عباء. بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور. فيوجدون في أهل القرآن، وأهل العلم، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف، ويوجدون في التجار والصناع والزراع. وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم (القراء) فيدخل فيهم العلماء والنساك. ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء واسم (الصوفية)، نسبة إلى لباس الصوف. هذا هو الصحيح، وقد قيل إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء وقيل إلى (صوفة بن أد) قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنسك، وقيل إلى أهل الصفا. وقيل إلى الصفوة، وقيل إلى الصفة، وقيل إلى الصف المقدم بين يدي اللّه تعالى. وهذه أقوال ضعيفة فإنه لو كان كذلك لقيل: صفي، أو صفائي، أو صُفي، ولم يقل صوفي. وصار أيضًا اسم الفقراء يعني به أهل السلوك، وهذا عرف حادث وقد تنازع الناس: أيما أفضل: مسمى الصوفي أو مسمى الفقير؟ ويتنازعون أيضًا: أيما أفضل؟ الغنيّ الشاكر، أو الفقير الصابر؟ والصواب في هذا كله ما قاله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وفي الصحيح[1] عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبيّ ﷺ أنه سئل: «أي الناس أفضل؟ قال: أتقاهم». فدل

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الأنبياء، ٨ - قول الله تعالى: ﴿واتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾، حديث رقم ١٥٨٧.
وأخرجه مسلم في: الفضائل، حديث رقم ١٦٨.

الكتاب والسنة على أن أكرم الناس عند الله أتقاهم. وفي السنن[١] عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لا فضل لعربيّ على عجميّ، ولا لعجمي على عربيّ ولا لأسود على أبيض، ولا لأبيض على أسود، إلا بالتقوى». وعنه أيضاً ﷺ أنه قال[٢]: «إن الله تعالى أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية وفخرها بالآباء. الناس رجلان: مؤمن تقيّ وفاجر شقي».

فصــل

وليس من شرط وليّ الله أن يكون معصوماً لا يغلط ولايخطئ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين، حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به، مما نهى الله عنه. ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء اللهِ تَعالى، وتكون من الشيطان لبّسها عليه، لنقص درجته، ولا يعرف أنها من الشيطان، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى. فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ولم يؤثّم النبيّ ﷺ المجتهد المخطئ بل جعل له أجراً على اجتهاده، وجعل خطأه مغفوراً له، ولهذا لما كان وليّ الله يجوز أن يغلط، لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله مَن هو وليّ الله، إلا أن يكون نبيّاً، بل ولايجوز لوليّ الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه، إلا أن يكون موافقاً، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق، بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ فإن وافقه قَبِلَهُ وإن خالفه لم يقبله، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف توقف فيه. والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف: طرفان ووسط. فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه وليّ الله وافقه في كل ما يظن أنه حدثه به قلبه عن ربه، وسلم إليه جميع مايفعله. ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع، أخرجه عن ولاية الله بالكلية، وإن كان مجتهداً مخطئاً، وخيار الأمور أوساطها. وهو الايجعل معصوماً ولا مأثوماً، إذا كان مجتهداً مخطئاً، فلا يتبع في كل ما يقوله، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده. والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله. وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء. ووافق قول آخرين، لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف، ويقول: هذا خالف الشرع!

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٥/٤١١.

(٢) أخرجه أبو داود في: الأدب، ١١١ – باب في التفاخر بالاحساب، حديث رقم ٥١١٦.

وفي الصحيحين[١] عن النبيّ ﷺ أنه قال: «قد كان في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن كان في أمتي أحد، فعمر منهم». وكان عمر يقول: اقتربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم مايقولون، فإنه يتجلى لهم أمور صادقة. والمحدَّث الذي يأخذ عن قلبه أشياء، ليس بمعصوم، فيحتاج أن يعرضه على ماجاء به النبيّ المعصوم ﷺ ولهذا كان عمر رضي اللّه عنه يشاور الصحابة ويناظرهم ويرجع إليهم في بعض الأمور، وينازعونه في أشياء فيحتج عليهم، ويحتجون عليه بالكتاب والسنة، ويقررهم على منازعته، ولا يقول لهم: أنامحدَّث ملهَم مخاطب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولاتعارضوني. فأيّ من ادعى له أصحابه أنه وليّ اللّه، وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ولا يعارضوه ويسلموا له حاله من غيره اعتبار بالكتاب والسنة – فهو وَهُمْ مخطئون. ومثل هذا من أضل الناس. فعمر بن الخطاب رضي اللّه عنه أفضل منه، وهو أمير المؤمنين، وكان المسلمون ينازعونه ويعرضون ما يقول، هو وهم، على الكتاب والسنة. وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول اللهّ ﷺ، وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم. ولذا قال الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة. وقال أبو عثمان النيسابوريّ: من أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمّرالهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة، لقوله تعالى: ﴿وإنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور:٥٤] وقال أبو عمرو بن نجيد: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل.

فأولياء اللّه تعتبر بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن، وبحقائق الإيمان الباطنة، وشرائع الإسلام. فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان، أو يأوي إلى الحمّامات والحشوش التي تحضرها الشياطين، أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير وآذان الكلاب التي هي خبائث وفواسق. أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحبها الشيطان. أو يدعو غير اللّه فيستغيث بالمخلوقات، ويتوجه إليها، أو يسجد إلى ناحية شيخه و لا يخلص الدين لرب العالمين. أو يلابس الكلاب أو النيران، أو يأوي إلى المزابل، والمواضع النجسة، أو يأوي إلى المقابر، لا سيما إلى مقابر الكفار من

(١) أخرجه البخاريّ في: فضائل أصحاب النبيّ ﷺ، ٦ – باب مناقب عمر بن الخطاب، أبي حفص القرشيّ العدويّ رضي الله عنه، حديث رقم ١٦٢٨، عن أبي هريرة.
وأخرجه مسلم في: فضائل الصحابة، حديث رقم ٢٣، عن عائشة.

اليهود والنصارى أو المشركين، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه، ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار، ويؤثر سماع مزامير الشيطان، على سماع كلام الرحمن، **فهذه** علامات أولياء الشيطان، لا علامات أولياء الرحمن - انتهى ملخصاً -.

والكتاب مما يلزم الوقوف عليه، ومطالعته بالحرف. ففيه من الفوائد ما لا يوجد في غيره، فرحم الله جامعه، وجزاه خيراً. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

﴿ولاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ، إنَّ الْعِزَّةَ للهِ جميعًا، هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تسلية للنبيّ ﷺ عما كان يسمعه من تآمرهم في إيصال مكروه له، ومجاهرتهم بتكذيبه، ورميه بالسحر ونحوه أي: لا تتاثر بقولهم، وشاهد غز الله وقهره، لتنظر إليهم بنظر الفناء وترى أعمالهم وأقوالهم، وما يهددونك به كالهباء، فمن شاهد قوة الله وعزته يرى كل القوة والعزة له، لا قوة لأحد ولا حول. فقوله تعالى: **﴿إنَّ الْعِزَّةَ للهِ﴾** [النساء: ١٣٩]، تعليل للنهي على طريقة الاستئناف، كأنه قيل: ما لي لا أحزن؟ فقيل: إن العزة لله، أي الغلبة والقهر في ملكته وسلطانه لا يملك أحد شيئًا منها أصلاً، لا هم ولا غيرهم، فهو يغلبهم، وينصرك عليهم ﴿كَتَبَ اللهُ لأغلبَنَّ أنَا وَرُسُلي﴾ [المجادلة: ٢١]. ﴿إنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، وقوله: **﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾** أي لأقوالهم فيك، فيجازيهم **﴿الْعَلِيمُ﴾** أي لما ينبغي أن يفعل بهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

﴿ألا إنَّ للهِ مَنْ في السَّمٰوات وَمَنْ في الأرْضِ﴾ أي كلهم تحت ملكته وتصرفه وقهره، لا يقدرون على شيء بغير إذنه ومشيئته وإقداره إياهم. وقوله: **﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذين يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وإنْ همْ إلا يَخرُصونَ﴾** تأكيد لما سبق من اختصاص العزة به تعالى، لتزيد سلوته صلوات الله عليه وبرهان على بطلان ظنونهم وأقوالم المبنية عليها. وفي (ما) من قوله **﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾** وجهان:

أحدهما - أنها نافية، و(شركاء) مفعول (يتبع) ومفعول (يدعون) محذوف

لظهوره. أي ما يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء، شركاء في الحقيقة، وإن سموها شركاء لجهلهم، فاقتصر على أحدهما لظهور دلالته على الآخر. ويجوز أن يكون (شركاء) مفعول (يدعون) ومفعول (يتبع) محذوف، لانفهامه، من قوله ﴿إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ﴾ أي ما يتبعون يقيناً، إنما يتبعون ظنهم الباطل.

والوجه الثاني: أنها استفهامية، منصوبة بـ (يتبع) و(شركاء) مفعول (يدعون) أي: أيّ شيء يتبع هؤلاء؟ أي: إذا كان الكل تحت قهره وملكته فما يتبعون من دون اللّه ليس بشيء، ولاتأثير له ولا قوة، إن يتبعون إلا ما يتوهمونه في ظنهم، ويتخيلونه في خيالهم، وما هم إلاّ يُقَدِّرُون وجودَ شيء لا وجود له في الحقيقة.

ثم نبه تعالى على انفراده بالقدرة الكاملة، والنعمة الشاملة، ليدل على توحده سبحانه باستحقاق العبادة، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فيهِ﴾ أي خلقه لكم لتستقروا فيه من نَصَبكم وكلالكم ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ أي مضيئاً، تبصرون فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم.

قيل: الآية من باب الاحتباك. والتقدير: جعل الليل مظلماً لتسكنوا فيه، والنهار مبصراً لتتحركوا لمصالحكم، فحذف من كل من الجانبين ما ذكر في الآخر، اكتفاء بالمذكور عن المتروك، وإسناد الإبصار إلى النهار مجازيّ، كقوله: *ماليل المحب بنائم*. ﴿إنَّ في ذَلِكَ﴾ أي لجعل المذكور ﴿لآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي هذه الآيات ونظائرها سماعَ تدبر واعتبار.

ثم شرع في نوع آخر من أباطيلهم بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له عن أن يجانس أحداً، أو يحتاج إليه،

وتعجب من كلمتهم الحمقاء ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أي الذي وجوده بذاته، وبه وجود كل شيء، فكيف يماثله شيء؟ ومَنْ له الوجود كله، فكيف يجانسه شيء؟ والجملة علة لتنزيهه، وإيذان بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة، إما للتقوّي به، أو لبقاء نوعه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ تقرير لغناه. أي فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولداً ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أي: ما عندكم من حجة بهذا القول الباطن. توضيح لبطلانه، بتحقيق سلامة ما أقيم من البرهان الساطع عن المعارض. أي ليس بعد هذا حجة تسمع. والمراد تجهيلهم، وأنه لا مستند لهم سوى تقليد الأوائل، واتباع جاهل لجاهل.

تنبيه:

دلت الآية على تسمية البرهان سلطاناً.

قال الإمام ابن القيم في (مفتاح دار السعادة): إنه سبحانه سمى الحجة العلمية سلطاناً. قال ابن عباس رضي الله عنه: كل سلطان في القرآن فهو حجة، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ يعني ماعندكم من حجة بما قلتم، إن هو إلا قول على الله بلا علم. وقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم:٢٣]، يعني ما أنزل بها حجة ولا برهاناً، بل هي من تلقاء أنفسكم وآبائكم. وقول تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ يعني حجة واضحة. إلا موضعاً واحداً اختلف فيه، وهو قوله: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾، فقيل: المراد به القدرة والملك، أي ذهب عني مالي وملكي، فلا مال لي ولا سلطان، قيل: هو على بابه، أي انقطعت حجتي وبطلت، فلا حجة لي. والمقصود: أن الله سبحانه سمى عِلْم الحجة سلطاناً، لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره، فله بها سلطان على الجاهلين، بل سلطان العِلْم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد الناس للحجة ما لا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن. فالحجة تأسر القلب وتقوده، وتذل المخالف، وإن أظهر العناد والمكابرة، فقلبه خاضع لها ذليل، مقهور تحت سلطانها. بل سلطان الجاه، إن لم يكن معه علم يساس به، فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها، قدرة بلا علم ولا رحمة، بخلاف سلطان الحجة، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة، ومن لم يكن له اقتدار في علمه، فهو إما لضعف حجته وسلطانه، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له، وإلا فالحجة ناصرة نفسها، ظاهرة على الباطل قاهرة له – انتهى -.

﴿أتقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لاَ تَعْلَمُون﴾ توبيخ وتقريع على جهلهم. قال الزمخشريّ: لما نفى عنهم البرهان، جعلهم غير عالمين، فدلّ على أن كل قول لا برهان عليه لقائله، فذاك جهل وليس بعلم.

وقال أبو السعود: فيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها، فهي جهالة، وأن العقائد لا بد لها من برهان قطعيّ،وأن التقليد بمعزل من الاعتداد به.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ باتخاذ الولد، وإضافة الشركاء ﴿لاَ يُفْلِحُونَ﴾ أي لا يفوزون بمطلوب أصلاً ﴿مَتَاعٌ في الدُّنْيَا﴾ مبتدأ خبره محذوف أي لهم تمتع يسير في الدنيا ﴿ثُمَّ إلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي الموت ﴿ثُمَّ نُذيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفرهم. والآية لبيان أن مايتراءى من فوزهم بالحظوظ الدنيوية، بمعزل من أن يكون من جنس الفلاح. كأنه قيل: كيف لا يفلحون وهم في غبطة ونعيم؟ فقيل: هو متاع يسير في الدنيا. وليس بفوز بالمطلوب.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾

﴿واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأ نوحٍ﴾ أي خبره الذي له شأن وخطر، مع قومه المغترين بعزة الأموال والأعوان، ليتدبروا ما فيه من صحة توكله على الله، ونظره إلى قومه، بعين عدم المبالاة بهم، وبمكايدهم، وزوال ما تمتعوا به من النعيم ، بإغراقهم بالطوفان، فلعلهم يكفّون عن كفرهم، و تلين أفئدهم ويستيقنون صحة نبوتك ﴿إذْ قالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إنْ كانَ كَبُرَ﴾ أي شق وثقل ﴿عَلَيْكُمْ مَقامِي﴾ أي مكاني، يعني نفسه، أو مكثي بين أظهركم مدداً طوالاً، ألف سنة إلا خمسين عاماً أو قيامي بالدعوة إلى الله، من

رؤيتكم ذلتي بقلة الأموال والأعوان، ومنع عزتكم بهما عن الانقياد لي ﴿ **وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ** ﴾ أي بحججه وبراهينه، أو تخويفي بعذابه ﴿ **فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ** ﴾ أي عمدت في دفع ما قصدتموني به ﴿ **فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ** ﴾ أي شأنكم في إهلاكي ﴿ **وَشُرَكَاءَكُمْ** ﴾ يعني آلهتهم وهو تهكم بهم، أو نظراءهم في الشرك. و(الواو) بمعنى مع. أو معطوف على (أمركم) بحذف المضاف، أي: وأمر شركائكم. أو منصوب بمحذوف، أي ادعوا شركائكم، وذلك لأن (أجمع) يتعلق بالمعاني. يقال: (أجمع الأمر إذا نواه وعزم عليه) ﴿ **ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً** ﴾ أي مستوراً. من (غمه، إذا ستره) بل مكشوفاً تجاهرونني به ﴿ **ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ** ﴾ أي أدوا إليّ ذلك الأمر الذي تريدون بي ﴿ **وَلاَ تُنْظِرُونِ** ﴾ أي ولا تمهلوني.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾

﴿ **فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ** ﴾ أي عن الإيمان بما جئتكم به ﴿ **فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ** ﴾ أي جُعْلٍ على عظتكم، أي فلا باعث لكم على التولي والنفور ﴿ **إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ** ﴾ أي ما ثوابي على التذكير إلا عليه تعالى، يثيبني به، آمنتم أو توليتم ﴿ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾. أي المستسلمين له وحده بالإيمان به، ونبذ كل معبود دونه.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

﴿ **فَكَذَّبُوهُ** ﴾ يعني نوحًا بما جاءهم، عناداً بعد أن قامت عليهم الحجة، فحقت عليهم، كلمة العذاب، وأرسل عليهم الطوفان. ﴿ **فَنَجَّيْنَاهُ** ﴾ أي من الغرق ﴿ **وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ** ﴾ أي خلفاء عن المغرقين وعمّار الأرض ﴿ **وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ** ﴾ أي منتهى أمرهم. والمراد بـ(المنذَرين) المكذبين. والتعبير به إشارة إلى إصرارهم عليه، حيث لم يفد الإنذار فيهم. وقد جرت السنة الربانية أن لا يهلك قوم بالاستئصال إلا بعد الإنذار، لأن من أنذر فقد أعذر. وفي الأمر بالنظر تهويل لما جرى عليهم، وتحذير لمن كذب الرسول ﷺ وتسلية له.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿**ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِه**﴾ أي من بعد نوح ﴿**رُسُلاً إلى قومِهِمْ**﴾ يعني هوداً وصالحًا وإبراهيم ولوطًا وشعيباً، ﴿**فجاؤُوهمْ بالْبَيِّنات**﴾ أي الآيات الدالة على صدقهم، المفيدة هدايتهم﴿ **فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِماَ كَذَّبُوا به منْ قَبْلُ**﴾ أي بسبب تعودّهم تكذيب الحق، وتمرنهم عليه. لأنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية، مكذبين بالحق فحالهم بعدها، كحالهم قبلها، هذا على أن ضمير (كانوا) و(كذّبوا) لقوم الرسل. وَجَاز عَوْدُ ضمير (كانوا) لقوم الرسل، و(كذَّبوا) لقوم نوح. أي ما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح أي بمثله. ﴿**كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ المعْتَدينَ**﴾ أي المجاوزين مقتضيات حقائق الأشياء بخذلانهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿**ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ**﴾ أي من بعد هؤلاء الرسل ﴿**مُوسَى وَهَارُونَ إلى فِرْعونَ وَمَلئه بآياتنا**﴾ يعني التسع ﴿**فَاسْتَكْبَرُوا وكَانُوا قَوْمًا مُجرِمينَ**﴾ أي كفاراً ذوي آثام عظام.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾

﴿**فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ من عنْدنَا**﴾ يعني الآيات المزيحة للشك ﴿**قالُوا**﴾ يعني من فرط التمرد ﴿**إنَّ هذا لَسحْرٌ مُبينٌ**﴾ أي تلبيس ظاهر.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿**قالَ مُوسى أتقُولونَ للْحقِّ لَمّا جاءَكمْ**﴾ أي على وجه لم يترك لكم شبهة، مقالتكم الحمقى، من أنه سحر، فحذف المحكيّ المقول لدلالة الكلام عليه. ثم قال: ﴿**أسِحْرٌ هذا**﴾ استفهام إنكار من قول موسى لا من قولهم. فهو مستأنف لإنكار

كونه سحراً، وتكذيب لقولهم، وتوبيخ لهم على ذلك إثر توبيخ. وليس ﴿أسحرٌ هذا﴾ مقولهم، لأنهم بتّوا القول بأنه سحر، فكيف يستفهمون عنه؟ – كذا قيل:–.

ولا أرى مانعًا من أن يكون مقولهم، والهمزة وسطت مزيدة لتكون مؤكدة لما قبلها من الاستفهام، ومن لطائفها الاحتراس عن ايهام فاعلية سحر لـ ﴿جَاءَكُمْ﴾ بادىء بدء وأسلوب القرآن فوق كل أسلوب. أو الهمزة ، ومدخولها من مقولهم لقولهم الذي بتّوا عليه أمرهم. ثم رأيت الناصر في (الانتصاف) أشار لهذا حيث قال:

وأما القراءة الثانية – يعني قراءة آالسحر – على الاستفهام ففيها – والله أعلم – إرشاد إلى أن قول موسى أولاً: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا﴾ حكاية لقولهم، ويكون ﴿أَسِحْرٌ هذَا﴾ هو الذي قالوه، ولا يناقض ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا ﴿إِنَّ هذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وذلك إما لأنهم قالوا الأمرين جميعًا: بدأوا بالاستفهام على سبيل الاستهتار بالحق والاستهزاء بكونه حقًا، والاستهزاء بالحق إنكار له بل قد يكون الاستفهام في بعض المواطن أبتّ من الإخبار. الا ترى أنهم يقولون في قوله: أأنتِ أمّ سالم أبلغ في البت من قوله مخبراً (أنت أم سالم) ثم ثنوا بصيغة الخبر الخاصة ببت الإنكار، ودعوى أنه سحر، فقالوا: ﴿إِنّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثاني، ووبخهم موسى على قولهم الأول. ومعنى العبارتين ومآلهما واحد. وإما الا يكونوا قالوا سوى: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ على سبيل الإنكار حسبما تقدم، فحكاه الله تعالى عنهم بمآله؛ لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار، وبتّ القول أنه سحر، وحكى موسى عليه السلام قولهم بلفظه، ولم يؤده بعبارة أخرى. وحكاية القصص المتلوّة في الكتاب العزيز بصيغ مختلفة، لا محمل لها سوى أنها معان منقولة إلى اللغة العربية، فيترجم عنها بالألفاظ المترادفة المتساوية المعاني.

وحاصل هذا البحث أن قول موسى عليه السلام ﴿أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا﴾ إنما حكى فيه قولهم، ويرشد إلى ذلك أنه كافاهم عند ما أتوا بالسحربمثل مقالتهم مستفهماً فقال: ما جئتم به آالسحر (على قراءة الاستفهام) قرضًا بوفاء على السواء. والذي يحقق لك أن الاستفهام والإخبار في مثل هذا المعنى مؤداهما واحد، أن الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام (ماجئتم به السحر) على الوجهين: الخبر والاستفهام، على اقتضته القراءتان وهو قول واحد، دل أن مؤدى الأمرين واحد، ضرورة صدق الخبر.

وإنما حمل الزمخشري على تأويل القول بالتعييب أو إضمار مفعول (تقولون)

استشكال وقوع الاستفهام، محكيًا بالقول، والمحكى عنهم الخبر، وقد أوضحنا أن لاتنافر ولا تنافي بين الأمرين.

قال الناصر: فشدّ بهذا الفصل عرى التمسك، فإنه من دقائق النكت، والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿ولاَ يُفْلِحُ السَّاحِرونَ﴾ من كلام موسى قطعًا، أتى به تقريراً لما سبق لأنه لما استلزم كونُ الحق سحراً، كونَ من أتى به ساحراً، أكد الإنكار السابق وما فيه من التوبيخ والتجهيل، بذلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

﴿قَالُوا﴾ أي لموسى ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي لتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ يعنون عبادة الأصنام ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ﴾ أي الملك والسلطان ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي أرض مصر﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِين﴾ أي لتبقى عزتنا.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾

﴿وقَال فِرْعَوْنُ﴾ أي حفظاً لعزته، ودفعًا لتعزز موسى ﴿ائْتُوني بكُلِّ سَاحِرٍ عليمٍ﴾ أي ماهر في فنه.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾

﴿فَلمَّا جَاءَ السَّحَرَةَ قَال لَهم مُّوسى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ أي من أصناف السحر. قال بعضهم: جواز الأمر بالسحر لدحضه، وكذلك طلب إيراد الشُّبه لتُحل.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾

﴿فَلمَّا أَلْقوا﴾ أي عصيّهم وحبالهم ليضاهوا معجزة موسى بعصاه ﴿قَالَ موسَى

﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ أي هو السحر، لا ماجئتكم به مما سميتموه سحراً ﴿إِنَّ اللَّه سَيُبْطِلُهُ﴾ أي سيمحقه بالكلية بمعجزتي، فلا يبقى له أثر ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي بل يسلط عليه الدمار.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي يثبته ويقويه بها ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي ذلك، وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ معطوف على مقدر معلوم من مواقع أخر، أي ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء:٤٥]، الخ. قيل: الضمير من ﴿قومه﴾ لفرعون، وهم ناس يسير من قومه، آمنوا به سرًّا والأظهر أنهم قوم موسى، وهم بنو إسرائيل، الذين كانوا بمصر من أولاد يعقوب، فهم الذين آمنوا به ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ أي يعذبهم ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ أي مستكبر ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي أرض مصر ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي المتجاوزين الحد بالظلم والفساد، وبادعاء الربوبية.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ أي تطميناً لقلوبهم، وإزالة للخوف عنهم ﴿يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّه فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ أي فإليه أسندوا أمركم في العصمة مما تخافون، وبه ثقوا، فإنه كافيكم ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣]، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ أي مخلصين وجوهكم له.

قال القاشانيّ: جعل التوكل من لوازم الإسلام، وهو إسلام الوجه لله تعالى، أي إن كمل إيمانكم ويقينكم، بحيث أثر في نفوسكم، وجعلها خالصة لله، لزم التوكل

عليه؛ وإن أريد (الإسلام) بمعنى الانقياد، كان شرطاً في التوكل، لا ملزوماً له، وحينئذ يكون معناه: إن صح إيمانكم يقيناً فعليه توكلوا، بشرط أن تكونوا منقادين. كما تقول: إن كرهت هذا الشجر فاقلعه إن قدرت - انتهى -.

وقال الكرخيّ: قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ أي منقادين لأمره فقوله: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ جواب الشرط الأول. والشرط الثاني وهو ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ شرط في الأول. وذلك أن الشرطين متى لم يترتبا في الوجود، فالشرط الثاني شرط في الأول. ولذلك لم يجب تقديمه على الأول. قال الفقهاء: المتأخر يجب أن يكون متقدماً، والمتقدم يجب أن يكون متأخراً. مثاله: قول الرجل لامرأته: إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلمت زيداً فمجموع قوله: (إن دخلت الدار فأنت طالق) مشروط (إن كلمت زيداً) والمشروط متأخر عن الشرط، وذلك يقتضي أن يكون المتأخر في اللفظ، متأخراً في المعنى. فكأنه يقول لامرأته: حالَ ما كلمت زيداً إن دخلت الدار فأنت طالق، فلو حصل هذا المعلق قبل إن كلمت زيداً لم يقع الطلاق فقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ...﴾ الخ يقتضي أن يكون كونهم مسلمين شرطاً لأن يصيروا مخاطبين بقوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ فكأنه تعالى يقول للمسلم حال إسلامه: إن كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل. والأمركذلك، لأن الإسلام عبارة عن الاستسلام وهوالانقياد لتكاليف الله، وترك التمرد والإيمان عبارة عن معرفة القلب بأن واجب الوجود لذاته واحد، وماسواه محدث تحت تدبيره وقهره. وإذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إليه تعالى، ويحصل في القلب نور التوكل على الله تعالى. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي موضع فتنة لهم، أي عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا. قال الحاكم: دلت على حسن السؤال بالنجاة من الظلمة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي من كيدهم، ومن شؤم مشاهدتهم، والعبودية لهم.

قال القاضي: وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي له أن يتوكل أولاً، لتجاب دعوته.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

﴿وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى وَأَخيه أنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُم بِمصْرَ بُيُوتاً﴾ أي اتخذا بها بيوتاً مباءة تلازمونها لتجتمع كلمتكم في شأنكم ﴿واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي مصلى ﴿وأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ أي في بيوتكم: قال بعضهم: كانوا خائفين. وفي ذلك دلالة على جواز كتم الصلاة عند الخوف. ﴿وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ﴾ أي بالنصرة في الدنيا، والجنة في العقبى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

﴿وَقَالَ مُوسى﴾ أي يدعو اللّه تعالى في إذهاب عزة فرعون ﴿رَبَّنا إنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً﴾ أي ما يتزين به من اللباس والمراكب والحلي ﴿وأمْوَالاً في الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنَا لِيَضِلُّوا عنْ سَبيلك﴾ أي بالتكبر عليك وعلى آياتك ورسلك. وقوله: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ متعلق بـ (ءَاتَيْتَ)، وأعيد ﴿رَبَّنَا﴾ توكيداً، و(لام) ﴿لِيُضِلُّوا﴾ لام العاقبة والصيرورة. أي: آتيتهم النعم المذكورة ليشكروها ويتبعوا سبيلك، فكان عاقبة أمرهم أنهم كفروا وضلوا عن سبيلك. وتجويزُ جعل اللام للعلة استدراجًا. أو لام الدعاء عليهم بذلك – توسع في غير متسع، ونبوٌّ عن لطف المساق وسره؛ فإن موسى لما رأى القوم مصرين على الكفر والعناد أخذ في الدعاء عليهم، ومن حق من يدعو على الغير أن يقدم بين يدي دعائه ما دفعه واضطره إلى الابتهال، لتحق إجابته ولذا، بين أولاً ضلالهم عن السبيل بكفرانهم للنعم، وعتوهم على المحسن بها تمهيداً لقوله: ﴿رَبَّنا اطْمِسْ عَلَى أَمْوالِهِمْ﴾ أي أهلكها لأنهم يستعينون بنعمتك على مصعيتك وأصل (الطمس) محو الأثر والتغير ﴿وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبهمْ﴾ أي اجعلها

قاسية، واطبع عليها، حتى لا تنشرح للإيمان ﴿فلاَ يؤْمِنوُا حتَّى يرَوُا الْعذَاَبَ الأليمَ﴾ أي يعاينوه ويوقنوا به، بحيث لا ينفعهم ذلك إذ ذاك وقوله: ﴿فلاَ يؤْمِنوا﴾ جواب. للدعاء، أو دعاء بلفظ النهي.

قال ابن كثير: هذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام، غضبًا لله ولدينه على فرعون وملئه الذي تبين له أنه لاخير فيهم، ولايجيء منهم شيء . كما دعا نوح عليه السلام فقال: ﴿ربِّ لا تذَرْ علَى الأرْضِ منَ الْكافرِينَ ديَّاراً، إنَّكَ إنْ تذَرْهُمْ يُضِلّوا عبِادك ولا يلَدُوا إلا فاَجرًا كفَاراً﴾ [نوح:٢٦-٢٧]، ولهذا استجاب تعالى لموسى فيهم هذه الدعوة التي شركه فيها أخوه هارون كما أخبر بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

﴿قاَلَ﴾ تعالى ﴿قدْ أُجيبَتْ دعْوتُكُما فاَستَقيمَا﴾ أي على أمري، ولا تعجلا، فإن مطلوبكما كائن في وقته لا محالة ﴿ولا تتَّبِعانِّ سبيلَ الَّذين لا يعْلمُونَ﴾ أي في الاستعجال أو عدم الوثوق بوعده تعالى، أو يعني فرعون وقومه، بقوله سبحانه:

ثم أشار تعالى إلى إجابته دعائهما في إهلاك فرعون وقومه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾

﴿وجَاوزْنا ببني إسْرائيلَ الْبحْرَ فأتْبعَهمْ﴾ آي لحقهم ﴿فرْعوْنُ وَجنُودهُ بغياً وعَدْواً﴾ اي لأجل البغي عليهم و الاعتداء ﴿حتَّى إذا أدْركَهُ الْغرَقُ قاَلَ﴾ يرجو النجاة من الغرق ﴿ءامَنْتُ أنَّهُ لا إلهَ إلا الَّذي آمنتْ به بنَو إسْرائيلَ وأنا من الْمُسْلِمين﴾ وذلك أن موسى عليه السلام لما رغب إلى فرعون أن يطلق الإسرائيليين من عبوديته، ويأذن لهم بالسراح إلى فلسطين ليعبدوا ربهم، أبى وتمرد، فضربه الله وقومه بالآيات التسع، كما تقدم في سورة (الأعراف) فأذن لموسى وشعبه بالخروج من مصر، فارتحل بنو إسرائيل جميعًا بمواشيهم وأثاثهم، ثم ندم فرعون وملؤه على إطلاقهم من خدمتهم، فاشتد فرعون وجنوده في أثرهم ليردهم، فادركهم وهم نازلون عند البحر، فرهب

الإسرائيليون من مقدمه، وضجوا إلى موسى فسكن روعهم، وأعلمهم ما يشاهدون من نجاتهم ، وهلاك عدوّهم، وأوحى تعالى إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر، فانشق ودخل بنو إسرائيل في وسطه على اليبس الذي جعله تعالى آية كبرى، ونفذوا منه إلى شاطئه، وتبعهم فرعون وجنوده، حتى إذا توسطوا البحر، مدّ موسى يده على البحر، فارتد إلى ما كان عليه، وغرق فرعون بمن معه. ولما أحس بالغرق، لاذ إلى الإيمان يبغي النجاة، فقيل له:

القول في تأويل قوله تعالى:

ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾

﴿ءَالآنَ﴾ أي تؤمن وتسلم لتنجو من الغرق ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي كفرت بالله من قبل الغرق ﴿وَكُنْتَ من الْمُفْسِدِينَ﴾ أي الضلال والإضلال، والظلم والعتوّ.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ببدَنِكَ﴾ أي نخرجك من البحر بجسدك الذي لا روح فيه. فرآه بنو إسرائيل ملقى على شاطئ البحر ميتاً وفي التعبير عن إخراجه من القعر إلى الشاطئ (بالتنجية) التي هي الخلاص من المكروه، تهكم واستهزاء. ﴿لِتَكونَ لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ من الأمم الكافرة ﴿ءَايَةً﴾ أي عبرة من الطغيان والتمرد على أوامره تعالى. ﴿وَإنَّ كَثيراً مِنَ النَّاسِ عنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُون﴾ أي لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

تنبيه:

قال الشهاب الخفاجي في (العناية): لايقبل إيمان المرء حال اليأس ولاحتضار، كما يدل عليه صريح الآية: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأسَنَا﴾ [غافر:٨٥]، وأما ما وقع في (الفصوص) من صحة إيمانه، وأن قوله ﴿ءَامَنَتْ به بَنُوا إسْرائيلَ﴾ إيمان بموسى عليه السلام - فمخالف للنص والإجماع، وإن ذهب إلى ظاهره الجلال الدواني رحمه الله . وله رسالة فيه طالعتها، وكنت أتعجب منها حتى رأيت في (تاريخ حلب) للفاضل الحلبي أنها ليست له، وإنما هي لرجل يسمى محمد بن هلال النحوي. وقد ردها القزويني، وشنع عليه وقال: إنما مثاله مثال رجل

خامل الذكر، لما قدم مكة بال في زمزم ليشتهر بين الناس، كما في المثل (خالف تعرف) وفي (فتاوى ابن حجر رحمه اللّه) أن بعض فقهائنا كفّر من ذهب إلى إيمان فرعون ولذا قيل. إن المراد بفرعون(في كلامه) النفس الأمارة، وهذا كله مما لاحاجة إليه – انتهى كلام الشهاب – .

أقول: ذكر شيخنا العطار رحمه اللّه في كتابه (الفتح المبين في رد اعتراض المعترض على محي الدين) خاتمة في بطلان ما نسب إلى هذا العارف من القول بصحة إيمان فرعون ونجاته، قال رحمه اللّه:

ليعلم أنه شاع فيما بين أهل العلم بأن حضرة محي الدين رضي اللّه عنه قال بإيمان فرعون ونجاته، والحال انه ليس كذلك، كما ستطلع عليه من النقل عنه. بحث في صحة القول بإيمان فرعون ونجاته وعدمها، حيث الأخذ من الآيات القرآنية، فكان ذلك منه مجرد بحث في الدليل لا غير، وما كان هذا قولاً بإيمانه قطعياً. وقد بنى مسألة نجاة فرعون وإيمانه على أصلين من أصوله، وافقه عليهما جم غفير من العلماء الأعلام.

الأصل الأول – في بيان حقيقة إيمان اليأس. فإيمان اليأس عنده، وعند جم غفير من العلماء هو ما كان عند مشاهدة العذاب البرزخي، كحال المحتضر لا غير، ففي هذه الحالة لا ينفع الإيمان، وهذا متفق عليه بين أهل العلم. وذهب قوم إلى أن إيمان اليأس ما كان عند رؤية العذاب دنيوياً أو أخروياً. فالإيمان في أي حالة من الحالتين لا ينفع. وعند هذا العارف وجماعة: أن رؤية العذاب الدنيوي لا تمنع صحة الإيمان، وإن أوجبت الهلاك في الدنيا، فإن سنة اللّه قاضية بأن يتحتم وقوع الهلاك الدنيويّ لمن رأى هذا العذاب، وإن آمن ونجا من عذاب الآخرة، إلا قوم يونس، فإنه تعالى نجاهم منه، كما ذكره تعالى.

الأصل الثاني – من أصوله رضي اللّه عنه: أن من حقت عليه الكلمة لا يتلفظ بمادة الإيمان بقصد الإيمان، وإن تلفظ بها لايقصده، فلا بد من تكذيب اللّه تعالى له، ولو بالحكاية عنه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة:١٤]، وكما قال: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ [الحجرات:١٤]، فكذبهم تعالى في دعواهم. وهذا الأصل مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧]، فكلمة ﴿حَتَّى﴾ للغاية. فغيّا تعالى إيمانهم إلى حين رؤية

العذاب الأليم، وهو الأخروي لا غير، فإنه هو الذي يوصف بالأليم. ونفى تعالى عنهم وقوع الإيمان قبل ذلك، فوقوعه منهم قبله قصداً، محال بنص هذه الآية.

إذا تقرر هذان الأصلان، فلنرجع إلى ما قاله هذا الحبر في شأن فرعون في (الفتوحات المكية) وفي (الفصوص): فالذي ذكره في (الفتوحات) عن ذكره طبقات أهل النار فيها: هو أن فرعون من أهل النار، حيث قال في هذا البحث: كفرعون وأضرابه، فخص له ولهم من النار طبقة مخصوصة يؤبدّون فيها. وأشار إلى كفره في موضع آخر منها عند ذكره هذا الحديث وهو[1] :أعوذ بك منك؟ قال: استعاذ رسول الله ﷺ من مقام الاتحاد الذي كان عليه فرعون وهو قوله: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ [النازعات:٢٤]، وعلى هذه الإشارة وما تقدم، يكون فرعون كافراً عنده، كما هو عند عامة الخلق. وعلى هذا لا إشكال ولا كلام.

بقي القول على إيمان فرعون ونجاته من حيث الدليل، وهو مجرد بحث مع الذين ذهبوا إلى كفره قطعيًا، وليس لهم هذا القطع، لما أن الدليل القرآني يعطي خلافه؛ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ.. ﴾ الآية – فذكر فرعون هنا الإيمان ثلاث مرات: اثنتان في الجناب الإلهي، والأخيرة تعمه، والإيمان بموسى حيث قال: ﴿ وأنا من المسلمين ﴾ ولم يكن مسلماً إلا من جمع بين الإيمان بالله وبرسوله.

ثم قال شيخنا رحمه الله: وفي (الفتوحات) و(الفصوص) ما حاصله: أن إيمانه لم يكن عند اليأس، لا على مذهبه ومذهب من وافقه، ولا على مذهب غيره. أما الأول فلأن إيمانه كان عند رؤية العذاب الدنيوي، لا عند احتضاره، والإيمانُ عند رؤية العذاب الدنيوي لا يعد يأساً عنده، وعند جمع. وأما على الثاني، فلأن قول فرعون ما كان عند يأسه من الحياة الدنيوية، فإنه علم أن من آمن بما آمن به قوم موسى كان له المشاركة في الطريق اليبس التي كانت للمؤمنين، وقد شاركهم في إيمانهم، فكان الغالب على ظنه أو يقينه المعاملة الخاصة بالمؤمنين، والمشاهدة له، وما علم سنة الله في خلقه بأنه لابد من الهلاك الدنيوي لمن كانت حالته كذلك. والهلاك في الدنيا لا يدل على عدم النجاة في الآخرة، وهو ظاهر. وعلى هذا فإيمانه لم يكن حال اليأس على المذهبين: فالأول بيقين، والثاني بحسب ما يظهر ، ولا بعد

---

(١) أخرجه مسلم في: الصلاة، حديث ٢٢٢.

بأنه كان طامعاً في النجاة بيقين، لعموم المشاركة. هذا. وإن مذهب هذا العارف الخاص به هو البناء على اتساع الرحمة الإلهية، والأخذ بالظواهر من الآيات، ومع ذلك فلما ذكر البحث في شأن إيمان فرعون ونجاته، مع من قال بخلافهما، قال: إن الوقف في شأن إيمان فرعون هو الأسلم، لما شاع عند الخلق عامة من شقائه، وهذا منه صريح في أنه كان باحثاً في إيمانه ونجاته من ظاهر اللفظ القرآني بحثاً لا جازماً بهما - انتهى ملخصاً - .

ثم أنبأ تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل إثر نعمة إنجائهم من عدوّهم وإهلاكه، وإخلالهم بشكرها و أداء حقوقها بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

﴿ **وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ** ﴾ أضيف المكان إلى الصدق، لأن عادة العرب إذا مدحت شيئاً، أن تضيفه إلى الصدق تقول: رجل صدق. وقدم صدق. وقال تعالى: ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء: ٨٠]، و﴿ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء: ٨٠]، إذا كان عاملاً في صفة صالحاً للغرض المطلوب منه، كأنهم لاحظوا أن كل ما يظن به فهو صادق.

وقوله تعالى: ﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ وهي المنّ والسلوى في التيه وبعده، مما فاض عليهم من الأرض التي تدرّ لبنًا وعسلاً ﴿ **فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ** ﴾ أي ما تفرقوا على مذاهب شتى في أمر دينهم، إلا من بعد ما جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة، وهو ما بين أيديهم من الوحي، الذي يتلونه. أي: وما كان حقهم أن يختلفوا، وقد بيّن الله لهم، وأزاح عنهم اللبس. ونظير هذه الآية، في النعي عليهم اختلافهم، قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ [البينة: ٤]، وقوله جلّ ذكره: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وفيه أكبر زاجر وأعظم واعظ عن الاختلاف في الدين، والتفرق فيه.

﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ أي فيميز المحق من المبطل بالإنجاء والإهلاك.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾

﴿فإنْ كُنْتَ في شَكٍّ ممَّا أنزلْنَا إليْكَ﴾ من قصص موسى وفرعون وبني إسرائيل ﴿فاسْأَلِ الَّذينَ يَقْرءُونَ الْكتابَ﴾ أي التوراة ﴿منْ قَبْلكَ﴾ فإن عندهم على نحو ما أوحي إليك ﴿لَقَدْ جاءَك الْحقُّ من ربِّك فلا تَكُونَنَّ منَ الْمُمْتَرينَ﴾ أي الشاكّين في أنه منزل من عنده.

تنبيه:

لايفهم من هذه الآية ثبوت شك له صلوات اللّه عليه، فإن صدق الشرطية لا يقتضي وقوعها. كقولك. (إن كانت الخمسة زوجاً، كانت منقسمة بمتساويين) والسر في مثلها تكثير الدلائل وتقويتها، لتزداد قوة اليقين، وطمأنينة القلب، وسكون الصدر. ولذا أكثر تعالى في كتابه من تقرير أدلة التوحيد والنبوة والرجعة. أو السر هو الاستدلال على تحقيق ما قص، والاستشهاد بما في الكتاب المتقدم، وأن القرآن مصدق لما فيه، أو وصف الأحبار بالرسوخ في العلم، بصحة ما أنزل إلى رسول اللّه، صلوات اللّه عليه، تعريضًا بالمشركين، أو تهييج الرسول، صلوات اللّه عليه، وتحريضه ليزداد يقيناً، كما قال الخليل صلوات اللّه عليه ﴿ولَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبي﴾ [البقرة:٢٦٠]، وقد روي أنه ﷺ قال حين نزول الآية: لا أشك ولا أسأل أخرجه عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة – أو الخطاب له ﷺ، والمراد غيره، على حد: (إياك أعني واسمعي يا جارة) وفيه من قوة التأثير في القلوب ما لا مزيد عليه، بمثابة ما لو خاطب سلطان عاملاً له على بلدته بحضور أهلها بوصاياه وأوامره الرهيبة، فيكون ذلك أفعل في النفوس أو الخطاب لكل من يسمع. أي إن كنت أيها السامع في شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك ... وأيد هذا بقوله تعالى بعدُ: ﴿قُلْ يَا أَيُّها النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ في شَكٍ منْ ديني...﴾ [يونس:١٠٤]، فكأنه أشار إلى أن المذكور في أول الآية رمزاً، هم المذكورون بعدُ صراحةً وفي الآية تنبيه على أن كل من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بمقادحة العلماء المنبهين على الحق.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾

﴿ولاَ تكُوننَّ منَ الَّذين كَذَّبُوا بآيات الله فتكُونَ من الْخاسرينَ﴾ هو أيضًا من باب التهييج والإلهاب والتثبيت، وأجرى بعضهم ها هنا قاعدة، فقال: النهي عن كل شيء، إن كان لمن تلبس به فمعناه تركه، وإن كان لغيره فمعناه الثابت على عدمه، وإلا يصدر منه في المستقبل كما هنا - انتهى - أو يأتي الوجهان الأخيران قبل هنا أيضاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

﴿إنَّ الَّذينَ حقَّتْ عليْهِمْ كلمةُ ربِّك﴾ أي قوله الكريم، وأمره بعذابهم، كما قال: **﴿ولَكِنْ حقَّ الْقَوْلُ منِّي لأمْلأنَّ جهَنَّمَ منْكَ ومِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أجْمَعِين﴾** [السجدة:١٣].

﴿لا يُؤْمِنُونَ، ولَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيةٍ حتَّى يرَوُا الْعَذَابَ الأليمَ﴾ أي كدأب آل فرعون وأضرابهم. أي: وعند رؤية العذاب يرتفع التكليف، فلا ينفعهم إيمانهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

﴿فلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمنَتْ﴾ أي فهلا كانت قرية من القرى المهلكة آمنت قبل معاينة العذاب، ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينتة، كما فعل فرعون، وفي هذا التخصيص معنى التوبيخ، **﴿فنفعها إيمانُها﴾** بأن يقبله الله منها، ويكشف عنها بسببه العذاب. **﴿إلا قوْمَ يُونُسَ﴾** أي لكنّ قومه **﴿لمَّا آمنُوا كَشَفْنَا عنْهُمْ عذابَ الْخِزْيِ في الْحياةِ الدُّنْيا ومتَّعْناهُمْ إلى حِينٍ﴾** أي إلى آجالهم.

هذا، وقد جوز أن تكون الجملة في معنى النفي، لتضمن حرف التحضيض معناه، فيكون الاستثناء متصلاً، لأن المراد من القرى أهاليها، كأنه قال: ما آمن أهل

قرية من القرى العاصية فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس. ويؤيده قراءة الرفع على البدل.

روي أن يونس عليه السلام بعثه الله إلى نينوى، من أرض الموصل وكانت مدينة عظيمة، مسيرة ثلاثة أيام، وهي قصبة بلاد الآشوريين، بانيها آشور أو نينوس ابن نمرود، وكلاهما من أولاد بني نوح، وكانت من أقدم مدن العالم وأشهرها. والمؤرخون الوثنيون يصفونها بأن ارتفاع اسوارها كان مائة قدم، ودائراتها ستون ميلاً، وهي محصنة بألف وخمسمائة قلعة، طول الواحدة منهن مائتا قدم. قيل: أهلها كانوا يبلغون نحو ستمائة ألف. وخلفاء نمرود في هذه المدينة دأبوا عَلى تحسينها، وتوسيع بنائها وقويت شوكة الآشوريين في تلك الأيام حتى خضع لهم أكثر ممالك آسيا، فتجبروا وتمردوا وكانوا كلما ظفروا في غاراتهم يستغرقون في النهب والمظالم، فأرسل الله تعالى إليهم يونس عليه السلام، واسمه في العبرية (يونان)، لينذرهم بأنهم لكفرهم واقترافهم الموبقات سيحل بهم العذاب بعد أربعين يوماً فتنقلب بهم نينوى. ثم خرج يونس من بينهم فأصحر. فلما فقدوه، وبلغ أميرهَم قولُ يونس، تخوفوا نزول العذاب الذي أُنذورا به، فقذف الله في قلب أميرهم الإيمان والتوبة، فنزل عن عرشه، وألقى عنه حلته، والتف بمسح، وجلس على التراب، وآمن بالله، وآمن أهل نينوى كلهم ، وأمر أن ينادى بنينوى بالصيام، فلا يذوق أحدٌ طعاماً ولا شرابًا، ولا ترعى البهائم ولا تسقى، وأن يلبس الناس المسوح، صغيرهم وكبيرهم، وأن يجتمعوا في صعيد واحد، يجهرون بتسبيح الله. والإنابة إليه، والاستغفار له، والتوبة عما أسلفوا من الظلم والجرم، وأن يحضروا أطفالهم وذويهم ومواشيهم معهم. ففعلوا وتضرعوا إلى الله واستكانوا لجلاله، وسألوه أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيّهم. فلما علم منهم الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم، كشف عنهم العذاب ورحمهم. وسيأتي في (سورة الصافات) زيادة في نبأ يونس عما هنا.

تنبيهات:

الأول: يروي بعض المفسرين هنا أن العذاب تدلى عليهم، وغشيهم، وجعل يدور على رؤوسهم، وغامت السماء غيماً أسود، ونحو هذا. وليس في التنزيل بيان لهذا، ولا في صحيح السنة، وكأن من زعمه فهمه من لفظ ﴿كشفنا﴾، ولا صراحة فيه.

قال القرطبي: معنى ﴿كشفنا عنهم عذاب الخزي﴾ أي العذاب الذي وعدهم يونس أنه ينزل بهم لا أنهم رأوه حينئذ، فلا خصوصية، أي كما روي عن قتادة أن

هذا الكشف لم يكن لأمة من الأمم إلا لقوم يونس خاصة، فإنه لم يقع بهم العذاب، وإنما رأوا علامته.

الثاني – في الآية إشارة إلى أنه لم يوجد قرية آمنت بأجمعها بنبيها المرسل إليها من سائر القرى، إثر بعثته وإنذاره، إلا قوم يونس. والبقية دأبهم التكذيب، وكلهم أواكثرهم، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٣].

وفي الحديث الصحيح[1]: عرض عليّ الأنبياء، فجعل النبيّ يمر ومعه الفئام من الناس، والنبيّ معه الرجل، والنبيّ معه الرجلان، والنبيّ ليس معه أحد.

الثالث – اخرج ابن أبي حاتم عن عليّ رضي الله عنه: قال: إن الحذر، لا يرد القدر، وإن الدعاء يرد القدر، وذلك في كتاب الله: ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا... ﴾ الآية –.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: الدعاء يرد القضاء، وقد نزل من السماء. اقرؤوا إن شئتم: ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ... ﴾ الآية.

وأخرج ابن مردويه عن عائشة، مرفوعاً، في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا﴾ قال عليه السلام: دَعَوْا – كذا في الإكليل – .

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ أي بحيث لايشذ عنهم أحد ﴿جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين على الإيمان، لا يختلفون فيه. أي: لكنه لايشاؤه لمخالفته للحكمة التي بنى عليها أساس التكوين والتشريع ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ أي على ما لم يشأ الله منهم ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي ليس ذلك عليك، ولا إليك، كقوله تعالى:

(١) اخرجه البخاريّ في: الطب، ٤٢ – باب من لم يَرْقِ، حديث١٦٠٥ ومسلم في: الإيمان، حديث ٣٧٤، عن ابن عباس.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يشاءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وفيه تسلية له ﷺ وترويح لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم، كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ألاَّ يَكُونُوا مُؤْمنينَ﴾ [الشعراء:٣]، ﴿فإنَّ اللَّهَ يُضِلُّ منْ يشَاءُ وَيَهدي مَنْ يشاءُ فلا تَذْهَبْ نَفْسكَ عَلَيْهم حَسَرات﴾ [فاطر:٨].

ولذا قال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿وَمَا كانَ لِنَفْسٍ أنْ تُؤمنَ إلاّ بإذْنِ اللّه﴾ أي بإرادته وتوفيقه، فلا تجهد نفسك في هداها، فإنه إلى اللّه. **﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾** أي الخذلان **﴿عَلَى الَّذينَ لا يَعْقلونَ﴾** أي حججه وأدلته لما على قلوبهم من الطبع.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾

﴿قُلِ انْظُروُا﴾ أي تفكروا **﴿مَاذا في السَّموات والأرضِ﴾** أي من الآيات الدالة على توحيده وكمال قدرته. قال السيوطي: في الآية دليل على وجوب النظر والاجتهاد، وترك التقليد في الاعتقاد. **﴿وَمَا تُغْني الآياتُ وَالنُّذُر عنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنون﴾** أي وما تنفع الآيات والرسل المنذرون، أو الإنذارات، عمن لا يؤمن. و(ما) استفهامية أو نافية.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾

﴿فَهَلْ يَنْتَظِرونَ إلاّ مِثْل أَيَّام الَّذينَ خَلَوْا منْ قَبْلِهِمْ﴾ أو وقائعه تعالى فهم، كما يقال (أيام العرب) لوقائعها، من التعبير بالزمان عما وقع فيه، كما يقال (المغرب) للصلاة الواقعة فيه. **﴿قلْ﴾** أي تهديداً لهم **﴿فَانْتظِروُا﴾** أي ما هو عاقبتكم، **﴿إنّي مَعَكُمْ من المنْتَظِرينَ﴾**. وقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ عطف على محذوف معلوم من السياق، كأنه قيل: نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا المرسلة إليهم ﴿والَّذين آمَنُوا، كَذَلِك حقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنين﴾ أي من كل شدة وعذاب. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِين تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ إنما أوثر الخطاب باسم الجنس - أعني الناس - مصدراً بحرف التنبيه، تعميماً للتبليغ، وإظهاراً لكمال العناية بشأن ما بلغ إليهم. وعبر عما هم فيه من القطع بالشك، للإيذان بأنه أقصى ما يمكن خطوره، وإلا فإن وضوح صحته، وبرهان حقّيته أوضح من الشمس في رائعة النهار. وقدّم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى، إيذاناً بمخالفتهم من أول الأمر. وفي تخصيص التوفي بالذكر، متعلقاً بهم - ما لا يخفى من التهديد، إذ لا شيء أشد عليهم من الموت. ﴿وأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بأعلى مراتب التوحيد.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾

﴿وأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة.

لطيفتان:

الأولى: إقامة الوجه للدين كناية عن توجيه النفس بالكلية إلى عبادته تعالى، والإعراض عما سواه، فإن من أراد أن ينظر إلى شيء نظر استقصاء، يقيم وجهه في مقابلته، بحيث لا يلتفت يمينًا ولا شمالاً، إذ لو التفت بطلت المقابلة، فلذا كني به عن صرف العمل بالكلية إلى الدين، فالمراد بالوجه الذات. أي: اصرف ذاتك وكليتك للدين، فاللام صلة.

الثانية: جملة (وأن أقم) عطف على (أن أكون) وجاز حكاية صلة (أن) بصيغة الأمر، لأنه لا فرق في صلة الموصول الحرفي بين الطلب وبين الخبر، لأن القصد وصلها بما يتضمن معنى المصدر، وهو يحصل بكل فعل. وقال بعضهم: إن هنا فعلاً مقدراً. اي وأوحى إليّ أن أقم، وأنه يجوز أن تكون (أن) مصدرية ومفسرة، لأن في المقدر معنى القول دون حرفه، ثم رجحه بأنه يزول فيه قلق العطف، ويكون الخطاب في وجهك في محله. وردّ بأن الجملة المفسَّرة لا يجوز حذفها، ولا قلق في هذا العطف، وأمر الخطاب سهل، لأنه لملاحظة المحكي، والأمر المذكور معه - كذا في (العناية)

وقوله تعالى: ﴿ولاَ تَكُونَنَّ من الْمُشْرِكينَ﴾ تهييج وحث له على عبادة الله تعالى، ومنع لغيره، كما تقدم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

﴿ولاَ تَدْعُ﴾ اي لا تعبد ﴿منْ دُون اللّه مَا لاَ يَنْفعُك﴾ اي لا في الدنيا ولا في الآخرة إن عبدته ﴿ولا يَضُرُّكَ﴾ إن لم تعبده ﴿فَإنْ فَعَلْتَ﴾ اي عبدته ﴿فإنَّكَ إذاً من الظَّالمينَ﴾ اي الضّارّين لنفسك أو بوضع الأمر في غير موضعه ﴿إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

﴿وإنْ يَمْسَسْكَ اللّهُ بضر فلاَ كاشفَ لَهُ إلاَّ هوَ وإنْ يُردْكَ بخير فلا رَادَّ لفَضْله يُصيبُ به من يشاء منْ عبَاده وهُوَ الغفورُ الرَّحيمُ﴾: لما نهى تعالى عن عبادة الأوثان، ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر، بين أنه سبحانه هو الضار النافع، الذي إن أصاب بضر لم يقدر على كفه إلا هو وحده، دون كل أحد، كيف بالجماد الذي لاشعور به. وكذلك إن أراد بخير، لم يردّ أحد ما يريده من فضله وإحسانه، فكيف بالأوثان؟ فهو الحقيقي، إذاً بأن توجه إليه العبادة دونها.

لطائف:

قيل: ذكر المس في أحدهما، والإرادة في الثاني، للإشارة إلى أنهما متلازمان، فما يريده يصيبه، وما يصيبه لا يكون إلا بإرادته. لكنه صرح في كل منهما بأحد الأمرين، إشارة بالذات، فلذا لم يعبر فيه بالإرادة.

وقيل: قصد الإيجاز، فذكر في كل من الفقرتين المتقابلتين ما يدل على إرادة مثله في الأخرى، لاقتضاء المقام تأكيد كل من الترغيب والترهيب، وهو نوع من البديع يسمى احتباكًا.

قال أبو السعود: على أنه قد صرح بالإصابة حيث قيل (يصيب به) إظهاراً لكمال العناية بجانب الخير، كما ينبئ عنه ترك الاستثناء فيه. أي: يصيب بفضله الواسع المنتظم لما أرادك به من الخير.

روى ابن عساكر عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات ربكم، فإن لله نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوه أن يستر عوراتكم، ويؤمّن روعاتكم. ورواه عن أبي هريرة بمثله.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾

﴿**قُلْ**﴾ أي لأولئك الكفرة الفجرة، بعد ما بلغتهم دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، وأنذرتهم، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ**﴾ يعني القرآن ﴿**فَمَنِ اهْتَدَى**﴾ أي الإيمان به، ﴿**فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ**﴾ أي منفعة اهتدائه لها خاصة. ﴿**وَمَنْ ضَلَّ**﴾ أي بالكفر به ﴿**فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**﴾ أي فوبال الضلال عليها. والمعنى: لم يبق لكم بمجيء الحق عذر، ولا على الله حجة، فمن اختار الهدى واتباع الحق، فما نفع إلا نفسه، ومن آثر الضلال، فما ضر إلا نفسه، وفيه تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد إليه، عليه السلام، من جلب نفع أو ضر، كما يلوح به إسناد المجيء إلى الحق، من غير إشعار بكون ذلك بواسطته، - أفاده أبو السعود -.

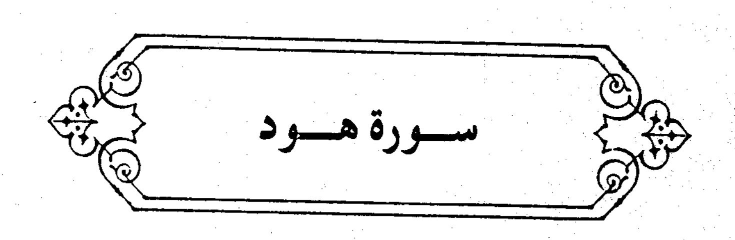
﴿**وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ**﴾ أي بحفيظ موكول إليّ أمركم، وإنما أنا بشير ونذير.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

﴿**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ**﴾ أي في التبليغ، وإن لم يهتدوا به، ﴿**وَاصْبِرْ**﴾ أي على أذاهم في الدعوة. ﴿**حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ**﴾ أي لك بالنصرة عليهم والغلبة ﴿**وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**﴾ وقد حكم وشاء قتلهم وأسرهم يوم بدر، وله الأمر من قبل ومن بعد.

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة هود

أضيفت إليه لتضمنها نبأه مع قومه، وتمييزاً لها، وإن تضمنت أنباء غيره من الأنبياء عليهم السلام.

وقال المهايمي: سميت به لقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦]، الدال على توحيد الأفعال، مع استقامته بإعطاء كل مستعد ما يستعد له، المقتضية للأحكام والجزاء، وهي من أعظم المقاصد.

وهي مكية. واستثنى منها ثلاث آيات أنزلت بالمدينة فالحقت بها: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ﴾ [هود:١٢] ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [هود: ١٧] ، ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ [هود:١١٤] .

وآياتها مائة وثلاث وعشرون.

روى الحاكم عن أبي بكر رضي اللّه عنه قال: يارسول اللّه! قد شبتَ! قال: قد شَيبتني (هود) و(الواقعة) و(المرسلات) و(عمّ يتساءلون) و(إذا الشمس كورت) ورواه هو والترمذي عن ابن عباس.

وروي أيضاً عن أنس وسهل وعمران، وفي رواية: شيبتني هود وأخواتها ذكر يوم القيامة وقصص الأمم. وفي رواية: شيبتني هود وأخواتها. وما فعل بالأمم.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾

﴿آلر﴾ تقدم الكلام على مثلها في أول سورة البقرة فليتذكر.

﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ أي نظمت نظماً رصيناً محكماً معجزاً، وأثبتت دائمة على حالها لا تتبدل ولا تتغير ولا تفسد، محفوظة عن كل نقص وآفة ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي لأنواع من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص، كما تفصل القلائد بالفرائد. أو جعلت فصولاً سورة سورة، وآية آية، أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد، أي: بيّن ولخّص.

قيل: (ثم) هنا للتراخي في الحكم، أي الرتبة أو التراخي بين الإخبارين، لا للتراخي في الوقت، لأن التفصيل والإحكام صفتان لشيء واحد، لا تنفك إحداهما عن الأخرى، فليس بينهما ترتب وتراخ، وهذا التكلف، على أن (ثم) تقتضي الترتيب، وقد خالف قوم في اقتضائها إياه، كما حكاه في (المغني).

﴿منْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي إحكامها وتفصيلها من لدن حكيم بناها على علم وحكمة، لايمكن أحسن منها، وأشد إحكاماً. وخبير بتفاصيلها على ما ينبغي في النظام الحكمي في تقديرها وتوقيتها وترتيبها – قاله القاشاني –.

قال الزمخشري: وفيه طباق حسن، لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها، أي بيّنها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾

﴿ألاّ تَعْبُدُوا إلاّ اللّهَ﴾ قال القاشاني: أي تنطق عليكم بلسان الحال والدلالة، ألا تشركوا بالله في عبادته، وخصوه بالعبادة.

وقال الزمخشري: ﴿ألاّ﴾ مفعول له، أي لئلا. أو (أن) مفسرة، لأن في تفصيل

الآيات معنى القول، كأنه قيل: قال لا تعبدوا إلا اللّه، أو أمركم الا تعبدوا إلا اللّه.

وقوله تعالى: ﴿إنَّني لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ كلام على لسان الرسول، أي إنني أنذركم، من الحكيم الخبير، عقابَ الشرك وتبعته، وأبشركم منه بثواب التوحيد وفائدته.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾

﴿وأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أي من الشرك ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ لطاعة. أو المعنى: ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها، كقوله: ﴿ثمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت:٣٠] و [الأحقاف:١٣].

﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَناً إلى أجلٍ مُسَمًّى﴾ أي يطوّل نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية، من عيشة واسعة. ونعم متتابعة، إلى وقت وفاتكم، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾. [النحل:٩٧].

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي ويعط كل ذي فضل في العمل الصالح في الدنيا أجره، وثواب فضله في الآخرة.

﴿وإنْ تَوَلَّوْا﴾ أي تتولوا عن التوحيد والتوبة إليه ﴿فإنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبيرٍ﴾ وهو يوم القيامة.

قال القاشاني: (كبير) أي شاق عليكم، وهويوم الرجوع إلى اللّه، القادر على كل شيء، أي يوم ظهور عجزكم، وعجز ما تعبدون، بظهوره تعالى في صفة قادريته، فيقهركم بالعذاب، ولذا قال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

﴿إلى اللّه مَرْجِعُكُمْ وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم بيّن تعالى إعراضهم بجسمهم أيضًا، إلى الإشارة إلى توليهم بقلبهم، بقوله: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ أي يزورّون عن الحق واستماعه بصدورهم ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ أي في قلوبهم ﴿وَمَايُعْلِنُونَ﴾ أي يجهرون بأفواههم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بما في ضمائر القلوب. ونظير ما حكي هنا عن مشركي مكة من كراهتهم لاستماع كلامه تعالى، ما قاله تعالى عن قوم نوح: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٧]، وما ذكرناه هو أظهر ما تحمل عليه الآية – والله أعلم –.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أي ما تعيش به، وإنما جيء بـ (على) اعتبارًا لسبق الوعد به، وتحقيقًا لوصوله إليها البتة، بطريق التكفل الشبيه بالإيجاب ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي مسكنها في الدنيا. أو في الصُّلْب ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي بعد الموت، أو في الرحم ﴿كُلٌّ﴾ أي من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي مسطور في كتاب عنده تعالى، مبين عن جميع ذلك.

ثم بين تعالى عظيم قدرته في تكوينه وإبداعه بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من الأحد إلى الجمعة ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ أي ما كان تحته قبل خلق السموات والأرض، وارتفاعه فوقها، إلا الماء. وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض – كذا في الكشاف –.

قال القاضي: أي لم يكن بينهما حائل، لا أنه كان موضوعاً على متن الماء.

قال: قتادة: ينبئنا تعالى في هذه الآية كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض.

روى الإمام أحمد[١] عن أبي رزين – واسمه لقيط بن عامر العقيليّ– قال: قلت يارسول اللّه! أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: كان في عماء، ما تحته هواء، وما فوقه هواء، ثم خلق العرش بعد ذلك. ورواه الترمذي[٢] وحسنه وقال: قال أحمد: يريد بالعماء أنه ليس معه شيء.

وقال البيهقيّ في كتاب (الأسماء والصفات): (العماء) ممدود كما رأيته مقيداً كذلك، ومعناه السحاب الرقيق، أي فوق سحاب، مدبراً له، وعالياً عليه. كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك:١٦]، يعني مَنْ فوق السماء. وقوله: (ما فوقه هواء) أي ما فوق السحاب هواء. وكذلك قوله: (وما تحته هواء) أي ما تحت السحاب هواء.

وقد قيل: إن ذلك (العمى) مقصور، بمعنى لا شيء ثابت، لأنه مما عمي عن الخلق، فكأنه قال في جوابه: كان قبل أن يخلق الخلق، ولم يكن شيء غيره. و(ما) فيهما نافية. أي: ليس فوق العمى، الذي هو لا شيء موجود، هواء، ولا تحته هواء. لأنه إذا كان غير موجود، فلا يثبت له هواء بوجه. انتهى ملخصاً.

وقال ابن الأثير: العماء في اللغة: السحاب الرقيق، وقيل الكثيف، وقيل هو الضباب. وفي الحديث حذف، أي أين كان عرش ربنا؟ دل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾.

وحكى بعضهم أنه العمى المقصور. قال: وهو كل أمر لايدركه الفَطِن.

وقال أبو عبيد: إنما تأولنا هذا الحديث على كلام العرب المعقول عنهم، وإلا فلا ندري كيف كان ذلك العماء!.

قال الأزهريّ: فنحن نؤمن به ولا نكيّف صفته.

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ أي أخلصه، متعلق بـ (خلق) أي: خلقهن لحكمة بالغة، وهي أن يجعلهن مساكن لعباده، وينعم عليهم بفنون النعم، فيعبدوه وحده، ويتسابقوا في العمل الذي يرضيه. ولما كان الابتلاء والاختبار لمن تخفى عليه عاقبة الأمور، قيل: إنه هنا تمثيل واستعارة، فشبه معاملته تعالى عباده في خلق المنافع لهم، وتكليفهم شكره، وإثابتهم إن شكروا، وعقوبتهم إن كفروا –

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤ / ١١.
(٢) أخرجه الترمذي في: التفسير، ١١– سورة هود، حدثنا أحمد بن منيع.

بمعاملة المختبر مع المختبَر، ليعلم حاله ويجازيه، فاستعير له الابتلاء على سبيل التمثيل، (ليبلوكم) موضع (ليعاملكم) ويصح أن يكون مجازاً مرسلاً، لتلازم العلم والاختبار. أي: خلق ذلك ليعلم، أي: ليظهر تعلق علمه الأزليّ بذلك.

قال القاشانيّ: جعل غاية خلق الأشياء ظهور أعمال الناس. أي: خلقناهم لنعلم العلم التفصيليّ التابع للوجود الذي يترتب عليه الجزاء، ﴿أيّكم أحسنُ عملاً﴾، فإن علم الله قسمان: قسم يتقدم وجود الشيء في اللوح، وقسم يتأخر وجوده في مظاهر الخلق. والبلاء الذي هو الاختبار هو هذا القسم – انتهى –.

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأرْضَ وَمَا بيْنَهُمَا بَاطلاً ذَلكَ ظَنُّ الَّذينَ كَفَرُوا﴾ [ص:٢٧]، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وأَنَّكُمْ إلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ، فَتَعَالَى اللّهُ الْمَلكُ الْحَقُّ، لا إِلَهَ إلاّ هُوَ ربُّ الْعَرْشِ الْكَرِيم﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجنَّ والإِنْسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ﴾ أي لأهل مكة ﴿إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ أي مُحْيَون ﴿مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا﴾ أي القول بالبعث، أو القرآن المتضمن لذكره ﴿إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي مثله في الخديعة والبطلان.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ أي جماعة من الأوقات محصورة. والعذاب هو عقاب الآخرة، أو عذاب الدنيا ببدر، أو هلاك المستهزئين الذين ماتوا قبل بدر ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أي استهزاء ﴿مَايَحْبِسُهُ﴾ أي عنا. ﴿أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْس مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي دار ونزل بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي العذاب الذي كانوا به يستعجلون.

لطيفة:

(الأمة) تستعمل في الكتاب والسنة في معان متعددة. فيراد بها الأمد، كما هنا وقوله في يوسف: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥]، والإمام المقتدى به، كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ﴾ [النحل:١٢٠]، والملة والدين كآية: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا

آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢ - ٢٣]، والجماعة كآية: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص:٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] - أفاده ابن كثير -.

ثم أخبر سبحانه عن الإنسان، وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾

﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً**﴾ أي نعمة ﴿**ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ**﴾ أي قنوط عن عَوْدِهَا، قطوع رجاءه من فضله تعالى، من غير صبر ولا تسليم لقضائه، ﴿**كَفُورٌ**﴾ عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة الله،كأنه لم ير خيراً.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾

﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي**﴾ أي المصائب التي ساءتني ﴿**إِنَّهُ لَفَرِحٌ**﴾ أي أشِر بطر ﴿**فَخُورٌ**﴾ أي على الناس بما أذاقه الله من نعمائه، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

﴿**إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا**﴾ أي على الضرّاء، إيماناً بالله، واستسلاماً لقضائه ﴿**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ أي في الرخاء والشدة، شكراً لآلائه، سابقها ولاحقها ﴿**أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ**﴾ أي لذنوبهم بتلك الشدة ﴿**وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾ أي على الصبر والأعمال الصالحة.

تنبيه:

قال القاشاني قدس سره: ينبغي للإنسان أن يكون في الفقر والغنى، والشدة والرخاء، والمرض والصحة، واثقاً بالله، متوكلاً عليه، لا يحتجب عنه بوجود نعمة، إلا بسعيه وتصرفه في الكسب، ولا بقوته وقدرته في الطلب ولا بسائر الأسباب

والوسائط، لئلا يحصل اليأس عند فقدان تلك الأسباب، والكفران والبطر والأشر عند وجودها، فيبعد بها عن اللّه تعالى، وينساه فينساه اللّه. بل يرى الإعطاء والمنع منه دون غيره. فإن أتاه رحمة من صحة أو نعمة، شكره أولاً برؤية ذلك منه. وشهود المنعم في صورة النعمة، وذلك بالقلب، ثم بالجوارح باستعمالها في مراضيه وطاعته، والقيام بحقوقه تعالى فيها، ثم باللسان بالحمد والثناء متيقناً بأنه القادر على سلبها، محافظاً عليها بشكرها، مستزيداً إياها، اعتماداً على قوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

قال أمير المؤمنين عليه السلام: إذا وصلت إليكم أطراف النعم، فلا تنفّروا أقصاها بقلة الشكر. ثم إن نَزَعها منه، فليصبر ولا يتأسف عليها، عالماً بأنه هو الذي نزع دون غيره، لمصلحة تعود إليه، فإن الرب تعالى كالوالد المشفق في تربيته إياه، بل أرأف وأرحم، فإن الوالد محجوب عما يعلمه تعالى، إذ لا يرى إلا عاجل مصالحه وظاهرها، وهو العالم بالغيب والشهادة، فيعلم ما فيه صلاحه عاجلاً وآجلاً، راضياً بفعله، راجياً إعادة أحسن ما نزع منها إليه، إذ القانط من رحمته بعيد منه، لا يستوسع رحمته لضيق وعائه، محجوب عن ربوبيته، لا يرى عموم فيض رحمته ودوامَه. ثم إذا أعادها لم يفرح بوجودها، كما لم يحزن بفقدانها، ولا يفخر بها على الناس، فإن ذلك من الجهل، وظهور النفس، وإلا لعلم أن ذلك ليس منه وله، وبأي سبب يسوغ له فخر بما ليس له ومنه؟ بل للّه ومن اللّه.

وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ استثناء من (الإنسان) أي هذا النوع يؤوس كفور، فرح فخور، في الحالين، إلا الذين صبروا مع اللّه واقفين معه، في حالة الضراء والنعماء والشدة والرخاء، كما قال عمر رضي اللّه عنه: الفقر والغنى مطيتان، لا أبالي أيهما أمتطي. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ به صَدْرُكَ﴾ أي بتلاوته عليهم، وتبليغه إليهم، ﴿أنْ يَقُولُوا﴾ أي مخافة أن يقولوا، تعامياً عن تلك البراهين التي لا تكاد تخفى صحتها على أحد ممن له أدنى بصيرة، وتمادياً في العناد على وجه الاقتراح

﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ أي هلاّ أنزل عليه ما اقترحنا من الكنز والملائكة، زعماً أن الرسول متبوع، لا بد له من الإنفاق على أتباعه، ولا يتأتى مع عدم سلطنته إلا بإلقاء الكنز عليه، أو مجيء مَلك معه يصدق برسالته، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾ أي ليس عليك إلا الإنذار بما أوحي إليك، غير مبال بما صدر منهم من الاقتراح ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي فيحفظ ما يقولون ويجازيهم عليه، فَكِلْ أمرك إليه، وبلغ وحيه بقلب منشرح، غير مبال بهم.

لطائف:

الأولى - قال القاشانيّ: لما لم يقبلوا كلامه ﷺ بالإرادة، وأنكروا قوله بالاقتراحات الفاسدة، وقوله بالعناد والاستهزاء، ضاق صدره، ولم ينبسط للكلام، إذ الإرادة تجذب الكلام، وقبولُ المستمع يزيد نشاط المتكلم، ويوجب بسطه فيه، وإذا لم يجد المتكلم محلاً قابلاً لم يتسهل له، وبقي كرباً عنده، فشجعه الله تعالى بذلك، وهيّجَ قوته ونشاطه بقوله: ﴿إِنَّما أَنتَ نَذِيرٌ﴾، فلا يخلو إنذارك من إحدى الفائدتين: إما رفع الحجاب بأن ينجع فيمن وفقه الله تعالى لذلك، وإما إلزام الحجة لمن لم يوفق لذلك، ثم كِلِ الهداية إليه.

الثانية - لا يخفى أن (لعل) للترجي، وهو، وإن اقتضى التوقع، إلا أنه لا يلزم من توقع الشيء وقوعه، ولا ترجح وقوعه، لوجود ما يمنع منه. وتوقع ما لا يقع منه، المقصود تحريضه على تركه، وتهييج داعيته.

وقيل: (لعل) هنا للتبعيد لا للترجي، فإنها تستعمل كذلك، كما تقول العرب: لعلك تفعل كذا، لمن لا يقدر عليه. فالمعنى: لا تترك.

وقيل: إنها للاستفهام الإنكاريّ كما في الحديث[1]: لعلنا أعجلناك.

وقيل: هي لتوقع الكفار. فكما تكون لتوقع المتكلم، وهو الأصل، لأن معاني الإنشاءات قائمة به - تكون لتوقع المخاطب أو غيره، ممن له ملابسة بمعناه كما هنا. فالمعنى: إنك بلغت الجهد في تبليغهم أنهم يتوقعون منك ترك التبليغ لبعضه - كذا في العناية - .

(١) أخرجه البخاري في: الوضوء، ٣٤- باب من لم ير الوضوء إلا من المخرجين، حديث ١٤٤ - عن أبي سعيد الخدري.

الثالثة – إنما عدل عن (ضيّق) الصفة المشبهة إلى (ضائق) اسم الفاعل، ليدل على أنه ضيق عارض، غير ثابت، لأن رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدراً. وكذا كل صفة مشبهة إذا قصد بها الحدوث تحوّل إلى فاعل، فيقولون في سيد سائد وفي جواد جائد، وفي سمين سامن. قال:

بمنزلة أمَّا اللئيمُ فَسَامِنٌ بها، وكرامُ الناس بادٍ شحوبُها

وظاهركلام أبي حيّان أنه مقيس. وقيل إنه لمشابهة (تارك). ومنه يعلم أن المشاكلة قد تكون حقيقة – كذا في العناية – .

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾

﴿**أمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ**﴾ أي ما يوحى إليك. وفي (أم) وجهان منقطعة مقدرة بـ (بل والهمزة الإنكارية) أي: بل أيقولون. ومتصلة والتقدير: أيكتفون بما أوحينا إليك، وهو ما في الإعجاز، أم يقولون ليس من عند الله.

﴿**قُلْ فَأْتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْله مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا**﴾ أي للاستعانة ﴿**مَنِ اسْتَطَعْتُمْ**﴾ أي من الإنس والجن. وقوله: ﴿**مِنْ دُونِ اللّهِ**﴾ متعلق بـ ﴿**ادعوا**﴾، أي متجاوزين الله تعالى: ﴿**إنْ كُنْتُمْ صادِقينَ**﴾ أي في أني افتريته، فأنتم عرب فصحاء مثلي، لاسيّما وقد زاولتم أساليب النظم والنثر والخطب.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

﴿**فإنْ لَمْ يَسْتَجيبُوا لَكُمْ فاعْلَمُوا أنَّمَا أُنزِلَ بِعلْمِ اللّهِ**﴾ أي بما لا يعلمه غيره من نظم معجز للخلق، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليها ﴿**وأَنْ لا إلهَ إلاّ هُوَ**﴾ أي واعلموا عند ذلك أن لا إله إلا الله، وأن توحيده واجب، والإشراك به ظلم عظيم، ﴿**فَهَلْ أَنْتُمْ**

مُسْلِمُونَ﴾ أي مبايعون بالإسلام، منقادون لتوحيد اللّه، وتصديق رسوله، بعد هذه الحجة القاطعة؟

لطائف:

الأولى – قيل: تُحُدُّوا أولاً بعشر سور، فلما عجزوا تُحُدُّوا بسورة، وذهب المبرد إلى أن الأمر بالعكس، ووجهه بأن ما وقع أولاً هو التحدي بسورة مثله في البلاغة والاشتمال على ما اشتمل عليه من الإخبارعن المغيبات والأحكام وأخواتها، وهي الأنواع التسعة المنظومة في قول بعضهم:

ألا إنما القرآنُ تسعةُ أحرفٍ سأنبيكَها في بيت شعر بلا مَلَلْ

حلال، حرامٌ، مُحْكَمٌ مُتَشابِهٌ بَشيرٌ نَذيرٌ، قِصَّةٌ، عِظَةٌ، مَثَلْ

فلما عجزوا عن ذلك، أمرهم بالإتيان بعشر سور مثله في النظم، وإن لم تشتمل على ما اشتمل عليه، ويشهد له توصيفها بـ(مفتريات).

وقيل: إن التحدي بسورة وقع بعد إقامة البرهان على التوحيد، وإبطال الشرك، فتعين أن يكون لإثبات النبوة بإظهار معجزة، وهي السورة الفذة. والتحدي بعشر وقع بعد تعنتهم واستهزائهم، واقتراحهم آيات غير القرآن، لزعمهم أنه مفترى. فمقامه يناسبه التكثير، لأنه أمر مفترى عندهم، فلا يعسر الإتيان بكثير مثله – كذا في العناية – .

الثانية – ضمير (لكم) للنبيﷺ وجمع للتعظيم، كما في قول من قال:

* وإن شئت حرمت النساء سواكم *

أوْ له وللمؤمنين، لأنهم أتباعه في الأمر بالتحدي، وفيه تنبيه لطيف على أن حقهم ألا ينفكوا عنه، عليه الصلاة والسلام، ويناصبوا معه لمعارضة المعارضين، كما كانوا يفعلونه في الجهاد. وإرشاد إلى أن ذلك مما يفيد الرسوخ في الإيمان، والطمأنينة في الإيقان، ولذلك رتب عليه قوله عز وجل: ﴿فاعلموا...﴾ الخ. وجوز أن يكون الخطاب في الكل للمشركين من جهته عليه السلام، داخلاً تحت الأمر بالتحدي، والضمير في (لم يستجيبوا) لـ(من استطعتم) أي: فإن لم يستجب لكم سائر من تجارون إليهم في مهماتكم إلى المعاونة، فاعلموا أن ذلك خارج عن دائرة قدرة البشر، وأنه منزل من خالق القُوى والقُدَر – كذا في أبي السعود – .

ثم بين تعالى وعيد من آثر الحياة الدنيا على الآخرة – وهم الكفار – بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾

﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ**﴾ أي نوصل إليهم جزاء أعمالهم فيها من الصحة والرزق.

القول في تأويل قوله تعالى:

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿**أُولَئِكَ الَّذِين لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا**﴾ أي وحبط في الآخرة ما صنعوه، أن لم يكن لهم ثواب عليه. وجوز تعلق الظرف بـ (صنعوا) والضمير للدنيا، كما عاد عليه في قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ [هود:١٥]، ﴿**وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ أي كان عملهم في نفسه باطلاً، لأنه لم يعمل لغرض صحيح.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً.، كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء:١٨ – ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

لطيفة:

في إعراب ﴿باطل﴾ وجهان:

الأول – كونه خبراً مقدماً، و(ما كانوا) مبتدأ مؤخراً: و(ما) مصدرية أو موصولة، والكلام من عطف الجمل.

والثاني – كونه عطفاً على الأخبار قبله أي: أولئك باطل ما كانوا يعملون. و﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فاعل بـ (باطل) ورجح هذا بقراءة زيد بن عليّ رضي الله عنهما: (وَبَطَلَ) ماضياً معطوفاً على (حَبِطَ).

ثم أشار تعالى إلى صفة المؤمنين، في مقابلة أولئك، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

﴿ **أفمنْ كانَ على بَيِّنَةٍ منْ ربِّه** ﴾ اي برهان نيّر، عظيم الشأن، يدل على حقيّة ماثبت عليه من الإسلام، وهوالقرآن ﴿ **ويَتْلُوهُ** ﴾ اي يتبعه ﴿ **شَاهِدٌ منْهُ** ﴾ أي من القرآن نفسه، يشهد له بكونه من عند اللّه تعالى، وهو إعجازه. وفسرت (البينة) أيضاً بالإسلام سماه بينة لغاية ظهوره، إذ هو دين الفطرة، قبل تدنيسها برجس الوثنية و(الشاهدُ) بالقرآن فالضمير للرب تعالى. ﴿ **ومِنْ قَبْلِه** ﴾ اي القرآن ﴿ **كِتَابُ مُوسى** ﴾ وهو التوراة. أي: ويتلو تلك البينة من قبله كتاب موسى، مقرراً لذلك أيضاً. وقوله تعالى: ﴿ **إمَاماً** ﴾ أي مقتدى به في الدين ﴿ **ورَحْمَةً** ﴾ أي نعمة عظيمة على المنزل إليهم، تهديهم وتعلمهم الشرائع. ﴿ **أولئكَ** ﴾ اي من كان على بينة ﴿ **يؤْمنُونَ به** ﴾ اي بالقرآن فلهم الجنة، ﴿ **ومَنْ يكْفرْ به منَ الأحْزاب** ﴾ يعني أهل مكة، ومن ضامَّهم من المتحزبين على رسول اللّه صلوات اللّه عليه ﴿ **فالنَّارُ موْعدُهُ فلا تكُ في مريَةٍ منْهُ** ﴾ اي شك من القرآن أو من الموعد ﴿ **إنَّهُ الْحقُّ من ربِّكَ ولَكنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤمِنُونَ** ﴾.

أي به. إما لقصور أنظارهم واختلال أفكارهم. وإما لعنادهم واستكبارهم.

لطائف:

الأولى - (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿ **أفَمَنَ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ منْ ربِّه** ﴾ مبتدأ حذف خبره، لإغناء الحال عن ذكره. وهذا سر حذف معادل الهمزة كثيراً. وتقديره: أفمن كان على بينة من ربه كأولئك الذين ذكرت أعمالهم، وبين مصيرهم ومآلهم - كذا قال أبو السعود-.

وفي (شرح الكشاف) أن التقدير: أمن كان يريد الحياة الدنيا، على أنها موصول، فمن كان على بينة من ربه، والخبر محذوف، لدلالة الفاء. أي: يعقبونهم أو يقربونهم. والاستفهام للإنكار فيفيد أنه لاتقارب بينهم، فضلاً عن التماثل، فلذلك صار أبلغ من نحو قوله تعالى: ﴿ **أَفَمَنْ كَانَ مُومِناً كَمَنْ كَانَ فاسِقاً، لا يَسْتُوُونَ** ﴾ [السجدة:١٨].

الثانية: قرئ (كتابَ موسى) بالنصب عطفاً على الضمير في (يتلوه) أي يتلو

القرآن شاهد ممن كان على بينة من ربه. يعني من آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وشهادتُهم على أنه حق لا مفترى، لما يجدونه مكتوباً عندهم، و(يتلو) من التلاوة، فتكون الآية كقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأحقاف: ١٠] - والله أعلم - .

الثالثة - (الأحزاب) جمع حزب. والحزب جماعة الناس. ويطلق (الأحزاب) على من تألبوا على حرب رسول الله ﷺ وكذا كل نبيّ قبله، وهو إطلاق شرعيّ، وعليه حمل الأكثر الآية، لكون السورة مكية. إلا أن اللفظ يتناوله، وكل من شاكلهم من سائر الطوائف.

وفي صحيح مسلم عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده! لايسمع بي أحد من هذه الأمة، يهوديّ أو نصرانيّ، ثم لا يؤمن بي، إلا دخل النار. قال سعيد: كنت لا أسمع بحديث من النبيّ ﷺ على وجهه، إلا وجدت مصداقه في القرآن، فبلغني هذا الحديث، فجعلت أقول: أين مصداقه في كتاب الله؟ حتى وجدت هذه الآية ﴿**وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ من الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ**﴾ قال: الملل كلها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾

﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى على الله كَذِباً**﴾ كقوله للملائكة (بَنَاتٌ لله)، وللأصنام ﴿شُفَعاءَ عِنْدَ اللهِ﴾ ﴿**أولئكَ يُعرضُونَ عَلَى رَبِّهم**﴾ أي يساقون إليه سوق العبيد المفترين على ملوكهم، ﴿**وَيقُولُ الأشْهَادُ**﴾ من الملائكة والنبيين والجوارح: ﴿**هؤلاءِ الَّذينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ألا لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الظَّالِمينَ**﴾ تهويل عظيم مما يحيق بهم حينئذ لظلمهم بالكذب على الله. قيل: ولا يبعد أن تكون الآية للدلالة على أن القرآن ليس بمفترى، فإن من يعلم حال من يفتري على الله كيف يرتكبه، كما مر في يونس في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ [طه: ٦٩].

القول في تأويل قوله تعالى:

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

﴿**الَّذينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ**﴾ أي عن دينه القويم، كلٌّ من يقدرون على صده

﴿ويَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يطلبونها معوجَّة بالكفر، أو يصفونها لهم بالاعوجاج ﴿وَهُمْ بالآخرةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾

﴿أولئك لمْ يَكُونُوا مُعْجِزينَ في الأرضِ﴾ أي يعجزونه تعالى أن يعاقبهم في الدنيا، ﴿ومَا كانَ لَهُمْ منْ دُونِ اللّه منْ أولياءَ﴾ أي يمنعونهم من عقابه، ﴿يُضاعَفُ لَهُمُ العذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ لتصامتهم عن الحق، وبغضهم له. ﴿وَمَا كَانُوا يُبصرُونَ﴾ لتعاميهم عن آيات اللّه، وإعراضهم غاية الإعراض، كما قال اللّه: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُو وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْناهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ..﴾ [النحل:٨٨] الآية.

القول في تأويل قوله تعالى:

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾

﴿أُولَئكَ الَّذين خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي سعادتها وراحتها، أو بتسليمها لعبادة الأوثان وتركها ما خلقت له من عبادته تعالى، وهذا الخسران في النفس أعظم خسارة كما قيل:

إذا كان رأسُ المال عمرَكَ فاحترسْ عليه من الإنفاق في غيْرِ واجبِ

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي غاب عنهم الآلهة وشفاعتها، ولم تُجْدِهم شيئًا.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

﴿لاَ جَرَمَ﴾ أي حقّاً، أو لا محالة ﴿أنَّهُمْ في الآخِرَةِ هُمُ الأخْسَرُونَ﴾

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾

﴿إنَّ الَّذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وأَخْبَتُواْ إلى رَبِّهِمْ﴾ أي خشعوا له وحده، ﴿أولَئكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فيها خالِدُونَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي الكفار والمؤمنين ﴿كَالأَعْمَى والأصمِّ﴾ مثل للكافر ﴿والْبَصير والسَّميع﴾ مثل للمؤمنين ﴿هلْ يسْتَويانِ﴾ أي الفريقان ﴿مثلاً﴾ أي حالاً وصفة. ﴿أفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ أي بضرب الأمثال وتدبرها.

ثم قص تعالى على نبيه ﷺ من أنباء الرسل ما يثبت فيه فؤاده، ليتسلى بما يشاهده من معاناة الرسل قبله من أممهم، ومقاساتهم الشدائد من جهتهم، وليعلم قومه أن رسالته كرسالة من تقدمه، وأن سنة اللّه فيهم معروفة. كما قال تعالى: ﴿إنَّا أَرْسَلْنَاك بالْحَقِّ بشيراً وَنذيراً، وإنْ منْ أُمَّةٍ إلا خلاَ فيها نَذيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾

﴿ولَقَد أرْسَلْنا نُوحًا إلى قَوْمِهِ﴾ وكانت امتلأت الأرض من شركهم وشرورهم ﴿إنِّي لَكُمْ نَذيرٌ مُبينٌ﴾ أي باني. وقرئ بالكسر. أي: فقال إني لكم نذير مبين، أبيِّن لكم موجبات العذاب، ووجه الخلاص منه.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾

﴿أنْ لاَ تَعْبُدُوا إلاَّ اللهَ﴾ (الباء) مقدرة هنا للتعدية. و(لا) ناهية أي أرسلناه متلبساً بالنهي عن عبادة غير اللّه. ﴿إنّي أخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ أي إن عبدتم غيره ﴿عذَابَ يَوْمٍ أَليمٍ﴾ أي مؤلم في الدنيا والآخرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِه﴾ أي السادة والكبراء. ﴿مَا نَرَاكَ إلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا﴾ أي لست بملَك، ولكنك بشر، فكيف أوحى إليك من دوننا.

قال القاشانيّ: أي فقال الأشراف المليئون بأمور الدنيا، القادرون عليها، الذين حجبوا بعقلهم ومعقولهم عن الحق: ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾ لكونهم ظاهريين، واقفين على حد العقل المشوب بالوهم، المتحير بالهوى، الذي هو عقل المعاش، ولا يرون لأحد طوراً وراء ما بلغوا إليه من العقل، غير مطلعين على مراتب الاستعدادات والكمالات، طوراً بعد طور، ورتبة فوق رتبة إلى ما لايعلمه إلا الله، فلم يشعروا بمقام النبوة ومعناها.

﴿وَمَا نَرَاك اتَّبَعَكَ إلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنا﴾ أي فقراؤنا الأدنَونَ منا؛ إذ المرتبة الرفعة عندهم بالمال والجاه، ليس إلا. كما قال تعالى ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي بديهة الرأي، لأنهم ضعاف العقول، عاجزون عن كسب المعاش، ونحن أصحاب فكر ونظر. قالوا ذلك لاحتجابهم بعقلهم القاصر عن إدراك الحقيقة، والفضيلة المعنوية، لقصر تصرفه على كسب المعاش، والوقوف على حده. وأما أتباع نوح عليه السلام، فإنهم أصحاب همم بعيدة، وعقول حائمة حول القدس، غير ملتفتة إلى ما يلتفت غيرهم إليه، فلذلك استنزلوا عقولهم واستحقروها.

تنبيه:

(بادي) قرأه أبو عمرو بالهمزة، والباقون بالياء.

فأما الأول فمعناه أول الرأي. بمعنى أنه صدر من غير روية وتأمل، أولَ وهلة.

وأما الثاني فيحتمل أن أصله ما تقدم، فقلبت الياء عن الهمزة تخفيفاً، ويحتمل أنها أصلية من بدا يبدو، كعلا يعلوا. والمعنى: ظاهر الرأي دون باطنه، ولو

تُؤمّل لعرف باطنه، وهو في المعنى كالأول. وعلى كليهما، هو منصوب على الظرفية. والعامل فيه إما (نراك) أو (اتبعك).

قال الناصر: زعم هؤلاء أن يحجّوا نوحاً بمن اتبعه من وجهين:

أحدهما – أن المتبعين آراءه، ليسوا قدوة ولا أسوة.

والثاني – أنهم مع ذلك لم يتروّوا في اتّباعه، ولا أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية، وغرض هؤلاء ألا تقوم عليهم حجة بأن منهم من صدقه وآمن به – انتهى –.

أي وكلا الوجهين يبرهنان على جهلهم وقصر عقلهم: أما الأول فلا خفاء في أنه ليس بعارٍ على الحق رذالة من اتبعه، بل أتباعه هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأدنون، ولو كانوا أغنياء. وفي الغالب، ما يتبع الحق، إلا ضعفة الخلق، كما يغلب على الكبراء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿وكَذَلكَ مَا أرْسَلْنَا منْ قَبْلكَ في قَرْيَةٍ منْ نَذيرٍ إلا قالَ مُتْرَفُوها إنّا وَجدْنَا آبَاءَنا على أُمَّةٍ وإنَّا على آثَارهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]، ولما سأل[1] هرقل، ملكُ الروم، أبا سفيان عن نعوت النبيّ ﷺ قال لهم فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم! فقال هرقل: هُمْ أتباع الرسل.

وأما الثاني: فإن البدار لاعتناق الحق من أسمى الفضائل، لأن الحق إذا وضح فلا يبقى للرأي ولا للفكر مجال، ولا بد من اتّباعه حالتئذ لكل ذي فطنة، ولايتردد إلا غبيّ أو عييّ ولا أجلى مما يدعو إليه الرسل عليهم السلام.

وقوله تعالى: ﴿وما نَرى لَكُمْ﴾ خطاب لنوح وأتباعه ﴿عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ﴾ أي تقدّم يؤهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة، لأن الفضل محصور عندهم بالغنى والمال.

قال الزمخشري: كان الأشرف عندهم من له جاه ومال، كما ترى أكثر المتّسمين بالإسلام يعتقدون ذلك، ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم. ولقد زلَّ عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرّب أحداً من الله، وإنما يبعده ولا يرفعه، بل يضعه، فضلاً عن أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوّة، والتأهيل لها. على أن الأنبياء عليهم السلام بُعثُوا مرغّبين في طلب الآخرة. مصغّرين لشأن الدنيا، وشأن من أخلد إليها، فما أبعدَ حالهم عليهم السلام من الاتّصاف بما يبعد من الله، والتشرف بما هو ضعة عند الله!

(١) أخرجه البخاري في: بدء الوحي، ٦– حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، حديث رقم ٧.

وقوله تعالى: ﴿بلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبينَ﴾ أي فيما تدعونه من الإصلاح وترتب السعادة والنجاة عليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

﴿قالَ﴾ أي نوح ﴿ياقومِ أرأيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إنْ كُنْتُ على بيِّنةٍ﴾ أي برهان ﴿منْ ربِّي وآتاني رحْمَةً﴾ أي هداية خاصة كشفيّة ﴿منْ عنْدِه﴾ أي فوق طور العقل من العلوم اللدنية، ومقام النبوة ﴿فعُمِّيَتْ علَيْكُمْ﴾ أي لاحتجابكم بالظاهر عن الباطن، وبالخليقة عن الحقيقة ﴿أنُلْزِمُكُمُوها وأنْتُمْ لها كارِهُونَ﴾ يعني أنكرهكم على قبولها، ونقسركم على الاهتداء بها، وأنتم تكرهونها، ولا تختاورنها، و﴿لا إكْراهَ في الدِّينَ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فالاستفهام للإنكار، اي لا نقدر على ذلك، والذي في وسعنا دعوتكم إلى الله، لا أن نضطركم إليها، فإن شئتم تلقيها فزكّوا نفوسكم، واتركو إنكاركم، وفي طيّ جوابه عليه السلام حثٌّ على تدبرها، وردّ عن الإعراض عنها، بأسلوب فائق.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾

﴿ويَا قَوْمِ لاَ أسْألُكُم علَيْه﴾ أي على تبليغ التوحيد ﴿مالاً، إنْ أجْرِيَ إلاَّ علَى اللّه﴾ قال القاشانيّ: أي الغرض عندكم من كل أمر، محصورٌ في حصول المعاش، وأنا لا أطلب ذلك منكم، فتنبهوا لغرضي، وأنتم عقاء بزعمكم.

ثم لما بيّن أن لا وجه لكراهة دعوته، إذ لا تنقصهم من دنياهم شيئًا، فلم يبق إلا خسّة أتباعه، ولاترتفع إلا بطردهم، قال ﴿ومَا أنَا بطارِدِ الَّذينَ آمنُوا﴾ أي لأنهم أهل القربة والمنزلة عند الله، وطردهم قد يكون مانعًا لهم من الإيمان أو لأمثالهم. ولايفعل ذلك إلا عدوّ لله مناوئ لأوليائه. ولو كان طردهم سبب إيمانكم ولم يرتدوا، أخاف من طردهم شكايتهم، وهذا معنى قوله: ﴿إنَّهُمْ مُلاقُوا ربِّهِمْ﴾ أي فيخاصمون طاردهم عنده. أو المعنى: إنهم يلاقونه ويفوزون بقربه، فكيف أطردهم؟

ثم أشار إلى أن خسّتهم ليست مانعة من الإيمان، إذ لا تلحقهم، بقوله:

﴿ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ أي فتخافون لحوق خستهم، لمشاركتكم إياهم في الإيمان من جهلكم؛ إذ الخسيس لاتترك مشاركته في كل شيء. أوتجهلون مايصلح به المرء للقاء الله، ولا تعرفون الله ولا لقاءه، لذهاب عقولكم في الدنيا، أو تسفهون وتؤذون المؤمنين، وتدعونهم أراذل. أو تجهلون أنهم خير منكم،كما قال تعالى: ﴿ وكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام:٥٣]؟

ثم أشار إلى أن طردهم يستوجب عقابه تعالى بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي من اللهِ إنْ طَرَدْتُهُمْ ﴾ أي: فإن أفادكم طردُهم تعززكم، فإني أستوجب قهره بطردهم، ومن يدفعه عني؟ وفيه إعلام بأن الطرد ظلم موجب لحلول السخط قطعاً، وإنما لم يصرح به إشعاراً بأنه غنيّ عن البيان، لاسيما وقد تقدم ما يلوح به من كرامتهم بإيمانهم بالله واليوم الآخر. ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون فتنزجروا عما تقولون؟.

تنبيه:

قال بعضهم: ثمرة ذلك وجوب تعظيم المؤمن، وتحريم الاستخفاف به، وإن كان فقيراً عادماً للجاه، متعلقاً بالحرف الوضيعة، لأنه تعالى حكى كلام نوح وتجهيله للرؤساء، لما طلبوا طرد من عدّوه من الأراذل، وهي نظير قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تطْرُدِ الَّذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالْغَدَاةِ والْعَشيِّ ﴾ [الأنعام:٥٢].

ثم أشار إلى أنه عليه السلام بشر مثلهم، أوثر بالوحي والرسالة فلا يدعي ما ليس له، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ ﴾ أي رزقه وأمواله ﴿ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ولاَ أَقُولُ إنّي

مَلَكٌ﴾ اي انا أدعي الفضل بالنبوة، لا بالغنى وكثرة المال، ولا بالاطلاع على الغيب، ولا بالملكية، حتى تنكروا فضلي بفقدان ذلك **﴿ولاَ أقولُ للَّذينَ تَزْدَرِي أعْيُنُكُمْ﴾** اي تحتقرهم، وهم الفقراء المؤمنون **﴿لَنْ يؤْتِيَهُمُ اللّه خيراً﴾** اي في الدنيا والآخرة، لهوانهم عليه، كما تقولون؛ إذ الخير عندي ما عند اللّه، لا المال **﴿اللّهُ أعْلَمُ بِمَا في أنفُسِهِمْ﴾** اي من الخير، مني ومنكم، وهو اعرف بقدرهم وخطرهم، وما يعلم أحد قدر خيرهم لعظمه - .

قاله القاشانيّ: وحمل غيره هذا على تفويض ما في أنفسهم من الإيمان إلى علم اللّه إرشاداً إلى ان اللائق لكل احد الا يبتّ القول إلا فيما يعلمه يقيناً، ويبني اموره على الشواهد الظاهرة، ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة . **﴿ إنّي إذاً ﴾** اي إذا قلت ذلك **﴿لَمِنَ الظَّالِمينَ﴾** اي لبخس حقهم، وحطّ قدرهم؛ فإن الإيمان الظاهر منهم، رفع شانهم، فإذا ضموا إلى ذلك. الإيمانَ القلبيّ، كما هو الظاهر منهم، فلهم جزاء الحسنى، فمن قطع لهم بعدم نيل الخير، بعد ما آمنوا،كان ظالماً. وفيه تعريض بأنهم ظالمون في ازدرائهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قدْ جَادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جدَالَنَا﴾ اي أطلته، او اتيته بأنواعه، **﴿فأْتِنا بِمَا تَعِدُنَا﴾** اي من العذاب **﴿إنْ كُنْتَ من الصَّادقين﴾**

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾

﴿قالَ إنَّما يأتِيكُمْ بِهِ اللّهُ إنْ شاءَ﴾ يعني انه ليس موكولاً إليّ، وإنما يتولاّه الله الذي كفرتم به **﴿وما أنْتُمْ بِمُعْجِزينَ﴾** اي بالهرب او بدفعه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾

﴿ولاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إنْ أرَدْتُ أنْ أنْصحَ لَكُمْ إنْ كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ اي ايّ

شيء يجديه إبلاغي ونصحي، بدعوتكم إلى التوحيد والتحذير من العذاب، وإن كان اللّه يريد إغواءكم ليدمّركم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ أي مالك أمركم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي بعد الموت فيجازيكم بأعمالكم. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

﴿**أَمْ يَقُولُونَ**﴾ أي قوم نوح ﴿**افْتَرَاهُ**﴾ أي النصح، فهو من تتمة نبأ نوح، أو ضمير الجمع لكفار مكة، يعنون افتراء محمد صلوات اللّه عليه لنبأ نوح، جيء به معترضاً في تضاعيفه، تحقيقاً له، وتأكيداً لوقوعه، وتشويقاً للسامعين إلى استماعه؛ إذ بقي منها الأهم وهونتيجته ﴿**قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي**﴾ أي إثم كسب ذنبي ﴿**وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ**﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿**وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ**﴾ أي بعد مبالغته في بذل الوسع في النصح مع عدم نفعه إياهم ﴿**أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ**﴾ أي لا تحزن ﴿**بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ أي من التكذيب والإيذاء فقد انتهى أمرهم، حان وقت الانتقام منهم. وقيل: المعنى لا تبتئس، أي لإهلاكهم شفقة عليهم، لأنهم إنما يهلكون بما كانوا يفعلون من معاندتهم معك، فليسوا محلاً لشفقتك ولا لرحمتنا.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

﴿**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ**﴾ أي للتخلص من عذابهم ﴿**بِأَعْيُنِنَا**﴾ أي بحفظنا وكلاءتنا، كان معه من اللّه عزّ وجل حفاظاً وحراساً، يكلأونه بأعينهم من التعدي من الكفرة، ومن الزيغ في الصنعة ﴿**وَوَحْيِنَا**﴾ أي إليك، كيف تصنعها وتعليمنا وإلهامنا. قيل: لم يكن قبْله سفينة. ﴿**وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ أي ولا تدعني، في استدفاع العذاب عنهم، بشفاعتك ﴿**إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ**﴾ أي محكوم عليهم بالطوفان، وقد وجب ذلك، فلا سبيل إلى كفّه. كقوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ

رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود:٧٦].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾

﴿وَيصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة. وقيل: تقديره وأخذ يصنع الفلك، ﴿وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ ملأٌ مِنْ قَوْمِه سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي هزئوا به، بمعالجة السفينة ﴿قالَ إنْ تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ أي في صنع الفلك ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ أي لجهلكم ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ منْ يأتِيه عَذَابٌ يُخْزيه﴾ أي في الدنيا فيجعله محلاً للسخرية ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أي في الآخرة، يدوم معه الخزي.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

﴿حَتَّى إِذَا جاءَ أَمْرُنا﴾ أي بإهلاك قومه. و﴿حَتَّى﴾ غاية لقوله (وَيَصْنَعُ) وما بينهما حال من الضمير فيه، و(سَخِرُوا مِنْهُ) جواب (كُلَّمَا). ﴿وفَارَ التَّنُورُ﴾ أي وجه الأرض أو كل مفجر ماء، أو محفل ماء الوادي، أو عين ماء معروفة، أوالكانون الذي يخبز فيه، أو تنوير الفجر - أقوال حكاها اللغويون والمفسرون - زاد بعضهم احتمال أن يكون هذا كناية عن اشتداد الأمر،كما يقال: (حمي الوطيس) والوطيس التنور، وهو من فصيح الكلام وبليغه، وعندي أنه أظهر الأوجه المذكورة وأرقها وأبدعها وأبلغها، وإن حاول الرازي رده، كأنه قيل: واشتد الأمر، وقوي انهمار الماء ونبوعه. وهذا الإيجاز في مجازه الرهيب، قد بينته آيات أخر، وهي: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ. وَفَجّرْنا الأرْضَ عيُوناً فالتَقى الْماءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدرَ﴾ [القمر:١١-١٢]

الآيات، ومما يؤيده شمولة لشدة الأمر من السماء والأرض، فيطابق هذه الآيات. وأما غيره فمقصور على ناحية الأرض فقط. وجلي أن الأمر كان أعم - والله أعلم - .

﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾ أي في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ أي صنفين من البهائم والطيور وما يدب على وجه الأرض ﴿اثْنَيْنِ﴾ أي ذكراً وأنثى.

قال أبو البقاء: يقرأ (كُلِّ) بالإضافة وفيه وجهان:

أحدهما - أن مفعول (احْمِلْ) (اثْنَيْنِ)و (مِنْ) حال.

والثاني - أن (مِنْ) زائدة، والمفعول (كُلّ) و (اثْنَيْنِ) توكيد. ويقرأ مِنْ كُلٍ (بالتنوين)، فـ (زَوْجَيْنِ) مفعول (احْمِلْ) و(اثْنَيْنِ) توكيد له، و(مِنَ) متعلقة بـ (احْمِلْ) أو حال. انتهى.

﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي من يتصل بك في دينك وسيرتك من أقاربك، ﴿إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ﴾ أي وجب عليه ﴿الْقَوْلُ﴾ أي بالإغراق بسبب ظلمه، ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أي احمله معك فيها. قال أبو السعود: وإفراد الأهل منهم للاستثناء المذكور، وإيثار صيغة الإفراد في (آمَنَ) محافظة على لفظ (مَنْ) للإذان بقلتهم، كما أعرب عنه قوله، عزّ قائلاً: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١)

﴿وَقَالَ﴾ أي نوح عليه السلام لمن معه من المؤمنين ﴿ارْكَبُوا فِيهَا﴾ أي السفينة ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْسَاهَا﴾ قال الزمخشري: يجوز أن يكون كلاماً واحداً، وكلامين، فالكلام الواحد أن يتصل (بِسْمِ اللّهِ) بـ (ارْكَبُوا) حالاً من الواو، بمعنى: ركبوا فيها مسمين الله، أو قائلين بسم الله وقت إجرائها، ووقت إرسائها، إما لأن المجري والمرسى للوقت، وإما لأنهما مصدران، كالإجراء والإرسال، حذف منهما الوقت المضاف، كقولهم: (خفوق النجم) و(مقدم الحاج) ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء وانتصابهما، بما في (بِسْمِ اللّهِ) من معنى الفعل، أو بما فيه من إرادة القول.

والكلامان: أن يكون ﴿بِسْمِ اللّهِ مَجْراهاَ وَمُرْسَاهَا﴾ جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة أي: بسم الله إجراؤها وإرساؤها يروى أنه كان إذا أراد أن تجري قال: بسم الله، فجرت، وإذا أراد أن ترسوا قال: بسم الله، فرست. وجوز أن يقحم الاسم، كقوله: * ثم اسم السلام عليكما *. ويراد: بالله إجراؤها وإرساؤها، أي بقدرته وأمره،

ومعنى قولنا: (جملة مقتضبة) أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم اللّه أو بأمره وقدرته. ويحتمل أن يكون غير مقتضبة، بأن تكون في موضع الحال من ضمير (الفلك) كأنه قيل: اركبوا فيها مجراة ومرساة بسم اللّه، بمعنى التقدير، كقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خالدينَ﴾ [الزمر:٧٣]. أنتهى - .

تنبيهات:

الأول - قرأ الإخوان - حمزة والكسائي وحفص - (مَجْرَاهَا) بفتح الميم، والباقون بضمها. واتفق السبعة على ضم ميم (مرساها). وقد قرأ ابن مسعود والثقفي (مَرْسَاهَا) بفتح الميم أيضاً. وقرئ بضم الميم وكسر الراء والسين وياء بعدهما، بلفظ اسم الفاعل. مجروري المحل، صفتين للّه.

الثاني - ماوقع بعد الراء من الألفات المنقلبة عن الياء، التي للتأنيث، أو للإلحاق، أَمَالَهُ حمزة والكسائي وأبو عمرو، ووافقهم حفص في إمالة (مَجْرَاهَا) هنا، ولم يُمِلْ غيره.

الثالث - أخذ بعضهم من الوجه الأول في (بِسْمِ اللّه مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) أعني تقدير قائلين، استحباب التسمية. وذكره تعالى عند ابتداء الجري والإرساء. وهو مؤيد بقول تعالى في سورة المؤمنون: ﴿فإذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْك فقُلِ الْحَمْدُ للّه الَّذي نَجَّانَا من الْقَوم الظَّالمين، وَقُلْ ربِّ أنزلْني مُنْزَلاً مُباركاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمنْزلينَ﴾ [المؤمنون:٢٨-٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذي خَلَقَ الأزْواجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ منَ الْفُلْك والأنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ، لتَسْتَوُوا عَى ظُهُوره ثُمَّ تَذْكُروا نعْمَةَ رَبِّكُمْ إذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذي سَخَّرَ لَنَا هذَا﴾ [الزخرف:١٢ - ١٣] الآية، وجاءت السنة بالحث على ذلك، والندب إليه أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿إنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحيمٌ﴾ جملة مستأنفة، بيان للموجب للإنجاء، أي لولا مغفرته ورحمته لغرقتم وهلكتم مثل قومكم، أو تعليل لـ (ارْكَبُوا) لما فيه من الإشارة إلى النجاة؛ فكأنه قيل: اركبوا لينجيكم اللّه.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ متصل بمحذوف،دل عليه (ارْكَبُوا)، أي فركبوا مسمين

وهي تجري، وهم فيها. ﴿في مَوْجٍ كالْجِبَالِ﴾ وذلك أنه لما تفتحت أبواب السماء بالماء، وتفجرت ينابيع الأرض تعاظمت المياه، وعلت أكناف الأرض، وارتفعت فوق الجبال الشامخة بخمسة عشر ذراعاً، وكان ما يرتفع من الماء عند اضطرابه من أمواجه كالجبال.

﴿وَنَادى نُوحٌ ابْنَهُ وكَانَ في مَعْزِلٍ﴾ أي في متنحى عن أبيه ﴿يابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا﴾ أي ادخل في ديننا، واصحبنا في السفينة ﴿ولاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ أي في الدين والانعزال، الهالكين.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

﴿قَالَ سآوي إلى جبلٍ يَعْصِمُني مِنَ الْماءِ﴾ أي فلا أغرق ﴿قالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أمْرِ اللّه إلاَّ منْ رَحِمَ﴾ أي لا مانع اليوم من بلائه، وهو الطوفان، إلا الراحم وهو اللّه تعالى. أو لا عاصم إلاّ مكان من رحم، وهم المؤمنون، يعني السفينة، أو لا عاصم، بمعنى لا ذا عصمة إلا من رحمه اللّه. أو (إلا) منقطعة، أي لكن من رحمه فهو المعصوم.

قال الناصر: الاحتمالات الممكنة أربعة: لا عاصم إلا راحم، ولا معصوم إلا مرحوم، ولا عاصم إلا مرحوم، ولا معصوم إلا راحم. فالأولان استثناء من الجنس، والآخران من غير الجنس. أي: فيكون منقطعاً. أي لكن المرحوم يعصم، على الأول ولكن الراحم يعصم من أراد، على الثاني.

وزاد الزمخشري خامساً وهو: لا عاصم إلا مرحوم، على أنه من الجنس، بتأويل حذف المضاف، تقديره: لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم. والمراد بالنفي التعريض بعدم عصمة الجبل، وبالمثبت التعريض بعصمة السفينة. والكل جائز وبعضها أقرب من بعض – انتهى.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُما الْمَوْجُ﴾ أي صار حائلاً بين نوح وابنه، أو بين ابنه والجبل، لارتفاعه فوقه ﴿فَكَانَ﴾ أي ابنه مع كونه فوق الجبل ﴿مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ أي الهالكين بالغرق.

وفيه دلالة على هلاك سائر الكفرة على أبلغ وجه، فكان ذلك أمراً مقرر الوقوع، غير مفتقر إلى البيان. وفي إيراد (كان) دون (صار) مبالغة في كونه منهم – أفاده أبو السعود – وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

﴿وقِيل يَا أرضُ ابْلَعي مَاءَك ويَا سَماءُ أقْلِعي وَغِيضَ الْماءُ وقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوتْ على الْجُوديّ وقِيلَ بُعْداً للقَوْمِ الظَّالِمينَ﴾ إعلام بأنه لما غرق أهل الأرض، ولم يبق ممن كفر بالله ديّار، أمر تعالى الأرض أن تبلغ ماءها الذي نبع منها، واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر، فنضب الماء، وقضي أمر الله بإنجاء من نجا، وإهلاك من هلك.

ولما أخذت المياه تتناقص وتتراجع إلى الأرض شيئاً فشيئاً، وظهرت رؤوس الجبال ، استقرت السفينة على الجودي، وهو جبل بالجزيرة قرب الموصل.

و(بُعْداً) مصدرمنصوب بمقدر، أي وبعدوا بعداً. يقال: بعد بعداً إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك، و لذلك اختص بدعاء السوء كـ (جَدْعًا) و(تَعْساً) و(اللام) متعلقة بمحذوف، أو للبيان، أو متعلقة بـ (قيل) أي لأجلهم هذا القول.

والتعرض لوصف الظلم للإشعار بعّليته للهلاك، ولتذكر ما سبق من قوله: ﴿ولاَ تُخاطِبْني في الَّذينَ ظَلَموا إنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾.

تنبيه:

هذه الآية، بلغت من أسرار الإعجاز غايتها، وحوت من بدائع الفرائد نهايتها. وقد اهتم علماء البيان لإيضاح نخب من لطائفها. ومن أوسعهم مجالاً في معارفها، الإمام السكاكي، فقد أطال وأطاب في كتابه (المفتاح) وتلطف في التبيان بالطف من نسيم الصباح، ونحن نورده بتمامه، لنعطر الألباب بعَرف مبتدئه ومسك ختامه. قال عليه الرحمة في بحث (البلاغة والفصاحة) وتعريفه الأولى بأنها بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها، ثم تقسيمه الفصاحة إلى ما يرجع إلى المعنى، وهوخلوص الكلام عن التعقيد. وإلى اللفظ وهوكونه عربياً أصلياً، جارياً على قوانين اللغة، أدْوَر على ألسنة الفصحاء، أكثر في الاستعمال، ما صورته:

وإذ قد وقفت على البلاغة، وعثرت على الفصاحة المعنوية واللفظية، فأنا أذكر على سبيل الأنموذج، آية أكشف لك فيها عن وجوه البلاغة والفصاحتين، ما عسى يسترها عنك. ثم إن ساعدك الذوق، أدركت منها ما قد أدرك من تُحُدُّوا بها وهي قوله، علت كلمته: ﴿وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعي مَاءَكِ ...﴾ إلى ﴿الظَّالِمينَ﴾.

والنظر في هذه الآية من أربع جهات من جهة علم البيان، ومن جهة علم المعاني وهما مرجعا البلاغة، ومن جهة الفصاحة المعنوية، ومن جهة الفصاحة اللفظية.

أما النظر فيها من جهة علم البيان، وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها فنقول: إنه عز سلطانه، لما أراد أن يبين معنى: أردنا أن نَرُدَّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد، وأن نقطع طوفان السماء، فانقطع، وأن نغيض الماء النازل من الماء فغاض، وأن نقضي أمر نوح، وهو إنجاز ما كنا وعدنا من إغراق قومه فقضي، وأن نسوي السفينة على الجودي فاستوت. وأبقينا الظَّلَمَة غرقى بنى الكلام على تشبيه المراد بالأمور الذي لا يتاتى منه، لكمال هيبته، العصيان، وتشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ في تكوّن المقصود، تصويراً لاقتداره العظيم، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام تابعة لإرادته، وإيجاداً وإعدامًا، ولمشيئته فيها تغييراً وتبديلاً،كأنها عقلاء مميزون، قد عرفوه حق معرفته، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره، والإذعان لحكمه، وتحتم بذل المجهود عليهم في تحصيل مواده، وتصوروا مزيد اقتداره، فعظمت مهابته في نفوسهم، وضربت سرادقها في أفنية ضمائرهم، فكما يلوح لهم إشارته كان المشار إليه مقدماً. وكما يرد عليهم أمره كان المامور به متمماً. لا تَلَقِّيَ لإشارته بغير الإمضاء والانقياد، ولا لأمره بغير الإذعان والامتثال. ثم بنى على تشبيهه هذا نظم الكلام، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَقِيلَ﴾ على سبيل المجاز – أي المرسل – عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد وهو: يا أرض ويا سماء! ثم قال كما ترى: يا أرض ويا سماء، مخاطباً لهما على سبيل الاستعارة للشبه المذكور. ثم استعار لغؤور الماء في الأرض البلع، الذي هو إعمال الجاذبة فبي المطعوم، للشبه بينهما، وهو الذهاب إلى مقرّ خفي، ثم استعار الماء للغذاء، استعارة بالكناية، تشبيهاً له بالغذاء، لتقوى الأرض بالماء في الإنبات للزروع والأشجار، تقوّيَ الآكل بالطعام، وجعل قرينة الاستعارة لفظة (ابْلَعِي) لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء، ثم أمر

على سبيل الاستعارة للشبه المقدم ذكره، وخاطب في الأمر ترشيحاً لاستعارة النداء. ثم قال: ﴿مَاءَكِ﴾ بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز، تشبيهاً لاتصال الماء بالأرض، باتصال الملك بالمالك، واختار ضمير الخطاب لأجل الترشيح. ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم ما كان. ثم أمر على سبيل الاستعارة، وخاطب في الأمر قائلاً: ﴿أَقْلِعِي﴾ لمثل ما تقدم في ﴿ابْلَعِي﴾. ثم قال: ﴿وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ واسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً﴾ لم يصرح بمنْ غاض الماء، ولا بمن قضي الأمر، وسَوَّى السفينة. وقال: ﴿بُعداً﴾ كما لم يصرح بقائل: يا أرض ويا سماء في صدر الآية، سلوكاً في كل واحد من ذلك سبيل الكناية، أن تلك الأمور العظام لاتتأتى إلا من ذي قدرة لا يُكتنه. قهّار لا يغالب. فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره – جلت عظمته – قائلَ يا أرض ويا سماء، ولا غائض مثل ما غاض، ولا قاضي مثل ذلك الأمر الهائل، وأن تكون تسوية السفينة وإقرارها، بتسوية غيره وإقراره. ثم ختم الكلام بالتعريض، تنبيهاً لسالكي مسلكهم في تكذيب الرسل، ظلماً لأنفسهم لا غير، خَتْمَ إظهارٍ، لمكان السخط، ولجهة استحقاقهم إياه، وأن قيامة الطوفان، وتلك الصورة الهائلة، ما كانت إلا لظلمهم.

وأما النظر فيها من حيث علم المعاني، وهو النظر في فائدة كل كلمة منها، وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها، فذلك أنه اختير (يا) دون سائر أخواتها، لكونها أكثر في الاستعمال، وأنها دالة على بعد المنادي الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة، وإبداء شأن العزة والجبروت، وهو تبعيد المنادي المؤذن بالتهاون به، ولم يقل: يا أرضِ! بالكسر لإمداد التهاون، ولم يقل: يا أيتها الأرض! لقصد الاختصار مع الاحتراز عما في (أيتها) من تكلف التنبيه غير المناسب بالمقام. واختير لفظ (الأرض) دون سائر أسمائها، لكونه أخف وأدور. واختير لفظ السماء لمثل ما تقدم في الأرض، مع قصد المطابقة. واختير لفظ ﴿ابلعي﴾ على (ابتلعي) لكون أخصر، ولمجيء خط التجانس بينه وبين ﴿أقلعي﴾ أوفر. وقيل: ﴿ماءك﴾ من بالإفراد دون الجمع، لما كان في الجمع من صورة الاستكثار المتأبي عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت، وهو الوجه في إفراد (الأرض) و(السماء). وإنما لم يقل: ﴿ابلعي﴾ بدون المفعول، أنْ لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء بأسرهن، نظراً إلى مقام ورود الأمر، الذي هو مقام عظمة وكبرياء. ثم إذا بين المراد اختصر الكلام مع ﴿أَقْلِعِي﴾ احترازاً عن الحشو المستغني عنه، وهو – أي الاختصار. الوجه في أن لم يقل: قيل يا أرض ابلغي ماءك فبلعت، ويا

سماءُ أقلعي فأقلعت. واختير (غيض) على (غيّض) المشدد لكونه أخصر، وقيل (الماء)، دون أن يقال: ماء طوفان السماء وكذا الأمر دون أن يقال: أمر نوح، وهو إنجاز ما كان اللّه وعد نوحاً من إهلاك قومه، لقصد الاختصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك. ولم يقل: سويت على الجودي: بمعنى أقرّت على نحو: (قيل) و(غيض) و(قضي) في البناء للمفعول اعتباراً لبناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ﴾ مَع قصد الاختصار في اللفظ. ثم قيل: ﴿بُعْداً لِلْقَوْمِ﴾ دون أن يقال: ليبعد القوم، طلباً للتأكيد مع الاختصار، وهو نزول ﴿بُعْداً﴾ وحده، منزلة ليبعدوا بعداً، مع فائدة أخرى: وهي استعمال اللام مع (بُعداً) الدال على معنى أن البُعد حق لهم، ثم أطلق الظلم ليتناول كل نوع، حتى يدخل فيه ظلمهم أنفسهم، لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في تكذيب الرسل. هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلم.

وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل: فذاك أنه قد قدم النداء على الأمر فقيل: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي، وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ دون أن يقال: ابلعي يا أرض، وأقلعي يا سماء، جرياً على مقتضى اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة. من تقديم التنبيه، ليمكّن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادى، قصداً بذلك لمعنى الترشيح. ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء، وابتدئ به لابتداء الطوفان منها، وبنزولها لذلك في القصة منزلة الأصل، والأصل بالتقديم أولى، ثم أتبعها قوله: ﴿وغيض الماء﴾ لاتصاله بقصة الماء، وأخذه بحجزتها. الاترى أصل الكلام (قيل يا أرض ابلعي ماءك، فبلعت ماءها، ويا سماء أقلعي عن إرسال الماء، فاقلعت عن إرساله، وغيض الماء النازل من السماء، فغاض) ثم أتبعه ما هو مقصود من القصة وهو قوله: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ اي انجز الموعود من إهلاك الكفرة، وإنجاء نوح ومن معه في السفينة، ثم أتبعه حديث السفينة، وهو قوله ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ ثم ختمت القصة بما ختمت. هذا كله نظر في الآية من جانبي البلاغة.

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية، فهي كما ترى نظم للمعاني لطيف، وتادية لها ملخصة مبينة، لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد، ولا التواء يُشيك الطريق إلى المرتاد، بل إذا جربت نفسك عند استماعها، وجدت ألفاظها تسابق معانيها، ومعانيها تسابق ألفاظها فما من لفظة في تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك، إلا ومعناها أسبق إلى قلبك.

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية: فألفاظها على ما نرى عربية،

مستعملة جارية على قوانين اللغة، سليمة من التنافر، بعيدة عن البشاعة، عذبة على العَذَبات، سلسة على الأسلات، كلٌّ منها كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة وكالنسيم في الرقة. ولله در شأن التنزيل! لا يتأمل العالم آية من آياته، إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر ولا تظنن الآية مقصورة على ما ذكرت، فلعل ما تركت أكثر مما ذكرت، لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمي المعاني والبيان، وأن لا علم في باب التفسير (بعد علم الأصول) أقرأ منهما على المرء لمراد الله تعالى من كلامه، ولا أعون على تعاطي تأويل مشتبهاته، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه، وهو الذي يوفي كلام رب العزة من البلاغة حقه، ويصون له في مظان التأويل ماءه ورونقه؛ ولَكَمْ من آية من آيات القرآن تراها قد ضيمت حقها، واستلبت ماءها ورونقها، إن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم، فأخذوا بها في مآخذ مردودة، وحملوها على محامل غير مقصودة، وهم لايدرون، ولايدرون أنهم لايدرون، فتلك الآي من مآخذهم في عويل، ومن محاملهم على ويل طويل، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً - انتهى كلام السكاكي - .

وقد تصدى أبو حيان أيضاً في تفسيره المسمى بـ (النهر) للطائفها، وساق أحداً وعشرين نوعاً من البديع. وألف السيد محمد بن إسماعيل الأمير رسالة فيها سماها (النهر المورود في تفسير آية هود) أورد تلك الأنواع البديعية أيضاً، وهي: المناسبة، والمطابقة، والمجاز، والاستعارة، والإشارة، والتمثيل، والإرداف، والتعليل، وصحة التقسيم، والاحتراس، والإيضاح، والمساواة، وحسن النسق، والإيجاز، والتسهيم، والتهذيب، وحسن البيان، والتمكين، والتجنيس، والمقابلة، والذم، والوصف.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾

﴿ **وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَال ربِّ إنَّ ابني منْ أَهْلي** ﴾ إعلام بأن نوحًا حملته شفقة الأبوّة، وتعطف الرحم والقرابة، على طلب نجاته، لشدة تعلقه به، واهتمامه بأمره. وقد راعى

مع ذلك أدب الحضرة، وحسن السؤال فقال: ﴿وإنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ ولم يقل: لا تخلف وعدك بإنجاء أهلي، وإنما قال ذلك ففهمه من الأهل ذوي القرابة الصورية، والرحم النسبية، وغفل، لفرط التأسف على ابنه، عن استثنائه تعالى بقوله: ﴿إلاَّ من سَبَقَ عَلَيْهِ الْقولُ﴾ ولم يتحقق أن ابنه هو الذي سبق عليه القول، فاستعطف ربه بالاسترحام، وعرض بقوله: ﴿وأنت أَحْكَمُ الْحَاكِمِين﴾ إلى أن العالم العادل والحكيم لا يخلف وعده.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾

﴿قالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي الموعود إنجاؤهم، بل من المستثنيْن لكفرهم، أو ليس منهم أصلاً، لأن مدار الأهلية هو القرابة الدينية، ولاعلاقة بين المؤمن والكافر.

قال القاشاني: أي أن أهلك في الحقيقة هو الذي بينك وبينه القرابة الدينية، واللحمة المعنوية، والاتصال الحقيقي لا الصوري. كما قال أمير المؤمنين عليّ رضي اللّه عنه: الا وإن وليّ محمد، من أطاع اللّه، وإن بعدت لحمته. الا وإن عدوّ محمد، من عصى اللّه، وإن قربت لحمته.

﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ﴾ بيّن انتفاء كونه من أهله بأنه غير صالح، تنبيهاً على أن أهله هم الصلحاء، أهل دينه وشريعته، وإنه لتماديه في الفساد والغي، كأن نفسه عمل غير صالح، وتلويحاً بأن سبب النجاة ليس إلا الصلاح، لا قرابته منك بحسب الصورة فمن لا صلاح له، لا نجاة له. وهذا سر إيثار ﴿غَيْرُ صَالِحٍ﴾ على (عمل فاسد).

وقد قرأ يعقوب والكسائي (عَمِلَ) بلفظ الماضي، والباقون بلفظ المصدر، بجعله نفس العمل، مبالغةً، كما بيّنا.

﴿فَلاَ تسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ علْمٌ﴾ أي لا تلتمس مني ملتمساً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب؟ حتى تقف على كنهه. قالوا: والنهي إنما هو عن سؤال ما لا حاجة له إليه أصلاً، إما لأنه لا يهم، أو لأنه قامت القرائن على حاله، كما هنا، لا عن السؤال للاسترشاد.

﴿إنِّي أعظُك أنْ تكُونَ منَ الْجَاهلينَ﴾ أي أنهاك أن تكون منهم بسؤالك إياي ما لم تعلم. وقد تنبه، عليه السلام، عند ذلك التأديب الإلهي، والعتاب الرباني، وتعوّذ بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾

﴿قَالَ ربِّ إنِّي أعُوذُ بكَ أنْ أسْألَكَ مَا لَيْسَ لي به علْمٌ، وإلاَّ تغفرْ لي﴾ أي ما فرط مني ﴿وتَرحَمْني﴾ أي بالوقوف على ما تحب وترضى ﴿أكُنْ منَ الْخَاسرينَ﴾ أي الذين خسروا أنفسهم، بالاحتجاب عن علمك وحكمتك.

تنبيه:

ظاهر التنزيل أن ابنه المذكور لصلبه، ويروى عن الحسن ومجاهد ومحمد بن جعفر الباقر أنه كان ابن امرأته، ربيبه. وأيده بعضهم بقراءة عليّ: ﴿ونادى نوح ابنها﴾ - والله أعلم -.

ثم أنبأ تعالى عما قيل لنوح، بعد أن أرست السفينة على الجودي، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

﴿قيلَ يَا نُوحُ اهْبطْ﴾ أي انزل من السفينة ﴿بسَلام منَّا﴾ أي سلامة ﴿وبَركَات عَلَيْكَ وعَلى أمَم ممَّنْ مَعَكَ﴾ أي في السفينة على دينك وطريقتك إلى آخر الزمان ﴿وأمَمٌ﴾ أي ومنهم أمم ﴿سَنُمَتّعُهُمْ﴾ أي في الحياة الدنيا لاحتجابهم بها ﴿ثُمَّ يَمَسُّهمْ منَّا عَذَابٌ أليمٌ﴾ أي في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما.

لطيفة:

ذهب العلماء، في الطوفان، مذاهب شتى. فالأكثرون على أنه عمّ الأرض بأسرها، ومن ذاهب إليه أنه لم يعم إلا الأرض المأهولة وقتئذ بالبشر، ومن جانح إلى أنه لم يعمها: كلها ولم يهلك البشر كلهم. ولك فريق حجج يدعم بها مذهبه:

قال تقي الدين المقريزي في (الخطط) : إن جميع أهل الشرائع، أتباع الأنبياء، من المسلمين واليهود والنصارى قد أجمعوا على أن نوحاً هو الأب الثاني للبشر، وأن العقب من آدم عليه السلام انحصر فيه، ومنه ذرأ اللّه جميع أولاد آدم، فليس أحد من بني آدم إلا وهو من أولاد نوح، وخالفت القبط والمجوس وأهل الهند والصين ذلك، فأنكروا الطوفان. وزعم بعضهم أن الطوفان إنما حدث في إقليم بابل وما وراءه من البلاد الغربية فقط، وأن أولاء (كيومرت) الذي هو عندهم (الإنسان الأول) كانوا بالبلاد الشرقية من بابل، فلم يصل الطوفان إليهم، ولا إلى الهند والصين، والحقُّ ما عليه أهل الشرائع، وأن نوحاً عليه السلام، لما أنجاه اللّه ومن معه بالسفينة، نزل بهم، وهم ثمانون رجلاً سوى أولاده، فماتوا بعد ذلك، ولم يعقبوا، وصار العقب من نوح في أولاده الثلاثة، ويؤيد هذا قول اللّه تعالى عن نوح: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَه هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ [الصافات :٧٣]، ونحوه في الكامل لابن الأثير.

وقال ابن خلدون: اتفقوا على أن الطوفان الذي كان في زمن نوح وبدعوته، ذهب بعمران الأرض أجمع، بما كان من خراب المعمور، وهلك الذين ركبوا معه في السفينة، ولم يعقبوا فصار أهل الأرض كلهم من نسله، وعاد أباً ثانياً للخليقة - انتهى .

قال بعضهم (في تقرير عموم الطوفان، مبرهناً عليه) إن مياه الطوفان قد تركت آثاراً عجيبة في طبقات الأرض الظاهرة، فيشاهد في أماكن رواسب بحرية ممتزجة بالأصداف، حتى في قمم الجبال، ويرى في السهول والمفاوز بقايا حيوانية ونباتية مختلطة بمواد بحرية، بعضها ظاهر على سطحها، وبعضها مدفون على مقربة منه. واكتشف في الكهوف عظام حيوانية متخالفة الطباع، بعيدة الائتلاف، معها بقايا آلات صناعية، وآثار بشرية، مما يثبت أن طوفاناً قادها إلى ذاك المكان، وجمعها قسراً فأبادها، فتغلغلت بين طبقات الطين فتحجرت، وظلت شهادةً على ما كان، بأمر الخالق تعالى - انتهى -.

وقد سئل مفتي مصر الإمام الشيخ محمد عبده عن تحقيق عموم الطوفان، وعموم رسالة نوح، فأجاب بما صورته:

أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان، ولا عموم رسالة نوح عليه السلام، وما ورد من الأحاديث، على فرض صحة سنده، فهو آحاد لايوجب اليقين. والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن، إذا عدّ اعتقادها

من عقائد الدين وأما المؤرخ، ومريد الاطلاع، فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده ثقته بالراوي أو المؤرخ، أو صاحب الرأي. وما يذكره المؤرخون والمفسرون في هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية، أو عدم الثقة بها، ولا يتخذ دليلاً قطعياً على معتقد ديني. أما مسألة عموم الطوفان في نفسها، فهي موضوع نزاع بين أهل الأديان، وأهل النظر في طبقات الأرض. وموضوع خلاف بين مؤرخي الأمم: فأهل الكتاب، وعلماء الأمة الإسلامية على أن الطوفان كان عامّاً لكل الأرض، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة في أعالي الجبال، لأن هذه الأشياء مما لايتكوّن إلا في البحر، فظهورها في رؤوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عمّ الأرض. ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين أن الطوفان لم يكن عامًّا، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها. غير أنه لايجوز لشخص مسلم أن ينكر قضية أن الطوفان كان عامّاً، لمجرد حكايات عن أهل الصين، أو لمجرد احتمال التأويل في آيات الكتابِ العزيز. بل على كلٍ من يعتقد بالدين، الا ينفي شيئًا مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التي صح سندها، وينصرف عنها إلى التأويل، إلا بدليل عقلي يقطع بأن الظاهر غير مراد، والوصولُ إلى ذلك في مثل هذه المسألة يحتاج إلى بحث طويل وعناء شديد، وعلم غزير في طبقات الأرض، وما تحتوي عليه، وذلك يتوقف على علوم شتى، نقلية وعقلية. ومن هدى برأيه بدون علم يقيني، فهو مجازف ، ولا يسمع له قول ، ولا يسمح له ببث جهالاته، واللهُ سبحانه وتعالى أعلم.

واستظهر بعضهم أن الطوفان كان عامًا، إذ لم يكنِ العمران قائمًا إلا بقوم نوح، فكان عامّاً لهم، وإن كان من جهةٍ خاصًا بهم، إذ ليس ثمَّ غيرهم، قال:

هبط آدم إلى الأرض، وهو ليس بأمة إذا مضت عليها قرون ولدت أمماً، بل هو واحد تمضي عليه السنون، بل القرون، ونموّ عشيرته لا يكاد يكون إلا كما يتقلص الظل قليلاً قليلاً من آدم إلى نوح ثمانية آباء، فإن كان ثمانية آباء يعطون من الذرية أضعافًا وآلافاً، حتى يطؤوا وجه الأرض بالأقدام، وينشروا العمران في تلك الأيام، فتلك قضية من أعظم مايذكره التاريخ أعجوبة للعالمين؟ أما تلك الجبال التي وجدت فوقها عظام الأسماك، فإن كانت مما وصل إليه الطوفان، من المكان الخاص الذي سبق به البيان، فلا برهان. وإن كانت في غير ذلك المكان، فإن لم يكن وضعها إنسان، كما وجدها إنسان، كان نقل الجوارح والكواسر لتلك العظام، إلى

تلك الجبال مما يسوغه الإمكان. بهذا وبغيره مما لا يغيب عن الأفهام، تعلم أن الطوفان خاصّ عامّ: خاصّ بمكان، عامّ سائر المكان - واللّهُ أعلم - .

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

﴿ **تلْكَ** ﴾ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام ﴿ **مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيبِ نُوحيهَا إلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ ولا قَوْمُكَ من قَبل هذا** ﴾ أي الإيحاء إليك، والإخبار بها. وفي ذكرهم تنبيه على أنه لم يتعلمها؛ إذ لم يخالط غيرهم، وأنهم مع كثرتهم لم يسمعوها، فكيف بواحد منهم؟! ﴿ **فَاصْبِرْ** ﴾ أي على تبليغ الرسالة، وأذى قومك، كما صبر نوح وتوقع في العاقبة لك، ولمن كذبك، نحو ما قيض لنوح ولقومه - كذا في الكشاف - ﴿ **إنَّ الْعَاقِبَةَ** ﴾ أي في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالنعيم الأبدي، ﴿ **لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ أي عن الشرك والمعاصي.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿ **وإلَى عادٍ أخَاهُمْ هُوداً** ﴾ عطف على قوله (نوحًا). أي: وأرسلنا إلى عاد. و(أخاهم) بمعنى (واحداً) منهم كما يقولون: (يا أخا العرب) ! ﴿ **قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللّه** ﴾ أي وحده، ﴿ **مَا لَكُمْ منْ إلَهٍ غَيْرُهُ إنْ أَنْتُم إلاَّ مُفْتَرُون** ﴾ أي باتخاذ الأوثان شركاء وجعلها شفعاء.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾

﴿ **يَاقَوْمِ لاَ أسألُكُمْ عَلَيْه أجْراً إنْ أجرى إلاَّ عَلَى الَّذي فَطَرَني** ﴾ إنما خاطب كل رسول به قومه، إزاحة للتهمة، وتمحيضاً للنصيحة، فإنها لاتنجع مادامت مشوبة بالمطامع. ﴿ **أفَلاَ تَعْقِلُونَ** ﴾ أي تتفكرون، إذ تردّون نصيحة من لا يسالكم أجراً، ولا

شيء أنفى للتهمة من ذلك، أو تتدبرون الصواب من الخطأ.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿وياقوم استغفرُوا ربَّكُمْ﴾ أي من الوقوف مع الهوى بالشرك ﴿ثُمَّ توبُوا إلَيْهِ﴾ أي من عبادة غيره، بالتوجه إلى التوحيد ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ أي كثير الدر، أي الأمطار. منصوب على الحال من (السماء) ولم يؤنث، مع أنه من مؤنث، إما لأن المراد بالسماء السحاب أو المطر، فذكر على المعنى أو (مفعال) للمبالغة، يستوي فيه المذكر والمؤنث كصبور، أو الهاء حذفت من (مفعال) على طريق النسب – أفاده السمين – ﴿ويزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ﴾ أي مضمومة إليها أو معها. أي شدة إلى شدتكم بالقوة البدنية، أو بالمال أو البنين. وإنما استمالهم إلى الإيمان، ورغّبهم فيه، بكثرة المطر، وزيادة القوة، لأن القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين، حراصاً على التقوى بما ذكر، لثراء مالهم وترهيب أعدائهم وقد كانوا مثلاً في القوة كما قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، ﴿ولاَتتولَّوْا﴾ أي تعرضوا عما أدعوكم إليه ﴿مُجْرمينَ﴾ أي مصرّين على إجرامكم وآثامكم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

﴿قَالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي بحجة تدل على صحة دعواك، وذلك لقصور فهمهم، وعمى بصيتهم عن إدراك البرهان، لمكان الغشاوات الطبيعية، وإذا لم يدركوه أنكروه بالضرورة ﴿وَمَا نَحْنُ بِتاركي آلِهتنا﴾ أي عبادتها ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ حال من ضمير (تاركي) أي تركاً صادراً عن قولك. أو (عن) للتعليل، كهي في قوله: ﴿إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ﴾ [التوبة:١١٤]، أي لأجلها، فتتعلق (بتاركي) والأول أبلغ، لدلالته على كونه علة فاعلية، ولايفيده (الباء واللام). وهذا كقولهم في الأعراف: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف:٧٠].

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي مصدقين. إقناط له من الإجابة.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾

﴿إنْ نقولُ إلاَّ اعْتَرَاكَ﴾ اي مسّك ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ اي بجنون، لسبِّك إياه، وصدك عنها، وعداوتك لها، مكافأة لك منها على سوء فعلك، بسوء الجزاء، ومن ثم تتكلم بما تتكلم.

قال الزمخشري: دلت أجوبتهم المتقدمة على أنهم كانوا جفاة، غلاظ الأكباد لا يبالون بالبهت، ولا يلتفتون إلى النصح، ولا تلين شكيمتهم للرشد، وهذا الأخير دالٌّ على جهل مفرط وبله متناه، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم.

﴿قالَ إنّي اشْهِدُ اللّهَ﴾ اي عليّ ﴿واشْهَدُوا أنّي بَرِيٌّ مِمَّا تُشْرِكُونَ منْ دُونِه﴾ قال الزمخشري: من أعظم الآيات أن يواجه، بهذا الكلام، رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه يرمونه عن قوس واحد، وذلك لثقته بربه، وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم، ونحو ذلك قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿ثُمَّ اقْضُوا إليَّ ولاَ تُنْظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، أكد براءته من آلهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة اللّه، وشهادة العباد، فيقول الرجل: اللّه شهيد على أني لا أفعل كذا، ويقول لقومه: كونوا شهداء على أني لا أفعله، ولما جاهر بالبراءة مما يعبدون، أَمَرَهُمْ بالاحتشاد والتعاون في إيصال الكيد إليه، عليه السلام، دون إمهال بقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ اي أنتم وآلهتكم ﴿ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ﴾ يعني إن صح ما لوحتم به، من كون آلهتكم لها تاثير في ضرّ، فكونوا معها فيه، وباشروه أعجل ما تفعلون دون إمهال.

قال أبو السعود: فالفاء لتفريع الأمر على زعمهم في قدرة آلهتهم على ما قالوا، وعلى البراءة كليهما، وهذا من أعظم المعجزات، فإنه ﷺ كان رجلاً مفرداً بين الجم الغفير، والجمع الكثير، من عتاة عاد، الغلاظ الشداد. وقد خاطبهم بما خاطبهم، وحقّرهم وآلهتهم، وهيجهم على مباشرة مبادئ المضادة والمضارة، وحثهم على التصدي لأسباب المعازّة والمعارّة، فلم يقدروا على مباشرة شيء مما كلفوه وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً كيف لا، وقد التجأ إلى ركن منيع رفيع، حيث قال:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾

﴿إِنّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي فلا تصلون إليّ بسوء، لتوكلي على الله ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي مالك لها، قادر عليها، يصرفها كيف شاء.

قال القاشاني: بيّن وجوب التوكل على الله،وكونه حصناً حصيناً، أولاً بأن ربوبيه شاملة لكل أحد، ومن يربّ يدبر أمر المربوب ويحفظه، فلا حاجة له إلى كلاءة غيره وحفظه. ثم بأن كل ذي نفس تحت قهره وسلطانه، أسير في يد تصرفه ومملكته وقدرته عاجز عن الفعل والقوة والتأثير في غيره، لا حراك به بنفسه كالميت فلا حاجة إلى الاحتراز منه – انتهى –.

والناصية: منبت الشعر من مقدم الرأس، وتطلق على الشعر النابت فيها أيضاً، تسمية للحالّ باسم المحل: يقال: نصوت الرجل: أخذت بناصيته.

وفي العناية: وقولهم: ناصيته بيده، أي منقاد له. والأخذ بالناصية عبارة عن القدرة والتسلط، مجازاً أو كناية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تعليل لما يدل عليه التوكل، من عدم قدرتهم على إضراره. أي هو على طريق الحق والعدل في ملكه، فلايسلطكم عليّ، إذ لا يضيع عنده معتصم به، ولا يفوته ظلم.

قال في (العناية): هو تمثيل واستعارة، لأنه مطلع على أمور العباد، مجاز لهم بالثواب والعقاب، كاف لمن اعتصم، كمن وقف على الجادّة فحفظها، ودفع ضرر السابلة بها.

وهو كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، والاقتصار على إضافة الرب إلى نفسه، إما بطريق الاكتفاء لظهور المراد، وإما للإشارة إلى أن اللطف والإعانة مخصوصة به، دونهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي تتولوا، بحذف إحدى التاءين ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ

إِلَيْكُمْ﴾ أي فقامت الحجة عليكم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ استئناف بالوعيد لهم. أي: فيهلكهم، ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم ﴿وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً﴾ أي بتوليكم لاستحالته عليه، بل تضرون أنفسكم. أو بذهابكم وهلاككم لاينقص من ملكه شيء ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي رقيب عليه، مهيمن، فلا تخفى عليه أعمالكم، فيجازيكم بحسبها. أو حافظ حاكم مستولٍ على كل شيء،فلايمكن أن يضره شيء.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا، أو أمرنا بالعذاب، وهو الريح العقيم ﴿نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِين آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ونَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وقد بيّن في غير آية، منها قوله: ﴿وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَة، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وثَمانِيَةَ أيَّامٍ حُسُوماً فَتَرى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ – ٧].

فإن قلت: ما معنى تكرير التنجية؟ فالجواب: لا تكرير فيه، لأن الأول إخبار بأن نجاتهم برحمة الله وفضله، والثاني بيان ما نجوا منه، وأنه أمر شديد عظيم لا سهل، فهو للامتنان عليهم، وتحريض لهم على الإيمان. أو الأول إنجاء من عذاب الدنيا، والثاني من عذاب الآخرة، تعريضاً بأن المهلَكين كما عذبوا في الدنيا بالسموم، فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الغليظ. ويرجح الأول بملاءَمته لمقتضى المقام.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ تانيث اسم الإشارة، باعتبار القبيلة. وصيغة البعيد لتحقيرهم، أو لتنزيلهم منزلة البعيد، لعدمهم. وإذا كانت الإشارة لمصارعهم، فهي للبعيد المحسوس. وتعدى الجحود بالباء حملاً له على الكفر، لأنه المراد. أو بتضمينه معناه، كما أن (كفر) جرى مجرى (جحد). فتعدى بنفسه في قوله: ﴿(كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٠]. وقيل: (كفر) كـ (شكر) يتعدّى بنفسه وبالحرف. وظاهر كلام القاموس: أن (جحد) كذلك.

والمعنى: كفروا بالله، وأنكروا آياته التي في الأنفس والآفاق الدالة على وحدانيته. وجمع (الرسل)، مع أنه لم يرسل إليهم غير هود عليه الصلاة والسلام، تفظيعاً لحالهم، وإظهاراً لكمال كفرهم وعنادهم، ببيان أن عصيانهم له، عليه الصلاة والسلام، عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين، لاتفاق كلمتهم على التوحيد ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [البقرة: ١٣٦] - كذا في (العناية) وأبي السعود.

﴿ وَاتَّبَعُوا ﴾ أي أطاعوا في الشرك ﴿ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ لا يستدل بدليل، ولا يقبله من غيره. يريد رؤساءهم وكبراءهم، ودعاتهم إلى تكذيب الرسل.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي جعلت تابعة لهم في الدارين، أي لازمة.

قال أبو السعود: والتعبير عن ذلك بالتبعية للمبالغة، فكأنها لا تفارقهم، وإن ذهبوا كل مذهب، بل تدور معهم، حيثما داروا. ولوقوعه في صحبة اتباعهم رؤساءهم. يعني: أنهم لما اتبعوهم أُتبعوا ذلك جزاء وفاقاً.

﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ إذ عبدوا غيره - وتقدم تعدية (كفر) - ﴿ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ دعا عليهم بالهلاك أو باللعنة، وفيه من الإشعار بالسخط عليهم، والمقت، ما لا يخفى فظاعته. وتكرير حرف التنبيه، وإعادة (عادٍ) للمبالغة في تهويل حالهم، والحث على الاعتبار بنبئهم. و(قوم هود) عطف بيان لـ(عاد) فائدته النسبة بذكره عليه السلام، الذي إنما استحقوا الهلاك بسببه، كأنه قيل: عاد قوم هود الذي كذبوه. وتناسب الآي بذلك أيضاً فإن قبلها ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [هود: ٥٩]. وقبل ذلك (حفيظ) و(غليظ)، وغير ذلك مما هو على وزن (فعيل) المناسب لـ(فعول) في القوافي - والله أعلم -.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١)

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ ﴾ عطف على ما سبق بيانه من قوله: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ ﴾ أي وأرسلنا إلى

ثمود، وهي قبيلة من العرب ﴿أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ﴾ أي كوّنكم منها وحده، فإنه خلق آدم، ومواد النطف التي خلق نسله منها، من التراب ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي عمّركم فيها، أو جعلكم عمّارها، أي جعلكم قادرين على عمارتها، كقوله تعالى في الأعراف: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً﴾ [الأعراف: ٧٤]، ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي من الشرك، ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ بالتوحيد ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ أي قريب الرحمة لمن استغفره، مجيب دعاءه بالقبول.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا﴾ أي كانت تلوح فيك مخايل الخير، وأمارات الرشد، فكنا نرجوك لننتفع بك، وتكون مشاوراً في الأمور، ومسترشداً في التدابير، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك، وعلمنا أن لا خير فيك. كذا في (الكشاف).

﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي من الأوثان ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ أي من التوحيد ﴿مُرِيبٍ﴾ أي موقع في الريبة، وهي قلق النفس، وانتفاء الطمأنينة:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ أي حجة ظاهرة، وبرهان وبصيرة ﴿مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي هداية ونبوة، ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ أي ينجيني من عذابه ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ أي بالمجاراة معكم في أهوائكم، ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ أي باستتباعكم إياي ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي غير أن تجعلوني خاسراً تعريضي لسخط الله. أو فما تزيدونني، بما تقولون إلا تبصرة بكم بأن أنسبكم إلى الخسران.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ الإضافة للتشريف، والإعلام بمباينتها لما يجانسها من حيث الخلقة والخُلق ﴿لَكُمْ آيَةً﴾ أي معجزة دالة على صدق نبوّتي ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ من فرط غضب الله عليكم، لاجترائكم على آياته المنسوبة إليه.

ثم أخبر بأنهم لم يسمعوا قوله، ولم يطيعوا ، بعد رؤية هذه الآية، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾

﴿فَعَقَرُوها﴾ أي قتلوها ﴿فقَال تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثلاَثَةَ أيَّامٍ ذَلِكَ وعْدٌ غَيْرُ مكْذُوبٍ﴾ أي مردود.

قال في (الإكليل): استدل به في إمهال الخصم ونحوه ثلاثة؛ وفيه دليل على أن لـ (المثلاثة) نظراً في الشرع، ولهذا شرعت في (الخيار) ونحوه.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾

﴿فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا﴾ أي عذابنا وهو الصيحة، كما سيبيّن ﴿نَجَّيْنَا صَالِحاً والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ﴾ أي بسبب رحمة عظيمة ﴿مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ وهو هلاكهم بالصيحة ﴿إنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أي القادر على كل شيء، والغالب عليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾

﴿وأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ أي من جهة السماء، فرجفوا لها رجفة الهلاك

﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ اي هامدين موتى لا يتحركون. ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شدة الأخذ وسرعته.

القول في تأويل قوله تعالى:

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

﴿كأن لم يغنوا﴾ اي كأنهم لم يقيموا ﴿فيها﴾ اي في مساكنهم ﴿ألا إن ثمود كفروا ربهم﴾ اي فأهلكهم. ﴿ألا بعداً لثمود﴾ اي هلاكاً ولعنة، لبعدهم عن صراطه. وقد قدمنا الكلام على تفصيل نبئهم في الأعراف: بما يغني عن إعادته هنا، فليراجع.

ثم اشار تعالى إلى نبأ لوط وهلاك قومه، وهو النبأ الرابع من انباء هذه السورة بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾

﴿ولقد جاءت رسلنا﴾ اي الملائكة الذين ارسلناهم لإهلاك قوم لوط ﴿إبراهيم بالبشرى﴾ اي بولدٍ وولده. ثم بين انهم قدّموا على التبشير ما يفيد سروراً، ليكون التبشير سروراً فوق سرور، بقوله تعالى: ﴿قالوا سلاماً﴾ اي سلمنا عليك سلاماً. ﴿قال سلامٌ﴾ اي عليكم سلام، أو سلام عليكم. رفعه، إجابة باحسن من تحيتهم، لأن الرفع ادل على الثبوت من النصب.

ثم اشار إلى إحسان ضيافتهم بقوله: ﴿فما لبث أن جاء بعجلٍ حنيذٍ﴾ اي مشويّ، أو سمين يقطر وَدكه، لقوله: ﴿بعجلٍ سمينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦].

في (ما) ثلاثة اوجه: أظهرها انها نافية، وفاعل (لبث) إما ضمير (إبراهيم)، و﴿أن جاء﴾ مقدر بحرف جر متعلق به، اي: ما أبطأ في، أو بان او عن (أن جاء)، وإما (أن جاء) اي فما أبطأ، ولا تاخرمجيئه بعجل. وثاني الأوجه أنها مصدرية، وثالثها أنها بمعنى (الذي). وهي فيهما مبتدأ، و(أن جاء). خبره على حذف مضاف. أي: فلبثته، أو الذي لبثه قدر مجيئه.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾

﴿فَلَمَّا رأى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ اي لا يمدون إليه أيديهم ﴿نَكِرَهُمْ﴾ اي انكرهم، ﴿وَأَوْجَسَ﴾ اي أحس ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لظنه انهم بشر ارادوا به مكروهاً. والضيف إذا همَّ بفتكٍ لا ياكل من الطعام، في عادتهم. ﴿قَالُوا﴾ اي له لما علموا منه الخوف بإخباره لهم، كما في آية: ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ. قَالُوا لاَ تَوْجَلْ﴾ [الحجر:٥٢ - ٥٣] كما قيل هنا ﴿لاَ تَخَفْ﴾ اي إنا لا ناكل لانا ملائكة، ولم ننزل بالعذاب عليكم ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلى قَوْمِ لُوطٍ﴾ اي لإهلاكهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ اي سروراً بزوال الخيفة، او بهلاك أهل الخبائث، ﴿فَبَشَّرْناهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وراءِ إِسْحَاق يَعقُوبَ﴾ اي يولد له. والاسمان يحتمل وقوعهما في البشارة، او انها حكيا بعد ان ولدا وسُمِّيا بذلك. وتوجيه البشارة إليها هنا، مع ورود البشارة إلى إبراهيم في آية أخرى، كآية ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات:٢٨]، إيذان بمشاركتها لإبراهيم في ذلك حين ورودها، وإشارة إلى ان ذكر احدهما فيه اكتفاء عن الآخر، والمقام أمس بذكره وأبلغ. او للتوصل إلى سوق نبئها في ذلك، وخرق العادة فيه، كما لوّح به تعجبها في قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَا﴾ اي يا عجبي. واصله للدعاء بالويل ونحوه، في جزع التفجع لشدة مكروه يَدْهَمُ النفس، ثم استعمل في التعجب. والفه بدل من ياء المتكلم ولذلك امالها أبو عمرو وعاصم في رواية، وبها قرأ الحسن (يا ويلتي) وقيل: هي الف الندبة، ويوقف عليها بهاء السكت.

﴿أَأَلِدُ وأَنَا عَجُوزٌ﴾ اي امراة مسّنة - والأفصح ترك الهاء معها - وسمع من بعض

العرب (عجوزة) - حكاه يونس - ﴿وَهَذَا بَعْلِي﴾ أي زوجي إبراهيم ﴿شَيْخًا إنَّ هَذَا﴾ أي التولّد من هرمين ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي غريب، لم تَجْرِ به العادة.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي أتستبعدين من شانه وقدرته خلق الولد من الهرمين؟

قال الزمخشريّ: وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها، لأنها كانت في بيت الآيات، ومهبط المعجزات، والأمور الخارقة للعادات، فكان عليها أن تتوقر، ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيت النبوّة، وأن تسبّح اللّه وتمجده، مكان التعجب وإلى ذلك أشارت الملائكة، صلوات اللّه عليهم، في قولهم: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة، فليست بمكان عجب. والكلام مستأنف، علل به إنكار التعجب، كانه قيل: (إياكِ والتعجب) فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من اللّه عليكم - انتهى -.

فالجملة خبرية، وجوّز كونها دعائية. و(أهلَ البيت) نصب على النداء أو التخصيص، لأن أهل البيت مدح لهم، إذ المراد أهل بيت خليل الرحمن.

﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ أي مستحق للمحامد، لما وهبه من جلائل النعم ﴿مَجِيدٌ﴾ أي كريم واسع الإحسان، فلا يبعد أن يعطي الولد بعد الكبر. وهو تذييل بديع لبيان أن مقتضى حالها أن تحمد مستوجبَ الحمد المحسن إليها بما أحسن، وتمجده؛ إذ شرفها بما شرّف.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ أي خيفة إرادة المكروه منهم بعرفانهم ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ أي بدل الروع ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي في هلاكهم، استعطافًا لدفعه.

روي انه قال: أتهلك البارّ مع الأثيم، أتهلكها وفيهم خمسون بارًا؟ حاشا لك!

فقيل له: إن وجد فيهم خمسون بارًا فنصفح عن الجميع لأجلهم!

فقال: أو أربعون؟

فقيل: أو أربعون!

وهكذا إلى ان قال: أو عشرة، فقيل له. لا نهلكها من أجل العشرة، إلا أنه ليس فيها عشرة أبرار، بل جميعهم منهمك في الفاحشة. فقال: إنه فيها لوطاً! فقيل: نحن أعلم بمن فيها لننجينّه.

و﴿يُجَادِلُنَا﴾ جواب (لمّا) جيء به مضارعاً على حكاية الحال. أو أن (لمّا) كـ (لَوْ) تقلب المضارع ماضياً، كما أن (إنْ) تقلب الماضي مستقبلاً أو الجواب محذوف، والمذكوردليله أو متعلق به.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾

﴿إنَّ إبْراهيمَ لَحَليمٌ﴾ أي غير عجول على الأنتقام من المسيء ﴿أوّاهٌ﴾ كثير التأسف ﴿مُنيبٌ﴾ أي راجع إلى الله في كل ما يحبه ويرضاه. والمقصود بتعداد صفاته الجميلة المذكورة، بيان الحامل على المجادلة، وهو رقة القلب وفرط الترحم.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

﴿يا إبْرَاهيمُ﴾ أي قيل له: يا إبراهيم: ﴿أعْرِضْ عَنْ هذا﴾ أي الجدال ﴿إنَّهُ قدْ جاءَ أمْرُ رَبِّكَ﴾ أي حكمه بهلاكهم ﴿إنَّهُمْ آتيهمْ عذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ أي بجدال ولا بدعاء، ولا بغيرهما.

فوائد:

قال بعض المفسرين: لهذه الآيات ثمرات: وهي أن حصول الولد المخصص بالفضل نعمة، وهلاك العاصي نعمة، لأن البشرى قد فسِّرَتْ بولادة إسحاق، كما في آخر الآية، وهي: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإسْحاقَ﴾ الخ وفُسِّرت بهلاك قوم لوط.

ومنها: استحباب نزول المبشِّر على المبشَّر، لأن الملائكة أرسهلم الله بذلك.

ومنها: أنه يستحب للمبشَّر تلقي ذلك بالطاعة، شكراً لله تعالى على ما بُشر به.

وحكي الأصمّ أنهم جاؤوه في أرض يعمل فيها، فلما فرغ غرز مسحاته، وصلى ركعتين.

ومنها: أن السلام مشروع، وأنه ينبغي أن يكون الردّ أفضل، لقول إبراهيم: ﴿سَلامٌ﴾ بالرفع، كما تقدم سره - انتهى -

ومنها: مشروعية الضيافة، والمبادرة إليها، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها.

ومنها: استحباب خدمة الضيف، ولو للمرأة، لقول مجاهد: ﴿وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ﴾ - أي في خدمة أضياف إبراهيم. قال في (الوجيز): وكنّ لا يحتجبن، كعادة العرب ونازلة البوادي، أو كانت عجوزاً ،وخدمة الضيفان من مكارم الأخلاق.

ومنها: جواز مراجعة المرأة الأجانب في القول، وأن صوتها ليس بعورة. كذا في (الأكليل).

ومنها: أن امرأة الرجل من أهل بيته، فيكون أزواجه عليه الصلاة والسلام من أهل بيته. ويأتي ذلك أيضاً في آية: ﴿فأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود:٨١] و [الحجر:٦٥]. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾

﴿**ولَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً**﴾ أي بعد منصرفها من عند إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكان مقيماً في (بلوط مَمْرا) التي بـ (حَبْرُونَ) المدينة المعروفة اليوم بـ (الخليل)؛ ﴿**سِيءَ بِهِمْ**﴾ أي ساءه مجيئهم، لأنهم أتوه على صورة مُرْدٍ، حسان الوجوه، فخاف أن يقصدهم قومه، لظنه أنهم بشر ﴿**وضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا**﴾ يقال:ضاق بالأمر ذرعه وذراعه، وضاق به ذرعاً، أي ضعفت طاقته، لم يجد من المكروه فيه مخلصاً.

قال الجوهري: أصل الذرع بسط اليد، فكأنك تريد: مددت يدك إليه فلم تنله. وقيل: وجه التمثيل أن القصير الذراع لا ينال ما يناله الطويل الذراع، ولا يطيق طاقته فضُربَ مثلاً للذي سقطت قوته، دون بلوغ الأمر والاقتدار عليه.

وقال الأزهريّ: الذرع يوضع موضع الطاقة، والأصل فيه، أن البعير يذرع بيديه في سيره ذرعاً، على قدر سعة خطوه، فإذا حمل عليه أكثر من طوقه، طاق به ذرعاً عن

ذلك وضعف، ومدّ عنقه، فجل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة.

و(ذرعاً) تمييز، لأنه خرجَ مفسّراً محوّلاً، الأصل: ضاق ذرعي به، وشاهد الذراع قوله:

وإنْ بَاتَ وَحْشاً ليلةً لم يَضِقْ بها ذِراعاً ولم يُصْبِحْ لَهَا وهوَ خَاشِعُ

﴿ وقَالَ هَذا يومٌ عَصيبٌ ﴾ اي شديدٌ. وكيف لا يشتد عليه، وقد ألمّ المحذور، كما قال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴾ (٧٨)

﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إلَيه ﴾ أي يسرعون كانما يدفعون دفعاً. وقرئُ مبنياً للفاعل. ﴿ ومنْ قَبلُ ﴾ أي قبل مجيئهم ﴿ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي الفواحش ويكثرونها، فمرنوا عليها، وقلّ عندهم استقباحها، فلذلك جاءوا مسرعين مجاهرين، لايكفّهم حياء فالجملة معترضة لتأكيد ما قبلها. وقيل: إنها بيان لوجه ضيق صدره أي: لما عرف لوط عادتهم في عمل الفواحش قبل ذلك ﴿ قَالَ ﴾ اي لوط ﴿ يا قَومِ هؤلاءِ بَنَاتي هُنَّ أطْهَرُ لَكُمْ ﴾ أراد ان يقي اضيافه ببناته، وذلك غاية الكرم، أي فتزوجوهن. أو كان ذلك مبالغة في تواضعه لهم، وإظهار لشدة امتعاضه، مما أوردوا عليه، طمعاً في أن يستحيوا منه، ويرقّوا له إذا سمعوا ذلك فيتركوا ضيوفه – هذا ملخص ما في (الكشاف) ومن تابعه – وظاهر انه، عليه السلام كان واثقاً بأن قومه لا يؤثرونهن بوجهٍ ما، مهما أطرى وأطنب، وشوّق ورغّب، فكان إظهاره وقاية ضيفانه، وفداءهم بهن، مع وثوقه المذكور وجزمه – مبالغة في الاعتناء بحمايتهم، وقياماً بالواجب في مثل هذا الخطب الفادح الفاضح، الذي يدوم عاره وشناره، من الدفاع عنهم بأقصى مايمكن لكيلا ينسب إلى قصور. وليعلم أن لا غاية وراء هذا لمن لا ركن له من عشيرة أو قبيلة، فذلك غاية الغايات في حيطتهم ووقايتهم.

وفي قوله: ﴿ هن أطهر لكم ﴾ من التشويق، على مرأى من ضيفانه ومسمع، ما فيه من زيادة الكرم والإكرام، ورعاية الذمام. وبالجملة فهو ترغيب بمُحَال الوقوع باطناً، وإعذارٌ لنزلائه ظاهراً – والله أعلم – وفي هذا إرشاد إلى التطهر بالطرق المسنونة، وهي النكاح. وإشارة إلى تناهي وقاحه أولئك بما استأهلوا به أخذهم الآتي.

﴿فَاتَّقُوا اللّهَ﴾ أي أن تعصوه بما هو أشد من الزنى خبثاً.

﴿ولاَ تُخْزُونِ في ضَيفي﴾ أي ولا تهينوني وتفضحوني في شأنهم، فإنه إذا خزي ضيف الرجل أو جاره، فقد خزي الرجل، وذلك من عراقة الكرم، وأصالة المروءة و(تخزون) مجزوم بحذف النون، والياء محذوفة اكتفاء بالكسرة، وقرئ بإثباتها على الأصل.

﴿أَلَيْس مِنكُمْ رَجلٌ رَشيدٌ﴾ أي فيرعوي عن القبيح، ويهتدي إلى الصواب.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾

﴿قَالُوا لقد عَلِمْتَ مَا لنَا في بَناتِكَ منْ حَقٍّ﴾ أي حاجة، إذ لا نريدهن. وفي تصدير كلامهم باللام المؤذنة بأن ما بعدها جواب القسم، أي: والله لقد علمت – إشارة إلى ماذكرناه من أنه كان واثقاً وجازماً بعدم رغبتهم فيهن. وأيد ذلك قولهم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ استشهاداً بعلمه.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾

﴿قالَ لَوْ أَنَّ لي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي بدفعكم قوة، بالبدن أو الولد ﴿أَوْ ءاوي إلى رُكْنٍ شَديدٍ﴾ أي عشيرة كثيرة، لأنه كان غريباً عن قومه، شبهها بركن الجبل في الشدة والمنعة.

أي: لفعلت بكم ما فعلت، وصنعت ما صنعت.

تنبيه:

قال الإمام ابن حزم رحمه الله في (الملل):

ظن بعض الفرق أن ماجاء في الحديث الصحيح من قوله ﷺ: «رحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد»[1] إنكارٌ على لوط عليه السلام. ولا تخالف بين القولين، بل كلاهما حق، لأن لوطاً عليه السلام إنما أراد منعة عاجلة يمنع بها قومه

(١) أخرجه البخاري في: الأنبياء، ١٥– باب: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِه أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ...﴾ الخ. عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «يغفر الله للوط، إنْ كان ليَأوِي إلى رُكن شديد».

مما هم عليه من الفواحش، من قرابة أو عشيرة أو أتباع مؤمنين. وما جهل قط لوط عليه السلام أنه يأوي من ربه تعالى إلى أمنع قوة، وأشد ركن. ولاجناح على لوط عليه السلام في طلب قوة من الناس، فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ النَّاسِ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرضُ﴾ [البقرة:٢٥١] فهذا الذي طلب لوط عليه السلام.وقد طلب رسول الله ﷺ من الأنصار والمهاجرين منعه حتى يبلّغ كلام ربه تعالى، فكيف ينكر على لوط أمراً هو فعله عليه السلام. تالله!ما أنكر ذلك رسول الله ﷺ، وإنما أخبر أن لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد، يعني من نصر الله له بالملائكة. ولم يكن لوط علم بذلك. ومن اعتقد أن لوطاً كان يعتقد أنه ليس له من الله ركن شديد، فقد كفر، إذ نسب إلى نبيّ من الأنبياء هذا الكفر. وهذا أيضاً ظن سخيف إذ من الممتنع أن يظن برب أراه المعجزات، وهو دائباً يدعو إليه، هذا الظن. انتهى -

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ أي إلى إضرارك بإضرارنا **﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطَعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾** أي بطائفة من آخره. أي ببقية سواد منه عند السحَر، وهو وقت استغراقهم في النوم، فلا يمكنهم التعرض له ولا لأهله. وقرئ **﴿فَأَسْرِ﴾** بالقطع والوصل.

﴿وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي لا ينظر إلى ورائه، لئلا يلحقه أثر ما نزل عليهم **﴿إِلاّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾** أي من العذاب، فإنها لما سمعت وجبة العذاب التفتت فهلكت.

قال في (الإكليل) : فيه أن المرأة والأولاد من الأهل.

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ أي موعدهم بالهلاك الصبح، والجملة كالتعليل للأمر بالإسراء، أو جواب لاستعجال لوط واستبطائه العذاب، أو ذكرت ليتعجل في السير، فإن قرب الصبح داع إلى الإسراع في الإسراء، للتباعد عن موقع العذاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾

﴿فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سافِلَهَا﴾ أي فقلبت تلك المدن ونبتها بسكانها جميعاً. ﴿وأَمْطَرْنا عَلَيْهَا حجارةً مِنْ سِجيلٍ﴾ أي طين متحجر، كقوله: ﴿حِجَارَةً منْ طينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣]، ﴿مَنْضُودٍ﴾ أي يرسل بعضه في إثر بعض متتابعاً.

قال المهايميّ: اتصل بعضه ببعض، ليرجموا رجم الزناة، بما يناسب قسوتهم ورَيْنهم الذي اتصل بقلوبهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ معلّمة عنده ﴿وَما هِيَ﴾ أي تلك الحجارة ﴿مِنَ الظَّالِمينَ﴾ أي بالشرك وغيره ﴿بِبَعِيدٍ﴾ فإنهم بسبب ظلمهم مستحقون لها، وملابسون بها. وفيه وعيد شديد لأهل الظلم كافة. وقيل: الضمير للقرى، أي هي قريبة من ظالمي مكة، يمرون بها في أسفارهم إلى الشام، وقد صارموضع تلك المدن بحرماء أجاج لم يزل إلى يومنا هذا، ويعرف بـ (البحر الميت) لأن مياهه لا تغذي شيئاً من جنس الحيوان، وبـ (بحر الزفت) أيضاً، لأنه ينبعث من عمق مقرّه إلى سطحه، فيطفو فوقه، وبـ (بحيرة لوط) والأرض التي تليها قاحلة لا تنبت شيئاً.

قال أبو السعود: وتذكير (بعيد) على تأويل (الحجارة) بالحجر، أو إجرائه على موصوف مذكر، أي بشيء بعيد، أو لأنه على أنه المصدر كـ (الزفير) و(الصهيل). والمصادر يستوي في الوصف بها، المذكر والمؤنث.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾

﴿وَإِلى مَدْيَنَ﴾ أي وأرسلنا إلى مدين، عطف على ما قبله و(مدين) بلد بين

الحجاز والشام، على مقربة من (معان) ويطلق على أهلها، وهم قوم من العرب كانوا يعمرونها.

﴿أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي لتبخسوا الناس أشياءهم بالباطل ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي نعمة وثروة في رزقكم ومعيشتكم، وعافية وتمتع في وجودكم. يعني: فلا تتعرضوا لزوال ذلك عنكم بما تأتونه مما تُنْهَوْنَ عنه، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ أي مهلك، أو لا يشذ منه أحد.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي العدل.

قال الزمخشري فإن قلت: النهي عن النقصان أمر بالإيفاء، فما فائدة قوله: ﴿أَوْفُوا﴾؟.

قلت: نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان، لأن في التصريح بالقبيح بغياً على المنهيّ، وتعييراً له. ثم ورد الأمر بالإيفاء، الذي هو حسن في العقول، مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه، وبعث عليه. وجيء به مقيداً (بالقسط) أي ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية، من غير زيادة ولا نقصان أمراً بما هوالواجب. لأن ما جاوز العدل فضل، وأمر مندوب إليه. وفيه توقيف على أن الموفي، عليه أن ينوي بالوفاء القسط، لأن الإيفاء وجهُ حسنه أنه قسط وعدل. فهذه ثلاث فوائد. انتهى -.

﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي لا تنقصوهم حقوقهم بطريق من الطرق، كالكيل والوزن وغيرهما، فهو تعميم بعد تخصيص، لأنه أعم من أن يكون في المقدار وغيره. والبخس: الهضم والنقص. ويقال للمكس: البخس. قال زهير:

أفي كلِّ أسواق العراق إتَاوَةٌ وفي كلِّ ما باع امرؤٌ بخسُ دِرْهمِ

الا تَسْتَحي منا مُلُوكٌ وَتَتَّقِي مَحارِمَنَا لا تَتَّقي الدمَ بالدمِ

وروي ﴿(مكس درهم). يريد زهير: أخذ الخراج، وما هو اليوم في الأسواق من رسوم وظلم. وكان قوم شعيب يأخذون، من كل شيء يباع، شيئاً. كما تفعل السماسرة، أو كانوا يمكسون الناس، أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من

الأشياء، فنهوا عن ذلك - كذا في (الكشاف) و(شرحه)

قال القاشانيّ: لما رأى شعيب، عليه السلام، ضلالتهم بالشرك، واحتجابهم عن الحق بالجبت، وتهالكهم على كسب الحطام بأنواع الرذائل،وتماديهم في الحرص على جمع المال بأسوأ الخصال - نهاهم عن ذلك، وقال: إني أراكم بخير في استعدادكم من إمكان حصول كمال وقبول هداية، وإني أخاف عليم إحاطة خطيئاتكم، لاحتجابكم عن الحق، ووقوفكم مع الغير، وصرف أفكاركم بالكلية إلى طلب المعاش، وإعراضكم عن المعاد، وقصور هممكم على إحراز الفاسدات الفانيات، عن تحصيل الباقيات الصالحات، فلازموا التوحيد والعدالة، واعتزلوا عن الشرك، والظلم، الذي هو جماع الرذائل وأم الغوائل.

﴿وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي لا تعملوا فيها الفساد. يعمّ أيضاً تنقيص الحقوق وغيره، كالسرقة، والدعاء إليه، والصدّ عن الإيمان ونحوها.

القول في تأويل قوله تعالى:

بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

﴿بَقِيَّةُ اللّهِ﴾ أي ثوابه الباقي على وفاء الكيل والوزن، أو ما أبقاه عليكم بعد التنزه عن الحرام، أو ما تفضل عليكم من الربح بعد وفائهما ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي في دينكم ودنياكم ﴿إِنْ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن المؤمن يبارك له، إذا تنزه عن الحرام. أو مصدقين بما أقول.

وقال القاشانيّ: أي إن كنتم مصدقين ببقاء شيء، فما يبقى لكم عند اللّه من الكمالات والسعادات الأخروية، خير لكم من تلك المكاسب الفانية التي تشقون بها، وتشقّون على أنفسكم في كسبها وتحصيلها، ثم تتركونها بالموت، ولا يبقى منها معكم شيء إلا وبال التبعات والعذاب اللازم، لما في نفوسكم من رواسخ الهيئات.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي رقيب لأحفظكم عن القبائح وأكفكم عنها بسيطرة. وإنما أنا مبلغ نذير.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

﴿قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آباؤُنَا﴾ أي من الأصنام، أجابوا به

أمرهم بالتوحيد، على الاستهزاء والتهكم بصلواته، والإشعار بأن مثله لايدعو إليه داع عقليّ، وإنما دعاك إليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه. وكان شعيب كثير الصلاة، فلذلك جمعوا وخصوا الصلاة بالذكر. وقرئ: (أصلاتك) بالإفراد - قاله القاضي -

﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنا مَا نَشَاءُ﴾ من نقص ونحوه ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ أي الموصوف بالحلم والرشد في قومك يعنون أن ما تأمر به لايطابق حالك، وما شهرت به.

كما قال قوم صالح عليه السلام: ﴿قدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هذَا﴾ [هود:٦٢]، أو قالوا ذلك تهكماً به، والمراد أنه على الضد من ذلك. قيل: وهذا أرجح، لأنه انسب بتهكمهم قبله والأدق هو الأول لمماثلته لما خوطب به صالح، وتعقيبه بمثل ما عقّب به، وهو قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ منْ رَبِّي﴾ أي أخبروني إن كنت على برهان يقيني مما أتاني ربي من العمل والنبوة ﴿وَرَزَقَني مِنْهُ رِزْقًا حَسَناً﴾ أي مالاً حلالاً مكتسباً بلا بخس وتطفيف، أو حكمة ونبوّة، وكمالاً وتكميلاً، بالاستقامة على التوحيد. هل يصح لي أن أخون الوحي، وأترك النهي عن الشرك والظلم، والإصلاح بالتزكية والتحلية. وهو اعتذار عما أنكروه عليه من تغيير المألوف والنهي عن دين الآباء. وحذف جواب (أرأيتم) لما دل عليه في مثله، كما مرّ في نبأ نوح وصالح عليهما السلام، وعلى خصوصيته هنا من قوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى مَا أَنْهاكُمْ عَنْهُ﴾ أي وما أريد أن آتي ما أنهاكم عنه، لأستبدّ به دونكم، فلو كان صواباً لآثرته، ولم أعرض عنه، فضلاً عن أن أنهى عنه - أفاده القاضي - .

وفي (التاج): يقال: خالفه إلى الشيء: عصاه إليه، أو قصده بعد ما نهاه عنه، وهو من ذلك.

قال القاشانيّ: أي ما أقصد إلى جرّ المنافع الدنيوية الفانية، بارتكاب الظلم الذي أنهاكم عنه.

﴿إنْ أُرِيدُ إلاَّ الإِصْلاَحَ ما اسْتَطَعْتُ﴾ أي إصلاح نفوسكم بالتزكية، والتهيئة لقبول الحكمة، مادمت مستطيعاً متمكنًا منه. ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إلاَّ باللّهِ﴾ أي وما كوني موفقاً للإصلاح إلا بمعونة اللّه وتأييده. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي أعتمد ﴿وإلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجع في السراء والضراء.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾

﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أي لا يكسبنكم عدواتي ﴿أنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أوْ قَوْمَ هُودٍ أوْ قَوْمَ صالِحٍ﴾ من الغرق والريح والصيحة ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ فإن منازلهم قريبة منكم، وقد علمتم ما نزل بهم من قلب الأرض وإمطار الحجارة. وذلك لأن مخالفة الرسل تقتضي أحد هذه الأمور.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾

﴿واسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أي من عبادة الأصنام ﴿ثُمَّ تُوبُوا إلَيْه﴾ أي بالتوحيد، أو بالرجوع عن البخس والتطفيف ﴿إنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ أي للمستغفرين التائبين ﴿وَدُودٌ﴾ أي مبالغ في المحبة لهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾

﴿قالُوا يَا شُعَيْب مَا نَفْقَهُ﴾ أي ما نفهم ﴿كَثِيراً ممَّا تَقُولُ﴾ كالتوحيد، وحرمة البخس. يعنون أنهم لايقبلونه، أو قالوا ذلك استهانة به، كما يقول الرجل لمن لا يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول! أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً لا ينفعهم كثير منه و(الكثير) مراد به الكل، أو قالوه فراراً من المكابرة.

قال أبو السعود: الفقه معرفة غرض المتكلم من كلامه. أي: ما نفهم مرادك، وإنما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق البينِ على أحسن وجه وأبلغه، وضاقت عليهم الحيل، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلاً، سوى الصدود عن منهاج الحق، والسلوك إلى سبيل الشقاء، كما هو ديدن المفحَم المحجوج، يقابِل البينات بالسبِ والإبراق والإرعاد. فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ، وأنواع العلوم والمعارف، من قبيل ما لا يفهم معناه، ولا يدرك فحواه، وأدمجوا في ضمن ذلك أن في تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون من المؤاخذة والعقاب. ولعل ذلك ما فيه من التحذير من عواقب الأمم السالفة، ولذلك قالوا:

﴿ وإنّا لنَراكَ فِينا ضَعيفاً ﴾ أي لا قوة لك، فتمتنع منا إن أردنا بك سوءاً ﴿ ولَوْلاَ رَهْطُكَ ﴾ أي قومك وانهم على ملتنا ﴿ لرَجَمْنَاكَ ﴾ أي قتلناك برمي الأحجار، أو شر قتلة ﴿ ومَا أنْتَ عَلَينَا بِعَزيزٍ ﴾ أي لا تعز علينا ولا تكرم، حتى نكرمك ونمنعك من الرجم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾

﴿ قالَ يا قوْم أرَهْطِي أعزُّ عَلَيْكُمْ منَ اللّه ﴾ أي من أمره ووحيه ودينه ﴿ واتَّخذْتُمُوهُ وَرَاءكُم ظِهْرِيّاً ﴾ أي نسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر، لا يعبأ به. و(الظهري) منسوب إلى الظهر، والكسر من تغييرات النسب، كما قالوا: (إمسي) بالكسر في النسبة إلى (أمس) و(دُهريٌ)، بالضم، في النسبة إلى (الدهر) ﴿ إنَّ ربِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أي عالم، لا يخفى عليه، فيجازيكم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾

﴿ ويَا قوْم اعمَلُوا على مَكَانَتكُمْ ﴾ أي غاية تمكنكم واستطاعتكم، أو على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها، من كفركم وعداوتكم ﴿ إنّي عَاملٌ ﴾ أي على مكانتي التي كنت عليها من الثبات على الإسلام والمصابرة.

﴿فسَوفَ تَعْلَمُونَ من يأتيهِ عَذَاب يُخْزيه ومَنْ هوَ كاذِبٌ وارتَقبُوا إنّي مَعَكمْ رَقِيبٌ﴾ أي منتظر لهلاككم. وفي زيادة (معكم) إظهار منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره.

قال الزمخشري: فإن قلت: أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؟ قلت: إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعها وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا: فما يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا، وعلمت أنت؟ فقال: سوف تعلمون! فوصل تارة بالفاء، وتارة بالاستئناف، للتفنن في البلاغة، كم هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف. للإشعار بأنه مما يسأل عنه، ويعتني به، ولذا كان أبلغ في التهويل.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾

﴿ولَمَّا جاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً والَّذين آمَنُوا مَعَهُ برَحْمَةٍ منّا﴾ إنما ذكره بالواو، كما في قصة عاد، إذ لم يسبقه ذكر وعد يجري مجرى السبب له بخلاف قصتي صالح ولوط،، فإنه ذكر بعد الوعد، وذلك قوله: ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:٦٥]، وقوله: ﴿إنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود:٨١]، فلذلك جاء بفاء السببية. أفاده القاضي.

﴿وأَخذَت الَّذين ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ أي بالعذاب ﴿فأصبَحُوا في دِيَارِهمْ جاثمينَ﴾ أي ميتين.

القول في تأويل قوله تعالى:

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

﴿كَأنْ لَمْ يَغْنَوْا﴾ أي يقيموا ﴿فِيها ألاَ بُعْداً لِمَدْين كما بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ شبههم بهم، لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة، وكانوا قريباً منهم في المنزل، نظراءهم في الكفر، وقطع الطريق، وكانوا أعراباً مثلهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بآيَاتنا﴾ أي التسع ﴿وَسُلْطَانٍ مُبينٍ﴾ وهو العصا. وكانت

أبهر معجزاته، فلذا خصت، أو هو الآيات، والعطف للإشارة إلى الجمع بين كونها آيات وسلطاناً واضحاً على رسالته.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾

﴿إلى فِرْعَونَ ومَلَئِهِ فاتَّبَعُوا أمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي بالكفر بموسى، أو طريقة فرعون الجائرة.

قال الزمخشري: هذا تجهيل لمتبعيه، حيث شايعوه على أمره، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل. وذلك أنه ادعى الإلهية، وهو بشر مثلهم، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذي لايأتي إلا من شيطان مارد، فاتبعوه وسلموا له دعواه، وتتابعوا على طاعته.

﴿ومَا أمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشيدٍ﴾ أي بمرشد، أو ذي رشد، وإنما هو غي وضلال.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يوْمَ القِيامَةِ﴾ أي يتقدمهم إلى النار، كما كان يقدمهم في الدنيا إلى الضلال ﴿فأوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أي يوردهم. وإيثار لفظ الماضي للدلالة على تحققه والقطع به. وشبه فرعونَ بالفارط الذي يتقدم الواردة إلى الماء، وأتباعَه بالواردة، والنارَ بالماء الذي يردونه.

ثم قيل: ﴿وبِئْس الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ أي بئس الذي يردونه النار، لأن الورد - وهو النصيب من الماء - إنما يراد لتسكين الظمأ، وتبريد الكبد، والنار على الضد من ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

﴿وأُتْبِعُوا في هَذهِ﴾ أي الدنيا ﴿لَعْنَةً ويوْمَ الْقِيامَةِ﴾ أي يلعنون في الدنيا والآخرة، فهي تابعة لهم، أين كانوا. فـ(يوم) معطوف على محل (في) هذه، لابتداء كلام.

﴿ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ اي بئس العطاء المعطى وهي اللعنة في الدارين.

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما قص من انباء الأمم ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى ﴾ اي المهلكة ﴿ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ اي بالوحي ﴿ مِنْهَا قائمٌ ﴾ اي باق ينظر إليها، قد باد أهلها ﴿ وَحَصيدٌ ﴾ اي ومنها عافى الأثر كالزرع المحصود.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

﴿ وما ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ اي بتعريضها لما أوجبه من الشرك وعبادة الأوثان والظلم ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّه مِنْ شيءٍ لمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهمْ غيرَ تتْبيبٍ ﴾ اي إهلاك وتخسير.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إذا أَخَذَ الْقُرى وهِيَ ظَالِمةٌ إنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَديدٌ ﴾ فيه إشعار بظلمهم وإعلام بسنته تعالى في أخذ الظالمين، التي لا تتبدل، وإنذار كل ظالم ظَلَمَ نفسه أي غيره، من سوء العاقبة.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾

﴿ إنَّ في ذَلكَ ﴾ اي فيما قُصَّ في هذه السورة، أو في أخذ الظالمين ﴿ لآيَةً ﴾ اي لعبرة ﴿ لِمَنْ خافَ عَذابَ الآخِرَةِ ﴾ فيعتبر بها عن موجباته ﴿ ذَلكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ اي يشهده الأولون والآخرون، وأهل السماء والأرض.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ اي ذلك اليوم ﴿إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ اي لمدة محدودة.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾

﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفسٌ إِلاَّ بإِذْنهِ﴾ اي بإذن الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ [النبأ:٣٨]، ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شقُوا ففي النَّارِ لهُمْ فِيها زَفيرٌ وَشهيقٌ﴾ الزفير إخراج النفَس مع صوت ممدود، والشهيق: ردّه. كني بهما عن الغم والكرب، لأنه يعلو معه النفس غالباً. أو شبَّهَ صراخهم بأصوات الحمير.

القول في تأويل قوله تعالى:

خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾

﴿خَالدينَ فِيها مَادَامت السَّموات والأرضُ إلاَّ ما شَاءَ ربُّك، إنَّ ربَّكَ فعَّالٌ لما يُريدُ﴾. ﴿وَأَمَّا الَّذين سُعِدُوا ففي الْجَنَّةَ خَالدينَ فيها مَا دَامت السَّموات والأرضُ إلاَّ ما شاءَ ربُّك عطاء غيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ اي غير مقطوع، ولكنه ممتد إلى غير نهاية.

وفي التوقيت بـ(السموات والأرض) وجهان:

أحدهما: أن يكون عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع، كقول العرب: (ما أقام ثَبير)، و(ما لاح كوكب) و(ما طما البحر) ونحوها: لا تعليق قرارهم في الدارين بدوام هذه السموات والأرض، فإن النصوص دالة على تابيد قرارهم، وانقطاع دوامهما.

وثانيهما: أن يراد سموات الآخرة وأرضها، إذ لابد لأهلها من مظلّ ومقلّ قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأرْضِ والسَّموَاتُ ﴾[إبراهيم:٤٨]، وقوله: ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأرْضَ نَتَبَوَّأُ منَ الْجنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ ﴾ [الزمر:٧٤].

فإن قلت: ما معنى الاستثناء بالمشيئة، وقد ثبت خلود أهل الدارين فيهما من غير استثناء؟ .

فالجواب: ما قدمناه في قوله تعالى: ﴿ قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسي نَفْعاً ولاَ ضراً إلاَّ مَا شاءَ اللّه ﴾ [الأعراف:١٨٨]، يعني أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن، للدلالة على الثبوت والاستمرار.

والنكتة في الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة اللّه تعالى بطبيعتها في نفسها، ولو شاء تعالى أن يغيرها لفعل.

وقد أشار لهذا ابن كثير بقوله: يعني أن دوامهم ليس أمراً واجباً بذاته، بل موكول إلى مشيئته تعالى.

وابن عطية بقوله: هذا على طريق الاستثناء الذي ندب الشارع إلى استعماله في كل كلام كقوله: ﴿ لَتدْخُلنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إنْ شاءَ اللّهُ ﴾ [الفتح:٢٧]، فليس يحتاج أن يوصف بمتصل ولا منقطع.

وللمفسرين هنا وجوه كثيرة، وما ذكرناه أحقها وأبدعها.

ولما قص تعالى قصص عبدة الأوثان وذكر ما أحله بهم من نقمة، وما أعدّ لهم من عذابه قال:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

﴿ فَلا تَكُ في مِرْيَةٍ ممَّا يَعْبُدُ هؤلاَءِ ﴾ أي في شك من عبادتهم، في أنها ضلال مؤدّ إلى مثل ما حلّ بمن قبلهم. وفيه تسلية له صلوات اللّه عليه، وعدة بالانتقام، ووعيد لهم. ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إلاَ كمَا يَعْبُدُ آباؤُهُمْ من قَبْلُ ﴾ أي فهم سواء في الإشراك، وقد بلغك ما نزل بآبائهم، فسيحلّ بهم مثله. وهو استئناف معلل للنهي عن المرية ﴿ وإنَّا لَمُوَفُّوهم نَصِيبَهمْ ﴾ أي من العذاب، كما وفي لآبائهم ﴿ غَيرَ مَنْقُوصٍ ﴾ .

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾

﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ** ﴾ أي التوراة ﴿ **فَاخْتُلِفَ فيه** ﴾ أي آمن به قوم، وكفر به آخرون، كما اختلف هؤلاء في القرآن ﴿ **وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ** ﴾ يعني ما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال:٣٣]، ﴿ **لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ** ﴾ أي باستئصالهم. ﴿ **وَإِنَّهُمْ** ﴾ أي هؤلاء، وهم كفار مكة ﴿ **لَفِي شَكٍّ مِنْهُ** ﴾ أي القرآن ﴿ **مُرِيبٍ** ﴾ أي موقع للناس في الريبة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

﴿ **وَإِنَّ كُلاًّ لَمَا لَيُوَفِّيَنهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خبيرٌ** ﴾ أي فلا يخفى عليه شيء منه، وسيجزيهم عليه. والتنوين في (كُلاًّ) عوض عن المضاف، أي وإن كل المختلفين فيه.

تنبيه:

في هذه الآية قراآت: قرئ (إنه) و(لما) مخففتين ومشددتين، وبتخفيف (إن) وتشديد (لما)، وبعكسها، وهذه الأربع قراءات كلها متواترة.

فأما الأولى: ففيها إعمال (إن) المخففة، وهي لغة ثابتة عن العرب، واللام في (لما) لأمر الابتداء، داخلة في خبر (إنْ) و(ما) إما موصولة بمعنى (اللذين) واقعة على من يعقل، واللام في (ليوفينهم) جواب قسم مضمر. أي: وإنْ كُلاً الذين، والله! ليوفينهم. وإما نكرة موصوفة، والجملة القسمية وجوابها صفة (ما). أي: وإن كلاً لخلق، أو لفريق والله! ليوفينهم. وقيل: اللام الأولى موطئة للقسم، ولما اجتمع اللامان، واتفقا في اللفظ، فصل بينهما بـ (ما) فهي زائدة لإصلاح اللفظ. وقيل: اللام المذكورة هي الفارقة بين المخافقة والنافية. وقيل: إنها جواب القسم كررت تاكيداً.

وأما الثانية: وهي تشديدهما، فـ (إن) على حالها. وما بعدها منصوب على أنه اسمها، و(لمّا) بمعنى (إلاّ) أوجازمة بمعنى (لم) ومجزومها محذوف. أي: لما

يمهلوا، أو لما يوفوا أعمالهم إلى الآن، وسيوفونها.

وأما الثالثة: وهي تخفيف (إن) وتشديد(لم) فـ (إن) مخففة عاملة كما تقدم، و(لما) بمعنى (إلاّ) أوجازمة أيضاً أو (إنْ) نافية بمنزلة (ما) و(ما) بمعنى (إلا) و(كُلاًّ) منصوب بمضمر، أي: وما أرى كُلاً إلا.

وأما الرابعة: وهي تشديد (إن) وتخفيف (لما) فواضحة فـ(إن) هي المشددة عملت عملها.

والكلام في (اللام) و(ما) مثل ما تقدم أولاً من الوجوه الأربعة في (اللام) والثلاثة في (ما).

وثمَّة قراءات أخر فلتراجع في (السمين) وغيره.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

﴿فاستَقِمْ كما أمِرْتَ﴾ أي في القرآن، و(الكاف) للتشبيه، أو بمعنى (على) ﴿ومَنْ تابَ معَكَ﴾ أي من الشرك، وهم المؤمنون. ﴿ولاَ تطْغَوْا﴾ أي تجاوزوا حدود اللّه ﴿إنَّهُ بمَا تعْمَلُونَ بَصيرٌ﴾ أي فيجازيكم به. قال ابن كثير: يامر تعالى رسوله والمؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر، وينهى عن الطغيان وهو البغي، فإنه مصرعة، ولو كان على مشرك.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

﴿ولاَ ترْكَنُوا إلى الذينَ ظَلَمُوا﴾ أي أنفسَهم بالشرك والمعاصي أي: لا تسكنوا إليهم. ولاتطمئنوا إليهم. لما يفضي الركون من الرضا بشركهم وتقويتهم، وتوهين جانب الحق. ﴿فتَمَسَّكُمُ النَّارُ ومَا لَكُمْ منْ دونِ اللّهِ منْ أوْلِياء﴾ أي أنصار يمنعون عذابه عنكم بركونكم إليهم ﴿ثمَّ لا تُنْصَرونَ﴾ أي لاتمنعون مما يراد بكم. والقصد تبعيد المؤمنين عن موادّة المشركين المحادّين للّه ولرسوله، والثقة بهم، وهم أعظم عقبة

في الصدّ عن سبيل الله، لأن ذلك ينافي الإيمان.

قيل: الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم، والتهديد عليه، لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فيمن يركن إلى أهله، فكيف بمن ينغمس في حمأته؟.

تنبيه:

قال بعض المفسرين اليمانين: الآية صريحة بأن الركون إلى الظَلَمة محرّم وكبيرة، لأنه تعالى توعد بالنار. ولكن ما هو الركون الذي أراده تعالى؟ قلنا: في ذلك وجوه؟

فروي عن ابن عباس والأصمّ أن المعنى: لا تميلوا إلى الظلمة في شيء من دينكم.

وقيل: ترضوا بأعمالهم ، عن أبي العالية — .

وقيل: تلحقوا بالمشركين — عن قتادة —.

وقيل: تداهنوا الظلمة عن السدّي وابن زيد — .

وقيل: الدخول معهم في ظلمهم، وإظهار الرضا بفعلهم، وإظهار موالاتهم. فأما إذا دخل عليهم لدفع شرهم، فيجوز، لأنه تعالى أمر بالرفق في مخالطة الكفار، والظلمةُ أولى.

قال الزمخشري: النهي يتناول الانحطاط في هواهم، والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم، والرضا بأعمالهم، والتشبه بهم، والتزيّي بزيهم، ومد العين إلى زهرتهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم. وتأمل قوله: ﴿ولا تَرْكَنُوا﴾ فإن الركون هو الميل اليسير. وقوله: ﴿إلى الّذين ظَلَمُوا﴾ أي إلى الذين وجد منهم الظلم، ولم يقل: إلى الظالمين.

وحكي أن الموفق صلى خلف الإمام، فقرأ بهذه الآية، فغشي عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا فيمن ركن إلى من ظلم، فكيف بالظالم؟ انتهى.

قال اليماني: قد وسع العلماء في ذلك وشدّدوا، والحالات تختلف، والأعمال بالنيات، والتفصيل أولى، فإن كانت المخالطة لدفع منكر، أو استعانة عليه، أو رجاء تركهم الظلم، أو استكفاء شرورهم فلا حرج في ذلك، وربما وجب، وإن كان لإيناسهم وإقرارهم فلا. انتهى —.

وأقول: كل هذا مبني على عموم الآية، وأما إن كانت في مشركي مكة،

اعتماداً على سباق الاية وسياقها، فالمراد منها ما ذكرناه أولاً – واللّهُ أعلم – .

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾

﴿**وأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفيِ النَّهَارِ**﴾ أي غدوة وعشية ﴿**وَزُلَفاً منَ اللَّيْلِ**﴾ أي وساعات منه، وهي ساعاته القريبة من آخر النهار. من (أزلفه) إذا قربه، وازدلف إليه. وصلاة الغدوة: الفجر وصلاة العشية: الظهر والعصر، لأن ما بعد الزوال عشي، وصلاة الزلف المغرب والعشاء – كذا في الكشاف –.

والآية كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاَةَ لِدلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرآن الْفَجْرِ﴾ [الإسراء:٧٨]. في جمعهما للصلوات الخمس جمعاً بالغاً غاية اللطف في بلاغة الإيجاز وانتصاب (طرفي النهار) على الظرف لإضافته إليه. و(زلفاً) قرأها العامة بضم ففتح، جمع زلفة، كظلمة وظلم. وقرئ بضمهما، إما على أنه جمع زلفة أيضاً، ولكن ضمت عينه إتباعاً لفائه؛ أو على أنه اسم مفرد كعنق. أو جمع زليف بمعنى زلفة كرغيف ورغف.

وقرئ بإسكان اللام، إما بالتخفيف، فيكون فيها ما تقدم، أو على أن السكون على أصله، فهو كبسرة وبسر، من غير إتباع.

وقرئ (زلفى) كحبلى، بمعنى قريبة، أو على إبدال الألف من التنوين، إجراء للوصل مجرى الوقف. ونصبه إما على الظرفية، بعطفه على (طرفي النهار) لأن المراد به الساعات، أو على عطفه على (الصلاة) فهو مفعول به.

والزلفة عند ثعلب، أول ساعات الليل.

وقال الأخفش: مطلق ساعات الليل، وأصل معناه القرب. يقال ازدلف أي اقترب و(من الليل) صفة زلفاً – كذا في العناية – .

﴿**إِنَّ الحَسَنَاتِ**﴾ أي التي من جملتها، بل عمدتها، ما أمرت به من الصلوات ﴿**يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ أي التي قلما يخلو منها البشر ، أي يكفرنها. ﴿**ذَلِكَ**﴾ أي إقامة الصلوات في الأوقات المذكورة، ﴿**ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾ أي ذكرى له تعالى، وإحضار

للقلب معه، وتصفية من كدورات اللهو والنسيان لعظمته.

وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه ؛ أن رجلاً جاء إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله! إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها، وأنا هذا. فاقض فيّ ما شئت ! فقال له عمر رضي الله عنه : لقد سترك الله تعالى لو سترت على نفسك. قال فلم يردّ النبيّ ﷺ شيئاً. فقام الرجل، فانطلق فأتبعه النبيّ ﷺ رجلاً فدعاه، وتلا عليه هذه الآية ﴿وأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ الخ.

فقال رجل من القوم: يا رسول الله! هذا له خاصة؟ قال: بل للناس كافة — أخرجه البخاري[1] وغيره.

وفي رواية عن أبي أمامة[2] قال له ﷺ : أتممت الوضوء وصليت معنا؟ قال: نعم قال : فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك، فلا تَعُدْ. وقرأ الآية.

وفي رواية فنزلت الآية، والمراد بالنزول شمولها، بنزولها المتقدم، لما وقع، لأنها كانت سبباً في النزول — كما بيناه غير مرة —.

وفي الصحيح[3] عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات. هل يبقى من دونه شيء؟ قالوا: لا. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بها الخطايا. ورواه البخاري أيضاً عن جابر، ورُوي نحوه عن عثمان وسلمان.

وللإمام أحمد[4] عن معاذ، أن رسول الله ﷺ قال: أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن.

وله عن أبي ذرّ[5] مرفوعاً (إذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تمحها) قلت:

---

(١) أخرجه البخاريّ في: التفسير، ١١ — سورة هود، ٦ — باب ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةِ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ﴾، حديث رقم ٣٤٢.
أما النص الذي ساقه المؤلف، فهو ما أخرجه مسلم في صحيحه في: التوبة، ٧ — باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، حديث رقم ٤٢.

(٢) أخرجه مسلم في: التوبة، حديث رقم ٤٥.

(٣) أخرجه البخاريّ في: مواقيت الصلاة، ٦ — باب الصلوات الخمس كفارة، حديث ٣٤٤.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥ /٢٢٨.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥ /١٥٣.

يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال (هي أفضل الحسنات) أي: فالحسنات مثل الصلاة والذكر والصدقة والاستغفار، ونحو ذلك من أعمال البرّ.

لطيفة:

أشار القاشاني عليه الرحمة إلى سر الصلوات الخمس في أوقاتها بما يجدر الوقوف عليه، فقال:

لما كانت الحواس الخمس شواغل تشغل القلب بما يَرِدُ عليه في الهيئات الجسمانية، وتجذبه عن الحضرة الرحمانية، وتحجبه عن النور والحضور، بالإعراض عن جانب القدس، والتوجه إلى معدن الرجس، وتبدله الوحشة بالأنس، والكدورة بالصفاء - فرضت خمس صلوات، يتفرغ فيها العبد للحضور، ويسد أبواب الحواس، لئلاَ يَرِد على القلب شاغل يشغله، ويفتح باب القلب إلى الله تعالى بالتوجه والنية، لوصول مدد النور، ويجمع همه عن التفرق و يستأنس بربه عن التوحش، مع اتحاد الوجهة، وحصول الجمعية، فتكون تلك الصلوات خمسة أبواب مفتوحة للقلب، على جناب الرب، يدخل عليه بها النور بإزاء تلك الخمسة المفتوحة إلى جانب الغُرور، وداراً للعين الغرور، التي تدخل بها الظلمة ليُذْهبَ النورُ الوارد آثارَ ظلماتها، ويكسح غبارَ كدوراتها. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾:

وقد ورد في الحديث[1] (إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر) وأمر بإقامتها طرفي النهار، لينسحب حكمها ببقاء الجمعية، واستيلاء الهيئة النورية، في أوله إلى سائر الأوقات، فعسى أن يكون من الذين هم على صلاتهم دائمون، لدوام ذلك الحضور وبقاء ذلك النور، ويكسح ويزيل في آخرة ما حصل في سائر الأوقات من التفرقة والكدورة. ولما كانت القوى الطبيعية المدبرة لأمر الغذاء، سلطانها في الليل، وهي تجذب النفس إلى تدبيرِ البدن بالنوم عن عالمها الروحاني، وتحجزها عن شأنها الخاص بها، الذي هو مطالعة عالم القدس بشغلها باستعمال آلات الغذاء، لعمارة الجسد، فتسلبها اللطافة، وتكدرها بالغشاوة - احتيج إلى تلطيفها وتصفيتها باليقظة، وتنويرها بالصلاة، فقال: ﴿وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ انتهى. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

﴿واصْبِرْ﴾ أي على مشاقِ ما أُمرت به من التبليغ، أو على ما يقولون، أو على

---

(١) أخرجه مسلم في: الطهارة، حديث رقم ١٦. عن أبي هريرة.

الصلاة كقوله: ﴿ وَاصْطَبِرِ عَلَيْهَا ﴾ [طه:١٣٢]، ولا مانع من شموله للكل.

﴿ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي في أعمالهم فيوفيهم أجورهم من غير بخس. قال أبو السعود: وإنما عبر عن ذلك بنفي الإضاعة، لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه، .وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة مع الإيماء إلى أن الصبر على ما ذكر من باب الإحسان . انتهى.

وأشار الشهاب في (العناية) هنا إلى لطيفة من البلاغة القرآنية، وهو أن الأوامر بافعال الخير أفردت للنبيّ ﷺ وإن كانت عامة في المعنى، وفي المنهيات جمعت للأمة.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾

﴿ فَلَوْلاَ كَانَ ﴾ أي فهلا وجد ﴿ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأرضِ ﴾ أي بعمل الشرور والمنكرات، فإن لو كان منهم ناهون لم يؤخذ الباقون ﴿ إلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنهمْ ﴾ استثناء منقطع. أي لكنَّ قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد، وسائرهم تاركون للنهي.

لطيفة:

(البقية) إما بمعنى الباقية، والتأنيث لمعنى الخصلة أو القطعة. أو بقية من الرأي والعقل. أو بمعنى الفضيلة، والتاء للنقل إلى الاسمية كالذبيحة. وأطلق على الفضل (بقية) استعارة من البقية التي يصطفيها المرء لنفسه. ويدخرها مما ينفقه، فإنه يفعل ذلك بأنفسها. ولذا قيل: (في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا) و(فلان من بقية القوم) أي من خيارهم وجوّز كون (البقية) مصدراً بمعنى (البقوى)، كالتقية بمعنى التقوى، أي فهلا كان منهم ذوو إبقاء على أنفسهم، صيانة لها من سخطه تعالى وعقابه.

﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِين ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فيه ﴾ أي ما صاروا منعّمين فيه من الشهوات، حتى

فجاءهم العذاب، واتباعه كناية عن الاهتمام به، وترك غيره، كما هو دأب التابع للشيء.

و﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أعم من المباشرين بأنفسهم للفساد، ومن تاركي النهي عنه، وقصره الزمخشري على الثاني، لأنهم المقصود بالنعي قبله، حيث قال: أراد بـ (الذين ظلموا) تاركي النهي عن المنكرات، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهوالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعقدوا هممهم بالشهوات، واتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والتترف، من حب الرئاسة والثروة، وطلب أسباب العيش الهنيء ورفضوا ما وراء ذلك، ونبذوه وراء ظهورهم.

﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي باتباعهم المذكور، أو كافرين، قال القاضي: كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم السالفة، وهو فشو الظلم فيهم، واتباعهم للهوى، وترك النهي عن المنكرات مع الكفر، وقد أشير لذلك بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرى بِظُلْمٍ وأَهْلُهَا مُصْلحُونَ﴾ أي بامرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر. و(بظلم) الباء فيه إما للملابسة، وهو حال من الفاعل، أي استحال في الحكمة أن يهلك القرى ظالماً لها، وتنكيره للتفخيم، والإيذان بان إهلاك المصلحين ظلم عظيم. أو للسببية، والظلم: الشرك، أي لا يهلك القرى بسبب إشراك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون إلى شركهم فساداً آخر، وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه تعالى. ولذا قيل: (يبقى المُلْكَ مع الشرك، ولايبقى مع الظلم) وهذا، وإن كان صحيحاً، إلا أن مقام دعوة الرسل إلى التوحيد، ومحو الشرك أوّلاً، ثم إلى الاستقامة في المعاملات ثانياً- يقضي بحمل (الظلم) هنا على ما هو أعم من الشرك، وأصناف المعاصي. وحمل الإصلاح على إصلاحه، والإقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهي عنه، وبعضهم متجهين إلى الاتعاظ، غير مصرّين على ماهم عليه من الشرك ونحوه - كذا أشار له أبو السعود.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾

﴿وَلَوْ شاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمةً واحِدَةً﴾ أي مجتمعة على الحق والإيمان

والصلاح ولكنه لم يشأ ذلك ﴿ولاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أي في الحق، منهم المؤمن به ومنهم الكافر به.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

﴿إلاَّ منْ رَحِمَ ربُّكَ﴾ أي لكنّ ناساً رحمهم بهدايتهم إلى التوحيد، وتوفيقهم للكمال، فاتفقوا في المذهب والمقصد، ووافقوا في السيرة والطريقة، قبلتهم الحق، ودينهم التوحيد والمحبة.

وقوله تعالى: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ في المشار إليه أقوال. أظهرها أنه للاختلاف الدال عليه (مختلفين). فالضمير حينئذ للناس، أي لثمرة الاختلاف، من كون فريق في الجنة، وفريق في السعير، خلقهم. واللام لام العاقبة والصيرورة، لأن حكمة خلقهم ليس هذا، لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ والإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦]، ولأنه لو خلقهم له، لم يعذبهم عليه. أو الإشارة له وللرحمة المفهومة من (رحم) لتأويلها بـ(أن والفعل) أو كونها بمعنى الخير. وتكون الإشارة لاثنين، كما في قوله: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة:٦٨]. والمراد لاختلاف الجميع ورحمة بعضهم خلقهم. وهذا معزّو إلى ابن عباس رضي الله عنهما. وإن كان الضمير لـ(من) فالإشارة للرحمة بالتأويل السابق - كذا في العناية -.

وأشار القاشاني إلى بقاء اللام على معناها، وهوالتعليل بوجه آخر، حيث قال: وللاختلاف خلقهم ليستعد كل منهم لشأن وعمل، ويختار بطبعه أمراً وصنعة، ويستتب بهم نظام العالم، ويستقيم أمر المعاش، فهم محامل لأمر الله، حمل عليهم حمول الأسباب والأرزاق، وما يتعيش به الناس، ورتب بهم قوام الحياة الدنيا، كما أن الفئة المرحومة مظاهر لكماله، أظهر الله بهم صفاته وأفعاله، وجعلهم مستودع حكمه ومعارفه وأسراره.

وقوله تعالى: ﴿وَتمَّتْ كَلمةُ ربِّكَ﴾ أي أُحكمت وأبرمت وثبتت وهي هذه: ﴿لأَملأَنَّ جهنَّمَ منَ الْجِنةِ والنَّاسِ أجْمعينَ﴾ والمراد من ﴿الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ عصاتهما، والتعريف للعهد، والقرينة عقلية لما علم من الشرع أن العذاب مخصوص بهم، وأن الوعيد ليس إلا لهم، ولاحاجة إلى تقدير مضاف كما قيل. بـ ﴿أجْمَعِين﴾ حينئذ

ظاهر، وإن لم يحمل على العهد، وأبقى على إطلاقه ففائدة التأكيد بيان أن ملء جهنم من الصنفين، لا من أحدهما فقط، ويكون الداخلوها منهما مسكوتاً عنه موكولاً إلى علمه تعالى، فاندفع ما أورد على ظاهرها من اقتضائه دخول جميع الفريقين جهنم. وبطلانه معلوم بالضرورة. أما على الأول فظاهر وأما على الثاني فالمراد بلفظ (أجْمَعِين) تعميم الأصناف، وذلك لا يقتضي دخول جميع الأفراد، كما إذا قلت: ملأت الجراب من جميع أصناف الطعام، فإنه لا يقتضي ذلك إلا أن يكون فيه شيءٍ من كل صنف من الأصناف، لا أن يكون فيه جميع أفراد الطعام. كقولك: امتلأ المجلس من جميع أصناف الناس، لا يقتضي أن يكون في المجلس جميع أفراد الناس، بل يكون من كل فرد صنف، وهو ظاهر. وعلى هذا تظهر فائدة لفظ (أجمعين) إذ فيه ردّ على اليهود وغيرهم، ممن زعم أنه لايدخل النار - كذا في العناية -.

ولما ذكر تعالى فيما تقدم من أنباء الأمم الماضية، والقرون الخالية، ما جرى لهم مع أنبيائهم - أشار هنا إلى سر ذلك وحكمته، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي نقوي به قلبك لتصبر على أذى قومك، وتتاسى بالرسل من قبلك، وتعلم أن العاقبة لك، كما كانت لهم. و(كلاً) مفعول (لنقصّ) و(من أنباء) بيان له. و(ما ثبت) بدل من (كلاًّ) أو خبر محذوف.

﴿وَجاءَكَ في هَذه﴾ أي السورة، أو الأنباء المقتصّة ﴿الْحَقُّ﴾ أي القصص الحق الثابت ﴿ومَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمؤمنين﴾ أي عبرة لهم يحترزون بها عما أهلك الأمَم، وتذكير لما يجب أن يتدينوا به، ويجعلوه طريقهم وسيرتهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾

﴿وَقُل للَّذين لايُؤْمِنونَ﴾ أي بهذا الحق، ولا يتعظون ولا يتذكرون ﴿اعْمَلوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي حالكم من اتباع الأهواء ﴿إنَّا عَامِلُونَ﴾ أي على حالنا من اتباع ما جاءنا والاتعاظ والتذكر به.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾

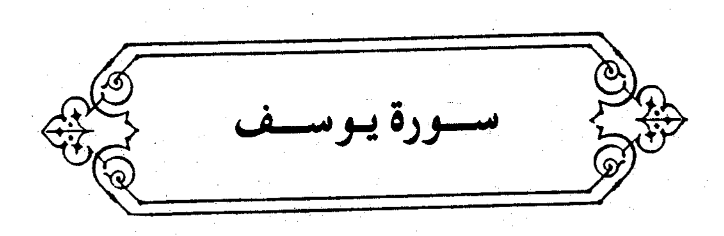
﴿وَانْتَظِرُوا﴾ أي العواقب ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُون﴾ أي ما وُعدنا به من الفتح. وقد أنجز اللّه وعدَه. ونصر عبده، فله الحمد وحدَه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿وَلِلّه غَيْبُ السَّمَوات والأرْضِ﴾ أي فلا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما، فلا تخفى عليه أعمالكم ﴿وَإِلَيْه يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ أي أمر العباد في الآخرة، فيجازيهم بأعمالهم. وفيه تسلية للنبي ﷺ وتهديد للكفار بالانتقام منهم ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالياء التحتية في قراء الجمهور، مناسبة لقوله ﴿لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ وفي قراءة بالتاء الفوقية على تغليب المخاطب، أي أنت وهم. أي فيجازي كلاًّ بما يستحقه - واللّهُ أعلم -.

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة يوسف

سميت به، لأن معظم قصته مذكورة، ومعظم ما فيها قصته.

قال الشهاب: لما ختمت السورة التي قبلها بقوله: ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ ذكرت هذه بعدها، لأنها من أنبائهم. وقد ذكر أولاً ما لقى الأنبياء عليهم السلام من قومهم، وذكر في هذه ما لقى يوسف من إخوته، ليعلم ما قاسوه من أذى الأجانب والأقارب، فبينهما أتم المناسبة. والمقصود تسلية النبيّ ﷺ بما لاقاه من أذى القريب والبعيد. انتهى - .

و(يوسف) اسم عبراني، تعريبه يزيد، أو زيادة. وذلك لما روى أن أمه (راحيل) كانت قعدت عن الحمل مدة، ولحقها الحزن تلقاء ضراتها الوالدات،ولما وهبها تعالى، بعد سنين، ولداً سمته (يوسف) وقالت: يزيدني به ربي ولداً آخر.

وهذه السورة مكية اتفاقاً، وآيها مائة وإحدى عشرة بلا خلاف.

وقد روى البيهقي في (الدلائل) أن طائفة من اليهود، حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة، أسلموا لموافقتها ما عندهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾

﴿آلر﴾ تقدم الكلام على مثله، وأنها إما حروف مسرودة على نمط التعديد، والإشارة في قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إلى آيات السورة، نزّل ما بعده، لكونه مترقباً، منزلة المتقدم. والإشارة بالبعيد لعظمته، وبعد مرتبته. وإما اسم للسورة، والإشارة في (تلك) إليها. والمراد بـ (الكتاب) السورة لأنه بمعنى المكتوب، فيطلق عليها. أو القرآن، لأنه كما يطلق على كله، يطلق على بعضه. و(المبين) بمعنى الظاهر أمرُها وإعجازُها، إن أُخذ من (بان) لازماً بمعنى ظهر؛ وإن أُخذ من المتعدي فالمفعول مقدّر، أي أنها من عند الله تعالى.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ أي الكتاب المنعوت بما ذكر ﴿قُرآناً عَرَبيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلونَ﴾ أي لكي تفهموه،وتحيطوا بمعانيه، ولا يلتبس عليكم. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمياً لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [فصلت: ٤٤]، أو لتستعملوا فيه عقولكم، فتعلموا أن اقتصاصه كذلك،ممن لم يتعلم القصص، معجز، لا يمكن إلا بالإيحاء. أو ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ بإنزاله عربياً، ماتضمن من المعاني والأسرار، التي لا يتضمنها ولا يحتملها غيرها من اللغات وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس. قال بعضهم: نزل أشرف الكتب، بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وفي أشرف شهور السنة، وهو رمضان، فكمل له الشرف من كل الوجوه.

القول في تأويل قوله تعالى:

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾

﴿نحن نقصُّ عليك أحسنَ القصَصِ﴾ أي أبدعه طريقة، وأعجبه أسلوباً، وأصدقه أخباراً، وأجمعه حكَماً وعبَراً ﴿بمَا أوْحَيْنا إلَيْكَ﴾ أي بإيحائنا إليك ﴿هَذَا القُرآنَ وإنْ كُنْتَ من قَبْله لَمنَ الْغَافلينَ﴾ أي عنه، لم يخطر ببالك. والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأن النبيّ ﷺ. وقد جوز في هذا أن يكون مفعول نقص، على أن (أحسن) نصب على المصدر. وأن يكون مفعول (أوحينا) على أن مفعول نقص (أحسن) أو محذوف. وأن يكون بدلاً من (ما) على أنها موصولة أو خبر محذوف كذلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾

﴿إذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبيه﴾ يعني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. والظرف بدل من المفعول قبله بدل اشتمال، أو مفعول لمحذوف. ﴿يَا أَبَتِ إنّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشَّمسَ والْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لي ساجدينَ﴾ إنما ناجى يوسف أباه بهذه الرؤيا، لاعتقاده كمال علمه، وشفقته عليه، بحيث لو كانت رؤياه تسوءه لأمكنه صرفها عنه.

قال القاشانيّ: هذه من المنامات التي تحتاج إلى تعبير، لانتقال المتخيّلة من النفوس الشريفة التي عرض على النفس من الغيب سجودها له، إلى الكواكب والشمس والقمر، وما كانت في نفس الأمر إلا أبويه وإخوته. (يا أبت) أصله يا أبي، فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة، وكسرها لأنه عوض عن حرف يناسبها. وقرئ بفتحها لأنها حركة أصلها، أو لأنه كان (يا أبتَا) فحذف الألف، وبقي الفتحة. وقرئ بالضم إجراء لها مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء، من غير اعتبار التعويض. وقوله: (رأيتهم) استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها، فلا تكرير: أو تأكيد للأولى تطرية لطول العهد، كما في قوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مُتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجونَ﴾ [المؤمنون:٣٥]، وإنما أجريت مجرى العقلاء في ضميرهم وجمع صفتهم جمعاً سالماً، لوصفها بوصفهم، وهوالسجود.

قال المهايميّ: ولو صح كونها ناطقة فلا إشكال. قال: ولم أرَ مَنْ تعرض لهيئة السجود، ولعله تحريك جانبها الأعلى إلى الأسفل، مستديرة ظهرت أو مستطيلة.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

﴿**قَالَ يَا بُنَيَّ**﴾ صغره لصغر سنه، وللشفقة عليه، ولعذوبة المصغّر، ﴿**لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً**﴾ أي فيفعلوا لأجلك أو لإهلاكك تحيلاً عظيماً متلفاً لك. ﴿**إِنَّ الشَّيطَانَ لِلإنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾ أي ظاهر العداوة، فلا يألو جهداً في إغواء إخوتك وحملهم على ما لا خير فيه.

قال القاشانيّ: هذا النهي من الإلهامات المجملة، فإنه قد يلوح صورة الغيب من المجردات الروحانية في الروح، ويصل أثره إلى القلب، ولا يتشخص في النفس مفصلاً، حتى يقع العلم به كما هو، فيقع في النفس منه خوف واحتراز إن كان مكروهاً، وفرح وسرور إن كان مرغوباً. ويسمى هذا النوع من الإلهام، إنذارات وبشارات فخاف، عليه السلام، من وقوع ما وقع قبل وقوعه، فنهاه عن إخبارهم برؤيَاه احترازاً، ويجوز أن يكون احترازه كان من جهة دلالة الرؤيا على شرفه وكرامته، وزيادة قدره على إخوته، فخاف من حسدهم عليه عند شعورهم بذلك. انتهى.

تنبيه:

قال السيوطيّ في (الإكليل). قال الكيا: هذا يدل على جواز ترك إظهار النعمة لمن يخشى منه حسد ومكروه.

وقال ابن العربيّ: فيه حكم بالعادة أن الإخوة والقرابة يحسدون. قال: وفيه أن يعقوب عرف تأويل الرؤيا ولم يبال بذلك، فإن الرجل يودّ أن يكون ولده خيراً منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه.

وقال بعض المفسرين اليمانين: قال الحاكم: هذا يدل على أنه يجب في بعض الأوقات إخفاء فضيلة، تحرزاً من الحسود. وهذا داخل في قولنا: إن الحسن إذا كان سببا للقبيح قبح. ومنه آية الأنعام: ﴿**وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ [الأنعام:١٠٨].

وفي هذا ما ذكر عن زين العابدين:

إني لأكتمُ من علمي جواهِرَهُ كي لا يَرَى الحقَّ ذُو جهلٍ فَيَفْتَتِنَا

الأبياتُ المعروفة، ذكرها عن زين العابدين، والغزالي في (منهاج العابدين) والديلميّ في كتاب (التصفية) وهذا يعقوب صلوات الله عليه أمر يوسف أن لا يقص رؤياه على إخوته، والمعنى واحد، فلا معنى لإنكار من ينكر ويزعم أن العلم لا يحل كتمه. انتهى.

ومقصوده أن خوف شر الأشرار من الصوارف عن الصدع بالحق.

قال السيد ابن المرتضى اليمانيّ في (إيثار الحق): مما زاد الحق غموضاً وخفاءً خوف العارفين، مع قلتهم، من علماء السوء، وسلاطين الجور، وشياطين الخلق، مع جواز التقيّة عند ذلك، بنص القرآن، وإجماع أهل الإسلام. ومازال الخوف مانعاً من إظهار الحق، وما برح المحق عدواً لأكثر الخلق.

وذكر رحمه اللهُ قبلُ في الاستدلال على التقية؛ أنه تعالى أثنى على مؤمن آل فرعون، مع كتم إيمانه، وسميت به سورة (المؤمن). وصح أمر عمّار به، وتقريره عليه، ونزلت فيه: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإِيمَانِ﴾ [النحل:١٠٦]، وقد صح عن أبي هريرة[1] أنه قال في ذلك العصر الأول: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، أما أحدهما فبثثتهُ لكم، وأما الآخر فلو بَثَثْتُهُ لقطع هذا البلعوم. قال الغزاليّ في خطبة (المقصد الأسنى): من خالط الخلق جدير بأنه يتحامى. لكن من أبصر الحق عسير عليه أن يتعامى. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

﴿**وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ**﴾ أي مثل ذلك الاصطفاء، بإراءة هذه الرؤيا العظيمة الشان، يصطفيك للنبوة والسيادة ﴿**وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ**﴾ أي تعبير المنامات، وإنما سمي التعبير تأويلاً، لأنه جعل المرئيّ آيلاً إلى مايذكره المعبر بصدد التعبير وراجعاً إليه. والأحاديث اسم جمع للحديث، سميت به الرؤيا لأنها إما حديث مَلَك أو نفس أو شيطان. ﴿**وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ**﴾ أي بما سيؤول إليه أمرك

---

(١) أخرجه البخاري في: العلم، ٤٢– باب حفظ العلم، حديث رقم ١٠٣.

﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ وهم أهله من بنيه، وحاشيتهم، أي يسبغ نعمته عليهم بك ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بمن هو مستحق للاجتباء ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه.

تنبيهات:

الأول – قال أبو السعود؛ كأن يعقوب عليه السلام أشار بقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ إلى ما سيقع من يوسف عليه السلام، من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن، ورؤيا الملك، وكون ذلك ذريعة إلى ما يبلغه الله إليه من الرياسة العظمى التي عبر عنها بإتمام النعمة. وإنما عرف يعقوب عليه السلام ذلك منه من جهة الوحي. أو أراد كون هذه الخصلة سبباً لظهور أمره عليه السلام على الإطلاق، فيجوز حينئذ أن تكون معرفته بطريق الفراسة، والاستدلال من الشواهد والدلائل والأمارات والمخايل، بأن من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا، لا بد من توفيقه لتعبيرها، وتأويل أمثالها، وتمييز ما هو آفاقيّ منها، مما هو أنفسي كيف لا، وهي تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام في عالم المثال، وقوة تصرفاتها فيه، فيكون أقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم، وبما يحاكيه من الأمور الواقعة بحسبها في عالم الشهادة، وأقوى وقوفاً على النسب الواقعة بين الصور المعاينة في أحد ذينك العالمين، وبين الكائنات الظاهرة على وفقها في العالم الآخر. وإن هذا الشأن البديع، لابد أن يكون أنموذجاً لظهور أمر من اتصف به، ومداراً لجريان أحكامه، فإن لكل نبيّ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة، بها تظهر آثاره، وتجري أحكامه.

الثاني – استدل بالآية على أن (الجد) يطلق عليه اسم (الأب)، فيدل أن من نسب رجلاً إلى جده وقال: (يا ابن فلان) ! أنه لايكون قذفاً.

الثالث – قال المهايميّ: من فوائد هذا المقام استحباب كتمان السر، وجواز التحذير عن شخص بعينه، ومدح الشخص في وجهه إذا لم يضره، واعتبارالسبب وإن لم يؤثر؛ وأن لكل حادث تأويلاً عند الأولياء، وأنه تعبر الرؤيا من الصغار، وإن كان من عالم الخيال، إذ تصور المخيلة معاني معقولة، بصور محسوسة، فترسلها إلى الحس المشترك فيشاهدها. والصادقة منها ما تكون باتصال النفس عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ، فيتصور بما فيها مما يناسب المعاني، فإن كانت شديدة المناسبة استغنت عن التعبير، وإلا احتاجت إليه فالأخبار عن هذه الرؤيا آية، وعما ترتب عليها آيات.

بحث في الرؤيا:

قال الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه (الذريعة) في بحث (الفراسة) ما مثاله:

ومن الفراسة علم الرؤيا. وقد عظّم الله تعالى أمرها في جميع الكتب المنزلة، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء:٦٠]، وقال: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ....﴾ [الأنفال:٤٣] الآية، وقال في قصة إبراهيم: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات:١٠٢]، وقوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً﴾ [يوسف:٤].

والرؤيا هي فعل النفس الناطقة، ولو لم يكن لها حقيقة لم يكن لإيجاد هذه القوة في الإنسان فائدة. واللّه تعالى يتعالى عن الباطل. وهي ضربان:ضرب وهو الأكثر. أضغاث أحلام وأحاديث النفس بالخواطر الردية، لكن النفس في تلك الحال كالماء المتموّج. لا يقبل صورة.

وضرب وهوالأقل، صحيح، وذلك قسمان: قسم لا يحتاج إلى تأويل، ولذلك يحتاج المعبر إلى مهارة يفرق بين الأضغاث وبين غيرها، وليميز بين الكلمات الروحانية والجسمانية، ويفرق بين طبقات الناس، إذ كان فيهم من لا تصحّ له رؤيا، وفيهم من تصحّ رؤياه. ثم من صحّ له ذلك، منهم من يُرَشّح أن تلقى إليه في المنام الأشياء العظيمة الخطيرة، ومنهم من لا يرشح له ذلك. ولهذا قال اليونانيون. يجب أن يشتغل المعبر بعبارة رؤيا الحكماء والملوك دون الطغام، وذلك لأن له حظاً من النبوّة. وقد قال عليه الصلاة والسلام[١]: (الرؤيا الصادقة جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة) وهذا العلم يحتاج إلى مناسبة بين متحرّيه وبينه، فرب حكيم لايرزق حذقاً فيه ورب نزر الحظ من الحكمة وسائر العلوم توجد له فيه قوة عجيبة. انتهى -.

وقال الأستاذ ابن خلدون: حقيقة الرؤيا مطالعة النفس الناطقة، في ذاتها الروحانية، لمحة من صور الواقعات. فإنها عندما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل، كما هو شأن الذوات الروحانية كلها، وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسمانية، والمدارك البدنية. وقد يقع لها ذلك لمحة بسبب النوم، كما

---

(١) أخرجه البخاريّ في: التعبير، ٢ - باب رؤيا الصالحين، حديث ٢٥٣٦ ونصه: عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح...».

نذكر، فتقتبس بها علم ما تتشوّف إليه من الأمور المستقبلة، وتعود به إلى مداركها. فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً، وغير جليّ بالمحاكاة، والمثال في الخيال لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة إلى التعبير، وقد يكون الاقتباس قوياً يستغنى فيه عن المحاكاة، فلا يحتاج إلى تعبيرٍ لخلوصه من المثال والخيال والسبب في وقوع هذه اللمحة للنفس، أنها ذات روحانية بالقوة، مستكملة بالبدن ومداركه، حتى تصير ذاتها تعقلاً محضاً ويكمل وجودها بالفعل، فتكون حينئذ ذاتاً روحانية مدركة بغير شيء من الآلات البدنية، إلا أن نوعها من الروحانيات دون نوع الملائكة، أهل الأفق الأعلى، على الذين لم يستكملوا ذواتهم بشيء من مدارك البدن ولا غيره، فهذا الاستعداد حاصل لها ما دامت في البدن. ومنه خاصّ، كالذي للأولياء. ومنه عامّ للبشر على العموم، وهو أمر الرؤيا. وأما الذي للأنبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية إلى الملكية المحضة التي هي أعلى الروحانيات. ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكرراً في حالات الوحي، وهي عندما يعرج على المدارك البدنية، ويقع فيها ما يقع من الإدراك، شبيهاً بحال النوم شبهاً بيناً، وإن كان حال النوم أدون منه بكثير، فلأجل هذا الشبه عبّر الشارع عن الرؤيا بانها (جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) وفي رواية (ثلاثة وأربعين)، وفي رواية (سبعين) وليس العدد في جميعها مقصوداً بالذات، وإنما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب، بدليل ذكر السبعين في بعض طرقه، وهو للتكثير عند العرب، وما ذهب إليه بعضهم في رواية (ستة وأربعين) من أن الوحي كان في مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر، وهي نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدنية ثلاث وعشرون سنة، فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين – فكلام بعيد من التحقيق. لأنه إنما وقع ذلك للنبي ﷺ ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء؟ مع أن ذلك إنما يعطي نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة، ولا يعطي نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة. وإذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولاً، علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر، إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطري لهم، صلوات اللّه عليهم، إذ هو الاستعداد البعيد. وإن كان عامًّا في البشر، ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل. ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة، ففطر اللهُ البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم، الذي هو جبلّيّ لهم، فتتعرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوف إليه في عالم الحق، فتدرك بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب. ولذلك جعلها الشارع من

المبشرات فقال[١]: (لم يبق من النبوة إلا المبشرات)! قالوا: وما المبشرات يا رسول الله! قال (الرؤيا الصالحة، يراها الرجل الصالح، أو ترى له).

وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم، فعلى ما أصفها لك: وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيوانيّ الجسمانيّ، وهو بخار لطيف، مركزه بالتجويف الأيسر من القلب - على مافي كتب التشريح لجالينوس وغيره - وينبعث مع الدم في الشريانات والعروق فيعطي الحس والحركة، وسائر الأفعال البدنية، ويرتفع لطيفه إلى الدماغ، فيعدل من برده، وتتم أفعال القوى التي في بطونه. فالنفس الناطقة إنما تدرك وتعقل بهذا الروح البخاري، وهي متعلقة به، لما اقتضته حكمة التكوين في أن اللطيف لا يؤثر في الكثيف. ولمَّا لطف هذا الروح الحيوانيّ من بين المواد البدنية، صار محلاً لآثارالذات المباينة له في جسمانيته، وهي النفس الناطقة، وصارت آثارها حاصلة في البدن بواسطته.

وقد كنا قدّمنا أن إدراكها على نوعين: إدراك بالظاهر وهو بالحواس الخمس، وإدراك بالباطن وهو بالقوى الدماغية. وأن هذا الإدراك كله صرف لها عن إدراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية، التي هي مستعدة له بالفطرة. ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية، كانت معرضة للوسن والفشل، بمايدركها من التعب والكلال، وتغشى الروح بكثرة التصرف، فخلق الله لها طلب الاستجمام، لتجرد الإدراك على الصورة الكاملة. وإنما يكون ذلك بانخناس الروح الحيوانيّ من الحواس الظاهرة كلها، ورجوعه إلى الحس الباطن. ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل، فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن، وتذهب من ظاهره إلى باطنه، فتكون مشيعة مركبها، وهو الروح الحيوانيّ، إلى الباطن. ولذلك كان النوم للبشر في الغالب إنما هو بالليل. فإذا انخنس الروح عن الحواس الظاهرة، ورجع إلى القوى الباطنة، وخفّتْ عن النفس شواغل الحس وموانعه، ورجعت إلى الصورة التي في الحافظة، تمثل منها بالتركيب والتحليل صورة خيالية وأكثر ماتكون معتادة، لأنها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريباً. ثم ينزلها الحس المشترك، الذي هو جامع الحواس الظاهرة، فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة.

وربما التفتت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية، مع منازعتها القوى الباطنية،

---

(١) أخرجه البخاريّ في: التعبير، باب المبشرات، حديث ٢٥٤١.

فتدرك بإدراكها الروحاني لأنها مفطورة عليه. وتقتبس من صورالأشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ، ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة، فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المعهودة. والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير، وتصرفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة، قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هي – اضغاث أحلام.

وفي الصحيح أن النبيّ ﷺ قال[1]: (الرؤيا ثلاث: رؤيا من اللّه، ورؤيا من الملَك، ورؤيا من الشيطان) وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه فالجليّ من اللّه، والمحاكاة الداعية إلى التعبير من الملَك، وأضغاث الأحلام من الشيطان لأنها كلها باطل، والشيطان ينبوع الباطل.

هذه حقيقة الرؤيا، وما يسببها ويشيعها من النوم. وهي خواص للنفس الإنسانية، موجودة في البشر على العموم، لا يخلو عنها أحد منهم، بل كل واحد من الإنسان رأى في نومه ما صدر له في يقظته، مراراً غير واحدة، وحصل له القطع أن النفس مدركة للغيب في النوم، ولابد. وإذا جاز ذلك في عالم النوم، فلا يمتنع في غيره من الأحوال، لأن الذات المدركة واحدة، وخواصها عامة في كل حال. انتهى.

وذكر رحمه اللّه عند بحث (علم تعبير الرؤيا) أن التعبير لها كان موجوداً في السلف، كما هو في الخلف، وأن يوسف الصديق، صلوات اللّه عليه، كان يعبرالرؤيا، كما وقع في القرآن، وكذلك ثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ، وعن أبي بكر رضي اللّه عنه، والرؤيا مدرك من مدارك الغيب كما تقدم. وأما معنى التعبير فاعلم أن الروح العقليّ، إذا أدرك مدركه، وألقاه إلى الخيال فصوّره، فإنما يصوّره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء. ومن المرئيّ مايكون صريحاً لا يفتقر إلى تعبير، لجلائها ووضوحها، أو لقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه. وللبحث تتمة سابغة، انظرها ثمة.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ أي في قصتهم وحديثهم ﴿آيَاتٌ﴾ أي دلائل

---

(١) أخرجه البخاريّ عن أبي هريرة في: التعبير، ٢٦ – باب القيد في المنام، حديث ٢٥٣٩.

على قدرته تعالى، وحكمته في كل شيء ﴿للسَّائِلينَ﴾ أي لمن سأل عن نبئهم. أو آيات على نبوّته صلوات اللّه عليه، لمن سأل عن نبئهم، فأخبرهم بالصحة من غير تلقّ عن بشر أو أخذ عن كتاب.

وقال القاشانيّ: أي آيات معظمات لمن يسأل عن قصتهم ويعرفها، تدلهم أولاً: على أن الاصطفاء المحض أمر مخصوص بمشيئة اللّه تعالى، لا يتعلق بسعي ساعٍ ولا إرادة مريدٍ، فيعلمون مراتب الاستعدادات في الأزل.

وثانياً – على أن من أراد اللّه به خيراً،لم يمكن لأحد دفعه. ومن عصمه اللّه، لم يمكن لأحد رميه بسوء، ولا قصده بشر، فيقوى يقينهم وتوكلهم.

وثالثاً – على أن كيد الشيطان وإغواءه أمر لا يأمن منه أحد، حتى الأنبياء، فيكونون منه على حذر. وأقوى من ذلك كله أنها تطلعهم من طريق الفهم، الذي هو الانتقال الذهني، على أحوالهم في البداية والنهاية، وما بينهما، وكيفية سلوكهم إلى اللّه، فتثير شوقهم وإرادتهم، وتشحذ بصيرتهم، وتقوّي عزيمتهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾

﴿إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ وهو بَنيامين شقيقه، وأمهما راحيل بنت لابان، خال يعقوب. ﴿أَحَبُّ إِلى أبينا منَّا وَنَحْنُ عُصبَةٌ﴾ أي والحال أنا جماعة أقوياء، أحق بالمحبة من صغيرين، لا كفاية فيهما. والعصبة والعصابة: الجماعة من الرجال – عشرة فصاعداً – سموا بذلك لكون الأمور تعصب بهم أي تشد فتقوى وذكرها ليس لإفادة العدد فقط، بل للإشعار بالقوة، ليكون أدخل في الإنكار، لأنهم قادرون على خدمته، والجد في منفعته فكيف يؤثر عليهم من لايقدر على ذلك؟

﴿إنَّ أَبَانَا لَفي ضلالٍ مُبينٍ﴾ أي ذهاب عن طريق الصواب في ذلك لتفضيله المفضول بزعمهم. وغاب عنهم أنه كان يحب يوسف لما يرى فيه من المخايل، لاسيما بعد تلك الرؤيا. وبنيامين لكونه شقيقه وأصغرهم. ومن المعروف زيادة الميل لأصغر البنين.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾

﴿ **اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً** ﴾ من مقول قولهم المحكّي قبل، وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم، ويروى أنه قصه عليهم، فتشاوروا في كيده، وقالوا ذلك، وقالوا: لنرى بعدُ ما يكون من أحلامه، سخرية واستهزاء. وتنكير(أرضاً) وإخلاؤها من الوصف، للإبهام، أي في أرض مجهولة، لايعرفها الأب، ولايمكن ليوسف أن يعرف طريق الوصول إليه.

وقوله: ﴿ **يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ** ﴾ جواب الأمر، كناية عن خلوص محبته لهم، لأنه يدل على إقباله عليهم بكليته، وعلى فراغه عن الشغل بيوسف، فيشتغل بهم. ﴿ **وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ** ﴾ اي من بعد الفراغ من قتله أوطرحه ﴿ **قوْماً صَالِحِينَ** ﴾ أي تائبين إلى الله عما جنيتم، فيكون صلاحكم فداءً عن معصية قتله أو طرحه. أو تصلح دنياكم، وتنتظم أموركم بعده بخلوّ وجه أبيكم.

تنبيهات:

الأول: قال ابن إسحاق: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير، الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني، ذي الحق والحرمة والفضل، والده، ليفرقوا بينه وبين ابنه على صغر سنه، وحاجته إلى لطف والده، وسكونه إليه. يغفر الله لهما!.

الثاني – قال ابن كثير: اعلم أنه لم يقم دليل على نبوّة إخوة يوسف: وظاهر السياق يدل على خلاف ذلك. ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل. ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا باللّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنا وَمَا أُنْزِلَ إلى إِبْراهيم وإِسْمَاعيلَ وإِسْحاق وَيَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ ﴾ [البقرة:١٣٦]، وهذا فيه احتمال، لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط، كما يقال للعرب قبائل. وللعجم شعوب. يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لانهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف. ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

﴿**قالَ قَائلٌ مِنْهُمْ**﴾ أي صريحاً ورضي به الباقون ﴿**لاتَقتُلُوا يُوسُف**﴾ أي لأن القتل من الكبائر التي يخاف معها سدّ باب الصلاح. وإنما أظهره في مكان الإضماراستجلاباً لشفقتهم عليه، أو استعظاماً لقتله. ﴿**وألْقُوهُ في غَيابَةِ الْجُبِّ**﴾ اي في غوره. و(الجب): البئر التي لا حجارة فيها: ﴿**يلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ**﴾ أي بعض الأقوام الذي يسيرون في الأرض، فيتملكه، فلا يمكنه الرجوع إلى أبيه، فيحصل مطلوبكم من غير ارتكاب كبيرة يخاف معها سدّ باب الصلاح.

﴿**إنْ كُنتُمْ فَاعِلينَ**﴾ أي عازمين مصرّين على أن تفرقوا بينه وبين أبيه. وقد روي ان القائل هو أخوهم الأكبر، بكر يعقوب (رؤُوبين).

ولما تواطأوا على رأيه:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾

﴿**قالُوا**﴾ اي لأبيهم ﴿**يَا أبَانَا مَا لَكَ لا تأمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وإنَّا لَهُ لَنَاصِحُون**﴾ أي لم تخافنا عليه، ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه؟ أرادوا بذلك استنزاله عن عادته في حفظه منهم. وفيه دليل على انه أحسّ منهم بما أوجب ان لا يامنهم عليه – كذا في الكشاف –.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾

﴿**أَرْسِلْهُ مَعَنَا غداً يرْتَعْ وَيَلْعَبْ وإنّا لَهُ لَحافِظُون**﴾ (الرتع): الأكل والشرب، والسعي والنشاط، حيث يكون الخضر والمياه والزروع. يريدون: أن إلزامك إياه ان يكون بمكانك، موجب لملاله القاطع لنشاطه على العبادة، واكتساب الكمالات.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾

﴿ **قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وأَخَافُ أَنْ يَأكُلَهُ الذِّئْبُ وأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ** ﴾ يعني: وإن زعمتم أنكم له حافظون، فحفظكم إنما يكون ما دمتم ناظرين إليه، لكن لايخلو الإنسان عن الغفلة، فأخاف غفلتكم عنه.

قال الزمخشري: اعتذر إليهم بشيئين.

أحدهما: أن ذهابهم به، ومفارقته إياه، مما يحزنه لأنه كان لايصبر عنه ساعة.

والثاني: خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه، برعيهم ولعبهم، أو قلّ به اهتمامهم، ولم تصدق بحفظه عنايتهم.

قال الناصر: وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه، لأنه مظنة هلاكه. وأما حزنه لمفارقته ريثما يرتع ويلعب ويعود سالماً إليه عما قليل، فأمر سهل. فكأنهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه. انتهى - أي فيما حكي عنهم بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

﴿ **قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنحنُ عُصْبَةٌ** ﴾ أي جماعة أقوياء، يمكننا أن ننزعه من يد الذئب ﴿ **إنَّا إذاً لَخاسِرون** ﴾ أي هالكون ضعفاً وجبناً. أو عاجزون، أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

﴿ **فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ** ﴾ أي بعد مراجعة أبيهم في شأنه ﴿ **وأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ في غَيابَةِ الْجُبِّ** ﴾ فيه تعظيم لما أزمعوا، إذ أخذوه ليكرموه، ويدخلوا السرور على أبيه، ومكروا ما مكروا. ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَيه لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا** ﴾ أي أعلمناه بإلقاءٍ في روعه، أو

بواسطة ملَك عند ذلك تبشيراً له، بأنك ستخلص مما أنت فيه، وتحدثهم بما فعلوا بك.

وقوله: ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ إما متعلق بـ (أوحينا) أي أوحينا إليه ذلك وهم لايشعرون، إيناساً له، وإزالة للوحشة؛ أو حال من الهاء في (لتنبئنهم)، أي: لتحدثنهم بذلك وهم لايشعرون أنك يوسف، لعلوّ شانك، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ [يوسف:٥٨].

روي أنهم نزعوا قميص يوسف الموشى الذي عليه، وأخذوه، وطرحوه في البئر، وكانت فارغة لا ماء بها، وجلسوا بعدُ،يأكلون ويلهون إلى المساء.

وجواب (لما) في الآية محذوف، مثل فعلوا ما فعلوا، أو طرحوه فيها. وقيل: الجواب (أوحينا) والواو الزائدة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ﴾ بيان لمكرهم بأبيهم بطريق الاعتذار الموهم موته القاطع عنه متمناه، لتنقطع محبته عنه، ولو بعد حين، فيرجع إليهم بالحب الكليّ. وقَدِموا عشاءً لكونه وقت الظلمة المانعة من احتشامه في الاعتذار الكذب، ومن تفرسه من وجوههم الكذب وأوهموا، ببكائهم وتفجعهم عليه، إفراط محبتهم له المانعة من الجراة عليه. ثم نادوه باسم (الأب) المضاف إليهم ليرحمهم، فيترك غضبه عليهم، الداعي إلى تكذيبهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي في العَدْو والرمي بالنصل **﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا﴾** أي ما يتمتع به من الثياب والأزواد وغيرهما ليحفظه **﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾** أي كما حذرتَ

وقوله تعالى: **﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صادقينَ﴾** تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه. يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا في هذه الحالة، ولو كنا عندك **صادقين،**

فكيف وأنت تتهمنا، وغير واثق بقولنا؟

وقد استفيد من الآية أحكام:

منها: أن بكاء المرء لا يدل على صدقه، لاحتمال أن يكون تصنعاً - نقله ابن العربيّ -

ومنها: مشروعية المسابقة. وفيه من الطب رياضة النفس والدواب، وتمرين الأعضاء على التصرف - كذا في الإكليل - .

قال بعض اليمانين: اللعب إن كان بين الصغار جاز بما لا مفسدة فيه، ولا تشبه بالفَسقة وأما بين الكبار، ففيه ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون في معنى القمار، فلا يجوز.

الثاني: أن لا يكون في معناه، وفيه استعانة وحث على القوة والجهاد، كالمناضلة بالقسيّ، والمسابقة على الخيل، فذلك جائز وفاقاً.

الثالث: أن لا يكون فيه عوض كالمصارعة ونحوها. ففي ذلك قولان للشافعية. رجح الجوازُ، إن كان بغير عوض، أو بعوض يكون دفعه على سبيل الرضا، لأنه ﷺ[١] صارع يزيد بن ركانة.

وروي أن عائشة قالت[٢]: سابقت رسول اللّه ﷺ مرتين، فسبقته في المرة الأولى، فلما بدنتُ سبَقني وقال: هذه بتلك.

وفي الحديث [٣]: ليس من اللهو ثلاثة: ملاعبة الرجل أهله،وتأديبه فرسه، ورميه بقوسه. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ بيان لما تآمروا عليه من المكيدة، وهو أنهم

---

(١) أخرجه أبو داود في: اللباس، ٢١ - باب في العمائم، حديث ٤٠٧٨.

(٢) أخرجه ابن ماجة في: النكاح، ٥٠ - باب حسن معاشرة النساء، حديث رقم ١٩٧٩.

(٣) أخرجه أبو داود، من حديث طويل، عن عقبة بن عامر، في: الجهاد، ٢٣ - باب في الرمي، حديث رقم ٢٥١٣.

أخذوا قميصه الموشى، وغمسوه في دم مَعزٍ كانوا ذبحوه. و(كذب) مصدر بتقدير مضاف، أي: ذي كذب. أو وصف به مبالغة، كرجل عدل. و(على) ظرف لـ(جاءوا) مشعر بتضمنه معنى (افتروا).

وقوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أي من تغيب يوسف، وتفريقه عني، والاعتذار الكاذب.

قال الناصر: وقوّاه على اتهامهم، أنهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب، عليه السلام، هلاكه بسببه أولاً، وهو أكل الذئب، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ وكثيراً ما تتفق الأعذار الباطلة، من قلق في المخاطب المعتذر إليه حتى كان بعض أمراء المؤمنين يلقنون السارق الإنكار. انتهى.

وفي (الإكليل): استنبط، من هذا، الحكم بالأمارات، والنظر إلى التهمة، حيث قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ....﴾ .

لطائف:

قال المهايمي: في الآية من الفوائد أن الجاه يدعو إلى الحسد، كالمال، وهو يمنع من المحبة الأصلية من القرابة ونحوها، بل يجعل عداوتهم أشد من عداوة الأجانب، وأن الحسد يدعو إلى المكر بالمحسود، وبمن يراعيه، وأنه إنما يكون برؤية الماكر نفسه أكملٍ عقلاً من الممكور به. وأن الحاسد إذا ادعى النصح والحفظ والمحبة، بل أظهره فعلاً، لم يعتمد عليه.

وكذا من أظهر الأمانة قولاً وفعلاً يفعل الخيانة. وأن الإذلال والإعزاز بيد اللّه، لا الخلق. وأن من طلب مراده بمعصية اللّه بعد عنه، وأن الخوف من الخلق يورث البلاء وأن الإنسان، وإن كان نبياً، يخلق أولاً على طبع البشرية. وأن اتباع الشهوات يورث الحزن الطويل. وأن القدر كائن، وأن الحذر لا يغني من القدر.

قيل للهدهد: كيف ترى الماء تحت الأرض، ولا ترى الشبكة فوقها؟ قال: إذا جاء القضاء عمي البصر.

و(التسويل) تزيين النفس للمرء ما يحرص عليه، وتصوير القبيح بصورة الحسن. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (صبر) خبر أو مبتدأ، لكونه موصوفاً، أي فشأني صبر جميل. أو فصبر جميل أجمل والصبر قوة للنفس على احتمال الآلام كالمصائب إذا

عرضت، والجميل منه هو ما لاشكوى فيه إلى الخلق ولاجزع، رضا بقضاء الله، ووقوفاً مع مقتضى العبودية.

﴿واللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي المطلوب منه العون على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف - كذا قدروه - وحقق أبو السعود؛ أن المعنى على إظهار حال ما تصفون وبيان كونه كذباً، وإظهار سلامته، فإنه عَلَمٌ في الكذب قال سبحانه : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٠٨]، وهو الأليق بما سيجيء من قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَن يأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ [يوسف: ١٨ و ٨٣]، وتفسير المستعان عليه باحتمال ما يصفون من هلاك يوسف، والصبر على الرزء فيه - يأباه تكذيبه عليه السلام لهم في ذلك، ولاتساعده الصيغة، فإنها قد غلبت في وصف الشيء بما ليس فيه، كما أشير إليه. انتهى.

وفي قوله : ﴿وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ اعتراف بأن تلبسه بالصبر لايكون إلا بمعونته تعالى.

قال الرازي: لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع، وهي قوية. والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا. فكأنهما في تحارب وتجالد. فما لم تحصل إعانته تعالى، لم تحصل الغلبة فقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يجري مجرى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وقوله: ﴿واللهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ يجري مجرى قوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. انتهى.

ثم ذكر تعالى ماجرى على يوسف في الجب، بعد ما تقدم بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩)﴾

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فأرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ أي الذي يرد الماء ويستقي لهم ﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ أي أرسلها في الجب ليملأها، فتعلق بها يوسف للخروج، فلما رآه ﴿قَالَ يَا بُشْرَى هذَا غلامٌ﴾ وقرئ ﴿يَابُشْرَايَ﴾ بالإضافة والمنادى محذوف. أو نزلت منزلة من ينادي ويقال: إن هذه الكلمة تستعمل للتبشير من غير قصد إلى النداء.

قال الزجاج: معنى النداء في هذه الأشياء التي لا تجيب هو تنبيه المخاطبين،

وتوكيد القصة، فإذا قلت: ياعجباه! فكانك قلت: اعجبوا.

و(الغلام): الطارّ الشارب: أو من ولادته إلى أن يشبّ. والتنوين للتعظيم.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ أي أخفوه متاعاً للتجارة فـ ﴿بضاعة﴾ حال. وفي (الفرائد) أنه ضمّن ﴿أسرّوه﴾ معنى (جعلُوهُ) أي جعلوه بضاعة مسرين، فهو مفعول به، أو مفعول له. أي: لأجل التجارة. و(البضاعة) من البضع، وهو القطع لأنه قطعة وافرة من المال تقتنى للتجارة: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فيه من الزّاهدين﴾ الضمير في (أسَرُّوهُ) و(شَرَوْهُ) للسيارة لأنها بمعنى القوم السائرين. وقد روي أنهم كانوا تجاراً من بلدة مدين. فلما أصعد واردُهم يوسف، وضمّوه إلى بضاعتهم، باعوه لقافلة مرت بهم سائرة إلى مصر بعشرين درهماً من الفضة، ثم أتوا بيوسف إلى مصر. و(دراهم) بدل من الثمن و(المعدود)، كناية عن القليل، لأن الكثير يوزن عندهم. و(الزهد) فيه بمعنى الرغبة عنه.

فوائد:

قال في (الإكليل)،استنبط الناس من هذه الآية أحكام اللقيط، فأخذوا منها أن اللقيط يؤخذ ولايترك. ومن قوله: (هذا غلام) أنه كان صغيراً، وأن الالتقاط خاص به، فلا يلتقط الكبير، وكذا قوله ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ لان ذلك أمر يختص بالصغار. ومن قوله: ﴿وشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أن اللقيط يحكم بحريته. وأن ثمن الحرّ حرام. قال بعضهم: وجه الاستدلال لأنهم باعوه بثمن حقير لكونه لقيطاً، وهو لا يملك، إذ لو ملك استوفوا ثمنه.

قال بعض الزيدية. وردّ هذا الاستدلال بأن فعلهم ليس شريعة. وأما الآن فلاشبهة أن ظاهر اللقيط الحرية، كما أن ظاهره الإسلام.

قال المهايمي: ومن الفوائد أن الفرج قد يحصل من حيث لايحتسب، وأنه ينتظر للشدة وأن من خرج لطلب شيء قد يجد ما لم يكن في خاطره. وأن الشيء الخطير قد يعرض فيه مايهوّنه. وأن البشرى قد يعقبها الحزن، والعزة قد يعقبها الذلة. وبالعكس.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

﴿وقَالَ الَّذي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِه أكْرِمي مَثْوَاهُ عَسَى أنْ يَنْفَعنا أوْ نتَّخِذَهُ ولَداً﴾ يخبر تعالى عن لطفه بيوسف، إذ يسّر له من اشتراه في مصر، فاعتنى به، وأوصى أهله، وتوسّم فيه الخير والصلاح. ومعنى ﴿أكْرِمي مَثْوَاهُ﴾ اجعلي مقامه حسناً مرضياً. و(المثوى) محل الثواء، وهو الإقامة.

قال الشهاب: وإكرامُ مثواه كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه، لأن من أكرم المحل بإحسان الأسرّة، واتخاذ الفراش ونحوه، فقد أكرم ضيفه بسائر ما يكرم به. أو (المثوى) مقحم. كما يقال: المقام السامي.

روي أن القافلة لما نزلت مصر اشتراه منهم رئيس الشرط عند ملك مصر، فأقام في بيت سيده، والعناية الربانية تحفه، والنجاح يحوطه فكان يرى سيده أن كل ما يأتي به ينجحه الله تعالى على يده، فنال حظوة لديه، وأقامه قيّماً على كل ما بملكه، وضاعف تعالى البركة في زرعه وماله وحوزته.

﴿وكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ في الأَرْضِ ولِنُعَلِّمَهُ من تأْويلِ الأَحاديث﴾ أي كما جعلنا له مثوى كريماً في منزل العزيز وقلبه، جعلنا له تصرفاً بالأمر والنهي، ومكانة رفيعة في أرض مصر، ووجاهة في أهلها، ومحبة في قلوبهم، ليكون عاقبة ذلك تعليمه تأويل الرؤيا التي ستقع من الملك، وتفضي بيوسف إلى الرياسة العظمى.

﴿واللّهُ غالِبٌ عَلى أمرِهِ﴾ أي لا يُمْنَعُ عما يشاء ولا يُنَازَعُ فيما يريد. أو على أمر يوسف، أريد به من الفتنة ما أريد غير مرة، فلم يكن إلا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة.

﴿ولَكِنَّ أَكْثَر النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي أن الأمر كله بيده، فيأتون ويذرون زعماً أن لهم شيئاً من الأمر. أو لا يعلمون لطائف صنعه، وخفايا لطفه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

﴿ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وعِلْماً وكَذلِكَ نَجْزي الْمُحْسِنِين﴾ هذه الآية كالتي

قبلها، تخللت تضاعيف نظم القصة لمعنى بديع، وهو البدار إلى الإعلام بنتائج صبر يوسف، وثمرات مجاهداته، وعجائب صنع الله تعالى في مراداته إذ طوى له المنح في تلك المحن، وذخر له السيادة في تلك العبودية. ومعنى ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي زمان اشتداد جسمه وقوته.

قال أبو عبيدة: العرب تقول: بلغ فلان أشده، إذا انتهى منتهاه في شبابه وقوته قبل أن يأخذ في النقصان. و(الحكم) إما الحكمة وهو العلم المؤيد بالعمل، أو الحكم بين الناس.

قال الزمخشري: وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تنبيه على أنه كان محسناً في عمله، متّقياً في عنفوان أمره، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه.

وعن الحسن: من أحسن عبادة ربه في شبيبته، آتاه اللهُ الحكمة في اكتهاله.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتي هُوَ في بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَت هَيْتَ لَكَ، قال مَعاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّيَ أَحسَنَ مَثْوَاي إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ هذا رجوع إلى شرح ما جرى على يوسف في منزل العزيز بعد ما أمر امرأته بإكرام مثواه، من مراودتها له وإبائه. والمراودة: المطالبة. أي: طلبت منه أن يواقعها. وتعديتُها بـ (عن) لتضمينها معنى المخادعة. والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السر والستر، وإيراد الموصول دون امرأة العزيز، لتقرير المراودة. فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك. قيل لامرأة: ما حملك على ما لاخير فيه؟ قالت: قرب الوساد، وطول السواد. ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام – كما سيأتي –.

و(هَيْتَ) قرئت كـ (لَيْتَ وقِيلَ وحَيْثُ)، وبكسر الهاء وبهمزة ساكنة بعدها، وفتح التاء وضمها. وهي في هذه اللغات اسم فعل بمعنى (تعال). واللام لتبيين المفعول أي المخاطب. ونقل عن الفرّاء أنها لغة لأهل حوران سقطت إلى مكة فتكلموا بها.

قال ابن الأبياري: هذا وِفاقٌ بين لغة قريش وأهل حوران، كما اتفقت لغة العرب والروم في (القسطاس) ونحوه.

و﴿مَعاذَ اللهِ﴾ منصوب على المصدر. أي: أعوذ بالله معاذاً مما تدعينني إليه، لكونه زنى وخيانة فيما اؤتمنت عليه، وضرًّا لمن توقع النفع، وإساءة إلى المحسن.

قال أبو السعود: وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه، وإشارة إلى التعليل بأنه منكر هائل، إيجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه، وما ذاك إلا لأنه عليه السلام قد شاهد بما أراه الله تعالى من البرهان النيّر على ما هو عليه في حد ذاته من غاية القبح، ونهاية السوء.

وقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ تعليل للامتناع ببعض الأسباب الخارجية، مما عسى أن يكون مؤثراً عندها، وداعياً لها إلى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذاتي الذي تكاد تقبله لما سولته لها نفسها. والضمير للشأن. وفائدة تصدير الجملة به الإيذان بفخامة مضمونها، مع ما فيه من زيادة تقريره في الذهن، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر، فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه، فيتمكن عند وروده له فضل تمكن. فكأنه قيل: إن الشأن الخطيرهذا، وهو ربي، أي سيدي العزيز، أحسن مثواي، أي تعهدي، حيث أمرك بإكرامي، فكيف يمكن أن أسيء إليه بالخيانة في حرمه؟ وفيه إرشاد لها إلى رعاية حق العزيز بألطف وجه. وقيل: الضمير لله عزَّ وجلَّ، و﴿رَبِّي﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، و﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ خبر ثان. أو هو الخبر والأول بدل من الضمير. والمعنى: أن الحال هكذا، فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة؟ وفيه تحذير لها من عقاب الله عزَّ وجلَّ. وعلى التقديرين، ففي الاقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض للامتناع عما دعته إليه، إيذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية في الدلالة على استحالته، وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ تعليل للامتناع المذكور، غِبّ تعليل. و(الفلاح) الظفر، أو البقاء في الخير. ومعنى(أفلح) دخل فيه، كأصبح وأخواته. والمراد بـ (الظالمين) كل من ظلم، كائناً من كان، فيدخل في ذلك المجازون للإحسان بالإساءة، والعصاة لأمر الله تعالى، دخولاً أولياً، وقيل: الزناة، لأنهم ظالمون لأنفسهم، وللمزنيّ بأهله. انتهى.

وقال بعض اليمانين: ثمرات هذه الآية ثلاث:

الأولى - أن الواجب عند الدعاء إلى المعصية الاستعاذة بالله من ذلك، ليعصمه منها، ويدخل فيه دعاء الشيطان، ودعاء شياطين الإنس، ودعاء هوى النفس.

الثانية - أن السيد والمالك يسمى (ربًّا)

الثالثة - أنه يجوز ترك القبيح لقبحه، ورعاية حق غيره، وخشية العار، أو الفقر، أو الخوف، ونحو ذلك. ولايقال: التشريك غير مفيد في كونه تاركاً للقبيح، وأنه لايثاب وتدل أيضاً على لزوم حسن المكافأة بالجميل، وأن من أخلّ بالمكافأة عليه، كان ظالماً. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ به، وَهَمَّ بها لَوْلاَ أنْ رأى بُرْهَانَ رَبِّه، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والْفَحْشاءَ، إنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (الهم): يكون بمعنى القصد والإرادة، ويكون فوق الإرادة ودون العزم، إذا أريد به اجتماع النفس على الأمر والإزماع عليه، وبالعزم: القصد إلى إمضائه، فهو أول العزيمة. وهذا معنى قولهم: الهم همان: هم ثابت معه عزم وعقد ورضا وهو مذموم مؤاخذ به؛ وهمٌّ بمعنى خاطر، وحديث نفس، من غير تصميم، وهو غير مؤاخذ به. لأنه خطور المناهي في الصدور، وتصورها في الأذهان، لامؤاخذة بها ما لم توجد في الأعيان.

روى الشيخان وأهل السنن عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: إن الله تجاوز لأمتي عمّا حدّثت به أنفسها، ما لم تتكلم به، أو تعمل به. ورواه الطبراني عن عمران ابن حصين رضي الله عنهما[1].

فمعنى قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾** أي بمخالطته، أي قصدتها وعزمت عليها عزماً جازماً، لا يلويها عنه صارف، بعد ما باشرت مبادئها من المراودة، وتغليق الأبواب، ودعوته إلى الإسراع إليها بقولها **﴿هَيْتَ لَكَ﴾** مما اضطره إلى الهرب إلى الباب.

---

(١) أخرجه البخاريّ في: العتق، ٦ - باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه، حديث رقم ١٢٤٢.

وأخرجه مسلم في: الإيمان، حديث رقم ٢٠١ و ٢٠٢.

ومعنى قوله ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أي لولا رؤيته برهان ربه لهمَّ بها. كما همت به، لتوفر الدواعي. ولكنه رأى من تأييد اللّه له بالبرهان ما صرف عنه السوء والفحشاء.

قال أبو حيّان: ونظيره (قارفتَ الإثم لولا اللّه عصمك). ولا نقول: إن جواب (لولا) يتقدم عليها، وإن لم يقم دليل على امتناعه، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف فيها، حتى ذهب الكوفيون وأعلام البصريين إلى جواز تقدمه، بل نقول: هو محذوف لدلالة ما قبله عليه. لأن المحذوف في الشرط يقدر من جنس ما قبله. انتهى.

فالآية حينئذ ناطقة بأنه لم يهمّ أصلاً. وقيل: جواب (لولا) لغشيها ونحوه. فمعنى (الهم) حينئذ ما قاله الإمام الرازي: من انه خطور الشيء بالبال، أو ميل الطبع. كالصائم في الصيف. يرى الماء البارد، فتحمله نفسه على الميل إليه، وطلب شربه، ولكن يمنعه دينه عنه . وكالمرأة الفائقة حسناً وجمالاً، تتهيأ للشاب النامي القوي، فتقع بين الشهوة والعفة، وبين النفس والعقل، مجاذبة ومنازعة (فالهم) هنا عبارة عن جواذب الطبيعة، ورؤيةُ البرهان جواذب الحكمة، وهذا لايدل على حصول الذنب، بل كلما كانت هذه الحال أشد، كانت القوة على لوازم العبودية أكمل. انتهى.

وكذا قال أبو السعود: إن همه بها بمعنى ميله إليها، بمقتضى الطبيعة البشرية، وشهوة الشباب وقرمه، ميلاً جبلّياً، لا يكاد يدخل تحت التكليف، لا أنه قصدها قصداً اختيارياً. الا يرى إلى ما سبق من استعصامه المنبئ عن كمال كراهيته له، ونفرته عنه، وحكمه بعدم إفلاحِ الظالمين؟ وهل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهم منه – عليه السلام – تسجيلاً محكماً؟ وإنما عبر عنه بالهم، لمجرد وقوعه في صحبة همها في الذكر، بطريق المشاكلة، لا لشبهه به كما قيل. ولقد أشير إلى تباينهما، حيث لم يُلَزّا في قَرَنٍ واحد من التعبير، بأن قيل: ولقد هما بالمخالطة، أو همّ كل منهما بالآخر. وصُدِّرالأول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمي، وعقب الثاني بما يعفو اثره من قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أي حجته الباهرة، الدالة على كمال قبح الزنى، وسوء سبيله. والمراد برؤيته لها كمال إيقانه، ومشاهدته لها مشاهدة واصلة إلى مرتبة عين اليقين. وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى بموجب ذلك البرهان النّير، على ما هو عليه في حد ذاته أقبح ما يكون، وأوجب ما يجب أن

يحذر منه، ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام، والحكم بعدم إفلاح من يرتكبه.

وجواب (لولا) محذوف، يدل عليه الكلام. أي: لولا مشاهدة برهان ربه في شأن الزنى لجرى على موجب ميله الجبلّي، ولكن حيث كان مشاهداً له من قبل، استمر على ما هو عليه من قضية البرهان، وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه عليه السلام، لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة، بل لمحض العفة والنزاهة، مع وفور الدواعي الداخلية، وترتيب المقدمات الخارجية، الموجبة لظهور الأحكام الطبيعية. انتهى.

فاتضح أن لاشبهة فيها على عصمة يوسف عليه السلام، فإن الأنبياء ليسوا بمعصومين من حديث النفس، وخواطر الشهوة الجبلّية، ولكنهم معصومون من طاعتها، والانقياد إليها، ولو لم توجد عندهم دواع جبلّية، لكانوا إما ملائكة أو عالماً آخر. ولَمَا كانوا مأجورين على ترك المناهي، لأنهم يكونون مقهورين على تركها طبعاً، والعنّين لايؤجر ويثاب على ترك الزنى؛ لأن الأجر لا يكون إلا على عمل، والترك بغير داعية ليس عملاً، وأما الترك مع الداعية، فهو كف النفس عما تتشوف إليه، فهو عمل نفسي.

وحقيقة عصمة الأنبياء هي نزاهتهم، وبعُدهم عن ارتكاب الفواحش والمنكرات التي بعثوا لتزكية الناس منها، لئلا يكونوا قدوة سيئة، مفسدين للأخلاق والآداب، وحجة للسفهاء على انتهاك حرمات الشرائع، وليس معناها أنهم آلهة منزهون عن جميع ما يقتضيه الطبع البشري.

هذا وقد ألصق هنا بعض المفسرين الولعين بسرد الروايات، ما تلقفوه من أهل الكتب، ومن المتصولحين، من تلك الأقاصيص المختلقة على يوسف عليه السلام، في همه، التي أنزه تأليفي عن نقلها، بردّها، وكلها - كما قال العلامة أبوالسعود - خرافات وأباطيل، تمجها الآذان، وتردها العقول والأذهان، ويل لمن لاكها ولفقّها، أو سمعها وصدقها. وسبقه الزمخشري، فجوّد الكلام في ردها، فلينظر، فإنه مما يسر الواقف عليه.

و(السوء): المنكر والفجور والمكروه. (والفحشاء): ما تناهى قبحه

قال أبو السعود: وفي قوله تعالى ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ...﴾ الخ آية بينة، وحجة قاطعة على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقع منه همّ بالمعصية، ولا توجه إليها قط، وإلا لقيل: لنصرفه عن السوء والفحشاء. وإنما توجه إليه ذلك من خارج، فصرفه الله تعالى بما فيه من موجبات العفة والعصمة. فتأمل.

و(المخلصين) قرئ بكسر اللام، بمعنى الذين أخلصوا دينهم لله، وبالفتح أي الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم.

قال الشهاب: قيل: إن كل من له دخل في هذه القصة شهد ببراءته عليه السلام. فشهد الله تعالى بقوله ﴿لِنَصْرِفَ...﴾ الخ، وشهد هو على نفسه بقول: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي﴾ ونحوه، وشهدت امرأة العزيز بقولها: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ وسيدها بقوله: ﴿إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ وإبليس بقوله: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ فتضمن إخباره بأنه لم يُغْوِه، ومع هذا كله لم يبرئه أهل القصص، انتهى عفا الله عنهم!

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

﴿وَاسْتَبَقَا الْبابَ﴾ متصل بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ....﴾ الخ، وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ الخ، اعتراف جيء به بين المعطوفين تقريراً لنزاهته. والمعنى: ولقد همت به، وأبى هو، واستبقا الباب، أي قصد كلٌّ سَبْقَ الآخر إلى الباب: فيوسف عليه السلام ليخرج، وهي لتمنعه من الخروج ووحّد (الباب) هنا مع جمعه أولاً؛ لأن المراد بالباب البرانّي الذي منه المخلص.

﴿وقدَّتْ قَميصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي اجتذبته من خلفه فانقدّ،أي انشق قميصه. ﴿وأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ﴾ أي صادفا بعلها ثمة قادماً.

﴿قالَتْ ما جزاءُ منْ أرادَ بأهْلِكَ سُوءاً إلاَّ أنْ يُسْجَنَ أوْ عَذابٌ أليمٌ﴾ تبرئة لساحتها، وإغراء عليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾

﴿قالَ هيَ رَاوَدَتْني عنْ نَفْسي وَشَهِدَ شَاهِدٌ منْ أَهْلِهَا إنْ كانَ قَميصُهُ قدَّ من قُبُلٍ فصَدَقَتْ وَهُوَ من الْكاذبينَ﴾ لأن قدَّه منه أمارة الدفع عن نفسها به، أوتعثره في مقادم قميصه بسبب إقباله عليها، فقدّ لإسراعه خلفها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وهُوَ من الصَّادِقِينَ﴾ لأنه أمارة إدباره عنها بسبب أنها تبعته، واجتذبت ثوبه إليها فقدّته.

ومن الطائف ما قيل: إن هذا الشاهد أراد ألا يكون هو الفاضح لها، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر، فنصبه أمارة لصدقه وكذبها. ثم ذكر القسم الآخر، وهو قدّه من قُبل، على علم بأنه لم ينقدّ من قبل حتى ينفي عن نفسه التهمة في الشهادة، وقصد الفضيحة، وينصفهما جميعاً، فيذكر أمارة على صدقها المعلوم نفيه، كما ذكره أمارة على صدقه المعلوم وجوده. ومن ثَمَّ قدم أمارة على صدقها، على أمارة صدقه في الذكر، إزاحة للتهمة، ووثوقاً بأن الأمارة الثانية هي الواقعة، فلا يضره تأخيرها. وهذه اللطيفة بعينها – والله أعلم – هي التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله: ﴿وَإِنْ يَكُ كاذباً فَعَلَيْهِ كَذِبهُ وَإِنْ يَكُ صادقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذي يَعِدُكمْ﴾ [غافر:٢٨]. فقدم قسم الكذب على قسم الصدق، إزاحة للتهمة التي خشي أن تتطرق إليه في حق موسى عليه السلام، ووثوقاً بأن القسم الثاني وهو صدقه، هو الواقع، فلا يضره تأخيره في الذكر لهذه الفائدة ومن ثم قال: ﴿بَعْضُ الَّذي يَعِدُكُمْ﴾ ولم يقل: كل ما يعدكم، تعريضاً بانه معهم عليه، وأنه حريص على أن يبخسه حقه وينحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام، لكشف وعاء أخيه الآتي ذكره، لأنه لو بدأ به لفطنوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه – والله أعلم –

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

﴿فَلَمَّا رَأى قَميصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إنَّهُ من كَيْدِكُنَّ إنَّ كَيْدَكُنَّ عَظيمٌ﴾ يعني بالكيد: الحيلة والمكر. وإنما استعظم كيدهن، لأنه ألطف وأعلق بالقلب، وأشد تأثيراً في النفس، ولهن فيه نيقة ورفق، وبذلك يغلبن الرجال

تنبيه:

قال ابن الفرس: يحتج بالآية من يرى الحكم بالأمارات والعلامات، فيما لا تحضره البينات، كاللُّقطَةَ والسرقة والوديعةَ ومعاقد الحيطان والسقوف وشبهها.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩)

﴿يُوسُف أعْرِضْ عَنْ هذَا﴾ نودي بحذف حرف النداء، لقربه وكمال تفطنه للحديث.

أي: يا يوسف أعرض عن هذا الأمر واكتمه، ولا تحدث به،

﴿واسْتَغْفِري لَذَنْبِكَ﴾ أي الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب، ثم قذفه بما هو بريء منه.

﴿إنَّك كُنْتِ منَ الْخاطئينَ﴾ أي من جملة القوم المتعمدين للذنب. يقال: خطئ إذا أذنب متعمداً، وأخطأ إذا فعله من غير تعمد. ولهذا يقال: أصاب الخطأ، وأخطأ الصواب، وأصاب الصواب. وإيثار جمع السالم تغليباً للذكور على الإناث، ودل هذا على أن العزيز كان رجلاً حليماً، إذ اكتفى من مؤاخذتها بهذا المقدار.

قال ابن كثير: أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه. ويقال: إنه كان قليل الغيرة.

قال الشهاب: وهو لطف من اللّه تعالى بيوسف عليه السلام.

وقال أبو حيّان: إنه مقتضى تربة مصر. انتهى.

وقد تقرر لدى المحققين أن لاختلاف أحوال العمران في الخصب والجدب، وأقاليمه في الحرارة والبرودة وتوابعها – أثراً في أخلاق البشر وأبدانهم – انظر المقدمة الرابعة والخامسة من (مقدمة ابن خلدون).

ثم ذكر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة – وهو مصر– بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠)

﴿وقَالَ نِسْوَةٌ في الْمدِينَة امْرَأةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نفْسه﴾ العزيز: الأمير، مأخوذ من (العز) وهو الشدة والقهر، وقد غلب على أمير مصر والإسكندرية.

﴿قَدْ شَغَفَها حُبّاً﴾ أي خرق حبه شَغافَ قلبها، حتى وصل إلى الفؤاد. و(الشَّغاف) كسحاب، حجاب القلب.

﴿إنَّا لَنَراها في ضلالٍ مُبينٍ﴾ أي في خطأ عن طريق الرشد والصواب. وإقحام الرؤية، للإشعار بان حكمهن بضلالها صادر عن رؤيّة وعلم، مع التلويح إلى تنزههن عن مثل ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي اغتيابهن، وسوء قالتهن. استعير (المكر) لـ(الغيبة) (الغيبة) لشبهها له في الإخفاء أو (المكر) على حقيقته، وكن قلن ذلك لتريهن يوسف.

﴿أرْسَلَتْ إلَيْهِنَّ﴾ أي تدعوهن للضيافة مكراً بهن، ﴿وأعْتَدتْ﴾ أي أحضرت وهيأت ﴿لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أي ما يتكئن عليه من الوسائد، ﴿وآتَتْ كُلَّ واحدَةٍ مِّنْهُنَّ سكِّيناً﴾ أي ليعالجن بها ما ياكلن من الفواكه ونحوها. ﴿وقَالَتَ﴾ أي ليوسف ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي ابرز إليهن.

قال الزمخشري: قصدت بتلك - الهيئة - وهي قعودهن متكئات والسكاكين في أيديهن - أن يدهشن وُيبْهَتْنَ عند رؤيته، ويشغلن عن نفوسهن، فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها، لأن المتكئ إذا بُهتَ لشيء وقعت يده على يده، فتبكنهن بالحجة، وقد كان ذلك كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رأيْنَهُ أكْبَرْنَهُ﴾ أي أعظمنهَ، وهبن حسنه الفائق، ﴿وقَطَّعْنَ أيْديَهُنَّ﴾ أي جرحنها، كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي، تريد: جرحتها ﴿وقُلْنَ حاشَ للّه مَا هذا بشراً إنْ هَذَا إلاَ مَلَكٌ كريمٌ﴾ حاش: أصله حاشا، وحذفت الفه تخفيفاً، وبها قرأ أبو عمرو في الدرج، أي تنزيهاً له سبحانه عن صفات النقص والعجز، وتعجباً من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع. وإنما نفين عنه البشرية لغرابة جماله، وأثبتن له الملكية، على نهج القصر، بناء على ما ركز في الطباع الا أحسن من الملك، كما ركز فيها ألا أقبح من الشيطان، ولذلك يشبه، كل متناه في الحسن والقبح، بهما.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذي لُمْتُنَّني فيه﴾ أي في الافتتان به ﴿وَلَقدْ رَاودتُّهُ عن نَفسه فاستَعْصَمَ﴾ أي امتنع، طالباً للعصمة، مستزيداً منها.

قال الزمخشري: الاستعصام بناء مبالغة، يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة، وهو يجتهد في الاستزادة منها. ونحوه: استمسك، واستوسع الفتق، واستجمع الرأي، واستفحل الخطب. وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام، لا مزيد عليه، وبرهان لاشيء أنور منه، على أنه بريء مما أضاف إليه أهل الحشو، مما فسروا به الهمّ والبرهان. انتهى.

﴿ولئن لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾ أي ليعاقبنَّ بالسجن والحبس ﴿وليَكُونا من الصاغِرين﴾ أي الأذلاء المهانين.

ولما سمع يوسف تهديدها:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾

﴿قالَ ربِّ السِّجْنُ أَحبُّ إليَّ ممَّا يدْعُونَني إليْه﴾ أي من مواتاتها، لأنه مشقة قليلة، تعقبها راحات أبدية. ثم فزع إلى اللّه تعالى في طلب العصمة بقوله ﴿وإلاَّ تصْرِفْ عنّي كيْدَهنَّ﴾ يعني: ما أردن مني ﴿أصبُ إليْهنَّ﴾ أي أملْ إلى إجابتهن بمقتضى البشرية ﴿وأكُنْ منَ الْجاهلينَ﴾ أي بسبب ارتكاب ما يدعونني إليه من القبيح.

قال أبو السعود: هذا فزع منه، عليه السلام، إلى ألطاف اللّه تعالى. جرياً على سنن الأنبياء والصالحين، في قصر نيل الخيرات، والنجاة من الشرور، على جناب اللّه عزَّ وجلَّ، وسلب القوى والقدر عن أنفسهم، ومبالغة في استدعاء لطفه في صرف كيدهن بإظهار أن لا طاقة له بالمدافعة، كقول المستغيث: أدركني وإلا هلكت. لا أنه يطلب الإجبار والإلجاء إلى العصمة والعفة، وفي نفسه داعية تدعوه إلى هواهن. انتهى.

قال القاشاني: وذلك الدعاء هو صورة افتقار القلب الواجب عليه أبداً.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

﴿فاستَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ أي أجاب له دعاءه **﴿فصَرَفَ عنهُ كَيْدَهُنَّ﴾** أي أيده بالتأييد القدسي، فصرفه إلى جناب القدس، ودفع عنه، بذلك، كيدهن **﴿إنَّهُ هُوَ السَّميعُ﴾** أي لدعاء المتضرعين إليه، **﴿العَليمُ﴾** أي بما يصلحهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

﴿ثُمَّ بدا لَهُمْ﴾ أي ظهر للعزيز وأهله، **﴿مِنْ بَعدِ ما رأوُا الآيات﴾** أي الشواهد على براءته، **﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حتَّى حينٍ﴾** أي إلى مدة يرون رأيهم فيها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

﴿ودَخلَ معَهُ السِّجْنَ فَتيانِ﴾ روي أنهما غلامان كانا لفرعون مصر، أحدهما رئيس سقاته والآخر رئيس طعامه، غضب عليهما فحبسهما، فكانا مع يوسف. ثم رآهما يوماً وهما مهمومان فسألهما عن شانهما، فذكرا له أنهما رأيا رؤيا غمتهما، وليس لهما من يعبرها. فقال لهما: أليس التأويل للّه؟ قصّا عليّ! فذلك قوله تعالى: **﴿قَالَ أحَدُهُمَا﴾** وهو صاحب شرابه: **﴿إنِّي أراني أعْصِرُ خَمْراً﴾** أي عنباً، تسمية للعنب بما يؤول إليه، أو الخمر بلغة عمان اسم للعنب، وذلك أنه قال: رأيت في المنام كأنَّ بين يديّ وعاءاً فيه ثلاثة قضبان عنب، ثم نضجت عناقيدها وصارت عنباً، وكانت كأس فرعون في يدي، فأخذت العنب، وعصرته في الكأس، وناولتها لفرعون.

﴿وقالَ الآخَرُ﴾ وهو صاحب طعامه: **﴿إنِّي أراني أحْمِلُ فَوْقَ رأسِي خُبْزاً تأكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾** وذلك أنه قال له: رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال حُوّاري، والطير تأكل من السلة العليا فوق رأسي.

﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِه﴾ أي أخبرنا بتفسير ما رأينا، وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي الذين يحسنون عبارة الرؤيا، أو من المحسنين إلى أهل السجن، تداوي مريضهم، وتعزي حزينهم، وتوسع على فقيرهم، فأحسن إلينا بكشف غمتنا، إن كنت قادراً على ذلك.

ثم أشار، عليه السلام، لهما بأن ما رأياه سهل التأويل، لوجود مثاله في المنام، وأن له علماً فوقه، وهو أن يبين لهما كل جليل ودقيق من الأمور المستقبلة، وإن لم يكن هناك مقدمة المنام، حتى إن الطعام الموظف الذي يأتيهما كل يوم، يبينه لهما قبل إتيانه، وإن ذلك ليس من باب الكهانة، بل من الفضل الربّاني لمن يصطفيه بالنبوّة، وهذا معنى قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿قَالَ لا يأتيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتاويله قَبْلَ أنْ يَأتيكُما﴾ أي قبل أن يصلكما. والمراد بالطعام ما يبعث إلى أهل السجن. وتأويله ذكر ما هو، بأن يقول: يأتيكما طعام كيت وكيت، فيجدانه كذلك. وحقيقة (التأويل) تفسير الألفاظ المراد منها خلاف ظاهرها ببيان المراد.

قال أبو السعود: فإطلاقه على تعيين ما سيأتي من الطعام، إما بطريق الاستعارة. فإن ذلك بالنسبة إلى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل، بالنظر إلى ما رُئي في المنام، وشبيه له؛ وإما بطريق المشاكلة، حسبما وقع في عبارتهما من قولهما: ﴿نَبِّئْنا بتأويلهِ﴾. ومراده عليه السلام بذلك: بيان كل ما يهمهما من الأمور المترقبة قبل وقوعها. وإنما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقاً في ذلك، بحسب الحال، مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص إليه مما استعبراه من الرؤيَيَيْن المتعلقتين بالشراب والطعام.

﴿ذَلِكُما﴾ أي ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات ﴿ممَّا عَلَّمَني رَبِّي﴾ أي بالوحي والإلهام، لا من التكهن والتنجيم. وفيه إشعار بأن له علوماً جمة، ما سمعاه شذرة من جواهرها. وقوله تعالى: ﴿إنّي تركْتُ مِلَّةَ قومٍ لايُؤْمنونَ باللّهِ وَهُمْ بالآخِرةِ هُمْ كافرونَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائي إبْراهيمَ وإسْحاق ويَعْقُوب، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ باللَّه منْ شيءٍ، ذَلكَ منْ فضلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلى النَّاسِ ولَكنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشكُرُونَ﴾ هذه الجملة إما مسوقة لبيان علة تعليم اللّه له بالوحي والإلهام، أي خصني بذلك لترك الكفر، وسلوك طريق آبائي المرسلين، أو كلام مستانف، ذكر تمهيداً للدعوة، وإظهار أنه من بيت النبوة، لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه، والوثوق به، والمراد بتركه ملة الكفر الامتناع عنها رأساً، كما يفصح عنه قوله: ﴿ماكَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ باللَّه منْ شيءٍ﴾ أي ما صح ولا استقام ذلك لنا، فضلاً عن الوقوع. وإنما عبر عنه بذلك، لكونه أدخل بحساب الظاهر في اقتدائهما به عليه السلام. والتخصيص بهم، مع أن الشرك لايصح من غيرهم أيضاً، لأنه يثبت بالطريق الأولى. أو المرد نفي الوقوع منهم لعصمتهم. وتكرير (هُمْ) للدلالة على اختصاصهم، وتأكيد كفرهم بالآخرة. وزيادة (من) في المفعول، أعني ﴿منْ شيْءٍ﴾ لتأكيد العموم، أي لا نشرك به شيئاً من الأشياء ، قليلاً أو حقيراً، صنماً أوملكاً أوجنياً أو غير ذلك.

وقوله: ﴿ذَلكَ منْ فضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ يعني عدم الإشراك باللّه، وهو التوحيد، من نعم اللّه العامة، التي يجب شكره تعالى على الهداية لها بالفطر السليمة، ونصب الدلائل الأنفسية والآفاقية.

ثم بين أن أكثر الناس نبذوا هذه النعمة بعد ما حق عليهم شكرها.

ولما ذكر، عليه السلام، ما هو عليه من الدين القويم، تلطف في الاستدلال على بطلان ما عليه قومهما من عبادة الأصنام، فضرب لهما مثلاً يتضح به الحق حق اتضاح بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾

﴿يَاصَاحِبَي السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتفرِّقُون خيْرٌ أم اللّهُ الوَاحدُ القَهَّارُ﴾ وصفهما بالصحبة الضرورية المقتضية للمودة، وبذل النصيحة. أي: ياصاحبيّ فيه. فجعل الظرف

توسعاً، مفعولاً به. أي: أأرباب شتى تستعبد الناس خير لهم، أم أن يكون لهم رب واحد قهار لا يغالب؟

قال بعضهم: دلت الآية على أن الشرع كما جاء مطالباً بالاعتقاد، جاء هادياً لوجه الحسن فيه. وذلك أن هذه الآية تشير إشارة واضحة إلى أن تفرّق الآلهة يفرّق بين البشر في وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم. وهو يذهب بكل فريق إلى التعصب لما وجه قلبه إليه، وفي ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى. أما اعتقاد جميعهم بإله واحد، فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد، يخضع الجميع لحكمه، وفي ذلك نظام أخوّتهم، وهي قاعدة سعادتهم. فالشرع جاء مبيناً للواقع في أن معرفة اللّه بصفاته حسنة في نفسها، فهو ليس مُحْدِثَ الحسن. انتهى.

وفي قوله: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ إشارة إلى ما كان عليه أهل مصر لعهده عليه السلام، من عبادة أصنام شتى.

يقول بعضهم: كما أن مصر كانت تغلبت في العلوم والسلطة، كذلك في عبادة الأصنام، فإن أهلها فاقوا كل من سواهم في الضلال. فكانوا يسجدون للشمس وللقمر والنجوم والأشخاص البشرية والحيوانات، حتى الهوامّ وأدنى حشرات الأرض.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي من دون اللّه ﴿إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وآبَاؤُكُمْ﴾ يعني أنكم سميتم، ما لا يستحق الإلهية، آلهة، ثم طفقتم تعبدونها، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ بها مِنْ سُلْطانٍ﴾ أي حجة تدل على صحتها ﴿إنِ الْحُكْمُ﴾ أي في أمر العبادة والدين ﴿إلاَّ للهِ﴾ لأنه مالك، وهو لم يحكم بعبادتها، لأنه ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إِيَّاهُ﴾ لأن العبادة غاية التذلل، فلا يستحقها إلا من له غاية العظمة، ﴿ذَلِكَ﴾ أي التوحيد الدال على كمال عظمة اللّه، بحيث لايشاركه فيها غيره ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي الحق المستقيم الثابت، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي لجهلهم، ولذا كان أكثرهم مشركين.

تنبيه:

لا يخفى أن قوله تعالى: ﴿قَالَ لاَ يَاتِيكُما طَعَامٌ﴾ إلى هنا، مقدمة لجواب سؤالهما عن تعبير رؤياهما، مهد، عليه السلام، بها له ليدعوهما إلى التوحيد، ليزدادا علماً بعظم شأنه، وثقة بامره، توسلاً بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه من هدايتهما، لا سيما وأن أحدهما ستعاجله منيته بالصلب، فرجا أن يختم له بخير،

قال الزمخشري: لما استعبراه ووصفاه بالإحسان، افترض ذلك، فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد، ويعرض عليهما الإيمان، ويزينه لهما، ويقبح إليهما الشرك بالله. وهذه طريقة، على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة إذا استفتاه واحد منهم، أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة الحسنة والنصيحة أولاً، ويدعوه إلى ما هو أولى به، وأوجب عليه مما استفتي فيه، ثم يفتيه بعد ذلك. وفيه، أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم، فوصف نفسه بما هو بصدده – وغرضُه أن يقتبس منه، وينتفع به في الدين – لم يكن من باب التزكية. انتهى.

وبعد تحقيق الحق، ودعوتهما إليه، وبيانه لهما مرتبة علمه، شرع في تفسير ما استفسراه. ولكونه بحثاً مغايراً لما سبق، فصله عنه بتكرير الخطاب فقال:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾

﴿**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحدُكُما فيَسْقي رَبَّهُ خمراً**﴾ أي يخرج من السجن، ويعود إلى ما كان عليه من سقي سيده الخمر، ﴿**وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتأكُلُ الطَّيْرُ منْ رَأسِهِ**﴾ أي فيقتل ويعلق على خشبة، فتأكل الطير من لحم رأسه.

﴿**قَضِيَ الأَمْرُ الَّذي فيه تسْتَفْتيانِ**﴾ أي قطع وتم ما تستفتيان فيه. يعني: مآله، وهو نجاة أحدهما، وهلاك الآخر. والتعبير عنه بـ (الأمر)، وعن طلب تأويله بـ (الاستفتاء) تهويلاً لأمره، وتفخيماً لشأنه، إذ الاستفتاء إنما يكون في النوازل المشكلة الحكم، المبهمة الجواب، وإيثار صيغة الاستقبال، مع سبق استفتائهما في ذلك، لما أنهما بصدده، إلى أن يقضي عليه السلام من الجواب وطره.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي قال يوسف للذي علم نجاته من الفتيين، أي خلوصه من السجن والقتل، وهو الساقي: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: اذكر حالي وصفتي، وعلمي بالرؤيا، وما جرى عليّ، عند الملك سيدك، عسى يخلصني مما ظلمت به.

و(الظن) بمعنى العلم واليقين، ورد كثيراً، والتعبير به إرخاء للعنان، وتأدب مع الله تعالى. وقيل: الظن بمعناه المعروف، بناءً على أن تأويل يوسف بطريق الاجتهاد، والحكم بقضاء الأمر اجتهادي أيضاً والأول أنسب بالسياق.

تنبيه:

دلت الآية على جواز الاستعانة بمن هو مظنة كشف الغمة، ولو مشركاً. وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة:٢]، وقوله حكاية عن عيسى: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران:٥٢] و [الصف:١٤]، وفي الحديث: (والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه)(١). وجلي أن ذلك من نظام الكون، والعمران البشريّ، ولذلك ميّز الإنسان بالنطق.

وأما ما رواه ابن جرير عن ابن عباس مرفوعاً: لو لم يقل – يعني يوسف – الكلمة التي قال، ما لبث في السجن طول ما لبث، حيث يبتغي الفرج من عند غير الله تعالى – فقال الحافظ ابن كثير: حديث ضعيف جداً، وذكر من رجاله الضعفاء راويين سماهما. ثم قال: وروي أيضا مرسلاً عن الحسن وقتادة. قال: وهذه المرسلات هاهنا لا تقبل، لو قُبلَ المرسل من حيث هو، في غير هذا الموطن – والله أعلم – انتهى ولقد أجاد وأفاد عليه الرحمة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ يعني: فشغله الشيطان حتى نسي ذكر يوسف عند الملك. ﴿فَلَبِثَ﴾ أي مكث يوسف ﴿فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ أي طائفة منها.

---

(١) أخرجه مسلم في: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث رقم ٣٨ من حديث طويل لأبي هريرة.

ولأهل اللغة أقوال في (البضع): ما بين الثلاث إلى التسع، أو إلى الخمس، أو ما لم يبلغ العقد ولانصفه، يعني ما بين الواحد إلى الأربعة وقيل غير ذلك.

ولما دنا الفرج من يوسف عليه السلام، برحمته تعالى، وما هيأه من الأسباب: رأى فرعون مصر هذه الرؤيا التي أشار إليها تعالى بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

﴿وقَالَ الْمَلِكُ﴾ أي لملئه: ﴿إنّي أرَى سَبْعَ بَقراتٍ سِمَانٍ يأكُلنَ سَبعٌ عِجَافٌ﴾ أي هالكات من الهزال. جمع عجفاء، بمعنى المهزولة، ضد السمينة، ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ﴾ أي وأرى رؤيا ثانية سبع سنبلات ﴿خُضْرٍ وأخَرَ يابِسَاتٍ﴾ أي وسبعاً أخر يابسات دقيقة، أي نبتت وراءها، فابتلعت السنابل الخضر الممتلئة وإنما استغنى عن عددها وإعدامها للخضر، للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات لأنها نظيرتها.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أفْتُوني في رُؤْيَاي إنْ كُنْتُمْ للرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ خطاب للأشراف من قومه، وكان دعا، إثر استيقاظه، سحرة مصر وحكماءها، وقص عليهم رؤياه هذه.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

﴿قَالُوا﴾ أي الملأ للملك ﴿أضْغاثُ أحْلامٍ﴾ أي تخاليطها. جمع (ضغث) وهوفي الأصل ما جمع من أخلاط النبات وحُزِم، ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة من أحاديث النفس، ووساوس الشيطان، وتريها في المنام. و(الأحلام) جمع (حلم)، وهو ما يراه النائم، فهومرادف للرؤيا، إلا أنها غلبت في رؤيا الخير، والشيء الحسن،وغلب الحلم على خلافه. وفي الحديث؟ الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان[1].

---

(١) أخرجه البخاريّ في: التعبير، ١٠ – باب من رأى النبيّ ﷺ في المنام، حديث ١٥٥٤، عن أبي قتادة.

قال التوربشتي: الحلم عند العرب يستعمل استعمال الرؤيا، والتفريق من الاصطلاحات التي سنها الشارع للفصل بين الحق والباطل، كأنه كره أن يسمى ما كان من الله، وما كان من الشيطان باسم واحد، فجعل الرؤيا عبارة عن الصالح منها، لما في الرؤيا من الدلالة على المشاهدة بالبصر أو البصيرة، وجعل الحلم عبارة عما كان من الشيطان، لأن أصل الكلمة لم يستعمل إلا فيما يخيل للحالم في منامه من قضاء الشهوة، مما لا حقيقة له. انتهى.

والمراد بالجمع في (الأحلام) ما فوق الواحد، لأنهما حلمان، رأى كل واحد منهما إثر استيقاظه منه، كما روي، وفهم بعضهم أنه حلم واحد، فالتمس للجمع نكتة فقال: إما المبالغة في وصفه بالبطلان، أو تضمنه أشياء مختلفة. ولا حاجة إليه، كما بينا.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ يحتمل أن يريدوا بـ (الأحلام) المنامات الباطلة خاصة. أي: ليس لها تأويل عندنا، وإنما التأويل للرؤيا الصادقة. وأن يعترفوا بقصور علمهم، وأنهم ليسوا في التعبير بنحارير.

قال الناصر: وهذا هو الظاهر. وحمل الكلام على الأول يصيّره من وادي:

* على لا حبٍ لايُهتدى بمناره *

كأنهم قالوا: ولاتأويل للأحلام الباطلة، فنكون به عالمين. وقول الملك لهم أولاً: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ دليل على أنهم لم يكونوا في علمه عالمين بها، لأنه أتى بكلمة الشك، وجاء اعترافهم بالقصور مطابقاً لشك الملك الذي أخرجه مخرج استفهام عن كونهم عالمين بالرؤيا أوْ لاَ، وقول الفتى: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ دليل أيضاً على ذلك – والله أعلم–..

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾

﴿وقَالَ الَّذي نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي من صاحبي السجن، وهو الساقي: ﴿وادَّكَرَ بَعْدَ أمَّةٍ﴾ أي تذكر بعد مدة. وكان تذكره، على ما روي، بعد سنتين ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي أخبركم به بالتلقي عمن عنده علمه، لا من تلقاء نفسي، ولذلك لم يقل: أنا أفتيكم فيها، وعقبه بقوله ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي فابعثوني إلى يوسف، وإنما لم

يذكره، ثقة بما سبق من التذكر، وما لحق من قوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾

﴿**يُوسفُ أيُّها الصِّدِيقُ**﴾ أي أرسل إليه، فأتاه فقال: يا يوسف! ووصفه بالمبالغة في الصدق، حسبما ذاق أحواله، وتعرف صدقه في تأويل رؤياه، ورؤيا صاحبه، حيث جاء كما أوّل، لكونه بصدد اغتنام معارفه، فهو من باب براعة الاستهلال ﴿**أَفْتِنَا في سَبْعِ بَقَراتٍ سِمَانٍ يأكُلُهنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يَابِسات**﴾ أي في تأويل رؤيا ذلك. ولم يغير لفظ الملك، لأن التعبير يكون على وفقه، كما بينوه. وفي قوله: ﴿**أفْتِنَا**﴾ مع انه المستفتي وحده إشعار بأن الرؤيا ليست له، بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة، وأنه في ذلك معبر وسفير، كما آذن بذلك قوله: ﴿**لَعَلّي أَرْجِعُ إلَى النَّاسِ**﴾ أي إلى الملك ومن عنده ﴿**لَعلَّهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ أي ذلك: فيعملون بمقتضاه، أو يعلمون فضلك ومكانك من العلم، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك. وإنما لم يبتّ الكلام، بل قال (لعلي) و(لعلهم) مجاراة معه على نهج الأدب، واحترازاً عن المجازفة، إذ لم يكن على يقين من الرجوع، فربما اخترم دونه.

* لعل المنايا دون ما تعداني *

ولا من علمهم بذلك، فربما لم يعلموه- أشار إليه أبو السعود -.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

﴿**قَالَ**﴾ أي يوسف له في تأويلها ﴿**تزرَعُونَ سَبْعَ سنينَ دَأَباً**﴾ أي دائبين مواظبين كل عام منها ﴿**فَمَا حصَدْتُمْ**﴾ أي من الزرع ﴿**فَذَرُوهُ في سُنْبله**﴾ أي لا تدرسوه، فإنه أبقى له ﴿**إلاَّ قليلاً ممَّا تأكُلُون**﴾ أي في تلك السنين، يعني بقدر ما تأكلون.

﴿**ثمَّ يَأتي منْ بَعْدِ ذَلكَ**﴾ أي السبع المذكورات ﴿**سَبْعٌ شِدادٌ**﴾ أي سبع سنين

صعاب على الناس، لقوة القحط ﴿يأكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي ما رفعتم لهن من الحبوب المتروكة في سنابلها. ولما عبر عن البقرات بالسنين، نسب الأكل إلى السنين. كما رأى في الواقعة البقرات يأكلن حتى يحصل التطابق بين المعبر وهو المرئيّ في المنام، والمعبر به، وهو تأويله. ولا يتعين المجاز العقليّ - أي يؤكل فيها - كما في: (نهاره صائم) لجواز أن يكون مشاكلة حينئذ. ﴿إلاَّ قَليلاً ممَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي تحرزون وتخبئون للزراعة.

﴿ثُمّ يَأتي من بَعْد ذَلكَ﴾ أي السنين الموصوفة بالشدة. وأكل الغلال المدخرة ﴿عَامٌ فيه يُغَاثُ النَّاسُ﴾ أي يمطرون من الغيث، أي يغاثون من القحط، أو يرفع عنهم مكروهه من الغوث ﴿وَفيه يَعْصِرون﴾ أي ما كانوا يعصرونه على عادتهم من عنب وزيتون ونحوهما.

قال أبو السعود: والتعرض لذكر (العصر)، مع جواز الاكتفاء عنه بذكر (الغيث) المستلزم له عادة، كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم في الحبوب، إما لأن استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب، إذ المذكورات يتوقف صلاحها على مبادئ أُخَرَ غير المطر. وإما لمراعاة جانب المستفتي باعتبار حالته الخاصة به، بشارة له، وهي التي يدور عليها حسن موقع تغليبه على الناس، في القراءة بالفوقانية. وقيل: معنى(يَعْصِرُونَ) يحلبون الضروع. انتهى.

واللفظ بعموم معناه يشمله، لأن الحلب فيه عصر الضرع ليخرج الدرّ.

قال الزمخشري: تأويل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً ، كثير الخير، غزير النعم، وذلك جهة الوحي.

تنبيه:

قال في (الإكليل): هذه الآية من أصول التعبير. وفيها أيضاً صحة رؤيا الكفار، وجواز تسميته ملكاً، وأن قولنا (الرؤيا لأول عابر) ليس عامًّا في كل رؤيا، لأنهم قالوا: ﴿أضغاثُ أحْلامٍ﴾، ولم تسقط بقولهم ذلك، فتخص القاعدة بما يحتمل من الرؤيا وجوهاً فيعبر بأحدها، فيقع عليه. وفي قوله: ﴿ثُمَّ يَأتي منْ بَعْد ذَلِكَ عامٌ..﴾ الخ زيادة على ما وقع السؤال عنه، فيستدل به على أنه لا بأس بذلك في تعبير الرؤيا والفتوى. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾

﴿**وقَالَ الْمَلكُ ائْتُوني به**﴾ أي أخرجوه من السجن وأحضروه، لما علم من علمه وفضله، ﴿**فلمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ**﴾ أي يستدعيه إلى الملك ﴿**قالَ**﴾ أي يوسف له: ﴿**ارْجعْ إلى ربِّكَ**﴾ أي سيدك الملك، ﴿**فَاسْأَلْهُ ما بَالُ النِّسوَة اللاتي قطَّعنَ أَيْدِيَهُنَّ**﴾ أي ما شأنهن وخبرهن؟ أمره بأن يسأله ويستفهمه عن ذلك، ولم يكشف له عن القصة، ولا أوضحها له، لأن السؤال مجملاً، مما يهيج الملك على الكشف والبحث والاستعلام، فتحصل البراءة. وإنما كان السؤال المجمل يهيج الإنسان، ويحركه للبحث عنه، لأنه يأنف من جهله وعدم علمه به، ولو قال: سله أن يفتش عن ذلك، لكان طلباً للفحص عنه، وهو مما يتسامح ويتساهل به، وفيه جرأة عليه، فربما امتنع منه، ولم يلتفت إليه.

قال الزمخشري: إنما تأنى وتثبت في إجابة الملك، وقدم سؤال النسوة، ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده، ويجعلوه سلّماً إلى حط منزلته لديه، ولئلا يقولوا: ما خلد في السجن إلا لأمر عظيم وجرم كبير، حق به أن يسجن ويعذب، ويستكفّ شره، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها. قال عليه السلام: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفنَّ مواقف التهم. ومنه قال[1] رسول الله ﷺ للمارينّ به في معتكفه، وعنده بعض نسائه: هي فلانه، اتقاء للتهمة.

وعن النبيّ ﷺ لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره، والله يغفر له، حين سئل عن البقرات العجاف والسمان. ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني. ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال: ﴿**ارْجِعْ إلى ربِّكَ**﴾ ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبثت، لأسرعت الإجابة، وبادرتهم الباب، ولما ابتغيت العذر، إن كان لحليماً ذا أناة. انتهى.

رواه عبد الرزاق في مصنفه مرسلاً عن عكرمة.

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الاعتكاف، ٨ - باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد، حديث ١٠٣١، عن صفية، زوج النبيّ ﷺ.

وقد روي في المسند والصحيحين[١] مختصراً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لو لبثت في السجن مالبث يوسف لأجبت الداعي - مدحه النبيّ ﷺ على هذه الأناة، كان في طيّ هذه المدحة بالأناة والتثبت تنزيهه وتبرئته مما لعله يسبق إلى الوهم أنه همّ بإمرأة العزيز همًّا يؤاخذ به، لأنه إذا صبر وتثبت فيما له ألا يصبر فيه، وهو الخروج من السجن، مع أن الدواعي متوافرة على الخروج منه، فَلأَنْ يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهم، أولى وأجدر - أفاده الناصر.

قال أبو السعود: وإنما لم يتعرض لامرأة العزيز، مع ما لقي منها ما لقي، من مقاساة الأحزان، محافظة على مواجب الحقوق، واحترازاً عن مكرها، حيث اعتقدها مقيمة في عدوة العداوة، وأما النسوة فقد كان يطمع في صدعهن بالحق وشهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم، ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدي، ولم يصرح بمراودتهن له، وقولهن (أطع مولاتك) واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ يعني ما كدنه به، وفي إضافة علمه إلى الله إشارة إلى عظمه، وأن كنهه غير مأمول الوصول إليه، لكن ما لا يدرك كله، لا يترك كله. وفيه تشويق وبعث على معرفته، فهوتتميم لقوله: (اسأل)، ودلالة على أنه بريء مما قرف به للاستشهاد بعلمه تعالى عليه، وفيه الوعيد لهن على كيدهن، وأنه تعالى مجازٍ عليه، وقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ استئناف مبني على السؤال، كأنه قيل: فماذا كان بعد ذلك؟ فقيل: قال الملك: ما خطبكن - أي شأنكن - إذ راودتن يوسف يوم الضيافة؟ يعني: هل وجدتن منه ميلاً إليكن ؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢/٣٢٦.
وأخرجه البخاريّ في: الأنبياء، ١١ - باب قوله عز وجل: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، حديث رقم ١٥٩٣.
وأخرجه مسلم في: الإيمان، حديث رقم ٢٣٨.

﴿قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمنَا عَلَيه مِنْ سُوءٍ﴾ أي قبيح. بالَغْنَ في نفي جنسه عنه بالتنكير، وزيادة (من) ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي ثبت واستقر وظهر بعد خفائه. ﴿أنَا راوَدتُّهُ عنْ نَفْسِهِ وَإنَّهُ لَمِنَ الصَّادقِينَ﴾ أي في قوله: هيَ رَاوَدَتْنِي عنْ نفسي.

قال الزمخشري: ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة، والنزاهة، واعترافهن على أنفسهن، بأنه لم يتعلق بشيء مما قرفنه به، لأنهن خصومه. وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق، وهو على الباطل، لم يبق لأحد مقال. انتهى -.

* والفضل ما شهدت به الأعداء *

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾

﴿ذَلكَ﴾ تقول امرأة العزيز: ذلك الذي اعترفت به على نفسي ﴿لِيَعْلَمَ أنّي لَمْ أخُنْهُ بالْغَيْبِ﴾ أي ليعلم يوسف أني لم أكذب عليه في حال الغيبة، وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه، أو ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فاعترفت ليعلم أني بريئة.

﴿وَأنَّ اللّهَ لاَ يَهدْي كَيْدَ الْخَائنين﴾ أي لايرضاه ولايسدّده.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾

﴿وَمَا أُبَرّئُ نَفْسي إنَّ النَّفْسَ لأمّارَةٌ بالسُّوءِ إلاّ ما رَحِمَ رَبِّي إنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحيمٌ﴾ تريد: وما أبرئ نفسي مع ذلك، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته. أو تعني: أني ما أبرئ نفسي من الخيانة، فإني قد خنته حين قرفته وقلت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرادَ بأَهْلِكَ سُوءًا إلاّ أنْ يُسْجَنَ﴾؟ وأودعته السجن. تريد الاعتذار مما كان منها أن كل نفس لأمارة بالسوء، إلا نفساً رحمها الله بالعصمة، كنفس يوسف.

ثم إن تأويل قوله تعالى: ﴿ذَلكَ لِيَعْلَمَ...﴾ الآية – على أنه حكاية قول امرأة العزيز – قال ابن كثير: هو القول الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة، ومعاني الكلام. وقد حكاه الماورديّ في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية

رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حدة. وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف، ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم سواه والمعنى: ذلك التثبت والتأني والتشمر لظهورالبراءة، ليعلم العزيز أني لم أخنه بظهر الغيب في أهله، أو ليعلم الله أني لم أخنه، لأن المعصية خيانة. ثم أكد أمانته بقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ وأنه لو كان خائناً لما هدى الله عز وجل أمره، أي: سدده وأحسن عاقبته، وفيه تعريض بامرأة العزيز في خيانتها أمانته، وبالعزيز في خيانة أمانة الله تعالى، حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه، ثم أراد أن يتواضع لله، ويهضم نفسه، لئلا يكون لها مزكياً، وبحالها في الأمانة معجباً ومفتخراً، وليبين أن ما فيه من الأمانة ليس به وحده، وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته فقال: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي**﴾ أي لا أنزهها من الزلل، ولا أشهد لها بالبراءة الكلية، ولا أزكيها، فإن النفس البشرية تأمر بالسوء، وتحمل عليه بما فيها من الشهوات، إلا ما رحم الله من النفوس التي يعصمها من الوقوع في المساوئ.

هذا خلاصة ما قرروه على أنه كلام يوسف. قال ابن كثير: والقول الأول أقوى وأظهر لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك - والله أعلم -.

لطائف:

الأولى - محل قوله: (بِالْغَيْبِ) الحال من الفاعل أو المفعول، على معنى - وأنا غائب أو غائبة عنه، أو وهو غائب عني خفيّ عن عيني، أو هو ظرف، أي بمكان الغيب، وهو الخفاء والاستتار وراء الأبواب.

الثانية - قيل: معنى ﴿لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي: لا يهديهم بسبب كيدهم، أوقعت الهداية المنفية على الكيد، وهي واقعة عليهم تجوزاً، للمبالغة، لأنه إذا لم يهد السبب، علم منه عدم هداية مسببه بالطريق الأولى.

وقيل: المعنى لايهديهم في كيدهم، كقوله تعالى: ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٣٠]، أي في قولهم.

وقيل: هداية الكيد مجاز عن تنفيذه وتسديده.

الثالثة - قال في (الإكليل): ﴿وماَ أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ أصل في التواضع، وكسر النفس وهضمها.

الرابعة – قال الزمخشري: لقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة – ثم ساقها – وقال: وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله.

قال الناصر: ولقد صدق في التوريك على نقلة هذه الزيادات بالبهت، وذلك شأن المبطلة من كل طائفة. ويحق الله الحق بكلماته ويبطل الباطل.

الخامسة: رأيت لابن القيم في (الجواب الكافي) في عجيب صبر يوسف وعفته، مع الدواعي من وجوه، قال عليه الرحمة، بعد أن مهد مقدمة في مفاسد عشق الصور العاجلة والآجلة: إنها أضعاف مايذكره ذاكر، فإنه يفسد القلب بالذات، وإذا فسد فسدت الإرادات والأقوال والأعمال، وفسد ثغر التوحيد. والله تعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس: وهم اللوطية والنساء، فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف، وما راودته، وكادته به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف، لصبره وعفته وتقواه، ومع أن الذي ابتلي به أمر لايصبر عليه إلا من صبّره الله عليه. فإن موافقة الفعل، بحسب قوة الداعي، وزوال المانع، وكان الداعي ههنا في غاية القوة وذلك لوجوه:

أحدها – ما ركب الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان إلى الماء، والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب، ولا يصبر عن النساء، وهذا لا يذم إذا صادف حلالاً بل يحمد.

الثاني – أن يوسف عليه السلام كان شاباً، وشهوة الشباب وحدّته أقوى.

الثالث – أنه كان عزباً لا زوجة له ولا سرية تكسر شدة الشهوة.

الرابع – أنه كان في غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى لغيره في وطنه، وبين أهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث أن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السادس – أنها غير آبية ولا ممتنعة، فإن كثيراً من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها، لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع زيادة حب، كما قال الشاعر:

وزادني كلَفاً في الحب أن مُنِعَت أحبُّ شيء إلى الإنسان ما مُنِعا

فطباع الناس مختلفة في ذلك: فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة

ورغبتها، وتضمحل عند إبائها وامتناعها، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع، ويشتد شوقه بكل ما منع، ويحصل له من اللذة بالظفر بالضد نظير ما يحصل من لذة الظفر بعد امتناعه ونفاره. واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها.

السابع - أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد، فكفته مؤنة الطلب، وذل الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن - أنه في دارها، وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى، إن لم يطاوعها، من أذاها له، فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع - أنه لا يخشى أن تنمي عليه هي، ولا أحد من جهتها، فإنها هي الطالبة والراغبة، وقد غلقت الأبواب، وغيبت الرقباء.

العاشر - أنه كان مملوكاً لها في الدار، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها، ولا ينكر عليه، وكان الأُنس سابقاً على الطلب، وهو من أقوى الدواعي، كما قيل لامرأة من العرب: ما حملك على كذا؟ قالت: قرب الوساد، وطول السواد. تعني: قرب وساد الرجل من وسادتي، وطول السواد بيننا.

الحادي عشر - أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرته إياهن، وشكت حالها إليهن، لتستعين بهن عليه، فاستعان هو بالله عليهن، فقال: ﴿وَإِلاَّ تصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ منَ الْجَاهلين﴾ [يوسف: ٣٣].

الثاني عشر - أنها توعدته بالسجن والصغار، وهذا نوع إكراه، إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به، فيجتمع داعي الشهوة، وداعي السلامة، من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر - إن الزوج لم يُظهر من الغيرة والقوة ما يفرق به بينهما، ويبعد كلاً منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما خاطبهما به أن قال ليوسف: ﴿أعرِضْ عَنْ هذاَ﴾ [يوسف: ٢٩]، وللمرأة: ﴿اسْتَغْفري لِذَنبكَ إِنَّك كنْت منَ الْخاطِئينَ﴾ [يوسف: ٢٩]، وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع، وهنا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدواعي فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى، فقال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ممّا يدْعُونني إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، وعلم أنه لايطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف

عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه، وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم مايزيد على ألف فائدة. انتهى كلام ابن القيم.

ثم أشار تعالى إلى ما امتنّ به على يوسف من رفع قدره بصبره، وإعلاء منزلته برحمته بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾

﴿**وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي**﴾ أي أخصه بها، دون العزيز، جرياً على عادة الملوك من الاستئثار بالنفيس العزيز. قال ذلك لما تحقق براءته مما نسب إليه، وكرم نفسه، وسعة علمه ﴿**فَلَمَّا كَلَّمهُ**﴾ أي فلما أتوا به، وكلمه، أي خاطبه الملك وعرفه، وشاهد فضله وحكمته وبراءته – وجوّز أن يكون فاعل (كَلَّمهُ) يوسف عليه السلام – ﴿**قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ**﴾ أي ذو مكانة ومنزل؛ ﴿**أَمِينٌ**﴾ أي مؤتمن على كل شيء.

روي أن يوسف عليه السلام لما حضر الملك، وعبّر له رؤياه ابتهج بحديثه هو وخاصته، وقال لهم: هل نجد مثله رجلاً مهبطاً للإمداد الربانيّ؟ وقال ليوسف: بعد أن عرّفك الله هذا فلا يكون حكيم مثلك، وأنت على بيتي، وإلى كلمتك تنقاد رعيتي، ولا أكون أعظم منك إلا بعرشي، وقد أقمتك على جميع أرض مصر. ونزع خاتمه من يده، ووضعه في إصبعه، وألبسه ثياب بزّ، وجعل طوقاً من ذهب في عنقه وأركبه مركبته، وأمر أن يطاف به في شوارع مصر، وينادى أمامه بالخضوع له، وقال له الملك: لايمضي أمر، ولا ينفذ شان في مصر إلا برأيك ومشورتك، وسماه مخلص العالم، وزوّجه بنت أحد العظماء لديه. وكان يوسف وقتئذ ابن ثلاثين سنة – والله أعلم – .

قال بعضهم: إن من أمعن النظر في قصة يوسف عليه السلام، علم يقيناً أن التقي الأمين لايضيع اللهُ سعيه، بل يحسن عاقبته، ويعلي منزلته في الدنيا والآخرة، وأن المعتصم بالصبر لايخشى حدثان الدهر وتجاربه، ولا يخاف صروفه ونوائبه، فإن الله يعضده ويُنجح مسعاه ويخلد ذكره العاطر على ممر الأدهار فإن يوسف عليه

السلام لما لم يخش للنوائب وعيداً ولا للتجارب تهديداً. ولم يخف للسجن ظلماً و شرًّا ولا للتنكيل به ألماً وضراً، بل ألقى توكله على الرب، وصبر إزاء تلك البلية ثابت القلب – نال بطهارته وتقواه تاج الفخر ولسان الصدق طول أيام الدهر. وها إن فضيلته لم يعف جميل ذكراها مرور الأيام، ولم يعبث بنضارتها كرور الأعوام، بل ادخرت لنا مثالاً نقتفي أثره عند طروء التجارب، وملاذاً نعوذ به في المحن والمصائب، ومقتدى نتدرب به على التثبت في مواقف العثار، وننهج منهاجه في التقوى وطيب الإزار. فننال في الدنيا سمة المجد، ونفوز في الآخرة بدار الخلد.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

﴿**قالَ**﴾ أي يوسف للملك ﴿**اجْعَلْني على خَزَائِنِ الأرضِ**﴾ أي ولّني خزائن أرضك. يعني جميع الغلات لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، فيتصرف لهم على الوجه الأرشد والأصلح، ثم بين اقتداره في ذلك فقال: ﴿**إنّي حَفيظٌ عَليمٌ**﴾ أي أمين أحفظ ما تستحفظنيه، عالم بوجوه التصرف فيه.

قال الزمخشري: وصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هم طلبة الملوك ممن يولونه.

وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى، وإقامة الحق، وبسط العدل. والتمكن مما لأجله تبعث الانبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحداً غيره لايقوم مقامه في ذلك فطلب التولية ابتغاء وجه اللهّ، لا لحب الملك والدنيا.

فإن قلت: كيف جاز أن يتولى عملاً من يد كافر، ويكون تبعاً له، وتحت أمره وطاعته؟

قلت: روى مجاهد أنه كان قد أسلم. وعن قتادة هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر. وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه. وإذا علم النبيّ أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر اللّه ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق، فله أن يستظهر به.

وقيل: كان الملك يصدر عن رأيه، ولا يعترض عليه في كل ما رأى، فكان في حكم التابع له والمطيع. انتهى .

وهذه الآية أصل في طلب الولاية كالقضاء ونحوه، لمن وثق من نفسه بالقيام بحقوقه، وجواز التولية عن الكافر والظالم. وأصل في جواز مدح الإنسان نفسه لمصلحته، وفي أن المتولي أمراً، شرطه أن يكون عالماً به، خبيراً، ذكيّ الفطنة - كذا في (الإكليل).

قال أبو السعود: وإنما لم يذكر إجابة الملك إلى ما سأله، عليه السلام، من جعله على خزائن الأرض، إيذاناً بأن ذلك أمر لا مرّد له، غنّي عن التصريح، ولاسيما بعد تقديم ما يندرج تحته من أحكام السلطنة بحذافيرها، من قوله: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أمينٌ﴾، وللتنبيه على أن كل ذلك من اللّه عزَّ وجلَّ، وإنما الملك آلة في ذلك.

تنبيه:

قال ابن كثير: خزائن الأرض هي الأهرام التي يجمع فيها الغلات... الخ.

ولم أر الآن مستنده في كون الأهرام كانت مجمع الغلات، ولم أقف عليه في كلام غيره.

و(الأهرام) بفتح الهمزة، جمع هَرَم بفتحتين وهي مبان مربعة الدوائر، مخروطية الشكل، بقي منها الآن ثلاثة في الجيزة، بعيدة أميالاً عن القاهرة، معدودة من غرائب الدنيا دعيتُ لرؤياها أيام رحلتي للديار المصرية عام ١٣٢١ هـ. وقد استقرّ رأي المتأخرين في تحقيق شأنها على أنها كانت مدافن لملوكهم.

ففي كتاب (الأثر الجليل لقدماء وادي النيل): جميع الأهرام ليست إلا مقابر ملوكية آثر أصحابها أن يتميزوا بها بعد موتهم عن سائر الناس، كما تميزوا عنهم مدة حياتهم، وتوخَّوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور، وتراخي العصور، وقد أجمع مؤرخو هذا العصر على أن الهرم الأكبر قبر للملك (خوفو) والثاني (خفرع) والثالث للملك (منقرع) وجميعهم من العائلة المنفيسية. ولا عبرة بقول من زعم أنها معابد أو مراصد للكواكب، أو مدرسة للمعارف الكهنوتية، أو غير ذلك. انتهى.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرضِ﴾ أي أرض مصر **﴿يَتبوأُ مِنهَا﴾** أي ينزل من

بلادها ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ وذلك أنه عليه السلام لما ولاّه النظر على خزائن مصر، تجوّل في قطرها، وطاف قراها، والأمر أمره، والإشارة إشارته، عناية منه تعالى ورحمة، كما قال: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا من نَشَاءُ ولا نُضِيعُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي الذين أحسنوا عملاً

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خيرٌ لِلّذينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي ثوابها خير من ثوب الدنيا للمؤمنين المتقين. إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة، وأن ما يدخر لهؤلاء هو أعظم وأجل مما يخولون به في الدنيا من التمكين في الأرض والجاه والثروة والمُلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾

﴿وَجَاءَ إخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ إشارة إلى ما وقع من مصداق رؤيا يوسف. وذلك أن الأرض أخصبت سبع سنين، وأخرجت من بركاتها ما يعادل رمل البحر كثرة، فجمع يوسف غلالها، وجعل في كل مدينة غلال ما حولها من الحقول، ولما مضت هذه السبع، دخلت السنون المجدبة، فعمّ القحط مصر والشام ونواحيهما، فأخذ الناس، من سائر البلاد، في المسير إلى مصر ليمتاروا منها، لأنفسهم وعيالهم، لما علموا من وجود القوت فيها. وكان من جملة من سار للميرة إخوة يوسف، عن أمر أبيهم يعقوب، لتناول القحط بلادهم - فلسطين - فركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب عنده ابنه بنيامين، شقيق يوسف، خشية أن يلحقه سوء، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف. فلما هبطوا مصر، دخلوا على يوسف، ولم يعرفوه لطول العهد، ومفارقته إياهم في سن الحداثة، وعدم استشعارهم في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، وأما هو فعرفهم. روي أنهم لما دخلوا عليه سجدوا له بوجوههم إلى الأرض، تحية له فشرع يخاطبهم متنكراً لهم، وقال: من أين قدمتم؟ قالوا: من أرض كنعان، لنبتاع طعاماً. فقال لهم: أنتم جواسيس، إنما جئتم لتجسوا ثغور الأرض! قالوا: معاذ الله! ما جاء عبيدك إلا للميرة، لأن الجهد أصابنا، ونحن إخوة، بنو أب واحد. قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر، هلك منا واحد. قال: فكم أنتم ها هنا؟ قالوا: عشرة. قال: فأين الأخ الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلى به من الهالك. قال: لابد من امتحان صدق كلامكم، فليبق واحد منكم

عندي رهينة ولتذهب بقيتكم فتأخذ ميرة لمجاعة أهلكم، وأتوا بأخيكم الصغير إليّ، ليتحقق صدقكم. ثم أخذ شمعونَ، واحتبسه عنده، وأذن للبقية، وأمر أن يعطوا زاداً للطريق، وهذا ما أشير إليه في قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾

﴿ولمّا جهَّزَهُمْ بجَهازِهِمْ﴾ بفتح الجيم، وقرئ بكسرها، أي أوقر ركائبهم بالطعام والميرة. ﴿قالَ ائْتُوني بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبيكُمْ الا تَرَوْنَ أنّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ أي أتمه ﴿وأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلينَ﴾ أي المضيِّفينَ وقوله ذلك، تحريض لهم على الإتيان به، لا امتنان.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾

﴿فإنْ لَمْ تَأْتُوني بهِ فلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدي﴾ أي فيما تستقبلون ﴿ولاَ تَقْرَبُونِ﴾ أي ولا تقربوني بدخول بلادي مرة ثانية. فالياء محذوفة، والنون نون الوقاية.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾

﴿قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي سنخادعه ونحتال في انتزاعه من يده، ونجتهد في ذلك. وفيه تنبيه على عزة المطلب. وصعوبة مناله – قاله أبو السعود – ﴿وإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ أي ذلك. يعنون المراودة، أو الإتيان به، فيكون ترقياً إلى الوعد بتحصيله بعد المراودة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

﴿وقَالَ لِفِتْيَانِهِ﴾ أي لخدامه الكيالين: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ في رِحَالِهِمْ﴾ يعني ببضاعتهم، ما شروا به الطعام. روي أنها كانت فضة. أي اجعلوها في أمتعتهم من

حيث لايشعرون. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ أي لكي يعرفونها، ﴿إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ أي وفتحوا أوعيتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي حسبما أمرتهم به، فإن التفضل عليهم بإعطاء البدلين من أقوى الدواعي إلى الرجوع.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾

﴿فَلَمَا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ أي أنذرنا بمنعه بعد هذا، إن لم نأت بأخينا، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ أي نرفع المانع من الكيل، ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه، وقرئ (يكتل) بالتحتية أي أخونا لنفسه مع اكتيالنا، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي من أن يناله مكروه.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾

﴿قَالَ﴾ أي يعقوب لهم ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبله، يوسف. يعني: هل أقدر أن آخذ عليكم العهد والميثاق، أكثر مما أخذت عليكم في يوسف، وقد قلتم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف:١٢]، ثم خنتم بضمانكم؟ فما يؤمنني من مثل ذلك؟ فلا أثق بكم، ولا بحفظكم وإنما أفوض الأمر إلى الله ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً﴾ أي منكم ومن كل أحد ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي أرحم من والديه وإخوته، فأرجو أن يرحمني بحفظه. وهذا ميل منه إلى الإذن في إرساله معهم لما رأى فيه من المصلحة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ أي وجدوا دراهمهم، ثمن طعامهم في متاعهم.

روي أن أحدهم فتح متاعه ليأخذ علفاً لدابته، فرأى فضته في فم متاعه فقال لإخوته: قد ردّت دراهمي وها هي في متاعي ثم لما وصلوا كنعان، وأخذوا يفرغون أوعيتهم، وجد كل واحد منهم صرة دراهمه في وعائه، فاستطارت قلوبهم، ودهشوا، وحمدوا عناية الله بهم.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا ما نَبْغِي﴾ أي ماذا نبتغي وراء ذلك؟ هل من زيادة ؟ أي: لا مزيد على ما فعل، لأنه أكرمنا، وأحسن مثونا، بإنزالنا عنده، وردّ الثمن علينا. والقصد إلى استنزاله عن رأيه. أو: لا نبغي في القول ولا نكذب فيما حكينا لك، من إحسانه الداعي إلى امتثال أمره. أو: ما نبغي وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا وقرئ على الخطاب. أي : أيّ شيء تطلب وراء هذا من الدليل على صدقنا؟

﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الإنكار من بلوغ اللطف غايته، كأنهم قالوا: كيف لا، وهذه بضاعتنا ردت إلينا تفضلاً من حيث لا ندري؟

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ معطوف على مقدر مفهوم. أي: فنستظهر بها، ونمير أهلنا إذا رجعنا إلى الملك: أي: نأتيهم بميرة، أي بطعام. يقال: (ماره) أتاه بطعام ومنه: (ما عنده خير ولا مير).

﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ أي: فلا يصيبه شيء مما تخافه ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي باستصحابه ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي سهل على هذا الملك المحسن لسخائه، فلا يضايقنا فيه. أو المعنى قصير المدة، ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير أو المعنى: ذلك الذي يكال لنا دون أخينا شيء يسير قليل، فابعث أخانا معنا حتى نتسع ونتكثر بمكيله..

وقال ابن كثير: هذا من تمام الكلام وتحسينه. أي: إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم لا يعدل هذا. فلا يكون من كلامهم، والجملة محتملة للكل.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

﴿قَالَ﴾ اي لهم أبوهم ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ اي بهذه المقالة ﴿حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً

مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ أي عهداً منه، ويميناً به، لتردنّه عليّ ﴿إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي تغلبوا كلكم، فلا تقدرون على تخليصه. وأصله من: (أحاط به العدوّ) سدّ عليه مسالك النجاة ودنا هلاكه.

﴿فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي شهيد رقيب. والقصد حثهم على ميثاقهم بتخويفهم من نقضه بمجازاته تعالى.

قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بدّاً من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى بهم عنها.

لطيفة:

قال الناصر: ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر، وهو قولهم: (البلاء موكل بالمنطق) فإن يعقوب عليه السلام قال أولاً في حق يوسف: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف:١٣]، فابتلي من ناحية هذا القول. وقال ها هنا ثانياً: ﴿إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي تغلبوا عليه. فابتلي أيضاً بذلك، وأحيط بهم وغلبوا عليه. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

﴿وَقَالَ﴾ أي أبوهم: ﴿يَابَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ أي لئلا يستلفت دخولهم من باب واحد، أنظار من يقف عليه من الجند، ومن يعسّ للحاكم، فيريب بهم، لأن دخول قوم على شكل واحد، وزيّ متحد، على بلدهم غرباء عنه، مما يلفت نظر كل راصد. وكانت المدن وقتئذ مبوّبة لا ينفذ إليها إلا من أبوابها، وعلى كل باب حرسه، وليس دخول الفرد كدخول الجمع في التنبه، واتباع البصر. وقيل: نهاهم لئلا تصيبهم العين إذا دخلوا كوكبة واحدة – وسيأتي بيانه – .

﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي لا أدفع عنكم بتدبيري شيئاً مما قضى عليكم، فإن الحذر لا يمنع القدر.

قال أبو السعود: ولم يرد به عليه السلام إلغاء الحذر بالمرة، كيف لا وقد قال عزّ قائلاً: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، وقال: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:٧١ و ١٠٢]. بل أراد بيان أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب

المراد لا محالة، بل هو تدبير في الجملة. وإنما التأثير وترتيب المنفعة عليه من العزيز القدير، وإن ذلك ليس بمدافعة للقدر، بل هو استعانة بالله تعالى، وهرب منه إليه. ﴿**إنِ الْحُكْمُ إلاَّ للهِ**﴾ أي لا يشاركه أحد، ولا يمانعه شيء ﴿**عَلَيْهِ توَكَّلْتُ وعَلَيْهِ فلْيَتوكَّلِ الْمُتوكِّلونَ**﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

﴿**ولَمَّا دَخَلُوا منْ حيْثُ أمَرَهُمْ أبُوهُمْ**﴾ أي: من الأبواب المتفرقة ﴿**مَا كَانَ**﴾ أي ذلك الدخول ﴿**يُغْني عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إلاَّحَاجَةً في نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا**﴾ أي أبداها، ﴿**وإنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ**﴾ أي: علم جليل، لتعليمنا إياه بالوحي، ونصب الأدلة، حيث لم يعتقد أن الحذر، يدفع القدر، وأن التدبير، له حظ من التأثير. وفي تأكيد الجملة بـ (إن) و(اللام) وتنكير العلم، وتعليله بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه، من الدلالة على شأن يعقوب عليه السلام، وعلوّ مرتبة علمه وفخامته، ما لا يخفى – أفاده أبو السعود – .

﴿**ولَكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ أي فيظنون الأسباب مؤثرات.

قال ابن حزم في (الملل): كان أمر يعقوب عليه السلام بدخولهم من أبواب متفرقة، إشفاقاً عليهم، إما من إصابة العين، وإما من تعرض عدوّ، أو مستريب بإجماعهم، أو ببعض ما يخوّفه عليهم. وهو عليه السلام معترف أن فعله ذلك، وأمره إياهم بما أمرهم به من ذلك، لا يغني عنهم من الله شيئاً يريده عزَّ وجلَّ بهم. ولكن لما كانت طبيعة البشر جارية في يعقوب عليه السلام، وفي سائر الأنبياء عليهم السلام، كما قال تعالى حاكياً عن الرسل أنهم قالوا: ﴿إنْ نَحْنُ إلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١]، حملهم ذلك على بعض النظر المخفف لحاجة النفس ونزعها وتوقها إلى سلامة من تحب، وإن كان ذلك لا يغني شيئاً، كما كان عليه السلام يحب الفال الحسن[١].

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الطب، ٤٤ – باب الفال، حديث ٢٢٦٨، عن أنس.

تنبيه:

قال السيوطي في (الإكليل): في هذه الآية – على ما روي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما – أن العين حق[١] ، وأن الحذر لا يردّ القدر. ومع ذلك لا بد من ملاحظة الأسباب . انتهى.

وقال بعض اليمانين: لهذه الجملة ثمرات وهي: استحباب البعد عن مضارّ العباد، والحذر عنها. فأما فعل الله تعالى فلا يغني الحذر عنه. ثم قال: وفي (التهذيب) أن أبا عليّ أنكر الضرر بالعين، وهو مروي عن جماعة من المتكلمين.

وصحح الحاكم والأمير الحسين وغيرهما جواز ذلك، لأخبار وردت فيها.

ثم قال: واختلف من أين أتت المضرة الحاصلة بالعين، فمن قائل: بأنه يخرج من عين العائن شعاع يتصل بمن يراه، فيؤثر فيه تأثير السم. وضعفه الحاكم بأنه لو كان كذلك، لما اختص ببعض الأشياء دون بعض، ولأن الجواهر متماثلة، فلا يؤثر بعضها في بعض. ومن قائل: بأنه فعل العائن. قال: وهذا لا يصح، لأن الجسم لا يفعل في جسم آخر شيئاً إلا بمماسّته، أو ما في حكمها من الاعتمادات، ولأنه لو كان فعلَه، وقف على اختياره. ومن قائل: بأنه فعل الله، أجرى الله العادة بذلك لضرب من الإصلاح. وصحح هذا الحاكم، وهو الذي ذكره الزمخشري والأمير الحسين، وهو قول أبي هاشم، ذكره عنهما في (التهذيب) انتهى.

وقد أوضحه الرازي: بقوله: قال أبو هاشم وأبو القاسم البلخي: إنه لا يمتنع أن تكون العين حقّاً، ويكون معناه أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به استحساناً كان المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشخص، وذلك الشيءِ حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف متعلقاً به، فهذا المعنى غير ممتنع. ثم لا يبعد أيضاً أنه لو ذكر ربه عند تلك الحالة، وعدل عن الإعجاب، وسأل ربه أن يقيه ذلك، فعنده تتعيّن المصلحة. ولما كانت هذه العادة مطّردة، لا جرم قيل: العين حق. انتهى.

أقول: وقد بسط الإمام ابن القيّم في (زاد المعاد) هذا البحث بما يشفي ويكفي، في (بحث هديه ﷺ في علاج العين) بعد إيراده ما روي في الصحيحين وغيرهما من حقيّة العين، وشهرة تأثيرها عند العرب، قال:

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الطب، ٣٦ – باب العين حق، حديث ٢٢٦٣، عن أبي هريرة.

فابطلت طائفة ممن قلّ نصيبهم من السمع والعقل، أمر العين، وقالوا: إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل، ومن أغلظهم حجاباً، وأكثفهم طباعاً، وأبعدهم عن معرفة الأرواح والنفوس، وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها. وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا يدفع أمر العين ولا ينكره، وإن اختلفوا في سببه، وجهة تأثير العين، فقالت طائفة: إن العائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الردية، انبعثت من عينه قوة سمية، تتصل بالمعين فيتضرر. قالوا: ولا يستنكر هذا، كما لا يستنكر انبعاث قوة سمية من الأفعى تتصل بالإنسان فيهلك، وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعي أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك، فكذلك العائن.

وقالت فرقة أخرى: لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة، غير مرئية، فتتصل بالمعين، وتتخلل مسامّ جسمه، فيحصل له الضرر.

وقالت: فرقة أخرى: قد أجرى اللّه العادة بخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين العائن لمن يعينه، من غير أن يكون منه قوة ولا سبب ولا تأثير أصلاً. وهذا مذهب منكري الأسباب والقوى والتأثيرات في العالم. وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب العلل والتأثيرات والأسباب، وخالفوا العقلاء أجمعين. ولاريب أن اللّه سبحانه خلق في الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة، وجعل في كثير منها خواصّ وكيفيات مؤثرة، ولا يمكن العاقل إنكار تأثير الأرواح في الأجسام، فإنه أمر مشاهد محسوس. وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرة شديدة إذا نظر إليه من يحتشمه. ويستحيي منه، ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه، إليه. وقد شاهد الناس من يسقم من النظر، وتضعف قواه، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح. ولشدة ارتباطها بالعين ينسب الفعل إليها، وليست هي الفاعلة، وإنما التأثير للروح، والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها، فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بيّناً، ولهذا أمر اللّهُ سبحانه رسوله أن يستعيذ به من شره. وتأثير الحاسد في أذى المحسود أمر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية، وهو أصل الإصابة بالعين، فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة تقابل المحسود فتؤثر فيه بتلك الخاصية. وأشبه الأشياء بهذا، الأفعى. فإن السم كامن فيها بالقوة، فإذا قابلت عدوّها انبعث منها قوة غضبية، وتكيفت نفسها بكيفية خبيثة مؤذية فمنها ما تشتد كيفيتها وتقوى حتى تؤثر في إسقاط الجنين، ومنها ما يؤثر في طمس البصر. كما

قال ﷺ[1] في الأبتر وذي الطفيتين من الحيات: إنهما يلتمسان البصر، ويسقطان الحبل. ومنها ما يؤثر في الإنسان كيفيتها بمجرد الرؤية من غير اتصال به، لشدة خبث تلك النفس، وكيفيتها الخبيثة المؤثرة. والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية، كما يظنه من قل علمه، ومعرفته بالطبيعة والشريعة، بل التأثير يكون تارة بالاتصال، وتارة بالمقابلة، وتارة بالرؤية وتارة بتوجه الروح نحو من يوثر فيه، وتارة بالأدعية والرقي والتعوذات، وتارة بالوهم والتخيل. ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية، بل قد يكون أعمى فيوصف له الشيء، فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره. وكثير من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية، وقد قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ [القلم:٥١]، وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ، وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:١ -٥]، فكل عائن حاسد، وليس كل حاسد عائناً. فلما كان الحاسد أعم من العائن، كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن، وهي سهام تخرج من نفس الحاسد والعين نحو المحسود والمعين، تصيبه العين تارة، وتخطئه تارة، فإن صادفته مكشوفاً لا وقاية عليه أثرت فيه، ولا بد. وإن صادفته حذراً، شاكي السلاح، لا منفذ فيه للسهام، لم تؤثر فيه، وربما ردت السهام على صاحبها. وهذا بمثابة الرمي الحسّي سواء، فهذا من النفوس والأرواح، وهذا من الأجسام والأشباح. وأصله من إعجاب العائن بالشيء، ثم يتبعه كيفية نفسه الخبيثة، ثم تستعين على تنفيذ سمها بنظرة إلى المعين. وقد يعين الرجل نفسه، وقد يعين بغير إرادته، بل بطبعه. وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنساني. وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء: إن من عُرف بذلك، حبسه الإمام، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت. وهذا هو الصواب قطعاً، انتهى. كلام ابن القيّم، عليه الرحمة.

وقال الرازي: ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثره بحسب الكيفيات المحسوسة، أعني الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، بل قد يكون التأثير نفسانياً محضاً، ولا يكون للقوى الجسمانية بها تعلق، والذي يدل عليه أن اللوح الذي يكون قليل العرض، إذا كان موضوعاً على الأرض قدر الإنسان على المشي عليه، ولو كان موضوعاً فيما بين جدارين عاليين لعجز الإنسان عن المشي عليه. وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه، فعلمنا أن التأثرات النفسانية موجودة.

---

(١) أخرجه أبو داود في: الأدب، ١٦٢ - باب في قتل الحيات، حديث ٥٢٥٢، عن ابن عمر.

وأيضاً إن الإنسان إذا تصور كون فلان مؤذياً له، حصل في قلبه غضب، ويسخن مزاجه جداً، فمبدأ تلك السخونة ليس إلا لذلك التصور النفساني، ولأن مبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات النفسانية، فلما ثبت أن تصور النفس يوجب تغير بدنه الخاص، لم يبعد أيضاً أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها إلى سائر الأبدان، فثبت أنه لا يمتنع في العقل كون النفس مؤثرة في سائر الأبدان. وأيضاً جواهر النفوس مختلفة بالماهية، فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث يؤثر في تغيير بدن حيوان آخر بشرط أن يراه، ويتعجب منه. فثبت أن هذا المعنى أمر محتمل، والتجارب من الزمن الأقدم ساعدت عليه، والنفوس النبوية نطقت به، فعنده لا يبقى في وقوعه شك. وإذا ثبت هذا، ثبت أن الذي أطبق عليه المتقدمون من المفسرين في تفسير هذه الآية بإصابة العين، كلام حق. لا يمكن ردّه. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يخبر سبحانه بأن إخوة يوسف لما قدموا عليه، ضم إليه أخاه، بنيامين، إما على الطعام، أو في المنزل، وأعلمه بأنه أخوه، وقال له: لا تبتئس. أي لا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا، وجمعنا بخير.

وقد روي أنهم لما قدموا عليه، ووقفوا بين يديه، رأى أخاه بنيامين معهم، فأمر بإنزالهم في بيته، وحلولهم في كرامته وضيافته، وحضورهم معه في غدائه. ثم دخل عليهم فقاموا وسجدوا له، وسألهم عن سلامة أبيهم، ورفع طرفه إلى أخيه، فأدناه وآواه إليه، وآنسه بحديثه - كما ذكر في الآية - ثم أراد يوسف أن يحتال على بقاء أخيه عنده، فتواطأ مع فتيانه، إذا جهز إخوته، أن يضعوا سقايته في رحل أخيه، كما بينه تعالى بقوله.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ أي من الطعام **﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾** وهي

جام فضة يشرب به يوسف، وضعه في ميرة أخيه.

وقد روي أن يوسف لما جهزهم وارتحلوا، أمهلهم حتى انطلقوا وبعدوا قليلاً عن المدينة، ثم أمر أن يسعى في إثرهم، ويؤذنوا بما فقد، كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ .

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

﴿ قالوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذا تَفْقِدُونَ ﴾ .

﴿ قالوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جاءَ بِه حِمْلُ بَعيرٍ وأَنا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ معنى (أذّن) نادى. يقال: آذنه: اعلمه، وأذّن أكثر الإعلامَ، ومنه (المؤذن) لكثرة ذلك منه. و(العير): الإبل التي عليها الأحمال، لأنها تعير، أي تذهب وتجيء، وهو اسم جمع للإبل، لا واحد له، فاطلق على أصحابها. وقيل: هي قافلة الحمير، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة (عير) . و(الصواع) هو السقاية المتقدمة، إناء فضة.

تنبيه:

قال في (الإكليل): في الآية دليل على جواز الحيلة في التوصل إلى المباح، وما فيه الغبطة والصلاح، واستخراج الحقوق.

قال ابن العربي: وفي إطلاق السرقة عليهم، وليسوا بسارقين، جواز دفع الضرر بضرر أقل منه.

وقوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ جاءَ بِه حِمْلُ بَعيرٍ ﴾ أصل في الجعالة.

وقوله: ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ أصل في الضمان والكفالة. انتهى.

ولما اتهمهم المؤذن ومن معه من الفتيان:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾

﴿ قالوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ في الأَرْضِ وَما كُنَّا سارِقِينَ ﴾ أي ما جئنا للسرقة، أو لمطلق فساد، وإنما جئنا للميرة، وما كنا نوصف بالسرقة. وإنما

استشهدوا بعلمهم على براءتهم، لما تيقنوه من حالهم، في كرَّتَي مجيئهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ أي السارق ﴿ إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ .

﴿ قَالُوا ﴾ أي لثقتهم ببراءتهم ﴿ جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ أي جزاء سرقته، أخذ من وجد في رحله رقيقاً. وهو قولهم: ﴿ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ تقريراً لذلك الحكم وإلزامه، أي: فاخذه جزاؤه لا غيره. ويجوز أن يكون ﴿ جزاؤُهُ ﴾ مبتدأ، والجملة الشرطية كما هي خبره، على إقامة الظاهر مقام المضمر، والأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو هو.

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ أي بالسرقة، تأكيد إثر تأكيد، وبيان لقبح السرقة.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

﴿ فَبَدَأَ ﴾ أي فتي يوسف ﴿ بِأَوْعِيَتِهِمْ ﴾ أي ففتشها ﴿ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ أي بنيامين، نفياً للتهمة ﴿ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا ﴾ أي السقاية ﴿ مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ أي دبرنا لتحصيل غرضه ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ أي شرعه وقانونه. والجملة استئناف وتعليل لذلك الكيد وصنعه. أي: ما صح له أن يأخذ أخاه في قضاء الملك، فدبر تعالى ما حكم به إخوة يوسف على السارق، لإيصال يوسف إلى أربه، رحمة منه وفضلاً. وفيه إعلام بأن يوسف ما كان يتجاوز قانون الملك، وإلا ، لاستبد بما شاء، وهذا من وفور فطنته وكمال حكمته ويستدل به على جواز تسمية قوانين ملل الكفر (ديناً) لها والآيات في ذلك كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ يعني: أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره، لأن ذلك كله كان إلهاماً من الله ليوسف وإخوته، حتى جرى الأمر وفق المراد.

﴿نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ﴾ أي بالعلم، كما رفعنا يوسف. وفي إيثار صيغة الاستقبال إشعار بأن ذلك سنة إلهية مستمرة، غير مختصة بهذه المادة.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذي عِلْمٍ﴾ أي من أولئك المرفوعين ﴿عَلِيمٌ﴾ أي فوقه أرفع درجة منه.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ هذا تنصل منهم إلى العزيز بالتشبيه به أي: إن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف.

﴿فأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ولَمْ يُبْدِها لَهُمْ، قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً﴾ أي منزلة، حيث سرقتم أخاكم من أبيكم، ثم طفقتم تفترون على البريء.

﴿واللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي من أمر يوسف.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا العَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ، إِنّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لما تعين أخذ بنيامين وإبقاؤه عند يوسف بمقتضى فتواهم، طفقوا يعطّفونه عليهم، بأن له أبا شيخاً كبيراً يحبه حباً شديداً يتسلى به عن أخيه المفقود، فخذ أحدنا بدله رقيقاً عندك.

قال بعضهم: الفقه من هذه الجملة أن للكبير حقاً يتوسل به، كما توسلوا بكبر يعقوب وقد ورد في الاستسقاء إخراج الشيوخ. انتهى.

وفي ما عزموا عليه لإنقاذ أخيهم من شرك العبودية، المقضي عليه بها، ما يشفّ عن حسن طوية، ووفاء بالوعد، ويعرب عن أمانة، وصدق بر، وشدة تمسك بموثق أبيهم، محافظة على رضاه وإكرامه، وهكذا فليتمسك البار بمرضاة أبويه.

وقولهم: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي إلينا، فأتمم إحسانك بهذه التتمة. أومن المتعوذين بالإحسان، فليكن هذا منه.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

﴿**قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ**﴾ أي إن أخذنا بريئاً بمتهم، لأنه لا يؤخذ أحد بجرم غيره. قال بعضهم: إلا ما ورد في العقل.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾

﴿**فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا**﴾ أي يئسوا من يوسف وإجابته لهم أشد يأس. كما دل عليه (السين والتاء) فإنهما يزادان في المبالغة.

قال أبو السعود: وإنما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس، لما شاهدوه من عوذه بالله لما طلبوه، الدالّ على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهة، وأنه مما يجب أن يحترز عنه، ويعاذ بالله عزَّ وجلَّ، ومن تسميته ﴿ظلماً﴾ بقوله: ﴿**إنا إذاً لظالمون**﴾، و(خلصوا) بمعنى اعتزلوا وانفردوا عن الناس، خالصين، لا يخالطهم سواهم، و(نجيّاً) حال من فاعل (خلصوا) أي: اعتزلوا في هذه الحالة مناجين وإنما أفردت الحال، وصاحبها جمع، إما لأن النجي (فعيل) بمعنى (مفاعل) كالعشير والخليط، بمعنى المعاشر والمخالط، كقوله: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴾ [مريم:٥٢]، أي مناجياً، وهذا في الاستعمال يفرد مطلقاً. يقال: هم خليطك وعشيرك أي مخالطوك ومعاشروك. وإما لأنه صفة على (فعيل) بمنزلة صديق، وبابه. فوحد لأنه بزنة المصادر، كالصهيل والوحيد والذميل. وإما لأنه مصدر بمعنى التناجي، أطلق على المتناجين مبالغة، أو لتأويله بالمشتق: والمصدر، ولو بحسب الأصل، يشمل القليل والكثير، وتنزيل المصدر منزلة الأوصاف أبلغ في المعنى، ولذا قال الزمخشري: وأحسن منه - أي من تأويل ﴿نَجيّاً﴾ بذوي نجوى أو فوجاً نجيّاً أي مناجياً - إنهم تمحضوا تناجياً لاستجماعهم لذلك، وإفاضتهم فيه، بجد واهتمام، كأنهم في

أنفسهم صورة التناجي وحقيقته، وكان تناجيهم في تدبير أمرهم على أي صفة يذهبون، وما يقولون لأبيهم في شأن أخيهم؟ كقوم تعايوا بما دهمهم من الخطب، فاحتاجوا إلى التشاور . انتهى

لطيفة:

ذكر القاضي عياض في (الشفا) في (بحث إعجاز القرآن): أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: فلما استيأسوا منه خلصوا نجيّاً، فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وقال الثعالبي في كتاب (الإيجاز والإعجاز) في الباب الأول: من أراد أن يعرف جوامع الكلم، ويتنبه لفضل الاختصار، ويحيط ببلاغة الإيماء، ويفطن لكفاية الإيجاز فليتدبر القرآن، وليتامل علّوه على سائر الكلام .

ثم قال : فمن ذلك قوله عز ذكره، في إخوة يوسف ﴿**فلما استيأسوا منه خلصوا نجيّاً**﴾ وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودهم إليه، وما يوردون عليه من ذكر الحادث. فتضمنت تلك الكلمات القصيرة معاني القصة الطويلة.

وقوله تعالى: ﴿**قَالَ كَبِيرُهُمْ**﴾ أي في السن، كما هو المتبادر، وهو، فيما يروى، (رؤُبين)، ﴿**أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُم قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِّنَ اللّهِ**﴾ أي عهداً وثيقاً في ردّ أخيكم. وإنما جعل منه تعالى لكون الحلف كان باسمه الكريم. ﴿**وَمِن قَبْلُ**﴾ أي قبل هذا ﴿**مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ**﴾ أي قصرتم في شأنه و(ما) إما مزيدة، و(من) متعلق بالفعل بعده، والجملة حالية. وإما مصدرية في موضع رفع بالابتداء و(من قبل) خبره. أو في موضع نصب عطفاً على معمول (تعلموا). وإما موصولة بالوجهين، أي: قدمتموه في حقه من الخيانة، ولم تحفظوا عهد أبيكم، بعد ما قلتم: ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ**﴾ [يوسف:١١]، و﴿**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظون**﴾ [يوسف:٦٣].

﴿**فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ**﴾ أي: فلن أفارق أرض مصر ﴿**حَتَّى يأذَنَ لِي أَبِي**﴾ أي في الرجوع ﴿**أَوْيَحْكُمَ اللّهُ لِي**﴾ أي بالخروج من مصر، أو بخلاص أخي بسببٍ ما. ﴿**وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**﴾ لأنه لا يحكمُ إلا بالحق والعدل.

ثم أمر كبيرهم أن يخبروا أباهم بما جرى، فقال:

القول في تأويل قوله تعالى:

ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١)

﴿ارْجِعُوا إلى أبيكُمْ فَقُولُوا يا أَبَانَا إنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ أي: نُسبَ إلى سرقة صواع الملك، ﴿وَمَا شَهِدْنَا إلاَّ بِمَا عَلِمْنَا﴾ أي ما شهدنا عليه بالسرقة، إلا بما تيقناه من إخراج الصواع من رحله.

تنبيه:

استنبط بعضهم من هذا عدم جواز الشهادة على الكتابة بلا علم وتذكر. وكذا من سمع كلمه من وراء حجاب، لعدم العلم به - كذا في الإكليل - ولا يخفى أن مثل هذا مما يستأنس به في مواقع الخلاف.

﴿وما كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أي: وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)

﴿وَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يعنون مصر. أي: أرسل إلى أهلها فسلهم عن كنه القصة. ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فيهَا﴾ أي جئنا معها. وكان صحبهم قوم من كنعان ﴿وإنَّا لَصادِقُونَ﴾ أي فيما أخبرناك.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أنفُسُكُمْ أمراً﴾ معناه: فرجعوا إلى أبيهم، فقالوا له ما قال لهم أخوهم. فقال: بل سولت، أي زينت وسهلت أنفسكم أمراً، ففعلتموه.

لطيفة:

قال الزمخشري: أمراً أردتموه، وإلا فما أدرى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته، لولا فتواكم وتعليمكم.

قال الناصر: هذا من الزمخشري إسلاف جواب عن سؤال، كان قائلاً يقول: هم في الوقعة الأولى سولت لهم أنفسهم أمراً بلا مراء، وأما في هذه الوقعة الثانية، فلم يتعمدوا في حق بنيامين سوءاً، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليته، وما تركوه بمصر إلا بمغلوبين عن استصحابه، فما وجه قوله ثانياً ﴿**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً**﴾ كما قال لهم أولاً؟ وإذا ورد السؤال على هذا التقرير، فلا بد من زيد بسط في الجواب، فنقول: كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين، وهم قَمِنٌ باتهامه لما أسلفوه في حق يوسف عليه السلام، وقامت عنده قرينة تؤكد نفي التهمة وتقوِّيها، وهي أخذ الملك له في السرقة، ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب وحده، لا من دين غيره من الناس، ولا من عادتهم. وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف:٧٦]، تنبيهاً من الله تعالى على وجه اتهام يعقوب لهم، فعلم أن الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به، وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تعمداً ليتخلف أخوهم، وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل أن يدعي عليهم السرقة، فذكروا ما عندهم، ولم يشعروا أن المقصود إلزامهم بما قالوا. واتهام من هو بحيث تتطرق التهمة إليه لا حرج فيه، وخصوصاً فيما يرجع إلى الوالد من الولد. ويحتمل – والله أعلم – أن يكون الوجه الذي سوغ له هذا القول في حقهم، أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع في رحل من يوجد في رحله، سرقة ، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونها سارقاً بوجه معلوم، وهذا في شرعنا لا يثبت لا سرقة عليه – والله أعلم –.

وقوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً﴾ واقع بمكانه من حالهم، وإن كان شرعهم يقتضي ذلك مخالفاً لشرعنا، فالعمدة على الجواب الأول.

وقوله تعالى: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾ أي: بلا جزع ﴿**عَسَى اللّهُ أَنْ يأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً**﴾ أي بيوسف وأخيه المتوقف بمصر، فتذهب أحزانه بمرة واحدة ﴿**إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ أي العليم بحالي وحالهم، الحكيم في تشديد الأمر لينظر مقدار الصبر فيفيض بقدره الأجر، ومن الأجر المعجل تعجيل الفرج.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾

﴿**وَتَوَلَّى**﴾ أي أعرض ﴿**عَنْهُمْ**﴾ أي عن بنيه كراهة لما جاؤوا به ﴿**وَقَالَ يا أَسَفَى**

عَلَى يُوسُفَ﴾ أي يا حزني الشديد! و(الألف) بدل من ياء المتكلم للتخفيف، وقيل: هي ألف الندبة، والهاء محذوفة. و(الأسف) أشد الحزن والحسرة على ما فات، وإنما تأسف على يوسف دون أخويه، والحادث رزأهما. والرزء الأحدث أشد على النفس، وأظهر أثراً – لأن الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به، ولأنه لم يزُل عن فكره، فكان غضّاً طرّياً عنده، كما قيل:

ولم تُنْسِني أوْفَى المصيباتِ بُعْدَهُ وكُل جَديدٍ يُذكِّرِ بالْقَديمِ

ولأنه كان واثقاً بحياتهما – دون حياته.

﴿وابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ وذلك لكثرة بكائه.

قال الزمخشري: إذا كثر الاستعبار محقت العَبرة سواد العين، وقلبته إلى بياض كدر. **﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾** أي مملوء من الغيظ على أولاده، ولا يظهر ما يسوؤهم. (فعليل) بمعنى (مفعول) كقوله **﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾** [القلم: ٤٨]، أو بمعنى شديد التجرع للغيظ أو الحزن، لأنه لم يشكه إلى أحد قط. فهو بمعنى (فاعل).

تنبيه:

دلت الآية على جواز التأسف والبكاء عند المصيبة.

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جاز لنبيّ اللّه أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ؟

قلت: الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن، ولذلك حمد صبره، وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن.

ولقد بكى رسول اللّه ﷺ على ولده إبراهيم وقال[1]: إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يَرْضي ربنا، وإنا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون.

وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب.

وعن الحسن أنه بكى على ولد، أو غيره فقيل له في ذلك؟ فقال: ما رأيت اللّه جعل الحزن عاراً على يعقوب.

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الجنائز، ٤٤ – باب قول النبيّ ﷺ (إنّا بك لمحزونون)، حديث ٦٩٢، عن أنس.

وأخرجه مسلم في: الفضائل، ١٥ – باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، وتواضعه وفضل ذلك، حديث رقم ٦٢.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾

﴿**قَالُوا**﴾ أي أولاد يعقوب، لأبيهم على سبيل الرفق به، والشفقة عليه: ﴿**تَاللَّه تَفتَأ تَذكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً**﴾ أي مريضاً مشفياً على الهلاك، ﴿**أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ**﴾ أي بالموت. يقولون: إن استمر بك هذا الحال، خشينا عليك الهلاك والتلف، واستدل به على جواز الحلف بغلبة الظن. وقيل: إنهم علموه، لكنهم نزّلوه منزلة المنكر، فلذا أكّدوه. و﴿**تَفتَأ**﴾ مضارع فتئ، مثلثة التاء. يستعمل مع النفي ملفوظاً أو منويّاً لأن موضعه معلوم، فيحذف للتخفيف كقوله:

فقلتُ يمينَ اللهِ أَبْرَحُ قاعداً ولو قَطعوا رأسي لديك وأَوصالي

أي: لا أبرح. ومعنى (تفتأ): لا تزال ولاتبرح.

لقول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

﴿**قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي**﴾ أي غمي وحالي. ﴿**وَحُزْنِي إِلَى اللهِ**﴾ أي لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم، إنما أشكو إلى ربي داعياً له، وملتجئاً إليه، فخلّوني وشكايتي.

﴿**وأَعْلَمُ مِنَ اللهِ**﴾ أي لمن شكا إليه من إزالة الشكوى، ومزيد الرحمة ﴿**مَا لاَ تعْلَمُونَ**﴾ ما يوجب حسن الظن به، وهو مع ظن عبده به.

ولما علم من شدة البلاء مع الصبر، قرب الفرج، قوّى رجاءهم، وأمرهم أن يرحلوا لمصر، ويتطلبوا خبر يوسف وأخيه بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾

﴿**يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ**﴾ أي تعرّفوا من نبئهما، وتخبروا

خبرهما ﴿ولاَ تيأسُوا منْ رَوْحِ اللّهِ﴾ أي فرجه ورحمته المريحة من الشدة. ﴿إنَّهُ لاَ يَيْأسُ مِنْ رَوْحِ اللّهِ﴾ لم يُقَلْ (منه) إشارة إلى ظهور حصوله لمن لم ييأس - ﴿إلاَّ الْكافِرُونَ﴾ أي باللّه ورحمته، وقدرته على إفاضة الرَّوْحِ، بعد مضي المدة في الشدة وسنته في إفاضة اليسر مع العسر، لاسيّما في حق من أحسن الظن به.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

﴿فلمّا دَخلُوا عَلَيْهِ﴾ أي على يوسف بعد ما رجعوا من مصر، ولانفهامه من المقام طوى ذكره إيجازاً ﴿قَالُوا: يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ أي: الملك القادر، المتمنع ﴿مَسَّنَا وأَهْلَنَا الضُرُّ﴾ أي: الشدة من الجدب. ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ أي: بدراهم قليلة في مقابلة ما نمتاره. استقلوا الثمن واستحقروه اتضاعاً لهيبة الملك، واستجلاباً لرأفته وحنانه. وأصل معنى (التزجية): الدفع والرمي، فكنوا به عن القليل الذي يدفع، رغبة عنه، لذلك ﴿فَأوْفِ لَنَا الكَيْلَ﴾ أي: أتممه ووفره بهذه الدراهم المزجاة، كما توفره بالدراهم الجياد. ﴿وتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أي: بردّ أخينا، أو بالإيفاء، أو بالمسامحة وقبول ما لا يعد عوضاً. ﴿إنَّ اللّهَ يَجْزي الْمُتَصَدِّقينَ﴾ أي يثيبهم أحسن المثوبة.

تنبيهات:

الأول – في الآية إرشاد إلى أدب جليل، وهو تقديم الوسائل أمام المآرب، فإنها انجح لها. وهكذا فعل هؤلاء: قدموا ما ذكر من رقة الحال، والتمسكن، وتصغير العوض، ولم يفجؤوه بحاجتهم، ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم، ببعث الشفقة، وهز العطف والرأفة وتحريك سلسلة الرحمة – كما قدمنا – ومن ثم، رقّ لهم، وملكته الرحمة عليهم، فلم يتمالك أن عرّفهم نفسه، كما يأتي –

الثاني – يؤخذ من الآية جواز شكوى الحاجة لمن يرجى منه إزالتها.

الثالث – استدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿فأوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ على أن أجرة الكيال على البائع، لأنه إذا كان عليه توفية الكيل، فعليه مؤنته، وما يتم به.

الرابع – استدل بقوله تعالى: ﴿وتَصدَّقْ عَلَيْنا﴾ من قال: إن الصدقة لم تكن

محرمة على الأنبياء – كذا في الإكليل – وهذا بعد تسليم نبوة إخوة يوسف. وفيها خلاف. وسيأتي في التنبيهات، آخر السورة، تحقيق ذلك.

الخامس – في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ حثٌّ على الإحسان، وإشارة إلى أن المحسِن يجزى أحسن جزاء منه تعالى، وإن لم يجزه المحسَن إليه.

ثم بيّن تعالى رأفة يوسف بتعرفه إليهم بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾

﴿**قَالَ**﴾ أي يوسف مجيباً لهم ﴿**هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ**﴾ أي شبان غافلون؟ استفهام تقرير، يفيد تعظيم الواقعة. ومعناه: ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف، وما أقبح ما أقدمتم عليه! كما يقال للمذنب: هل تدري من عصيتَ وهل تعرف من خالفتَ؟ وهذه الآية تصديق لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِم هَذَا وَهُمْ لاَيَشْعُرُون﴾ [يوسف: ١٥].

لطائف:

الأولى – أبدى المهايميّ مناسبة بديعة في قول يوسف لهم: ﴿**هَلْ عَلِمْتُمْ**﴾ إثر قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾، وهو أنهم أرادوا بقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أنه يعطيهم في الآخرة ما هو خير من العوض الدنيويّ، فأشار لهم يوسف بأنكم تريدون دفع الضرر العاجل، بوعد الأجر الآجل، ولا تدفعون عن أنفسكم الضرر الآجل، كأنكم تنكرونه، هل علمتم ضرر ما فعلتم بيوسف؟

الثانية – قيل: من تلطفه بهم قوله: ﴿**إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُون**﴾ كالاعتذار عنهم، لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه، أسهل من فعله على علم. وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار لم يُلْفوا عذراً كهذا. الا ترى أن موسى عليه السلام، لما اعتذر عن نفسه لم يزد على أن قال: ﴿فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] ففيه تخفيف للأمر عليهم.

الثالثة – قال الزمخشري: فإن قلت: ما فعلهم بأخيه؟ قلت: تعريضهم إياه للغمّ والثكل، بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه، وجفاؤهم به، حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام الذليل للعزيز، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿**قَالُوا**﴾ أي: استغراباً وتعجباً من أن هذا لا يعلمه إلا يوسف: ﴿**أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ**؟ **قَالَ: أَنَا يُوسُفُ**﴾ أي: الذي فعلتم به ما فعلتم، ﴿**وَهَذَا أَخِي**﴾ أي من أبويّ.

قال أبو السعود: زادهم ذلك مبالغة في تعريف نفسه، وتفخيماً لشأن أخيه، وتكملة لما أفاده قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ حسبما يفيده قوله:

﴿**قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا**﴾ فكأنه قال: هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال، فأنا يوسف، وهذا أخي، قد مَنّ اللّه علينا بالخلاص مما ابتلينا به، والاجتماع بعد الفرقة، والعزة بعد الذلة، والأنس بعد الوحشة.

ثم علل ذلك بطريق الاستئناف التعليلي بقوله: ﴿**إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ**﴾ أي ربه في جميع أحواله ﴿**وَيَصْبِرْ**﴾ أي: على الضراء، وعن المعاصي. ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ أي أجرهم وفي وضع الظاهر موضع الضمير، تنبيه على أن المنعوتين بالتقوى والصبر، موصوفون بالإحسان.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿**قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا**﴾ أي فضّلك بما ذكرت من التقوى والصبر، وسيرة المحسنين ﴿**وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ**﴾ أي: وإن شأننا وحالنا أنا كنا متعمدين للذنب، لم نتق ولم نصبر، ففعلنا بك ما فعلنا، ولذلك أوثرت علينا. وفيه إشعار بالتوبة والاستغفار، ولذلك:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿**قَالَ لاَ تَثْرِيبَ**﴾ أي: لا تعيير ولا توبيخ ولا تقريح، ﴿**عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**﴾ أي: وإن كنتم ملومين قبل ظهور منتهى فعلكم، ولا إثم عليكم، إذ ﴿**يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ أي حقي لرضاي عنكم، وحقه أيضاً لواسع رحمته كما قال: ﴿**وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ أي:

فكأنه لا خطأ منكم. و(اليوم) متعلق بالتثريب،أو بالمقدر في (عليكم) من معنى الاستقرار، والمعنى: ولا أثرّبكم اليوم، وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب، فما ظنكم بغيره من الأيام؟! فتعبيره بـ (اليوم) ليس لوقوع التثريب في غيره، لأن من لم يثرب أول لقائه واشتعال ناره، فَبَعْدَهُ بطريق الأولى.

وقال الشريف المرتضى في (الدرر): إن اليوم موضوع موضع الزمان كله كقوله:

اليومَ يَرحَمُنا من كان يَغْبِطُنا والیوم نَتْبَعُ من كانوا لنا تَبَعَا

ثم زادهم تكريماً بأن دعا لهم بالمغفرة، لما فرط منهم بقوله: ﴿**يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ**﴾.

وقوله: ﴿**وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمينَ**﴾ تحقيق لحصول المغفرة لأنه عفا عنهم، فاللّه أولى بالعفو والرحمة لهم، وبيانٌ للوثوق بإجابة الدعاء. وجوز تعلق (اليوم) بـ(يغفر). والجملة خبرية سيقت بشارة بعاجل غفران اللّه، لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم عل خطيئتهم. والوجه الأول أظهر. والثاني من الإغراب في التوجيهات.

تنبيه:

قال بعضهم: إن تجاوز يوسف عن ذنب إخوته، وإبقاءه عليهم، ومصافاته لهم، تعلمنا أن نغفر لمن يسيء إلينا، ونحسن إليه، ونصفي له الودّ، وأن نغضي عن كل إهانة تلحق بنا، فيسبغ اللّه تعالى إذ ذاك علينا نعمه وخيراته في هذه الدنيا، كما أوسع على يوسف ويورثنا السعادة الأخروية. وأما إذا أضمرنا السوء للمسيئين إلينا، ونقمنا منهم، فينتقم اللّه منا، ويوردنا مورد الثبور، فنعوذ باللّه من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا.

ثم قال لهم يوسف:

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

﴿**اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذاَ فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبي يَأْتِ بَصيراً وَأْتُوني بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعينَ**﴾

أراد يوسف تبشير أبيه بحياته، وإدخال السرور عليه بذلك، وتصديقه بإرسال حلة من حلله التي كان يستشعر بها أو يتدثر، ليكون في مقابلة القميص الأول، جالب الحزن، وغشاوة العين. و(الإلقاء على وجهه) بمعنى المبالغة في تقريبه منه، لما ناله من ضعف بصره، فتتراجع إليه قوة بصره، بانتعاش قلبه، بشمّه واطمئنانه على سلامته. وللمفرحات تأثير عظيم في صحة الجسم، وتقوية الأعضاء، وقد جوّد الكلام في ذلك الحكيم داود الأنطاكيّ في (تذكرته) في مادة مفرح بما لايستغنى عن مراجعته.

وفي (الكنوز) من كتب الطب: الفرح، إن كان بلطف، فإنه ينفع الجسم، ويبسط النفس، ويريح العقل، فتقوى الأعضاء وتنتعش. انتهى.

ثم رأيت الرازيّ عوّل على نحو ما ذكرناه، وعبارته: قال المفسرون: لما عرفهم يوسف سألهم عن أبيه، فقالوا: ذهبت عيناه، فأعطاهم قميصه. قال المحققون: إنما عرف أن إلقاء القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحي من اللّه تعالى، ولولا الوحي، لما عرف ذلك، لأن العقل لا يدل عليه. ويمكن أن يقال: لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ما صار أعمى إلا أنه من كثرة البكاء، وضيق القلب، ضعف بصره، فإذا ألقي عليه قميصه، فلا بد أن ينشرح صدره، وأن يحصل في قلبه الفرح الشديد. وذلك يقوي الروح، ويزيل الضعف عن القوى، فحينئذ يقوى بصره، ويزول عنه ذلك النقصان. فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقلب. فإن القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى. انتهى.

ولعل الرازيّ عنى بالمحققين الصوفية، أو من يقف على الظاهر وقوفاً بحتاً، ولا يخفى أن أسلوب التنزيل في كناياته ومجازاته أسلوب فريد، ينبغي التفطن له.

وقد جوز في قوله: ﴿يَأْتِ بَصِيراً﴾ أن يكون معناه يصير بصيراً، أويجيء إليّ بصيراً، على حقيقة الإتيان فـ (بصيراً) حال. قيل: ينصره قوله: ﴿**وأتوني بأهلكم أجمعين**﴾ أي: بأبي وغيره، وفيه نظر، لأن اتحاد الفعلين هنا في المبنى لا يدل على اتحادهما في المعنى. ولا يقال: الأصل الحقيقة، لأن ذلك فيما يقتضيه السياق، ولا اقتضاء هنا. فالأول أرق وأبدع، لما فيه من التجانس.

روي أن يوسف عليه السلام، بعد أن دعا لهم بالمغفرة قال لهم: إن اللّه بعثني أمامكم لأحييكم وقد مضت سنتا جوع في الأرض وبقي خمس سنين، ليس فيها حرث ولا حصاد. فأرسلني اللّه أمامكم ليجعل لكم بقية في الأرض، ويستبقيكم

لنجاة عظيمة. وقد جعلني سبحانه أباً لفرعون، وسيداً لجميع أهله، ومتسلطاً على جميع أرض مصر، فبادروا وأشخصوا إلى أبي وأخبروه بجميع مجدي بمصر، وما رأيتموه وقولوا له: كذا قال ابنك يوسف: قد جعلني الله سيداً لجميع المصريين، فهلمّ إليّ، فتقدم في أرض جاسان، وتكون قريباً مني أنت وبنوك، وبنو بنيك، ومواشيك، وجميع ما هو لك، وأعولك، ها هنا، فقد بقي خمس سنين مجدبة، فأخشى أن يهلك الأهل والمال. وكان نما الخبر إلى بيت فرعون. وقيل: جاء إخوة يوسف، فسرّ بذلك فرعون وخاصته وأمره أيضاً بأن يؤكد عليهم إتيانهم بأبيهم وأهلهم، ووعدهم خير أرض في مصر تكون لهم، لئلا يأسفوا على ما خلّفوا. ثم زود يوسف إخوته أحسن زاد. وأعطاهم من الحلل والثياب والدراهم مقداراً وافراً، وبعث إلى أبيه بمثل ذلك، وأصحبهم عجلات لأطفالهم ونسائهم، وأوصاهم ألا يتخاصموا في الطريق - والله أعلم -.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾

﴿**وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ**﴾ أي خرجت من مصر. يقال: فصل القوم عن المكان وانفصلوا، بمعنى فارقوه ﴿**قالَ أَبُوهُمْ**﴾ أي: لحفدته ومن حوله من قومه، من عظم اشتياقه ليوسف، وانتظاره لرَوْح الله: ﴿**إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ**﴾ الريح: الرائحة، توجد في النسيم. أي: لأتنسم رائحته مقبلة إليّ. كناية عن تحققه وجوده بماالقى الله في روعه من حياته، وساق إليه من نسائم البشارة الغيبية بسلامته. وقد كان عظم رجاؤه بذلك من مولاه، ووثق بنيل مأموله ومبتغاه، ولذلك نهى نبيه عن الاستيئاس من روح الله . وإذا دنا أجل الضراء، أخذت تهب نسائم الفرج حاملة عَرْف السراء، يدري ذلك كل من قوي إحساسه، وعظمت فطنته، واستنارت بصيرته، فيكاد أن يلمس في نهاية الشدة زهر الفرَج، ولا يحنث إن آلى أنه يجد من نسيمه أزكى الفرج. عرف ذلك من عرف، فأحرى بمن نالوا من النبوة ذروة الشرف.

وإضافة الريح إلى الولد معروفة في كلامهم: وفي حديثٍ عند الطبرانيّ: ريح الولد من ريح الجنة: وقال الشاعر:

يا حبذا ريحُ الْوَلَدْ ريحُ الخُزَامَى فِي الْبَلَدْ

وقوله: ﴿لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ بمعنى إلا أنكم تفندون. أو لولاه لصدقتموني. و(فنَّده) نسبه إلى الفَنَد بفتحتين. وهو ضعف الرأي والعقل من الهرم وكبر السن.

قال في (العناية): مأخوذ من الفند، وهو الحجر والصخرة، كأنه جعل حجراً لقلة فهمه، كما قال:

إذا أنت لم تعشقْ ولم تدرِ مَا الْهوَى فكن حَجَراً من يَابِسِ الصَّخْرِ جَلْمَدَا

ثم اتسع فيه فقيل: فنده، إذا ضعَّف رأيه، ولامه على ما فعله.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

﴿**قَالُوا**﴾ أي حفدته ومن عنده: ﴿**تَاللّه إنَّكَ لَفِي ضَلالِك الْقَدِيم**﴾ أي لفي ذهابك عن الصواب المتقدم، في إفراطك في محبة يوسف، ولهجتك بذكره، ورجائك للقائه، وكان عندهم أنه مات أو تشتت، فاستحال الاجتماع به. وجعله فيه لتمكنه ودوامه عليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

﴿**فلمَّا أنْ جاءَ الْبَشيرُ**﴾ أي المخبر بما يسرّه من أمر يوسف ﴿**أَلْقاهُ عَلَى وَجْهِه**﴾ أي: طرح البشير القميص على وجه يعقوب، أو ألقاه يعقوب نفسُه على وجهه، ﴿**فَارْتَدَّ بَصيراً**﴾ أي عاد بصيراً لما حدث فيه من السرور والانتعاش. ﴿**قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ أي: من حياة يوسف، وإنزال الفرج وجوّز كون ﴿**إنِّي أَعْلَمُ**﴾ كلاماً مبتدأ. والمقول ﴿**لاتَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللّهِ**﴾ إن كان الخطاب لبنيه. أو ﴿**إنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ**﴾ إن كان لحفدته ومن عنده.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾

﴿**قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ**﴾ الضمير لبنيه. طلبوا أن يستغفر

لهم لما فرط منهم، أو لحفدته ومن عنده لقولهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ والأول أقرب وأصوب.

ولما كان من حق المعترف بذنبه أن يُصفح عنه، ويسأل له المغفرة، وعدهم بذلك:

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: سوف أدعوه لكم، فإنه المتجاوز عن السيئات، الرحيم لمن تاب.

قال المهايميّ: صرّحوا بالذنوب دون الله، لمزيد اهتمامهم بها، وكأنهم غلب عليهم النظر إلى قهره. وصرّح يعقوب بذكر الرب دون الذنوب، إذ لا مقدار لها بالنظر إلى رحمته التي ربَّى بها الكل. انتهى.

وهذا من دقائق لطائف التنزيل ومحاسنها فيه.

تنبيه:

قيل: في هذه الآيات دلالة على جواز التبشير ببشائر الدنيا واستحبابه، وجواز السرور بحصول النعم الحاصلة في الدنيا. وفيها دلالة على إرجاء الاستغفار والدعاء لوقت يرى أنه أحضر فيه قلباً من غيره أو أنه أفضل وأقرب للإجابة.

وقد روي أنه أخر الاستغفار إلى السحر. وتخصيص الأوقات الفاضلة بالاستغفار والدعاء معروف في السنة، ومنه شرع الاستغفار في السحر، وعقب الصلوات، وقضاء الحج. وكان الدعاء في السجود، وعند الأذان، وبينه وبين الإقامة، والإفطار من الصيام، أقرب للإجابة مما عداه

القول في تأول قوله تعالى:

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ إشارة إلى ورود يعقوب وآله على يوسف. وذلك أنهم تخلوا عن آخرهم، وترحلوا من بلاد كنعان، وأركبوا أطفالهم

ونساءهم على العَجَل التي بعث بها فرعون، وصحبوا ماشيتهم وسرحهم، وهبطوا أرض مصر – وروي أنهم كانوا سبعين نفساً – وتقدمهم يهوذا إلى يوسف ليدله على أرض (جاسان) فينزلوها. ثم خرج يوسف في مركبته، فتلقى أباه في (جاسان) ولما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه وبكى طويلاً. والمراد بدخولهم على يوسف وصولهم لملتقاه خارج البلد، وبإيواء أبويه ضمهما إليه، واعتناقهما واصطحابه لهما في مركبه. قالوا: عنى بأبويه والده وخالته، لأن أمه راحيل توفيت وهي نفساء بأخيه بنيامين، وتنزيل الخالة منزلة الأم، لكونها مثلها في زوجة الأب، وقيامها مقامها وتوقيرها، كتنزيل العم منزلة الأب في قوله: ﴿ وإله ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ ﴾ أي من القحط وأصناف المكاره.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

﴿ ورفَع أبوَيْهِ علَى الْعَرْشِ ﴾ أي أجلسهما معه على سرير ملكه تكريماً لهما ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ﴾ أي سجد له أبوه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر، تحية وتكرمة له. وكان السجود عندهم للكبير يجري مجرى التحية عندنا.

﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا ﴾ أي السجود ﴿ تَأْوِيلُ ﴾ أي تعبير ﴿ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي التي رأيتها أيام الصبا، وهي سجود أحد عشر كوكباً والشمس والقمر﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقاً ﴾ أي صدقاً مطابقاً للواقع في الحسّ ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ أي نجاني من العبودية، وجعل الملك مطيعاً لي مفوضاً إليَّ خزائن الأرض، وفي الاقتصار على التحدث بالخروج من السجن على جلالة ملكه، وفخامة شأنه من التواضع، وتذكر ما سلف من الضراء، استدامة للشكر، ما فيه من أدب النفس الباهر، وفيه إشارة إلى النعمة في الانطلاق من الحبس، لأنه كما قال عبد الملك بن العزيز، لما كان في حبس الرشيد:

ومحلةٍ شمل المكارهُ أهلَها وتقلّدوا مشنوءَةَ الأسماءِ
دارٌ يُهابُ بها اللئامُ .وتُتَّقى وتَقِلُّ فيها هيبةُ الكرماءِ
ويقول عِلْجٌ ما أرادَ، ولا ترى حرّاً يقول برقة وحياءِ
ويرقّ عن مسّ الملاحة وجهُهُ فيصونه بالصمت والإغضاءِ

وقال شاعر من المسجونين:

خَرَجْنَا من الدنيا ونَحْنُ من أهلها فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى
إِذَا جاءَنا السجّان يوماً لحاجةٍ عَجِبْناً وقلنا: جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا

ويؤثر عن يوسف عليه السلام أنه كتب على باب السجن: هذه منازل البلاء، وتجربة الأصدقاء، وشماتة الأعداء، وقبور الأحياء.

هذا وقد حاول كثير من الأدباء مدح السجن بسحر بيانهم، فقال عليّ بن الجهم:

قالوا: حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائري حبسي. وأيُّ مهنّدٍ لا يُغْمَدُ؟
أَوَ مَا رأيتَ الليثَ يألَفُ غَابَهُ كِبْراً وأوباشُ السِّبَاعِ تَرَدَّدُ
والبدرُ يُدْرِكُهُ المحاقُ فَتَنْجَلِي أيَّامُهُ وكأنهُ مُتَجَدِّدُ
ولكل حالٍ مُعْقِبٌ وَلَرُبَّمَا أَجْلَى لك المكروهُ عَمَّا تَحْمَدُ
والسجنُ، ما لم تَغْشَهُ لدَنِيَّةٍ شَنْعَاء، نعم المنزل المتوَرَّدُ
بيت يُجَدِّدُ للكريمِ كَرَامَةً فيُزَار فيه ولا يَزُورُ وُيحْفَدُ

وأحسن ما قيل في تسلية المسجونين قول البحتري:

أما في رسول الله يوسفَ أسوةٌ لمثلك محبوساً على الجَوْرِ والإفْكِ
أقامَ جميلَ الصَّبْر في السجن برهةً فآل به الصبرُ الجميلُ إلى المُلْكِ

نقله الثعالبي في (اللطائف واليواقيت).

﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ أي البادية، وقد كانوا أصحاب مواش، ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ﴾ أي أفسد ﴿الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي بالحسد. وأسنده إلى الشيطان لأنه بوسوسته وإلقائه. وفيه تفادٍ عن تثريبهم أيضاً. وإنما ذكره لأن النعمة بعد البلاء أحسن موقعاً.

﴿إنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ﴾ أي لطيف التدبير له، والرفق به، ﴿إنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بوجوه المصالح ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقضيته.

القول في تأويل قوله تعالى:

رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِن الْمُلْكِ﴾ أي بعضاً منه عظيماً، وهو ملك مصر، ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأحَادِيث﴾ أي تعبير الرؤيا، ﴿فاطِرَ السَّمٰوَاتِ والأرْضِ﴾ أي مبدعهما وخالقهما، ﴿أَنْتَ ولِيِّي﴾ أي مالك أموري، ﴿في الدُّنيا والآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وأَلْحِقْني بالصَّالِحِينَ﴾ أي من النبيين والمرسلين. دعا يوسف عليه السلام بهذا الدعاء لما تمت نعمة اللّه عليه باجتماعه بأبويه وإخوته وما آثره به من العلم والملك، فسأل ربه عز وجلّ، كما أتم عليه نعمته في الدنيا، أن يحفظها عليه باقي عمره، حتى إذا حان أجله قبضه على الإسلام، وألحقه بالصالحين. فلبس فيه تمنّ للموت، وطلب التوفي منجزاً كما قيل.

روى الإمام أحمد والشيخان عن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: لا يتمنينّ أحدكم الموت لضر نزل به، إن كان محسناً فيزداد، وإن كان مسيئاً فلعله يستعتب: ولكن ليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وفي رواية: وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي[1].

تنبيهان:

الأول – في فقه هذه الآيات: قال بعض اليمانين: يستدل مما روي أن يوسف خرج للقاء أبيه، على حسن التعظيم باللقاء، وكذا يأتي مثله في التشييع، ومنه ما روي في تشييع الضيف: ويستدل مما روي أن المراد بأمه خالته – كما مر – أن من نسب رجلاً إلى خالته فقال: يا ابن فلانة! لم يكن قاذفاً لها ويستدل من رفعهما على العرش – وهو السرير الرفيع – جواز اتخاذه، ورفع الغير، تعظيماً للمرفوع، ويستدل من قوله: ﴿وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْو﴾ على أن الانتقال منه نعمة، وذلك لما يحلق أهل البادية من

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الدعوات، ٣٠ – باب الدعاء بالموت والحياة، حديث ٢٢٤٥.
ومسلم في: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث رقم ١٠.
والإمام أحمد في مسنده ٣ / ١٠١.

الجفاء، والبعد عن موارد العلوم، وعن رفاهة المدنية، ولطف المعاشرة، والكمالات الإنسانية، وروي لجرير:

أرض الحِراثة لو أتاها جَرْوَلٌ   أعني الحُطَيْئَةَ لاغتدى حَرَّاثا

ما جئتَها من أي وجه جئتَها   إلا حسبتَ بيوتها أجْداثاً

وفي الحديث[1] : (من بدا جفا) أي: من حل البادية. وفي آخر[2] : (إنّ الجفا والقسوة في الفدادين). ففي هذا دليل على حسن النقلة من البوادي إلى المدن. بزيادة.

الثاني - قص كثير نبأ استقرار يعقوب وآله بمصر. ومجمله أن يوسف اختار لمستقرهم أرض جاسان. فلما دخلوا مصر أخبر يوسف فرعون بقدوم أبيه وإخوته وجميع ما لهم إلى أرض جاسان، ثم أدخل أباه على فرعون. فأكرمه وكلمه حصة. وسأله عن عمره فأجابه: مائة وثلاثون سنة، وأقطعه وبنيه أجود أرض في مصر، وهي أرض رعمسيس، أي عين شمس، وملكها إياهم، ودعا له يعقوب ثم انصرف. ثم أخذ يوسف خمسة من إخوته، فمثلهم بين يدي فرعون، فقال لهم: ما حرفتكم فأجابوه - : كما أوصاهم يوسف -: نحن وآباؤنا رعاة غنم! فقال فرعون ليوسف: إن كنت تعلم أن فيهم ذوي حذق، فأقمهم وكلاء على ماشيتي. وأجرى يوسف لأبيه وإخوته وسائر أهله طعاماً على حسبهم. وأقاموا في أرض مصر بجاسان، فتملكوا فيها، ونموا وكثروا جداً. وعاش يعقوب في أرض مصر سبع عشرة سنة، فكانت مدة عمره كله مائة وسبعاً وأربعين سنة. ولما دنا أجله قال ليوسف: لا تدفني بمصر إذا مت، بل احملني منها إلى مدفن آبائي، فأجابه لذلك. ثم بعد مدة أخبر يوسف بمرض أبيه، فأخذ ولديه وسار إلى أبيه، فانتعش أبوه بمقدمه، ورأى ولديه، فقال: من هذان؟ فقال: ابناي رزقنيهما الله ها هنا. فقال: أَدْنِهِمَا مني، فأدناهما ، فقبلهم؛ ودعا لهما، وقال له: لم أكن أظن أني أرى وجهك، والآن أراني الله نسلك أيضاً. ثم أعلم يوسفَ بدنو أجله، وبشره بأن الله سيكون معكم، ويردكم إلى أرض آبائكم. ثم دعا بقية بنيه، ودعا لهم بالبركة، وأوصاهم بان يضموه إلى قومه، ويدفنوه مع آبائه في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢ / ٣٧١.

(٢) أخرجه البخاريّ في: بدء الخلق، ١٥ - باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، حديث ١٥٦٢ عن ابن مسعود، من حديث ، ونصه: الا إن القسوة وغلظ القلوب..الخ
وأخرجه مسلم في: الإيمان، حديث رقم ٨١.

المغارة التي في حبرون، وهي المعروفة اليوم بمدينة الخليل فإن فيها دفن إبراهيم، وسارة امرأته، وإسحاق ورفقة زوجته، ولياة امرأة يعقوب. ولما فرغ يعقوب من وصيته لبنيه فاضت روحه، فوقع يوسف على وجه أبيه، وبكى وقبله. ثم أمر الأطباء أن يحنطوه ويصبروه. ولما انقضت أيام التعزية به، استأذن يوسف فرعون بأن يبرح لدفن أبيه: عملاً بوصيته فاذن له وسار من مصر، وصحبه إخوته آل أبيه وحاشيته، ووجهاء مصر، وأتباع فرعون في موكب عظيم، إلى أن وصلوا أرض كنعان ودفنوه في المغارة - كما أوصى - ثم عاد بمن معه إلى مصر، ولم يزل يوسف يرعى إخوته بالإكرام والإحسان، إلى أن قرب أجله، فأوصاهم بأن ينقلوه معهم إذا عادوا إلى الأرض التي كتبها اللّه لآبائهم. ثم توفي يوسف، وهو ابن مائة وعشر سنين، فحنّطوه ، وجعلوه في تابوت بمصر.

هذا ما قصه قدماء المؤرخين، واللّه أعلم بالحقائق. وإنما لم يذكر هذا، القرآنُ الكريمُ، لأن القرآن لم يبْنَ على قانون التاريخ، فليس فيه شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار، وإنما هي الآيات والعبر، تجلت في سياق الوقائع، ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفاصيلها، وإنما يذكر موضع العبرة فيها، كما سيأتي الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَاب﴾ [يوسف:١١١]، وقوله: ﴿وكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنباءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠]، ومضى في المقدمة بسط هذا البحث، فراجعه. وسنذكر إن شاء اللّه في آخر السورة شيئاً من الحكم والعبر المقتبسة من نبأ يوسف، فانتظر.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ**﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف، البعيد درجةُ كماله في جميع ما لا يتناهى من المحاسن والأسرار حتى صار معجزاً. والخطاب لرسول اللّه ﷺ أي: هذا من أخبار الغيوب السابقة، نوحيه إليك، ونعلمك به، لما فيه من العبرة والاتعاظ.

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ**﴾ كالدليل على كونه نبأً غيبياً ووحياً سماوياً. أي: لم تعرف هذا النبأ إلا من جهة الوحي، لأنك لم

تحضر إخوة يوسف، حين أجمعوا أمرهم على إلقاء أخيهم في البئر، وهم يمكرون به، إذ حثوه على الخروج معهم، يبغون له الغوائل، وبأبيهم في استئذانه ليرسله معهم أي فلم تشاهدهم حتى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها.

قال أبو السعود: وليس المراد مجرد نفي حضوره عليه الصلاة والسلام في مشهد إجماعهم ومكرهم فقط، بل سائر المشاهد أيضاً. وإنما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة، وأخفى أحوالها كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ والخطاب – وإن كان لرسول الله ﷺ – لكن المراد إلزام المكذبين. والمعنى: ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، إذ لا سبيل إلى معرفتك إياه سوى ذلك، إذ عدم سماعك ذلك من الغير، وعدم مطالعتك للكتب أمر لايشك فيه المكذبون أيضاً، ولم تكن بين ظهرانيهم عند وقوع الأمر حتى تعرفه كما هو، فتبلغه إليهم. وفيه تهكم بالكفار، فكأنهم يشكّون في ذلك فيدفع شكهم. وفيه أيضاً إيذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع، وما ينقله أهل الكتاب ليس على ما هو عليه. يعني: أن مثل هذا التحقيق بلا وحي لا يتصور إلا بالحضور والمشاهدة، وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي. ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران:٤٤]، وقوله: ﴿وَماَ كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبيِّ إِذْ قضَيْنَا إلى مُوسى الأمْرَ﴾. انتهى.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ يريد به العموم، أو أهل مكة ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ أي جهدت كل الجهد على إيمانهم، وبالغت في إظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك، ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي بالكتب والرسل، لميلهم إلى الكفر، وسبيل الشر. يعني: قد وضح بمثل هذا النبأ نبوته صلوات الله عليه، وقامت الحجة ، ومع ذلك فما آمن أكثر الناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٨ – ٦٧ – ١٠٣ – ١٢١ – ١٣٩ – ١٥٨ – ١٧٤ – ١٩٠].

قال الرازي: ما معناه: وجه اتصال هذه الآية بما قبلها، أن كفار قريش، وجماعة من اليهود، طلبو من النبيّ عليه الصلاة والسلام قص نبأ يوسف تعنتاً، فكان

يُظَنُّ أنهم يؤمنون إذا تلي عليهم، فلما نزلت وأصرّوا على كفرهم، قيل له: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ الخ. وكأنه إشارة إلى ما ذكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦] .

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على هذا النصح، والدعاء إلى الخير والرشد، ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أي أجرة ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو، يعني القرآن، ﴿إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: عظة لهم، يتذكرون به ويهتدون وينجون في الدنيا والآخرة يعني: أن هذا القرآن يشتمل على العظة البالغة، والمراشد القويمة، وأنت لا تطلب في تلاوته عليهم مالاً، ولا جعلاً. فلو كانوا عقلاء لقبلوا، ولم يتمردوا.

قال بعض اليمانين: في الآية دليل علي أن من تصدّر للإرشاد، من تعليم ووعظ، فإن عليه اجتناب ما يمنع من قبول كلامه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ ءَايَةٍ فِي السَّموَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي: وكم من آية على وحدانية الخالق، وقدرته الباهرة، ونعوته الجليلة، في السموات: من كواكبها وأفلاكها. وفي الأرض: من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وقفار شاسعات، وحيوان ونبات، وثمار مختلفات، وأحياء، وأموات، يشاهدونها، ولايعتبرون بها.

قال الرازيّ: يعني أنه لا عجب إذا لم يتأملوا في الدلائل الدالة على نبوتك، فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد، والقدرة والحكمة ثم إنهم يمرون عليها، ولا يلتفتون إليها. واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة، لا بد وأن تكون من أمور محسوسة، وهي إما الأجرام الفلكية، وإما الأجرام العنصرية. أما الأجرام الفلكية فهي قسمان: أفلاك وكواكب أما الأفلاك، فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع. وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته، وقد يستدل بأحوال حركاتها، إما بسبب أن حركاتها مسبوقة بالعدم، فلا بد من محرك قادر، وإما بسبب كيفية حركاتها في سرعتها وبطئها، وإما بسبب اختلاف جهات

تلك الحركات وأما الأجرام الكوكبية: فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها وأحيازها وحركاتها، وتارة بألوانها وأضوائها، وتارة بتأثيراتها في حصول الأضواء والأظلال، والظلمات والنور.

وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام العنصرية: فإما أن تكون مأخوذة من بسائط، وهي عجائب البر والبحر، وإما من المواليد وهي أقسام:

أحدها ـ الآثار العلوية، كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح.

وثانيها ـ المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها.

ثالثها ـ النبات وخاصية الخشب والورق والتمر، واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص، وخاصية مخصوصة.

ورابعها ـ اختلاف أحوال الحيوانات في أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها.

وخامسها ـ تشريح أبدان الناس، وتشريح القوى الإنسانية، وبيان المنفعة الحاصلة فيها.

فهذه مجامع الدلائل.

ومن هذا الباب أيضاً قصص الأولين، وحكايات الأقدمين، وأن الملوك إذا استولوا على الأرض وخربوا البلاد، وقهروا العباد، ماتوا ولم يبق منهم في الدنيا خبر ولا أثر، ثم بقي الوزر والعقاب.

ولما كان العقل البشريّ لا يفي بالإحاطة بشرح دلائل العالم الأعلى والأسفل، ذكر في الكتاب العزيز مجملاً. انتهى.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: الناس، أو أهل مكة، ﴿بِاللَّهِ﴾ أي في إقرارهم بوجوده وخالقيته ﴿إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ أي: بعبادتهم لغيره، وباتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً، وبقولهم باتخاذه تعالى ولداً. سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

تنبيه:

كما تدل الآية على النعي عليهم بالشرك الأكبر، وهو أن يعبد مع الله غيره.

فإنها تشير إلى ما يتخلل الأفئدة وينغمس به الأكثرون من الشرك الخفيّ، الذي لا يشعر صاحبه به غالباً ومنه قول الحسن في هذه الآية: ذاك المنافق، يعمل إذا عمل رئاء الناس، وهو مشرك بعمله. يعني: الشرك في العبادة. فصاحبه، وإن اعتقد وحدانيته تعالى: – ولكن لايخلص له في عبوديته بل يعمل لحظ نفسه، أو طلب الدنيا، أو طلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق. فلله من عمله وسعيه نصيب، ولنفسه وحظه وهواه نصيب وللشيطان نصيب، وللخلق نصيب. وهذا حال أكثر الناس، وهو الشرك الذي قال فيه النبيّ ﷺ، فما رواه ابن حبان في صحيحه: الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل. فالرياء كله شرك، وهو محبط للعبادة، مبطل ثواب العمل، ويعاقب عليه إذا كان العمل واجباً. فإنه تعالى أمر بعبادته خالصة. قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥]، فمن لم يخلص لله في عبادته، لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المامور، فلا يقبل منه.

وروى مسلم [١] وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه.

وروى الإمام أحمد[٢] عن محمود بن لبيد، رفعه إلى النبيّ ﷺ: إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر! قالو: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء!

ومن الشرك نوع غير مغفور، وهوالشرك بالله في المحبة والتعظيم، بأن يحب مخلوقاً كما يحب الله. فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً..﴾ [البقرة:١٦٥] الآية، وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم، وقد جمعتهم الجحيم: ﴿تَاللّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ، إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧– ٩٨]، ومعلوم أنهم ما سوّوهم به سبحانه في الخلق والرزق، والإماتة والإحياء، والملك والقدرة، وإنما سوّوهم به في الحب والتألّه، والخضوع لهم والتذلل. وهذا غاية الجهل والظلم فكيف يسوّى من خلق من التراب، برب الأرباب؟ وكيف يسوّى العبيد بمالك الرقاب، وكيف يسوى الفقير بالذات، الضعيف بالذات، العاجز بالذات، المحتاج بالذات، الذي ليس له من ذاته إلا العدم، بالغنيّ بالذات، القادر بالذات، الذي غناه وقدرته وملكه ووجوده

(١) أخرجه مسلم في: الزهد والرقائق، حديث ٤٦.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥ /٤٢٨.

وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام، من لوازم ذاته؟ فأي ظلم أقبح من هذا وأي حكم أشد جوراً منه؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه، أفاده الشمس ابن القيّم في (الجواب الكافي).

قال الحافظ ابن كثير: وثَمّ شرك خفيّ لايشعر به غالباً فاعله، كما روي عن حذيفة أنه دخل على مريض، فرأى في عضده سيراً فقطعه، ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ باللهِ إلاَّ وَهُم مُشْرِكُونَ﴾.

وفي الحديث[1]: من حلف بغير اللّه فقد أشرك – رواه الترمذيّ عن ابن عمر وحسّنه. وفي الحديث الذي رواه أحمد[2] وأبو داود[3] وغيرهما عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه ﷺ: إن الرقي والتمائم والتِّوَلَةَ شرك. ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا عن زينب امرأة عبد اللّهِ قالت: كان عبد اللّه إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب، تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه؟ قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح، وعندي عجوز ترقيني من الحمرة، فأدخلتها تحت السرير. قالت: فدخل فجلس إلى جانبي، فرأى في عنقي خيطاً، فقال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيط رقي لي فيه! فأخذه فقطعه، ثم قال: إن آل عبد اللّه لأغنياء عن الشرك. سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: إن الرقي والتمائم والتِّوَلَةَ شرك. قالت: قلت له: لم تقول هذا، وقد كانت عيني تفرق، فكنت أختلف إلى فلان اليهوديّ يرقيها، فكان إذا رقاها سكنت؟! فقال: إنما ذاك من الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقاها كفّ عنها، كان يكفيك أن تقولي كما قال النبي ﷺ أذهبِ الباسْ، ربَّ الناسْ، اشف وأنت الشافي. لاشفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً.

وروى الإمام أحمد[4] عن عقبة بن عامر قال: قال رسول اللّهِ ﷺ: من علق تميمة فقد أشرك!

وأخرج أيضاً[5] عن عبد اللّه بن عمرو قال: قال رسول اللّهِ ﷺ: من ردته الطِّيَرَةُ عن حاجته فقد أشرك.

---

(١) أخرجه الترمذيّ في: النذور والإيمان، ٩ – باب حدثنا قتيبة، حدثنا أبو خالد الأحمر.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١ / ٣٨١ والحديث رقم ٣٦١٥.

(٣) أخرجه أبو داود في: الطب، ١٧ – باب في تعليق التمائم، حديث رقم ٣٨٨٣.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤ / ١٥٦.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢ / ٢٢٠ والحديث رقم ٧٠٤٥.

وبما ذكر يعلم أن لفظ الآية يتناول كل ما يصدق عليه مسمى الإيمان. مع وجود مسمى الشرك فأهل الشرك الأكبر ما يؤمن أكثرهم بأن اللّه هو الخالق إلا وهو مشرك به، بما يتخذه من الشفعاء، وما يعبده من الأصنام. وكذا أهل الشرك الأصغر من المسلمين، كالرياء مثلاً، ما يؤمن أحدهم باللّه إلا وهو مشرك به، بذلك الشرك الخفيّ. وعلى هذا، فالشرك يجامع الإيمان، فإن الموصوف بهما مما تقدم، مؤمن فيما آمن به، ومشرك فيما أشرك به والتسمية في الشريعة للّه عزَّ وجلَّ ولرسوله، فلهما أن يوقعا أي اسم شاءا على أي مسمى شاءا. فكما أن الإيمان في اللغة التصديق، ثم أوقعه اللّه عزَّ وجلَّ في الشريعة على جميع الطاعات، واجتناب المعاصي، إذا قُصد بكل ذلك، من عمل أو ترك، وجهُ اللّه تعالى كذلك الشرك نقل عن شرك شيء مع آخر مطلقاً، إلى الشرك في عبادته تعالى، وفي خصائص ربوبيته.

قال ابن القيم:

حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق، والتشبه للمخلوق به، فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية؛ فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع، والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء، والخوف والرجاء، والتوكل به وحده. فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولاحياة ولا نشوراً، فضلاً عن غيره، مشبهاً بمن له الأمر كله، جل وعلا. فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات، بالقادر الغنيّ بالذات. ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لانقص فيه بوجه من الوجوه. وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل، مع غاية الحب، كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة، أن يكون له وحده. ويمنع عقلاً وشرعاً وفطرةً أن يكون لغيره. فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير، بمن لا شبيه له، ولا ندّ له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولشدة قبحه، وتضمنه غاية الظلم، أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره. مع أنه كتب على نفسه الرحمة، ومن خصائص الإلهية العبودية التي قامت على ساقين، لا قوام لها بدونهما: غاية الحب، مع غاية الذل. هذا تمام العبودية. وتفاوتُ منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين. فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير اللّه، فقد شبهه به في خالص حقه، وهذا من المحال أن تأتي به شريعة من الشرائع، وقبحُه مستقر في كل فطرة وعقل. ولكن غيرت الشياطين فطر أكثرالخلق وعقولهم، وأفسدتها عليهم، ومضى على الفطرة من سبقت له من اللّه

الحسنى. إذا عرف هذا فمن خصائص الإلهية السجود. فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به. ومنها التوكل، فمن توكل على غيره فقد شبهه به، ومنها التوبة، فمن تاب لغيره فقد شبهه به. ومنها الحلف باسمه تعظيماً وإجلالاً. فمن حلف بغيره فقد شبهه به. هذا في جانب التشبيه. وأما في جانب التشبه به، فمن تعاظم وتكبر، ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم، والخضوع، والرجاء، وتعليق القلب به؛ خوفاً، ورجاءً، والتجاء، واستعانة، فقد تشبه به، ونازعه في ربوبيته وإلهيته، وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان، ويذله غاية الذل.

وفي الصحيح[1] عنه ﷺ قال: يقول اللّهُ عزَّ وجلَّ: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي،فمن نازعني واحداً منهما عذبته. وكذلك من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا للّه وحده، كملك الأملاك، وحاكم الحكام، ونحوه.

وفي الصحيح[2] عنه ﷺ. أغيظ رجل على اللّه رجل يسمى ملك الأملاك، لا مَلِكَ إلاّ اللّه.

فهذا غضب اللّه على من تشبه في الاسم، الذي لا ينبغي إلا له، فهو سبحانه ملك الملوك وحده يحكم عليهم كلهم، ويقضي عليهم، لا غيره.

وتتمة هذا البحث في (الجواب الكافي) لابن القيّم، فانظره.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

﴿**أفأمنوا**﴾ أي هؤلاء المشركون ﴿**أنْ تَأتيهُمْ غاشيةٌ مِّنْ عذابِ اللّه**﴾ أي: عقوبة تنبسط عليهم وتغمرهم ﴿**أوْ تأتِيهُمُ السَّاعةُ بغْتَةً**﴾ أي فجاة ﴿**وَهُمْ لايَشْعُرُونَ**﴾ أي: بإتيانها وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ في تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ

(١) أخرجه مسلم في: البرّ والصلة والآداب، حديث رقم ١٣٦.

(٢) أخرجه البخاريّ في: الأدب، ١١٤ - باب أبغض الأسماء إلى الله، حديث رقم ٢٣٦٧، عن أبي هريرة.
ومسلم في: الآداب، حديث رقمي ٢٠ و ٢١.

بِمُعجزِينَ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّف فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥ – ٤٦ – ٤٧]، وقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ، أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ، أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧ – ٩٨ – ٩٩].

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي**﴾ أي هذه السبيل، التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد، سبيلي، أي طريقي ومسلكي وسنتي. والسبيل والطريق يذكَّران ويؤنَّثان. ثم فسر سبيله: بقوله: ﴿**أَدْعُو إِلَى اللَّهِ**﴾ أي: إلى دينه وتوحيده، ومعرفته بصفات كماله، ونعوت جلاله ﴿**عَلَى بَصِيرَةٍ**﴾ أي: مع حجة واضحة، غير عمياء. ﴿**أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ أي: آمن بي، يدعون إلى الله أيضاً على بصيرة، لا على هوى. ﴿**وَسُبْحَانَ اللَّهِ**﴾ أي: وأنزهه وأجله وأقدسه عن أن يكون له شريك؛ أو ندّ أو كفءٌ أو ولد أو صاحبة، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً. ﴿**وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ أي: على دينهم.

تنبيهات:

الأول ـ قال السمين ﴿**أَدْعُو إِلَى اللَّهِ**﴾ يجوز أن يكون مستأنفاً، وهو الظاهر، وأن يكون حالاً من الياء. و﴿**عَلَى بَصِيرَةٍ**﴾ حال من فاعل ﴿**أَدْعُو**﴾ أي: أدعو كائناً على بصيرة وقوله: ﴿**وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ عطف على فاعل ﴿**أَدْعُو**﴾ ولذلك أكد بالضمير المنفصل. ويجوز أن يكون مبتدأ، والخبر محذوف. أي: ومن اتبعني يدعو أيضاً ويجوز أن يكون ﴿**عَلَى بَصِيرَةٍ**﴾ خبراً مقدماً، و﴿**أَنَا**﴾ مبتدأ مؤخراً و﴿**مَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ عطف عليه ومفعول ﴿**أَدْعُو**﴾ إما منويّ، أي الناس، أو منسي.

الثاني – دل قوله تعالى: ﴿**عَلَى بَصِيرَةٍ**﴾ على مزية هذا الدين الحنيف، ونهجه الذي انفرد به، وهو أنه لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته، ولكنه ادعى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين، وكرّ عليها بالحجة، وخاطب العقل، واستنهض الفكر، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام والإتقان، على أنظار العقول، وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه – انظر (رسالة التوحيد) في تتمة ذلك.

الثالث – دلت الآية على أن سيرة أتباعه ﷺ، الدعوة إلى الله.

قال الرازي: كل من ذكر الحجة، وأجاب عن الشبهة، فقد دعا بمقدار وسعه إلى الله. وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط: وأن يكون على بصيرة مما يقول، وعلى هدى ويقين، فإن لم يكن كذلك، فهو محض الغرور. انتهى.

ولا يخفى أن الدعوة إلى الله إنما هي بنشر مطالب الدين، وإذاعة آدابه وتعليمه.

قال بعضهم: ينبغي للعالم أن يكون حديثه مع العامة، في حال مخالطته ومجالسته لهم، في بيان الواجبات والمحرمات، ونوافل الطاعات، وذكر الثواب والعقاب، على الإحسان والإساءة. ويكون كلامه معهم بعبارة قريبة واضحة يعرفونها ويفهمونها. ويزيد بياناً للأمور التي يعلم أنهم ملابسون لها ولا يسكت حتى يسأل عن شيء من العلم، وهو يعلم أنهم محتاجون إليه، ومضطرون إليه، فإن علمه بذلك سؤال منهم بلسان الحال، والعامة قد غلب عليهم التساهل بأمر الدين ،علماً وعملاً، فلا ينبغي للعلماء أن يساعدوهم على ذلك بالسكوت عن تعليمهم وإرشادهم، فيعمّ الهلاك، ويعظم البلاء. وقلما تختبر عامياً – وأكثر الناس عامة – إلا وجدته جاهلاً بالواجبات والمحرمات، وبأمور الدين التي لا يجوز ولا يسوغ الجهل بشيء منها. وإن لم يوجد جاهلاً بالكل، وجد جاهلاً بالبعض. وإن علم شيئاً من ذلك ، وجدت علمه به علماً مسموعاً من ألسنة الناس، لو أردت أن تقلبه له جهلاً فعلت ذلك بأيسر مؤونة، لعدم الأصل والصحة فيما يعلمه. وعلى الجملة، فيتأكد على العلماء أن يجالسوا الناس بالعلم، ويحدثوهم به، ويبثوه لهم، ويكون كلام العالم معهم في بيان الأمر الذي جاؤوا من أجله. مثل ما إذا جاؤوا لعقد نكاح، يكون كلامه معهم فيما يتعلق بحقوق النساء من الصداق والنفقة والمعاشرة بالمعروف. أو لعقد بيع، يكون كلامه في صحيح البيوع وآدابها، وفوائد التجارة النافعة، واجتناب الغش والخداع وهكذا. ولا ينبغي للعالم أن يخوض مع الخائضين، ولا أن يصرف شيئاً من أوقاته في غير إقامة الدين. وبالسكوت عن التذكير والتعليم، يغلب الفساد، ويعم الضرر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى** ﴾ أي لا ملائكة من أهل السماء. ردّ لقول المشركين: ﴿ لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً ﴾ [فصلت: ١٤]، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَ يأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨]. وقوله: ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٩] الآية.

واحتج بقوله تعالى: ﴿ **إِلاَّ رِجَالاً** ﴾ على أنه لم ينتظم في سلك النبوّة امرأة.

والقرى: جمع قرية، وهي على ما في (القاموس): المصر الجامع، وفي (كفاية المتحفظ): القرية كل مكان اتصلت به الأبنية، واتخذ قراراً، وتقع على المدن وغيرهما. انتهى.

قال ابن كثير: والمراد بالقرى هنا المدن. أي: لا أنهم من أهل البوادي الذين هم أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً. وهذا هو المعهود المعروف: أن أهل المدن أرقّ طباعاً، وألطف من أهل بواديهم. وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي. ولهذا قال تعالى: ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً... ﴾ الآية [التوبة: ٩٧].

قال قتادة: إنما كانوا من أهل القرى لأنهم أعلم وأحلم من أهل العُمور.

وقوله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا** ﴾ أي: هؤلاء المكذّبون، ﴿ **فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا** ﴾ أي نظر تفكُّر. ﴿ **كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** ﴾ أي: من الأمم المكذّبة. كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيروا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا... ﴾ الآية [الحج: ٤٦]، فإذا استمعوا خبر ذلك، رأوا أن الله أهلك الكافرين، ونجى المؤمنين. وهذه كانت سنته تعالى في خلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا** ﴾ أي: الشرك والفواحش، وآمنوا بالله ورسله وكتبه.

قال ابن كثير: أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا، كذلك كتبنا لهم النجاة في

الدار الآخرة، وهي خير لهم من الدنيا. كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أي تستعملون عقولكم، فتعلموا أن الآخرة خير، أو تعلموا كيف عاقبة أولئك.

ثم بيّن تعالى أن العاقبة لرسله، وأن نصره يأتيهم إذا تمادى تكذيبهم، تثبيتاً لفؤاده ﷺ، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ أي: من إجابة قومهم، ﴿وَظَنُّوا﴾ أي: علموا وتيقنوا. يعني: الرسل. ﴿أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ يقرأ ﴿كُذِّبُوا﴾ بضم الكاف وتشديد الذال. أي: كذبهم قومهم بما جاؤوا به، لطول البلاء عليهم. ويقرأ بضم الكاف وتخفيف الذال. فالضمير في ﴿ظَنُّوا﴾ – على ما اختاروه – للقوم. أي: ظنوا أن الرسل قد كذبوا. أي: ما وعدوا به من النصر.

وروي عن ابن عباس أن الضمير للرسل. أي: وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر، وقال: كانوا بشراً، وتلا قوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقد استشكلوه على ابن عباس، وتأوّلوا لكلامه وجوهاً:

قال الزمخشري: أراد بالظن ما يخطر بالبال، ويهجس في القلب، من شبه الوسوسة، وحديث النفس، على ما عليه البشرية. انتهى.

وقيل: المراد بظنهم عليهم السلام ذلك، المبالغة في التراخي والإمهال، على طريق الاستعارة التمثيلية، بأن شبه المبالغة في التراخي بظن الكذب، باعتبار استلزام كل منهما، لعدم ترتب المطلوب، فاستعمل ما لأحدهما للآخر.

وقال الخطابي: لا شك أن ابن عباس لا يجيز على الرسل أنها تُكْذَبُ بالوحي، ولا تشك في صدق المخبر، فيحمل كلامه على أنه أراد أنهم، لطول البلاء عليهم، وإبطاء النصر وشدة استنجاز ما وعدوا به – توهموا أن الذي جاءهم من الوحي كان

حسباناً من أنفسهم، وظنوا عليها الغلط في تلقي ما ورد عليهم من ذلك، فيكون الذي بني له الفعل أنفسهم، لا الآتي بالوحي. والمراد بـ(الكذب) : الغلط، لا حقيقة الكذب، كما يقول القائل: كذبتك نفسك.

قال الحافظ ابن حجر: ويؤيده قراءة مجاهد ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا﴾ بفتح أوله مع التخفيف أي: غلطوا. ويكون فاعل (وظنوا) الرسل.

وقال أبو نصر القشيري: ولا يبعد أن المراد خطر بقلب الرسل، فصرفوه عن أنفسهم. أو المعنى: قربوا من الظن، كما يقال: بلغت المنزل، إذا قربت منه.

وقال الترمذي الحكيم: وجهه: أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم اللّه النصر، أن يتخلف النصر، لا من تهمة بوعد اللّه، بل لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدثاً ينقض ذلك الشرط، فكان الأمر إذا طال، واشتد البلاء عليهم، دخلهم الظن من هذه الجهة.

وحكى الواحدي عن ابن الأنباري أنه قال: ما روي عن ابن عباس غير معوّل عليه، وأنه ليس من كلامه، بل تؤُوِّل عليه.

قال ابن حجر: وعجبٌ لابن الأنباري في جزمه بأنه لا يصح ثم للزمخشري في توقفه عن صحة ذلك عن ابن عباس، فإنه صح عنه، أي: فرواه البخاريّ[١] في تفسير البقرة بلفظ: ذَهَبَ بها هناك، وأشار إلى السماء، وزاد الإسماعيلي عنه: كانوا بشراً ضعفوا وأيسوا وظنوا أنهم قد كذبوا.

وروى البخاري[٢] أن عائشة كانت تقرأ (كذّبوا) مشددة، وتتأوّلها على المعنى الأول، وأن عروة قال لها: لعلها (كذبوا) مخففة، فقالت: معاذ اللّه!

قال الحافظ ابن حجر: وهذا ظاهر في أنها أنكرت القراءة بالتخفيف، ولعلها لم تبلغها ممن يرجع إليه في ذلك، وقد قرأها بالتخفيف أئمة الكوفة من القرّاء: عاصم ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي. ووافقهم من الحجازيين أبو جعفر بن القعقاع، وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبي عبد الرحمن السلميّ، والحسن

---

(١) أخرجه البخاريّ في: التفسير، ٢ - سورة البقرة، ٣٨ - باب ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾، حديث رقم ١٩٧٥، عن ابن عباس.

(٢) أخرجه البخاريّ في: التفسير، ٢ - سورة البقرة، ٣٨ - باب ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾، حديث رقم ١٥٩٨، عن عائشة.

البصري ومحمد بن كعب القرظي في آخرين.

وقوله تعالى: ﴿فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ وهم الرسل والمؤمنون بهم. وقرئ (فننجي) بالتخفيف والتشديد. وقرئ (فنجا)

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: إذا نزل بهم.

وفيه بيان من شاء الله نجاتهم، لأنه يعلم من المقابلة أنهم من ليسوا بمجرمين. وهم من تقدم.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ الضمير ليوسف وإخوته، أو للأنبياء وأممهم. ورجّح الزمخشري الثاني بقراءة (قِصصهم) بكسر القاف، جمع قصة. والمفتوح مصدر بمعنى المفعول. وأجيب بأن قصة يوسف وأبيه وإخوته مشتملة على قصص وأخبار مختلفة، وقد يطلق الجمع على الواحد، كما مرّ في ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ وسنذكر وجوه العبر منها بعونه تعالى.

﴿مَا كَانَ﴾ أي: القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة ﴿حَدِيثاً يُفْتَرَى﴾ أي: يختلق. ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المنزلة، فهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير.

قال بعض المحققين: المراد به أن قصص القرآن ليست مخترعة ولا مفتراة، بدليل وجود أمثالها بين الناس، قبل نزوله. فهي وإن اختلفت قليلاً في بعض التفاصيل والجزئيات، عما يرويه الناس، إلا أن توافقها في الجملة، وتصدقها في الجوهر فلا تظنوا أيها المشركون أن النبي اخترعها بعقله، بل اسألوا عنها أهل الكتاب، تجدوا أنها معروفة بينهم، ومروية في كتبهم، فوجود قصص القرآن عند الناس من قبل، من أعظم ما يصدقه ويؤيده، لأن النبيّ صلوات اللّه عليه، لم يطلع على كتب أهل الكتاب. ولا يتوهم من هذه الآية أن قصص القرآن يجب الا تختلف عن قصص

التوراة والإنجيل في شيء ما، كلا إذ لو صح هذا لما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل:٧٦]، فقصصه قد تختلف عما عندهم، وتبين لهم حقه من باطله. فلا منافاة بين تصديق القرآن لقصصهم في الجملة، ومخالفته لها في بعض الجزئيات - كما قلنا - ويجوز أن يكون المراد بقوله: ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تصديق الحق الذي عندهم، لا كلّ الذي عندهم، وإلا لدخل في ذلك عقائدهم الفاسدة، وأوهامهم وخرافاتهم وغيرها، مما جاء القرآن لإزالته ومحقه، ويستحيل أن يكون مصدقاً لما جاء لإبطاله. فتنبه لذلك. ولا تكن من الغافلين. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي. تبيان كل ما يحتاج إليه من أحكام الحلال والحرام، والآداب والأخلاق، ووجوه العبر والعظات، ولذا كان أعظم ما تنقذ به القلوب من الغيّ إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد. وتبتغي به الرحمة من رب العباد، كما قال تعالى: ﴿وَهُدًى﴾ أي: من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: من العذاب ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدقون به، ويعملون بأوامره، فإن الإيمان قول وعَقْدٌ وعمل. وخصهم لأنهم المنتفعون به.

خاتمة في مباحث مهمة:

الأول - فيما قيل في وجوه العبر في هذا القصص.

قال في (اللباب): الاعتبار والعبرة: الحالة التي يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد. والمراد منه التأمل والتفكر. ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إخراج يوسف من الجبّ بعد إلقائه فيه، وإخراجه من السجن، وتمليكه مصر بعد العبودية. وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة، واليأس من الاجتماع، قادر على إعزاز محمد ﷺ وإعلاء كلمته، وإظهار دينه. وأن الإخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الإخبار عن الغيوب،فكانت معجزة له ﷺ.

وقال بعضهم: إن قصة يوسف الصديق، جمة الفائدة؛ وجليلة العائدة، تحدو بكل امرئ أبيّ إلى الاقتداء بها. فإن من أطلق سَوامَ الفكر في حياة يوسف عليه السلام رآها رغيدة، وألفاها هنيئة، وما ذلك إلا لطيب سيرته، وحميد سريرته، وتمسكه بعرى التقوى والفضيلة، ولاسيّما فضيلة العفة والطهارة، التي ترفع قدر صاحبها، وتنزله المنزلة السامية. فعلى المرء أن يقتفي أثر هذه الفضيلة الجليلة، كيوسف، فيتسنم ذروة المجد في هذه الدنيا، وينال السعادة الدائمة في الآخرة. انتهى.

قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: هذه السورة من جملة ما قص على النبيّ، صلوات الله عليه، من أنباء الرسل، وأخبار من تقدمه، مما فيه التثبت المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ..﴾ [هود:١٢٠] الآية. وإنما أفردت على حدتها، ولم تنسق على قصص الرسل، مع أنهم في سورة واحدة، لمفارقة مضمونها تلك القصص. الا ترى ان تلك قصص إرسال من تقدم ذكرهم عليهم السلام، وكيفية تلقي قومهم لهم، وإهلاك مكذبيهم؟ أما هذه القصة. فحاصلها: فرج بعد شدة، وتعريف بحسن عاقبة الصبر؛ فإنه تعالى امتحن يعقوب عليه السلام بفقد ابنيه وبصره، وشتات بنيه. وامتحن يوسف عليه السلام بالجبّ والبيع وامرأة العزيز وفقد الأب والإخوة والسجن. ثم امتحن جميعهم بشمول الضّر، وقلة ذات اليد ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ..﴾ [يوسف:٨٨] الآية. ثم تداركهم اللهّ بإلفهم ، وجمع شملهم، وردّ بصر أبيهم، وائتلاف قلوبهم، ورفع ما نزغ به الشيطان وخلاص يوسف عليه السلام، وبكيد من كاده ، واكتنافه بالعصمة، وبراءته عند الملك والنسوة، وكل ذلك مما أعقبه جميل الصبر، وجلالة اليقين، وحسن تلقي الأقدار بالتفويض والتسليم، على توالي الامتحان، وطول المدة. ثم انجرّ في أثناء هذه القصة الجليلة إنابة امرأة العزيز، ورجوعها إلى الحق، وشهادتها ليوسف عليه السلام، بما منحه الله من النزاهة عن كل ما يشين. ثم استخلاص العزيز إياه. إلى ما انجرّ في هذه القصة الجليلة من العجائب والعبر، فقد انفردت هذه القصة بنفسها، ولم تناسب ما ذكر من قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام، وما جرى في أممهم، فلهذا فصلت عنهم. وقد أشار في سورة برأسها إلى عاقبة من صبر ورضي وسلم ليتنبه المؤمنون إلى ما في طيّ ذلك. وقد صرح لهم ما أجملته هذه السورة من الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ...﴾ [النور:٥٥] إلى قوله: ﴿أَمْناً﴾ وكانت قصة يوسف عليه السلام بجملتها أشبه شيء بحال المؤمنين في مكابدتهم في أول الأمر، وهجرهم، وتشققهم مع قومهم، وقلة ذات أيديهم، إلى أن جمع الله شملهم: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾ [آل عمران:١٠٣]، وأورثهم الأرض، وأيدهم ونصرهم، وذلك بجليل إيمانهم وعظيم صبرهم، فهذا ما أوجب تجرد هذه القصة عن تلك القصص – والله أعلم –.

ثم إن حال يعقوب ويوسف عليهما السلام، في صبرهما، ورؤية حسن عاقبة الصبر في الدنيا، ما أعدّ لهما من عظيم الثواب، أنسب بحال نبينا عليه السلام في

مكابدة قريش، ومفارقة وطنه، ثم تعقيب ذلك بظفره بعدوّه، وإعزاز دينه، وإظهار كلمته، ورجوعه إلى بلده، على حالة قرّت بها عيون المؤمنين، وما فتح اللّه عليه وعلى أصحابه. فتأمّل ذلك! ويوضحه ختم السورة بقوله: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ...﴾. فحاصل هذا كله الأمر بالصبر، وحسن عاقبة أولياء اللّه فيه - كذا في تفسير البرهان للبقاعي ملخصاً -

وجاء في كتاب (النظام والإسلام) في بحث التربية والآداب في قصص القرآن ما مثاله:

طال الأمر على أمتنا، فأهملت ما في غضون كتابها من أساس التربية والحكمة، وكيف تنتقى الرجال الأكفاء في مهام الأعمال. يا ليت شعري! ما الذي أصابها حتى غضت النظر عن القصص التي قصها، وأهملت أمرها، وظن أهلها أنها أمور تاريخية لا تفيد إلا المؤرخين. القصص في كل أمة، عليها مدار ارتقائها، سواء كانت وضعية أم حقيقية، على ألسنة الحيوان أو الإنسان أو الجماد. على هذا تبحث الأمم، قديمها وحديثها. وناهيك بكتاب (كليلة ودمنة) وما والاه من القصص الناسجة على منواله في الإسلام، ككتاب (فاكهة الخلفاء) و(مقامات الحريري). جاء القرآن بقصص الأنبياء، وهي - لا جرم. أعلى منالاً، وأشرف مزية. كيف لا وقد جمعت أحسن الأسلوب، واختيار المقامات المناسبة لما سيقت إليه، والقدوة الحسنة للكمّل المخلصين من الأنبياء ومن والاهم، وتحققها في أنفسها، لوقوع مواردها، وإن حب التشبه طبيعة مرتكزة في الإنسان، لاسيما لمن يقتدي بهم. فهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص، ونقصت في سواها. أليس من العيب الفاضح أن نقرأ قصص القرآن، فلا نكاد نفهم إلا حكايات ذهبت مع الزمان، ومرت كأمس الدابر؟! وما لنا ولها إذن؟! تاللّه إن هذا لهو البوار! ولم يكن هذا إلا للجهل بالمقصود من قصصها، وأنها عبرة لمن اعتبر، وتذكرة لمن تفكر، وتبصرة لمن ازدجر. أما الرجوع إلى التاريخ، ومقارنته بما قصه المؤرخون في كتبهم، وما سطره الأقدمون على مباينتهم، وما يقوله القاصّون في خرافتهم، فتلك سبيل حائد عن الجادّة، يضلّ فيه الماهرون. يرشدك لذلك ما تسمعه من نبأ فتية الكهف، وكيف يقول: ﴿سَيَقُولُونَ ثلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ. وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّ أَعْلَم بِعدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [الكهف:٢٢] فانظر كيف أسند العلم للّه، ولم يعوّل على قول المؤرخين المختلفين ثم لم يبيّن الحقيقة؛ لئلا يكون ذريعة للطعن في التنزيل. فإن قال: خمسة، قالوا: ستة؛ وإن قال: أربعة،

قالوا سبعة. فكتب المؤرخين كثيرة الاختلاف في القصص وما المقصود منها إلا ليكون عبرة. وبالإجمال: فليس القصد من هذه القصص إلا منافعها، والعبر المبصرة للسامعين ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

ولسنا ممن يتبجح بالقول بلا بيان، فلا نعتمد إلا على البرهان. تأمّل هذا القصص، تجده لا يذكر إلا ما يناسب الإرشاد والنصح، ويعرض عن كثير من الوقائع، إذ لا لزوم له، ولا معوّل عليها. فلا ترى قصة إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق، وحجج عقلية، وتبصرة وتذكرة، ومحاورات جميلة تلذّ العقلاء. ولأقتصر من تلك القصص على ما حكاه عن يوسف الصدّيق عليه السلام، وكيف جاوز فيها كل ما لا علاقة له بالأخلاق، من مدنية المصريين وأحوالهم، إلى الخلاصة والثمرة. ألا ترى كيف صدرت بحديث سجود الشمس والقمر والكواكب له في الرؤيا، دلالة على أن للطفل استعداداً يظهر على ملامحه، وأقواله وأفعاله ورؤياه؟ وهذا أعظم شيء اعتنى به قدماء الحكماء، من اليونان والفرس، كما ذكره المؤرخون وعلماء الأخلاق: كانوا يختبرون أبناءَهم، ويتأمّلون ملامحهم، ليعرفوا ما استعدوا له من الصناعات والرئاسات والعلوم. ثم تأمل في قصة الإخوة، وحديث القميص والجبّ والذئب والدم، لتعلم ما نشاهده كلّ يومٍ من معاداة الأقران لمن ظهرت مبادئ الجمال النفسي، والخلق المرضي، والجلال الظاهر على ملامحه. فيعيبونه بما يشينه في نفسه أو عرضه أو خلقه، دلالة على أن هذه سنّة في الكون لا تغادر نبيّاً، ولا حكيماً، ولا عالماً مهما حسنت أخلاقه وجمل ظاهره وباطنه ...!

كلّ العداوات قد تُرجى إزالتها إلاّ عداوة من عاداك من حسد

جرت تلك السنّة في الأناسي: فإذا صبر الصالح فاز بالولاية عليهم، وأحبّوه بعد العداوة ولو بعد حين، وعادوا من آذاه! ثم انظر فيَ حديث قصة امرأة العزيز، وكيف عفّ مع الشباب، وكيف ساس نفسه وصدق ظن مولاه في الأمانة، وأرضى إلهه، واتّسم بالفضيلة، فَتَوَازَى جماله الباطني والظاهري..! ولنَكتفِ بهذا القدرالآن، ولنشرع في الكلام على الآداب والأخلاق وتربية الأمراء والعفو والصفح، التي تضمّنتها تلك القصّة!

فأما علم الأخلاق، وتربية رؤساء الأمم منها، فتأمل في كلام الحكماء – أولهم وآخرهم – تجد اجماعهم على أنّ سياسة أخلاق النفس أوّلاً فالمنزل فالمدينة كل واحدة مقدمة للاحقتها ثمرة لسابقتها؛ إذ لا يعقل أن يسوس منزله من لم يسس نفسه، أو يسوسَ أمته من لم يدبر إدارة منزله!

بايع الصحابة – عليهم رضوان اللّه – الخليفة الأول، فأخذ قماشاً وذراعاً وذهب إلى السوق في الغداة، فاستاء الـ ـابة ولاموه فقال: إذا أضعت أهلي، فأنا للمسلمين أَضْيَعُ ! ففرضوا له دريهمات من بيت المال، فقال: إذن أنظر في شؤونكم! لذلك، نجد الغربيين – إذا ولّوا رجلاً إدارة بلادهم – أكثروا السؤال عن قرينته وإدارة منزله، علماً منهم أن منزله أقرب إليه من الأمة.

فانظر هذه الحقائق من سيرة النبيّ يوسف الصدّيق كيف ذكرت في الكتب السماوية، ورتبت في القرآن ترتيباً محكماً، ذكرت فيها السياسات الثلاث مرتبة هكذا: النفس فالمنزل فالمدينة، ترتيباً طبيعياً، تنبيهاً لبني الإسلام على معرفة هذا العلم وانتقائهم الأكفاء للأعمال العامة. فأشير فيها لتربية الأخلاق الفاضلة بالعفة في عنفوان الشباب مع الصديق. وليت شعري! كيف حفَظَ أخلاق آبائه وقومه والأنبياء في وسط مدنية المصريين وزخرفهم وجمالهم، وعَبَد اللَّهَ وحده، ونسي ما يراه من أبي الهول وأبيس والأرباب المتفرقة...؟! يذكر هذا تبصرة لمن أحاطت بهم أمواج الحدثان من كلّ جانب، أن يحافظوا على أصول دينهم وقواعده،ثم ليفعلوا مايشاءون في أمور دنياهم ..!

ظهر صدق يوسف في أخلاقه الشخصية، فلم يكن ذلك كافياً لإدارة أموره العامة، فأودع السجن وأحيط بالأحداث والجهلة من كلّ جانب، فأخذ يسوسهم كما يسوس الرجل أهل منزله، وبثّ عقيدته بينهم، ظاهراً بمظهر الكمال والإحسان والعطف عليهم: ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِه...﴾ [يوسف: ٣٧] الآية. وأخذ يقص عليهم سيرة أسلافه، وحبّه لمذهبهم، وبغضه لأصنام المصريين، ونحوهم، فقال: ﴿إني تَرَكْتُ مِلَّة قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللّه..﴾ [يوسف:٣٧] الآية. ثم أخذ يذكّرهم أنّ تفرّق وجهة الأمة ضلال في السياسة، وأنّ توحيد وجهتها كياسة فيها، فقال: ﴿يا صَاحِبيَ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُون خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، فتفريق الوجهة شتات الجامعة. لم تَسُدْ أمة في الوجود إلا برجالٍ يوحّدون وجهتها أياً كانت فيؤمّون مقصداً واحداً! والتفصيل لا يخفى على أولي الألباب..!

وفي (آراء أهل المدينة الفاضلة) للفارابي اثنتا عشرة جامعة بكلٍ منهن قوم اتحدت بها: كاللغة، والوطن، والدين، والأخلاق،والجنس، والحكيم المرشد، والأب الأكبر ونحو ذلك مما امتازت به أمة أو جماعة.

ولما تمّ له، عليه السلام، الأمران – سياسة النفس والعشيرة – أخرج من

السجن معظماً مبجلاً وترقى من تعليم الصعلوك في السجن إلى تعليم الملوك على العروش، وأخذ يربهم كيف يقتصدون الأموال، وعبّر لهم السنبلات الخضر واليابسات والبقرات السمان والعجاف، وأرشدهم إلى خزن البرُ وسنابله لئلا يفسد، وغير ذلك من الأمور العامة. وهذه هي المرتبة الثالثة سياسة الأمة بأجمعها بعد قطع تينك العقبتين.

والبراعة والكياسة في علوم العمران، وتدبير أمر الأمة، إمّا بوحيٍ وهذا خاصٌ به وبأمثاله من الأنبياء عليهم السلام، وإمّا بتعليمٍ وتدريب وهو اللائق بسائر الناس.

ترشد هذه السيرة الشريفة إلى أن الأخلاق الفاضلة ما تثبت عليها النفس مع الحقير والعظيم والصغير والكبير، وأن الإنسان لا يستحقر تعليم الأصاغر، فإنه لا بدّ يوماً ما أن يصل إلى الأكابر، كما في حديث هرقل(١) مع أبي سفيان، وتعليم الصدّيق من في السجن. فبلغ صاحب السجن فرعون المصريين.

ابتلي هذا النبيّ بالسراء والضراء فلم تتغير أخلاقه، وكان نموذج الكمال في سعة بيت الملك والجلال، وموضع الثقة في ضيق قبر السجن وعشرة الأسافل التي تتغير بها الأخلاق، وتنسى بها أصول الأعراق، وتنزل الكامل من عروش الفضيلة إلى أسفل مقاعد الرذيلة، ومن أوج الكمال إلى حضيض النقص!

وهذه قصة يوسف - الذي تربى في مصر ونشأ فيها ولم تبهجه زخارف تلك المدنية إلى الرذيلة - جاءت عبرة للناس كافة وإلى المصريين خاصة! بهذه الأخلاق اعتلى يوسف عرش العظمة والجلال فساس مصر بعد أن كان مسوساً، وملك بعد أن كان مملوكاً! ليس الجزاء على الأخلاق والكمال خاصاً بالآخرة، بل في الدارين: ﴿ وكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ في الأرْضِ يَتَبَوَّأُ منْهَا حَيْثُ يَشاءُ نُصيبُ برَحْمَتنا مَنْ نَشاءُ ولا نُضيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنينَ، ولأجْرُ الآخرَةِ خَيْرٌ لِلَّذينَ آمَنُوا وكانُوا يَتَّقونَ ﴾ [يوسف: ٥٦ -٥٧].

هذه هي الأخلاق الفاضلة، ذكرت في التنزيل نموذجاً، في غضون هذه السيرة، للأمم الإسلامية ليأخذوا ثمرتها ولا يضيّعوا الزمن في أصلها وموردها في التاريخ كما يجمد المفسّر على الإعراب أو الصرف أو البلاغة وهذا غيض من فيض من حكم هذه

(١) أخرجه البخاريّ في: الوحي، ٦ - باب حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، حديث رقم ٧، عن أبي سفيان بن حرب.

القصة، وبها نفهم ما ذكر في أولها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هذا الْقُرْآن﴾ [يوسف:٣]، دع قول الجاهلين، وفهم المتنسّكين، وتجاوز خلط المؤرخين، واختلافهم، واصغ إلى ما في هذه القصة من هيئة تربية الحكام والأمراء، كما أشرنا سابقاً، ولنزدك بياناً!

قال علماء الأخلاق والحكماء: لا ينتظم أمر الأمة إلاّ بمصلحين، ورجال أعمال قائمين، وفضلاء مرشدين هادين، لهم شروط معلومة، وأخلاق معهودة؛ فإن كان القائم بالأعمال نبيّاً فله أربعون خصلة ذكروها. كلها آداب وفضائل بها يسوس أمته. وإن كان رئيساً فاضلاً لمدينة فاضلة، اكتفوا من الشروط الأربعين ببعضها. وسيدنا يوسف عليه السلام حاز من كمال المرسلين وجمال النبيين. ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هدىً لاختيار الأكفاء في مهام الأعمال، إذ قد حاز الملك والنبوة! ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانقطاعها، وإنما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة، ولنذكر منها ثلاث عشرة خصلة هي أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة لتكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن، وتنبيهاً للمتعلمين - العاشقين للفضائل - على نفائس الكتاب العظيم، وحبّاً في نظرهم في القرآن، وليعلموا أن تلك القصص وقد أودعت ما لم يكن ليخطر على بال من سمعه للتغني به ومجرّد اللهو واللعب!

أهم ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة:

١ - العفة عن الشهوات، ليضبط نفسه وتتوافر قوته النفسية ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

٢ - الحلم عند الغضب، ليضبط نفسه ﴿قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ، فأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف:٧٧].

٣ - وضع اللّين في موضعه، والشدّة في موضعها ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ، أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وأَنا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ، فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي ولا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف:٥٩-٦٠]، والصدر للين والعجز للشدة.

٤- ثقته بنفسه ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥].

٥ - قوة الذاكرة ليمكنه تذكر ما غاب ومضى له سنون، ليضبط السياسات ويعرف للناس أعمالهم ﴿وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرونَ﴾ [يوسف:٥٨].

٦ - جودة المصوِّرة والقوة المخيِّلة حتى تأتي بالأشياء تامة الوضوح ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف:٤].

٧ - استعداده للعلم، وحبه له، وتمكّنه منه ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف:٣٨]، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢]، ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:١٠١].

٨ - شفقته على الضعفاء وتواضعه مع جلال قدره وعلوّ منصبه. فخاطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ...﴾ [يوسف:٣٩] الآية، وحادثهما في أمور دينهما ودنياهما، فالأول بقوله: ﴿لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف:٣٧]. والثاني بقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ [يوسف:٣٧] الآية، وشهدا له بقولهما: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦].

٩ - العفو مع القدرة ﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

١٠ - إكرام العشيرة ﴿وَائْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف:٩٣].

١١- قوة البيان والفصاحة بتعبيره رؤيا الملك، واقتداره على الأخذ بأفئدة الراعي والرعية والسوقة، ما كان هذا إلاّ بالفصاحة المبنية على العلم والحكمة ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف:٥٤].

١٢- حسن التدبير ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ..﴾ [يوسف: ٤٧] الآية.

ثم تأمل في اقتدار يوسف عليه السلام على سياسة الملك، وكيف اجتذب إليه القلوب بالإحسان ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ..﴾ [يوسف:٦٢] الآية، ودبر الحيلة العجيبة بمسألة الصواع والاتهام بالسرقة ليضم أخاه إليه ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ ...﴾ [يوسف:٧٦] الآية، وعامل المحكومين بشرعهم ودينهم وملتهم وعادتهم، كما عليه جميع الأمم الشرقية الحية من الرفق بالأمة المحكومة لهم، فيسوسونهم بدينهم وعادتهم وشرعهم وأخلاقهم وأموالهم اتباعاً لما رسمته الشريعة الغراء مما

يناسب حكم سيدنا يوسف عليه السلام، وذلك أنه أمر أتباعه أن يسألوهم﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف :٧٤] الآية، فكانت شريعة بني يعقوب أن يستعبدوا السارق سنة عند صاحب المتاع، فعاملهم بما هم عليه، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ،وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦]، امتدح على حسن خطته في السياسة ومراعاته عادة أولئك القوم. وهذه – وإن كانت مسألة بسيطة الظاهر – فهي أم السياسة ورأس علوم العمران، وأول ما يوصى به السواس والعقلاء!

تالله! ما أجمل القرآن وما أبهج العلم! وليت شعري كيف يقول الله بعدها ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ من نَشَاءُ وَفَوقَ كُلِّ ذي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[يوسف:٧٦]. ولولا ما فيها من مبدأ شريف وحكم عالية مع وضوحها وبساطتها لذوي النظر السطحي والبُلْه الغُفَّل، ما أعطاها هذا الجلال والإعظام ومدح العلم! فحيا الله العلم وأدام دولته.!

ومن العجيب الغريب تدبير هذه الحيلة بإخفاء الصواع، ثم نظر أمتعتهم جميعاً ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِم قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف: ٧٦]، وهذه: – وأيم الله – هي بعينها ما يصنعه ملوك الأرض قاطبة اليوم من السياسات والتلطف في الأمور الخفية، وإلباسها ألبسة مختلفة لسياسة بلادهم، وطلباً لحصول المقاصد النافعة، ودخولاً للبيوت من أبوابها؛ ولكن بينهم وبين هذا النبيّ بون بعيد ...! فانظر كيف تعطي هذه القصة هذه الأمور العجيبة!

لعمري! إن من طالع ما أمليناه بإمعان عن هذه القصة يتخيل عند تلاوتها أنه مشاهد أعمال الأمم الحاضرة والغابرة! وكأنما طالع آراء أهل المدينة الفاضلة، وعرف الحكماء وسواس الأمم، وشاهد جمال العلم والأدب والحكمة والموعظة الحسنة، حتى يعلم علم اليقين كيف قال الله في أول السورة ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف:٣]، ويقول في آخرها: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [يوسف:١٠٢]، ويقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، ثم ذكر أن الإنسان لا ينبغي له أن ييأس من روح الله فقال: ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ.. ﴾ [يوسف:١١٠] الآية، ثم أفاد أن المقصود هو العبر والنظر لتأثير القصص وثمراتها، لا مجرد تفسيرها؛ إذ مجرد التفسير أمر بسيط يقنع به البسطاء. وإنما المقصد هو الاتعاظ والاعتبار فقال: **﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِم عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ، ما كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرى.. ﴾** الآية.

وهذه ترشدك – إن كنت من ذوي الهمة العالية – أن تصبر نفسك مع الذين يتعلمون أمداً طويلاً، ولا تعجل بالرئاسة حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنال حظاً وافراً من الأخلاق والعلوم. فلا بأس بالوظائف ونفع الأمة مع دوام المثابرة على العلم والاستزادة منه! فلقد صبر هذا النبيّ عليه السلام أياماً وأياماً، ولبس للحوادث أثواباً وأثواباً، حتى إذا غلب اليأس جاء الفرج والرفعة!

فتأمل! كيف كانت هذه السورة يقرؤها القارئون، ويسمعها الجاهلون وهم عن آياتها معرضون! فإذا سمعوا صوتاً حسناً ظنوا أن هذا هو جمال القرآن، فقالوا للقارئ: سبحان من أعطاك! وفرحوا بما عندهم من العلم بظواهر ورونق القراءة، أو مجرد التفسير ومعرفة القصة، ولم ينظروا إلى الحكم المودعة فيها! فقُبح الجهل! يترك الرجل أعمى وإن لبس الحلل وارتدى ثياب الفخار الكاذب والسراب الخداع .. كم للإنسان من آيات وعبر في السموات والأرض فيعرض عنها! خلقت لنا الأبصار والأسماع والعقول لننظر ماذا في السموات والأرض مما ذرأ المبدع في الكون، وتلا القرآن – وهو كلام مبدع الكون – وتلطف في تصوير المعاني، وألبسها أجمل لباس، فأعرض العقلاء فضلاً عن العامة! فما للعامة لا يتعلمون! وما لذوي البصائر لا ينصحون ولا يبّينون؟ وما للناس لا يكادون يفقهون؟

ذكرنا نموذجاً عن هذه السورة استنشاطاً لهمم العقلاء، وحثاً لمن لهم ذكاء وفطن وعقول راجحة – على الرجوع إلى كتابهم ونظرهم فيه، وإزالة لشبه من ارتاب في هذه القصص فأعرض! وجليّ أن قصص القرآن جميعها مملوءة بالحكم كهذه القصة، وفي كل واحدة منها ما ليس في الأخرى كأنها ثمرات مختلف لونها! أين من يفقه هذا ممن يقف مع ألفاظها وهم عن آياتها معرضون؟ ولا عجب فإن نفوس الأسافل تأخذ الحكمة فترجعها من أفق سمائها إلى أرض ضعتها، كما يصير الماء في شجرة الحنظل مرّاً. فيقصدها هذا للنغمات، وذلك لقصة بسيطة، وآخر تسلية وتضييعاً للزمن، وآخر يقف عند الألفاظ وإعرابها وصرفها وبلاغتها.

ولكن هذا أرقى مما قبله – فقد سار في الطريق وهي الألفاظ، ولكن هيهات أن يصل للمقصود والثمرات إلا إذا أعدّ تلك القواعد مقدمة للمقصود وبحث فيه! وآخرون يسمعون الآيات فيعرضونها على التاريخ، والمؤرخون مختلفون كما قدمنا. وما مثل هؤلاء في سيرهم إلا كمثل رجل أوتي آلة بخارية ليسقي بها الحرث من النهر، فجلس بجانبها وترك استعمالها وأخذ يتفكر: من أين هذا الحديد؟ ولم يجلب الماء؟ وإلى أي مسافة يرتفع، وما العلة فيه، ومن أين يأتي الفحم الحجريّ،

وفي أي الطرق يسير إلى أن يصل إلينا؟ فيمر عليه شهر وشهران فيذبل زرعه وتبور أرضه.! ذلك مثل من يقرأ القرآن ويجعل جل عنايته تطبيقه على كلام المؤرخين أو قواعد النحويين أو الصرفيين وعلماء البلاغة فحسب! اللهم إلا قدراً يسيراً للفهم! وهذا – لعمر الله – انتكاس على الرأس، واتخاذ الوسيلة مقصداً، كمثل من أراد الحج فجعل همته إعداد الذخائر سنين فاختطفته المنون وفارق الحياة ولم يحج! ذلك مثلهم. !! انتهى.

المبحث الثاني:

احتج من جوز المعصية على الأنبياء – وهم الكرّاميّة والباقلاّنيّ – بما جرى من إخوة يوسف وبيعهم أخاهم وكذبهم لأبيهم، وبما وقع من يوسف نفسه من أخذه أخاه وإيحاشه أباه.

قال الإمام أبو محمد بن حزم رحمه الله في (الملل والنحل):

ما احتجوا به لا حجة فيه: لأن إخوة يوسف، عليه السلام، لم يكونوا أنبياء، ولا جاء قط – في أنهم أنبياء – نصٌ لا من قرآن، ولا من سنة صحيحة، ولا من إجماع، ولا من قول أحد من الصحابة رضي الله عنهم! فأما يوسف عليه السلام فرسول الله بنص القرآن، قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ..﴾ إلى قوله – ﴿مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ [غافر :٣٤]، وأما إخوته فافعالهم تشهد بأنهم لم يكونوا متورعين عن العظائم، فكيف أن يكونوا أنبياء! ولكن الرسولَين – أباهم وأخاهم – قد استغفرا لهم وأسقطا التثريب عنهم!

وبرهان ما ذكرنا – من كذب من يزعم أنهم كانوا أنبياءَ – قول الله تعالى حاكياً عن الرسول أخيهم أنه قال لهم: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً﴾ [يوسف:٧٧]، ولا يجوز البتة أن يقوله لنبي من الأنبياء؛ نعم، ولا لقوم صالحين!، إذ توقير الأنبياء فرض على جميع الناس، لأن الصالحين ليسوا شرًّا مكاناً! وقد عقّ ابن نوحٍ أباه بأكثر مما عقّ به إخوة يوسف أباهم، إلاّ أن إخوة يوسف لم يكفروا. ولا يحلّ لمسلم أن يُدخل في الأنبياء مَنْ لم يأت نصّ ولا إجماع أو نقل كافة بصحة نبوّته! ولا فرق بين التصديق بنبوّة من ليس نبيّاً، وبين التكذيب بنبوّة من صحّت نبوّته منهم! فإن ذكروا في ذلك ما روي عن بعض الصحابة رضي الله عنهم وهو زيد بن أرقم: (إنما مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ لأنه لا نبيّ بعد رسول الله ﷺ وأولاد الأنبياء أنبياء!) فهذه غفلة شديدة وزلة عالمٍ، من وجوه:

أولها: أنه دعوى لا دليل على صحتها!

وثانيها: أنه لو كان ما ذكر لأمكن أن ينبأ إبراهيم في المهد كما نبئ عيسى عليه السلام، وكما أوتي يحيى الحكم صبيّاً؛ فعلى هذا القول لعلّ إبراهيم كان نبيّاً وقد عاش عامين غير شهرين، وحاشا لله من هذا..!

وثالثها: أن ولد نوح كان كافراً بنصّ القرآن: عمل عملاً غير صالح. فلو كان أولاد الأنبياء أنبياء لكان هذا الكافر المسخوط عليه نبيّاً. وحاشا لله من هذا..!

ورابعها: لو كان ذلك، لوجب ولا بدّ أن تكون اليهود كلهم أنبياء إلى اليوم، بل جميع أهل الأرض أنبياء، لأنه يلزم أن يكون الكلّ من ولد آدم لصلبه أنبياء، لأن أباهم نبيّ، وأولاد أولادهم أنبياء لأن آباءهم أنبياء وهم أولاد أنبياء، وهكذا ... أبداً حتى يبلغ الأمر إلينا! وفي هذا من الكفر لمن قامت عليه الحجة وثبت عليه – ما لا خفاء به. وبالله تعالى التوفيق ..!

ثم قال ابن حزم:

وذكروا – يعني الكرّامية ومن وافقهم – أيضاً أَخْذَ يوسف عليه السلام أخاه، وإيحاشَه أباه عليه السلام منه، وأنه أقام مدّة يقدر فيها على أن يعرف أباه خبره وهو يعلم ما يقاسي به من الوجد عليه، فلم يفعل وليس بينه وبينه إلاّ عشر ليال! وبإدخاله صواع الملك في وعاء أخيه ولم يعلم بذلك سائر إخوته، ثم أمر من هتف ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]، وهم لم يسرقوا شيئاً، ويقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهِ لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]، وبخدمته لفرعون، وبقوله للذي كان معه في السجن ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢].

قال ابن حزم: وكل هذا لا حجة لهم في شيء منه، ونحن نبين ذلك بحول الله تعالى وقوته، فنقول وبالله تعالى نتأيّد: اما أخذه أخاه وإيحاشه أباه منه فلا شك في أن ذلك ليرفق بأخيه وليعود إخوته إليه، ولعلهم لو مضوا بأخيه لم يعودوا إليه وهم في مملكة أخرى، وحيث لا طاعة ليوسف عليه السلام ولا لملك مصر هنالك، وليكون ذلك سبباً لاجتماعه وجمع شمل جميعهم! ولا سبب إلى أن يظن برسول الله يوسف عليه السلام الذي أوتي العلم والمعرفة بالتأويل – إلاّ أحسن الوجوه. وليس مع من خالفنا نصّ بخلاف ما ذكرنا. ولا يحل أن يظن بمسلمٍ فاضل عقوق أبيه، فكيف برسول الله صلوات الله عليه؛ وأما ظنّهم – أنه أقام مدة يقدر فيها على تعريف أبيه خبره ولم يفعل – فهذا جهل شديد ممن ظن هذا لأن يعقوب في أرض كنعان من

عمل فلسطين، في قومٍ رحّالين خصاصين في لسان آخر وطاعة أخرى ودين آخر وأمة أخرى! فلم يكن عند يوسف عليه السلام، علم بعد فراقه أباه بما فعل، ولا حيّ هو أو ميت، أكثر من وعد اللّه تعالى بأن ينبئهم بفعلهم به، ولا وجد أحداً يثق به، فيرسل إليه، للاختلاف الذي ذكرنا. وإنما يستسهل هذا اليوم من يرى أرض الشام ومصر لأمير واحد وملّة واحدة، ولساناً واحداً وأمة واحدة، والطريق سابل، والتجار ذاهبون وراجعون، والرفاق سائرة ومقبلة، والبُرُد ناهضة وراجعة، فظن كلّ بيضاء شحمة ولم يكن الأمر حينئذٍ كذلك، ولكن كما قدمنا! ودليل ذلك أنه حين أمكنه لم يؤخره، واستجلب أباه وأهله أجمعين عند ضرورة الناس إليه، وانقيادهم له للجوع الذي كان عمّ الأرض، وامتيازهم عنده، فانتظر وعد ربّه تعالى الذي وعده حين ألقوه في الجبّ فأتوهُ ضارعين راغبين كما وعده تعالى في رؤياه قبل أن يأتوه! وأما قول يوسف لإخوته ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ وهم لم يسرقوا الصواع، بل هو الذي كان قد أدخله في وعاء أخيه دونهم، فقد صدق عليه السلام لأنهم سرقوه من أبيه وباعوه، ولم يقل عليه السلام: إنكم سرقتم الصواع ، وإنما قال: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ [يوسف:٧٢]، وهو في ذلك صادق لأنه كان غير واجد له فكان فاقداً له بلا شك! وأما خدمته عليه السلام لفرعون فإنما خدمه تقية وفي حقٍ لاستنقاذ اللّه تعالى بحسن تدبيره، ولعل الملك أو بعض خواصّه، قد آمن به إلاّ أن خدمته له على كل حال حسنة وفعل خير، وتوصل إلى الاجتماع بأبيه وإلى العدل وإلى حياة النفوس؛ إذ لم يقدر على المغالبة ولا أمكنه غير ذلك، ولا مرية في أن ذلك كان مباحاً في شريعة يوسف عليه السلام بخلاف شريعتنا، قال اللّه تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [المائدة:٤٨] وأما سجود أبويه فلم يكن ذلك محظوراً في شريعتهما بل كان فعلاً حسناً، وتحقيق رؤياه الصادق من اللّه تعالى. ولعل ذلك السجود كان تحية كسجود الملائكة لآدم عليه السلام. إلاّ أن الذي لا شك فيه أنه لم يكن سجود عبادة ولا تذلل وإنما كان سجود كرامة فقط بلا شك، وأما قوله عليه السلام للذي كان معه في السجن ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢]، فما علمنا الرغبة في الانطلاق من السجن محظورة على أحد! وليس في قوله ذلك دليل على أنه أغفل الدعاء إلى اللّه عزّ وجلّ. لكنه رغّب هذا الذي كان معه في السجن في فعل الخير وحضّه عليه! وهذا فرضٌ من وجهين: أحدهما وجوب السعي في كفّ الظلم عنه، والثاني: دعاؤه إلى الخير والحسنات. وأما قوله تعالى ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:٤٢]، فالضمير الذي في (أنساه) وهو الهاء راجع إلى الفتى الذي كان معه في السجن،

أي: أن الشيطان أنساه أن يُذكِّرَ ربه أمر يوسف عليه السلام؛ ويحتمل أيضاً أن يكون أنساه الشيطان ذكر اللّه تعالى، ولو ذكر اللّه عزّ وجلّ لذكر حاجة يوسف عليه السلام، وبرهان ذلك قول الله عزّ وجلّ ﴿وَادَّكر بعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥] فصحّ يقيناً أن المذّكّر بعد أمة هو الذي أنساه الشيطان ذكر ربّه حتى تذكّر. وحتى لو صحّ أن الضمير من (أنساه) راجع إلى يوسف عليه السلام لما كان في ذلك نقص ولا ذنب. إذ ما كان بالنسيان فلا يبعد عن الأنبياء! وأما قوله ﴿هَمَّتْ بهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّه﴾ [يوسف:٢٤]، فليس كما ظنّ من لم يمعن النظر حتى قال من المتأخرين من قال: (إنه قعد منها مقعد الرجل من المرأة) ومعاذ الله من هذا أن يظن برجل من صالحي المسلمين أو مستوريهم! فكيف برسول الله ﷺ !! فإن قيل: إن هذا قد روي عن ابن عباس رضي اللّه عنه من طريق جيدة الإسناد، قلنا: نعم! ولا حجة في قول أحدٍ إلاّ فيما صحّ عن رسول اللّه ﷺ فقط! والوهم في تلك الرواية إنما هي بلا شك عمّن دون ابن عباس، أو لعلّ ابن عباس لم يقطع بذلك إذْ إنَّما أخذه عمن لا يدري من هو، ولا شك في أنه شيءٌ سمعه فذكره، لأنه رضي اللّه عنه لم يحضر ذلك ولا ذكره عن رسول اللّه، ومحال أن يقطع ابن عباس بما لاعلم له به! لكن معنى الآية لا يعدو أحد وجهين: إمّا أنه همّ بالإيقاع بها وضربها: كما قال تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ ليأْخُذُوهُ﴾ [غافر:٥]، وكما يقول القائل: لقد هممت بك، لكنه عليه السلام امتنع من ذلك ببرهان أراه اللّه إياه استغنى به عن ضربها. وعلم أن الفرار أجدى عليه وأظهر لبراءته، على ما ظهر بعد ذلك من حكم الشاهد بأمر قدّ القميص. والوجه الثاني: أن الكلام تمّ عند قوله ﴿ولَقَدْ هَمَّتْ بهِ﴾ ثم ابتدأ تعالى خبراً آخر فقال ﴿وَهَمَّ بِهَا لولاَ أنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وهذا ظاهر الآية بلا تكلف تاويل، وبهذا نقول. وبرهان ربه هاهنا هوالنبوّة وعصمة اللّه عزّ وجلّ إياه، ولولا البرهان لكان يهم بالفاحشة، وهذا لاشك فيه! ولعلّ من ينسب هذا إلى النبيّ المقدس يوسف، ينزه نفسه الرذلة عن مثل هذا المقام فيهلك. وقد خشي النبي ﷺ الهلاك على من ظن به ذلك الظن، إذ قال للأنصاريَيْن حين لقيهما: هذه صفية[1] ! ومن الباطل الممتنع أن يظن ظان أن يوسف عليه السلام همّ بالزنى وهو يسمع قول اللّه تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف:٢٤]، افنسال من

---

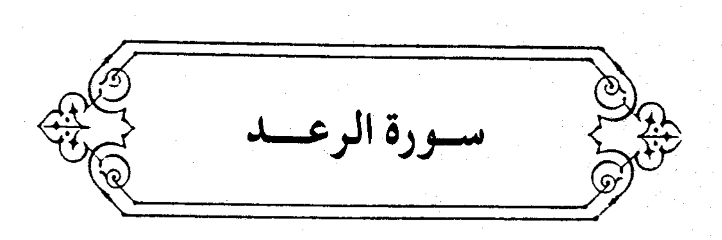
(١) أخرجه البخاريّ في: الاعتكاف، ٨ – باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد، حديث ١٠٣١.

خالفنا عن الهمّ بالزنى: سوء هو أم غير سوء؟ فلا بدّ أنه سوء، ولو قال: إنه ليس بسوءٍ لعاندَ الإجماع فإذ هو سوء، وقد صرف عنه السوء، فقد صرف عنه الهمّ بيقين! وأيضاً فإنها قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً﴾ [يوسف: ٣٥] وأنكر هو ذلك فشهد الصادق المصدق ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٦]، فصحّ أنها كذبت بنص القرآن، وإذ كذبت بنصّ القرآن فما أراد بها قط سوءاً، فما همّ بالزنى قط. ولو أراد بها الزنى لكانت من الصادقين، وهذا بيِّن جداً وكذلك قوله تعالى عنه أنه قال: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ. فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣٣] فصح عنه أنه قط لم يصبُ إليها.

انتهى كلام ابن حزم عليه الرحمة والرضوان. وإنما نقلت كلامه برمته لأنه كما قيل:

(وما محاسن شيءٍ كلّه حسن ...!!)

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة الرعد

سمّيت به لما فيها من قوله عزّوجلّ: ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الرعد:١٣] الدالّ على الصفات السلبية والثبوتية، مع الإخبار عن الأمور الملكوتية، ومع كون الرعد جامعاً للتخويف والترجية، وهذه من أعظم مقاصد القرآن - قاله المهايميّ.

وللسلف رأيان في أنها مكية أو مدنية؛ ويقال: إنها مدنية إلاّ قوله: ﴿ وَلاَ يَزَالُ الذينَ كَفَرُوا... ﴾ [الرعد:٣١] الآية، ويقال: من أوّلها إلى آخر ﴿ وَلَوْ أنَّ قُرْآناً ﴾ [الرعد:٣١]، مدنيّ وباقيها مكيّ. والله أعلم.

وآيها ثلاث وأربعون.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

قال أبو السعود: ﴿آلمر﴾ اسم للسورة، ومحله :إما الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذ السورة مسماة بهذا الاسم، وهو أظهر من الرفع على الابتداء، إذ لم يسبق العلم بالتسمية. وقوله تعالى ﴿تِلْكَ﴾ على الوجه الأول، مبتدأ مستقل، وعلى الوجه الثاني، مبتدأ ثانٍ، أو بدل من الأول أشير به إليه إيذاناً بفخامته. وإما النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو: اقرأ أو اذكر، فـ ﴿تلك﴾ مبتدأ كما إذا جعل ﴿المر﴾ مسروداً على نمط التعديد، والخبر على التقادير، قوله تعالى ﴿آياتُ الْكِتَابِ﴾ أي: الكتاب العجيب الكامل الغنيّ عن الوصف به المعروف بذلك من بين الكتب، الحقيق باختصاص اسم الكتاب به، فهو عبارة عن جميع القرآن، أو عن الجميع المنزل حينئذ. وقوله تعالى: ﴿والَّذي أُنْزِلَ إليْكَ مِنْ ربِّكَ﴾ أي: من الكتاب المذكور بكماله ﴿الْحَقُّ﴾ أي: الثابت المطابق للواقع في كل ما نطق به، الحقيق بأن يخص به الحقية لعراقته فيها، وقصور غيره عن مرتبة الكمال فيها. وفي التعبير عنه بالموصول. وإسناد الإنزال إليه بصيغة المبنيّ للمفعول، والتعرّض لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره عليه السلام. من الدلالة على فخامة المنزَل التابعة لشأن جلالة المنزِل وتشريف المنزَل إليه، والإيماء إلى وجه الخبر – ما لا يخفى...! انتهى ملخصاً بزيادة.

لطيفة:

في ﴿الَّذي أُنْزِلَ﴾ وجهان: أحدهما هو في موضع رفع، و﴿الْحَقُّ﴾ خبره، أو الخبر ﴿مِنْ ربِّكَ﴾ و﴿الْحقُّ﴾ خبرُ محذوفٍ، أو خبر بعد خبر. وثانيهما محله الجر بالعطف على ﴿الْكِتَابِ﴾ عطف العام على الخاص أو إحدى الصفتين على الأخرى، أو بتقدير زيادة الواو في الصفة، و﴿الْحَقُّ﴾ خبرُ محذوفٍ، ومنع كثير من النحاة زيادة

الواو في الصفات. وآخرون على جوازها لتأكيد اللصوق، أي الجمع والاتصال. لأنها كما تجمع المعطوف بالمعطوف عليه، كذلك تجمع الموصوف بالصفة، وتفيد أن اتصافه به أمر ثابت، وقوله تعالى: ﴿ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بذلك الحق لرفضهم التدبر فيه شقاقاً وعناداً. وهذا كقوله تعالى ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي بقدرته رفع السموات، أي خلقهن مرتفعات عن الأرض ارتفاعاً لا ينال ولا يدرك مداه! وقوله تعالى ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي أساطين. جمع عماد أو عمود. وقوله تعالى ﴿تَرَوْنَها﴾ إمّا استئناف للاستشهاد برؤيتهم السموات كذلك، كقول الشاعر:

* أنا بلا سيفٍ ولا رمحٍ تراني *

أو صفة لـ (عَمَدٍ) جيء بها إبهاماً؛ لأن لها عمداً غير مرئية، وإليه ذهب كثير من السلف، ورجّح ابن كثير الأول وأنها لا عمد لها، قال: وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إلاَّ بِإذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، والأكمل أيضاً في القدرة! وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوى على العرشِ﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف، وأنه يُمَرُّ كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل. وقوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ﴾ أي ذلّلهما لما أراد منهما من نفع العالم السفليّ. وقوله تعالى ﴿كُلٌّ يَجْري لأجلٍ مُسمًّى﴾ أي لغاية معينة ينقطع دونها سيره، وهو قيام الساعة، كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْري لِمُسْتَقَرٍّ لها﴾ [يس:٣٨] وقد بيّن ذلك في قوله تعالى ﴿إذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير:١]، ﴿وإذا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار:٢]، والاقتصار على الشمس والقمر، لأنهما أظهر الكواكب وأعظم من غيرهما فتسخير غيرهما يكون بطريق الأولى. وقد جاء التصريح بتسخيرهما مع غيرهما في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرات بِأَمْرِهِ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ والأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقوله تعالى ﴿يُدَبِّرُ الأمْرَ﴾ أي: أمر العالم العلويّ والسفليّ ويصرّفه ويقضيه بمشيئته وحكمته على أكمل الأحوال. لا يشغله شأن عن شأن. وقوله تعالى ﴿يُفَصِّلُ الآياتِ﴾ يعني: الآيات الدالة على وحدته وقدرته

ونعوته الجليلة. أي يبيّنها في كتبه المنزلة. وقوله تعالى: ﴿**لَعَلَّكُمْ بلقاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ**﴾ أي: لعلكم توقنون وتصدقون بأن هذا المدبر والمفصل، لا بدّ لكم من المصير إليه، بالبعث بعد الموت للجزاء؛ فإن من تدبر حق التدبر، أيقن أن من قدر على إبداع ما ذكر من الآيات العلوية. قدر على الإعادة والجزاء!.

لطائف:

الأولى – جُوِّزَ في قوله تعالى ﴿**اللّهُ الّذي رَفَعَ السَّمَوات**﴾ أن يكون الموصول خبراً، وأن يكون صفة، والخبر ﴿**يُدَبِّرُ الأمْرَ**﴾ ورجّح في (الكشف) الأول، بأن قوله الآتي ﴿وَهُوَ الَّذي مَدَّ الأَرْض﴾ [الرعد:٣]، عطف عليه على سبيل التقابل بين العلويات والسفليات وفي المقابل الخبرية متعينة، فكذا هذا ليتوافقا. والجملة مقررة لقوله ﴿وَالَّذي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد:١]، وعدل عن ضمير الرب إلى الجلالة لترشيح التقرير. كأنه قيل: كيف لا يكون المنزل ممن هذه أفعاله هو الحق؟ وتعريف الطرفين لإفادة انه لا مشارك له فيها. لا سيما وقد جعل صلة للموصول. وهذا أشد مناسبة للمقام، من جعله وصفاً مفيداً لتحقيق كونه مدبراً مفصلاً، مع التعظيم لشأنهما. والمقصود بالإفادة قوله: ﴿**لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ**﴾ فالمعنى أنه فعلها كلَّها لذلك.

الثانية – قال القاضي: قوله تعالى ﴿**رَفَعَ السَّمَوات ...**﴾ الخ دليل على وجود الصانع الحكيم، فإن ارتفاعها على سائر الأجسام المساوية لها في حقيقة الجرمية، واختصاصها بما يقتضي ذلك، لابدّ وأن يكون بمخصصٍ ليس بجسم ولا جسماني، يرجح بعض الممكنات على بعض بإرادته، وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات.

الثالثة – ﴿**يدبّر**﴾ و﴿**يفصّل**﴾ يقرآن بالياء والنون. وهما مستأنفان. أو الأول حال من ضمير (سخّر) والثاني من ضمير (يدبّر) أو كلاهما من ضمائر الأفعال المذكورة.

ولما قرر الشواهد العلوية. أَرْدَفها بذكر الدلائل السفلية على قدرته وحكمته. فقال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

﴿**وَهُوَ الّذي مَدَّ الأَرْضَ**﴾ أي بسطها وجعلها متسعة ممتدّة في الطول والعرض لإخراج النعم الكثيرة منها.

قال الشهاب: استدل به بعضهم على تسطيح الأرض وأنها غير كريّة بالفعل. وأن من أثبته أراد به أنه مقتضى طبعها! وردّ بأنه ثبت كريّتها بأدلةٍ عقلية، لكنه لعظم جرمها يشهد كل قطعة وقطرٍ منها كأنه مسطح! وهكذا كل دائرة عظيمة. ولا يعلم كريّتها إلاّ هو تعالى:

﴿ وجَعَلَ فيها رَواسيَ﴾ أي: جبالاً ثوابت أوتاداً لها يكثر فيها النبات وتنحفظ تحتها المياه ﴿ وأنْهاراً﴾ متفجرة منها، وذلك لتكثير النبات والأشجار وحفظ الحيوان ﴿ ومنْ كُلِّ الثَّمراتِ جَعلَ فيها زَوْجَينْ اثْنَينَ﴾ أي: صنفين اثنين كالحلو والحامض، والأسود والأبيض، والصغير والكبير، والبستانيّ والجبليّ.

قال المهايمي: ليفيد كل صنف فائدة غير فائدة الآخر، فكان كل صنف نعمة بعدَ الإنعام بأصول الأصناف، وجعل لإتمام الإنعام بالأصناف المختلفة الطبائع لئلا تجتمع فتضارّ متناولها فصولاً مختلفة، إذ.

﴿ يُغْشي اللّيْلَ النّهارَ﴾ أي: يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً فبطول الليل يحصل الشتاء، وبطول النهار يحصل الصيف، وبأحد الاعتدالين يحصل الخريف، وبالآخر الربيع ﴿ إنَّ في ذَلكَ﴾ أي: في مدّ الأرض وما بعده ﴿ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفكَّرُونَ﴾ اي لآيات باهرة لقوم يتفكرون فيستدلون بأن تكوين ماذكر على هذا النمط البديع لابدّ له من قادرٍ حكيم! أو يتفكرون فيعلمون أن تكثير النعم لجلب محبة المنعم بصرفها إلى ماخلقت من أجله. والمحبة موجبة للرجوع إليه. وفيه إشارة إلى أن من دبّر ذلك لمعايشهم، أفلا ينعم عليهم بإرسال رسل وإنزال كتب ترشدهم إلى مافيه سعادتهم؟ بلى، وهو أحكم الحاكمين.

لطائف:

الأولى – قال الرازي: من الاستدلال بأحوال الجبال، أن يسببها تتولد الأنهار على وجه الأرض. وذلك أن الحجر جسم صلب. فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل احتبست هناك فلاتزال تتكامل فيحصل تحت الجبل مياه عظيمة. ثم إنها لكثرتها وقوّتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الأرض. فمنفعة الجبال في تولد الأنهار هو من هذا الوجه،،ولهذ السبب. ففي أكثر الأمر أينما ذكر اللّه الجبال، قرن بها ذكر الأنهار. مثل ما في هذه الآية، ومثل قوله : ﴿ وَجَعَلْنا فيها رَواسي شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْناكُمْ ماءً فُرَاتاً﴾ [المرسلات: ٢٧].

الثانية – أشار الرازيّ إلى أن الناس، كما ابتدأوا من زوجين اثنين بالشخص،

هما آدم وحواء، فكذا الأشجار والزروع خلقت أولاً من زوجين اثنين ثم كثرت والله أعلم.

الثالثة – في قوله ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ﴾ استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيه إزالة نور الجوّ بالظلمة، بتغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية، أي يستر النهار بالليل. والتركيب وإن احتمل العكس أيضاً – بالحمل على تقديم المفعول الثاني على الأول – فإن ضوء النهار أيضاً ساتر لظلمة الليل، إلا أن الأنسب بالليل أن يكون هو الغاشي. وعدّ هذا في تضاعيف الآيات السفلية، وإن كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهراً – باعتبار أن ظهوره في الأرض – فإن الليل إنما هو ظلها. وفيما فوق موقع ظلها لا ليل أصلاً. ولأن الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والإنضاج، على أنهما أيضاً زوجان متقابلان مثلها.

وقرئ (يغشّي) من التغشية – أفاده أبو السعود.

ثم بيّن تعالى طائفة من الآيات بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

﴿وَفي الأرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِرَاتٌ﴾ أي: بقاع متقاربات مختلفة الطبائع. فمن طيّبة إلى سبخة، ومن صلبة إلى رخوة، مما يدل على قادرٍ مدبرٍ مريد حكيمٍ في صنعه ﴿وَجَنَّاتٌ من أعْنَابٍ وزرْعٌ وَنَخيلٌ صنوانٌ وَغيرُ صِنْوانٍ﴾ جمع صنو، وهي نخلة أصلها واحد وفروعها شتى ، وفي (القاموس) النخلتان، فما زاد في الأصل الواحد، كل واحدة منهما صنو. ويضمّ أو عامّ في جميع الشجر، وإفراد الزرع لأنه مصدر في الأصل يشمل القليل والكثير ﴿يُسْقى﴾ قرئ بالتحتيّة والفوقية ﴿بماءٍ واحدٍ﴾ أي: بماء المطر أو بماء النهر ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلَى بَعْضٍ في الأُكُلِ﴾ فتتفاضل قدراً وشكلاً ورائحة وطعماً. والأكل، قرئ بضم الهمزة والكاف وتسكينها وهو مايؤكل، وهو هنا الثمر والحبّ. والمجرور إما ظرف لـ (نفضل) أو حال من بعضها، أي: نفضل بعضها مأكولاً، أو : وفيه الأكل ﴿إنَّ في ذَلِكَ﴾ أي: الذي فصل ﴿لآياتٍ﴾ على وحدانيته تعالى وباهر قدرته ﴿لِقَوْمٍ يعْقِلُونَ﴾ فإن من عقل ماتقدم جزم بأن منْ قدَر على إبداعها

وخلقها مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح في تلك البقاع المتباينة المتجاورة، وجعلها حدائق ذات بهجة - قادرٌ على إعادة ما أبداه، بل هو أهون في القياس.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

﴿**وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قولُهمْ أئذا كُنّا تُراباً أئنّا لفي خلْقٍ جديد**﴾ خطاب للنبيّ ﷺ أي: إن تعجب من شيءٍ فقولهم عجيب حقيق بأن يقتصر عليه التعجب؛ لأن من شاهد ما عدّد من الآيات العجيبة التي تدل على قدرةٍ يصغر عندها كل عظيم - أيقن بأن مَنْ قدر على إنشائها ولم يعي بخلقها، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب. وجوز أن يكون خطاباً لكل من يصلح له، أي: إن تعجب، يا مَنْ نظر في هذه الآيات، وعلم قدرةَ من هذه أفعاله، فازدد تعجباً ممن ينكر، مع هذا، قدرته على البعث، وهو أهون من هذه!

قال أبو السعود: والأنسب بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسَّيِّئةِ﴾ [الرعد:٦]، هو الأول و(عجب) خبر قدم على المبتدأ للقصر، والتسجيل من أول الأمر بكون قولهم ذاك أمر عجيباً.

وقوله تعالى: ﴿**أولَئكَ**﴾ أي المنكرون لقدرته على البعث ﴿**الّذينَ كفَرُوا بربِّهم**﴾ أي: تمادوا في الكفر؛ فإن من أنكر قدرته تعالى فقد أنكره؛ لأن الإله لا يكون عاجزاً، وفيه تكذيب لخبره ولرسله عليهم السلام ﴿**وأولَئكَ الأغْلالُ في أعْناقِهمْ**﴾ أي: السلاسل في أيمانهم مشدودة إلى أعناقهم يوم القيامة؛ لأنهم غلّوا أفكارهم عن النظر في هذه الأمور كما جعلوا خالقهم مغلول القدرة على ذلك وهو القادر الحكيم. ﴿**وأولَئكَ أصْحابُ النّارِ هُمْ فيها خالدونَ**﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾

﴿**وَيَسْتَعجِلُونَكَ بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ**﴾ أي: يستعجلونك بالعقوبة قبل العافية

والسلامة منها؛ وذلك أنهم سألوا رسول الله صلوات الله عليه، أن يأتيهم بالعذاب استهزاءً منهم بإنذاره.

قال الشهاب: والمراد بكونها قبل الحسنة، أن سؤالها قبل سؤالها، أو أنّ سؤالها قبل انقضاء الزمان المقدّر لها!.

﴿وَقَدْ خَلَتْ من قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ﴾ أي: عقوبات أمثالهم من المكذبين. فما لهم لا يعتبرون بها ولا يخشون حلول مثلها؟ أو العقوبات التي يضرب بها المثل في الشدة. والجملة حالية أو مستأنفة. و(المثلات) قراءة العامة فيها فتح الميم وضم الثاء جمع مَثُلَة - كسمرة وسمرات - وهي العقوبة الفاضحة. سميت بها لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة كقوله ﴿وَجزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾ أو هي مأخوذة من المثال بمعنى القصاص. ويقال: أمثلته وأقصصته بمعنى واحد، أو هي من المثل المضروب لعظمها. وقرئ بفتح الميم وسكون المثلثة، وهي لغة أهل الحجاز، وقرئ بضم الميم وسكون المثلثة، وقرئ بفتحهما وبضمهما.

وقوله تعالى: ﴿وَ إنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفرةٍ للنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ﴾ من الناس مَن حمل المغفرة على المتعارف منها، وهو مغفرة الذنوب مطلقاً إلاّ حيث دلّ الدليل على التقييد في غير الموحِّد فإن ظلمه - أعني شركه - لا يغفر .. وما عدا الشرك فغفرانه في المشيئة. ومنهم من ذهب إلى المغفرة مراد بها معناها اللغويّ. وهو الستر والصفح، بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة، أي: إنه ذو صفحٍ عظيمٍ لا يعاجل بالعقوبة. مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار. كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِما كَسَبوا ما تَرَك عَلَى ظَهْرِهَا منْ دَابَّة﴾ [فاطر:٤٥]، وهذا التأويل أنسب بالسياق الرهيب!

وعجب من الشهاب حيث وافق الرازي في دعواه (إن تأخير العقاب لا يسمى مغفرة لأنه مخالف للظاهر، ولاستعمال القرآن. وللزومه كون الكفار كلهم مغفوراً لهم لأجل تأخير عقابهم إلى الآخرة) ولا يخفاك صحة تسميته مغفرة لأنه في اللغة الستر. ومن أفراده الستر بالإمهال؟ ودعوى أنه مخالف للظاهر ولاستعمال القرآن، تحكّم بحت على أسلوب القرآن، بإرجاعه إلى ما أصّلوه. مع أن التحاكم إليه في الفروع والأصول، وهو الحجة في اللغة والاستعمال! ودعوى فساد اللزوم وتهويل خطبه - فارغة، لأنه لا محذور في ذلك. لا سيما وهو المناسب لاستعجالهم العذاب المذكور قبل، فالتلازم صحيح! ثم من المقرر أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، فهذه الآية في

معناها كآية ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ الناسَ.. ﴾ الخ. فما ذكر من التأويل مؤيد بهذه الآية، فَتَفَطَّنْ ولا تكن أسير التقليد..!

ولما بين تعالى سعة حلمه، قرنه ببيان قوة عقابه، ليعتدل الرجاء والخوف، فقال سبحانه: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ أي: لمن شاء، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ولا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:١٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف:١٦٧]، وقال سبحانه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأليمُ﴾ [الحجر:٤٩ – ٥٠].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ وهم المستعجلون بالسيئة المتقدمون.

قال أبو السعود: وإنما عدل عن الإضمار إلى الموصول، ذمّاً لهم ونعياً عليهم كفرهم بآيات الله تعالى التي تخر لها صم الجبال، حيث لم يرفعوا لهم رأساً ولم يعدّوها من جنس الآيات وقالوا عناداً:

﴿**لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيه آيةٌ منْ رَبِّهِ**﴾ أي: مثل آيات موسى وعيسى عليهما السلام، أو مثل ما يقترحون من جعل الصفا ذهباً، أو إزاحة الجبال وجعل مكانها مروجاً وأنهاراً ﴿**وَإِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ**﴾ أي: مرسل للإنذار والتخويف من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون، وناصح كغيرك من الرسل، فما عليك إلاّ البلاغ، لا إجابة المقترحات ﴿**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾ أي: نبيّ داعٍ إلى الحق مرشد بالآية التي تناسب زمنه كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مَنْ أُمَّةٍ إِلاّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، تعريض بأنه ﷺ ليس بدعاً من الرسل. فقد خلا قبله الهداة الداعون إلى الله، عليهم السلام؛ أو المعنى: لكل قوم هاد عظيم الشأن، قادر على هدايتهم، هو الله سبحانه، فما عليك إلا إنذارهم لا هدايتهم. وإيتاؤهم الإيمان وصدهم عن الجحود. فإن ذلك لله وحده كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ولَكِنَّ اللّهَ يَهدْي مَنْ يشاءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، أو المعنى: ﴿**لِكُلِّ قومٍ هادٍ**﴾ قائد يهديهم إلى الرشد. وهو الكتاب المنزل عليهم الداعي بعنوان الهداية إلى ما فيه صلاحهم. يعني: أن سر الإرسال وآيته الفريدة وإنما هو الدعاء إلى الهدى وتبصير سبله، والإنذار من الاسترسال في مساقط الردى. وقد أنزل عليك من الهدى أحسنه.

فكفى بهدايته آية كبرى وخارقة عظمى. وأما الآيات المقترحة فأمرها إلى الله وقد لايفيد إنزالها هداية! قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعنَا أَنْ نُرسِلَ بالآيَات إلاَّ أَنْ كَذَّبَ بهَا الأوَّلُونَ﴾ [الإسراء:٥٩]، ﴿وَما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إذا جاءتْ لا يُؤْمنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، مع ما يستتبع الإصرار بعدها من الأخذ بلا إمهال! ﴿سُنَّةَ اللّهِ في الَّذين خَلَوْا منْ قبْلُ، ولَنْ تَجدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَبْديلاً﴾ [الأحزاب:٦٢].

قال الشهاب: وجوّز عطف (هادٍ) على (منذر) وجعل المتعلق مقدماً عليه، للفاصلة فيدل على عموم رسالته وشمول دعوته. وقد يجعل خبر مبتدأ مقدر، أي: وهو هادٍ، أو وأنت هاد، وعلى الأول فيه التفات. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾

﴿**اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى**﴾ جملة مستأنفة، جواب سؤال وهو: لماذا لم يجابوا لمقترحهم فتنقطع حجتهم فلعلّهم يهتدون بأنه آمر مدبر عليم نافذ القدرة فعّال لما تقتضيه حكمته البالغة دون آرائهم السخيفة؟ وهذا على أن (الهادي) بمعنى (الداعي إلى الحق).

وإن كان المراد به الله سبحانه، فالجملة تفسير لقوله (هادٍ) أومقررة مؤكدة لذلك – كذا في (العناية).

وأشار الرازي إلى أن الآية: إما متصلة بما قبلها مشيرة إلى أنه تعالى واسع العلم لا يخفى عليه أن اقتراحهم عناد وتعنت، وأنهم لا يزدادون بإظهار مقترحهم إلاّ عناداً، فلذا لم يجابوا إليه. وإما متصلة بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلونَكَ﴾ يعني أنه تعالى عالم بجميع المعلومات. فهو تعالى إنما ينزل العذاب بحسب ما يعلم أن فيه مصلحة.

ثم إن لفظ (ما) في قوله تعالى: ﴿**مَا تَحْمِلُ**﴾ مصدرية أو موصولة، أي: حملها أو ما تحمله من الولد: على أي حالة هو من ذكورة وأنوثة، وتمام وخداج، وحسن وقبح، وطول وقصر .... وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقبة.

﴿**ومَا تَغيضُ الأرْحامُ**﴾ أي: تنقص من الحمل ﴿**وَمَا تزْدادُ**﴾ أي: تأخذه زائداً.

قال الزمخشري: ومما تنقصه الرحم وتزداده، عدد الولد؛ فإنها تشمل على واحد. وقد تشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة. ويروى أن شريكاً كان رابع أربعة في

بطن أمه، ومنه جسد الولد فإنه يكون تامّاً ومخدجاً. ومنه مدة ولادته فإنها تكون أقل من تسعة أشهر. وأزيد عليها، ومنه الدم فإنه يقل ويكثر.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أي: بقدرٍ وحدٍّ لا يجاوزه حسب قابليته كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، وقوله: ﴿وخلَقَ كلَّ شَيْءٍ فقدَّرَهُ تقْديراً﴾ [الفرقان:٢]، وذلك أنه تعالى خص كل مكوَّن بوقت وحل معينين، وهيأ لوجوده. وبقائه أسباباً مسوقة إليه تقتضي ذلك: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ﴾ أي ما غاب عن الحس ﴿وَالشَّهادة﴾ أي ما شهده الحس ﴿الْكَبِيرُ﴾ أي العظيمُ الشأن الذي كل شيء دونه ﴿الْمُتَعَالِ﴾ أي المستعلى على كل شيء بقدرته. أو المنزّه عن صفات المخلوقين، المتعالى عنها.

وأكثر القرّاء على حذف ياء ﴿الْمُتَعَالِ﴾ تخفيفاً، وصلاً ووقفاً، وقرئ بإثباته فيهما على الأصل.

القول في تأويل قوله تعالى:

سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾

﴿سواءٌ منْكُمْ منْ أسَرَّ الْقوْلَ﴾ أي في نفسه ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ أي لغيره ﴿وَمَنْ هو مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ أي: طالب الخفاء في مختبأ بالليل في ظلمته ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهارِ﴾ أي: ذاهب في سربه، أي في طريقه يبصره كل أحد.

لطيفة:

قيل: إن (سواء) بمعنى الاستواء وهويقتضي ذكر شيئين، وهنا إذا كان (سارب) معطوفاً على جزء الصلة أو الصفة، يكون شيئاً واحداً.

وأجيب عنه بوجهين: (الأول) أن(سارب) معطوف على (من هو) لا على (مستخف) كأنه قيل: سواء منكم إنسان هو مستخف وآخر هو سارب. و(الثاني) أنه عطف على (مستخف). إلا أن (من) في معنى الاثنين كقوله:

* نكُن مِثْلَ من يَاذِئْبُ يَصْطَحِبَان *

كأنه قيل: سواء منكم اثنان هما مستخف وسارب. وعلى الوجهين (من) موصوفة لا موصولة. فيحمل الأولان على ذلك ليتوافق الكل.

وهناك وجه آخر وهو أن يكون الموصول محذوفاً وصلته باقية؛ والمعنى: ومن

هو مستخف بالليل ومن سارب بالنهار. وحذفُ الموصول المعطوف وبقاء صلته شائع. خصوصاً وقد تكرر الموصول في الآية ثلاثاً. ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي ولاَ بِكُمْ﴾ [الأحقاف:٩]. والأصل: ولا ما يفعل بكم. وإلاّ كان حرف النفي دخيلاً في غير موضعه. لأن الجملة الثانية لو قدرت داخلة في صلة الأول بواسطة العاطف، لم يكن للنفي موقع؛ وإنما صحب في الأول الموصول لا الصلة، ومنه قول حسان رضي الله عنه:

فَمَنْ يَهْجُو رسول الله منكم ويمدحُهُ وينصرُهُ سَواءُ!

أي: ومن يمدحه وينصره.

وهذا الأخير نقله الناصر في (الانتصاف) وهو وجيه جداً. وأما تضعيف غيره له، بلزوم حذف الموصول وصدر الصلة معاً، وأن النحاة، وإن ذكروا جواز كل منهما، لكن اجتماعهما منكر - فهو المنكر. لأن أسلوب التنزيل هو الحجة، وإليه التحاكم في كل فنٍّ ومحجّة، والجمود على القواعد ورد ما خالفها، إليها - من التعصّب واللجاج، والغفلة عن مقام التنزيل في الاحتجاج!.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ أي: لمن أسرّ أو جهر أو استخفى أو سرب، ملائكة يتعاقبون عليه ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي من جوانبه كلها، أو من أعماله، ما قدم وأخر ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: يراقبون ما يلفظ من قول وما يأتي من عمل، خيراً أو شراً، بأمره وإذنه، أو من أجل أمره لهم بحفظه. فـ(من) تعليلية أو بمعنى باء السببيّة ولا فرق بين العلة والسبب عند النحاة، وإن فرق بينهما أهل المعقول.

وفي (الصحيح)[1]: يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار. ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر. فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم، وهو أعلم

---

(١) أخرجه البخاريّ في: مواقيت الصلاة، ١٦- باب فضل صلاة العصر، حديث رقم ٣٥٩. عن أبي هريرة.
ومسلم في: المساجد ومواضع الصلاة، ٣٧ - باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما، حديث رقم ٢١٠.

بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقول: أتيناهم وهم يصلّون وتركناهم وهم يصلّون.

وفي الحديث الآخر(١): إن معكم من لا يفارقكم إلاّ عند الخلاء، وعند الجماع فاستحيوهم وأكرموهم!.

و(المعقبات) جمع معقبة من (عقّب) مبالغة في (عقَب) فالتفعيل للمبالغة والزيادة في التعقيب فهو تكثير للفعل أو الفاعل، لا للتعْدية. لأن ثلاثيّه متعدّ بنفسه أصل معنى (العقب) مؤخر الرِّجْل. ثم تجوّز به عن كون الفعل بغير فاصل ومهلة. كأن أحدهم يطأ عقب الآخر. قال الراغب: عقبه إذا تلاه. نحو دَبَرَهُ وَقَفَاهُ وقيل: هو من (اعتقب) أدغمت التاء في القاف؛ وردّوه بأن التاء لا تدغم في القاف من كلمة أو كلمتين. وقد قال أهل التصريف: إن القاف والكاف، كل منهما يدغم في الآخر ولا يدغمان في غيرهما. والتاء في (معقبة) واحدة (المعقبات) للمبالغة لا للتأنيث، لأن الملائكة لا توصف به. مثل نسابة وعلامة. أو هي صفة جماعة وطائفة. و﴿مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ ظرف مستقر صفة ﴿مُعَقِّبَاتٌ﴾ أو ظرف لغو متعلق بها. و(مِنْ) لابتداء الغاية أو حال من الضمير الذي في الظرف الواقع خبراً. والكلام على هذه الأوجه يتم عند قوله ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾. ويجوز أن يكون ظرفاً لـ ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ أي: معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، أي تحفظ ما قدم وأخر من الأعمال، كناية عن حفظ جميع أعماله، ويجوز أن يكون ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ صفة لـ ﴿مُعَقِّبَاتٌ﴾ أو حالاً من الظرف قبله، بمعنى أن المعقبات محيطة بجميع جوانبه.

تنبيهات:

الأول – ما قدمناه في معنى الآية هو الأشهر. وعن ابن عباس: هوالسلطان الذي له حرس من بين يديه ومن خلفه.

قال الزمخشري: أي يحفظونه في توهمه وتقديره، من أمر اللّه. أي من قضاياه ونوازله. أو على التهكم به.

قال الرازي: وهذا القول اختاره أبو مسلم الأصفهاني. والمعنى: أنه يستوي في علم اللّه تعالى السرّ والجهرّ. والمستخفي بظلمة الليل والسارب المستظهر بالأعوان والأنصار. وهم الملوك والأمراء! فمن لجأ إلى الليل فلن يفوت اللّهَ أمره، ومن سار نهاراً بالمعقبات وهم، الحراس والأعوان الذين يحفظونه – لم ينجه حرسه من اللّه تعالى!

(١) لم أقف على هذا الحديث بعد البحث عنه في ما بين يديّ من أصول السنّة.

والمعقب العون. لأنه إذا أبصر هذا ذاك، فلا بدّ أن يبصر ذاك هذا، فتصير بصيرة كل واحد منهم معاقبة لبصيرة الآخر، فهذه المعقبات لا تخلّص من قضاء اللّه ومن قدره! وهم وإن ظنوا أنهم يخلصون مخدومهم من أمر اللّه ومن قضائه، فإنهم لايقدرون على ذلك البتة! والمقصود من هذه الجملة: بعث السلاطين والأمراء والكبراء على أن يطبوا الخلاص من المكاره، عن حفظ اللّه وعصمته، ولا يعوّلوا في دفعها على الأعوان والأنصار، ولذلك قال تعالى بعد: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً ...﴾ الآية.

الثاني: قدمنا أنّ الضمير في ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ لمن أسرّ أوجهر.. الخ. وأرجعه بعضهم للّه، وما بعده (لمنْ). قال الشهاب: فيه تفكيك للضمائر من غير داعٍ. وقيل: الضمير (لمن) الأخير، وقيل: للنبيّ لأنه معلوم من السياق.

الثالث – أشار الرازي في معنى الآية الأشهر إلى سرّ اختصاص الحفظة ببني آدم، ما ملخَّصه: إنهم يدعون إلى الخيرات والطاعات بما يجده المرء من الدواعي القلبية إليها، وإن الإنسان إذا علم أن الملائكة تحصي عليه أعماله كان إلى الحذر من المعاصي أقرب. لأن من آمن، يعتقد جلالة الملائكة وعلوّ مراتبهم، فإذا حاول الإقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونها، زجره الحياء منهم عن الإقدام عليها، كما يزجره عنه إذا حضره من يعظّمه من البشر. وإذا علم أن الملائكة تحصي عليه تلك الأعمال، كان ذلك أيضاً رادعاً له عنها. وإذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردعُ أكمل.!

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ أي: من العافية والنعمة ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي: من الأعمال الصالحة أو ملكاتها، التي هي فطرة اللّه التي فطر الناس عليها إلى أضدادها ﴿وَإِذَ أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً﴾ أي: لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك ﴿فَلاَ مَرَدَّ لَهُ﴾ أي: فلا ردّ لقضائه فيهم ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ أي: يلي أمرهم فيدفع عنهم السوء الذي أراده اللّه بهم بما قدمت أيديهم من تغيير ما بهم. وفيه دلالة على أن تخلف مراده تعالى محال. وإيذان بأنهم بما باشروه من إنكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية. قد غيروا ما بأنفسهم من الفطرة، واستحقوا لذلك حلول غضب اللّه تعالى وعذابه – أفاده أبو السعود.

تنبيه:

في هذه الآية وعيد شديد وإنذار رهيب قاطع، بانه إذا انحرف الآخذون بالدين والمنتمون إليه عن جادته المستقيمة، ومالوا مع الأهواء، وتركوا التمسك بآدابه

وسنته القويمة، حلّ بهم ما ينقلهم إلى المحن والبلايا، ويفرّق كلمتهم، ويوهي قوّتهم، ويسلط عدوّهم!

وفي حديث قدسي عند ابن أبي حاتم: ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله، فيتحوّلون منها إلى معصية الله، إلاّ حوّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون.

ولابن أبي شيبة: ما من قرية ولا أهل بيت، كانوا على ما كرهت من معصيتي، ثم تحوّلوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي، إلاّ تحولت لهم عما يكرهون من عذابي، إلى ما يحبون من رحمتي.

وقال القاشاني: لا بدّ في تغيير النعم إلى النقم، من استحقاق جليٍّ أو خفيٍّ.

وعن بعض السلف: إن الفارة مزّقت خُفّي. وما أعلم ذلك إلاّ بذنب أحدثته، وإلاّ ما سلطها الله عليّ! و تمثّل بقول الشاعر:

* لو كنتُ من مازنٍ لم تَسْتَبِحْ إيلي *

أقول: المنقول عن بعض السلف محمول على شدة الخوف منه تعالى، وإلاّ فالتحقيق الفرق بين ما ينال الشخص والقوم، كما أشارت له الآية. وقد جوّد الكلام في ذلك، الإمامُ، مفتي مصر في (رسالة التوحيد) في بحث الدين الإسلامي فقال:

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير (العالَم) والكون الصغير (الإنسان). فقرّر أن آيات الله الكبرى في صنع العالم إنما يجري أمرها على السنن الإلهية التي قدرها الله في علمه الأزلي. لا يغيّرها شيء من الطوارئ الجزئية. غير أنه لايجوز أن يغفل شأن الله فيها. بل ينبغي أن يحيي ذكره عند رؤيتها، فقد جاء على لسان النبيّ ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لايخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فاذكرو الله»[١]. وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجري على نظام واحد لا يقضي فيه إلاّ العناية الأزلية على السنن التي أقامته عليها. ثم أماط اللثام عن حال الإنسان في النعم التي يتمتع بها الأشخاص أو الأممُ، والمصائب التي يرزؤن بها. ففصل بين الأمرين (الأشخاص والأمم) فصلاً لا مجال معه للخلط بينهما.

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الكسوف، ٢ ـ باب الصدقة في الكسوف، حديث رقم ٥٨٤، عن عائشة. ومسلم في: الكسوف، ٢ ـ باب ذكر عذاب القبر في صلاة الخسوف، حديث رقم ٨.

فأما النعم التي يمتِّعُ اللّهُ بها بعض الأشخاص في هذه الحياة، والرزايا التي يرزأ بها في نفسه؛ فكثير منها كالثروة والجاة والقوة والبنين، أو الفقر والضعة والضعف والفقد، وقد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة أو عوج أو طاعة وعصيان! وكثيراً ما أمهل اللّه بعض الطغاة البغاة، أو الفجرة الفسقة. وترك لهم متاع الحياة الدنيا . ، إنظاراً لهم، حتى يتلقاهم ما أعدّ لهم من العذاب المقيم في الحياة الأخرى! وكثيراً ما امتحن اللّه الصالحين من عباده، وأثنى عليهم في الاستسلام لحكمه، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة، عبّروا عن إخلاصهم في التسليم بقوله : ﴿إِنَّا للَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ! فلا غضب زيدٍ. ولارضا عمروٍ، ولا إخلاص سريرة، ولافساد عمل مما يكون له دخل في هذه الرزايا، ولا في تلك النعم الخاصة، اللهمّ إلاّ فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جاري العادة. كارتباط الفقر بالإسراف، والذل بالجبن، وضياع السلطان بالظلم. وكارتباط الثروة بحسن التدبير في الأغلب. والمكانة عند الناس بالسعي في مصالحهم على الأكثر. وما يشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر. . !

أما شأن الأمم فليس على ذلك؛ فإن الروح الذي أودعه اللّه جميع شرائعه الإلهية: من تصحيح الفكر، وتسديد النظر، وتأديب الأهواء، وتحديد مطامح الشهوات، والدخول إلى كل أمر من بابه، وطلب كل رغيبة من أسبابها، وحفظ الأمانة، واستشعار الأخوة، والتعاون على البرّ، والتناصح في الخير والشر، وغير ذلك من أصول الفضائل: ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم، ومشرق سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [آل عمران:١٤٥]، ولن يسلب اللّه عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها. يزيد اللّه النعم بقوته وينقصها بضعفه حتى إذا فارقها ذهبت السعادة على أثره وتعبته الراحة إلى مقره! واستبدل اللّه عزة القوم بالذل، وكُثرهم بالقل، ونعيمهم بالشقاء، وراحتهم بالعناء، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون: ﴿وإِذا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ [الإسراء:١٦]، أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل، ثم لا ينفعهم الأنين، ولايجديهم البكاء، ولا يفيدهم ما بقي من صور الأعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ولا كاشف لما نزل بهم إلاّ ان يلجأوا إلى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة يُرسُل الفكر والذكر والصبر والشكر ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب:٦٢]، وما أجلّ ما قاله العباس بن عبد

المطلب في استسقائه . اللهم! إنه لم ينزل بلاء إلاّ بذنب ولم يرفع إلا بتوبة ..!

على هذه السنن، جرى بسلف الأمة، فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائدالسامية. ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة؛ كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه، ويشق الفلك ببكائه، وهو ولع بأهوائه. ماضٍ في غلوائه، وما كان يغني عنه ظنه من الحق شيئاً ..!

ولما خوّف تعالى العباد بإنزال ما لا مرّد له، أتبعه ببيان آيات قدرته وقهره وجلاله.

فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴿١٣﴾

﴿ **هُوَ الَّذي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً** ﴾ أي من الصواعق ﴿ **وَطَمَعاً** ﴾ أي المطر أن يحيي النبات ﴿ **وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ** ﴾ أي الماء ﴿ **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحمْدِهِ** ﴾ أي يسبح سامعوه من العباد الراجين للمطر متلبسين بحمده، أي: يضجون بـ (سبحان الله والحمد لله) فيكون على حذف مضاف أو إسناداً مجازيّاً للحامل والسبب، أو يسبح الرعد نفسه، بمعنى دلالته على وحدانيته تعالى وفضله، المستوجب لحمده. فيكون الإسناد على حقيقته والتجوّز في التسبيح والتحميد. إذ شبه دلالته بنفسه على تنزيهه عن الشرك والعجز بالتسبيح والتنزيه اللفظيّ. ودلالته على فضله ورحمته، بحمد الحامد لما فيها من الدلالة على صفات الكمال.

قال الرازي: الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص. والتسبيح والتقديس وما يجري مجراهما. ليس إلاّ وجود لفظ يدل على حصول التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى. فلما كان حدوث هذا الصوت دليلاً على وجود متعالٍ عن النقص والإمكان، كان ذلك في الحقيقة تسبيحاً وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿ **والْمَلائِكَةُ منْ خِيفَتِهِ** ﴾ أي: وتسبح الملائكة من خوف الله تعالى وخشيته

وإجلاله ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: فيهلك بها من يشاء. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ يعني الكفرة المخاطبين في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ وقد التفت إلى الغيبة إيذاناً بإسقاطهم عن درجة الخطاب وإعراضاً عنهم، وتعديداً لجناياتهم لدى كل من يستحق الخطاب. كأنه قيل: هو الذي يفعل أمثال هذه الأفاعيل العجيبة، من إراءة البرق وإنشاء السحاب الثقال وإرسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته. ويعقلها من يعقلها من المؤمنين أو الرعد نفسه والملائكة. ويعملون بموجب ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيبته تعالى و(هم) أي الكفرة الذين حكيت هَنَاتُهُمْ مع ذلهم وهوانهم وحقارة شأنهم، يجادلون في شأنه تعالى، بإنكار البعث واستعجال العذاب، استهزاء واقتراح الآيات. قالوا ولعطف الجملة على ما قبلها من قوله تعالى: ﴿هوَ الَّذِي يُرِيكُمُ﴾. أفاده أبو السعود.

أي: يريكم ما ذكر من الآيات الباهرة الدالة على القدرة والوحدانية. وأنتم تجادلون فيه و(الجدال) أشد الخصومة، من (الجدل) بالسكون – وهو فتل الحبل ونحوه لأنه يقوى به وتشتد طاقته. ﴿وَهُوَشَدِيدُ الْمِحَالُ﴾ أي: والحال أنه شديد المماحلة والمماكرة والمكايدة لأعدائه. يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون من (مَحَلَهُ) إذا كاده وعرّضه للهلاك، ومنه (تمحّل لكذا) إذاتكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه.

تنبيه:

ذكر في العلم الطبيعي: أن الصواعق شرارات تنطلق دفعة واحدة من تموّجات السحب ومصادمتها لبعضها: فيحصل في الهواء اهتزاز قوي، وأما الرعد فهو الصوت الذي يحصل من ذلك الانطلاق ويصل إلينا ببطء على حسب بعد السحب الحاملة للصواعق عنا. وعلى حسب اتساع السحب، يطول سماعنا لصوت الرعد وإذا لمع البرق من السحابة، فقد تمت نتائج الصاعقة فمتى مضت برهة لطيفة بين لمعان البرق وسماع الرعد، فقد أُمِن ضررها. فإن لم يمض بينهما شيء، بأن كان الإنسان قريباً من محل الصاعقة وسمع الرعد مع مشاهدة البرق في آن واحد، أمكن أن يصاب بالصاعقة في مرورها. وأما سبب انفجار الصاعقة فقالوا: من المعلوم أن انطلاق الكهربائية إنما يحصل باتحاد كهربائية الأجسام مع بعضها، فإذا قرب السحاب من الأجسام الأرضية طلبت الكهربائية السحابية أن تتحد بالكهربائية الأرضية فتنبجس

بينهما شرارة كهربائية هي البرق. وحينئذ يقال: إن الأجسام الأرضية صعقت: هذا مجمل ما قالوه:

وقد حاول الرازي الجمع بين ما روي عن بعض السلف: أن الرعد ملك، وبين ما ثبت في العلم الطبيعيّ بما يدفع المنافاة فقال: اعلم أن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية إنما تتم بقوى روحانية فلكية، فللسحاب روح معين من الأرواح الفلكية يدبره؛ وكذا القول في الرياح وفي سائر الآثار العلوية. قال: وهذا عين ما نقلناه من أن الرعد اسم ملك من الملائكة يسبح الله، فهذا الذي قاله المفسرون بهذه العبارة هو عين ما ذكره المحققون من الحكماء. فكيف يليق بالعاقل الإنكار؟ انتهى.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾

﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ**﴾ أي: الدعاء الحق بالعبادة والتضرع والإنابة؛ وتوجيه الوجه ثابت له تعالى لا لغيره. لأنه الذي يجيب المضطر ويكشف السوء فهو الحقيق بأن يعبد وحده بالدعاء والالتجاء. فإضافة الدعوة للحق من إضافة الموصوف للصفة.

وفيها إيذان بملابستها للحق، واختصاصها به، وكونها بمعزل من شائبة البطلان والضياع والضلال. كما يقال: كلمة الحق.

ثم بين تعالى مثال من يعبد من الأصنام ويدعي، في عدم النفع والجدوى بقوله: ﴿**وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ**﴾ أي: الأصنام الذين يدعوهم المشركون من دونه تعالى: ﴿**لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ**﴾ أي: من مطلوباتهم ﴿**إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ**﴾ أي: إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه أي كاستجابة الماء لمن مدّ يديه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه، والماء جماد لا يشعر ببسط كفه ولابظمأه وحاجته إليه فلا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه، وكذلك ما يدعونه، جمادٌ لا يحس بدعائهم و لا يستطيع إجابتهم ولايقدر على نفعهم! والغرض نفي الاستجابة على القطع بتصوير أنهم أحوج ما يكونون إليها تحصيل مباغيهم، أخيب ما يكون أحد في سعيه لما هو مضطر إليه فضلاً عن مجرد الحاجة، وحاصله: أنه شبه آلهتهم -

حين استكفائهم إياهم ما أهمهم بلسان الاضطرار في عدم الشعور فضلاً عن الاستطاعة للاستجابة، وبقائهم لذلك في الخسران - بحال ماء بمرأى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه عبارة وإشارة. فهو لذلك في زيادة ظمأ وشدة خسران! والتشبيه على هذا من المركب التمثيلي في الأصل، أبرز في معرض التهكم حيث أثبت للماء استجابة، زيادة في التخسير والتحسير. فالاستثناء مفرغ من أعم عام المصدر، أي: لا يستجيبون شيئاً من الاستجابة والضمير في (هو) للماء و(بالغه) للفم، وقيل: الأول للباسط والثاني للماء. وبسط الكف: نشر الأصابع ممدودة كما في قوله:

تَعَوَّدَ بَسْطَ الكفِّ حتى لو أنّه أرادَ انقباضاً لم تُطِعْهُ أناملُهُ

﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: عبادتهم والتجاؤهم لآلهتهم ﴿إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ أي: في ضياع لا منفعة فيه لعدم إمكان إجابتهم.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿١٥﴾

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلاَلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ إخبار عن عظمته تعالى وسلطانه الذي قهر كل شيء، بأنه يقاد لجلاله وإرادته وتصريفه المكونات بأسرها من أهل الملإ الأعلى والأسفل، طائعين وكارهين لا يقدرون أن يمتنعوا عليه، وكذا تنقاد له تعالى ظلالهم حيث تتصف على مشيئته في الامتداد والتقلص والفيء والزوال! وقوله ﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ إما ظرف لـ (يسجد) والباء بمعن (في) والمراد بهما الدوام لأنه يذكر مثله للتأييد وإما حال من (الظلال) والمراد ما ذكر. أو يقال التخصيص لأن امتدادها وتقلّصها فيهما أظهر. هذا ما جرى عليها الأكثر في معنى (السجود) فيكون استعارة للانقياد المذكور، أو مجازاً مرسلاً لاستعماله في لازم معناه، لأن الانقياد مطلقاً، لازم للسجود.

وفي (تنوير الاقتباس): تأويل السجود بالصلاة والعبادة وجعل (طوعاً وكرهاً) نشراً على ترتيب اللف. قال (طوعاً) أهل السماء من الملائكة لأن عبادتهم بغير مشقة و(كرهاً) أهل الأرض لأن عبادتهم بالمشقة، ثم قال. ويقال (طوعاً) لأهل الإخلاص و(كرهاً) لأهل النفاق. ثم قال: (وظلالهم) يعني وظلال من يسجد لله

أيضاً، وتسجد غدوة عن أيمانهم، وعشية عن شمائلهم.

قال أبو السعود: وقد قيل: إن المراد حقيقة السجود، فإن الكفرة حال الاضطرار وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿وكَرْهاً﴾ يخصون السجود به سبحانه. قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال أفهاماً وعقولاً بها تسجد لله سبحانه، كما خلقها للجبال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر فيها آثار التجلي كما قاله ابن الأنباري. ويجوّز أن يراده بسجودها ما يشهد فيها من هيئة السجود تبعاً لأصحابها. وأنت خبير بأن اختصاص سجود الكافر، حالة الضرورة والشدة، فالله سبحانه لايجدي، فإن سجودهم لأصنامهم حالة الرخاء مخلّ بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور، فالوجه حمل السجود على الانقياد ولأن تحقيق انقياد الكل في إبداع والإعدام له تعالى، أدخل في التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه من تحقيق سجودهم له تعالى. وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضاً كذلك لأنهم العمدة. وانقيادهم دليل انقياد غيرهم. انتهى.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران:٨٣]، وقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ..﴾ [النحل:٤٨] الآية.

تنبيه:

هذه السجدة من عزائم سجود التلاوة، فيسنّ للقارئ والمستمع أن يسجد عقد قراءته واستماعه لهذه السجدة – كذا في (اللباب).

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ أي خالقهما ﴿**قلِ اللّهُ**﴾ أمرٌ بالجواب من قبله ﷺ، إشعاراً بتعينه للجواب، فهو والخصم في تقريره سواء. أو أمره بحكاية

اعترافهم، إيذاناً بأنه أمر لا بدّ لهم منه. كأنه قيل: احك اعترافهم فبكتهم بما يلزمهم من الحجة ﴿قُـلْ﴾ أي: إلزاماً لهم وتبكيتاً ﴿أَفَاتَّخَذْتُم من دُونه أَوْلِيَاءَ﴾ أي: أَبعْدَ أن علمتموه ربَّ السموات والأرض، عبدتم من دونه غيرَه فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم وإقراركم، سبب الإشراك؟ أفاده الزمخشري.

﴿لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً ولاَ ضَرّاً﴾ أي: لا يقدرون على نفع أنفسهم ولا على دفع الضر عنها. فكيف يستطيعونه لغيرهم! فإذن عبادتهم محض العبث والسفه! ﴿قُلْ هلْ يَسْتَوِي الأعمى والْبَصِيرُ أمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ والنُّورُ﴾ لما بيّن ضلالهم وفساد رأيهم في الحجة المذكورة، بيّن أن الجاهل بها يكون كالأعمى، والعالم بها كالبصير، والجهل بمثلها كالظلمات، والعلم بها كالنور! وكما أن كلّ أحد يعلم بالضرورة أن الأعمى لا يساوي البصير والظلمة لا تساوي النور، كذلك كل أحدٍ يعلم بالضرورة أن الجاهل بهذه الحجة لا يساوي العالم بها! ﴿أمْ جعلَوا للّه شُرَكاءَ﴾ أي: بل أجعلوا، والهمزة للإنكار وقوله: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقه﴾ صفة لـ (شركاء) داخلة في حكم الإنكار ﴿فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: خلق اللّه وخلقهم؛ والمعنى: أنهم ما اتخذوا للّه شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق، فيقولوا هؤلاء خلقوا كما خلق اللّه فاستحقوا العبادة كما استحقها. ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلاً عما يقدر عليه الخالق.

قال الناصر: وفي قوله تعالى: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ في سياق الإنكار، تهكم بهم، لأن غير اللّه لا يخلق خلقاً البتة، لا بطريق المشابهة والمساواة للّه، تقدس عن التشبيه؛ ولا بطريق الانحطاط والقصور. فقد كان يكفي في الإنكار عليهم، أن الشركاء التي اتخذوها لا تخلق مطلقاً، ولكن جاء في قوله تعالى: ﴿كَخَلْقِهِ﴾ تهكم يزيد الإنكار تأكيداً!

﴿قُلِ اللّهُ خَالِقَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: لا خالق غير اللّه، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق فلا يكون له شريك في العبادة! ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ أي. المتوحد بالربوبية ﴿الْقَهَّارُ﴾ الذي لا يغالَبُ، وما عداه مربوب ومقهور!

ثم ضرب تعالى مثلين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

﴿**أنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ**﴾ أي المزن ﴿**ماءً**﴾ أي مطراً ﴿**فسَالتْ أوْدِيَةٌ بِقَدْرِهَا**﴾ أي: بمقدار ملئها في الصغر والكبر، أي أخذ كل واحد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير وسع بقدره ﴿**فَاحْتَملَ السَّيْلُ زَبداً رابياً**﴾ أي: فحمل ورفع، من قوة الجيشان، زبداً عالياً على وجه الماء ﴿**وَممَّا يُوقِدُون عَلَيْه فِي النَّارِ**﴾ أي: من نحو الذهب والفضة والنحاس، مما يسبك في النار ﴿**ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ**﴾ أي: طلب زينة ﴿**أوْ مَتَاعٍ**﴾ كالآواني وآلات الحرب والحرث ﴿**زَبَدٌ مثْلُهُ**﴾ أي: مثل زبد السيل: وهو خبثه الذي ينفيه الكيرُ ﴿**كَذَلكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطلَ**﴾ أي مثلهما، أي: إذا اجتمعا لا ثبات الباطل ولا دوام، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما، مما يسبك في النار بل يذهب ويضمحل. وقد بين ذلك بقوله تعالى: ﴿**فَأمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً**﴾ أي مقذوفاً مرمياً به، أي: فلا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح. وكذلك خبث ما يوقد عليه من المعادن يذهب ولا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا ما ينتفع به من الماء والمعدن كما قال: ﴿**وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**﴾ أي يبقى فيها منتفعاً به ﴿**كَذلكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأمثَالَ**﴾ إلى أمثال الحق والباطل!

تنبيهات:

الأول – قدمنا أن هذه الآية مثل ضربه الله للحق وأهله. والباطل وحزبه، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلاً لهما. فمثل الحق وأهله بالماء الذي يُنْزِله من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم بأنواع المنافع. وبالمعدن الذي ينتفعون به في صوغ الحليّ منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة، وأن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهراً. يثبت الماء في مناقعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقنى والآبار. وكذلك المعدن يبقى أزمنة متطاولة؛ وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة، بزبد السيل وخبث المعدن. فإنه – وإن علا وارتفع وانتفخ – إلا أنه أخيراً يضمحلّ؛ وكذلك الشبهات

والتمويهات الزائفة قد تقوى وتعظم. إلا أنها في الآخرة تبطل وتضمحلّ وتزول. ويبقى الحق ظاهراً لا يشوبه شيءٌ من الشبهات. لأنه لا بقاء إلا للنافع وما تصارع الحق والباطل، إلا وفاز الحق بقرنه ..!

الثاني - قوله تعالى: ﴿بِقَدَرِها﴾ صفة (أودية)، أو متعلق بـ (سالت) أو (أنزل). وقرأ عامة القراء بفتح الدال ، وقرأ زيد بن عليّ والأشهب وأبو عمرو، في رواية، بسكونها .

الثالث – قوله تعالى: ﴿احْتَمَلَ﴾ بمعنى حمل، فالمزيد بمعنى المجرد – كذا قيل. ويظهر لي: أن إيثاره عليه لزيادة في معناه، وقوة في مبناه!.

الرابع – الأودية جمع واد. وهو مفرج بين جبال أو تلال أو آكام. والإسناد إليه مجاز عقلي، كما في (جرى النهر)

قال السمين: وإنما نكّر الأودية وعرّف السيل، لأن المطر ينزل في البقاع على المناوبة فيسيل في بعض أودية الأرض دون بعض. وتعريف السيل لأنه قد فهم من الفعل قبله وهو (فسالت) وهو لو ذكر لكان نكرة. فلما أعيد أُعيد بلفظ التعريف نحو: رأيت رجلاً فأكرمت الرجل. انتهى.

وأصله لأبي حيان حيث قال: عرّف السيل لأنه عنى به ما فهم من الفعل. والذي يتضمنه الفعل من المصدر وإن كان نكرة، إلاّ أنه إذا عاد في الظاهر كان معرفة. كما كان لو صرح به نكرة. وكذا يضمر إذا عاد على ما دل عليه الفعل من المصدر نحو: من كذب كان شرّاً له، أي الكذب. ولو جاء هنا مضمراً لكان جائزاً عائداً على المصدر المفهوم من (فسالت) وأورد عليه: أنه كيف يجوز أن يعني به ما فهم من الفعل وهو حدث، والمذكور المعرّف عيْن، فإن المراد به الماء السائل؟ وأجيب: بأنه بطريق الاستخدام!

قال الشهاب: وهو غير صحيح، لا تكلف – كما قيل – لأن الاستخدام أن يذكر لفظ بمعنى ويعاد عليه ضمير بمعنى آخر. سواء كان حقيقياً أو مجازياً؛ وهذا ليس كذلك. لأن الأول مصدر،أي حدث في ضمن الفعل، وهذا اسم عين ظاهر يتصف بذلك الحدث، فكيف يتصور فيه الاستخدام؟ نعم! ما ذكروه أغلبيّ لا مختص بما ذكر، فإن مثل الضمير اسم الإشارة، وكذا اسم الظاهر كما في قول بعضهم:

أخت الغزالة إشرافاً وملتفتاً

فالحق أنه إنما عرّف لكونه معهوداً مذكوراً بقوله ﴿أودية﴾ وإنما لم يجمع لأنه مصدر بحسب الأصل .

الخامس - قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ جملة أخرى معطوفة على الجملة الأولى، لضرب مثل آخر. و(زبد) متبدأ قدم عليه خبره، (من) في (ممّا) للابتداء أي: نشأ منه، وجوز كونها للتبعيض أي: هو بعضه؛ وردّه أبو السعود بانه يخلّ بالتمثيل. وقوله ﴿فِي النَّارِ﴾ صفة مؤسسة؛ لأن الموقد عليه يكون في النار وملاصقاً لها، وقيل: إنها مؤكدة. وقال أبو السعود: في زيادة النار إشعار بالمبالغة في الاعتمال للإذابة وحصول الزبد. وعدم التعرض لإخراجه من الأرض لعدم دخل ذلك العنوان في التمثيل، كما أن لعنوان إنزال الماء من السماء دخلاً فيه حسبما فصل فيما سلف، بل له إخلال بذلك. وسرّ التعبير الموصول في قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ..﴾ الخ، الإيجاز بجمعه لأنواع المعادن مع إظهار الكبرياء بالتهاون بها، كأن أشرف الجواهر خسيس عنده تعالى، إذا عبّر عن سبكه بإيقاد النار به، المشعر بأنه كالحطب الخسيس، وصوّره بحالةٍ هي أحط حالاته. وهذا لاينافي كونه ضرب مثلاً للحق. لأن مقام الكبرياء يقتضي التهاون به، مع الإشارة إلى كونه مرغوباً فيه متنفعاً به بقوله: ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾ فوفى كلاً من المقامين حقه.

السادس - قدمنا أن قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ على حذف مضاف، أي مثلهما،وسرّ الحذف الإنباء عن إكمال التماثل بين الممثل والممثل به، كأن المثل المضروب عين الحق والباطل!.

السابع: بدأ بالزبد في البيان في قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ وهو متأخر في الكلام السابق، لأن في التقسيم يبدأ بالمؤخر كما في قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ..﴾ الخ [آل عمران:١٠٦]، وقد راعى الترتيب فيه، ولك أن تقول النكتة فيه أن الزبد هو الظاهر المنظور أوّلاً. وغيره باقٍ متأخر في الوجود لاستمراره. والآية من الجمع والتقسيم، على ما فصّله الطيبي - كذا في (العناية).

الثامن - قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ إما باعتبار ابتناء هذا على التمثيل الأول، أو بجعل ذلك إشارة إليهما - كذا في أبي السعود.

اتاسع - أشار الحافظ ابن كثير إلى كثرة ضرب الأمثال النارية والمائية في التنزيل.والسنة، قال:

وقد ضرب سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة مَثَلَيْن - ناري ومائي -

وهو قوله ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ...﴾ [البقرة:١٧] الاية، ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ من السَّمَاءِ فيه ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ..﴾ [البقرة:١٩] الآية، وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مَثَلَيْن أحدهما قوله ﴿وَالَّذين كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ..﴾ [النور:٣٩] الآية، والسراب إنما يكون في شدة الحرّ؛ ولهذا جاء في (الصحيحين): (فيقال لليهود يوم القيامة: فما تريدون؟ فيقولون؟ أي ربنا! عطشنا فاسقنا. فيقال: الا تَرِدُونَ؟ فَيرِدُونَ النار، فإذا هي كسراب يحطم بعضها بعضاً)[١]. ثم قال تعالى في المثل الآخر ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ في بَحْرٍ لُجِّيٍ..﴾ [النور:٤٠] الآية، وفي (الصحيحين) عن أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه؛ أن رسول اللّه ﷺ قال: إن مثل ما بعثني اللّه به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع اللّه بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا. وأصابت طائفة منها أخرى. أنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً! فذلك مثل من فقُه في دين اللّه ونفعه اللّه بما بعثني، ونفع به فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى اللّه الذي أرسلت به، فهذا مثل الماء.[٢] . وفي (مسند الإمام أحمد) عن أبي هريرة عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: مثلي ومثلكم كمثل رجلٍ استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار، يقعن فيها. وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها. قال: فذلكم مثلي ومثلكم. أنا آخذ بحجزكم عن النار: هلمّ عن النار! فتغلبوني فَتَتَقَحَّمُونَ فيها[٣] ... وأخرجاه في (الصحيحين)[٤] أيضاً. فهذا مثل ناريّ. انتهى.

---

(١) أخرجه البخاريّ في: التفسير ٤ - سورة النساء، ٨ - باب ﴿إِنَّ اللّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، حديث رقم ٢١، عن أبي سعيد الخدريّ.
وأخرجه مسلم في: الإيمان، حديث رقم ٣٠٢.

(٢) أخرجه البخاريّ في: العلم، ٢٠ - باب فضل من عَلِمَ وعلَّم، حديث ٦٨.
وأخرجه مسلم في: الفضائل، حديث رقم ١٥.

(٣) أخرجه في مسنده ٢ / ٢٤٤ والحديث رقم ٧٣١٨.

(٤) أخرجه البخاريّ في: الرقاق، ٢٦ - باب الانتهاء عن المعاصي، حديث رقم ١٦١٠.
وأخرجه مسلم في: الفضائل، حديث رقم ١٧.

ولمّا بيَّن سبحانه شان كلٍّ من الحق والباطل حالاً ومآلاً، تاثره ببيان حال أهل كلّ منهما مآلاً. ترغيباً وترهيباً. بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

﴿ **لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى** ﴾ أي: للمؤمنين الذين استجابوا لربهم بطاعته وطاعة رسوله، المثوبةُ الحسنى كما قال تعالى: ﴿ لِلَّذين أَحْسَنُوا الْحُسْنى وزيادةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى مبتدأ قدم عليه خبره الموصول ﴿ **والَّذين لمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ** ﴾ وهم الكفرة ﴿ **لَوْ أنَّ لهم مَا في الأرضِ جَمِيعاً ومِثْلَه مَعَهُ لا فْتَدَوْا به** ﴾ أي: بما في الأرض ومثله معه من أصناف الأموال، ليتخلَّصوا عما بهم، وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيان ولأجله عدل عن أن يقال: وللذين لم يستجيبوا السوءى، كما تقتضيه المقابلة ﴿ **أولئكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَاب** ﴾ أي: في الدار الآخرة. فيناقشون على الجليل والحقير ﴿ **ومأْواهمْ جهنَّمُ وبئْسَ الْمِهادُ** ﴾ أي: المستقر. وفي قوله: ﴿ **ومأْواهمْ جهنَّمُ** ﴾ إشعار بتفسير الحسنى بالجنة، لانفهامها من مقابلتها.

القول في تأويل قوله تعالى:

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾

﴿ **أفمنَ يَعْلَمُ** ﴾ أي يصدّق ﴿ **أنما أُنْزِلَ إليْكَ منْ ربِّكَ** ﴾ يعني القرآن ﴿ **الْحَقُّ كَمنْ هوَ أعْمَى** ﴾ أي: كمن لا يعلم ذلك، إلا انه أريد تقبيح حاله فعبّر عنه بالأعمى ﴿ **إنَّما يَتذكَّرُ أُولُو الألْبابِ** ﴾ أي: العقول المبرأة عن مشايعة الإلف ومتابعة الوهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾

﴿ **الَّذين يُوفُونَ بعهْدِ اللَّهِ** ﴾ أي: مما كلفهم به ﴿ **ولاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ** ﴾ أي: ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان باللّه وغيره من المواثيق بينهم وبين العباد، وهوتعميم بعد تخصيص، وفيه تاكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل - أفاده أبو السعود.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾

﴿ **وَالَّذينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ به أَنْ يُوصَلَ** ﴾ أي: من أرحامهم وقراباتهم وإخوانهم المؤمنين، بالإحسان إليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذبّ عنهم والشفقة عليهم والنصيحة لهم وكف الأذى عنهم ﴿ **وَيَخْشَوْنَ رَبَّهمُ** ﴾ أي: يعملون له أويخافون وعيده فلا يعصونه فيما أمر ﴿ **وَيَخَافُونَ سُوء الْحِسَابِ** ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾

﴿ **وَالَّذين صَبَروُا ابتْغاء وَجْه ربِّهِمْ وأَقاموُا الصَّلاة وأَنْفقوُا ممّا رزَقْناهمُ سراً وعلانيةً ويَدْرَؤونَ بالْحَسَنَةِ السَّيئةَ** ﴾ أي: يدفعون بالكلام الحسن الكلام السيءّ إذا خاطبهم به الجاهلون كما قال تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتي هي أَحْسَنُ... ﴾ [المؤمنون:٩٦] الآية، أو يتبعون السيئة الحسنة لتمحوها ﴿ **أولئكَ لَهُمْ عُقْبى الدَّارِ** ﴾ أي: عاقبة الدنيا وهي الجنة لأنها مرجع أهلها. فتعريف الدار للعهد.

القول في تأويل قوله تعالى:

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾

﴿ **جنَّاتُ عدْنٍ يدْخُلُونها ومَنْ صَلَحَ من آبائهِمْ وأَزْواجِهم وذُرِّيَّاتهمْ** ﴾ أي: آمن ووحّد وعمل صالحاً من هؤلاء.

قال أبو السعود: وفي التقييد بالصلاح قطع للأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب.

وأصله للزجّاج حيث قال: بيّن تعالى أن الأنساب لا تنفع إذا لم يحصل معها أعمال صالحة، بل الآباء والأزواج والذريات لا يدخلون الجنة إلاّ بالأعمال الصالحة.

وقرئ – شاذاً – بضم لام (صَلُح). قال الزمخشري: والفتح أفصح.

﴿والمَلائكَةُ يَدْخُلونَ عَلَيْهِمْ منْ كُلِّ بَابٍ سلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

ثم بيّن تعالى مآل مقابل الفريق الأول بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾

﴿وَالذينَ يَنْقُضُونَ عهْدَ اللهِ منْ بَعْدِ ميثَاقه ويقْطعُونَ مَا أمرَ اللهُ به أنْ يُوصلَ وَيُفْسِدُونَ في الأرْضِ أولئكَ لَهمُ اللَّعنَةُ ولَهُمْ سوءُ الدَّارِ﴾ أي: عذاب جهنم.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾

﴿اللهُ يبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ ويقْدِر؛ وَفرحُوا بالْحَياة الدُّنْيا وَمَا الْحياةُ الدُّنْيَا في الآخرَةِ إلاَّ مَتَاعٌ﴾ هذا كقوله تعالى: ﴿أيحْسَبُونَ أنَّما نُمدُّهُمْ به منْ مَالٍ وبَنين. نُسَارِعُ لَهُمْ في الْخَيْرات بلْ لا يشْعُرون﴾ [المؤمنون:٥٥]، وتنكير (متاع) للتقليل كما في آية ﴿قلْ مَتَاعُ الدُّنْيا قَليلٌ والآخرَةُ خَيْرٌ لمنِ اتَّقى ولاتُظْلَمُونَ فتيلاً﴾ [النساء:٧٧]، وقال: ﴿بَلْ تُؤثِرونَ الْحياةَ الدُّنيا، والآخرَةُ خَيْرٌ وأبْقى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾

﴿وَيَقُول الَّذين كَفرُوا لَوْلاَ أُنْزلَ عَليْه ءَايَةٌ مِّنْ ربِّه﴾ كقولهم: ﴿فَليأتنا بآية كمَا أُرْسلَ الأوَّلون﴾ [الأنبياء:٥]، وتقدم الكلام على هذا غير مرّة. وقوله تعالى: ﴿قلْ إنَّ اللهَ يُضلُّ منْ يَشاءُ ويَهْدي إليْه منْ أنابَ﴾ جملة جرت مجرى التعجب من قولهم، مشيرة إلى أنه من باب العناد والاقتراح لما لا تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التي لا يمهل أحد بعد مجيئها، لا من باب طلب الهداية. وإلاَّ فلو كان بغيتهم طلب الهداية بآية لكفاهم إنزال هذا الكتاب منْ مثْله، صلوات الله عليه، آية، فإنه آية الآيات..!

ولكنهم قوم آثروا الضلال على الهدى، زاغوا عنه فأزاغ اللّه قلوبهم. فطوى ما دل عليه هذه الجملة، إيجازاً للعلم بها.

قال أبو السعود: ﴿قُلْ: إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ إضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية إليها، أي يخلق فيه الضلال لصرفه اختياره إلى تحصيله، ويدعه منهمكاً فيه، لعلمه بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الإرشاد كمن كان على صفتكم في المكابرة، والعناد، والغلوّ في الفساد. فلا سبيل له إلى الاهتداء، ولو جاءته كل آية. ثم قال: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: أقبل إلى الحق وتأمل في تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة. وحقيقة الإنابة الدخول في نوبة الخير. وإيثار إيرادها في الصلة على إيراد المشيئة، كما في الصلة الأولى، للتنبيه على الداعي إلى الهداية بل إلى مشيئتها، والإشعار بما دعا إلى المشيئة الأولى المكابرة. وفيه حث للكفرة على الإقلاع عما هم عليه من العتو والعناد. وإيثار صيغة الماضي للإيماء إلى استدعاء الهداية لسابقة الإنابة، كما أن إيثار صيغة المضارع في الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم، انتهى.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بدل من ﴿من أناب﴾ أي: آمنوا باللّه ورسوله وكتابه ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللّهِ﴾ أي تسكن وتخشى عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً. والعدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره ﴿أَلا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي: بذكره دون غيره تسكن القلوب أنساً به، واعتماداً عليه، ورجاءً منه؛ وقدر بعضهم مضافاً. أي بذكر رحمته ومغفرته، أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته؛ ورأى آخرون أن المراد ﴿بِذِكْرِ اللّهِ﴾ القرآن، لأنه يسمى ذكراً، كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء:٥٠]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، لأنه آية بينة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها. وهذا المعنى يناسب قوله: ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [يونس:٢٠]، أي: هؤلاء ينكرون كونه آية. والمؤمنون يعلمون أنه أعظم آية تطمئن لها قلوبهم ببرد اليقين: قال الشهاب: وهو أنسب الوجوه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

﴿**الَّذين آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحَاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسنُ مَآبٍ**﴾ الموصول إما مبتدأ و﴿**طوبى لهم**﴾ مبتدأ ثان وخبر في موضع الخبر الأول، وإما خبر لمحذوف أي هم، وإما بدل من ﴿أناب﴾ وجملة ﴿**طوبى لهم**﴾ دعائية أو خبرية.

قال الزمخشري: (طوبى) مصدر من (طاب) كبشرى وزلفى، ومعنى (طوبى لك) أصبت خيراً وطيباً. ومحلها النصب أو الرفع. كقولك. طيباً لك وطيب لك، وسلاماً لك وسلام لك. والقراءة في قوله ﴿وَحُسنُ مَآبٍ﴾ بالرفع والنصب تدلك على محليها. واللام في ﴿**لهم**﴾ للبيان مثلها في (سقياً لك)، والواو في ﴿**طوبى**﴾ منقلبة عن ياء، لضمة ما قبلها. قال ثعلب: قرئ طوبىً لهم بالتنوين.

قال الفاسي: ومن نوّن ﴿**طوبى**﴾ جعله مصدراً بغير الف كسقيا وزعم بعضهم: أنها كلمة أعجمية وفي (لسان العرب) عن قتادة؛ أنها كلمة عربية، تقول العرب: طوبى لك إن فعلت كذا وكذا! وأنشد:

طوبى لمن يستبدل الطُّوْدَ بالقُرى ورِسْلاً بيَقْطِينَ العراقِ وفُومِهَا

الرسل اللبن، والطود: الجبل، والفوم: الخبز والحنطة - كذا في (تاج العروس)

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿**كذلكَ أرسَلْناكَ في أمَةٍ قدْ خلَتْ**﴾ اي مضت ﴿**منْ قبلِهَا أممٌ لتتلُو عَلَيْهِمُ الَّذي أوْحَينا إليْكَ**﴾ اي: لتبلغهم هذا الوحي العظيم والذكر الحكيم، كما بلّغَ من خلا قبلك من المرسلين اممهم. وقوله: ﴿**وَهُم يَكفُرُونَ بالرَّحْمَنِ**﴾ جملة حالية أو مستأنفة اي: يكفرون بالبليغ الرحمة، الذي وسعت رحمته كل شيء والعدول إلى المظهر الدال على الرحمة، إشارة إلى أن الإرسال ناشئ منها، كما قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً للعَالَمينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وإلى أنهم لم يشكروا نعمة هذا الوحي الذي هو مدار المنافع الدينية والدنيوية، وإلى أن الرحمن من أسمائه الحسنى ونعوته العليا. وقد كانوا يتجافون هذا الاسم الكريم. ولهذا لم يرضوا يوم

الحديبية(١) أن يكتبوا (بسم الله الرحمن الرحيم) وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم؟ كما في الصحيح. وقد قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]. وفي (صحيح مسلم) عن ابن عمر مرفوعاً: (أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن)(٢).

﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: الرحمن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته **﴿رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾** أي: توبتي وإنابتي. فإنه لا يستحق ذلك غيره. ثم أشار تعالى إلى عظمة هذا الوحي وتفضيله على ما سواه بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٣١)

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً﴾ أي قرآناً مّا **﴿سُيِّرَتْ بِهِ﴾** أي: بإنزاله أو بتلاوته **﴿الْجِبَالُ﴾** أي أذهبت عن مقارّها، وزعزعت عن أماكنها **﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ﴾** أي: شُققت حتى تتصدع وتصير قطعاً **﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾** أي خوطبت بعد أن أحييت بتلاوته عليها، والجواب محذوف أي: لكان هذا القرآن؛ لكونه غاية في الهداية والتذكير، ونهاية في الإنذار والتخويف. وعلى هذا التقدير، فالقصد بيان عظم شأن القرآن وفساد رأي الكفرة حيث لم يقدروا قدره العليّ ولم يعدوه من قبيل الآيات. فاقترحوا غيره مما أوتي موسى وعيسى عليهما السلام. وقدر الزجاج الجواب (لما آمنوا به) كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى..﴾ [الأنعام: ١١١] الآية، وعليه فالقصد بيان غلوهم في المكابرة والعناد وتماديهم في الضلال والفساد.

ونقل عن الفراء؛ أن الجواب مقدم عليه وهو قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ وما بينهما اعتراض وفيه بعد وتكلف. وأشار بعضهم إلى أن مراده أنها دليل الجواب؛

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الشروط، ١٥ - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، حديث رقم ٨٨١ و ٨٨٢ عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان، وهو حديث طويل جامع، فلا يفتك الاطلاع عليه. ففيه غنم كبير.

(٢) أخرجه مسلم في: الآداب، حديث رقم ٢.

والتذكير في (كلم) لتغليب المذكر من الموتى على غيره .

وقوله تعالى ﴿بَلْ للّه الأمْرُ جَميعاً﴾ أي: له الأمر الذي عليه يدور فلك الأكوان وجوداً وعدماً، يفعل ما يشاء. ويحكم ما يريد لما يدعو إليه من الحكم البالغة وهو إضراب عما تضمنته ﴿لو﴾ من معنى النفي، أي: لو أن قرآناً فعل به ما ذكر لكان هذا القرآن. ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن، لأن الأمر كله له وحده، وعلى تقدير الزجاج السالف، فالإضراب متوجه إلى ما سلف اقتراحهم مع كونهم في العناد على ما شرح. أي: فليس لهم ذلك بل للّه الأمر جميعاً. إن شاء أتى بما اقترحوا وإن شاء لم يأت به حسبما تستدعيه الحكمة، من غير أن يكون عليه تحكم أو اقتراح. كذا في أبي السعود.

وقوله تعالى ﴿أفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذينَ آمنُوا أنْ لَوْ يَشاءُ اللّهُ لَهَدى النَّاسَ جَميعاً﴾ أي: أفلم يعلم ويتبيّن كقوله:

ألَمْ يَيْأَسِ الأقوامُ أنّي أنا ابْنُهُ وإن كنتُ عن أَرْضِ العَشيرَة نائيا

وقوله:

أقول لهم بالشِّعْبِ إذ يَيْسِرُونني ألم تَيْأَسُوا أني ابنُ فارسِ زَهْدَمِ

أي: ألم تعلموا! وييسرونني من إيسار الجزور، أي يقسمونني، ويروى: يأسرونني من (الأسر). أي: أفلم يعلموا أنه تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم، لأن الأمر له. ولكن قضت الحكمة أن يكون بناء التكليف على الاختيار.

﴿ولاَ يَزالُ الَّذين كفَرُوا﴾ أي: من أهل مكة ﴿تُصيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعةٌ﴾ أي: بسبب ما صنعوه من الكفر والتمادي فيه. وعدم بيانه لتهويله أو استهجانه والقارعة: الداهية التي تقرع وتقلق، يعنى ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل والأسر والنهب والسلب ﴿أوْ تحلُّ﴾ أي: تلك القارعة ﴿قَريباً﴾ أي: مكاناً قريباً ﴿منْ دارِهِمْ﴾ فيفزعون منها ويتطاير إليهم شررها ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ﴾ أي: فتح مكة ﴿إنَّ اللّه لا يُخْلِفُ الْميعادَ﴾ أي: لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فلاَ تَحْسَبَنَّ اللّه مُخْلفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [إبراهيم:٤٧]، وفي الآية وجه آخر، وهو حمل ﴿الذين كفروا﴾ على جميع الكفار أي: لا يزالون، بسبب تكذيبهم، تصيبهم القوارع في الدنيا أو تصيب من حولهم ليعتبروا، كقوله تعالى: ﴿ولَقَدْ أهْلَكْنا مَا حَوْلَكُمْ منْ الْقُرى وَصَرَّفْنا الآيات لعَلَّهم يَرْجعُون﴾ [الأحقاف:٢٧]، وقوله: ﴿أفلاَ يَرونَ أنَّا نأْتي الأرضْ نَنقُصُها منْ أطْرَافها، أفَهُمُ الْغَالبُونَ﴾ [الأنبياء:٤٤].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

﴿**وَلَقد استُهْزِىء برُسُلٍ مِّنْ قَبْلكَ فأمْليْتُ للذّين كفَروا**﴾ أي: أمهلتهم وتركتهم ملاوةً من الزمن، في أمن وَدَعَةٍ، كما يملى للبهيمة في المرعى ﴿**ثمَّ أخذْتُهمْ فكيفَ كانَ عِقَابِ**﴾ أي: عقابي إياهم. وفيه من الدلالة على فظاعته ما لا يخفى. والآية تسلية لرسول الله ﷺ عما لقي من المشركين من التكذيب والاقتراح، على طريقة الاستهزاء به، ووعيد لهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

﴿**أفمَنْ هُوَ قائِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بما كسَبتْ**﴾ أي: مراقب لأحوالها ومشاهد لها، لا يخفى عليه ما تكسبه من خير أو شرّ. فهو مجاز، لأن القائم على الشيء عالم به، ولذا يقال: وقف عليه - إذا علمه فلم يخف عليه شيء من أحواله، والخبر محذوف تقديره: كمن ليس كذلك - وإنما حذف اكتفاءً بدلالة السياق عليه وهو قوله: ﴿**وَجعَلُوا لله شُركَاءَ**﴾ أي: عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان وقوله: ﴿**قلْ سَمُّوهمْ**﴾ تبكيت لهم إثر تبكيت، أي: سمّوهم من هم، وماذا أسماؤهم؟ فإنهم لا حقيقة لهم! أوصفوهم وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة؟.

وقال الرازي: إنما يقال ذلك في الأمر المستحقر الذي بلغ في الحقارة إلى ألا يذكر ولا يوضع له اسم، فعند ذلك يقال: سمّه إن شئت، يعني: أنه أخسّ من يسمّى ويذكر، ولكنك إن شئت أن تضع له اسماً فافعل. فكأنه تعالى قال: سمّوهم بالآلهة، على سبيل التهديد، والمعنى: سواء سميتموهم بهذا الاسم أو لم تسموهم به، فإنها في الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها.

﴿**أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ في الأرْضِ**﴾ أي: بشركاء لا يعلمهم سبحانه. وإذا كان لا يعلمهم، وهو عالم بكل شيء مما كان ومما يكون، فهم لا حقيقة لهم. فهو نفي لهم بنفي لازمهم على طريق الكناية.

قال الناصر: وحقيقة هذا النفي أنهم ليسوا بشركاء وأن الله لا يعلمهم كذلك لأنهم ليسوا كذلك. وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها الله، إلا أنها مربوبة حادثة لا آلهة معبودة. ولكن مجيء النفي على هذا السَنن المتلوّ بديع لا تكتنه بلاغته وبراعته ولو أتى الكلام على الأصل غير محلّى بهذا التصريف البديع لكان: وجعلوا لله شركاء وما هم بشركاء. فلم يكن بهذا الموقع الذي افتضته التلاوة.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة، كتسمية الزنجيّ كافوراً من غير بياض فيه ولا رائحة طيبة، لفرط الجهل وسخافة العقل، وهذا كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠] ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوها﴾ [يوسف: ٤٠]، وعن الضحاك إن الظاهر بمعنى الباطل. كقوله:

وذلك عارٌ يا ابن رَيْطَةَ ظَاَهِرُ . .

تنبيه:

قال الزمخشري: هذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التي ورد عليها، منادٍ على نفسه بلسان طلق ذلق، أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه.

قال شارحوه: فإن قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾ لما كان كافياً في هدمِ قاعدة الإشراك مع السابق واللاحق وما ضمن من زيادات النكت، وكان إبطالاً من طريق حق، مذيلاً بإيطال من طرف النقيض على معنى: ليتهم إذ أشركوا بمن لا يجوز أن يشرك به، أشركوا من يتوهم فيه ذلك أدنى توهم، وروعي فيه أنه لا أسماء للشركاء ولا حقيقة لها فضلاً عن المسمى على الكناية الإيمائية. ثم بولغ بأنها لا تستأهل أن يسأل عنها على الكناية التلويحية استدلالاً بنفي العلم عن نفي المعلوم. ثم منه إلى عدم الاستئهال مع التوبيخ، وتقدير أنهم يريدون أن ينبئوا عالم السرّ والخفيات بما لا يعلمه وهو محال على محال وفي جعل اتخاذهم شركاء. ومجادلة الرسول عليه الصلاة والسلام إنباءً له تعالى، نكتة بل نكت سرية. ثم أضرب عن ذلك وقيل: قد بين الشمس لذي عينين وما تلك التسمية إلاّ بظاهر من القول لا طائل تحته بل هو صوت فارغ.

فمن تأمل حقّ التأمل، اعترف بأنه كلام خلق القُوَى والقُدَر، الذي تقف دون أستار أسراره أفهام البشر. . . !

وقوله تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ إضراب عن الاحتجاج عليهم.

كأنه قيل: دع ذكر ما كنا فيه من الدلائل على فساد قولهم. لأنه زين لهم كفرهم ومكرهم، فلا ينتفعون بهذه الدلائل.

وقوله تعالى:

﴿ **وَصُدُّوا عن السَّبيلِ** ﴾ أي: عن سبيل اللّه، وقرئ بفتح الصاد أي: صدوا الناسَ ﴿ **وَمَنْ يُضْلِلِ اللّهُ** ﴾ أي: يخلق فيه الضلال بسوء اختياره، أو يخذله ﴿ **فَمَا لَهُ منْ هادٍ** ﴾ أي: من أحد يهديه.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

﴿ **لَهُمْ عذابٌ في الْحَياةِ الدُّنْيا** ﴾ وهو ما نالهم على أيدي المؤمنين، أو ما فيه من عذاب الحيرة والضِلَّة. فإن نفس غير المؤمنين في نكد مستمر وداءٍ دويّ لابرء له إلاّ الإيمان. كما فصل في موضع آخر ﴿ **ولَعَذابُ الآخِرَةِ أشَقُّ** ﴾ أي: من عذاب الدنيا كمّاً وكيفاً ﴿ **ومَا لَهُمْ منَ اللّهِ منْ واقٍ** ﴾ أي: حافظ يعصمهم من عذابه.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾

﴿ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ** ﴾ أي عن الكفر والمعاصي ﴿ **تَجْري منْ تَحْتِها الأنْهارُ، أُكُلُها دائمٌ وَظِلُّها، تِلْكَ عُقْبى الَّذينَ اتَّقَوْا، وَعُقْبَى الْكافِرين النّارُ** ﴾.

في الآية وجوه من الإعراب:

(الأول): أن (مثل) مبتدأ خبره محذوف، أي: فيما يقص ويتلى عليكم صفة الجنة، وجملة (تجري) مفسرة أو مستأنفة استئنافاً بيانياً أو حال من ضمير (وعد) أي: وعدها مقدراً جريان أنهارها. وهذا الوجه سالم من التكلف، مع ما فيه من الإيجاز والإجمال والتفصيل. وقُدِّر الخبر فيه مقدماً لطول ذيل المبتدأ، أو لئلا يفصل به بينه وبين ما يفسره، أو هو كالمفسّر له.

(الثاني): أن خبره (تجري) – على طريقة قولك: صفة زيد أسمر – قيل: هو غير مستقيم معنى، لأنه يقتضي أن الأنهار في صفة الجنة. وهي فيها، لا في صفتها.

مع تأنيث الضمير العائد على المثل حملاً على المعنى.

(الثالث): أن ثمة موصوفاً محذوفاً، أي: مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار، وقوله (وظلها) مبتدأ محذوف الخبر أي: كذلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾

﴿ والَّذين آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بما أُنْزِلَ إليْكَ ﴾ لأنه يحصل لهم به من المعاني والدلائل وكشف الشبهات ما لم يحصل لهم من تلك الكتب السالفة قيل: عنى بهم الذين آمنوا بالنبيّ ﷺ من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، فإنهم يفرحون بما أنزل من القرآن؛ لما يرون فيه من الشواهد على حقيته التي لا يمترى فيه، ومن المعارف والمزايا الباهرة التي لا تحصى كما قال تعالى: ﴿ الَّذينَ آتيْناهُمُ الْكتابَ يَتْلُونَه حَقَّ تلاوَته ﴾ [البقرة: ١٢١]. ﴿ ومِنَ الأحْزاب ﴾ يعني بقية أهل الكتاب والمشركين ﴿ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾ وهو ما يخالف معتقدهم، وجوّز أن يراد (بالموصول) من يفرح به منهم لمجرد تصديقه لما بين يديه وتعظيمه له وإن لم يؤمنوا. وبـ ﴿ الأحزاب ﴾ المشركون، خاصة المنكرين لما فيه من التوحيد. ولذا أمر برد إنكارهم بقوله تعالى: ﴿ قلْ إنّما أُمِرْتُ أنْ أعْبدَ اللّهَ ولاَ أُشْرِكَ به إلَيْهِ أدْعُو ﴾ اي: لا إلى غيره ﴿ وإلَيْه مآبِ ﴾ أي: مرجعي للجزاء، لا إلى غيره.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

﴿ وكَذَلكَ أنزَلْناهُ حُكْماً عَرَبياً ﴾ اي: حاكماً بالحق، او حكمة عربيّة ﴿ ولَئنْ اتَّبَعْتَ أهْواءَهُمْ بَعدَ مَا جاءك من الْعِلْم مَا لَكَ من اللّهِ منْ وليٍّ ولا واقٍ ﴾ أي لئن تابعتهم على دين، ما هو إلا أهواء بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج فلا ينصرك ناصر ولا يقيك واق. وهذا من باب الإلهاب والتهييج والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب وأن لا يزلّ زالّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة. وإلاّ فكان رسول الله ﷺ من شدة الشكيمة بمكان – كذا في (الكشاف).

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾

﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً** ﴾ أي: مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم وهو ردٌّ لقولهم: لو كان نبياً لكان من جنس الملائكة كما قالوا: ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُول يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي في الأسواق ﴾ [الفرقان: ٧]، وإعلامٌ، بأن ذلك سنة كثير من الرسل، فما جاز في حقهم لِمَ لا يجوز في حقه؟ وقد قال تعالى له: ﴿ قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِليَّ ﴾ [الكهف: ١١٠]. ﴿ **وَمَا كانَ لِرَسُولٍ أنْ يأتِي بآيَةٍ إلاَّ بإذْنِ اللَّهِ** ﴾ أي: ما صح له ولا استقام ولم يكن في وسعه أن يأتي بما يقترح عليه، إلا بإرادته تعالى في وقته، لأن الآيات معينة بإزاء الأوقات التي تحدث فيها، من غير تغيّرٍ وتبدّلٍ وتقدمٍ وتأخّرٍ. فأمرها منوط بمشيئته تعالى، المبنية على الحكم والمصالح التي عليها يدور أمر الكائنات ﴿ **لِكُلِّ أجَلٍ كِتابٌ** ﴾ أي لكل وقت من الأوقات أمر مكتوب، مقدّر معيّن أو مفروض في ذلك الوقت على الخلق حسبما تقتضيه الحكمة فالشرائع معينة عند الله بحسب الأوقات، في كل وقت يأتي، بما هو صلاح ذلك الوقت، رسولٌ من عنده. وكذا جميع الحوادث من الآيات. وغيرها فليس الأمر على إرادة الكفار واقتراحاتهم، بل على حسب ما يشاؤه تعالى ويختاره وفيه ردّ لاستعجالهم الآجال وإتيان الخوارق والعذاب.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾

﴿ **يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يشاءُ** ﴾ أي: ينسخ ما يشاء نسخه من الشرائع لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت ﴿ **وَيُثْبِت** ﴾ أي: بَدَلَهُ ما فيه المصلحة، أو يبقيه على حاله غير منسوخ ﴿ **وَعِنْدَهُ أمُّ الْكِتابِ** ﴾ أي: أصله.

قال الرازيّ: العرب تسمي كلّ ما يجري مجرى الأصل للشيء أُمًّا له، ومنه أم الرأس للدماغ وأم القرى لمكة. وكل مدينة فهي أمّ لما حولها من القرى. فكذلك أم الكتاب هو الذي يكون أصلاً لجميع الكتب. روى عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية يقول: يبدل الله ما يشاء فينسخه ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿ **وَعِنْدَهُ أمُّ الْكِتَابِ** ﴾ يقول: وجملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ والمنسوخ. وما يبدل وما

يثبت. كل ذلك في كتاب. وعن قتادة: أن هذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيةٍ أوْ نُنسِهَا﴾ الآية.

تنبيه:

تمسّك جماعة بظاهر قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ و يُثبتُ﴾ فقالوا: إنها عامة في كل شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ. قالوا: يمحو الله من الرزق ويزيد فيه. وكذا القول في الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر.

قال الرازيّ: هو مذهب عمر وابن مسعود. والقائلون بهذا القول كانوا يدعون ويتضرعون إلى الله تعالى في أن يجعلهم سعداء لا أشقياء . انتهى.

أشار بذلك إلى آثار أخرجها ابن جرير عن عمر وابن مسعود. وليس في الصحيح شيء منها.

ظهرَ لي في دمّر في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢٤:

إنّ ما يستدل به الكثير من الآيات لمطلب ما، أن يدقق النظر فيه تدقيقاً زائداً، فقد يكون سياق الآية لأمرٍ لا يحتمل غيره، ويظنّ ظانّ أنه يستدل بها في بحثٍ آخر، وقد يؤكده ما يراه من إطباق كثيرٍ من أرباب التصانيف على ذلك وإنما المدار على فهم الأسلوب والسياق والسباق.

خُذْ لك مثلاً قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَايَشاءُ وَيُثبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فكم ترى من يستدل بها على العلم المعلّق، ومحو ما في اللوح الذي يسمونه (لوح المحو والإثبات) ويوردون من الإشكالات والأجوبة ما لا يجد الواقف عليه مقنعاً ولا مطمأناً.

مع أنّ هذه الآية، لو تمعّن فيها القارئ، لعلم أنها في معنى غير ما يتوهمون. وذلك أنهم كانوا يقترحون على رسول الله ﷺ في أوائل البعثة، أن يأتي بآية كآية موسى وعيسى. توهماً أن ذلك هو أقصى ما يدل على نبوة النبيّ في كل زمان ومكان فاعلمهم الله تعالى أنّ دور تلك الآيات الحسّيّة انقضى دورها وذهب عصرها. وقد استعدّ البشر للتنبّه إلى الآية العقلية وهي آية الاعتبار والتبصّر. وإن تلك الآيات محيت كما محي عصرها. وقد أثبت تعالى غيرها ممّا هو أجلى وأوضح وأدلّ على الدعوة. وهو قوله تعالى قبلها: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أنْ يَأْتِيَ بآيةٍ إلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ. يَمْحُو اللّهُ مَا يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَاب﴾.

وقول تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾

﴿**وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِينَ نَعِدُهُمْ**﴾ أي: من إنزال العذاب في حياتك ﴿**أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ**﴾ أي: قبل ذلك ﴿**فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاَغُ**﴾ أي: تبليغ الوحي ﴿**وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ**﴾ أي: حسابهم وجزاؤهم. قال أبو حيّان: جواب الشرط الأول (فذلك شافيك) والثاني (فلا لوم عليك) وقوله تعالى ﴿**فَإِنَّما عَلَيْكَ...**﴾ الخ دليل عليهما.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾

﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأتي الأَرْضَ نَنْقُصُها من أَطْرافها**﴾ أي: أرض الكفرة. ننقصها عليهم بإظهار دين الإسلام في أطراف ممالكهم.

قال ابن عباس: أي: أو لم يروا أنا نفتح للرسول الأرض بعد الأرض؛ يعني أن انتقاص أحوال الكفرة وازدياد قوة المسلمين من أقوى العلامات على أنه تعالى ينجز وعده، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا منْ أَطْرافِهَا، أَفهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، وقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا في الآفاقِ..﴾ [فصلت: ٥٣].

قال الشهاب: هذا مرتبط بما قبله. يعني لم يؤخر عذابهم لإهمالهم، بل لوقته المقدر، أو ما ترى نقص ما في أيديهم من البلاد وزيادة ما لأهل الإسلام. ولم يخاطب النبيّ ﷺ به تعظيماً له، وخاطبهم تهويلاً وتنبيهاً عن سِنةِ الغفلة. ومعنى ﴿**نأتي الأرض**﴾ يأتيها أمرنا وعذابنا. انتهى.

وقيل: ننقصها من أطرافها بموت أهلها وتخريب ديارهم وبلادهم. فهؤلاء الكفرة كيف أمنوا من أن يحدث فيهم أمثال هذه الوقائع؟.

تنبيه:

يذكرون - ها هنا - رواية عن ابن عباس ومجاهد: أن نقصها من أطرافها هو

موت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها. ويؤيد من يعتمد ذلك بأن الجوهريّ حكى عن ثعلب: أن الأطراف يطلق على الأشراف جمع طَرَف وهو الرجل الكريم، وشاهده قول الفرزدق:

وَاسْأَلْ بِنَا وَبِكُمْ إذا وَرَدَتْ منىً   أطْرافُ كلِّ قَبيلةٍ منْ يَتبَعُ

يريد أشراف كل قبيلة. فمعنى الآية: أو لم يروا ما يحدث في الدنيا من الاختلافات: موت بعد حياة، وذل بعد عزّ، ونقص بعد كمال! وإذا كان هذا مشاهداً محسوساً، فما الذي يؤمنهم من أن يقلب اللّه الأمر عليهم فيذلهم بعد العزة! ولايخفاك أن هذا المعنى لايذكره السلف تفسيراً للآية على أنه المراد منها، وإنما يذكرونه تهويلاً لخطب موت العلماء بسبب أنهم أركان الأرض وصلاحها وكمالها وعمرانها، فموتهم نقص لها وخراب منها. كما قال أحمد بن غزال:

الأرض تحيى إذا ما عاش عالمها   متى يمتْ عالم منها يمتْ طَرَفُ

كالأرض تحيى إذا ما الغيثُ حلّ بها   وإن أَبى عادَ في أكْنافِهَا التَّلَفُ

ولذا قال الأزهريّ كما في (لسان العرب): أطراف الأرض نواحيها الواحد طرف، و﴿ **نَنقصها من أطرافها** ﴾ أي نواحيها ناحية ناحية، وعلى هذا منْ فسر (نقصها من أطرافها) فتوح الأرضين. وأما من جعل (نقصها من أطرافها) موتَ علمائها فهو من غير هذا، قال: والتفسير على القول الأول.

وقوله تعالى: ﴿ **واللّهُ يَحْكُمُ** ﴾ أي: ما يشاء كما يشاء، وقد حكم للإسلام بالعز والإقبال. وعلى الكفر بالذل والإدبار، حسبما يشاهد من المخايل والآثار. وفي الالتفات من التكلم إلى الغيبة، وبناء الحكم على الاسم الجليل، من الدلالة على الفخمة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر، بالإشارة إلى العلة، ما لايخفى وهو جملة اعتراضية جيء بها لتأكيد فحوى ما تقدمها.

وقوله تعالى: ﴿ **لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ** ﴾ اعتراض في اعتراض. لبيان علوّ شأن حكمه تعالى: وقيل: نصب على الحالية كأنه قيل: والله يحكم نافذاً حكمه – كما تقول: جاء زيد لا عمامة على رأسه، أي حاسراً. و(المعقب) من يكرّ على الشيء فيبطله، وحقيقته من يعقبه ويقفّيه بالرد والإبطال. أفاده أبو السعود.

﴿ **وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ أي فعمّا قليل يحاسبهم ويجازيهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا بالقتل والأسر.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾

﴿**وَقَدْ مَكَرَ الَّذينَ منْ قَبْلِهِمْ**﴾ أي مكر الكفار الذين خلوا، إيقاع المكروه بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاء، وقوله: ﴿**فللّه الْمَكْرُ جَميعاً**﴾ إشارة إلى ضعف مكرهم وكيدهم لاضمحلاله وذهاب أثره، وأنه مما لا يسوء، وأن المكر المرهوب هو ما سيؤخذون به من إيقاع فنون النكال، وهم نائمون على فرش الإمهال، مما لا يخطر لهم على بال كما يومئ إليه قوله تعالى: ﴿**يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ**﴾ أي فيوفيها جزاءها المعدّ لها على ما كسبت من فنون المعاصي التي منها مكرهم، من حيث لا يحتسبون ﴿**وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لمَنْ عُقْبى الدّار**﴾ أي العاقبة الحميدة، وعلى من تدور الدائرة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمكَرُوا مَكراً وَمَكرْناَ مكْراً وَهُمْ لايَشْعُرونَ، فانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقبةُ مَكْرهِمْ أنَّا دمَّرْناهُمْ وَقوْمَهُم أجمَعين، فَتلْكَ بُيُوتُهمْ خاويةً بمَا ظلَموا...﴾ [النمل: ٥٠-٥٢] الآيات.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

﴿**وَيَقُولُ الّذينَ كفرُوا لَستَ مُرسلاً قُلْ كَفى باللّه شَهيداً بَيْني وبيْنكُمْ**﴾ فإنه أظهر على رسالتي، من الحجج القاطعة والبينات الساطعة. وما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر. قيل: جعل هذا شهادة (وهوفعل والشهادة قول) على سبيل الاستعارة، لأنه يغني عن الشهادة بل هو أقوى. انتهى. ولا يخفى أن الشهادة أعمّ من القول والفعل. على أن المراد من تلك الحجج هي آيات القرآن والذكر الحكيم، وهي كلامه تعالى، وقد قال تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحقٌّ هُوَ، قُلْ إي وربِّي﴾ [يونس: ٥٣].

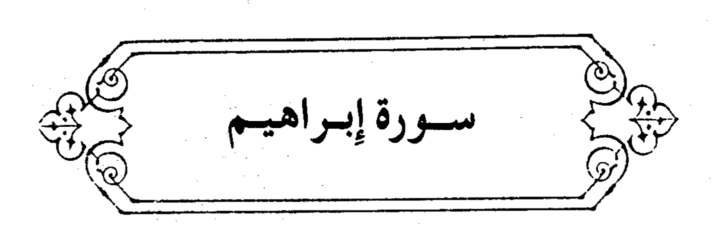
وقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ عنْدَهُ علْمُ الْكتاب**﴾ أي ومن هو من علماء أهل الكتاب فإنهم يجدون صفة النبيّ ﷺ ونعته في كتابهم من بشارات الأنبياء به. كما قال تعالى: ﴿الّذي يجدُونَهُ مكْتُوباً عنْدَهُمْ في التَّوْراة والإنْجيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿أوَ لَمْ يَكُنْ لهُم آيةً أنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَني إسْرائيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

ويروى عن مجاهد أنه عنى بـ ﴿**منْ عنْدَهُ علمُ الكتَاب**﴾ عبد اللّه بن سلام.

ونوقش بأن السورة مكية، وإسلامه كان بالمدينة. وأجاب البعض بأن بعض السور المكية ربما وجد في مدنيّ وبالعكس، وكأن هذه الآية من ذلك.

وقد روى الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في (دلائل النبوة) : أن عبد اللّه بن سلام أسلم قبل الهجرة، حيث رحل إلى مكة قبلها، واستيقن نبوّته صلوات اللّه عليه. ثم آب إلى المدينة وكتم إسلامه إلى أن كانت الهجرة. واللّه أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة إبراهيم

سميت به لاشتمالها على دعوات لإبراهيم عليه السلام، تمت بهذه الملة. كالحج وجعل الكعبة قبله الصلاة. مع الدلالة على عظمتها، بحيث صارت من المطالب المهمة للمتفق على غاية كمال إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وعلى نبوّة نبيّنا عليه أكمل التحيات وأفضل التسليمات مع غاية كماله، وهذا من أعظم مقاصد القرآن! أفاده المهايميّ.

وهي مكية النزول، قيل: إلاّ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذين بَدَّلُوا نِعْمَت اللّه كُفراً﴾ [إبراهيم:٢٨]. وهي اثنتان وخمسون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾

﴿آلر كِتابٌ﴾ خبر لـ (آلر) على كونه مبتدأ. أو خبر لمحذوف على كونه خبراً لمضمر، أو مسروداً على نمط التعديد. وقوله تعالى: ﴿أَنزَلْناهُ إِلَيْكَ﴾ صفة له ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ من الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ﴾ أي: من الضلال إلى الهدى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: أمره. وقوله تعالى: ﴿إلى صِراطِ العَزيزِ الْحَميدِ﴾ بدل من قوله: ﴿إلى النُّورِ﴾ بتكرير العامل. أو مستأنف، كأنه قيل: إلى أي نور؟ فقيل: ﴿إلى صراط ...﴾ الخ و﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يغالَب ولا يمانع بل هو القاهر القادر. و﴿الْحَميدِ﴾ المحمود في أمره ونهيه لإنعامه فيهما بأعظم النعم.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾

﴿اللهِ الَّذي لَهُ ما في السَّمَواتِ ومَا في الأرضَ﴾ قرئ لفظ الجلالة بالرفع على الابتداء وخبره ما بعده. أو على الخبرية لمحذوف. وقرئ بالجر، عطف بيان لـ ﴿الْعَزِيزِ الْحَميدِ﴾ ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: بما أنزلناه إليك ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يوم القيامة وهوعذاب النار.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

﴿الَّذينَ يستَحبُّونَ الْحَياةَ الدُّنيا على الآخرَةِ﴾ أي: يؤثرونها عليها ﴿وَيَصُدُّونَ عن

سَبيل اللّه﴾ بتعويق الناس عن الإيمان ﴿**وَيبْغُونها عِوَجاً**﴾ أي يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالردة، أو يبغون لها اعوجاجاً، أي يطلبون أن يروا فيها عوجاً قادحاً، على الحذف والإيصال ﴿**أولئكَ في ضَلالٍ بعيدٍ**﴾ أي: ضلّوا عن طريق الحق ووقفوا دونه بمراحل، والبعد في الحقيقة للضال نفسه، وصف به فعله للمبالغة، بجعل الضلال نفسه ضالاً. وفي إيثار الظرف على (أولئك ضالّون ضلالاً بعيداً) دلالة على تمكّنهم فيه، باشتماله عليهم اشتمال المحيط على المحاط، مبالغة في إثبات وصف الضلال. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾

﴿**وَمَآ أَرسَلْنا من رَّسُولٍ إلاَّ بلسَان قَوْمه ليُبيِّنَ لَهُمْ**﴾ أي: ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولوا: لم نفهم ما خوطبنا به كما قال: ﴿وَلَوا جعَلْناهُ قرآناً أعْجَمياً لقَالُوا لوْلاَ فُصِّلَتْ آياتُهُ﴾ [فصلت:٤٤]. (فإن قلت): لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم، وإنما بعث إلى الناس جميعاً ﴿قلْ يَا أيُّهَا النَّاسُ إنّي رَسُولُ اللهِ إليْكُمْ جَميعاً﴾ [الأعراف:١٥٨]، بل إلى الثقّلين وهم على ألسنة مختلفة. فإن لم تكن للعرب حجة، فلغيرهم الحجة. وإن لم تكن لغيرهم حجة، فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة أيضاً. (قلت): لايخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحدٍ منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل؛ فبقي أنِ ينزل بلسان واحد فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول لأنهم أقرب إليه. فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد، واجتهادهم في تعلّم لفظه وتعلّم معانيه، وما يتشعّب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر في إتعاب النفوس وكدّ القرائح فيه، من القُرَب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف، ولأنه لو نزل بالسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها، وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحدٍ منها، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها، كما كلم أمته التي هو منها يتلوه عليهم معجزاً ـ لكان ذلك

أمراً قريباً من الإلجاء. ومعنى ﴿ بلسان قومه ﴾ بلغة قومه – كذا في (الكشاف).

وقال بعض المحققين: يقول قائل: ألا تدل هذه الآية على أن بعثة النبيّ ﷺ كانت للعرب خاصة؟ نقول: لا. لأنه جرت سنة الله أن يختار أمة واحدة ويعدّها لتهذيب الأمم الأخرى. كما يعد فرداً واحداً منها لتهذيب سائر أفرادها. ولما كانت الأمة العربية هي المختارة لتهذيب الأمم وتعديل عوجها وإقامة منار العدل في ذلك العالم المظلم – فقد وجب أن التهذيب الإلهي ينزل بلغتها خاصة حتى تستعد وتتهيّأ لأداء وظيفتها. وقد أتم الله نعمته عليها، فقامت بما عهد إليها بما أدهش العالم أجمع، ولله في خلقه شؤون.

تنبيه:

استدل بالآية مَنْ ذهب إلى أن اللغات اصطلاحية. قال: لأنها لو كانت توقيفيّة لم تعلم إلاّ بعد مجيء الرسول، والآية صريحة في علمها قبله.

وقوله تعالى: ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ من يشآءُ ﴾ أي لمباشرته أسبابه المؤدية إليه، أو يخذله ولا يلطف به لعلمه أنه لا ينجع فيه الإلطاف. ﴿ وَيَهدْي من يَشاءُ ﴾ لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق. و(الفاء) فصيحة، كأنه قيل: فبيّنوه، فأَضَلَّ الله من شاء إضلاله وهدى من شاء. والحذف للإيذان بأن مسارعة كلّ رسول إلى ما أمر به، وجريان كل من أهل الخذلان والهداية على سنته، أمر محقق غني عن الذكر والبيان ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي: فلا يغالَب، ولا يقضي إلا بما فيه الحكمة.

ثم أشير إلى تفصيل ما أجمل في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنا مِنَ رَّسُولٍ إلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ ﴾ بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

﴿ وَلَقدْ أَرْسَلْنا مُوسى بآيَاتِنا أنْ أَخْرِجْ قوْمكَ من الظُّلُماتِ إلى النُّور وَذَكِّرْهُم بأيَّامِ اللهِ ﴾ أي: أنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم، كقوم نوح ولوط. ومنه: أيام العرب، لحروبها وملاحمها، لأنها تعظم بها الأيام. وقيل: أيامه نعماؤه عليهم، فتكون الآية بعدها تفصيلاً لها. وقيل: هي أعمّ من النعماء والبلاء. والوجه الأول أولى، فيما أراه لاختصاص كل آية بمقام، والتأسيس خير من التاكيد. وفي الالتفات

من التكلم إلى الغيبة، بالإضافة إلى الاسم الجليل، إيذان بفخامة شأنها. قال أبو بكر ابن العربيّ: هذه الآية أصل في الوعظ المرقق للقلوب.

﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ أي: في التذكير بها ﴿لآياتٍ لِكُلِ صبَّارٍ شكُورٍ﴾ أي: يصبر على بلائه ويشكر نعماءهُ. فإذا سمع بما أنزل اللّهُ من البلاء على الأمم، أو أفاض عليهم من النعم، تنبّه على ما يجب عليه من الصبر والشكر. وقيل: أراد (لكلّ مؤمنٍ) لأن الشكر والصبر عنوان المؤمن. وتقديم (الصبّار) على (الشكور) لتقدم متعلق الصبر - أعني الإيمان على متعلق الشكر - أعني النعماء - وكون الشكر عاقبة الصبر.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾

﴿وإذْ قالَ مُوسى لِقوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ أنجاكُمْ من آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكمْ سوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: يبغونكم إياه ﴿ويُذَبِّحُونَ أبْنَآءكمْ﴾ أي: المولودين صغاراً ﴿ويَسْتَحْيُون نِساءَكُمْ﴾ أي: يبقونهن في الحياة ﴿وفِي ذَلِكُم بلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عظيمٌ﴾ الإشارة إلى فعل آل فرعون.. ونسبتُه إليه تعالى للخلق أو الإقدار والتمكين. قيل: كونُ قتل الأبناء، ابتلاء ظاهر. وأما استحياء النساء، وهن البنات أي استبقاؤهن، فلأنهم كانوا يستخدمونهن ويفرقون بينهن وبين الأزواج، أو لأن بقاءُهن دون البنين رزية في نفسه كما قيل:

ومن أعظم الرُّزْءِ فيما أرَى بقاءُ البنات وموتُ البَنينَا

ويجوز أن تكون الإشارة إلا الإنجاء من ذلك. و(البلاء) الابتلاء بالنعمة، وهو بلاء عظيم.

قال الزمخشري: البلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعاً. قال تعالى: ﴿ونَبْلُوكُم بالشَّرِّ والْخَيرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، وقال زهير:

* فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو *

ولذا جوّز أن تكون الإشارة إلى جميع ما مرّ، الشامل للنعمة والنقمة.

لطيفة:

أشار أهل المعاني إلى نكتة مجيء ﴿ويُذَبِّحُونَ﴾ هنا بالواو، وفي سورة البقرة

﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ [البقرة:٤٩]، وفي الأعراف: ﴿ يُقَتِّلُونَ ﴾ [الأعراف:١٤١]، بدونها. والقصة واحدة - بأنه حيث طرح الواو قصد تفسير العذاب وبيانه، فلم يعطف لما بينهما من كمال الاتصال. وحيث عطف - كما هنا - لم يقصد ذلك. والعذاب، إن كان المراد منه الجنس، فالتذبيح، لكونه أشدّ أنواعه، عطف عليه عطف جبريل على الملائكة، تنبيهاً على أنه لشدته كأنه ليس من ذلك الجنس. وإن كان المراد به غيره، كاسترقاقهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة، فهما متغايران والمحلّ محلّ العطف. وجوّز أيضاً كون العطف هنا للتفسير وكأن التفسير - لكونه أوفى بالمراد وأظهر - بمنزلة المغاير فلذا عطف.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ** ﴾ أي: آذن وأعلم إعلاماً بليغاً - من جملة ما قال موسى لقومه ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ** ﴾ أي: نعمه، بصرفها إلى ما خُلقت له. كالعقل إلى تصحيح الاعتقاد فيه واستعمال سائر النعم بمقتضاه ﴿ **لَأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾ أي: من النعم ﴿ **وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾ فيصيبكم منه ما يسلب تلك النعم ويحل أشدّ النقم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ** ﴾ أي: لقومه ﴿ **إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ** ﴾ أي: غنيٌّ عن شكر عباده، المحمود بأجلّ المحامد. وإن كفره من كفره. وهو تعليل لما حذف من جواب(إنْ) أي: إن تكفروا لم يرجع وباله إلاّ عليكم. فإن الله لغنيّ عن شكر الشاكرين.

وفي (صحيح مسلم)[١] عن أبي ذرّ، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عزّ

---

(١) أخرجه مسلم في: البرّ والصلة والآداب، ١٥ - باب تحريم الظلم، حديث رقم ٥٥ من حديث طويل عظيم جداً فاقرأه.

وجلّ: أنه قال: «يا عبادي! لو أنّ أوّلكم و آخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، مازاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي! لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسْألتَهُ ما نقص ذلك مما عندي إلاّ كما ينقص المخْيَطُ إذا أُدْخلَ البحرَ» فسبحانه من غني حميد

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أي: في مؤاخذة من كفر ﴿نَبؤاْ الّذينَ من قَبْلكُمْ قومْ نُوحٍ﴾ أي: مع كثرتهم ﴿وعَادٍ﴾ أي مع غاية قوتهم ﴿وثَمُودَ﴾ مع كثرة تحصنهم وصنائعهم ﴿والّذينَ مِن بَعْدهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إلاّ اللّهُ جاءَتهُمْ رُسُلُهُم بالْبيِّنَاتِ فردُّوا أَيْديهُمْ في أفْوَاههمْ وَقَالُوا إنَّا كَفرْنا بمآ أرْسِلتُم به وإنَّا لفي شَكٍ ممَّا تدْعُوننَا إليْه مُريبٍ﴾.

قال ابن جرير: هذا من تمام قول موسى لقومه، يعني: وتذكاره إياهم بأيام اللّه بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسل.

قال ابن كثير: وفيما قال ابن جرير نظر؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من اللّه تعالى لهذه الأمة؛ فإنه قد قيل: إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه لقصّه عليهم، ولاشك حينئذ أن تكون هاتان القصتان في التوراة واللّه أعلم.

وقوله تعالى: ﴿والّذينَ من بَعْدهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إلاّ اللّهُ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضاً، أو عطف (الذين) على قوم نوح، و ﴿لا يعلمهم..﴾ الخ اعتراض، ومعنى الاعتراض، على الثاني: ألم يأتكم أنباء الجمّ الغفير الذي لا يحصى كثرة فتعتبروا بها؟ إنّ في ذلك لمعتبراً. وعلى الأول. فهو ترق ومعناه: ألم يأتكم نبأ هؤلاء ومن لا يحصى بعدهم؟ كأنه يقول: دع التفصيل فإنه لا مطمع فيه، وفيه لطف لإيهام الجمع بين الإجمال والتفصيل.

وقوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ يحتمل الأيدي والأفواه أن يكونا الجارحتين المعروفتين. وأن يكونا من مجاز الكلام. وفي الأول وجوه:

أي: ردوا أيديهم في أفواههم فعضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل، كقوله: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران:١١٩]، أو وضعوها على أفواههم ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك. أو وضعوها على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء: أن يكفّوا ويسكتوا. أو أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل أن: اسكتوا. و(في) بمعنى (إلى) أو وضعوا أيديهم على أفواه الرسل منعاً لهم من الكلام أو أنهم أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواههم ليقطعوا كلامهم. ومن بالغَ في منع غيره من الكلام؛ فقد يفعل به ذلك. أو أشاروا بأيديهم إلى جوابهم وهو قولهم ﴿إِنَّا كَفَرْنَا﴾ أي: هذا جوابنا الذي نقوله بأفواهنا، والمراد إشارتهم إلى كلامهم كما يقع في كلام المتخاطبين، أنهم يشيرون إلى أن هذا هو الجواب ثم يقرّرونه، أو يقررون ثم يشيرون بأيديهم إلى أن هذا هو الجواب. قيل: وهو أقوى الوجوه المتقدمة. لأنهم لما حاولوا الإنكار على الرسل كل الإنكار، جمعوا في الإنكار بين الفعل والقول. ولذا أتى بالفاء تنبيهاً على أنهم لم يمهلوا، بل عقبوا دعوتهم بالتكذيب. وفي تصديرهم الجملة بـ(أن) ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب وإعادة ذلك، مبالغة في التأكيد.

وفي الثاني – أعني المعنى المجازيّ – وجوه:

قال أبو مسلم الأصفهانيّ: المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج، وذلك لأن إسماع الحجة إنعام عظيم، والإنعام يسمى يداً، يقال لفلان عندي يد إذا أولاه معروفاً؛ وقد يذكر اليد والمراد منها صفقة البيع والعقد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠]. فالبينات التي كان الأنبياء عليهم السلام يذكرونها ويقررونها نِعمٌ وأيادٍ، وأيضاً العهود التي كانوا يأتون بها مع القوم أيادٍ؛ وجمع اليد في العدد القليل هو الأيدي، وفي العدد الكثير الأيادي. فثبت أن بيانات الأنبياء عليهم السلام وعهودهم صح تسميتها بالأيدي. وإذا كانت النصائح والعهود إنما تظهر من الفم، فإذا لم تقبل صارت مردودة إلى حيث جاءت؛ ونظير قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [النور:١٥]، فلما كان القبول تلقياً بالأفواه عن الأفواه كان الدفع رداً في الأفواه. انتهى.

وفي (الرازيّ) تتمة الأوجه فانظرها إن شئت.

قال في (العناية): فإن قلت: قولهم ﴿إنَّا كفرْنا﴾ جزم بالكفر لاسيما وقد أكّد بـ (إن)، فقولهم ﴿وإنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ ينافيه، قلت: أجيب بأن الواو بمعنى أو، أي أحد الأمرين لازم وهو: إنا كفرنا جزماً فإن لم نجزم فلا أقل من أن نكون شاكين فيه. وأيًّا ما كان، فلا سبيل إلى الإقرار. وقيل: إن الكفر عدم الإيمان عمن هو من شأنه، فكفرنا بمعنى لم نصدق، وذلك لا ينافي الشك، أو متعلق الكفر الكتب والشرائع، ومتعلق الشك مايدعونهم إليه من التوحيد مثلاً. انتهى.

أي: فلا ينافي شكّهم في ذلك كفرهم القطعيّ بالأول.

وقوله تعالى: ﴿مُرِيبٍ﴾ بمعنى موقع في الريبة، من (أرابه) أوقعه فيها؛ أو ذي ريبة، من (أراب): صار ذا ريبةٍ وهي صفة مؤكدة.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

﴿قالَتْ رُسُلُهُمْ أفي اللهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّموات والأرضِ﴾ أي: وهو ممّا لا مجال للشك فيه لغاية ظهوره.

قال ابن كثير: هذا يحتمل معنيين: أحدهما: أفي وجوده شك؟ فإن الفطَر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به. فإن الاعتراف به ضروريّ في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعض الفطر شك واضطراب فيحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه فاطر السموات والأرض - أي الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثالٍ سبق - فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما. فلا بدّ لهما من صانع وهو الله لا إله إلاّ هو خالق كل شيءٍ وإلهه ومليكه. والمعنى الثاني: أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له، شك؟ وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلاّ هو وحده لا شريك له، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربّهم من الله زلفى. انتهى.

وسبق لنا في سورة الأعراف البحث في أن معرفته تعالى ضرورية أو نظرية فارجع إليه.

وفي إدخال همزة الإنكار على الظرف إيذان بأن مدار الإنكار ليس نفس الشك بل وقوعه فيما لا يكاد يتوهم فيه الشك أصلاً، وفي العدول عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأن يقولوا: (أَأَنْتُمْ في شَكٌّ مُريبٍ من اللّهِ) مبالغة في تنزيه ساحة جلاله عن شائبة الشك وتسجيل عليهم بسخافة العقول.

وقوله تعالى: ﴿**يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم من ذُنُوبِكُمْ**﴾ أي: يدعوكم إلى الإيمان بإرساله إيانا، لا أنّا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم: (مما تدعوننا إليه). ولام (ليغفر) متعلقة بـ (يدعو) أي: لأجل المغفرة لا لفائدته، تعالى وتقدّس، أو للتعدية أي: يدعوكم إلى المغفرة: كقولك: دعوتك لزيد. و(من) إمّا تبعيضيّه أي: بعض ذنوبكم وهو ما بينهم وبين اللّه تعالى دون المظالم، أو صلة، على مذهب الأخفش وغيره، من زيادتها في الإيجاب، أو للبدل أي: بدل عقوبة ذنوبكم، أو على تضمين (يغفر) معنى (يخلص).

وادعى الزمخشريّ مجيئهِ بـ (من) هكذا في خطاب الكافرين دون المؤمنين في جميع القرآن. قال: وكان ذلك للتفرقة بين خطابين، ولئلا يسوى بين الفريقين في الميعاد.

قال في (الكشف): وللتخصيص فائدة أخرى وهي التفرقة بين الخطابين بالتصريح بمغفرة الكل وإبقاء البعض في حق الكفرة مسكوتاً عنه لئلا يتكلوا على الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿**وَيُؤَخِّرَكُمْ إلى أجَلٍ مُسَمّىً**﴾ أي: يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمّى ﴿**قَالُوا إنْ أنتُمْ إلاّ بشرٌ مِّثْلُنا تُرِيدُونَ أن تَصدُّونا عمّا كانَ يَعْبُدُ آباؤنا فأتُونَا بِسُلْطانٍ مُّبينٍ**﴾ أي: آية مما نقترحه تدل على فضلكم علينا بالنبوّة.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

﴿**قالتْ لَهُمْ رسُلُهُمْ إن نَحنُ إلاّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ولَكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ على من يشاءُ منْ عِبادِهِ**﴾ أي: بالرسالة والنبوة ﴿**وَمَا كانَ لنا أن نَأْتِيَكُمْ بسُلْطانٍ إلاّ بِإذْنِ اللّهِ**﴾ أي: بأمره وإرادته،

وهو لم يرد ذلك، لقوله: ﴿ وَمَا مَنَعَنا أن نُرْسِلَ بِالآياتِ إلا أن كَذَّبَ بها الأوّلُونَ ﴾ [الإسراء:٥٩].

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ قال الزمخشري: أمرٌ منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً وأَمَرُوها به كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم وما يجري علينا منكم. ألا ترى إلى قوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

﴿ وَمَا لَنَا ألاّ نَتوكَّلَ على اللهِ ﴾ ومعناه: وأيّ عذر لَنَا في أن لا نتوكل عليه ﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنا ﴾ أي: أرشد كلاً منا سبيله ومنهاجه الذي شرع له، وأوجب عليه سلوكه في الدين. وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح في التوكل، قالوا على سبيل التوكيد القسمّي، مظهرين لكمال العزيمة: ﴿ وَلَنصْبِرَنَّ على مَا ءَاذَيْتُمُونا ﴾ أي: من الكلام السّيّء والأفعال السخيفة. وقوله: ﴿ وعلَى اللهِ فلْيتَوكَّلِ المُتوكِّلُونَ ﴾ فيه اهتمام بالتوكل عليه سبحانه، لأن مقام الدعوة يقتضيه. ولذا أعيد ذكره.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

﴿ وقالَ الَّذينَ كفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لنُخرِجنَّكُم مِنْ أرْضِنَا أوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنا، فأوْحى إليْهِمْ رَبُّهُمْ لنُهْلِكَنَّ الظَّالمينَ ﴾.

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرْضَ من بَعْدِهِمْ، ذَلَكَ لِمَنْ خافَ مقامي وَخافَ وَعيدِ ﴾ يخبر تعالى عما توعد به الكافرون رسلَهم، لما رأوهم صابرين متوكلين، لا يهمهم شأنهم من الإخراج من الأرض، والنفي من بين أظهرهم، أو العود في ملتهم. والمعنى: ليكونن أحد الأمرين.

والسبب في هذا التوعد - كما قال الرازيّ - أن أهل الحقّ في كل زمان يكونون قليلين، وأهل الباطل يكونون كثيرين. والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين. فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة. فإن قيل: يتوهم من لفظ (العود) أنهم كانوا في ملة الكفر قبلُ. أجيب: بأن (عاد) بمعنى صار. وهو كثير الاستعمال بهذا المعنى، أو الكلام عى ظنهم وزعمهم أنهم كانوا من أهل ملتهم قبل إظهار الدعوة. أو الخطاب للرسل ولقومهم، فغلبوا عليهم في نسبة العود إليهم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ......﴾ الخ وعد صادق للرسل، وبشارة حقة. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ، وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرضِ وَمَغَارِبَها﴾ [الأعراف: ١٣٧]، والآيات في ذلك كثيرة. والإشارة في (ذلك) إلى الموحَى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين. وقوله ﴿لِمَنْ خَافَ...﴾ الخ، أي: للمتقين لأنهم الموصوفون بما ذكر كقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]. و(المقام) إما موقف الحساب، فهو اسم مكان، وإضافته إليه سبحانه لكونه بين يديه، أو مصدر ميميّ، بمعنى: حفظي وقيامي لأعمالهم ليجازوا عليها. أو مقحم للتفخيم والتعظيم كما يقال: المقام العالي. وياء المتكلم في (وعيدِ) محذوفة للاكتفاء بالكسرة عنها في غير الوقف.

قال السمين: أثبت الياءَ - هنا وفي (ق) في موضعين: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فحقَّ وَعيدِ﴾ [ق:١٤]، ﴿فذكِّر بالْقُرآنِ مَن يَخَافُ وَعيدِ﴾ [ق:٤٥]، وصلاً، وحذفها وقفاً - ورشٌ عن نافع. وحذفها الباقون وصلاً ووقفاً.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾

﴿واسْتَفْتَحُواْ﴾ أي: سألوا من اللّه الفتح على أعدائهم، أو القضاء بينهم وبين أعدائهم. من (الفتاحة) وهي الحكومة كقوله: ﴿رَبَّنا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحقِ﴾ [الأعراف:٨٩]، فالضمير: للرسل، وقيل: للكفرة، وقيل: للفريقين فإنهم سألوا أن ينصر المحقّ ويهلك المبطل. وقوله: ﴿وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنيدٍ﴾ أي: فنصروا عند

استفتاحهم وأفلحوا ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وهم قومهم. أو استفتح الكفار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا. وإنما قيل: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ذمّاً لهم وتسجيلاً عليهم بالتجبّر والعناد. أو استفتحوا جميعاً فنصَر الرسلَ وأنْجزَ لَهُم الوعد، وخاب أعداؤهم. و(الجبار) المتكبر على طاعة اللّه تعالى وعبادته و(العنيد) المعاند للحقّ، كخليط بمعنى مخالط.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾

﴿مِّن وَرَآئه جَهَنَّمُ﴾ جملة في محل جر صفة لـ (جبار) كناية عن تطلبها له وترصدها إياه، ومن تطلب شيئاً وترصده أدركه لا محالة. وقيل: على تقدير مضاف، أي: من وراء حياته وانقضاء عمره. ﴿وَيُسْقَى من مآءٍ صَدِيدٍ﴾ وهو ما يسيل من جوف أهل النار، قد خالط القيح والدم.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

﴿يَتَجرَّعُهُ﴾ أي: يتكلف تجرعه لقهره عليه ﴿ولاَ يَكادُ يُسيغُهُ﴾ ولخبثه ﴿ويَأْتيهِ الْمَوتُ من كُلِّ مكَانٍ ومَا هُوَ بمَيِّتٍ﴾ أي: تحيط به أسبابه من الأهوال، وما هو بمستريح مما نزل به ﴿ومن ورآئه عذابٌ غليظٌ﴾ أي: شديد متصل لا ينقطع.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

﴿مَثَلُ الَّذين كفرُوا بربِّهِمْ، أعْمالُهُم كرَمادٍ اشْتَدَّتْ به الرِّيحُ في يوْم عاصفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعيدُ﴾ المثل مستعار للصفة التي فيها غرابة. شبه تعالى أعمالهم اللاتي كانوا يعملونها لأوثانهم أو يراؤون بها - كإنفاق الأموال وعقر الإبل للضيفان، في حبوطها - لكونها على غير تقوى وإيمان - برماد

طيرته الريح العاصف. وقوله تعالى: ﴿لاَ يَقْدِرُونَ...﴾ الخ، مستأنف فذلك للتمثيل بمعنى المقصود منه ومحصل وجهه، أي: لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء منها، أي لا يرون له أثراً من ثواب، كما لا يقدر، من الرماد المطير في الريح، على شيء

قال أبو السعود: الاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لأعمالهم للأصنام، مع أن لها عقوبات هائلة، للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى. وفيه تهكم بهم. وفي توصيف الضلال بالبعد، إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب.

(واشتد به) من (شدّ) بمعنى عدا والباء للتعدية أو ملابسة. أو من (الشدة) بمعنى القوة أي: قويت بملابسة حمله. و(العصف) قوة هبوب الريح. وصف به زمانها على الإسناد المجازيّ كـ(نهاره صائم) وخبر (مثل) محذوف أي: فيما يتلى عليكم. وجملة (أعمالهم كرماد) مستأنفة جواباً لسؤال: كيف مثلهم؟ أو (أعمالهم) بدل من (مثل) و(كرماد) الخبر.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنا إلى ما عَمِلُوا من عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَّنثُوراً﴾ [الفرقان:٢٣]، وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ما يُنفقُونَ في هذه الْحَياة الدُّنْيَا كَمَثَلِ ريحٍ فيها صِرٌّ أصابتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ، وما ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلمُونَ﴾ [آل عمران:١١٧]. وقوله تعالى: ﴿يَا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لاَ تُبْطلُوا صَدَقاتكُمْ بالْمَنِّ والأذى كالَّذي يُنفقُ مَالَهُ رئاء النَّاسِ ولاَيُؤْمنُ باللّه والْيَومِ الآخرِ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْه تُرابٌ فَأَصابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً، لا يَقْدرُونَ عَلَى شيءٍ مِمَّا كَسَبُوا، واللّهُ لاَ يَهدي الْقَوْمَ الْكافرينَ﴾ [البقرة:٢٦٤].

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ خَلَقَ السَّموات والأرض بالْحقِّ، إن يشأْ يُذْهبْكُمْ ويأْتِ بِخَلْقٍ جديدٍ، وَمَا ذَلكَ عَلَى اللّهِ بِعَزيزٍ﴾ الخطاب للرسول صلوات الله عليه، والمراد به أمته. أو لكل أحد من الكفرة لقوله (يذهبكم) والرؤية رؤية القلب.

وفي الآية وجهان من التأويل: أحدهما أنها سيقت لبيان قدرته تعالى على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس. أي أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات والآيات الباهرات؛ وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد وبراري وقفار وبحار وأشجار ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذي خَلَقَ السَّموات والأَرْضَ ولَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادرٍ عَلَى أن يُحيِيَ الْمَوْتى، بَلَى إِنَّهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإنسَانَ أَنَّا خلَقْنَاهُ من نُّطْفَة فَإذا هُوَ خَصيمٌ مُّبينٌ، وضَربَ لنا مَثلاً وَنسي خلْقَهُ، وقال من يُحْيِ الْعظَامَ وَهي رَمِيمٌ، قلْ يُحْيِيها الّذي أنشأَهَا أَوَّلَ مرَّةٍ، وَهُوَ بكُلِّ خلْقٍ عَليمٌ، الَّذي جَعَلَ لَكُمْ منَ الشَّجَر الأَخضر ناراً فإذا أَنتُم منْهُ تُوقدُونَ، أوَ لَيْس الذي خَلَقَ السَّمَوات والأَرْضَ بقادرٍ عَلَى أنَ يَخْلُقَ مثْلَهُم، بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَليمُ﴾. [يس: ٧٧ - ٨١].

الوجه الثاني: ترهيب المشركين بأنهم غير معجزين، أي: إن يشأ يهلككم إذا خالفتم أمره، ويخلق قوماً خيراً منكم كقوله تعالى: ﴿وإِنَ تَتوَلَّواْ يَسْتَبْدل قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَ لا يَكُونَوا أمْثالَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، وقوله: ﴿إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْت بِآخَرِينَ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلكَ قديراً﴾ [النساء: ١٣٣].

وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالحكمة المنزهة عن العبث كقوله: ﴿رَبَّنا مَا خَلَقْتَ هَذَا باطلاً﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُما باطلاً﴾ [ص: ٢٧]، وقوله: ﴿مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلكَ إلاَّ بالْحَقِّ﴾ [يونس: ٥]، وذلك ليتفكر في خلقها ويستدل بها على وجود بارئها وقدرته ووحدته.

ثم أخبر تعالى عن تخاصم المجرمين في المحشر وتبرئهم من بعضهم، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾

﴿وَبَرَزُواْ للّهِ جَميعاً﴾ أي: اجتمعوا لحسابه وقضائه يوم القيامة في براز من

الأرض. وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً، أو برزوا من قبورهم أي: ظهروا لذلك ﴿فقالَ الضُّعَفاءُ﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ﴾ أي: على الرسل وهم قادتهم - توبيخاً لهم ﴿إنَّا كُنَّا لَكُمْ تبعاً﴾ أي: تابعين، مهما أمرتمونا ائتمرنا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عنَّا منْ عذاب اللَّه من شيْءٍ﴾ أي: بعض الإغناء ﴿قالُوا﴾ أي: المستكبرون ﴿لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ﴾ إحالةً، لضلالهم وإضلالهم، على مقامه سبحانه، أو لو هدانا باهتدائنا، ولكن زغنا فأزاغنا كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنا أجزعْنا أمْ صَبَرْنا ما لَنا من مَّحيصٍ﴾ أي: منجى ومهرب من العذاب؛ ونظير الآية قوله تعالى: ﴿ولَوْ تَرى إذ الظَّالِمُون مَوْقُوفُونَ عندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إلى بعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذين اسْتُضْعِفُواْ لِلَّذين اسْتَكْبَرُوا لوْلاَ أنتمْ لَكُنَّا مُؤْمنين﴾ [سبأ:٣١].

واستظهر ابن كثير هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها لآية: ﴿وإِذْ يَتحاجُّونَ في النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذينَ اسْتَكْبَرُوا إنَّا كُنَّا لَكُمْ تبعاً فهلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً من النَّارِ﴾ [غافر:٤٧].

ولا يخفى أن الآية في هذه السورة تصدق بالتخاصم في الموقف وفي النار، لإفادتها أن ذلك أثر بروزهم، وهو صادق بما ذكرنا، فلا قرينة فيها لكون ذلك في النار فقط، كما ادّعاه. وربما كان قوله ﴿وبَرَزُواْ﴾ يدل للموقف بمعناه المتقدم. ثم إن هذا التخاصم يجوز أن يكون متعدد المواطن لظاهر قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وقوله: ﴿في النَّارِ﴾ ويجوز أن يكون مرة واحدة. والمراد بـ(النَّارِ) العذاب. ووقوفهم عند ربهم، واليأس محيط بهم، وجهنم ترقبهم، عذاب وأيّ عذاب!.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)

﴿وقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأمْرُ﴾ وهو الحكم بنجاة السعداء وهلاك الأشقياء ﴿إنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحقِّ﴾ أي: على ألسنة رسله بأن في اتباعهم النجاة والسلامة، أي: فوفى به وأنجز ﴿وَوَعدتُّكُمْ فَأخْلَفْتُكُمْ﴾ أي: ووعدتكم وعد الباطل، وهو أن لا

بعث ولا جزاء. ولئن كان، فالأصنام شفعاؤكم. ولم يصرح ببطلانه لدلالة قوله: ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ عليه. والإخلاف مستعار لعدم تحقق ما أخبر به وكذبه، أو مشاكلة. وفي الآية من الإيجاز البليغ شبه الاحتباك. حيث حذف أولاً (فوفى به) لدلالة قوله بعدُ ﴿فأَخْلَفْتُكُمْ﴾ عليه لأنه مقابله، وحذف ثانياً (وعد الباطل) لدلالة ﴿وَعْدَ الْحقِّ﴾.

﴿وَمَا كانَ ليَ عَلَيْكُم من سُلْطانٍ﴾ أي حجة وبرهان ﴿إلاَّ أن دَعَوْتُكُمْ فاسْتَجَبتُمْ لي﴾ أي: أسرعتم لطاعتي بمجرد ذلك، أي وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فلاَ تَلُومُوني﴾ أي: بوعدي إياكم، إذ لم يكن بطرق القسر ﴿ولُومُوا أنفُسكُم﴾ أي: حيث استجبتم لي باختياركم، حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل. ولم تستجيبوا ربكم، إذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبراهين والحجج.

قال القاشاني: لما ظهر سلطان الحق على شيطان الوهم وتنوّر بنوره، أسلم وأطاع وصار محقًّا عالماً بأن الحجة للّه في دعوته للخلق إلى الحق، لا له. ودعوته إلى الباطل بتسويل الحطام وتزيين الحياة الدنيا عليهم – واهية فارغة من الحجة. وأقرّ بأن وعده تعالى بالبقاء بعد خراب البدن والثواب والعقاب عند البعث، حقٌّ قد وفى به. ووعدي بأن ليس إلاّ الحياة الدنيا باطل اختلقته. فاستحقاق اللوم ليس إلاّ لمن قبلَ الدعوة الخالية عن الحجة فاستجاب لها. وأعرض عن الدعوة المقرونة بالبرهان فلم يستجب لها. انتهى.

وحكي في (الإكليل) عن ابن الفرس: أن بعضهم انتزع من هذا إبطال التقليد في الاعتقاد. قال: وهو انتزاع حسن. لأنهم اتبعوا الشيطان بمجرد دعواه، ولم يطلبوا منه برهاناً. فحكى اللّه تقبيحاً لذلك الفعل منهم. انتهى.

﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بمغيثكم ومنجيكم من العذاب ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: مما أنا فيه. قال ابن الأعرابي: الصارخ: المستغيث، والمصْرِخ: المغيث، يقال: صرخ فلان إذا استغاث وقال: واغوثاه! وأصرخته أغثته. فالهمزة للسلب. يعني أزلت صراخه، وهو مدّ الصوت. ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي: كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم – أي في الدنيا – يعني: جحدت أن أكون شريكاً للّه عز وجلّ، وتبرأت منه ومنكم فلم يبق بيني وبينكم علاقة كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، وقوله: ﴿وإِذَا حُشِرَ النَّاسُ

كَانُواْ لَهُمْ أعْدَاءً وكانُواْ بعبَادَتهمْ كَافرِينَ﴾ [الأحقاف:٦]، وقوله: ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾ [مريم:٨٢]. ﴿إنَّ الظَّالِمينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ابتداء كلام منه تعالى، أو تتمة كلام الشيطان.

قال الزمخشري: وإنما حكى اللّهُ عزّ وعلا ما سيقوله في ذلك الوقت، ليكون لطفاً للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بدّ لهم من الوصول إليه وأن يتصوروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيّهم.

ولماذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال، عطف بمآل السعداء بقوله سبحانه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾

﴿وأُدْخِلَ الَّذينَ آمَنُواْ﴾ أي باللّه ورسوله وكتابه ﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ أي: الطاعات ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنْهَارُ﴾ أي: من تحت مساكنها وشجرها، أنهار الخمر والماء والعسل واللبن ﴿خَالدينَ فيهَا بإذْن رَبِّهِمْ﴾ متعلق بـ (أدخل) أي: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن اللّه وأمره ﴿تَحِيَّتُهُمْ فيهَا سَلامٌ﴾ أي: تحييهم وتكرمهم الملائكة بالسلام عليهم، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر:٧٣]، وقوله: ﴿والْمَلائكَةُ يدْخُلُونَ عَلَيْهِم من كُلِّ بابٍ، سلامٌ عَلَيكُم﴾ [الرعد:٢٣ - ٢٤].

ولما بيّن تعالى ما أعدّ للمشركين والمؤمنين من المآل الأخرويّ، ضرب مثلاً للشرك والإيمان - بأن مآل الثاني الثبات والاستقرار لأنه الذي ينفع الناس، ومآل الأول إلى الدمار والاندحار - فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابتٌ﴾ يعني في

الأرض ضارب بعروقه فيها ﴿وفرعها﴾ أي أعلاها ورأسها ﴿في السَّمَآء تؤتي أكُلَها﴾ أي ثمرها ﴿كُلَّ حين بإذن ربِّها﴾ أي بإرادته وتكوينه ﴿ويضرب اللّه الأمثال للناس لعلَّهم يتذكَّرون﴾ أي: لأن فيها زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني المعقولة بالصور المحسوسة.

القول فى تأويل قوله تعالى:

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

﴿ومَثَلُ كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجْتُثَّتْ﴾ أي: استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية ﴿من فوقِ الأرضِ﴾ أي: لأن عروقها قريبة منه ﴿ما لها من قرار﴾ أي: استقرار.

تنبيه:

لحظ في الممثل به – أعني الشجرة – أوصاف جليلة لتلحظ في جانب الممثل له. فمنها: كونها طيبة. أعم من طيب المنظر والصورة والشكل ومن طيب الريح. وطيب الثَمَرَة وطيب المنفعة. وكون أصلها ثابتاً أي: راسخاً باقياً في أمنٍ من الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء ليعظم الفرح به والسرور. وكون فرعها في السماء فدل على كمال حال تلك الشجرة من جهة ارتفاع أغصانها وقوتها في التصاعد، ممّا يبرهن على ثبات الأصل ورسوخ العروق، وجهة بعدها عن العفونات والأقذار فتكون ثمرتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب وكون ثمرتها تجتنى كلّ حين فلا تنقطع بركاتها وخيراتها. ولا ريب أن وجود هذه الأوصاف مما يدل على فخامة الموصوف وإنافة فضله. ولا تخفى مطابقة هذا الممثَّل به للممثل له – أعني الحق – وهو الإسلام الذي جاء به خاتم الأنبياء عليهم السلام.

ولمّا كان المثل مضروباً للحق والباطل في الثبات وعدمه، والقصد أهلهما، صرح بهما فذلك له، فقال في أهل المثل الأول:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

﴿يُثَبِّتُ اللّه الّذين آمنوا بالقولِ الثَّابتِ في الحياة الدُّنْيا وفي الآخرَة﴾ القول الثابت هو الكلمة الطيبة التي ذكرت صفتها العجيبة وهو الحق. و(بالقول) جوّزوا تعلقه بـ (يثبت) و(آمنوا). والمعنى على الأول: ثبتهم بالبقاء على ذلك، أو ثبتهم في سؤال

القبر به، وعلى الثاني فالباء سببية والمعنى: آمنوا بالتوحيد الخالص فوحدوه ونزهوه عمّا لا يليق بجنابه. و(في الحياة) متعلق بـ (يثبت أو بالثابت) كما قاله أبو البقاء. واقتصر الزمخشري وأتباعه على الأول حيث قال:

القول الثابت الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه فاعتقده واطمأنت إليه نفسه. وتثبيتهم به في الدنيا، أنهم إذا فتنوا في دينهم لم يزلّوا. كما ثبت أصحاب الأخدود والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد؛ وتثبيتهم في الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ولم تحيّرهم أهوال الحشر. وقيل: معناه الثبات عند سؤال القبر. فعن البراء بن عازب رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سُئل في القبر شهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه» قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ..** ﴾ رواه الشيخان[1] وأهل السنن.

وعليه، فتفسير الآخرة بالقبر، لكون الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا.

وقال في أصحاب المثل الثاني:

﴿ **وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ** ﴾ أي: يخلق فيهم الضلال عن الحق الذي ثبَّتَ المؤمنين عليه حسب إرادتهم واختيارهم، ووصفهم بالظلم لوضعهم الشيء في غير موضعه، أو لظلمهم أنفسهم حيث بدلوا فطرة اللّه التي فطر الناس عليها ﴿ **وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشَاءُ** ﴾ أي: من التثبيت والإضلال حسبما تقتضيه حكمته البالغة.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾

﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً** ﴾ يعني كفار مكة، أَتَتْهُم نعمة اللّه وهو التوحيد والإيمان والهداية ببعثة رسولٍ من أنفسهم، فبدلوا شكرها كفراً عظيماً وغمصاً لها ﴿ **وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ** ﴾ أي: ممن أضلوه وصدوه عن الهدى فتابعهم ﴿ **دَارَ**

(١) أخرجه البخاريّ في: التفسير ١٤ - سورة إبراهيم، ٢ - باب ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾، حديث ٧٢٥.
وأخرجه مسلم في: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم ٧٣.

البَوَارِ﴾ أي: الهلاك ﴿جَهَنَّمَ﴾ عطف بيان لها ﴿يَصْلَوْنَها وبئس القَرارُ، وجَعَلُوا للّه أنداداً﴾ أي من الأوثان فعبدوها ﴿لِيُضِلُّوا عن سَبيله﴾ أي: عن عبادته وحده ﴿قُلْ﴾ أي: تهديداً لأولئك الضالّين المضلين ﴿تَمَتَّعُوا﴾ أي: بشهوات الحياة الدنيا ﴿فإنَّ مَصِيرَكُمْ إلى النَّارِ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾

﴿قُل لِعبادي الَّذين آمنوا يُقيمُوا الصَّلاةَ ويُنفِقُوا ممَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وعَلانيةً مِنْ قَبْلِ أن يَأْتِيَ يومٌ﴾ وهو يوم القيامة ﴿لاَ بَيْعٌ فيه﴾ أي: ليتدارك به التقصير، أو يفتدى به ﴿ولاَ خِلاَلٌ﴾ أي: مخالّة. مصدر بمعنى المصاحبة؛ أي لا مفاداة فيه ولا خلة أحد بمغنية شيئاً من شفاعة أو مسامحة بمال يفتدي به، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجزي نفْسٌ عن نَّفسٍ شَيئاً ولاَ يُقبَلُ مِنهَا عدلٌ ولا تَنفَعُها شَفاعَةٌ ولاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾. [البقرة: ١٢٣].

قال الزمخشريّ: فإن قلت كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خلال؟ قلت: من قِبَل أن الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات فيعطون بدلاً ليأخذوا مثله، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجرّوا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها؛ وأما الإنفاق لوجه اللّه خالصاً، فلا يفعله إلا المؤمنون الخلص، فبُعثوا عليه ليأخذوا بدله في اليوم لا بيع فيه ولا خلال. أي: لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالّة ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارمات، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله. انتهى.

قال أبو السعود: والظاهر أن (من) متعلقة بـ (أنفقوا) وتذكير إتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه، من حيث أن كلاً من فقدان الشفاعة وما يتدارك به التقصير، معاوضة وتبرعاً، وانقطاع آثار البيع والخلال الواقعين في الدنيا وعدم الانتفاع بهما – من أقوى الدواعي إلى الإتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائده من الإنفاق في سبيله تعالى. أو من حيث إن ادخار المال وترك إنفاقه، إنما يقع غالباً للتجارات والمهاداة. فحيث لا يمكن ذلك في الآخرة، فلا وجه لادخاره إلى وقت الموت. وتخصيص التأكيد بذلك لميل الطباع إلى المال، وكونها مجبولة على حبّه والفتنة به. ولا يبعد

أن يكون تأكيداً لمضمون الأمر بإقامة الصلاة أيضاً، من حيث إن تركها، كثيراً ما يكون بالاشتغال بالبيوع والمخالات. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]، ولما ذكر أحوال الكافرين لنعم الله تعالى، وأمر المؤمنين بإقامة مراسم الطاعة شكراً لنعمه، شرع في تفصيل ما يستوجب على كافة الأنام المثابرة على الشكر والطاعة من النعم العظام، حثاً للمؤمنين عليها وتقريعاً للكفرة المخلين بها، الواضعين موضعها الكفر والمعاصي، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوات وَالأَرْضَ وأنزلَ مِنَ السَّماءِ**﴾ أي المزن ﴿**ماءً فَأَخْرَجَ به مِنَ الثمَرات رِزْقاً لَكُمْ**﴾ أي تعيشون به ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ**﴾ أي السفن ﴿**لِتَجْرِيَ في الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ**﴾ أي بإرادته ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنْهارَ**﴾ أي فتجري حيث تشاؤون من شرب وسقي وسنواهما.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئبَيْنِ**﴾ أي يدأبان في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ**﴾ أي يتعاقبان خلفه، لمعاشكم وسباتكم.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿**وآتَاكُمْ من كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ**﴾ أي ما تحتاجون إليه مما تصلح أحوالكم ومعايشكم به، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال.

وقال القاشاني: ﴿**مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ**﴾ بالسنة استعداداتكم، فإن كل شيء

يسأله بلسان استعداده. كما لا يفيض عليه مع السؤال بلا تخلف وتراخ ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها﴾ لعدم تناهيها ﴿إِنَّ الإِنسانَ لَظَلُومٌ﴾ أي بوضع نور الاستعداد ومادة البقاء في ظلمة الطبيعة ومحل الفناء وصرفه فيها. أو بنقص حق اللّه أو حق نفسه بإبطال الاستعداد ﴿كفّارٌ﴾ أي بتلك النعم التي لا تحصى، باستعمالها في غير ما ينبغي أن يستعمل، وغفلته عن المنعم عليه به، واحتجابه بها عنه. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾

﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ﴾ أي اذكر وقت قوله صلوات اللّه عليه.

قال أبو السعود: والمقصود من تذكيره، تذكير ما وقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل. والمراد به تأكيد ما سلف من تعجبه عليه السلام ببيان فن آخر من جناياتهم، حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم، بعدما كفروا بالنعم العامة. وعصوا أباهم إبراهيم عليه السلام حيث أسكنهم بمكة، شرّفها اللّه تعالى، لإقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الأصنام والشكر لنعم اللّه تعالى. وسأله تعالى أن يجعله بلداً آمناً ويرزقهم من الثمرات. وتهوي قلوب الناس إليهم من كل أوب سحيق. فاستجاب اللّهُ دعاءه وجعله حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء. فكفروا بتلك النعم العظام. واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار. وجعلوا للّهِ أنداداً وفعلوا ما فعلوا.

﴿رَبِّ اجْعَلْ هذَا الْبَلَدَ﴾ يعني البلد الحرام، مكة المكرمة ﴿آمِناً﴾ أي ذا أمن. أو آمناً أهله. ﴿وَاجْنُبْني وَبَنِيَّ﴾ أي بعّدني وإياهم ﴿أن نَعْبُدَ الأَصْنامَ﴾

القول في تأويل قوله تعالى:

رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثيراً مِنَ النَّاسِ﴾ أي كنّ سبباً في إضلالهم. كما يقال: فتنتهم الدنيا وغرّتهم. إشارة إلى أنه افتتن بالأصنام خلائق لا تحصى. والجملة تعليل لدعائه. وإنما صدره بالنداء إظهاراً لاعتنائه به، ورغبته في استجابته ﴿فَمَن تَبِعَني﴾ أي على ملتي وكان حنيفاً مسلماً مثلي ﴿فَإِنَّهُ مِنّي وَمَنْ عَصاني﴾ أي فخالف ملتي﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي فإنك ذو الأسماء الحسنى، والمجد الأسمى، الغنيّ عن الناس أجمعين. وتخصيص الاسمين إشارة إلى سبق الرحمة.

القول في تأويل قوله تعالى:

رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿ربَّنا إنِّي أسْكَنتُ من ذُرِّيَّتي﴾ أي بعض أولادي. وهم إسماعيل ومن ولد منه ﴿بِوادٍ﴾ هو وادي مكة ﴿غَيْرِ ذي زَرْعٍ﴾ أي لا يكون فيه زرع ﴿عِندَ بَيْتك الْمُحَرَّمِ﴾ أي الذي حرمت التعرض له والتهاون به ﴿ربَّنا لِيُقيمُوا الصلاةَ﴾ أي لكي يأتوا بعبادتك مقوَّمة في ذلك الوضع. وهو متعلق بـ ﴿أسْكَنتُ﴾ أي ما أسكنتهم هذا الوادي إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك وحدك. وتكرير النداء وتوسيطه لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة.

﴿فاجْعَلْ أفْئدَةً من النَّاسِ تَهْوي إلَيْهِمْ﴾ أي تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً. فيانسوا ويتعارفوا فيتآلفوا ويعودوا على بعضهم بالمنافع ﴿وارْزُقْهُم من الثَّمرَاتِ﴾ أي فتجلبها إليهم التجار ﴿لَعَلَّهُمْ يشْكُرُونَ﴾ أي: نعمة إقامتهم عند بيتك المحرم بالصلاة فيها، على كمال الإخلاص والتوحيد، مع فراغ القلب.

القول في تأويل قوله تعالى:

رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾

﴿ربَّنا إنَّكَ تَعلَمُ مَا نُخْفي وَمَا نُعْلنُ وَمَا يَخفى على اللَّهِ من شيءٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ﴾ لأن الكل خلقه ﴿ألا يَعْلَمُ منْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤].

قال الزمخشري: المعنى: إنك أعلم، بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا، منا. وأنت أرحم بنا منا بأنفسنا ولها. فلا حاجة إلى الدعاء والطلب. وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك، وتخشعاً لعظمتك وتذللاً لعزتك، وافتقاراً إلى ما عندك، واستعجالاً لنيل أياديك، ولَهاً إلى رحمتك. وكما يتملق العبد بين يدي سيده رغبة في إصابة معروفه، مع توفر السيد على حسن الملكة.

وعن بعضهم: أنه رفع حاجته إلى كريم فابطأ عليه النجح. فأراد أن يذكّره فقال: مثلك لا يذكر استقصاراً ولا توهماً للغفلة عن حوائج السائلين. ولكنّ ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتكلم فيها. انتهى.

وجُوِّزَ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الخ، أن يكون من كلامه تعالى، تصديقاً لإبراهيم، أو من كلامه عليه السلام.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾

﴿الْحَمْدُ للّه الَّذي وَهَبَ لي عَلَى الْكِبَرِ إسْماعيلَ وَإسحقَ﴾ أي ليقوما مقامي في الدعوة إليه تعالى وبث الحنيفية وإقامة الصلاة بعد ذهابي ﴿إنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ﴾ أي مجيبه.

قال الزمخشري: وإنما ذكر حال الكبر، لأن المنّة بهبة الولد فيها أعظم، من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة. والظفرُ بالحاجة، على عقب اليأس، من أجلّ النعم وأحلاها في نفس الظافر.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾

﴿رَبِّ اجْعَلْني مُقيمَ الصَّلاَةِ وَمن ذُرِّيَّتي رَبَّنا وتَقبَّل دُعاءِ﴾ أي عبادتي، كذا في (التنوير).

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

﴿رَبَّنا اغفِرْ لي وَلِوالديَّ ولِلْمُؤْمِنينَ يوْمَ يَقومُ الْحِسَابُ﴾ أي مجازاة العباد على أعمالهم. قرئ ﴿ولوالدِي﴾. بالإفراد وكأنّ هذا قبل تبين أمره له عليه السلام.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿ولاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غافلاً عمَّا يعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني مشركي أهل مكة. أي لا تحسبه، إذا أنظرهم وأجّلهم، أنه غافل عنهم، مهمل لهم، لايعاقبهم على عملهم، بل هو يحصيه عليهم ويعدّه عليهم عداً. وفيه تسلية للرسول صلوات اللّه عليه، ووعد له أكيد، ووعيد للكفرة وسائر الظالمين شديد.

﴿إنَّما يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي بإمهالهم متمتعين بشهواتهم، ولا يعجل عقوبتهم ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فيهِ الأبْصارُ﴾ أي ترتفع فيه أبصار أهل الموقف، لهول ما يرون. فلا تقرّ أعينهم في أماكنها ولا تطرف.

القول في تأويل قوله تعالى:

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾

﴿مُهْطِعينَ﴾ أي مسرعين إلى الداعي الذي يدعوهم إلى المحشر. وهذا بيان لكيفية قيامهم من قبورهم، وعجلتهم إلى المحشر كقوله تعالى: ﴿مُّهْطِعينَ إلى الدَّاعِ﴾ [القمر:٨]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ من الأجداث سِراعاً﴾ [المعارج: ٤٣].

﴿مُقْنِعي رُؤوسِهِمْ﴾ أي رافعيها إلى السماء ﴿لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي لا يطرفون. ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ أي لا قوة فيها ولا ثبات، لشدة الفزع.

قال الزمخشري: الهواء الخلاء الذي لم تشغله الأجرام، فوصف به. فقيل: قلب فلان هواء، إذا كان جباناً لا قوة في قلبه ولا جراءة. ويقال للأحمق أيضاً: قلبه هواء. والمعنى: أن القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها. والأبصار شاخصة. والرؤوس مرفوعة إلى السماء من هول ذلك اليوم وشدته وخوف ما يقع فيه.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

قوله: ﴿وأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يأْتيهِمُ العَذابُ﴾ يعني يوم القيامة ﴿فَيَقولُ الَّذينَ ظَلَموا رَبَّنا أخِّرْنا﴾ أي رُدَّنا إلى الدنيا وأمهلنا ﴿إلى أجَلٍ قَريبٍ﴾ أي أمد من الزمان قريب ﴿نُجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ أي إلى الإقرار بتوحيدك وأسمائك الحسنى. ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ أي دعونا إليه من الشرائع.

﴿أوَ لَمْ تَكُونُوا أقْسَمْتُم﴾ على إضمار القول. أي فيقال لهم توبيخاً وتبكيتاً — : كونوا تحلفون ﴿من قَبْلُ﴾ يعني في الدنيا ﴿مَا لَكُمْ من زَوالٍ﴾ أي من دار الدنيا أخرى للجزاء. كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ من ﴾ [النحل:٣٨].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾

﴿**وسَكَنتُم في مَساكِنِ الَّذين ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ**﴾ كعاد وثمود ﴿**وتَبيَّنَ لكُمْ كَيْفَ فعَلْنا بهم**﴾ أي بما تشاهدونه في منازلهم من آثار ما نزل بهم وما تواتر عندكم من أخبارهم ﴿**وضَرَبْنا لكُمُ الأمثال**﴾ أي صفات ما فعلوا وما فعل بهم. أي ومع ذلك فلم يكن لكم فيهم معتبر ولا مزدجر.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

﴿**وقدْ مكَرُواْ**﴾ أي بالنبيّ صلوات اللّه عليه ﴿**مَكْرَهُمْ**﴾ أي العظيم أي الذي استفرغوا فيه جهدهم لإبطال الحق وتقرير الباطل ﴿**وعِندَ اللّه مَكْرُهُمْ**﴾ أي جزاء مكرهم ﴿**إن كانَ مكْرُهُمْ**﴾ أي في العظم والشدة ﴿**لِتزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ**﴾ أي مُسَوّىً ومُعَداً لإزالة الجبال عن مقارّها، لتناهي شدته.

وجوّز في (إن) كونها نافية واللام مؤكدة له. والمعنى: ومحال أن تزول الجبال بمكرهم. على أن الجبال مثل (أي استعارة تمثيلية) لآيات اللّه وشرائعه. لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً. وينصره قراءة ابن مسعود: ﴿**ومَا كانَ مَكْرُهُمْ**﴾ وقرئ ﴿**لَتزُولُ**﴾ بلام الابتداء أي هو من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من أماكنها.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

﴿**فلاَ تحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وعْدِهِ رُسُلَهُ**﴾ أي من نصرهم المبين في قوله تعالى: ﴿إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر:٥١]، ﴿كَتَبَ اللّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا ورُسُلي﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿وَعَدَ اللّهُ الَّذينَ آمَنُوا مِنكُمْ وعَمِلُوا الصّالحاتِ لَيَسْتَخلِفَنَّهُمْ في الأرْضِ﴾ [النور:٥٥] الآية.

واستظهر أبو السعود: أن المعنى بالوعد هنا عذابهم الأخروي المتقدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَومٍ﴾ إلخ [إبراهيم:٢٢]، ولا يخفى أن الوعد قد بين في مثل الآية الأخيرة والأوليين، في معناها. والبيان يرفع اللبس وإنما أوثر تقديم المفعول الثاني، أعني (وعده)، على الأول وهو (رسله) للإيذان بالعناية به،. فإن الآية في سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم اللّهُ به على ألسنة الرسل. فالمهمّ في التهديد ذكر الوعيد. كذا في (الانتصاف).

وفي (الكشف) تقديمه للاعتناء به وكونه المقصود بالإفادة. وما ذكره ممن وقع الوعد على لسانه، إنما ذكر بطريق التبع للإيضاح، والتفصيل بعد الإجمال. وهو من أسلوب الترقي كما في قوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥]. و﴿إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ﴾ أي غالب لا يماكَرُ ﴿ذُو انتقامٍ﴾ من أعدائه، نصراً لأوليائه

القول في تأويل قوله تعالى:

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾

﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسَّمَواتُ**﴾ وذلك أنه تسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوَّى، فلا يرى فيها عوج ولا أمت. وتبدل السموات بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبواباً و(يوم) بدل من (يوم يأتيهم) أو ظرف للانتقام أو مقدر بـ(اذكر) أو (لا يخلف وعده).

﴿**وبَرزُوا**﴾ أي الخلائق أو الظالمون من أجداثهم ﴿**للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾ أي لحسابه وجزائه.

قال أبو السعود: والتعرض للوصفين لتهويل الخطب وتربية المهابة وإظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام في ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفاً له. وتحقيق إتيان العذاب الموعود على تقدير كونه بدلاً من(يوم يأتيهم العذاب) فإن الأمر إذا كان لواحد غلاّب، كان في غاية الشدة والصعوبة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾

﴿**وترَى الْمُجْرِمِينَ يوْمَئذٍ مُقرَّنينَ فِي الأصْفَادِ**﴾ جمع (مقرَّن) وهو من جمع في قَرَن (بفتحتين) الوثاق الذي يربط به. أي قرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم في

الجرائم والفساد. فيجمع بين النظراء والأشكال منهم، كل صنف إلى صنف. كما قال تعالى: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢]. وقال: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير:٧]، أو: قرنوا مع الشياطين، لقوله تعالى: ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم:٦٨]، أو قرنت أيدهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال. وقوله تعالى: ﴿فِي الأَصْفَادِ﴾ أي القيود أو الأغلال جمع صَفَد (بفتحتين) بمعنى القيد أو الغل. والقيدُ هوالذي يوضع في الرجل. والغُل (بالضم) ما في اليد والعنق وما يضم به اليد والرجل إلى العنق. والجارّ متعلق بـ ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أو حال من ضميره أي مصفدين وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ۝٥٠﴾

﴿سَرَابِيلُهُم من قَطِرَانٍ﴾ تشبيه لهم بأكره ما يوجد منظراً عند العرب. وهو الإبل الجربى التي تطلى بالقطران. وإعلام بأن لهم أعظم ما ينال الجلد داء وهو تقرحه بالجرب. وأخبث ما يكون دواء لقبحه لوناً وريحاً، وهو القطران. فإنه أسود منتن الريح.

قال الزمخشري: تطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهي القمص لتجتمع عليهم الأربع: لذع القطران، وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ونتن الريح. على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين. وكل ما وعده الله وأوعد به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهده من جنسه ما لا يقادَرُ قدره. وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي. والمسميات ثمة. فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه. ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه. انتهى

ويؤيد ما بيناه من أن في الآية إشارة إلى ابتلائهم بجرب جهنم: ما رواه الإمام أحمد(١) ومسلم(٢) عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: أربع في أمتي من أمر الجاهلية لايتركوهن: الفخر بالأحساب. والطعن في الأنساب. والاستسقاء بالنجوم. والنياحة على الميت. والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥ / ٣٤٢.

(٢) أخرجه مسلم في: صحيحه في: الجنائز، حديث ٢٩.

وقد وقفت على رسالة لشمس البلغاء الخوارزمي أنفذها لمن شكا إليه داء الجرب. جاء منها قوله: الجرب حكة مادتها يبوسة وحرارة و وقود والتهاب. وعسكر من عساكر البلاء تمده القذارة. كما تزيد فيه اليبوسة والحرارة. وعلة تدل على تضييع واجب النفس من التعهد. وعلى التفريط في العلاج والتفقد. تنطق بأن صاحبها ضعيف المُنَّة في التوقي. أسير في يد الحرص والتشهّي. غاشّ لنفسه. قليل البقيا على روحه. وهذه العلة تكسب صاحبها خزياً وحياء. وتورثه خجلاً واسترخاء ينظر إلى الناس بعين المريب. ويتستر عنهم كتستر المعيب. تنفر عنه الطباع، وتستقذره النفوس. وتنبو عن مواكلته العيون. وأقل ما يصيبه أنه يحرم آلة المطاعم وهي يداه. وآلة اللقاء والزيارة وهي رجلاه. ولو لم يكن من دقائق آفاتها. ومن عجيب هباتها. إلا أنها تشيخ الفتيان. وتمسخ الإنسان. وتجعله أمّياً بعد أن كان غير أمّي. وأعجمياً وليس بأعجميّ. تنفر عن نفسه نفسُه. وتهرب من فراشه عرسُه. ويتباعد عنه أقرب الناس منه. ثم هي رُبع من أرباع الخذلان وقسم من أقسام الحرمان. قال الشاعر:

أعاذك الله من أشياء أربعة: الموتُ والعشقُ والإفلاسُ والجَرَبُ

وما الظن بداء قد سارت به الأمثال وقيلت فيه، دون سائر الأدواء، الأقوال.

قال أبو تمام:

لما رأت أُختَها بالأمس قد خَرِبَتْ كان الخرابُ لها أعْدَى من الْجَرَبِ

وقال لبيد:

ذهب الذين يُعاشُ في أكنافِهِمْ وبقيتُ في خلْف كجِلْدِ الأَجْرَبِ

فجعله رأس الأدواء. ووصفه بأنه غاية البلاء. انتهى. وقوله تعالى:

﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أي تعلوها وتحيط بها النار التي تمسّ جسدهم المسربل بالقطران. وتخصيص الوجوه لكونها أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه. كالقلب في باطنه ولذلك قال: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة:٧]، ولكونها مجمع الحواس التي خلقت لإدراك الحق. وقد أعرضوا عنه، ولم يستعملوها في تدبره. كما أن الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة ومحل المعرفة، قد ملؤوها بالجهالات. أفاده الزمخشري وأبو السعود.

القول في تأويل قوله تعالى :

لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾

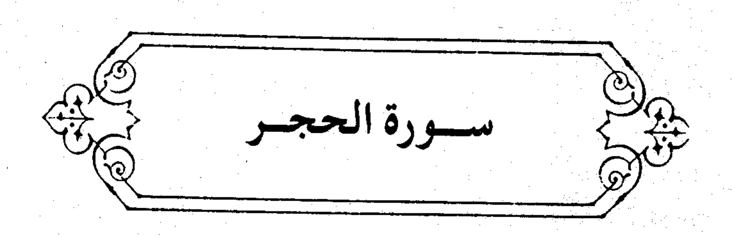
﴿لِيجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ الجار متعلق بمحذوف. أي يفعل بالمجرمين ما يفعل ليجزي الخ. و(النفس) مخصوصة بالنفس المجرمة بقرينة المقام. أو عام للبرة والفاجرة. وعليه فيجوز تعلقه بقوله ﴿وَبَرزُواْ﴾ وما بينهما اعتراض أو بـ (ترى) ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي محاسبة الخلائق يوم القيامة. لأنه لا يشغله شأن عن شأن. وجميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم. كقوله : ﴿مَّا خَلْقُكُمْ ولاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحدةٍ﴾ [لقمان:٢٨]، أو المعنى سريع حسابه أي مجيئه كقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ في غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١]، وقوله تعالى:

القول في تأويل في قوله تعالى :

هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

﴿هَذَا﴾ إشارة إلى القرآن أو السورة وقوله ﴿بَلاَغٌ لِلنَّاسِ﴾ أي كفاية لهم لما فيه من العظة والتذكير. وقوله ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِه﴾ أي ليخوّفوا وليوعظوا به عن الجرائم التي أخذ بها الأولون ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي يستدلوا بما فيه من الحجج والدلائل على أنه لا إله إلا هو. وإنما قدم إنذارهم لأنهم إذا خافوا ما أُنذروا به، دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد. لأن الخشية أم الخير كله. أفاده الزمخشريّ: ﴿وَلِيَذَّكَّر أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ أي ليتعظ به ذوو العقول، فيقبلوا على ما فيه نجاتهم وسعادتهم.

بسم اللّه الرحمن الرحيم



سورة الحجر

سميت بها لاشتمالها على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِين﴾ [الحجر: ٨٠]، إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الدال على مؤاخذتهم لمجرد تكذيب الرسل والإعراض عن آيات اللّه، بأدنى وجوه المؤاخذة، مع غاية تحصنهم. ففيه غاية تعظيم الرسل والآيات. وهو من أعظم مقاصد القرآن: أفاده المهايميّ. وهي مكية وآياتها تسع وتسعون.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

الٓر تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١

﴿آلر﴾ تقدم الكلام في مثله ﴿تِلْكَ ءايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ الإشارة إلى ﴿آلر﴾ لأنه اسم للسورة أي تلك السورة العظيمة آيات الكتاب الكامل وآيات قرآن عظيم الشأن، مبين للحكم والأحكام ولسبيل الرشد والغي. من (أبان) المتعدي. أو الظاهر معانيه أو أمْر إعجازه، وكونه آية قاهرة من (أبان) اللازم. أو الإشارة إلى آيات السورة أو إلى جميع آيات القرآن. وتعريف الكتاب للتعظيم والتفخيم، كتنكير (قرآن). وقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢

﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوْا مُسْلِمِينَ﴾ تبشير للنبي ﷺ بظهور دينه. وأنه سوف يأتي أيام يتمنى الكافرون بها، أن لو سبق لهم الإسلام فكانوا من السابقين. لما يرون من إعلاء كلمة الدين وظهوره على رغم الملحدين. لأن من تأخر إسلامه منهم، وإن ناله من الفضل ما وعد به الحسنى، ولكن لا يلحق السابقين ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ من قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ [الحديد: ١٠]، وفيه تثبيت للنبيّ ﷺ على الصدع بالدعوة والصبر عليها، لما أن العاقبة له. وإنما جيء بصيغة التقليل، جرياً على مذهب العرب في قولهم: لعلك ستندم على فعلك. ترفعاً واستغناءً عن التصريح بالغرض بناءً على ادعاء ظهوره.

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣

﴿ذَرْهُمْ يَأكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ أي بدنياهم وتنفيذ شهواتهم ﴿وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ أي

يشغلهم عن التوبة والتذكير، أملُ استقامة الحال. وأن لا يلقوا إلا خيراً في المآل ﴿فَسَوْفَ يَعلَمُونَ﴾ أي لمن تكون له العقبى.

قال الزمخشري: فيه تنبيه.

ثم بيّن تعالى سر تأخير عذابهم بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا من قَرْيَةٍ إلاَ وَلَها كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ أي أجل مقدّر ليتأمّل في أسباب الهلاك ليتخلص عنها، وذلك بما قام من الحجة عليها، بتقدم الإنذار وتكرّره على سمعهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾

﴿مَّا تَسْبِقُ من أُمَّةٍ أجلَهَا﴾ أي لا تهلك قبله ﴿وَمَا يَسْتَئْخِرُونَ﴾ أي عنه، للزوم الحجة وارتفاع الأعذار. ثم أخبر تعالى عن عتوهم في كفرهم بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾

﴿وقَالُواْ يا أيُّها الَّذِي نُزِّلَ عَليْه الذِّكْرُ إنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أي يا أيها المدعي ذلك! إنك لمجنون في دعائك إيانا إلى اتباعك، وترك ما وجدنا عليه آباءنا. أو في دعواك تنزيل الذكر. أو نادوه بذلك استهزاء وتهكماً. أو هو من كلامه تعالى تبرئة له عما نسبوه إليه من أول الأمر.

القول في تأويل قوله تعالى:

لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾

﴿لَوْ مَا تأتينا بالْمَلائكَةِ إنْ كُنتَ من الصَّادِقِينَ﴾ أي هلاّ تاتينا بالملائكة يشهدون بصدقك ويعضدونك على إنذارك كقوله: ﴿لَوْلاَ أُنزلَ إلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ

نَذيراً﴾ [الفرقان:٧]، وقول فرعون: ﴿فَلَوْلا أُلْقِي عَلَيْه أَسْوِرَةٌ منَ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْملائكَةُ مُقْتَرنينَ﴾ [الزخرف:٥٣].

ثم أشار إلى جواب مقالهم، وردّ مقترحهم بقوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائكَةَ﴾ أي عليهم فيأتونهم ويشاهدونهم ﴿إلاَّ بالْحَقِّ﴾ أي الحكمة التي جرت بها السنّة الإلهية وهو العذاب ﴿وَمَا كَانُوا إذاً مُنظَرينَ﴾ أي مؤخَّرين. كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذينَ لا يَرْجُونَ لقَاءَنَا لَوْلاَ أُنزلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا، لَقَد اسْتَكْبَرُواْ في أَنفُسهمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبيراً، يَوْمَ يَرَوْنَ الْملائكَةَ لا بُشْرَى يَوْمئذٍ للْمُجرمينَ وَيَقُولُونَ حجْراً محْجوراً﴾ [الفرقان:٢١ - ٢٢].

ثم أشار إلى ردّ إنكارهم التنزيل مع تسليةٍ وبشارةٍ عظيمة، بقوله تعالى

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾

﴿إنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنَّا لَهُ لَحافظُونَ﴾ أي من كل مَنْ بغى له كيداً. فلا يزال نور ذكره يسري، وبحر هداه يجري، وظلال حقّيّته في علومه تمتد على الآفاق، ودعائم أصوله الثابتة تطاول السبع الطباق، رغماً عن كيد الكائدين، وإفساد المفسدين ﴿يُريدُونَ ليُطْفئُوا نُورَ اللَّه بأفواههمْ واللّهُ مُتمُّ نُوره ولَوْ كَرهَ الْكَافرُونَ﴾ [الصف:٨]، وفي إيراد الجملة الثانية اسميةً، دلالة على دوام الحفظ.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾

﴿وَلَقَدْ أرسَلْنا﴾ أي رسلاً ﴿من قَبْلكَ في شيَع الأوّلينَ﴾ أي فرقهم وطوائفهم. جمع (شيعة) وهي الفرقة المتفقة على مذهب وطريقة. و(الأولين) نعت لمحذوف. أي الأمم. أو الكلام من إضافة الصفة للموصوف. ﴿وَمَا يأتيهم من رسُولٍ إلاَّ كانُوا به يَسْتَهْزِؤُونَ﴾ أي كما يفعله هؤلاء المشركون.

القول في تأويل قوله تعالى:

كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

﴿كَذَلكَ نَسْلُكُهُ﴾ أي الذكر المنزل ﴿في قُلُوب الْمُجْرمينَ﴾ أي الكافرين

وقوله: ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي بالذكر. حال من ضمير (نسلكه) أي مكذَّباً مستهزأً به غير مقبول.

قال الزمخشري: كما لو أنزلتَ بلئيم حاجة فلم يجبك إليها فقلت: كذلك أنزلها باللئام. تعني مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية. وقيل الجملة بيان لما قبلها. وجوّز في ضمير (نسلكه) أن يعود إلى الاستهزاء والتكذيب المعلوم. وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ استئناف جيء به تكملة للتسلية، وتصريحاً بالوعيد والتهديد. أي قد مضت السنة فيهم من هلاكهم. وزهوق باطلهم، ونصر الرسل، وغلبة جنود المؤمنين عليهم، واستعمارهم ديارهم. ثم بيّن تعالى أنهم لايتركون الاستهزاء بالرسل وإن أتتهم الآيات التي تشبه الملجئة لقوة عنادهم وبغيهم، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي على هؤلاء المستهزئين ﴿باباً مِّنَ السَّماءِ فظَلُّوا﴾ أي فصاروا طول نهارهم﴿فيه يَعْرُجُونَ﴾ أي يصعدون مستوضحين لما يرونه فيها من العجائب ﴿لَقَالُوا إنَّمَا سُكِّرَتْ أبْصارُنا﴾ أي حيّرت أو حبست من الإبصار، وما نراه شيء نتخايله لا حقيقة له ﴿بَلْ نحْنُ قومٌ مَّسحُورُونَ﴾.

قال الناصر في (الانتصاف): المراد، واللّهُ أعلم، يعني من الآيتين، إقامة الحجة على المكذبين بأن اللّه تعالى سلك القرآن في قلوبهم وأدخله في سويدائها. كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المصدقين. فكذب به هؤلاء وصدق به هولاء. كلٌّ على علمٍ وفهمٍ ﴿لِّيهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ ويَحْيَى مَنْ حَيَّ عن بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، ولئلا يكون للكفار على اللّه حجة بأنهم ما فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن. فأعلمهم اللّهُ تعالى من الآن. وهم في مهلة وإمكان، أنهم ما كفروا إلا على علم. معاندين باغين غير معذورين، واللّهُ أعلم. ولذلك عقبه تعالى بقوله ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ الآية، أي هؤلاء فهموا القرآن وعلموا وجوه إعجازه وولج ذلك في قلوبهم ووقر، ولكنهم قوم سجيتهم العناد وسيمتهم اللدد، حتى لو سلك بهم أوضح السبيل وأدعاها إلى الإيمان بضرورة المشاهدة، وذلك بأن يُفتح لهم باب في السماء ويعرج بهم إليه حتى يدخلوا منها نهاراً.

وإلى ذلك الإشارة بقوله ﴿فظلّوا﴾ لأن الظلول إنما يكون نهاراً. لقالوا بعد هذا الإيضاح العظيم المكشوف ﴿إنما سُكِّرَتْ أبصارُنا﴾ وسحرنا محمد. وما هذه إلا خيالات لا حقائق تحتها. فاسجل عليهم بذلك أنهم لاعذر لهم في التكذيب، من عدم سماع ووعي ووصول إلى القلوب وفهم، كما فهم غيرهم من المصدقين، لأن ذلك كله حاصل لهم. وإنما بهم العناد واللدد والإصرار، لا غيره. واللّهُ أعلم.

ثم بيّن تعالى دلائل وحدته وعظمته وقدرته الباهرة، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

﴿ولَقدَ جعَلْنا في السَّماءِ بُرُوجاً﴾ جمع (برج) يطلق على القصر والحصن وعلى المنازل الأثني عشر التي تنتقل فيها الشمس في ظاهر الرؤية.

وقد فسرت البروج في الآية بالنجوم وبالمنازل المذكورة وبالقصور، على التشبيه بحصون الأرض وقصورها. فإن النجوم هياكل فخيمة عظيمة ﴿وزَيَّنّاها﴾ أي السماء بتلك البروج المختلفة الأشكال والأضواء المرئية ﴿للنّاظِرين﴾ أي إلى حركاتها وأضوائها. أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بها على قدرة موجدها ووحدانيته ﴿وحَفِظْناها من كُلِّ شيطانٍ رَّجيمٍ، إلاّ من استْرَق﴾ أي اختلس ﴿السَّمْعَ﴾ أي من الملائكة السماوية ﴿فأتْبعهُ﴾ أي تبعه ولحقه ﴿شِهابٌ مُّبينٌ﴾ أي لهب محرق ظاهر، فيرجع أو فيحترق.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾

﴿والأرْضَ مَدَدْناها﴾ أي بسطناها ﴿وألْقينا فيها رواسي﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿وأنبتْنا فِيهَا مِن كُلّ مَّوْزونٍ﴾ أي وزن بميزن الحكمة، وقدّر بمقدار تقتضيه، لايصلح فيه زيادة ولا نقصان، أو بمعنى مستحسن متناسب من قولهم: كلام موزون.

وقد ذكر الشريف المرتضى في (الدرر): أن العرب استعملته بهذا المعنى، كقول عمر ابن أبي ربيعة.

وَحَديثٌ أَلَذُّهُ هُوَ مما ... تَشْتَهيهِ النُّفوسُ يُوزَنُ وَزْنا

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فيها مَعَايِشَ﴾ أي ما تعيشون به من المطاعم والملابس وغيرهما، مما تقتضيه ضرورة الحياة ﴿وَمَن لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ أي من الأنعام والدواب وما أشبهها. قال القاضي: وفذلكة الآية الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين، مختلفة الأجزاء في الوضع، محدثة فيها أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة، مع جواز أن لايكون كذلك، على كمال قدرته وتناهي حكمته والتفرد في الألوهية والامتنان على العباد، بما أنعم عليهم في ذلك، ليوّحدوه ويعبدوه. ثم بالغ في ذلك وقال: ﴿وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عَندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه. شبه اقتداره على كل شيء وإيجاده بالخزائن المودعة فيها الأشياء، المعدّة لإخراج ما يشاء منها وما يخرجه إلا بقدرمعلوم، استعارة تمثيلية. أو شبّه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد. استعارة مكنية. ومعنى ﴿نُنَزِّلُهُ﴾ أي نوجده ونخرجه في عالم الشهادة. والقدر المعلوم الأجل المعين له، حسبما تقتضيه الحكمة، وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ أي تلقح السحاب أي تجعلها حوامل بالماء. وذلك أن السحاب بخار يصير، بإصابته الهواء البارد، حوامل للماء. قاله المهايمي: فاللواقح، عليه، جمع (ملقح) بحذف الزوائد. أو تلقح الشجر بجري مائها فيه أو تنيمته ليثمر ويزهو. وجوّز كون اللواقح جمع (لاقح) وهي الناقة الحامل. فشبهت الريح التي تجيء بالمزن الممطرة بها. كما يشبه ما لا تكون كذلك بـ (العقيم) فيقل: ريح عقيم. ﴿فَأَنزَلْنَا من السَّمَاءِ ماءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي بقادرين على إيجاده وإنزاله. و(الخزن) اتخاذ الخزائن يستعار للقدرة، كما مرّ. أو بحافظين له في أمكنة ينابيعه، من سهول وجبال وعيون وآبار، بل هو تعالى وحده الذي حفظه

وسلكه ينابيع في الأرض وجعله عذاباً ورحم العباد بسقياه ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ أي الباقون بعد هلاك الخلق كله. وقيل للباقي: وارث، استعارة من (وارث الميت) لأنه يبقى بعد فنائه. ومنه قوله صلوات اللّه عليه في دعائه: واجعله الوارث منا. كذا في (الكشاف).

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَئْخِرِينَ﴾ أي من تقدم ولادةً وموتاً. ومن تأخر من الأولين والآخرين. أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعدُ. أو من تقدم في الإسلام وسبق إلى الطاعة ومن تأخر. لا يخفى علينا شيء من أحوالكم. وهو بيان لكمال علمه، بعد الاحتجاج على كمال قدرته؛ فإن ما يدل على قدرته دليل على علمه. وفي تكرير قوله ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ من كمال التأكيد ما لا يخفى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هو يَحْشُرُهُمْ﴾ أي الأولين والآخرين على كثرتهم ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ أي يدبر أمرهم في الحشر على وفق الحكمة ﴿عَلِيمٌ﴾ أي بكل ما فيهم من خفايا الصفات الذميمة ﴿سَيَجْزِيهِم وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام:١٣٩].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ﴾ يعني آدمَ ﴿من صَلْصالٍ﴾ أي طين يابس مصوِّت ﴿مِنْ حَمَإٍ﴾ صفة لصلصال .أي كائن من طين متغير مسود ﴿مَسْنُونٍ﴾ أي مصوَّر من (سنة الوجه) وهي صورته. أو مصبوب، من (سنّ الماء) صبّه. أي مفرغ على هيئة الإنسان. كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف، فيبس حتى إذا نقر صلصل، ثم صيَّره جسداً ولحماً ونفخ فيه من روحه ﴿والْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قبلُ﴾ أي من قبل الإنسان.

﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ أي من نار الريح الشديد الحرّ.

قال أبو السعود: ومساق الآية، كما هو، للدلالة على كمال قدرته تعالى، وبيان

بدء خلق الثقلين. فهو التنبيه على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها إمكان الحشر، وهو قبول الموادّ للجمع والإحياء.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾

﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ للْملائكة إنّي خالقٌ بَشراً مِنْ صَلْصالٍ من حَمَإٍ مَسْنُونٍ فإذا سَوَّيْتُهُ﴾ أي عدلت خلقته وأكملتها **﴿ونَفَخْتُ فيه من رُوحي فقعُوا لَهُ ساجدينَ﴾** أي تحية له وتعظيماً.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾

﴿فَسَجَدَ الْملائكةُ كُلُّهُمْ أجْمَعُونَ، إلاَّ إبْليس أبَى أن يكُونَ مَعَ السَّاجدين، قالَ يا إبْليسُ مَا لَكَ ألاَّ تكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ، قالَ لَمْ أكُنْ لأسْجُدَ لِبَشرٍ خلَقْتَهُ من صَلْصالٍ مِنْ حمَإٍ مَسْنُونٍ﴾.

يعني: وقد خلقتني من نار فأنا خير منه. كما صرح به في آية غيرها. وفي تكرير قوله: **﴿من صَلْصالٍ﴾** الخ تذكير للإنسان بأصله هذا المفضول، ليكون كابحاً من جماح غوايته، وشدة تمرده.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾

﴿قالَ فَاخْرُجْ مِنها﴾ أي من زمرة الملائكة المعززين **﴿فإنَّكَ رَجيمٌ﴾** أي مطرود من كل خير وكرامة. فإن من يطرد يرجم بالحجارة. أو شيطان يرجم بالشهب. وهو

وعيد يتضمن الجواب عن شبهته. فإن من عارض النص بالقياس فهو رجيم ملعون. أفاده أبو السعود.

﴿ وإنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إلى يَوْمِ الدِّين ﴾ أي الجزاء. وهويوم القيامة ﴿ قالَ رَبِّ فأنظِرْني إلى يَوْمَ يُبعَثُونَ، قالَ فإنَّكَ من الْمُنظَرِين، إلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ وهويوم البعث.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾

﴿ قالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَني لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ أي المعاصي ﴿ في الأرضِ ولأُغْوِيَنَّهُمْ أجْمَعِينَ، إلاَّ عبادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ ﴾ أي الذين أخلصتهم لطاعتك وجردتهم بالتوجه إليك. وقرئ بكسر اللام أي الذين أخلصوا دينهم لك وأعمالهم من غير حظ لغيرك فيها.

﴿ قالَ هَذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقيمٌ ﴾ أي حق نهجه ومراعاته لا اعوجاج فيه. وهو أن لا سلطان لك على عبادي المخلصين، إلا الذين يناسبونك في الغواية والبعد عن صراطي، فيتبعونك كما قال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

﴿ إنَّ عبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ ﴾ أي قهر على الإغراء.

﴿ إلاّ من اتَّبعَكَ من الْغَاوين ﴾ أي المطبوعين على الغواية ﴿ وإنَّ جهنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمعينَ ﴾ قال المهايمي: لأن غوايتهم إنما كانت بترك متابعة الدليل مع متابعة الأهوية الباطلة، لغلبتها عليهم ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ ﴾ أي الغواة ﴿ جُزْءٌ مَقْسومٌ ﴾ أي حزب معين مفرز من غيره، حسبما يقتضيه استعداده.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

﴿ إنَّ الْمُتَّقينَ في جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، ادْخُلُوها ﴾ أي يقال لهم ادخلوها ﴿ بِسَلامٍ ﴾ أي

سالمين أو مسلماً عليكم ﴿آمِنينَ﴾ أي من الآفات والزوال ﴿ونزَعْنا ما في صُدُورِهِم من غلٍّ﴾ أي حقد كان في الدنيا، لبعضهم على بعض ﴿إخْواناً﴾ حال من فاعل ﴿ادْخُلوها﴾ أو الضمير في (آمنين) ﴿على سُرُرٍ﴾ أي مراتب عالية ﴿مُتَقابِلِين﴾ لتساوي درجاتهم وتقارب مراتبهم. فيتلذذ بعضهم برؤية وجه بعض ﴿مُتَقابلين لاَ يَمَسُّهُم فيها نصَبٌ﴾ أي تعب ﴿وما هُم مِنْها بِمُخْرَجين﴾ لسرمدية مقامهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿نَبِّئْ عبادي أنّي أنا الْغَفورُ الرَّحيمُ﴾ أي لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴿وأنَّ عَذابي هوَ الْعَذَابُ الأليمُ﴾ أي لمن لم يتب من كفره. والجملة فذلكة لما سلف من الوعد والوعيد وتقرير له. ﴿ونَبِّئْهُمْ عن ضَيْفِ إبْراهيم﴾ أي عن نَبَئِه. والضيف كالزَّور، يقع على الواحد والجمع.

قال في الكشاف: عطف ﴿ونَبِّئْهُمْ﴾ على ﴿نَبِّئْ عِبادي﴾ ليتخذوا ما أحلّ من العذاب بقوم لوط، عبرة يعتبرون بها سخط اللّه وانتقامه من المجرمين، ويتحققوا عنده أن عذابه هوالعذاب الأليم ﴿إذْ دَخَلُواْ عَلَيْه فقالوا سَلاماً قالَ إنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي خائفون. وذلك لما رأى أيديهم لاتصل إلى طعامه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿قالُواْ لاَ توجَلْ إنَّا نُبَشِّرُكَ بغُلامٍ عليم، قالَ أَبَشَّرْتُموني على أن مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي مع مسّ الكبر بأن يولد لي، والكبر مانع منه ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ قال الزمخشري: هي (ما) الاستفهامية دخلها معنى التعجب. كأنه قال: فبأي أعجوبة تبشروني. أو أراد إنكم تبشرونني بما هو غير متصورٌ في العادة. فبأي شيء تبشرون؟ يعني لا تبشروني في الحقيقة بشيء. لأن البشارة بمثل هذا، بشارة بغير شيء.

﴿قالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقّ فلاَ تَكُن من الْقَانِطِينَ﴾ أي الآيسين من ذلك. ﴿قالَ ومَن

يَقْنطُ من رَّحْمَةِ رَبِّه إلاَ الضَّالُّونَ﴾ يعني لم أستنكر ذلك قنوطاً من رحمته، ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها اللّه تعالى. والتصريح برحمة اللّه في أحسن مواقعه.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿**قالَ**﴾ أي إبراهيم. بعد أن ذهب عنه الروع ﴿**فمَا خطْبُكُمْ**﴾ أي أمركم الخطير الذي لأجله أرسلتم، سوى البشارة ﴿**أيُّها الْمُرْسَلُون، قالوا إنَّا أُرْسِلْنا إلى قوم مُجْرمين**﴾ أي إلى إهلاكهم. يعنون قوم لوط ﴿**إلأ آلَ لُوطٍ إنَّا لَمُنَجُّوهم أجْمَعِينَ، إلأ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إنَّها لَمِنَ الْغَابرينَ**﴾ أي الباقين مع الكفرة، لتهلك معهم. وإسناد التقدير لهم مجازيّ من باب قول خواصّ الملك (دبرنا كذا وأمرنا بكذا) وإنما يعنون دبر ملك وأمر. هذا إذا كان (قدرنا) بمعنى أردنا وقضينا. وإن كان بمعنى علمنا، فلا غرو في علم الملائكة ذلك، بإخباره تعالى إياهم به.

ومن الناس من يجعل (قدرنا) من كلامه تعالى، غير محكيّ عن الملائكة. قال في (الانتصاف) وهو الظاهر لاستغنائه عن التأويل.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾

﴿**فلمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ، قالَ إنَّكُم قَوْمٌ مُّنكَرُونَ**﴾ أي لا أعرفكم ولا أدري من أي الأقوام أنتم وما أقدمكم.

وقال المهايميّ: أي يخاف منكم تارة وعليكم أخرى. والظاهر أنه قال ذلك لهم، بعد معاناته الشدائد من قومه لأجلهم. كما فصل في سورة هود ﴿**قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بما كَانُوا فيه يَمْتَرُونَ**﴾ أي العذاب الذي كنت تتوعدهم به، فيمرّون به، ويكذّبونك ﴿**وأتَيْنَاكَ بالْحَقِّ**﴾ أي اليقين مع هلاكهم ﴿**وإنَّا لَصادِقُونَ**﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ أي فاذهَبْ بهم في الليل ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي في طائفة منه وهي آخره ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ أي كن على أثرهم تذودهم وتسرع بهم وتطلع على حالهم ﴿وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي لينظر ما وراءه، فيرى من الهول ما لا يطيقه ﴿وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ، وَقَضَيْنا إليه ذَلِكَ الأمْرَ أنَّ دابِرَ هؤلاء مَقْطُوعٌ مُصبحين﴾ أي يستأصلون عن آخرهم، حال كونهم داخلين في الصبح ﴿وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ أي مدينة لوط، وهي سدوم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي بأضيافه، طمعاً فيهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونَ﴾ أي بالإساءة إليهم. فإن الإساءة إليهم فضيحة للمضيف ﴿وَاتَّقُوا اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ، قَالُوا أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي عن أن تجير أحداً منهم أو تدفع عنهم أو تمنع بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد. وكان يقوم ﷺ بالنهي عن المنكر والحجر بينهم وبين المتعرّض له. فأوعدوه وقالوا: ﴿لئنَ لَمْ تَنتَه يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]، أفاده الزمخشري.

﴿قَالَ هَؤُلاء بَنَاتي إن كُنتُمْ فَاعلينَ﴾ تقدم الكلام عليه في سورة هود، مفصلاً ﴿لَعَمْرُكَ﴾ قسم بحياة النبي ﷺ اعترض به تعباً من شدة غفلتهم وتكريماً للمخاطب ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ أي غفلتهم التي ذهبت معها أحلامهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي يترددون فلا يفهمون ما يقال لهم. ولما لم يسمعوا منه، النصيحة المبقية لهم، أسمعهم الله الصيحة المهلكة لهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ أي صيحة العذاب

﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي داخلين في وقت شروق الشمس ﴿فَجَعَلْنَا﴾ أي من تلك الصيحة المحرّكة للأرض ﴿عَالِيهَا سافِلَهَا﴾ قال المهايمي لجعلهم الرجال العالين كالنساء السافلات.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً من سِجِّيلٍ﴾ أي طين متحجر، لرجمهم على لواطهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي الناظرين بطريق في الآيات ﴿وَإِنَّهَا﴾ يعني مدينة قوم لوط المدمَّرة ﴿لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ أي ثابت يسلكه الناس، لم يندرس بعدُ، وهم يبصرون تلك الآثار.

قال الزمخشري: وهوتنبيه لقريش. كقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ، وَبِاللَّيْلِ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧ - ١٣٨].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي في هلاكهم لَعبرة لهم.

تنبيهان:

الأول - قال ابن القيّم: في (أقسام القرآن): أكثر المفسرين من السلف والخلف بل لايعرف السلف فيه نزاعاً - أن هذا، يعني قوله تعالى ﴿لَعَمْرُكَ﴾ قسم من اللّه بحياة رسوله ﷺ. وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الربُّ عزَّ وجلَّ بحياته. وهذه مزية لا تعرف لغيره.

ولم يوفق الزمخشري لذلك. فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط. وإنه من قول الملائكة.

فقال: هو على إرادة القول. أي قالت الملائكة للوط عليه السلام: ﴿لعمرك...﴾ الآية وليس في اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على أن مافهمه السلف أطيب، لا أهل التعطيل والاعتزال.

قال ابن عباس رضي اللّه عنهما: ﴿لعمرك﴾ أي حياتك: قال: وما أقسم اللّه تعالى بحياة نبيّ غيره. والعَمر والعُمر واحد. إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإثبات الأخف، لكثرة دور الحلف على ألسنتهم. وأيضا فإن العمر حياة مخصوصة. فهو عمر شريف عظيم أهلٌ أن يقسم به، لمزيته على كل عمر من أعمار بني آدم. ولا ريب أن عمره وحياته من أعظم النعم والآيات. فهو أهل أن يقسم به. والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات. ثم قال ابن القيّم: وإنما وصف اللّه سبحانه اللوطية بالسكرة، لأن للعشق سكرة مثل سكرة الخمر كما قال القائل:

سُكْرَانِ: سُكْرُ هَوًى وسُكْر مُدامَةٍ ومتى إفاقةُ مَنْ بهِ سُكْرانِ؟

الثاني - قوله تعالى: ﴿إنَّ في ذَلكَ لأياتٍ لِلْمُتَوَسِّمينَ﴾ قال السيوطيّ في (الإكليل): هذه الآية أصل في الفراسة. أخرج الترمذيّ من حديث أبي سعيد مرفوعاً: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[1]. ثم قرأ هذه الآية. وقدكان بعض قضاة المالكية يحكم بالفراسة في الأحكام، جرياً على طريق إياس بن معاوية. انتهى.

وقد أجاد الكلام في الفراسة، الراغب الأصفهانيّ في كتاب (الذريعة) حيث قال في الباب السابع: وأما الفراسة، فالاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله، على أخلاقه وفضائله ورذائله.

وربما يقال: هي صناعة صيادة لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله. وقد نبه الله تعالى على صدقها بقول: ﴿إنَّ في ذَلكَ لأَيَات لِلْمُتَوَسِّمينَ﴾ [الحجر:٧٥]، وقوله: ﴿تَعْرِفُهُم بِسيمَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٣]، وقوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ في لَحْنِ الْقَولِ﴾ [محمد: ٣٠]، ولفظها من قولهم (فَرَسَ السبعُ الشاةَ) فكانَ الفراسة اختلاس المعارف. وذلك ضربان: ضرب يحصل للإنسان عن خاطر لايعرف سببه، وذلك ضرب من الإلهام، بل ضرب من الوحي. وإياه عنى النبي ﷺ بقوله[2]: «المؤمن ينظر بنور الله» وهو الذي يسمى صاحبه المروّع والمحدَّث. وقال عليه الصلاة والسلام (إن يكن في هذه الأمة محدَّث، فهو عمر)[3].

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أن يُكَلِّمَهُ اللّه إلاَّ وَحْياً أَوْ مِنَ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى:٥١] الآية: إنما كان وحياً بإلقائه في الروع، وذلك للأنبياء كما قال عز وجلّ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمينُ، عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٣ - ١٩٤]، وقد يكون بإلهام في حال اليقظة وقد يكون في حال المنام. ولأجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام: (الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعينَ جزءاً من النبوة)[4].

والضرب الثاني من الفراسة يكون بضاعة متعلمة وهي معرفة ما بين الألوان والأشكال، وما بين الأمزجة والأخلاق والأفعال الطبيعية. ومن عرف ذلك كان ذا فهم

---

(١) أخرجه الترمذيّ في: التفسير، ١٥ - سورة الحجر، ٦ - باب حدثنا محمد بن إسماعيل.

(٢) أخرجه الترمذيّ في: التفسير، ١٥ - سورة الحجر، ٦ - باب حدثنا محمد بن إسماعيل، عن أبي سعيد الخدريّ، من حديث.

(٣) أخرجه البخاريّ في: فضائل أصحاب النبيّ ﷺ، ٦ - باب مناقب عمر بن الخطاب، أبي حفص القرشيّ، العدويّ، رضي الله عنه، الحديث رقم ١٦٢٨ عن أبي هريرة.

(٤) أخرجه البخاريّ في: التعبير، ٢ - باب رؤيا الصالحين، الحديث رقم ٢٥٣٦، عن انس بن مالك.

ثاقب بالفراسة. وقد عمل في ذلك كتب. من تتبع الصحيح منها، اطلع على صدق ما ضمنوه. والفراسة ضرب من الظن. وسئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق بينهما فقال: الظن بتقلب القلب. والفراسة بنور الرب. ومن قوي فيه نور الروح المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَنَفَخْتُ فيه من رُّوحي ﴾ [الحجر:٢٩]و[ص:٧٢]،كان ممن وصفه بقوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود:١٧]، وكان ذلك النور شاهداً، أصاب فيما حكم به. ومن الفراسة قوله عليه الصلاة والسلام في المتلاعنين: (إن أمرهما بيّن، لولا حكم اللّه)[1].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾

﴿ **وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ** ﴾ (إنْ) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف. أي: وإن الشأن كان أصحاب الأيكة. وهم قوم شعيب عليه السلام. كانوا يسكنون أيكة، وهي بقعة كثيرة الأشجار، فظلموا بأنواع من الظلم، من شركهم باللّه وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان. فبعث اللّه إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه. ﴿ **فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ** ﴾ أي بعذاب الظلة، وهي سحابة أظلتهم بنار تقاذفت منها، فأحرقتهم ﴿ **وإِنَّهُمَا** ﴾ يعني قرى قوم لوط والأيكة ﴿ **لَبِإمامٍ مُّبينٍ** ﴾ أي طريق واضح. وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بعدهم في الزمان ومسامتين لهم في المكان. ولهذا لما أنذرهم شعيب قال: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنكُمْ بِبعيدٍ ﴾ [هود:٨٩].

﴿ **وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ يعني ثمود، كذبوا صالحاً عليه السلام. ومن كذب واحداً من الأنبياء عليهم السلام، فقد كذب الجميع. لاتفاقهم على التوحيد والأصول التي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار. و(الحجر) واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه. معروف. يجتازه ركب الحج الشاميّ.

﴿ **وآتَيْناهُمْ آياتنا فكانوا عنها مُعْرِضينَ** ﴾ يعني بالآيات ما دلهم على صدق دعوى نبيهم. كالناقة التي أخرجها اللّه لهم بدعاء صالح من صخرة صماء. وكانت تسرح

(١) اخرجه البخاري في: الطلاق، ٣١- باب قول النبي ﷺ: لو كنت راجماً بغير بينة، حديث رقم ٢١٦٣. عن ابن عباس.

في بلادهم. ﴿لَها شرْبٌ ولَكُمْ شرْبُ يَوْمٍ مَّعلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥]، فلما عتوا وعقروها، قال: ﴿ تَمتَّعُواْ في دارِكُمْ ثَلاَثَةَ أيَّامٍ، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:٦٥].

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿**وكَانَواْ يَنْحتُونَ من الْجبالِ بُيُوتاً آمنين**﴾ أي من حوادث الدهر ﴿**فأخذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبحِينَ**﴾ أي وقت الصباح من اليوم الرابع. وفي سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨] أي الزلزلة وهي من توابع الصيحة. أو هي مجاز عنها.

﴿**فَمَا أغْنى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ أي ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال لما جاء أمره تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنا السَّموَاتِ والأرْضِ وَمَا بيْنَهُما إلاَّ بالْحقِّ**﴾ أي إلا خلقاً متلبساً بالحق والحكمة الثابتة، التي لا تقبل التغير. وهي الاستدلال بها على الصانع وصفاته وأسمائه وأفعاله ليعرفوه فيعبدوه، بحيث لا يلائم استمرار الفساد. ولذلك اقتضت الحكمة إرسال الرسل مبشرين ومنذرين. ﴿**وإنَّ السَّاعَةَ لأتيَةٌ**﴾ أي فيجزي كلاً بما كانوا يعملون ﴿**فاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَميلَ**﴾ أي عاملهم معاملة الصفوح الحكيم، كقوله: ﴿فاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ، فَسَوْفَ يعْلَمونَ﴾ [الزخرف:٨٩].

وقوله تعالى: ﴿**إنَّ ربَّكَ هُوَ الْخَلاقُ الْعَليمُ**﴾ تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة. فإنه الخلاّق الذي لا يعجزه خلق شيء، العليم بما تمزّق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض كقوله تعالى: ﴿أَوَ لَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَّموَاتِ والأَرْضَ بِقَادرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم، بَلى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَليمُ﴾ [يس:٨١].

﴿**ولَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً منَ الْمَثَاني والْقُرآنَ الْعَظِيمَ**﴾ قال الرازي إنه تعالى لما صبّره على أذى قومه وأمره بأن يصفح الصفح الجميل، أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التي خصه بها. لأن الإنسان إذا تذكر كثرة نعم الله عليه، سهل عليه الصفح والتجاوز.

(والسبع المثاني) هو القرآن كله كما قاله ابن عباس في رواية طاوس. لقوله

تعالى: ﴿كِتَاباً مُّتَشابِهاً مَّثَانِيَ﴾ [الزمر:٢٣]، والواو في قوله: ﴿وَالْقُرْآنَ الْعظِيمَ﴾ لعطف الصفة كقول الشاعر:

إلى المَلِكِ الْقَرْمِ وابن الهُمَامِ ولَيثِ الكتيبة في المُزْدَحَمْ

و(السبع) يراد بها الكثرة في الآحاد. كالسبعين في العشرات. و(المثاني) جمع مثنى بمعنى التثنية أو الثناء. فإنه تكرر قراءته أو ألفاظه أو قصصه ومواعظه. أو مثنى عليه بالبلاغة والإعجاز. أو مثن على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسْنى.

وقد روي عن بعض السلف تفسير السبع بالسور الطوال الأول، وهذا لم يقصد به. إلا أن اللفظ الكريم يتناولها، لا أنها هي المعْنيَّة. كيف لا وهذه السورة مكية وتلك مدنيات؟ كالقول بأنها الفاتحة سواء. وأما حديث[1]: (الحمد لله ربِّ العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته) عند الشيخين، فمعناه أنها من السبع، لعطف قوله (والقرآن العظيم الذي أوتيته) ولو كان القصر على بابه، لناقضه لمعطوف. لاقتضائه أنها هو لا غيره. وبداهة بطلانه لا تخفى.

وسر الإخبار بأنها السبع، كون الفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن. وكل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت فيها. كما بينه الإمام مفتي مصر في (تفسير الفاتحة) فراجعه. هذا ما ظهر لي الآن في تحقيق الآية.

وللأثريّ الواقف مع ظاهر ما صح من الأخبار، الجازم بأن السبع في الآية هي الفاتحة لظاهر الحديث - أن يجيب عن القصر بأن المراد بالمعطوف القرآن بمعنى المقروء، لابمعنى الكتاب كله. والله أعلم.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَينَيْكَ إلى مَا مَتَّعنَا بهِ أزْواجاً مِنهُمْ﴾ يعني: قد أوتيت النعمة العظمى، التي كل نعمة وإن عظمت، فهي إليها حقيرة. وهي القرآن العظيم. فعليك

---

(١) أخرجه البخاريّ في: التفسير، ١ - سورة الفاتحة، ١ - باب ما جاء في فاتحة الكتاب، حديث ١٩٦١، عن أبي سعيد بن المعلّى.

أن تستغني ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به، من زخارف الدنيا وزينتها، أصنافًا من الكفار متمنياً لها. فإنه مستحقر بالإضافة إلى ما أوتيته. وفي التعبير عما أوتوه (بالمتاع) إنباء عن وشك زوالها عنهم.

﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي لعدم إيمانهم، المرجوّ بسببه تقوّي ضعفاء المسلمين بهم ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ أي تواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم. وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء.

﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾ أي المنذر المظهر للعذاب لمن لم يؤمن ﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾ أي مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين. أو إنذاراً مثل ما أنزلنا. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقتسمون أصحاب صالح عليه السلام، الذين تقاسموا بالله لنبيّتنّه وأهله فأخذتهم الصيحة، كما مر. فالاقتسام من (القسم) لا من القسمة.

وهذا التأويل اختاره ابن قتيبة.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾

﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ أي أجزاء جمع (عضة) يعنى كفار مكة. قالوا: سحر. وقالوا: كهانة. وقالوا: أساطير الأولين. وهومبتدأ خبره ﴿فو ربك لنسئلنهم أجمعين، عمّا كانوا يعملون﴾ أي من التقسيم فنجازيهم عليه. وجوز تعلق (كما) بقوله: ﴿لنسئلنهم﴾ أي لنسألنهم أجمعين مثل ما أنزلنا. فيكون (كما) رأس آية و(المقتسمون) حينئذ، إما من تقدم، أو المشركون. ويعنى بالإنزال عليهم إنزال الهداية التي أبوْها. وجوّز جعل الموصول مفعولاً أول للنذير، أو لما دلّ عليه من أنذر. أي النذير. أو أنذر المعضين الذين يجزئون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير، مثل ما أنزلنا على المقتسمين. وجوّز جعل (كما) متعلقاً بقوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك﴾ أي أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب الذين جزؤوا القرآن إلى حق وباطل. حيث قالوا: قسم منه حق موافق لما عندنا. وقسم باطل لا يوافقه. أو القرآن هو مقروؤهم. أي قسموا ما قرؤوا من كتبهم وحرفوه. فاقروا ببعضه وكذبوا ببعضه. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾

﴿**فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ**﴾ أمر من (الصدع) بمعنى الإظهار والجهر، من (انصداع الفجر). أو من (صدع الزجاجة) ونحوها وهو تفريق أجزائها. أي: افرق بين الحق والباطل ﴿**وأَعْرِضْ عن الْمُشْرِكِينَ**﴾ أي الذين يرومون صدك عن التبليغ، فلا تبال بهم ﴿**إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ**﴾ أي حَفظْنَاكَ منْ شرّهم، فلا ينالك منهم ما يحذر. وهذا ضمان منه تعالى، له صلوات الله عليه، لينهض بالصدع نهضةَ من لايهاب ولايخشى. كما قال تعالى: ﴿يَا أيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إليْكَ مِن رَّبِّكَ، وإن لَّمْ تَفْعَل فَما بَلَّغْتَ رِسَالتهُ، واللّهُ يَعْصِمُكَ من النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

﴿**الَّذينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إلهاً آخرَ**﴾ وصفهم بذلك، تسلية له عليه الصلاة والسلام. وتهويناً للخطب عليه، بأنهم أصحاب تلك الجريمة العظمى، التي هي أكبر الكبائر، التي سيخذلون بسببها. كما قال: ﴿**فَسَوْفَ يَعْلَمونَ**﴾ أي عاقبة أمرهم. وقد جوّز في الموصول أن يكون صفة (للمستهزئينَ) ومنصوباً بإضمار فعل. ومرفوعاً بتقدير (هم). وفي الآية وعيد شديد لمن جعل معه تعالى معبوداً آخر. وقد أشار كثير من المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿**إنَّاكفَيْنَاكَ الْمُستَهزئينَ**﴾ عنى به ما عجله من إهلاكهم. كما روى ابن إسحاق عن عروة: أن عظماء المستهزئين كانوا خمسة نفر. وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم: من بني أسد أبو زمعة، كان النبي ﷺ قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه. فقال: اللهم! أعم بصره وأثكله ولده. ومن بني زهرة الأسود. ومن بني مخزوم الوليد بن المغيرة. ومن بني سهم العاص بن وائل. ومن خزاعة الحارث. فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله تعالى: ﴿**فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ**﴾ إلى قوله: ﴿**فَسوفَ يَعْلَمُونَ**﴾، قال ابن إسحق عن عروة، إن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت. فقام وقام رسول الله إلى جنبه. فمر به الأسود فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه. ومر به الوليد فأشار إلى أثر جراح بأسفل كعب رجله. كان أصابه قبل ذلك بسنتين. فانتقض به فقتله. ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص قدمه، فخرج على حمار يريد الطائف. فربض على شبرقة فدخلت في أخمص قدمه ومرّ به الحارث فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله. انتهى.

ومثله ما روه ابن مسعود: قال: كنا مع رسول الله ﷺ نصلي في ظل الكعبة. وناس من قريش وأبو جهل قد نحروا جزوراً في ناحية مكة: فبعثوا فجاؤوا بسلاها وطرحوه بين كتفيه وهوساجد. فجاءت فاطمة فطرحته عنه. فلما انصرف قال: اللهم! عليك بقريش وبأبي جهل وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة وأميّة بن خلف وعقبة بن أبي معيط[١].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: فلقد رأيتهم قتلى في قليب بدر.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

﴿ **ولَقدْ نعْلَمُ أنَّكَ يَضيقُ صَدْرُكَ بمَا يقولُونَ. فَسبِّحْ بحمْدِ ربِّكَ وكُن منَ السَّاجدين. وَاعْبُدْ ربَّكَ حتَّى يأْتِيكَ الْيقينُ** ﴾ لما ذكر تعالى أن قومه يهزأون ويسفهون، أعلمه بما يعلمه سبحانه منه، من ضيق صدره وانقباضه بما يقولون: لأن الجبلّة البشرية والمزاج الإنساني يقتضي ذلك. ثم أعلمه بما يزيل ضيق الصدر والحزن. وذلك أمره من التسبيح والتحميد والصلاة. كما قال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُواْ بالصَّبْرِ والصَّلاة ﴾ [البقرة:٤٥]، وقال: ﴿ ألا بذكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨] ومعلوم أن في الإقبال على ما ذكر، استنزال الإمداد الربانيّ بالنصر والمعونة. لقوله: ﴿ إنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابرينَ ﴾ [البقرة:١٥٣] و [الأنفال:٤٦]، وقوله: ﴿ فاذْكُرُوني أذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة:١٥٢]، وقوله: ﴿ إنَّ اللّهَ معَ الَّذينَ اتَّقَواْ والذّينَ هُم مُّحْسنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨].

وقد روي في شمائله صلوات الله عليه؛ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، تأويلاً لما ذكر.

قال أبو السعود: وتحلية الجملة بالتأكيد لإفادة تحقيق ما تضمنته من التسلية. وفي التعرض لعنوان الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام. ما لا يخفى من إظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام، والإشعار بعلة الحكم، أعني الأمر بالتسبيح والحمد. والمراد من (الساجدين) المصلين. من إطلاق الجزء على

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الوضوء، ٦٩- باب إذا القي على ظهر المصلّي قذر أو جيفة، حديث ١٧٩. وأخرجه مسلم في: الجهاد والسير، ٣٩ - باب ما لقي النبيّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، حديث ١٠٧.

الكل. و(اليقين): الموت. فإنه متقين اللحوق بكل حيّ مخلوق. وإسناد الإتيان إليه، للإيذان بأنه متوجه إلى الحيّ طالب للوصول إليه. والمعنى دُمْ على العبادة ما دمت حياً. كقوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَأَوْصاني بِالصَّلاةِ والزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حياً﴾ [مريم: ٣١].

وقيل: المراد بـ(اليقين) تعذيب هؤلاء وأن ينزل بهم ما وعده. ولا ريب أنه من المتيقن. إلا أن إرادة الموت منه، أولى. يدلّ له قوله تعالى إخباراً عن أهل النار: ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ، وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينَ، حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٣و٤٧]، وما في الصحيح عن أم العلاء، امرأة من الأنصار: أن رسول اللّه ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، قالت أم العلاء: رحمة اللّه عليك، أبا السائب! فشهادتي عليك، لقد أكرمك اللّه! فقال رسول اللّه ﷺ: وما يدريك أن اللّهَ أكرمه؟ فقلت: بأبي وأمي يا رسول اللّه! فمن؟ فقال: أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير(١).

تنبيه:

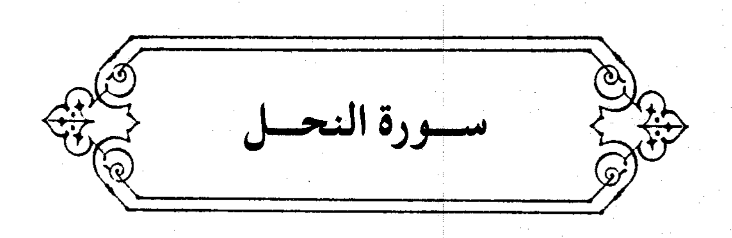
قال الحافظ ابن كثير: يستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ على أن العبادة، كالصلاة ونحوها، واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً، كما في صحيح البخاري(٢) عن عمران بن حصين رضي اللّه عنهما؛ أن رسول اللّه ﷺ: قال: صلِّ قائماً. فإن لم تستطع فقاعداً. فإن لم تستطع فعلى جنب. ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة. فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم. وهذا كفر وضلال وجهل. فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم، أعلم الناس باللّه، وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا، مع هذا، أعبد الناس وأكثرهم مواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة. انتهى.

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الجنائز، ٣ - باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أُدرج في كنفه، الحديث رقم ٦٦٦.

(١) أخرجه البخاريّ في: تقصير الصلاة، ١٧ - باب صلاة القاعد، حديث رقم ٦١١.

بسم اللّه الرحمن الرحيم



سميت بها لاشتمالها على قوله تعالى: ﴿وَأَوحى رَبُّكَ إِلى النَّحْلِ﴾ النحل:٦٨]، المشير إلى أنه لايبعد أن يلهم اللّهُ عزَّ وجلّ بعض خواص عباده، أن يستخرجوا الفوائد الحلوة الشافية من هذا الكتاب. بحمل كلماته على مواضع الشرف. وعلى المعاني المثمرة، وعلى التصرفات العالية. مع تحصيل الأخلاق الفاضلة وسلوك سبيل التصفية والتزكية. وهذا أكمل ما يعرف به فضائل القرآن ويدرك به مقاصده. قاله المهايمي.

وقال بعضهم: تسمية السورة بذلك تسمية بالأمر المهمّ. ليتفطن الغرض الذي يرمى إليه. كـ (الجمعة) لأهمية الاجتماع الأسبوعي ومايَنْجِمُ عنه من مصالح الأمور العامة، والحديد لمنافعه العظيمة. و(النحل). و (العنكبوت). و (النمل). للتفطن لصغارالحيوانات الحكيمة الصنائع. وهكذا. وسيأتي طرف من حكمة النحل وأسراره عند آيته في هذه السورة.

وهي مكية. واستثنى ابن عباس آخرها. وعن الشعبيّ إلا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبتُمْ﴾ [النحل:١٢٦]، الآيات وعن الشعبيّ: إلا قوله تعالى: ﴿وَالَّذينَ هَاجَرُوا في اللّهِ﴾ [النحل: ٤١]، الآيات. وآياتها مائة وثمان وعشرون.

وعن قتادة: تسمى سورة النعم. وذلك لما عدد اللّه فيها من النعم على عباده.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١﴾

﴿أتى أَمْرُ اللَّهِ فلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وتَعالى عمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تقرر في غير ما آية، أن المشركين كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو إهلاكهم. كما فعل يوم بدر، استهزاء وتكذيباً بالوعد. فقيل لهم: ﴿أتى أَمْرُ اللَّه﴾ أي ما توعدونه مما ذكر. والتعبير عنه بـ ﴿أمر اللَّه﴾ للتفخيم والتهويل. وللإيذان بأن تحققه في نفسه وإتيانه، منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب. وإتيانُه عبارة عن دنوِّه واقترابه، على طريقة نظم المتوقع في سلك الواقع. أو عن إتيان مباديه القريبة، على نهج إسناد حال الأسباب إلى المسببات. والآية كقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ للنَّاسِ حسَابُهُمْ وَهُمْ في غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١]، وقوله: ﴿اقْتَرَبَت السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر:١]، وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ولَوْلاَ أَجَلٌ مُّسمىً لَّجاَءَهُمُ الْعَذابُ. ولَيأْتيَنَّهُم بغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت:٥٣]، ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه، من الأوثان والأنداد، الذي أفضى بهم إلى الاستهزاء والعناد، واعتقاد أنها شفعاؤهم إذا جاء الميعاد.

القول في تأويل قوله تعالى:

يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾

﴿يُنزِّلُ الْمَلائكَةَ بِالرُّوحِ منْ أَمْرِهِ عَلَى منْ يشاءُ من عِبادِه أنْ أنذِرُوا أنَّهُ لاَ إلهَ إلاَّ أنا فاتَّقُونِ﴾ ردٌّ لاستبعادهم النبوة، بأن ذلك سنة له تعالى. ولذا ذكر صيغة الاستقبال كقوله تعالى: ﴿يُلْقي الرُّوح منْ أَمْرِهِ علَى من يشاءُ منْ عبادهِ﴾ [غافر:١٥]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفي من الْمَلائكَةِ رُسُلاً ومنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥]، والروح هو الوحي، الذي من جملته القرآن. لقوله تعالى: ﴿وكَذَلكَ أَوْحَينا إِلَيْكَ رُوحاً منْ أَمرنا، مَا كُنتَ تَدْرِي ما الْكِتابُ وَلاَ الإيمانُ وَلَكِنَ جَعلْناهُ نُوراً نَّهدْي بهِ من نشاءُ من عبادنا﴾

[الشورى: ٥٢]، والتعبير عنه بالروح على نهج الاستعارة. فإنه يحيي القلوب الميتة بالجهل و﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ بيان للروح، أو حال منه، أو صفة، أو متعلق بـ (ينزل) و(من) للسببية و﴿أَنْ أَنذِرُواْ﴾ بدل من الروح. أي أخبروهم بالتوحيد والتقوى. فقوله ﴿فاتَّقُونِ﴾ من جملة المنذر به. أو هو خطاب للمستعجلين، على طريقة الالتفات، والفاء فصيحة أي إذا كانت سنته تعالى ذلك، فاتقون، بما ينافيه من الإشراك وفروعه، من الاستعجال.

قال الزمخشري: ثم دل على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو، بما ذكر، مما لايقدر عليه غيره. من خلق السموات والأرض، وخلق الإنسان وما يصلحه، وما لابد له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه، وجر أثقاله وسائر حاجاته. وخلق ما لا يعلمون من أصناف خلائقه. ومثله متعال عن أن يشرك به غيره. بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

﴿**خَلَقَ السَّمَواتِ والأرْضَ بالْحَقِّ**﴾ أي بالحكمة كما تقدم ﴿**تعالى عَمَّا يُشْرِكُون خَلَقَ الإنسانَ من نُطْفةٍ**﴾ أي مهينة ضعيفة ﴿**فإذا هُوَ**﴾ بعد تكامله بشراً ﴿**خَصِيمٌ مُبِينٌ**﴾ أي مخاصم لخالقه مجادل. يجحد وحدانيته ويحارب رسله. وهو إنما خلق ليكون عبدا لا ضداً ﴿**والأنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ**﴾ أي لمصالحكم وهي الأزواج الثمانية المفصلة في سورة الأنعام.

قال الزمخشري: وأكثر ما تقع على الإبل.

﴿**فيها دِفْءٌ**﴾ أي ما يدفئ أي يسخن به من صوف أو وبر أو شعر، فيقي البرد ﴿**وَمَنافِعُ**﴾ أي من نسلها ودرّها وركوب ظهرها ﴿**وَمِنْها تأكُلُونَ، ولَكُمْ فِيها جَمالٌ**﴾ أي زينة ﴿**حينَ تُرِيحُون**﴾ أي تردّونها من مراعيها إلى مراحها (بضم الميم) وهو مقرّها في دور أهلها بالعشيّ ﴿**وَحِينَ تَسْرَحُونَ**﴾ أي تخرجونها بالغداة إلى المراعي.

قال الزمخشري: منّ الله بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع بها. لأنه من أغراض أصحاب المواشي. بل هو من معاظمها لأن الرعيان، إذا روحوها بالعشيّ، وسرحوها بالغداة، فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء، أنست أهلها

وفرحت أربابها. وأجلتهم في عيون الناظرين إليها، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس، ونحوه: ﴿لِتَرْكَبُوها وزِينَةً﴾[النحل:٨]، ﴿يُوارِي سوْءاتِكُمْ ورِيشاً﴾[الأعراف:٢٦].

فإن قلت: لم قدمت الإراحة على التسريح؟ قلت: لأن الجمال في الإراحة أظهر، إذا أقبلت ملأى البطون، حافلة الضروع، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها. انتهى.

ثم أشار إلى فائدة جامعة للحاجة والزينة فقال:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أي أحمالكم ﴿إلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالغيهِ إلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾ بكسر الشين المعجمة وفتحها. وقراءتان وهما لغتان في معنى (المشقة) أي لم تكونوا بالغيه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة، فضلاً عن أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم ﴿إنَّ رَبَّكُمْ لرؤُوفٌ رَحيمٌ﴾ أي حيث سخرها لمنافعكم. ثم أشار إلى ما هو أتم في دفع المشقة وإفادة الزينة، فقال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ عطف على (الأنعام) ﴿لِتَرْكَبُوها وزِينَةً﴾ عطف محل (لتركبوها) فهي مفعول له أو مصدر لمحذوف. أي وتتزينوا بها زينة، أو مصدر واقع موقع الحال من فاعل (تركبوها) أو مفعوله. أي متزينين بها أو متزيناً بها. وسر التصريح باللام في المعطوف عليه، دون المعطوف، هو الإشارة إلى أن المقصود المعتبر الأصليّ في الأصناف، هو الركوب. وأما التزين بها فأمر تابع غير مقصود قصد الركوب. فاقترن المقصود المهم باللام المفيدة للتعليل. تنبيهاً على أنه أهم الغرضين وأقوى السببين. وتجرد التزين منها تنبيهاً على تبعيته أو قصوره عن الركوب. واللّهُ أعلم. كذا في (الانتصاف)

تنبيه:

استدل بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل. قائلين بأن التعليل بالركوب يدل على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها. قالوا: ويؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر وإخراجها عن الأنعام. فيفيد ذلك اتحاد حكمها في تحريم الأكل. قالوا: ولو كان أكل الخيل جائزاً، لكن ذكرُهُ والامتنانُ به أولى من ذكر الركوب، لأنه أعظم فائدة منه وأجاب المجوّزون لأكلها، بانه لا حجة في التعليل بالركوب، لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها، لا ينافي غيره.

ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب. وأيضاً لو كانت هذه الآية تدل على تحريم الخيل لدلت على تحريم الحمر الأهلية. وحينئذ لا يكون ثم حاجة لتجديد التحريم لها، عام خبير. وقد قدمنا أن هذه السورة مكية.

والحاصل أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حل أكل لحوم الخيل. فلو سلمنا أن هذه الآية متمسَّكاً للقائلين بالتحريم، لكانت السنَّة المطهرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال، ودافعة لهذا الاستدلال. وقد ورد في حل أكل لحوم الخيل، أحاديث منها ما في الصحيحين[١] وغيرهما من حديث أسماء قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً، فأكلناه. وأخرج أبو عبيد وابن أبي شيبة والترمذيّ[٢] وصححه والنسائي[٣] وغيرهم من جابر قال: أطعمنا رسول الله ﷺ لحوم الخيل، ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية. وأخرج أبو داود نحوه. وثبت أيضاً في الطحيحين[٤] من حديث جابر قال: نهى رسول اللّهَ ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في الخيل.

وأما ما أخرجه أبو داود[٥] والنسائي[٦] وغيرهما من حديث خالد بن الوليد قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن لحوم الخيل والبغال والحمير، ففي إسناده صالح بن يحيى. فيه مقال. ولو فرض صحته لم يقوَ على معارضة أحاديث الحلّ. على أنه يمكن أن يكون متقدماً على يوم خيبر، فيكون منسوخاً. كذا في (فتح البيان).

وفي (الإكليل): أخذ المالكية، من الاقترآن المذكور، ردّاً على الحنفية في قولهم بوجوب الزكاة فيها. أي الخيل. وقوله تعالى:

﴿وَيَخْلُقُ ما لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أي من المخلوقات في القفار والبحار. وصيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار. أو لاستحضار الصورة.

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الذبائح والصيد، ٢٤ – باب النحر والذبح، حديث ٢٢٠٢.
وأخرجه مسلم في: الصيد والذبائح.

(٢) أخرجه الترمذيّ في: الأطعمة، ٥ – باب ما جاء في أكل لحوم الخيل.

(٣) أخرجه النسائي في: الصيد والذبائح، ٢٩ – باب الإذن في أكل لحوم الخيل.

(٤) أخرجه البخاريّ في: المغازي، ٣٨ – باب غزوة خيبر، حديث ١٩٠٩ وأخرجه مسلم في: الصيد والذبائح، حديث رقم ٣٦.

(٥) أخرجه أبو داود في: الأطعمة، ٢٥ – باب في أكل لحوم الخيل، حديث رقم ٣٧٨٨.

(٦) أخرجه النسائي في: الصيد والذبائح، ٣٠ – باب تحريم أكل لحوم الخيل.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائرٌ ولَوْ شاء لهدَاكُمْ أجْمَعينَ﴾.

في الآية فوائد:

الأولى: قال ابن كثير: لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية نبّه على الطرق المعنوية الدينية. وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية الدينية. كقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خيْرَ الزَّادِ التَّقْوى﴾ [البقرة:١٩٧]، وقال تعالى: ﴿يا بَنِي آدمَ قدْ أنزَلْنا عَلَيْكُم لِبَاساً يُواري سَوْءَتِكُمْ وَرِيشاً، وَلِباسُ التَّقوى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦].

ولما ذكر تعالى، في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها، التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم ، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه . فبيّن أن الحق منها موصلة إليه. فقال: ﴿وَعَلَى اللَّه قَصْدُ السَّبِيلِ﴾. كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيله﴾ [الأنعام :١٥٣]. وَقَالَ: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر:٤١]، انتهى. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدَى﴾.

الثانية – قال أبو السعود: (القصد) مصدر بمعنى الفاعل. يقال سبيل قصد وقاصد. أي مستقيم . على طريقة الاستعارة أو على نهج إسناد حال سالكه إليه،كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه . أي حقٌّ عليه سبحانه وتعالى، بموجب رحمته ووعده المحتوم، بيان الطريق المستقيم الموصل لمن يسلكه إلى الحق، الذي هو التوحيد. بنصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه. أو مصدر بمعنى الإقامة والتعديل. قاله أبو البقاء. أي عليه ، عزَّ وجلَّ، تقويمها وتعديلها. أي: جعلها بحيث يصل سالكها إلى الحق. لكن لا بعد ما كانت في نفسها منحرفة عنه، بل إبداعها ابتداء كذلك على نهج (سبحان من صغّر البعوض. وكبّر الفيل) وحقيقته راجعة إلى ما ذكر من نصب الأدلة. وقد فعل ذلك حيث أبدع هذه البدائع التي كل واحد منها لاحبٌ يهتدى بمناره. وعلم يستضاء بناره. وأرسل رسلاً مبشرين ومنذرين. وأنزل عليهم كتباً من جملتها هذا الوحي الناطق بحقيقة الحق. الفاحص عن كل ما جل من الأسرار ودق. الهادي إلى سبيل الاستدلال بتلك

الأدلة المفضية إلى مَعالم الهدى . المنحّية عن فيافي الضلالة ومهاوي الردى.

الثالثة - الضمير في ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ للسبيل. فإنها تؤنث. أي : وبعض السبيل مائل عن الحق، منحرف عنه، لا يوصل سالكه إليه. وهو طرق الضلالة التي لا يكاد يحصى عددها، المندرج كلها تحت الجائر. كقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال أبو السعود ، بعدما تقدم أي: وعلى اللّه تعالى بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق وتعديله، بما ذكر من نصب الأدلة ليسلكه الناس باختيارهم ويصلوا إلى المقصد - وهذا هو الهداية المفسرة بالدلالة على ما يوصل إلى المطلوب. لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتة . فإن ذلك مما ليس بحق على اللّه تعالى . لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته. بل هو مخلّ بحكمته، حيث يستدعي تسوية المحسن والمسيء، والمطيع والعاصي، بحسب الاستعداد. وإليه أشير بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لو شاء أن يهديكم إلى ما ذكر من التوحيد، هداية موصلة إليه البتة، مستلزمة لاهتدائكم أجمعين، لفعل ذلك. ولكن لم يشأه. لأن مشيئته تابعة للحكمة الداعية إليها. ولا حكمة في تلك المشيئة. لما أن الذي عليه يدور فلك التكليف، وإليه ينسحب الثواب والعقاب، إنما هو الاختيار الذي عليه يترتب الأعمال، التي بها نيط الجزاء.

ولما كان أشرف أجسام العالم السفليّ، بعد الحيوان، النباتُ، تأثر ما مرّ من الإنعام بالأنعام والدواب، التي يستدل بها على وحدته تعالى، بذكر عجائب أحوال النبات، للحكمة نفسها. فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

﴿هُوَ الَّذي أنزلَ منَ السَّمَاءِ﴾ أي المزن ﴿مَاءً لَّكُم مِنْهُ شَرَابٌ﴾ يسكن حرارة العطش ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي ومنه يحصل شجر. والمراد به ما ينبت من الأرض، سواء كان له ساق أو لا، ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي ترعون أنعامكم ﴿يُنبتُ﴾ أي اللّه عزّ وجلّ ﴿لَكُم بِهِ الزَّرْعَ﴾ أي الذي فيه قوت الإنسان ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ أي الذي فيه إدامه

﴿وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ﴾ أي اللذين فيهما، مع ذلك، مزيد التلذذ ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي يخرجها بهذا الماء الواحد، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها. ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي في إنزال الماء وإنبات ما فصّل ﴿لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي دلالة وحجة على وحدانيته تعالى. كما قال سبحانه ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

قال أبو السعود - وأصله للرازيّ في شرح كون ما ذكره حجة -: فإن من تفكر في أن الحبة أو النواة تقع في الأرض وتصل إليها نداوة تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط في أعماق الأرض وينشق أعلاها وإن كانت منتكسة في الوقوع. ويخرج منه ساق فينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواصّ والطبائع، وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثال على النمط المحرر، لا إلى نهاية. مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثيرات العلوية، بالنسبة إلى الكل - علم أن مَنْ هذه أفعاله وآثاره، لا يمكن أن يشبهه شيء، في شيء من صفات الكمال. فضلاً عن أن يشاركه أخس الأشياء في أخص صفاته، التي هي الألوهية واستحقاق العبادة. تعالى عن ذلك علواً كبيراً. وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة إلى ترتيب المقدمات الفكرية، قطع الآية الكريمة بالتفكر. انتهى. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وإنضاجها ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لإصلاح ما نيط بهما صلاحه من المكونات ﴿وَالنُّجُومُ﴾ ليهتدى بها في ظلمات البر والبحر. وقوله تعالى: ﴿مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ حال من الجميع. على معنى جعلها مسخرات. لأن في التسخير معنى (الجعل) فصحت على أنه تجريد. أو على أن التسخير لهم نفع خاص.

فمعناه نفعكم حال كونها مسخرات لما خلقت له، مما هو طريق لنفعكم. ف (سخر) بمعنى (نفع) على الاستعارة أو المجاز المرسل. لأن النفع من لوازم

التسخير. أو على أن (مسخرات) مصدر ميميّ، منصوب على أنه مفعول مطلق. وسخرها مسخرات، على منوال ضربته ضربات أو يجعل قوله: ﴿مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ بمعنى مستمرة على التسخير بأمره الإيجاديّ. لأن الإحداث لا يدل على الاستمرار . وقرئ بنصب الليل والنهار وحدهما. ورفع ما بعدهما على الابتداء والخبر. وقرئ ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ بالرفع مبتدأ وخبر، وما قبله بالنصب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي تسخير ما ذكر ﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ولما نبه تعالى على معالم السموات ، نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة، والأشياء المختلفة، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات، على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾

﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ عطف على قوله تعالى ﴿وَالنُّجُومُ﴾ رفعاً ونصباً، على أنه مفعول (لجعل) أي وما خلق ﴿لَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أي من حيوان ونبات ﴿مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

ثم نبه تعالى ممتناً على تسخيره البحر، وتعداد النعم به، إِثْرَ امتنانه بنعم البر، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً﴾ هو السمك.

قال الزمخشريّ: ووصفه بالطراوة لأن الفساد يسرع إليه، فيسارع إلى أكله، خيفة الفساد عليه.

قال الناصر: فكأنّ ذلك تعليم لأكله، وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يتناول إلا

طريّاً. والأطباء يقولون: إن تناوله بعد ذهاب طراوته أضر شيء يكون. والله أعلم. انتهى.

قال الشهاب: ففيه إدماج لحكم طبّيّ. وهذا لا ينافي تقديده وأكله مخلّلاً، كما توهم. انتهى.

أقول: الأظهر في سر وصفه بالطراوة، هو التنبيه على حسنه ولطفه، وعلى التفكير في باهر قدرته وعجيب صنعه، سبحانه، في خلقه إياه، على كيفية تباين لحوم حيوانات البر، مع اشتراكهما في الحيوانية.

﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً﴾ كاللؤلؤ والمرجان ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ أي تلبسها نساؤكم، والإسناد إليهم لأنهن من جملتهم في الخلطة والتابعية. ولأنهن إنما يتزينّ بها من أجلهم. فكأنها زينتهم ولباسهم. أو معنى (تلبسون) تتمتعون وتلتذون. على طريق الاستعارة والمجاز. ولو جعل من مجاز البعض لصح . أي تلبسها نساؤكم.

قال الناصر: ولله درّ مالك رضي الله عنه، حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له بال من مالها. وذلك مقدر بالزائد على الثلث، لحقه فيه بالتجمل. فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهن، حتى جعل حظ المرأة من مالها وزينتها حلية له. فعبرّ عن حظه في لبسها بلبسه، كما يعبر عن حظها سواء.

قال الشهاب: فإن قلت الظاهر أن يقال تحلونهن أو تقلدونهن كما قال:

تَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ الْعَذَارَى فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعِقْدِ النَّظِيمِ

وهي للنساء دون الرجال. قلت أما الأول فسهل. لأن المراد لازمه. أي تحلونهن. والثاني، على فرض تسليمه، هم يتمتعون بزينة النساء، فكأنهم لابسون. وإذا لم يكن تغليباً، فهو مجاز، بمعنى: تجعلونها لباساً لبناتكم ونسائكم. ونكتة العدول، أن النساء مأمورات بالحجاب وإخفاء الزينة عن غير المحارم. فأخفي التصريح به ليكون اللفظ كالمعنى. انتهى.

وناقش صاحب (فتح البيان) ما قدروه في الآية حيث قال: وظاهر قوله تعالى: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ أنه يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان أي يجعلونهما حلية لهم كما يجوز للنساء. ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين في تأويل قوله ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ بقولهم: تلبسها نساؤهم. لأنهن من جملتهم، أو لكونهن يلبسنها لأجلهم. وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضي منع الرجال من التحلي باللؤلؤ

والمرجان، ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة. فإن ذلك ممنوع. ورد الشرع بمنعه، من جهة كونه تشبهاً بهنّ، لا من جهة كونه حلية لؤلؤ أو مرجاناً. انتهى.

قال السيوطي في (الإكليل): في الآية دليل على إباحة لبس الرجال الجواهر ونحوها. واستدل بها من قال بحنث الحالف لا يلبس حلياً بلبس اللؤلؤ. لأنه تعالى سماه (حلياً) واستدل بها بعضهم على أنه لا زكاة في حلي النساء. فأخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر. أنه سئل: هل في حليّ النساء صدقة؟ قال: لا. هي كما قال: ﴿**حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا**﴾. انتهى.

قال في (فتح البيان): وفي هذا الاستدلال نظر. والذي ينبغي التعويل عليه: أن الأصل البراءة من الزكاة حتى يرد الدليل بوجوبها في شيء من أنواع المال فتلزم. وقد ورد في الذهب والفضة ما هو معروف. ولم يرد في الجواهر، على اختلاف أصنافها، ما يدل على وجوب الزكاة فيها. وقوله تعالى: ﴿**وَتَرَى ٱلْفُلْكَ**﴾ أي السفن ﴿**مَوَاخِرَ فِيهِ**﴾ أي جواري جمع (ماخرة) بمعنى جارية. وأصل معنى (المخر) الشق لأنها تشق الماء بمقدمها ﴿**وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ**﴾ عطف على محذوف. أي لتنتفعوا بذلك ﴿**لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ**﴾ أي من سعة رزقه، بركوبها للتجارة ﴿**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ أي فتصرفون ما أنعم به عليكم إلى ما خلق لأجله.

قال أبو السعود: ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر، من حيث إن فيها قطعاً لمسافة طويلة، مع أحمال ثقيلة، في مدة قليلة، من غير مزاولة أسباب السفر. بل من غير حركة أصلاً. مع أنها في تضاعيف المهالك. وعدم توسيط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر، للإيذان باستغنائه عن التصريح به وبحصولهما معاً.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

﴿**وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ**﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿**أَن تَمِيدَ بِكُمْ**﴾ أي تضطرب ﴿**وَأَنْهَاراً**﴾ أي جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى آخر. رزقاً للعباد ﴿**وَسُبُلاً**﴾ أي طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى غيرها، حتى في الجبال. كما قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا**

فيها فجاجاً سبلاً﴾ [الأنبياء:٣١]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي بها إلى مآربكم ﴿وَعَلامات﴾ أي دلائل يستدل بها المسافرون من جبل ومنهل وريح، براً وبحراً، إذا ضلوا الطريق ﴿وبالنَّجمِ هُمْ يهْتَدُونَ﴾ أي في الظلام براً وبحراً. والعدول عن سنن الخطاب إلى الغيبة للالتفات. وتقديم (بالنجم) للفاصلة. وتقديم الضمير للتَّقوِّي. وهذا أولى من دعوى الزمخشري؛ أن التقديم للتخصيص بقوم هم قريش لكونهم أصحاب رحلة وسفر. وذلك لأن الخطاب في الآيات السابقة عاماً فكذا يكون في لاحقها.

تنبيه:

قال في (الإكليل): هذه الآية أصل لمراعاة النجوم لمعرفة الأوقات والقبلة والطرق.

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾

﴿أفَمَن يَخلُقُ﴾ أي كل شيء، لاسيما تلك المصنوعات العظيمة المذكورة، وهو الله الواحد الأحد ﴿كَمَن لاَ يَخلُقُ﴾ أي شيئاً ما، وهوما يعبدون من دونه، وهذا تبكيت للمشركين وإبطال لإشراكهم بإنكار أن يساويه ويستحق مشاركته، ما لا يقدر على خلق شيء من ذلك، بل على إيجاد شيء ما.

وزعم الزمخشريّ ومتابعوه؛ أن قضية الإلزام أن يقال: (أفمن لا يخلق كمن يخلق) ثم تكلموا في سره. وقد تقدم الكلام في ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كالأُنثَى﴾ [آل عمران:٣٦]، فجدد به عهداً. ﴿أفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ أي فتعرفوا فساد ذلك. فإنه لوضوحه لا يفتقر إلى شيء سوى التذكر.

ثم نبه، سبحانه وتعالى. على كثرة نعمه عليهم وإحسانه بما لا يحصى، إشارة إلى أن حق عبادته غير مقدور، بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعمَةَ اللَّه لاَ تُحصُوها﴾ أي لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم، فضلاً أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر ﴿إنَّ اللَّهَ لَغفورٌ رَّحيمٌ﴾ أي حيث يتجاوز عن التقصير في أداء شكرها، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم. ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها. قاله الزمخشريّ.

ولحظ ابن جرير؛ أن مغفرته تعالى ورحمته لهم، إذا تابوا وأنابوا. أي فيتجاوز عن تقصيرهم بشكرها الحقيقيّ. ولا يعذبهم بعد توبتهم وإنابتهم إلى طاعته.

لطيفة:

قال أبو السعود: كان الظاهر إيراد هذه الآية، عقيب ما تقدم من النعم المعددة، تكملة لها على طريقة قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨]، ولعلّ فصل ما بينهما بقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ [النحل:١٧]، للمبادرة إلى إلزام الحجة، وإلقاء الحجر، إثْرَ تفصيل ما فصل من الأفاعيل، التي هي أدلة الوحدانية.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي من أعمالكم وسيجزيكم عليه ﴿وَالَّذِين يَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي فأنَّى تستحق الألوهية، وقد نفي عنها أخص صفاتها؟ فإنها ذوات مفتقرة إلى الإيجاد. أو المعنى: أن الناس يخلقونها بالنحت والتصوير. وهم لا يقدرون على نحو ذلك. فهم أعجز من عبدتهم. كما قال الخليل عليه السلام: ﴿أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ، واللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦]، ثم أكد ذلك بأن أثبت لهم ما ينافي الألوهية بقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي هي جمادت لا أرواح فيها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل. وقوله: ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ تأكيد أو تأسيس. لأن بعض الأموات مما يعتريه الحياة، سابقاً أو لاحقاً. كأجساد الحيوان، والنطف التي ينشئها اللّه تعالى حيواناً. فذا احترز عنه بقوله: ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي لا يعتريها الحياة أصلاً. فهي أموات على الإطلاق، حالاً ومآلاً ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي تلك الأصنام المعبودة ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي متى يكون بعثها. وقد روي، أنها تبعث، ويجعل فيها حياة، فتبرأ من عابديها. ثم يؤمر بها وبهم جميعاً إلى النار.

وجوز عود الضمير إلى عابديها. أي: وما تشعر الأصنام متى يبعث عبدتهم تهكماً بحالها. لأن شعور الجماد محال. فكيف بشعور ما لا يعلمه إلا اللّه؟ وفيه إشعار بأن معرفته وقت البعث من لوازم الألوهية، وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ تصريح بالمدعى، وتمحيض للنتيجة، غب إقامة الدليل.

كما أفاده أبو السعود ﴿فالَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بالآخرَةِ قُلُوبُهمُ مّنكِرَةٌ﴾ أي لوحدانيته تعالى، جاحدة لها، كما أخبر عنهم، متعجبين من ذلك بقوله: ﴿أجَعَلَ الآلهةَ إلَهاً واحداً، إنَّ هَذا لَشيءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمأَزتْ قُلُوبُ الَّذينَ لا يُؤمِنونَ بالآخِرَة، وَإِذا ذُكِرَ الَّذينَ من دُونه، إِذا هُمْ يَسْتَبشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مُستكبِرُونَ﴾ أي عن عبادته تعالى: ﴿لاَ جرَمَ﴾ أي حقاً ﴿أنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرينَ﴾ أي عن التوحيد، وهم المشركون. أو عن الحق مطلقاً فيتناول هؤلاء. وهذا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذين يَسْتَكْبِرونَ عنْ عَبادَتي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخرينَ﴾ [غافر:٦٠].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾

﴿وإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أساطيرُ الأولينَ﴾ أي لم ينزل شيئاً. إنما هذا الذي يتلى علينا أحاديث الأولين، استمدها منها. كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْه بُكْرَةً وَأَصيلاً﴾ [الفرقان:٥]، ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُم كَامِلةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الذينَ يُضلُّونَهمُ بغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: قالوا ذلك ليحملوا أوزارهم الخاصة بهم، وهي أوزار ضلالهم في أنفسهم، وبعض أوزار من أضلوهم. كقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وأَثقَالاً مع أَثْقَالهم، وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ القِيامَة عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت:١٣]، فاللام في قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا﴾ لام العاقبة. لأن ما ذكر مترتب على فعلهم ولا باعثاً إما مجازاً. وإما حقيقة، على معنى أنه قدّر صدوره منهم ليحملوا. وقد قيل: إنها للتعليل وإنها لام أمر جازمة. والمعنى: إن ذلك متحتم عليهم. فيتم الكلام عند قوله: ﴿أَساطيرُ الأوّلين﴾ كذا في (العناية). وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال الزمخشري: حال من المفعول: أي: من لا يعلم أنهم ضُلال. وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه، وإن لم يعلم، لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل. فجهله لا يعذره ﴿أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: ألا بئس ما يحملون. ففيه وعيد وتهديد.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿**قدْ مكَرَ الذين من قَبْلِهمْ**﴾ أي بأنبيائهم ﴿**فأتى اللّهُ بُنْيَانَهُمْ من الْقَواعدِ فخرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ من فوْقِهمْ**﴾ أي قلع بنيانهم من قواعده وأُسُسه فهدمه عليهم حتى أهلكهم و(الإتيان) يتجوز به عن (الإهلاك) كقوله تعالى: ﴿فَأَتَاهُمُ اللّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر:٢]، ويقال أُتِيَ فلان من مأمنه. أي جاءه الهلاك من جهة أمنه. وأَتَى عليه الدهرُ: أهلكه وأفناه. ومنه الأُتُوُّ. وهو الموتُ والبلاء. يقال أتى على فلان أتوٌّ أي موت أو بلاء يصيبه. وقد جوز في الآية إرادة حقيقة هلاكهم. كالمحكي عن قوم لوط وصالح. عليهما السلام، فيما تقدم. أو مجازه على طريق التمثيل، لإفساد ما أبرموه من هدم دينه تعالى. شبهت حال أولئك الماكرين في تسويتهم المكايد، للإيقاع بالرسل عليهم السلام، وفي إبطاله تعالى تلك الحيل، وجعله إياها أسباباً لهلاكهم، بحال قوم بنوا بنياناً وعمّدوه بالأساطين. فأتى ذلك من قبَلِ أساطينه بأن ضعضعت، فسقط عليهم السقف فهلكوا. ووجه الشبه: أن ما عدوه سبب بقائهم، عاد سبب استئصالهم وفنائهم. كقولهم: من حفر لأخيه جبّاً، وقع فيه منكباً. وقوله: ﴿**من فَوقِهم**﴾ متعلق بـ (خر). و(من) لابتداء الغاية أو متعلق بمحذوف على أنه حال من (السقف) مؤكدة. وقيل: إنه ليس بتأكيد. لأن العرب تقول: خر علينا سقف ووقع علينا حائط: إذا انهدم في ملكه وإن لم يقع عليه ﴿**وأَتَاهُمُ الْعذَابُ**﴾ أي الهلاك والدمار ﴿**منْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾ أي لا يحتسبون.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿**ثُمَّ يوْمَ الْقيامة يُخْزِيهِمْ**﴾ أي يذلّهم ويهينهم بعذاب الخزي. لقوله تعالى: ﴿رَبَّنا إِنَّكَ من تُدْخِلِ النَّار فقدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران:١٩٢]، ﴿**ويَقُولُ أيْنَ شُركَاءِيَ الَذين كُنتُمْ تُشاقُّونَ فيهمْ**﴾ أي تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم. وفيه تقريع وتوبيخ بالقول، واستهزاء بهم. إذْ أضاف الشركاءَ إلى نفسه لأدنى ملابسة، بناءً على زعمهم، مع الإهانة بالفعل المدلول عليها بقوله ﴿**يُخْزِيهمْ**﴾ أي ما لهم لا

يحضرونكم ليدفعوا عنكم! لأنهم كانوا يقولون: إن صح ما تقول فالأصنام تشفع لنا. فهو كقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام:٢٢]، وقيل: حكي عن المشركين زيادة في توبيخهم. ﴿قالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ﴾ وهم الأنبياء أو العلماء، الذين كانوا يدعونهم إلى الحق فيشاقونهم: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ والسُّوْءَ﴾ أي الفضيحة والعذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي المشركين به تعالى. ما لا يضرهم ولا ينفعهم. وإنما قال ﴿الَّذِينَ أُوتوا الْعِلْمَ﴾ هذا شماتة بهم. وزيادة إهانة بالتوبيخ بالقول. وتقريراً لما كانوا يعظونهم، وتحقيقاً لما أوعدوهم به.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

﴿الَّذِينَ تَتَوَفاهُمُ الْمَلائكةُ ظَالِمي أنفُسِهِمْ، فألقَواْ السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بلَى إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بمَا كُنتُم تعمَلُونَ، فَادْخُلُوا أبْوابَ جهَنَّمَ خالِدينَ فِيهَا، فَلبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ هذا إخبار عن حال المشركين الظالمي أنفسهم بتبديل فطرة اللّه، عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم، بأنهم يلقون السلم، أي ينقادون ويسالمون ويتركون المشاقّة. والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع. وأصل الإلقاء في الأجسام. فاستعمل في إظهار الانقياد. إشعاراً بغاية خضوعهم واستكانتهم. وجعل ذلك كالشيء الملقى بين يَدَي القاهر الغالب. على الاستعارة. وقوله تعالى: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ منصوب بقول مضمر، حال. أي قائلينَ ذلك. أو هو تفسير (للسلم) الذي ألقوه، لأنه بمعنى القول. بدليل الآية الأخرى: ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ [النحل:٨٦]، كما يقولون يوم المعاد ﴿وَاللَّه رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، ﴿يَوْمَ يَبعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة:١٨]، ثم أخبر تعالى أن الملائكة تجيبهم بقوله: ﴿بَلَى إنَّ اللَّهَ عَليمٌ بمَا كُنتُمْ تعْمَلُونَ﴾ أي فلا يفيد الإنكار والكذب على الأنفس ﴿فَادْخُلُواْ أَبْوابَ جهَنَّم خالِدينَ فِيهَا﴾ أي مقدّراً خلودكم.

قال ابن كثير: وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم. وينال أجسادهم، في قبورها. من حرّها وسمومها. فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في

أجسادهم، وخلدت في نار جهنم، لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها. كما قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، وقوله: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي بئس المقيل والمقام لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله. فذكرهم بعنوان التكبُّر، للإشعار بعليته لثوائهم فيها. ولما أخبر عن الأشقياء بأنهم قالوا في جواب ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ هو ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ فجحدوا رحمته وكفروا نعمته - تأثره بالإخبار عن السعداء الذين اعترفوا بخيره ورحمته، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وهم المؤمنون ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً﴾ أي أنزل خيراً، أي رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به. ثم أخبر سبحانه عما وعد به عباده بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي لمن أحسن عمله، مكافاة في الدنيا بإحسانهم. ولهم في الآخرة ما هو خير منها. فقوله: ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بـ ﴿حَسَنَةٌ﴾ كتعلقه بـ ﴿أَحْسَنُوا﴾. قال الشهاب: والحسنة التي في الدنيا الظفر وحسن السيرة وغير ذلك. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، وقوله: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ [آل عمران:١٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٨]، وقال: ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى:١٧]، ثم وصف تعالى الدار الآخرة بقوله: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ كقوله

تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف: ٧١]، ﴿ **كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ** ﴾ ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار، في مقابلة أولئك، بقوله سبحانه ﴿ **الَّذِينَ تَتَوفَّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ** ﴾ أي طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي وكل سوء ﴿ **يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ أي لتدخل أرواحكم الجنة فإنها في نعيم برزخيّ إلى البعث. أو المراد بشارتهم بأنهم يدخلونها كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ... ﴾ [فصلت: ٣٠] الآيات، ثم أشار إلى تقريع المشركين، وتهديدهم على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ** ﴾ أي لقبض أرواحهم بالعذاب ﴿ **أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ** ﴾ أي العذاب المستأصل. أو يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال ﴿ **كَذَلِكَ** ﴾ أي مثل فعل هؤلاء من الشرك والاستهزاء ﴿ **فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ أي فتمادوا في ضلالهم حتى ذاقوا بأس الله ﴿ **وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ** ﴾ فيما أحلّ بهم في عذابه الآتي بيانه. وذلك لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه ﴿ **وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ، فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ** ﴾ جزاء سيئات أعمالهم من الشرك وإنكار الوحدانية وتكذيب الرسل ونحوها ﴿ **وَحَاقَ بِهِم** ﴾ أي أحاط بهم ﴿ **مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ من العذاب الذي توعدتْهُم به الرسُل. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا ءَابَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ، وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ، فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ، فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه واعتذارهم عنه بالاحتجاج بالقدر، تكذيباً للرسول صلوات الله عليه وطعناً في الرسالة وذلك قولهم: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلاَ ءَابَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم، مما لم يُنزل اللّهُ به سلطاناً ثم أعلم تعالى مشاكلتهم لمن تقدمهم، بقوله: ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي من الشرك والتحريم، متمسكين بمثل هذه الشبهة.

قال ابن كثير: مضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا ، لأَنْكَرَهُ علينا بالعقوبة، ولَما مكننا منه. قال الله تعالى راداً عليهم شبههم ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم. بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي، وبعث في كل أمة، أي في كل قرن وطائفة من الناس، رسولاً. وكلهم يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه ﴿ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ وهو ما يعبد من دونه سبحانه. فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم، من عهد نوح أول رسول إلى أهل الأرض، إلى زمن خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم. ودعوة الكل واحدة كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وكما أخبر هنا في هذه الآية. فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾؟ فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية. لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله. وأما مشيئته الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدراً، فلا حجة لهم فيها. أي لأنها من سر القدر الذي حُظِرَ الخوض فيه. ثم إنه تعالى أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا، بعد إنذار الرسل، بقوله: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ ﴾ الآية. وقد تقدم لنا في سورة الأنعام نقل ما للأئمة في مثل هذه الآية. ونسوق هنا أيضاً ما قرأته للإمام ابن تيمية، عليه الرحمة، في أول الجزء الثاني من (منهاج السنة) مما يتعلق بالآية، وإن يكن سبق لنا نقل عنه أيضاً. فإن الآية من معارك الأفهام. فلا علينا أن نَجْلُوَ عن الشبه فيها صدأ

الأوهام. قال عليه الرحمة: هذا مقام يكثر خوض النفوس فيه. فإن كثيراً من الناس، إذا أُمِرَ بما يجب عليه تعلل بالقدر وقال: حتى يقدِّر اللّه ذلك، أو يقدِّرني اللّه على ذلك، أو حتى يقضي اللّهُ ذلك. وكذلك إذا نُهيَ عن فعل ما حرّم اللّه قال: اللّهُ قضاهُ عليَّ بذلك، ونحو هذا الكلام. والاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة. باتفاق كل ذي عقل ودين من جميع العالمين. والمحتجُّ به لا يقبل من غيره مثل هذه الحجة، إذا احتج بها في ظلم ظلمه إياه وترك ما يجب عليه من حقوقه. بل يطلب منه ما له عليه، ويعاقبه على عدوانه عليه. وإنما هو من جنس شبه السوفسطائية التي تعرض في العلوم. فكانك تعلم فسادها بالضرورة. وإن كانت تعرض كثيراً للكثير من الناس. حتى قد يشك في وجود نفسه. وغير ذلك من المعارض الضرورية. فكذلك هذا يعرض في الأعمال حتى يظن أنها شبهة في إسقاط الصدق والعدل الواجب، وغير ذلك. وإباحة الكذب والظلم وغير ذلك. ولكن تعلمُ القلوبُ بالضرورة أن هذه شبهة باطلة. ولهذا لا يقبله أحد عند التحقيق ولا يحتج بها أحد إلا مع عدم علمه بالحجة بما فعله. فإذا كان معه علم بأن ما فعله هو المصلحة، وهو المأمور وهو الذي ينبغي فعله، ولم يحتج بالقدر. وكذلك إذا كان معه علم بأن الذي لم يفعله ليس عليه أن يفعله، أو ليس بمصلحة أو ليس هو مأموراً به – لم يحتج بالقدر. بل إذا كان متبعاً لهواه بغير علم، احتج بالقدر. ولهذا لما قال المشركون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا من شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]، قال اللّه تعالى: ﴿هَلْ عِندَكُم مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، إن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وإِنْ أَنتُمْ إلا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٩]، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فإن هؤلاء المشركين يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة داحضة وباطلة. فإن أحدهم لو ظلم الآخر أو حرج في ماله أو فرج امرأته أو قتل ولده أو كان مصراً على الظلم فنهاه الناس عن ذلك فقال: لو شاء اللّه لم أفعل هذا – لم يقبلوا منه هذه الحجة. ولا هو يقبلها من غيره. وإنما يحتج بها المحتج دفعاً للّوم بلا وجه. فقال اللّه تعالى: ﴿هَلْ عِندَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ بأن هذا الشرك والتحريم من أمر اللّه، وأنه مصلحة ينبغي فعله ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ فإنه لا علم عندكم بذلك، إن تظنون ذلك إلا ظناً ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ وتفترون. فعمدتكم في نفس الأمر ظنكم وخرصكم. ليس عمدتكم في نفس الأمر كون اللّه شاء ذلك و قدّرهُ. فإن مجرد المشيئة والقدرة لا تكون عمدة لأحد في الفعل. ولا حجة لأحد على أحد ولا عذراً لأحد. إذا الناس كلهم مشتركون في القدر. فلو كان هذا حجة وعمدة لم يحصل فرق بين العادل والظالم والصادق

والكاذب والعالم والجاهل والبرّ والفاجر. ولم يكن فرق بين ما يصلح الناس من الأعمال ما يفسدهم وما ينفعهم وما يضرهم. وهؤلاء المشركون المحتجون بالقدر على تركِ ما أرسل اللّه به رسله من توحيده، والإيمان به؛ لو احتج به بعضهم على بعض في سقوط حقوقه ومخالفة أمره، لم يقبله منه. بل كان هؤلاء المشركون يذم بعضهم بعضاً ويعادي بعضهم بعضاً ويقاتل بعضهم بعضاً على فعل من يريد تركاً لحقهم، أو ظلماً. فلما جاءهم رسول اللّه ﷺ يدعوهم إلى حق الله على عباده وطاعة أمره، واحتجوا بالقدر. فصاروا يحتجون بالقدر على ترك حقّ ربهم ومخالفة أمره، بما لا يقبلونه ممن ترك حقهم وخالف أمرهم. وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي اللّه عنه: أن النبيّ ﷺ قال: يا معاذ بن جبل! أتدري ما حقّ اللّه على عباده؟ حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. أتدري ما حق العباد على اللّهِ إذا فعلوا ذلك؟ حقهم عليه أن لا يعذّبهم [1].

فالاحتجاج بالقدر حال الجاهلية الذين لا علم عندهم بما يفعلون ويتركون ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ وهم إنما يحتجون به في ترك حق ربهم ومخالفة أمره، لا في ترك ما يرونه حقاً لهم ولا في مخالفة أمرهم. ولهذا تجد المحتجين والمستندين إليه من النساك والصوفية والفقراء والعامة والجند والفقهاء وغيرهم، يفرّون إليه عند اتباع الظن وما تهوى الأنفس. فلو كان معهم علم وهدى لم يحتجوا بالقدر أصلاً. بل يعتمدون عليه، لعدم الهدى والعلم. وهذا أصل شريف، من اعتنى به علم منشأ، الضلال والغيّ لكثيرَ من الناس. ولهذا تجد المشايخ والصالحين المتبعين للأمر والنهي، كثيراً ما يوصون أتباعهم بالعلم بالشرع. فإن كثيراً ما يعرض لهم إرادات في أشياء ومحبة لها. فيتبعون فيها أهواءهم ظانين أنه دين اللّه تعالى. وليس معهم إلى الظن والذوق والوجدان الذي يرجع إلى محبة النفس وإرادتها. فيحتجون تارة بالقدر وتارة بالظن والخرص. وهم متبعون أهواءهم في الحقيقة. فإذا اتبعوا العلم، وهو ما جاء به الشارع ﷺ خرجوا عن الظن وما تهوى الأنفس، واتبعوا ما جاءهم من ربهم وهو الهدى. كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنّي هُدىً فَمنِ اتَّبَعَ هُدايَ فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى﴾ [طه:١٢٣]، وقد ذكر الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاريّ في: التوحيد، ١ - باب ما جاء في دعاء النبيّ ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، حديث ١٣٧١،
وأخرجه مسلم في: الإيمان، حديث رقم ٥٠.

هذا المعنى عن المشركين في سورة الأنعام والنحل والزخرف كما قال تعالى: ﴿وَقَالوا لَوْ شاءَ الرَّحمنُ ما عَبَدْناهُم مَّا لَهمْ بِذَلِكَ منْ علمٍ إنْ هُمْ إلاَ يَخرصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠]، فتبين أنه لا علم لهم بذلك، إن هم إلا يَخْرصونَ، وقال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ فَللَّه الْحُجَّةُ الْبَالغة﴾ [الأنعام:١٤٩]، إرسال الرسل وإنزال الكتب كما قال تعالى: ﴿لئلاَ يَكُونَ للنّاسِ على اللَه حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، ثم أثبت القدر بقوله: ﴿فَلوْ شاءَ لَهدَاكمْ أَجْمَعينَ﴾ فأثبت الحجة الشرعية وبين المشيئة القدرية. وكلاهما حق وقال في النحل: ﴿وقَالَ الَّذين أَشْرَكوا لوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبدْنَا من دُونه من شيءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا ولاَ حَرَّمْنَا من دُونه من شيءٍ كذلكَ فعلَ الَّذينَ من قَبْلِهمْ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إلاَّ الْبَلاغُ الْمُبينُ﴾ [النحل:٣٥] فَبَيّنَ سبحانه وتعالى - أن هذا الكلام تكذيب للرسل فيما جاءُوهم به. ليس حجة لهم. فلو كان حجة لاحتج به على تكذيب كل صدق وفعل كل ظلم. ففي فطرة بني آدم أنه ليس حجة صحيحة. بل من احتج به احتج لعدم العلم واتباع الظن. كفعل الذين كذبوا الرسل بهذه المدافعة. بل الحجة البالغة للّه بإرسال الرسل وإنزال الكتب. كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا أحد أحب إليه العذر في اللّه. من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين. ولا أحد أحب إليه المدح من اللّه. من أجل ذلك مدح نفسه. ولا أحد أغير من اللّه. من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»[(١)]. فبين أنه سبحانه يحب المدح وأن يعذر ويبغض الفواحش، فيحبّ أن يمدح بالعدل والإحسان. وألاّ يوصف بالظلم. ومن المعلوم أنه من قدم إلى أتباعه بأن افعلوا كذا ولا تفعلوا. وبيَّن لهم وأزاح علتهم، ثم تعَدَّوْا حدودَه وأفسدوا أمورهم، كان له أن يعذبهم وينتقم منهم. فإذا قالوا: أليس اللّهُ قدَّر علينا هذا؟ لو شاء اللّهُ ما فعلنا هذا. قيل لهم: أنتم لا حجة لكم ولا عندكم ما تعتذرون به، يبيّن أن ما فعلتموه كان حسناً، أو كنتم معذورينَ فيه. فهذ الكلام غير مقبول منكم. وقد قامت الحجة عليكم بما تقدم من البيان والإعذار. ولو أن وليّ أمر أعطى قوماً مالا ليوصلوه إلى بلد، فسافروا به وتركوه في البرية ليس عنده أحد وباتوا في مكان بعيد منه، وكان وليّ الأمر قد أرسل جنداً يغزون بعض الأعداء فاجتازوا تلك الطريق، فرأوا

---

(١) أخرجه البخاريّ في: التوحيد، ٢٠ - باب قول النبيّ ﷺ: لا شخص أغير من اللّه، حديث رقم ٢٥١٨، عن المغيرة.
وأخرجه مسلم في: اللعان، حديث رقم ١٧ .

ذلك المال فظنوهُ لُقَطَةً ليس له أحد فأخذوه وذهبوا - لكن يحسن منه أن يعاقب الأولين لتفريطهم وتضييعهم حفظ ما أمرهم به، ولو قالوا له: أنت لم تعلمنا أنك تبعثُ بعدنا جنداً حتى يحترز المال منهم، قال: هذا لا يجب عليّ، ولو فعلته لكن زيادة إعانة لكم. لكن كان عليكم أن تحفظوا ذلك كما تحفظون الودائع والأمانات. وكانت حجته عليهم قائمة ولم يكن يدعى فيهم ظالماً. وإن كان لم يُعنهْم بالإعلام بذلك الجند. لكن عمل المصلحة في إرسال الأولين والآخرين. واللّهُ سبحانه وتعالى، وله المثل الأعلى، حَكَمٌ عدل في كل ما جعله. ولا يخرج شيء عن مشيئته وقدرته. فإذا أمر الناس بحفظ الحدود وإقامة الفرائض لمصلحتهم.، كان ذلك من إحسانه إليهم وتعريفهم ما ينفعهم. وإذا خلق أموراً أخرى، فإذا فرّطوا واعتدوا بسبب خلقه الأمور الأخرى، كان عادلاً حكماً في خلق هذا وخلق هذا، والأمر بهذا والأمر بهذا. وإن كان لم يمدّ الأولين بزيادة يحترسون بها من التفريط والعدوان،. لا سيما مع علمه بأن تلك الزيادة، لو خلقها للزم منها تفويت مصلحة أرجح، فإن الضدين لا يجتمعان. والمقصود هنا أنه لا يحتج أحد بالقدر إلا حجة تعليل، لدعم اتباع الحق الذي بينه العلم. فإن الإنسان حيٌّ حساس متحرك بالإرادة. ولهذا قال النبي ﷺ: (أصدق الأسماء الحارث وهمّام) فالحارث الكاسب العامل. والهمّام المتحرك الهمّ. والهمّ مبدأ الإرادة والقصد. فكل إنسان حارث همام. وهو المتحرك بالإرادة. وذلك لا يكون إلا بعد الحس والشعور. فإن الإرادة مسبوقة بالشعور بالمراد. فلا يتصور إرادة ولا حب ولا شوق ولا اختيار ولاطلب إلا بعد الشعور وما هو من جنسه. كالحس والعلم والسمع والبصر والشم والذوق واللمس ونحو هذه الأمور. فهذا الإدراك والشعور هو مقدمة الإرادة والحب والطلب. والحيّ مفطور على حب ما ينفعهُ ويلائمه، وبغض ما يكرهه ويضره. فإذا تصوّر الشيء الملائم النافع، أراده وأحبه. وإن تصور الشيء الضار أبغضهُ ونفر عنه. لكن ذلك التصوُّر قد يكون علماً وقد يكون ظنا وخرصاً. فإذا كان عالماً بأن مراده هو النافع، وهو المصلحة وهو الذي يلائمه، كان على الهدى والحق. وإذا لم يكن معه علم بذلك، كان متبعاً للظن وما تهوى نفسه. فإذا جاءه العلم والبيان بأن هذا ليس مصلحة، أخذ يحتج بالقدر، حجة لَدَدٍ وتفريج، لا حجة اعتماد على الحق والعلم. فلا يحتج أحد في باطنه أو ظاهره بالقدر، إلا لعدم العلم بما هو عليه الحق. وإذا كان كذلك كان من احتج بالقدر على الرسل مقرّاً بأن ما هو عليه ليس معه به علم. وإنما تكلم بغير علم. ومن تكلم بغير علم كان مبطلاً في كلامه. ومن احتج بغير علم كانت حجته داحضة. فإما أن يكون جاهلاً،

فعليه أن يتبع العلم. وإما أن يكون قد عرف الحق واتبع هواه، فعليه أن يتبع الحق ويدع هواه. فتبيّنَ أن المحتج بالقدر متبع لهواه بغير علم: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً من اللهِ﴾ [القصص: ٥٠] انتهى.

وله تتمة سابغة الذيل لا بأس بالوقوف عليها.

وقال القاشاني في هذه الآية: إنَّمَا قالُوا ذَلكَ عَناداً وَتَعَنتاً عن فرط بالجهل وإلزاماً للموحدينَ بناءً على مذهبهم. إذ لو قالوا ذلك عن علم ويقين لكانوا موحدين لامشركين بنسبة الإرادة والتأثير إلى الغير لأن من علم أنه لا يمكن وقوع شيء بغير مشيئة من الله، علم أنه لو شاء كل من في العالم شيئاً، لم يشأ اللّهُ ذلك، لم يمكن وقوعه. فاعترف بنفي القدرة والإرادة عما عدا الله تعالى، فلم يبق مشركاً، قال اللّهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ اللّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام:١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿كَذَلكَ فَعَلَ الَّذينَ من قَبْلِهِمْ﴾ [النحل:٣٥]، اي في تكذيب الرسل بالعناد انتهى.

وقال الإمام مفتي مصر في تفسير سورة العصر، من هذا البحث ما مثاله: فالعقل والشرع والحس والوجدان متضافرة على أن فعل العبد فعله. وكون جميع الأشياء راجعة إلى الله تعالى ووجود الممكنات، إنما هو نسبتها إليه. ولا يتصور اعتبارها موجودة إلا إذا اعتبرت مستندة إليه. مما قام عليه الدليل بل كاد يصل إلى البداهة كذلك. ومثل هذا يقال في عظم قدرة الله تعالى. وأنه إن شاء سلبنا من القدرة والاختيار ما وهبنا. فهو أمر نشاهده كل يوم. ندبّر شيئاً، ثم يأتي من الموانع من تحقيقه ما لم يكن في الحسبان. ونتناول عملاً ثم تنقطع قدرتنا عن تتميمه. كل ذلك لا نزاع فيه. شمول علم الله لما كان ولما يكون قام عليه الدليل. ولا شبهة فيه عند الملّيين فوجب على المسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شيء على النحو الذي يعلمه، وأن يقرّر بنسبة عمله إليه كما هو بديهي عنده. ويعلم بما أمره به ويجتنب مانهاه عنه باستعمال ذلك الاختيار الذي يجده من نفسه. وليس عليه بعد ذلك أن يرفع بصره إلى ما وراءه. فقد نعى اللّهُ على المشركين قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا ولا آبآؤُنا ولاَ حَرَّمنا من شيءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]، ووردت الأحاديث متواترة المعنى في النهي عن الخوض في القدر وسره. فلو صبر العبد حق الصّبر، لوقف عند ما حد الله له، ولم ينزع بنفسه إلى تعدي حدود الله التي ضربها لعباده. ولست أحب التكلم في هذه المسألة بأكثر من هذا. وإلا خرجتَ من الصابرين، وخضتَ في القدر مع الخائضين. ومن ثار به الهوس فتوهم أن علينا أن نعتقد أن العبد لا فعل له، فقد خالف كتاب الله وعصى رسول الله. وقد أقول (واعتمادي على الله فيما أقول) إن

من يقول ذلك. يخرج عن دين اللّه، ويعطل شرع اللّهِ، فليحذر مؤمن باللّهِ أن يقول ذلك. انتهى.

وقال في موضع آخر: الاحتجاج على ترك العمل بالقدَر من عقائد الملحدين. وقد جاء الكتاب الكريم بتشنيع اعتقادهم والنعي عليهم فيه. وقد حكى لنا ما كانوا يقولون من نحو ﴿لَوْ شآءَ اللّهُ ما أَشْرَكْنا ولاَ آباؤنا ولا حَرَّمنا من شيءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]، فلا يسوغ لأحدٍ منا، وهو يدّعي أنه مؤمن بالقرآن، أن يحتج بما كان يحتج به المشركون. انتهى. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

﴿إن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فإنَّ اللّهَ لا يَهْدي من يُضِلُّ﴾ أي من يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره ﴿وما لَهُم منَ نَاصِرِينَ﴾ أي ينصرونهم في الهداية، أو يدفعون العذاب عنهم. ثم بيّن تعالى نوعاً آخر من أباطيلهم. وهو إنكارهم البعث بقوله: ﴿وأَقْسَمُوا باللّه جَهْدَ أيْمَانِهِمْ﴾ أي جاهدينَ فيها فـ ﴿جهد﴾ مصدر في موقع الحال ﴿لاَ يَبْعَثُ اللّهُ من يَمُوتُ، بَلى وَعْداً عَلَيه حَقاً وَلَكنَ أكثر النَّاس لا يَعْلَمُونَ﴾ أي أنه يبعثهم، فيبتّون القول بعدمه! وإنه وعداً عليه حقّ، فيكذبونه - وذلك لجهلهم بشؤون اللّه عز شأنه من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال. وبما يجوز عليه وما لا يجوز: وعدم وقوفهم على سر التكوين والغاية القصوى منه. وعلى أن البعث مما يقتضيه الحكمة. أفاده أبو السعود.

ثم ذكر حكمته تعالى في المعاد، وحشر الأجساد يوم التناد، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الّذي يَخْتلفُونَ فيهِ﴾ وهو الحق، وأنهم كانوا على الضلالة قبله ﴿ولِيَعْلَم الّذينَ كفروا أنَهُمْ كاذِبينَ﴾ أي في أباطيلهم. لا سيما في أيمانهم بعدم

البعث. ولذا تقول لهم الزبانية يوم القيامة: ﴿هذه النَّارُ الَّتي كُنتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور:١٤]، ثم بين عظيم قدرته. وأنه لا يعجزه شيء مًّا بقوله سبحانه ﴿**إنَّما قَوْلُنا لِشيءٍ إذا أَرَدْناهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ أي فيوجد على ما شاء تكوينه كقوله تعالى: ﴿وَما أَمْرُنا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمحِ بالبَصرِ﴾ [القمر:٥٠]، وقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ ولاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨].

قال الزمخشري: (قَوْلُنا) مبتدأ و(أَن نَّقُولَ) خبره و(كُن فَيَكُونَ) من (كان) التامة التي بمعنى الحدوث والوجود. أي إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له: احدث، فهو يحدث عقيب ذلك، لا يتوقف. وهذا مثل. لأن مراداً لا يمتنع عليه. وأن وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف، كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع الممتثل. ولا قولَ ثَمَّ. والمعنى: إن إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السهولة. فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو في شق المقدورات. انتهى.

قال الشهاب: فسقط ما قيل: إنَّ (كن) إن كان خطاباً مع المعدوم فهو محال. وإن كان مع الموجود كان إيجاداً للموجود. وفي الآية كلام لطيف مضى في سورة البقرة، فارجع إليه.

ثم أخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين الذين فارقوا الدار والأهل والخلاّن، رجاءَ ثوابه وابتغاء مرضاته، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾

﴿**وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللَّهِ**﴾ أي مخلصين لوجهه، أو في حقه، وهم إما مهاجرة الحبشة الذين اشتدّ أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشِ بأمره ﷺ، وذلك مخافة الفتنة وفراراً إليه تعالى بدينهم، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً سوى صغار أبنائهم، وهي أول هجرة في الإسلام. ويؤيده كون السورة مكية.

أو هم مهاجرة المدينة، أخبر به قبل وقوعه أو بعده، إلا أنها الحقت بالمكية. وقوله تعالى ﴿**مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ**﴾ أي أوذوا وأريد فتنتهم عن الدين ﴿**لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً**﴾ يعني بالغلبة على من ظلمهم، وإيراثهم أرضهم وديارهم ﴿**وَلأَجْرُ**

الأخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ يعني مضطهديهم وظالميهم. وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه، يقول: خذ بارك اللّه لك فيه. هذا ما وعدك اللّه في الدنيا. وما ادخر لك في الآخرة أفضل. ثم وصفهم تعالى بقوله.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

﴿**الَّذينَ صَبَرُوا**﴾ أي على ما أوذوا في سبيل اللّه ﴿**وعلى ربِّهم يتوكَّلون**﴾ أي فلا يخشون أحداً غيره. والوصفان المذكوران: الصبر والتوكل ، من أمهات الصفات التي يجب على الداعي إلى الحق، والمدافع عنه، أن يكونا خلقاً له. إذ لا ظفر بغاية إلا بهما. ولما عجبوا من إيحاء اللّه لرسوله، واصطفائه برسالته، قيل في درء شبهتهم ﴿**وَمَا أَرسَلنَا من قَبْلِكَ إلاَّ رِجَالاً نُوحي إليْهِمْ فَسْئَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ يعني أهل الكتاب أو علماء الأخبار. ليعلموكم أنه لم يرسل للدعوة العامة ملك من أهل السماء. فالذكر، إما بمعنى الكتاب لما فيه من الذكر والعظة، كقوله ﴿إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ﴾ [يس:٦٩]، أو بمعنى الحفظ لأخبار الأمم السالفة. وفي الآية دليل على وجوب الرجوع إلى العلماء فيما لا يعلم. واستدل بها بعضهم على جواز التقليد في الفروع للعاميّ. وفي ذلك بحث طويل في (إيقاظ الهمم) لِلْفُلاَّنِي فارجع إليه إن شئت. وأشار إلى طَرَف منه في (فتح البيان).

وقوله تعالى: ﴿**بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ**﴾ أي بالآيات المبرهنة على صدقهم والكتب المرشدة إلى مصالح الخلق. والجارّ متعلق بمقدر يدل عليه ما قبله، أي أرسلناهم. أو بـ (ما أرسلنا) . أوبـ (نوحي) أو بـ (لا تَعْلَمُونَ)، على أن الشرط للتبكيت والإلزام ﴿**وَ أنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ**﴾ أي القرآن المذكّر والموقظ من سنة الغفلة ﴿**لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِمْ**﴾ أي مما أمروا ونهوا ووعدوا وأوعدوا ﴿**وَلَعَلَّهُم يتفكَّرُونَ**﴾ أي ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين. أو يتأملون ما فيه من العبر فيحترزون عما أصاب الأولين. ولذا تأثره بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿**أفأمِنَ الَّذينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَات**﴾ أي المكرات السيئات التي قُصَّتْ عنهم. فهي صفة لمصدر محذوف أو مفعول لـ (مكروا) بتضمينه معنى (عملوا) ﴿**أن يَخْسِفَ اللّه بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾ أي من جهةٍ لا يعلمون بها، كما لا يشعر الممكور بقصد الماكر.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿**أَوْ يأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ**﴾ أي سعيهم في المعايش واشتغالهم بها ﴿**فَمَا هُم بمُعْجزِينَ**﴾ أي لا يعجزون ربهم على أي حال كانوا ﴿**أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخوُّف**﴾ أي توقع للهلاك ومخافةٍ له، فإنه يكون أبلغ وأشد. أو ننقّص في أبدانهم وأموالهم وثمارهم حتى يهلكوا. يقال: تخوفه: تنقصه وأخذ من أطرافه ﴿**فإِنَّ رَبَّكُمْ لرَؤوفٌ رَّحيمٌ**﴾ أي حيث يحلم عنكم ولا يعاجلكم بالعقوبة. ثم أخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه بانقياد سائر مخلوقاته، جمادات وحيوانات ومكلفين من الجن والإنس والملائكة له سبحانه، بقوله: ﴿**أَوَ لَمْ يروْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّه مِن شَيْءٍ**﴾ أي جسم قائم له ظلّ ﴿**يتفيَّؤُا ظلالُه**﴾ أي يرجع شيئاً فشيئاً ﴿ **عَنِ الْيَمِينِ والشَّمآئِلِ**﴾ أي عن جانبي كل واحد منها، بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴿**سُجَّداً للّه**﴾ أي منقادة له على حسب مشيئته في الامتداد والتقلص وغيرهما، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له ﴿**وَهُمْ داخِرُونَ**﴾ أي صاغرون. وغلب في جمعها من يعقل، فأتى بالواو. أو لأن الدخور من أوصاف العقلاء. فهو إما تغليب أو استعارة: وكذا ضمير (هم) أيضاً لأنه مخصوص بالعقلاء. فيجوز أن يعتبر ما ذكر فيه، ويجعل ما بعده جارياً على المشاكلة.

لطيفة:

لابن الصائغ في سر توحيد اليمين وجمع الشمائل توجيه لطيف. وملخصه أنه نظر إلى الغاية فيهما. لأن ظل الغداة يضمحلّ بحيث لا يبقى منه إلا اليسير. فكأنه

في جهة واحدة. وهو في العشيّ على العكس، لاستيلائه على جميع الجهات. فلحظت الغايتان. هذا من جهة المعنى.

وأما من جهة اللفظ فجمع ليطابق (سجداً) المجاور له. كما أفرد الأول لمجاورة ضمير (ظلاله) وقدّم الإفراد لأنه أصل أخف. و(عَنِ الْيَمِينِ) متعلق بـ(يتفيؤ) أو حال. كذا في (العناية).

ثم بين سجود سائر المخلوقات سواء كانت لها ظلال أم لا، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩)

﴿وَلِلَّه يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوات وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ﴾ أي الملائكة، مع علوّ شانهم ﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ اي عن عبادته والسجود له.

القول في تأويل قوله تعالى:

يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي من الطاعات والتدبير. واستدل بقوله ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ على ثبوت الفوقية والعلوّ، له تعالى. وقد صنف في ذلك الحافظ الذهبيّ كتاب (العلوّ) وابن القيم كتاب (الجيوش الإسلامية) وغيرهما. وأطنب فيها الحكيم ابن رشد في (مناهج الدولة) فليرجع إليها. وكلهم متفقون على أنه علوٌّ بلا تشبيه ولا تمثيل. وانفرد السلف بخطر التأويل والتعطيل. وقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١)

﴿وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾. إعلام بنهيه الصريح عن الإشراك. وبامره بعبادته وحده، وإنما خصص هذا العدد لأنه الأقل، فيعلم انتفاء ما فوقه بالدلالة. فإن قيل: الواحد والمثنى نص في معناهما، لا يحتاج معهما إلى ذكر العدد، كما يذكر مع الجميع. أي في نحو رجال ثلاثة وأفراس أربعة، لأن المعدود عارٍ عن الدلالة على العدد الخاص، فلِمَ ذكر العدد فيهما؟ أجيب بأن العدد

يدل على أمرين: الجنسية والعدد المخصوص. فلما أريد الثاني صرّح به للدلالة على أنه المقصود الذي سيقَ الكلام وتوجه له النهي دون غيره. فإنهقد يراد بالمفرد الجنس نحو : نعم الرجل زيد. وكذا المثنى كقوله:

فإنّ النارَ بالعُودَيْنِ تُذْكَى وإنَّ الحربَ أَوّلُها الْكَلاَمُ

وقيل : ذكر العدد للإيماء بأن الاثنَينيّة تنافي الألوهية. فهو في معنى قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللّه لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، فلذا صرح بها، وعقبت بذكر الوحدة التي هي من لوازم الألوهية.

قال الشهاب: ولا حاجة إلى جعل الضمير للمعبود بحق المراد من الجلالة على طريق الاستخدام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللّهُ﴾ معطوف على قوله ﴿وَلِلّه يَسْجُدُ﴾ أو على قوله ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ وقيل: إنه معطوف على ﴿مَا خَلَقَ اللّهُ﴾ على أسلوب:

* عَلَفْتُها تبْناً وماءً بارِدًا *

أي : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ﴾ ولم يسمعوا ما قال اللّه ؟. ولا يخفى تكلفه. وفي قوله ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ التفات عن الغيبة، مبالغة في الترهيب.فإن تخويف الحاضر مواجهة، أبلغ من ترهيب الغائب، لا سيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المقتضية للعظمة والقدرة التامة على الانتقام. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّموات وَالأَرْضِ﴾ معطوف على قوله ﴿إِنَّمَا هوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أو على الخبر ، أو مستأنف. ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ أي العبادة لازمة له وحده. ولزومها له ينافي خوف الغير ،إذ يقتضي تخصيصه تعالى بالرهبة والخشية، وهذا كقوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّموات وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣] .

﴿أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ﴾ أي وهو مالك النفع والضر. ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ﴾

أي فمن فضله وإحسانه ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ أي لا تتضرعون إلا إليه، لعلمكم أنه لا يقدر على كشفه إلا هو سبحانه. والجؤار: رفع الصوت. يقال: جأر إذا أفرط في الدعاء والتضرع، وأصله صياح الوحش.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي بنسبة النعمة إلى غيره ورؤيتها منه. وكذا بنسبة الضر إلى الغير، وإحالة الذنب في ذلك عليه، والاستعانة في رفعه به. وذلك هو كفران النعمة، والغفلة عن المنعم المشار إليهما بقوله: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ أي من نعمة الكشف عنهم. واللام للعاقبة والصيرورة ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي وبال ذلك الكفر. وفيه إشعار بشدة الوعيد، وأنه إنما يعلم بالمشاهدة، ولا يمكن وصفه، فلذا أبهم.

وللقاشانيّ وجه آخر قال: أو فسوف تعلمونَ، بظهور التوحيد، أن لا تأثير لغير الله في شيء. ثم بيّن تعالى من مثالب المشركين قوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧)﴾

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ﴾. أي لآلهتهم التي لا علم لها لأنها جماد ﴿نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي من الزرع والأنعام وغيرهما تقرباً إليها ﴿تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ أي: من أنها آلهه يتقرب إليها. ومرّ نظير الآية في سورة الأنعام في قوله سبحانه ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّه مِمّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً﴾ [الأنعام: ١٣٦] الآية، فانظر تفصيلها ثَمَّةَ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنات سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ هذا بيان لعظيمة من عظائمهم، وهو جعلهم الملائكة الذين هم عباد الرحمن بنات لله، فنسبوا له تعالى ولداً ولا ولد له. واجترءوا على التفوه بمثل ذلك وعلى نسبة أدنى القسمين له من الأولاد، وهو البنات. وهم لا يرضونها لأنفسهم لأنهم يشتهون الذكور، أي يختارونهم لأنفسهم ويأنفون من البنات. وقد نزه مقامه الأقدس عن ذلك بقوله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي عن إفكهم وقولهم. وفيه تعجب من جراءتهم على التفوه بهذا المنكر من القول، ومن مقاسمتهم لجلاله بالاستئثار كما قال سبحانه ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم: ٢١ - ٢٢]. وقال تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا

لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات :١٥١ - ١٥٤]. ثم أشار إلى شدة كراهتهم للإناث، بما يمثل عظم تلك النسبة إلى الجناب الأقدس وفظاعتها، بقوله سبحانه وتعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي التُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾

﴿**وَإذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ**﴾ أي صار أو دام النهار كله ﴿**مُسْوَدّاً**﴾ أي متغيراً من الغم والحزن والغيظ والكراهية التي حصلت له عند هذه البشارة. وسواد الوجه وبياضه يعبر عن المساءة والمسرة، كناية أو مجازاً. ﴿**وَهُوَ كَظِيمٌ**﴾ أي مشتد الغيظ على امرأته لأنه، بزعمه، حصل له منها ما يوجب أشد الحياء حتى أنه ﴿**يَتَوارَى مِنَ الْقَوْمِ**﴾ أي يستخفي منهم ﴿ **مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ**﴾ أي من أجله وخوف التعيير به. ثم يفكر فيما يصنع به، وهو قوله تعالى: ﴿**أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ**﴾ أي محدثاً نفسه متفكراً في أن يتركه على هوان وذلّ، لا يورّثه ولا يعتني به، ويفضل ذكور ولده عليه ﴿**أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ**﴾ أي يخفيه ويدفنه فيه حيّاً ﴿**أَلا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ أي حيث يجعلون الولد، الذي هذا شأنه من الحقارة والهون عندهم، للّه تعالى وتقدس. ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

﴿**لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالأَخِرَةِ**﴾ أي مثل من ذكرت مساوئهم ﴿**مَثَلُ السَّوْءِ**﴾ أي صفات الذل من الحاجة إلى الأولاد وكراهة الإناث ووأدهن، خشية الإملاق، المنادى كل ذلك بالعجز والقصور والشحّ البالغ. ووضع الموصول موضع الضمير، للإشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة ﴿**وَلِلَّه الْمَثَلُ الأَعْلَى**﴾ أي الوصف العالي الشأن، وهو الغنيّ عن العالمين. والكمال المطلق والتقدس عن سمات المخلوقين: ﴿**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ .

ثم أخبر تعالى عن حلمه بخلقه، مع ظلمهم، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم**﴾ أي بكفرهم ومعاصيهم التي منها ما عدد من المساوئ المتقدمة ﴿**مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا**﴾ أي على الأرض المدلول عليها بالناس، وبقوله تعالى: ﴿**مِن دَابَّةٍ**﴾ أي لأهلكها بالمرة بشؤم ظلم الظالمين ﴿**وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ أي وقت معين تقتضيه الحكمة. يستغفر منهم من يستغفر فيغفر له، ويصرّ من يصرّ فيزداد عذاباً ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ**﴾ أي المسمى ﴿**لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ**﴾ أي ينسبون إليه ﴿**مَا يَكْرَهُونَ**﴾ أي من البنات ومن الشركاء. وهم يأنفون من الأولى كما يكرهون مشاركة أحد لهم في مالهم. وهو تكرير لما سبق، تثنية للتقريع وتوطئة لقوله تعالى:

﴿**وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ**﴾ أي يجعلون لله ذلك، مع دعواهم أن لهم العاقبة الحسنى عند الله، إن كان ثم معاد. كما قصه تعالى عنهم بقوله ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، يعني جَمَعَ هؤلاء بين عمل السوء وتمنّي المحال، بأن يجازوا على ذلك حسناً.

وقد روي أنه وجد في أحد أحجار الكعبة، لما جدّدت، مكتوباً (تَعْمَلُونَ السَّيِّئَات وتَجْزَوْنَ الْحَسَنَات. أجل. كما يجتنى من الشوك العنب) و ﴿**أَنَّ لَهُمُ**﴾ الخ بدل من (الكذب) أو بتقدير بأن لهم.

قال الشهاب: قوله تعالى: قوله ﴿**وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ**﴾ من بليغ الكلام وبديعه كقولهم: (عينها تصف السحر) أي ساحرة. وقدها يصف الهيف، أي هيفاء.

قال أبو العلاء المعرّي:

سَرَى بَرْقُ المَعَرَّةِ بَعدَ وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الْكَلاَلاَ

ثم ردّ كلامهم وأثبت ضده بقوله سبحانه ﴿**لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ**﴾ أي معجّلون إليها ومقدّمون. من (الفرط) وهو السابق إلى الورد. يقال: أفرطته في طلب الماء إذا قدمته. أو متروكون منسيّون في النار. من (أفرطته) بمعنى تركته

ونسيته ، على ما حكاه الفراء. كقوله تعالى ﴿ فَالْيَوْمَ نَنساهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذا ﴾ [الأعراف : ٥١]. وقرأ نافع (مُفْرِطُونَ) بكسر الراء. اسم فاعل من (أفرط) إذا تجاوز أي متجاوزو الحدّ في معاصي اللّه. وقرأ أبو جعفر بكسر الراء المشددة من (فرّط في كذا) إذ قصر. ويقرب من الآية ما قص عنهم في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحمَةً مِّنَّا من بَعْد ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذا لي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائمَةً وَلَئن رُّجعْتُ إِلَى رَبّي إنَّ لي عندَهُ لَلْحُسْنَى، فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذينَ كَفَرُوا بما عَملُوا ولَنُذيقَهُنَّم مِّنْ عَذَاب غَليظ ﴾ [فصلت : ٥٠]. وقال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالمٌ لنَفْسه قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذه أَبداً وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائمَةً وَلَئن رُّددتُّ إلى رَبّي لأَجدَنَّ خَيْراً منها مُنقَلَباً ﴾ [الكهف : ٣٥ - ٣٦] .

ثم ذكر تعالى نعمته في إرسال الرسل وتكذيب أممهم، ليتأسى صلوات اللّه عليه بهم بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

﴿ **تاللّه لَقَدْ أَرْسَلْنَا إلى أُمَمٍ من قَبْلكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ أَعْمالَهُمْ** ﴾ أي من الكفر والتكذيب والعناد ﴿ **فَهوَ وَليُّهُمُ الْيَوْمَ** ﴾ أي قرينهم، يُغْويهم. أو المراد باليوم يوم القيامة. والوليّ بمعنى الناصر. وجعله ناصراً فيه، مع أنهم لا ينصرون، مبالغة في نفيه، وتهكم، على حدّ (عتابه السيف) ﴿ **ولَهُمْ عذابٌ أليمٌ، وَمَا أَنزلْنا عَلَيْكَ الْكتابَ إلاّ لتُبيِّنَ لَهُمُ الَّذي اخْتلَفوا فيه** ﴾ أي فالقُرْآنُ هو الفُرْقانُ الفاصل بين الحق والباطل، وكل ما يتنازع فيه ﴿ **وَهُدًى** ﴾ أي للقلوب ﴿ **وَرحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمنونَ** ﴾ ثم أشار إلى عظيم قدرته في آياته الكونية الدالة على وحدانيته، إثْرَ قدرته في إحياء القلوب الميتة بالكفر، بما أنزله من وحيه وهداه ورحمته، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾

﴿ **وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ** ﴾ أي المزن ﴿ **مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ أي بالنبات والزرع، بعد جدبها ويبسها ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** ﴾ أي هذا التذكير، ويعقلون وجه دلالته ﴿ **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ** ﴾ وهو ما في الكرش من الثفل ﴿ **وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ** ﴾ أي سهل المرور في حلقهم.

بيّن تعالى آيته في الأنعام بما ذكرَ، ليستدل به على وحدانيته وانفراده بالألوهية. وليستدل به أيضاً على الحشر. فإن العشب الذي يأكله الحيوان إنما يتولد من الماء والتراب. فَقَلْبُ الطينُ نباتاً وعشباً، ثم تبديلُه دماً في جوف الحيوان، ثم تحويله إلى لبن، أعظم عبرة على قدرته تعالى على قلب هذه الأجسام الميتة من صفة إلى صفة. وإنما ذكّر الضمير في بطونه هنا، وأنثه في سورة المؤمنين، لكون الأنعام اسم جمع، فيذكر ويفرد ضميره، باعتبار لفظه. ويؤنث ويجمع باعتبار معناه. وقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾

﴿ **وَمِنَ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ بيان لآيته تعالى في الثمرات المذكورة، ومنّته في المشروب منها والمطعوم. و(السَّكَرُ) مصدر سمي به الخمر. فهو بمعنى السُّكْر كالرَّشَدِ وَالرُّشْدِ. قال الفراء: السَّكَر الخمر نفسها. والرزق الحسن الزبيب والتمر وما أشبههما، ولا يقال: الخمر محرمة، فكيف ذكرها اللّهُ في معرض الإنعام؟ لأنَّ هذه السورة مكية، وتحريم الخمر نزل في سورة المائدة. وكان نزول هذه الآية في الوقت الذي كانت الخمر فيه غير محرمة. وأجاب الرازي بجواب ثان.

وهو: أنه لا حاجة إلى التزام هذا النسخ، وذلك لأنه تعالى ذكر ما في هذه الأشياء من المنافع. وخاطب المشركين بها. والخمر من أشربتهم. فهي منفعة في حقهم.

قال: ثم إنه تعالى نبه في هذه الآيه أيضاً على تحريمها. وذلك لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر، فوجب أن لا يكون السَّكَر رزقاً حسناً. ولا شك أنه

حسن بحسب الشهوة فوجب أن يقال: الرجوع عن كونه حسناً بحسب الشريعة. وهذا إنما يكون كذلك إذا كانت محرمة. انتهى.

تنبيه:

قال ابن كثير: دلت الآية على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب كما هو مذهب الجمهور.

وفي (فتح البيان) قد حمل السكر جماعة من الحنفية على ما لا يسكر من الأنبذة وعلى ما ذهب ثلثاه بالطبخ حتى يشتد إلى حد السكر. كما في (الكشاف)

قالوا: إنما يمتن اللّهُ على عباده بما أحله لا بما حرمه عليهم. وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر. انتهى.

وليس هذا موضع بسط ذلك. قال ابن كثير: وقد ناسب ذكر العقل ها هنا في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فإنه أشرف ما في الإنسان. ولهذا حرم اللّهُ على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها. انتهى.

ولما بين تعالى أن إخراج الألبان من النعم، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب، دلائل قاهرة وبينات باهرة، على أن لهذا العالم إلهاً واحداً قادراً مختاراً حكماً - أرشد إلى آيته الساطعة في النحل أيضاً بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ أَنِ اتَّخذي من الجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ المراد من الوحي الإلهام والهداية إلى بنائها تلك البيوت العجيبة المسدسة، من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض، مما لا يمكن مثله للبشر إلا بأدوات وآلات. وقد أرشدها تعالى إلى بنائها بيوتاً تأوي إليها في ثلاثة أمكنة: الجبال. والشجر. وبيوت الناس، حيث يعرشون أي يبنون العروش، جمع (عرش) وهو البيت الذي يستظل به كالعريش. وليس للنحل بيت في غير هذه الأمكنة: الجبال والشجر وبيوت الناس. وأكثر بيوتها ما كان في الجبال وهو المتقدم في الآية ثم في الشجر دون ذلك ثم في الثالث أقل.

فالنحل إذاً نوعان: جبلية تسكن في الجبال والفيافي لا يتعهدها أحد من الناس. وأهلية تأوي إلى البيوت وتتعهد في الخلايا. ومن بديع الإلهام فيها اتخاذها البيوت قبل المرعى. فهي تتخذها أوّلاً. فإذا استقر لها بيت خرجت منه، فرعت. وأكلت من الثمرات. ثم أوت إلى بيوتها. وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿**ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ**﴾ أي من كل ثمرة تشتهيها، حلوها ومرها. فالعموم عرفيّ، أو لفظ (كُل) للتكثير. أو هو عام مخصوص بالعادة. ولو أبقي الأمر على ظاهره لجاز. لأنه لا يلزم من الأمر بالأكل من جميع الثمرات، الأكل منها. لأن الأمر للتخلية والإباحة.

لطيفة:

إنما أوثر (مِنَ) في قوله تعالى: ﴿**مِنَ الْجِبَالِ**﴾ الخ، على (في) دلالة على معنى التبعيض. وأن لا تبنى بيوتها في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش، ولا في كل مكان منها. نبه عليه الزمخشري:

قال الناصر: ويتزين هذا المعنى الذي نبه عليه في تبعيض (من) المتعلقة باتخاذ البيوت. بإطلاق الأكل. كأنه تعالى وكلَ الأكل إلى شهوتها واختيارها. فلم يحجر عليها فيه، وإن حجر عليها في البيوت وأمرت باتخاذها في بعض المواضع دون بعض. لأن مصلحة الآكل حاصلة على الإطلاق باستمرار مشتهاها منه. وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها في كل موضع. ولهذ المعنى دخلت (ثم) لتفاوت الأمر بين الحجر عليها في اتخاذ البيوت، والإطلاق لها في تناول الثمرات. كما تقول راع الحلال فيما تأكله، ثم كل أي شيء شئت. فتوسط (ثم) لتفاوت الحجر والإطلاق. فسبحان اللطيف الخبير.

وقوله تعالى: ﴿**فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً**﴾ أي الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل. فالسبل مجاز عن طرق العمل وأنواعها أو على حقيقتها. أي إذا أكلت الثمار في المواضع النائية فاسكلي راجعة إلى بيوتك. سبل ربك. لا تتوعّر عليك ولا تضلين فيها. و(ذللاً) جمع ذلول، حال من (السبل) أي مذللة ذللها الله لك وسهلها. فهي تسلك من هذا الجوّ العظيم. والبراري الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة. ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة. وقوله تعالى ﴿**يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ**﴾ استئناف، عدل به عن خطاب النحل لبيان ما يظهر منها من عجيب صنعه تعالى، تعديداً للنعم، وتنبيهاً على العبر، وإرشاداً إلى الآيات العظيمة من هذا الحيوان الضعيف. وسمي العسل شراباً، لأنه يشرب مع الماء وغيره ﴿**مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ**﴾

أي فمنه أبيض وأصفر وأحمر، لاختلاف ما يؤكل من النَّور أو مزاجها ﴿فيه شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ لأنه من جملة الأشفية والأدوية في بعض الأمراض. وله دخل في أكثر ما به الشفاء والمعاجين. وقلّ معجون من المعاجين، لم يذكر الأطباء فيه العسل. وقد قام الآن مقامه السكر، لكثرته بالنسبة إليه. وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه فقال: اسقه عسلاً، فذهب فسقاه عسلاً فقال: يا رسول الله! سقيته عسلاً ما زاده إلا استطلاقاً. قال: اذهب فاسقه عسلاً فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال: يا رسول الله! ما زاده إلا استطلاقاً. فقال رسول الله ﷺ: صدق اللهُ وكذب بطن أخيك. اذهب فاسقه عسلاً. فذهب فسقاه عسلاً فبرأ [١].

قال ابن كثير: قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات. فلما سقاه عسلاً وسكر حارّ تحللت فأسرعت في الإندفاع، فزاده إسهالاً، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره، وهو مصلحة لأخيه. ثم سقاه فازداد التحليل والدفع. ثم سقاه فكذلك. فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن، استمسك بطنه، وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته ﷺ. انتهى.

وفي (العناية) للشهاب هنا، قصة عن طبقات الأطباء، فيها تأييد لقصة الأعرابي فانظرها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي فيعتبرون ويستدلون على وحدانيته سبحانه، وانفراده بالوهيته. وأنه هو الذي ألهم هذه الدواب الضعيفة فعلمت مساقط الأنداء، من وراء البيداء، فتقع على كل حرارة عبقة، وزهرة أنقة، ثم تصدر عنها بما تحفظه رضاباً، وتلفظه شراباً.

قال الحجة الغزالي (في الإحياء): انظر إلى النحل كيف أوحى اللهُ إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتاً. وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل. وجعل أحدهما ضياءً والآخر شفاءً. ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار، واحترازها

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الطب، ٤ - باب الدواء بالعسل، وقول الله تعالى: ﴿فيه شفاء للناس﴾ حديث ٢٢٥١.
وأخرجه مسلم في: السلام، حديث رقم ٩١.

من النجاسات والأقدار، وطاعتها لواحد من جملتها وهو أكبرها شخصاً وهو أميرها، ثم ما سخر اللّهُ لأميرها من العدل والإنصاف بينها، حتى أنه ليقتل منها على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة – لقضيت من ذلك العجب إن كنت بصيراً في نفسك، وفارغاً من هم بطنك وفرجك. وشهوات نفسك في معاداة أقرانك، وموالاة إخوانك. ثم دع عنك جميع ذلك، وانظر إلى بنيانها بيتاً من الشمع، واختيارها من جميع الأشكال الشكل المسدس، فلا تبني بيتها مستديراً ولا مربعاً ولا مخمساً بل مسدساً لخاصية في الشكل المسدس، يقصر فهم المهندس عن درك ذلك. وهو أن أوسع الأشكال وأحواها المستدير وما يقرب منه. فإن المربع تخرج منه زوايا ضائعة. وشكل النحل مستدير مستطيل. فترك المربع حتى لا تبقى الزاويا فارغة. ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة. فإن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراصة. ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير. ثم تتراص الجملة منه بحيث لا تبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس. وهذه خاصية هذا الشكل. فانظر كيف ألهم اللّه تعالى النحل، على صغر جرمه، ذلك. لطفاً به وعناية بوجوده فيما هو محتاج إليه. ليهنأ عيشه فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه. وفي طبعه أنه يهرب بعضه من بعض ويقاتل بعضه بعضاً في الخلايا ويلسع من دنا من الخلية. وربما هلك الملسوع. وإذا أهلك شيء منها داخل الخلايا أخرجته الأحياء إلى خارج. وفي طبعه أيضاً النظافة. فلذلك يخرج رجيعه من الخلية لأن منتن الريح. وهو يعلم زماني الربيع والخريف. والذي يعمله في الربيع أجود. والصغير أعمل من الكبير، وهو يشرب من الماء ما كان صافياً عذباً. يطلبه حيث كان. ولا يأكل من العسل إلا قدر شبعة. وإذا قلّ العسل في الخلية، قذفه بالماء ليكثر، خوفاً على نفسه من نفاده لأنه إذا نفد أفسد النحل بيوت الملوك وبيوت الذكور. وربما قتلت ما كان منها هناك.

قال حكيم من اليونان لتلامذته: كونوا كالنحل في الخلايا. قالوا: وكيف النحل في الخلايا؟ قال: إنها لا تترك عندها بطالاً إلا نفته وأبعدته وأقصته عن الخلية، لأنه يضيق المكان، ويفني العسل، ويعلم النشيط الكسل.

والنحل يسلخ جلده كالحيات. وتوافقه الأصوات اللذيذة المطربة، ويضره السوس. ودواؤه أن يطرح له في كل خلية كف ملح. وأن يفتح في كل شهر مرة، ويدخن بأخثاء البقر. وفي طبعه أنه متى طار من الخلية، يرعى ثم يعود، فتعود كل نحلة إلى مكانها لا تخطئه. كذا في (حياة الحيوان).

وذكر الإمام الغزالي أيضاً في كتاب (الحكمة في خلق المخلوقات): أن الله تعالى جعل للنحل رئيساً تتبعه وتهتدي به فيما تناله من أقواتها. فإن ظهر مع الرئيس الذي تتبعه رئيس آخر من جنسه، قتل أحدهما الآخر. وذلك لمصلحة ظاهرة وهو خوف الافتراق. لأنهما إذا كانا أميرين، وسلك كل واحد منهما فجّاً، افترق النحل خلفهما. ثم إنها أُلهمت أن ترعى رطوبات من على الأزهار. فيستحيل في أجوافها عسلاً. فعلم من هذا التسخير ما فيه من مصالح العباد، من شراب فيه شفاء للناس. كما أخبر سبحانه وتعالى. وفيه غذاء وملاذ العباد. وفيه من أقوات فضلات عظيمة جعلت لمنافع بني آدم. فهي مثل ما يفضل من اللبن الذي خلق لمصالح أولاد البهائم وأقواتها. وما فضل من ذلك ففيه من البركة والكثرة ما ينتفع به الناس. ثم انظر ما تحمله النحل من الشمع في أرجلها، لتوعي فيه العسل وتحفظه. فلا تكاد تجد وعاء أحفظ للعسل من الشمع في الأجناح. فانظر في هذه الذبابة، هل في علمها وقدرتها جمع الشمع مع العسل؟ أو عندها من المعرفة بحيث رتبت حفظ العسل مدة طويلة باستقراره في الشمع وصيانته في الجبال والشجر في المواضع التي تحفظه ولا يفسد فيها! ثم انظر لخروجها نهاراً لرعيها ورجوعها عشية إلى أماكنها وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها، ولها في ترتيب بيوتها من الحكمة في بنائها حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل، ولها جهة أخرى تجعل فيها برازها مباعداً عن مواضع العسل. وفيها غير هذا مما انفرد اللهُ بعلمه.

قال أبو السعود: ولما ذكر سبحانه من عجائب أحوال ما ذكر من الماء والنبات والأنعام والنحل. أشار إلى بعض عجائب أحوال البشر من أول عمره إلى آخره وتطوراته فيما بين ذلك. وقد ضبطوا مراتب العمر في أربع: الأولى سنّ النشوء والنماء. والثانية سن الوقوف وهي سن الشباب. والثالثة سن الانحطاط القليل وهي سن الكهولة. والرابعة سن الانحطاط الكبير وهي سنّ الشيخوخة، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ أي أنشأكُمْ من العدم ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي أضعفه وأردئه وهو الهرم. وقوله تعالى: ﴿لِكَي لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ اللام

للصيرورة والعاقبة. أي فيصيرُ، إن كان عالماً، جاهلاً. فيريكم من قدرته أنه كما قدر على نقله من العلم إلى الجهل، أنه قادر على إحيائه بعد إماتته.

قال في (العناية): وكونه غير عالم بعد علمه، كناية عن النسيان. لأن الناسي يعلم الشيء ثم ينساه، فلا يعلم بعد ما علم. أو العلم بمعنى الإدراك والتعقل، والمعنى لا يترقى في إدراك عقله وفهمه؛ لأن الشاب في الترقي. والشيخ في التوقف والنقصان.

وفي (الكشاف): ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولية في النسيان. وأن يعلم شيئاً ثم يسرع في نسيانه، فلا يعلمه إن سئل عنه. وقيل لئلا يعقل بعد عقله الأول شيئاً. وقيل لئلا يعلم زيادة علم على علمه الأول. و(شيئاً) منصوب على المصدرية أو المفعولية. وجوز فيه التنازع بين (يعلم) و(علم) وكون مفعول (علم) محذوفاً لقصد العموم. أي لا يعلم شيئاً ما بعد علم أشياء كثيرة.

﴿**إنَّ اللّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ، واللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ**﴾ أي: جعلكم متفاوتين فيه، فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم، وهم بشر مثلكم ﴿**فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا**﴾ أي في الرزق، وهم الملاك ﴿**بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ**﴾ أي بمعطيهم إياه ﴿**فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ**﴾ أي فيستووا مع عبيدهم في الرزق.

والآية مثل، ضرب للذين جعلوا له تعالى شركاء. أي أنتم لا تسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم. ولا تجعلونهم فيه شركاء. ولا ترضون ذلك لأنفسكم. فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي شركاء في الإلهية والتعظيم؟ كما قال في الأخرى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، هَل لَكُم مِمّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُم من شُركاءَ في ما رَزَقْناكُمْ فَأَنتُم فيه سَواءٌ تَخافُونَهُم كَخِيفتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]،

﴿**أَفَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَجْحَدُونَ**﴾ أي فَيُشْرِكُونَ مَعَهُ غيرهُ وهو المنعم عليهم. أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج البالغة بعد ما أنعم بها عليهم. فإنه لا نعمة على العالم أجل من إقامة الحجج وإيضاح السبل بإرسال الرسل.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ من أنفسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ أي في جنسكم وشكلكم إناثاً أزواجاً لتأنسوا بها وتحصل المودة والألفة والرحمة ﴿ وَجَعَلَ لكم من أزْوَاجِكُمْ بنين وحفدةً ﴾ أي بنات وأولاد أولاد ﴿ ورزقَكُمْ من الطَّيِّبات أفبالْبَاطلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهو منفعة الأصنام وشفاعتها ﴿ وَبنعْمَت اللّه هُمْ يكْفُرونَ ﴾ أي في إضافة نعمه إلى الأصنام، أو في تحريم ما أحل لهم ﴿ وَيَعْبُدُونَ من دُون اللّه مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً منَ السَّمَوات والأرضِ شَيْئاً ﴾ أي من مطر أو نبات و (شيئاً) نصب على المفعولية من (رزق) إن كان مصدراً. وإن جعل اسماً للمرزوق فـ (شيئاً) بدل منه بمعنى قليلاً. و(من السموات) متعلق بـ(يملك) على كون الرزق مصدراً. أو هو صفة لـ (رزقاً) ﴿ ولاَ يَسْتَطِعُونَ ﴾ أي أن يتملكوه. أوْ لا استطاعة لهم أصلاً. أو الضمير للمشركين. أي ولا يستطيعون، مع أنهم أحياء متصرفون فكيف بالجماد؟

﴿ فَلاَ تَضْرِبُوا لِلّه الأَمْثَالَ ﴾ أي فلا تجعلوا له أنداداً وأمثالاً. والضرب للمثل فيه معنى الجعل. والأمثال جمع (مثل) بكسر فسكون على هذا، وقيل جمع (مَثَل) بفتحتين والآية استعارة تمثيلية للإشراك به. حيث جعل المشرك به الذي يشبهه بخلقه، بمنزلة ضارب المثل. فإن المشبه المخذول يشبه صفة بصفة، وذاتاً بذات. كما أن ضارب المثل كذلك. فكأنه قيل: ولا تشركوا. وعدل عنه لما ذكر، دلالة على التعميم في النهي عن التشبيه وصفاً وذاتاً. وفي لفظة (الأمثال) لمن لا مثال له، نعيٌ عظيم على سوء فعلهم. كذا في (شرح الكشاف).

﴿ إنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي يعلم قبح ما تشركون وأنتم لا تعلمونه. ولو علمتموه لما جرأتم عليه، فهو تعليل للنهي. أو يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونه، فدعوا رأيكم وقياسكم دون نصه. ولما نهاهم عن ضرب المثل الفعلي وهو الإشراك، عقبه بالكشف لذي البصيرة، عن حالهم في تلك الغفلة، وحال من تابعهم، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

﴿ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ومن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِراً وَجهْراً، هَلْ يَسْتَوون والحَمْدُ للّه، بلْ أكْثَرُهمْ لا يعلمُونَ ﴾ يعني أن مثل هؤلاء في

إشراكهم، مثلُ من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف، وبين حرّ مالك يتصرف في ماله كيف يشاء. ولا مساواة بينهما. مع أنهما سيان في البشرية والمخلوقية للّه سبحانه وتعالى. فما الظن برب العالمين حيث يشركون به أعجز المخوقات. وإيثار قوله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ﴾ الخ على (مالكاً) للتنبيه على أن ما بيده، هو من فضل اللّه ورزقه، وعلى تذكيره الإنفاق منه في السر والجهر، ليكون عاملاً بأمر اللّه فيه.

وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي على ما هدى أولياءه. وأنعم عليهم من التوحيد. أو الحمد كله له لا يستحقه شيء من الأصنام. أو الحمد للّه على قوة هذه الحجة وظهور المحبة وأكثرهم لا يعلمونها، مع أنه في غاية ظهورها ونهاية وضوحها.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً﴾ أي مثلاً آخر يدل على مادل عليه المثل السابق على وجه أوضح ﴿رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ﴾ أي أخرس ﴿لا يَقْدِرُ على شَيءٍ﴾ أي مما يقدر عليه المنطيق المفصح عما في نفسه ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ﴾ أي ثقيل على من يلي أمره، لعدم اهتمامه بإقامة مصالح نفسه ﴿أَيْنما يُوَجِّهْهُ لا يأت بخيرٍ﴾ أي حيث يرسله في أمر لا يأتِ بنجحه وكفاية مهمه ﴿هلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بالْعَدْلِ﴾ أي ومن هو بليغ منطيق ذو كفاية ورشد لينفع الناس، بحثّهم على العدل الشامل لجميع الفضائل.

﴿وَهُوَ﴾ أي في نفسه مع ما ذكر من نفعه العام ﴿عَلَى صِراطٍ مُّسْتَقيمٍ﴾ أي على سيرة صالحة ودين قويم، لا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب سعي وأسهله.

قال الأزهري: ضرب تعالى مثلاً للصنم الذي عبدوه وهو لا يقدر على شيءٍ، فهو كَلٌّ على مولاه. لأنه يحمله إذا ظعن فيحوّله من مكان إلى مكان. فقال اللّه تعالى: هل يستوي هذا الصنم الكل، ومن يأمر بالعدل؟ استفهام معناه التوبيخ، كأنه قال لا تسووا بين الصنم وبين الخالق جلَّ جلاله. انتهى.

وإليه أشار الزمخشري بقوله: وهذا مثل ضربه اللّهُ لنفسه، ولما يفيض على

عباده ويشملهم مع آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية. وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع. انتهى.

وناقش الرازي في حمله على الصنم بأن الوصف بالرجل وبالبكم وبالكل وبالتوجه في جهات المنافع، يمنع من حملها على الوثن. وكذا الوصف في الثاني بأنه على صراط مستقيم، يمنع من حمله على اللّه تعالى. انتهى.

وقد يقال في جوابه بأن الأوصاف الأُوَل، وإن كانت ظاهرة في الإنسان (والأصل في الإطلاق ما يتبادر وهو الحقيقة) إلا أن المقام صرفها إلى الوثن: لأن الآيات في بيان حقارة ما يعبد من دونه تعالى، وكونه لا يصلح للألوهية بوجه ما، لما فيه من صفات النقص. وأما الوصف في قوله ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦]، فصح الحمل.

ثم رأيت للإمام ابن القيّم في (أعلام الموقعين) ما يؤيد ما اعتمدناه حيث قال، في بحث أمثال القرآن، في هذين المثلين ما صورته:

فالمثل الأول: يعني قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً﴾ الآية، ضربه اللّهُ سبحانه لنفسه وللأوثان. فاللّهُ سبحانه هو المالك لكل شيء. ينفق كيف يشاء على عبيده سراً وجهراً وليلاً ونهاراً. يمينه ملأى لا يغيضها نفقة. سحّاء الليل والنهار. والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء إليّ ويعبدونها من دوني، مع هذا التفاوت العظيم والفرق المبين؟ هذا قول مجاهد وغيره.

وقال ابن عباس: هو مثل ضربه اللّه للمؤمن والكافر ومثل المؤمن في الخير الذي عنده ثم رزقه منه حسناً فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره سراً وجهراً. والكافر بمنزلة عبد مملوك عاجز لا يقدر على شيء. لأنه لا خير عنده. فهل يستوى الرجلان عند أحد من العقلاء؟ والقول الأول أشبه بالمراد. فإنه أظهر في بطلان الشرك، وأوضح عند المخاطب، وأعظم في إقامة الحجة وأقرب نسباً بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ، فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٣ – ٧٤]، ثم قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد ممن رزقه منه رزقاً حسناً. والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء. فهذا مما ينبه عليه المثل وأرشد إليه

فذكره ابن عباس منبهاً على إرادته. لا أن الآية اختصت به. فتأمله فإنك تجده كثيراً في كلام ابن عباس وغيره من السلف في فهم القرآن. فيظن الظان أن ذلك هو معنى الآية التي لا معنى لها غيره، فيحكيه قوله.

وأما المثل الثاني، فهو مثل ضربه اللّهُ سبحانه وتعالى لنفسه ولما يعبدون من دونه أيضاً. فالصنم الذي يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق. بل وهو أبكم القلب واللسان. قد عدم النطق القلبي واللساني، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة. وعلى هذا فاينما أرسلته لا ياتيك بخير. ولا يقضي لك حاجة، واللّهُ سبحانه حيٌّ قادر متكلم يامر بالعدل وهو على صراط مستقيم. وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد. فإن أمره بالعدل، وهو الحق يتضمن أنه سبحانه عالم به معلم له، راض به آمر لعباده به، محب لأهله لا يامر بسواه، بل تنزه عن ضده الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل، . بل أمره وشرعه عدل كله. وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه. وهم المجاورون له عند يمينه، على منابر من نور. وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعي الديني والأمر القدري الكوني. وكلاهما عدل لا جور فيه بوجه. كما في الحديث الصحيح(١): اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيَّ حكمك عدل في قضاؤك. فقضاؤه هو أمره الكوني: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فلا يامر إلا بحق وعدل. وقضاؤه وقدره القائم به حق وعدل. وإن كان في المقضيّ المقدّر ما هو جور وظلم فالقضاء غير المقضيّ. والقدر غير المقدّر. ثم أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم وهذا نظير قوله رسوله شعيب: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِي وَرَبِّكُمْ مَّا من دَابة إلا هُو آخذٌ بنَاصيتها إنَّ رَبِّي على صراط مُسْتقيم﴾ [هود: ٥٦]، وقوله: ﴿مَّا مِن دَابة إلاَّ هُوَ آخذٌ بنَاصيتهَا﴾ نظير قوله (نَاصِيَتي بيَدِكَ) وقوله: ﴿إنَّ رَبيّ عَلى صِراطٍ مُّسْتقيم﴾ نظير قوله (عدلٌ فيَّ قَضَاؤكَ) فالأول ملكه. والثاني حمده. وهو سبحانه له الملك وله الحمد. وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضي أنه لا يقول إلا الحق ولا يامر إلا بالعدل ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل. فهو على الحق في أقواله وأفعاله. فلا يقضي على العبد بما يكون ظالماً به ولا يؤخذ بغير ذنبه. ولا ينقصه من حسناته شيئاً. ولا يحمل عليه من سيئات غيره التي لم يعملها ولم يتسبب إليها شيئاً. ولا يؤاخذ أحداً بذنب غيره. ولا يفعل قط ما لا يحمد عليه ويثنى به عليه ويكون له فيه

(١) اخرجه الإمام احمد في مسنده ١/ ٣٩١ والحديث رقم ٣٧١٢.

العواقب الحميدة والغايات المطلوبة. فإن كونه على صراط مسقيم يأبى ذلك كله.

قال محمد بن جرير الطبري: وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يقول: إن ربي على طريق الحق يجازي المحسن من خلقه بإحسانه والمسيء بإساءته. لا يظلم أحداً منهم ولا يقبل منهم إلا الإسلام له والإيمان به.

ثم حكي عن مجاهد من طريق شبل بن أبي نجيح عنه ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال: الحق. وكذلك رواه ابن جريج عنه.

وقال فرقة: هي مثل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤]، وهذا اختلاف عبارة. فإن كونه بالمرصاد هو مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وقال فرقة: في الكلام حذف تقديره: إن ربي يحثكم على صراط مستقيم ويحضكم عليه. وهؤلاء إن أرادوا أنَّ هذا معنى الآية التي أريد بها. فليس كما زعموا ولا دليل على هذا المقدر. وقد فرق سبحانه بين كونه آمراً بالعدل وبين كونه على صراط مستقيم. وإن أرادوا أنَّ حثه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم، فقد أصابوا.

وقالت فرقة أخرى: معنى كونه على صراط مستقيم أن مَرَدّ العباد والأمور كلها إلى الله لا يفوته شيء منها. وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية فليس كذلك. وإن أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم ومن مقتضاه وموجبه، فهو حق.

وقالت فرقة أخرى: معناه كل شيء تحت قدرته وقهره في ملكه وقبضته. وهذا وإن كان حقاً فليس هو معنى الآية. وقد فرق شعيب بين قوله: ﴿مَّا من دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود:٥٦]، وبين قوله: ﴿إِنَّ ربي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦]. فهما معنيان مستقلان.

فالقول قول مجاهد. وهو قول أئمة التفسير. ولا تحتمل العربية غيره إلا على استكراه.

وقال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز:

أميرُ المؤمنين على صراطٍ ... إذا اعوجَّ المواردُ مستقيمِ

وقد قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩]، وإذا كان سبحانهُ هو الذي جعل رسله وأتباعهم على الصراط المستقيم في أقوالهم وأفعالهم فهو سبحانه أحق بأن يكون على صراط مستقيم في

قوله وفعله. وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره، فصراطه الذي هو سبحانه عليه، هو ما يقتضيه حمده وكماله ومجده من قوله الحق وفعله، وباللّه التوفيق.

وفي الآية قول ثان مثل الآية الأولى سواء: إنه مثل ضربه اللّهُ للمؤمن والكافر. وقد تقدم ما في هذا القول وباللّه التوفيق. انتهى بحروفه. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّموات والأرْضِ، وما أَمْرُ السَّاعةِ إلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إنّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾.

الآية إما جواب لاستعجالهم ما يوعدون، أو لاستبطائهم الساعة. أو لبيان كماله في العلم والقدرة، تعريضاً بأن معبوداتهم عريّة منهما. فأشار إلى الأول بقوله: **﴿ وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَواتِ والأَرْضِ ﴾** أي يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفي عليهم علمه. أو غيبهما هو يوم القيامة. فإن علمه غائب عن أهلهما، لم يطلع عليه أحد منهم، وأشار إلى الثاني بقوله: **﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعةِ إلاَّ كَلَمحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾** و(الساعة) الوقت الذي تقوم فيه القيامة. و(اللمح) النظر بسرعة. أي كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها (أو هو أقرب) من ذلك، أي أسرع زماناً. بأن يقع في بعض زمانه. وفيه من كمال تقرير قدرته تعالى ما لا يخفى. وقوله: **﴿ إنَّ اللّهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ ﴾** تعليل له، إشارة إلى أن مقدوراته تعالى لا تتناهى، وأن ما يذكر بعض منها. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

﴿ واللّهُ أَخْرَجَكُمْ من بُطون أُمهاتكُم لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ عطف على قوله تعالى: **﴿ واللّهُ جعَلَ لَكُم منْ أَنفُسِكُمْ أَزْواجاً ﴾** منتظم معه في سلك أدلة التوحيد من قوله تعالى: **﴿ واللّهُ أنزلَ من السماءِ ماءً ﴾** وقوله تعالى: **﴿ واللّهُ خَلَقَكُمْ ﴾** وقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أفاده أبو السعود. و(شَيْئاً) منصوب على المصدرية أو مفعول (تعلمون) والنفي منصبّ عليه. أي لا تعلمون شيئاً أصلاً من حق المنعم وغيره.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ أي فتدركون به الأصوات ﴿وَالأَبْصَارَ﴾ فتحسون المرئيات ﴿وَالأَفْئِدَةَ﴾ أي العقول ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتصرفوها فيما خلقت له من التوحيد والاعتبار بها والمشي على السنن الكونية. ثم نبه تعالى على آيته في خلقه الطير بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ﴾ أي مذللات ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ﴾ أي ما يمسكهنَ في الجوّ من غير تعلق بمادة ولا اعتماد على جسم ثقيل، إلا هو سبحانه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قال الحجة الغزالي في الحكمة في خلق المخلوقات، في حكمة الطير، في هذه الآية، ما مثاله:

اعلم رحمك اللّه أن اللّه تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضي الخفة للطيران. ولم يخلق فيه ما يثقله. وخلق فيه ما يحتاج إليه وما فيه قوامه وصرف غذائه فقسم لكل عضو منه ما يناسبه. فإن كان رخواً أو يابساً أو بين ذلك، انصرف إلى كل عضو من غذائه ما هو لائق به. فخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله. وإعانة له في ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانه، وواسعة الأسفل ليثبت في موطن على الأرض وهي خف فيه. أو بعض أصابع مخلوقة من جلد رقيق صلب من نسبة جلد ساقيه. وجعل جلد ساقيه غليظاً متقناً جداً ليستغني به عن الريش في الحر والبرد. وكان من الحكمة، خلقه على هذه الصفة. لأنه في رعيه وطلب قوته لا يستغني عن مواضع فيها الطين والماء. فلو كسيت ساقاه بريش لتضرر ببلله وتلويثه. فأغناه سبحانه عن الريش في موضع لا يليق به حتى يكون مخلصاً للطيران. وما خلق من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبته طويلة لينال غذاءه من غير حرج بها. إذ لو طالت رجله وقصر عنقه لم يمكنه الرعي في البراري ولا في البحائر حتى ينكبّ على صدره. وكثيراً ما يعان بطول المنقار أيضاً مع طول العنق، ليزداد مطلبه عليه سهولة. ولو طال عنقه وقصرت رجلاهُ أثقلهُ عنقهُ واختل رعيه. وخلق صدره ودائره ملفوفاً على عظم كهيئة نصف دائرة، حتى يخرق في الهواء بغير كلفة، وكذلك رؤوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران. وجعل لكل جنس من الطير منقاراً يناسب رعيه ويصلح لما يغتذي به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك. فمنه مخلب لتقطيع خص به الكواسر وما قوته اللحم. ومنه عريض مشرشر جوانبه تنطبق على ما يلتقطه انطباقاً محكماً. ومنه معتدل اللقط وأكل الخضر. ومنه طويل المنقار جعله صلباً شديداً

شبه العظم وفيه ليونة، وما هي في العظم، لكثرة الحاجة إلى استعماله. وهو مقام الأسنان في غير الطير من الحيوان. وقوى سبحانه أصل الريش وجعله قصباً منسوباً فيما يناسبه من الجلد الصلب في الأجنحة ولأجل كثرة الطيران ولأن حركة الطيران قوية فهو محتاج إلى الإتقان لأجل الريش. وجعل ريشه وقاية مما يضره من حر أو برد. ومعونة متخللة الهواء للطيران. وخص الأجنحة بأقوى الريش وأثبته وأتقنه، لكثرة دعاء الحاجة إليه. وجعل في سائر بدنه ريشاً غيره كسوة ووقاية وجمالاً له. وجعل في ريشه من الحكمة، أن البلل لا يفسده والأدران لا توسخه. فإن أصابه ماء كان أيسر انتفاض يطرد عنه بلله فيعود إلى خفته. وجعل له منفذاً واحداً للولادة وخروج فضلاته لأجل خفته وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته في طيرانه. فلولاه لما مالت به الأجنحة في حال الطيران يميناً وشمالاً. فكان له بمنزل رَجُل السفينة الذي يعدل بها سيرها. وخلق في طباعه الحذر وقاية لسلامته. ولما كان طعامه يبتلعه بلعاً بل مضغ، جعل لبعضه منقاراً صلباً يقطع به اللحم ويقوم له مقام ما يقطع بالمدية. وصار يزدرد ما يأكله صحيحاً. وأعين بفضل حرارة في جوفه تطحن الطعام طحناً يستغنى به عن المضغ وثقل الأسنان. واعتبر ذلك بحبِّ العنب وغيره. فإنه يخرج من بطون الحيوان صحيحاً وينسحق في أجواف الطير. ثم إنه خلقه يبيض ولا يلد لئلا يثقل عن الطيران. فإنه لو خلقت فراخه في جوفه حتى يكمل خلقها لثقل بها وتعوّق عن النهوض للطيران. أفلا ترى كيف دبر كل شيء من خلقه بما يليق به من الحكمة؟ انتهى ملخصاً.

ثم بين تعالى نعمته على البشر ليستدل به على وحدانيته، بقوله، عطفاً على ما مرّ:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ من بُيُوتكُمْ سَكَناً﴾ أي موضعاً تسكنون فيه وتأوون إليه لما لا يحصى من وجوه منافعكم ﴿وَجَعلَ لَكُم من جُلُودِ الأنْعامِ بُيُوتاً﴾ أي بيُوتاً أخرى وهي الخيام والفساطيط والقباب المتخذة من الجلود نفسها، أو من الوبر والصوف والشعر أيضاً. فإنها من حيث كونها نابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها أو

الجلود مجاز عن المجموع ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي تجدونها خفيفة المحمل وقت ترحالكم ووقت نزولكم في مراحلكم. لا يثقل عليكم ضربها. أو هي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر جميعاً. قيل: والأول أولى. لأن ظهور المنة في خفتها إنما يتحقق في حال السفر. وأما المستوطن فغير مثقل ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ أي وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز ﴿أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ الأثاث ما يتخذ للاستعمال بلبس أو فرش. والمتاع ما يتخذه للتجارة. وقيل هما بمعنى. ومعنى (إلى حينٍ) أي إلى أن تقضوا منه أوطاركم. أو إلى أن يبلى ويفنى. أو إلى أن تموتوا.

تنبيه:

استدل بالآية على طهارة جلود المأكولات وأصوافها وأوبارها وأشعارها، إذا خرجت في الحياة أو بعد التذكية. واستدل بعموم الآية من أباحها مطلقاً ولو من غير مذكاة. كذا في (الإكليل).

القول في تأويل قوله تعالى:

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ﴾ أي من الشجر والجبال والأبنية وغيرها ﴿ظِلالاً﴾ أي أفياء تستظلون بها من حر الشمس ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ من الْجِبَالِ أَكْنَاناً﴾ أي بيوتاً ومعاقل وحصوناً تستترون بها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ جمع سربال وهو كل ما يلبس من القطن والكتان والصوف ونحوها. وإنما خص الحرّ، اكتفاءً بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر. أوْ لأن الوقاية من الحر أهم عند العرب، لشدته بأكثر بلادهم وخصوصاً قُطَّان الحجاز وهم الأصل في هذا الخطاب. قيل: يبعده ذكر وقاية البرد سابقاً في قوله: ﴿لَكُمْ فيها دفءٌ﴾ [النحل: ٥] وهو وجه الاقتصار على الحرّ هنا، لتقدم ذكر خلافه ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ كالدروع من الحديد والزرد ونحوها. التي يتقى بها سلاح العدوّ في الحرب ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي إرادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة والأنفسية والآفاقية، فتسلموا وجوهكم إليه تعالى، وتؤمنو به وحده.

قال أبو السعود: وإفراد النعمة، إما لأن المراد بها المصدر، أو لإظهار أن ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياء شيء قليل. وقرئ (تَسْلَمُونَ) بفتح اللام أي من العذاب أو الجراح.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿**فَإِنْ تولَّوْا**﴾ أي بعد هذا البيان وهذا الامتنان ﴿**فإنّما عليْكَ الْبلاغُ الْمبين، يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ**﴾ أي التي عددت، وأنها بخلقه ﴿**ثُمَّ يُنكرُونَها**﴾ أي بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم هي من اللّه، ولكنها بشفاعة آلهتنا ﴿**وأَكْثَرُهُم الْكَافِرونَ**﴾.

ثم أخبر تعالى عن شأنهم في معادهم بقوله:

﴿**ويَوْمَ نَبعَثُ من كُلِّ أُمَّةٍ شَهيداً**﴾ وهو نبيّها يشهد عليها بما أجابته من إيمان وكفر فيما بلغها ﴿**ثُمَّ لا يؤْذَنُ للَّذين كفَرُوا**﴾ أي في الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كقوله: ﴿هَذاَ يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ، ولاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥ -٣٦]، ﴿**ولاَ هُم يُسْتَعْتَبُونَ**﴾ أي لا يطلب منهم العتبى. أي إزالة عَتب ربهم وغضبه. (والعتبى) بالضم الرضا وهو الرجوع عن الإساءة إلى ما يرضي العاتب. يقال: استعتبه أعطاه العتبى بالرجوع إلى مسرته. والعتب لومك الرجل على إساءة كانت له إليك. والمرء إنما يطلب العتاب من خصمه ليزيل ما في نفسه عليه من الموجدة والغضب ويرجع إلى الرضا عنه، فإذا لم يطلب العتاب منه، دل ذلك على أنه ثابت على غضبه عليه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿**وَإذا رَءَا الذين ظلَمُوا الْعَذابَ فلا يُخفَّفُ عَنهُمْ ولا هُمْ يُنظَرونَ**﴾ أي يوخرون ﴿**وإذا رَءَا الَّذينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءهُمْ**﴾ يعني أوثانهم التي عبدوها ﴿**قالُوا ربَّنا هؤلاءِ**

شَرَكَاؤنَا الَّذينَ كُنَّا نَدْعُوا من دُونِكَ﴾ أي أرباباً أو نعبدها ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي أجابوهم بالتكذيب في تسميتهم شركاء وآلهة، تنزيها للّه عن الشرك. أو بالتكذيب في دعواهم أنهم حملوهم على عبادتهم.

قال أبو مسلم الأصفهاني: مقصود المشركين إحالة هذا الذنب على هذه الأصنام. وظنوا أن ذلك ينجيهم من عذاب اللّه تعالى أو ينقص من عذابهم. فعند هذا تكذبهم بتلك الأصنام. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا من دُونِ اللّه من لا يسْتَجيبُ لَهُ إلى يَوْمِ الْقَيامة وَهُمْ عَن دُعَائهِمْ غَافِلُونَ، وإِذا حُشرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أعداءً وكَانُوا بعبادتهِمْ كَافرين﴾ [الأحقاف:٥ - ٦]، وقال تعالى: ﴿واتَّخذُوا من دُونِ اللّه آلِهَةً لَيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً، كلاَّ سَيَكْفرُونَ بعبادَتهم وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾ [مريم:٨١ - ٨٢]، وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

﴿وَأَلْقَوْا﴾ أي وألقى الذين ظلموا ﴿إلى اللّهِ يَوْمَئذٍ السَّلَمَ﴾ أي الاستسلام لحكمه بعد إبائهم في الدنيا ﴿وَضلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يفْترونَ﴾.

أي من أَنَّ للّه شركاء، وأنهم يشفعون لهم عند اللّه تعالى. فإن قيل: قد جاء إنكارهم كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَميعاً فَيحلِفُونَ لَهُ كما يَحْلِفُون لَكُمْ﴾ [المجادلة:١٨] والجواب: (كما قال القاشاني): إن ذلك بحسب المواقف. فالإنكار في الموقف الأول وقت قوة هيئات الرذائل وشدة شكيمة النفس في الشيطنة وغاية البعد عن النور الإلهي، للاحتجاب بالحجب الغليظة والغواشي المظلمة حتى لا يعلم أنه كان يراه ويطلع عليه. ونهاية تكدر نور الفطرة حتى يمكنه إظهار خلاف مقتضاه، والاستسلام في الموقف الثاني بعد مرور أحقاب كثيرة من ساعات اليوم، الذي كان مقداره خمسين ألف سنة، حين زالت الهيئات ورقت، وضعفت شراشر النفس في رذائلها، وقرب من عالم النور، لرقة الحجب ولمعان نور فطرته الأولى، فيعترف وينقاد. هذا إذا كان الاستسلام والإنكار لنفوس بعينها. وقد يكون الاستسلام للبعض الذين لم ترسخ هيئات رذائلهم ولم تغلظ حجبهم ولم ينطفئ نور استعدادهم. والإنكار لمن رسخت فيه الهيئات وقويت وغلبت عليه الشيطنة واستقرت، وكثف الحجاب وبطل الاستعداد، واللّهُ أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾

﴿ **الَّذينَ كَفرُوا وصَدُّوا عن سَبيلِ اللَّهِ زدْنَاهُمْ عذاباً فوْقَ العْذَابِ بمَا كانُوا يُفسِدونَ** ﴾ أي يضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا كفرهم بصدهم غيرهم عن الإيمان، كقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام:٢٦]، وفي الآية دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم. كماقال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ولَكِن لاَ تَعْلَمونَ ﴾ [الأعراف:٣٨].

﴿ **وَيوْمَ نَبعَثُ في أُمّةٍ شَهيداً عَلَيْهِم مِنْ أنفُسِهِمْ** ﴾ وهو نبيّهم ﴿ **وَجِئْنَا بِكَ شَهيداً عَلَى هؤُلاَءِ** ﴾ أي اذكر ذلك اليوم، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع. وما يلحق الكافرين فيه من تمني كونهم تراباً، لهول المطلع.

وقد ذكر ذلك في آية النساء في قوله تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا من كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهيدٍ وَجِئْنَا بكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهيداً يَوْمَئذٍ يَوَدُّ الَّذينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً ﴾ [النساء: ٤١ – ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿ **وَنزّلْنَا عَلَيْكَ الْكاتَبَ تبْياناً لُكل شَيْءٍ وَهُدىً ورَحْمَةً وبُشْرى لِلْمُسْلمِينَ** ﴾ مستأنف. أو حال بتقدير (قد).

قال الرازي: وجه تعلق هذا الكلام بما قبله، أنه تعالى لما قال ﴿ **وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً على هؤلاءِ** ﴾ بيّن أنه أزاح علتهم فيما كلفوا. فلا حجة لهم ولا معذرة.

وقال ابن كثير في وجه ذلك: إن المراد، والله أعلم، إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٦]، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر:٩٢– ٩٣]، ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ. فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ، قَالُوا لاَعِلْمَ لَنَا، إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩]. وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ [القصص:٨٥].أي إن الذي أوجب عليك تبليغ

القرآن لرادك إليه ومعيدك يوم القيامة وسائلك عن أداء ما فرض عليك. هذا أحد الأقوال، وهو متجه حسن . انتهى.

و(التبيان) من المصادر التي بنيت على هذه الصيغة لتكثير الفعل والمبالغة فيه. أي تبييناً لكل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي وكل حلال وحرام، وما الناس محتاجون إليه في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم ﴿ وَهُدىً ﴾ أي هداية لمن استسلم وانقاد لسلامة فطرته إلى كماله ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي له بتبليغه إلى ذلك الكمال بالتربية والإمداد، ونجاته من العذاب، وبشارة له بالسعادة الأبدية. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ** ﴾ أي فيما نزله تبياناً لكل شيء ﴿ **بِالْعَدْلِ** ﴾ وهو القسط والتسوية في الحقوق فيما بينكم. وترك الظلم وإيصال كل ذي حق حقه ﴿ **وَالإِحْسَانِ** ﴾ أي التفضيل بأن يقابل الخير بأكثر منه، والشر بأن يعفو عنه ﴿ **وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبَى** ﴾ أي إعطاء القرابة ما يحتاجون إليه ﴿ **وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ** ﴾ أي عما فحش من الذنوب وأفرط قبحها كالزنى ﴿ **وَالْمُنكَرِ** ﴾ أي كل ما أنكره الشرع ﴿ **وَالْبَغْيِ** ﴾ أي العدوان على الناس ﴿ **يَعِظُكُمْ** ﴾ أي بما يأمركم وينهاكم ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ أي تَتَّعظُونَ بمواعظ اللّه، فتعملون بما فيه رضا اللّه تعالى.

وروى ابن جرير عن ابن مسعود: إن أجمع آية في القرآن، لخير وشر، هذه الآية. وروى الإمام أحمد[1]: أن عثمان بن مظعون مرّ على النبيّ ﷺ وهو جالس بفناء بيته. فكشر إلى رسول اللّه ﷺ. فقال له ألا تجلس؟ فقال: بلى. فجلس. ثم أوحي إليه هذه الآية فقرأها عليه: قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً ﷺ.

ولما تليت الآية على أكثم بن صيفي قال لقومه: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها. فكونوا في هذا الأمر رؤساء ولا تكونوا فيه أذناباً. وعن عكرمة أن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١ /٣١٨، والحديث رقم ٢٩٢٢.

النبيّ ﷺ قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الآية فقال له : يا ابن أخي! أعد عليّ. فأعادها. فقال له الوليد: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول البشر.

وقد نقل أن بني أمية كانوا يسبّون عليّاً، كرم الله وجهه، في خطبهم. فلما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، أسقط ذلك منها وأقام هذه الآية مقامه. وهو من أعظم مآثره.

قال الناصر: ولعل المعوض بهذه الآية عن تلك الهنات، لاحظ التطبيق بين ذكر النهي عن البغي فيها، وبين الحديث الوارد في أن المناصب لعليّ باغ. حيث يقول ﷺ[1] لعمار (وكان من حزب عليّ): تقتلك الفئة الباغية. فقتل مع علي يوم صفين. انتهى.

ولما فيها أيضاً من العدل والإحسان إلى ذوي القربى، وكونها أجمع آية لاندراج ما ذكر فيها . والله أعلم.

ثم بين تعالى أمره بالوفاء بالعهد والميثاق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً، إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾.

روى ابن جرير عن بريدة قال: نزلت في بيعة النبيّ ﷺ. كان مَنْ أسلم بايع النبيّ على الإسلام، فأمروا بالوفاء بهذه البيعة وأن لا ينقضوها بعد توكيدها بالأيمان. أي لا يحملنكم قلة المؤمنين وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام. وظاهر أن العهد يتناول كل أمر يجب الوفاء بمقتضاه، مما يلتزمه المرء باختياره. كالمبايعة على الإسلام. وعهد الجهاد وما التزمه من نذر وما أكده بحِلْف.

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الصلاة، ٦٣ ــ باب التعاون في بناء المسجد، حديث رقم ٢٩٥.
وأخرجه مسلم في: الفتن وأشراط الساعة، حديث رقم ٧٠.

وعلى هذا، فتخصيص اليمين بالذكر، للتنبيه على أنه أولى أنواع العهد بوجوب الرعاية. و(التوكيد والتأكيد)، لغتان فصيحتان. والأصل الواو، والهمزة بدل منها. والواو في قوله: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ للحال من فاعل ﴿تَنقُضُواْ﴾ أو من فاعل المصدر وإن كان محذوفاً. ومعنى ﴿كَفِيلاً﴾ شهيداً رقيباً. و(الجعل) مجاز. فإن من حلف به تعالى وهو مطلع عليه فكأنه جعله شاهداً. قال الشهاب: ولو أبقى (الكفيل) على ظاهره، وجعل تمثيلاً لعدم تخلصهم من عقوبته، وأنه يسلمهم لها كما يسلم الكفيل من كفله، كما يقال (من ظلم فقد أقام كفيلاً بظلمه) تنبيهاً على أنه لا يمكنه التخلص من العقوبة كما ذكره الراغب - لكان معنى بليغاً جداً. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ كالتفسير لما قبله. وفيه ترغيب وترهيب.

تنبيه:

في الآية الحث على البرّ في الأيمان . وجليٌّ أنها فيما فيه طاعة وبرّ وتقوى. وأما فيما عدا ذلك فالخير في نقضها. وقد دل عليه ما ثبت عن النبي ﷺ في الصحيحين[١] أنه قال: إني، والله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها. (وفي رواية : وكفرت عن يميني). فالحديث في معنى ، والآية في معنى آخر . فلا تعارض، كما وهم . وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً﴾ تأكيد لوجوب الوفاء وتحريم النقض. أي لا تكونوا في نقض الأيمان كالمرأة التي أنحت على غزلها، بعد أن أحكمته وأبرمته، فجعلته أنكاثاً، أي أنقاضاً، جنوناً منها وحمقاً.

ففي التمثيل إشارة إلى أن ناقض يمينه خارج من الرجال الكمّل، داخل في زمرة النساء. بل في أدناهن، وهي الخرقاء.

وقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ حال من الضمير في (ولا تكونوا) أي لا تكونوا مشابهين لامرأة هذا شأنها، حال كونكم متخذين أيمانكم

(١) أخرجه مسلم في: الأيمان، حديث ٧ - ١٠.

مفسدة بينكم ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي سبب أن تكون جماعة ، كقريش، هي أزيد عدداً وأوفر مالاً من جماعة كالمؤمنين ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ أي يعاملكم معاملة من يختبركم بكونهم أربى، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد اللّه وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول اللّه ﷺ ، أم تغترّون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم، وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم؟ ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي فيتميز المحق من المبطل، بما يظهر من درجات الثواب والعقاب. وهو إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام.

تنبيه:

قال أبو علي الزجاجي، من أئمة الشافعية: في هذه الآية أصل لما يقوله أصحابنا، من إبطال الدور. لأن اللّه تعالى ذم من أعاد على الشيء بالإفساد بعد إحكامه. نقله في (الإكليل)

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي حنيفة مسلمة ﴿وَلَكِن يُضِلُّ من يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي في الدنيا، سؤال تبكيت ومجازاة، لا استفسار وتفهم. وهو المنفي في غير هذه الآية. أو في موقف دون موقف كما مر. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾

﴿وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ تصريح بالنهي عنه، بعد أن نهى عنه ضمناً، لأخذه فيما تقدم قيداً للمنهي عنه، تأكيداً عليهم ومبالغة في قبح المنهي ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي فتزل أقدامكم عن محجة الحق، بعد رسوخها فيه ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾ أي ما يسوءكم في الدنيا ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ أي بصدودكم عن الوفاء، أو بصدكم غيركم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي في الآخرة.

لطيفة:

تنكير (قدم) للإيذان بأن زلل قدم واحدة عظيم، فكيف بأقدام كثيرة؟ وأشار في (البحر) إلى نكتة أخرى: قال: الجمع تارة يلحظ فيه المجموع من حيث هو مجموع فيؤتى بما هو له مجموعاً. وتارة يلاحظ فيه كل فرد فرد فيفرد ماله كقوله: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ [يوسف:٣١]، أي لكل واحدة منهن متكئاً. ولما كان المعنى: لا يفعل هذا كل واحد منكم، أفرد ﴿قَدَم﴾ مراعاةً لهذا المعنى. ثم قال ﴿وَتَذُوقُوا﴾ مراعاة للفظ الجمع.

قال الشهاب: هذا توجيه للإفراد من جهة العربية، فلا ينافي النكتة الأولى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾

﴿**وَلاَ تَشْتَروا بِعَهْدِ اللّه ثَمناً قَليلاً**﴾ أي لا تستبدلوا بعهد اللّه وبيعة رسوله عرضاً من الدنيا يسيراً. وهو ما كانت قريش يَعِدُونهم ويمنّونهم، إن ارتدوا ﴿**إنَّمَا عندَ اللّه هُوَ خيْرٌ لَكُمْ**﴾ أي من إظهاركم في الدنيا وإثابتكم في الآخرة ﴿**إن كُنتُمْ تعْلَمُونَ**﴾ أي من ذوي العلم والتمييز. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

﴿**مَا عِندَكُمْ ينفَدُ وَمَا عِندَ اللّه باقٍ**﴾ تعليل للخيرية بطريق الاستئناف. أي ما عندكم مما تتمتعون به، يفرغ وينقص. فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناه، وما عنده تعالى من ثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع له. فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿**ولَنجْزِيَنَّ الّذين صَبَرُوا أجْرَهم**﴾ أي على أذى المشركين ومشاقّ الإسلام ﴿**بِأحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ أي بجزاء أحسن من أعمالهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

﴿**مَنْ عَمِلَ صَالحاً مِّن ذكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيبَةً، ولَنجْزِيَنَّهُمْ أجْرَهُمْ**

بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هذا وعد منه تعالى لمن عمل صالحاً. وهو العمل التابع لكتاب اللّه وسنة رسوله، من ذكر أو أنثى، وهو ثابت على إيمانه إلى الموت، بأن يحييه اللّه تعالى حياة طيبة.

قال المهايمي: أي فيتلذذ بعمله في الدنيا فوق تلذذ صاحب المال والجاه، ولا يبطل تلذذه إعسارُه. إذ يرضيه اللّه بقسمته فيقنعهُ ويقلِ اهتمامه بحفظ المال وتنميته. والكافر لا يهنأ عيشه بالمال والجاه؛ إذ يزداد حرصاً وخوف فوات. ويجزون بالأحسن في الآخرة. فلايقال لهم: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا. بل يكمل جزاء أعمالهم الأدنى بحيث يلحق بالأعلى. نتهى.

وعندي أن الحياة الطيبة هي الحياة التي فيه ثلج الصدور بلذة اليقين وحلاوة الإيمان والرغبة في الموعود والرضا بالقضاء. وعتق الروح مما كانوا يستعبدون له. والاستكانة إلى معبود واحد. والتنّور بسر الوجود الذي قام به، وغير ذلك من مزاياه المقررة في مواضعها. هذا في الدنيا. وأما في الآخرة، فله الجزاء الأحسن والثواب الأوفى.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿فَإذا قَرَأْتَ الْقُرآنَ فَاسْتَعِذْ باللّه من الشَّيْطَان الرَّجيم، إنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ على الَّذين آمَنُوا وَعلى رَبِّهِمْ يَتوَكَّلُونَ، إنَّما سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذين يَتولَّوْنَهُ والَّذينَ هُم به مُشْرِكُونَ﴾.

لما كان القرآن هو الذكر الحكيم والحق المبين، وكان لكل حق محارب و هو شيطان الجن أو الإنس يثير الشبهات بوساوسه. ويفسد القلوب بدسائسه. أمر ﷺ بأن يستعيذ باللّه ويلتجئ إليه، عند تلاوة القرآن، من وسوسته. لأن قوة الإنسان تضعف عن دفعه بسهولة، فيحتاج إلى الاستعانة عليه باللّه واللياذ بجواره منه. وقد بينت آية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رَّسُول ولاَ نَبي إلاَّ إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ في أُمْنيَّته فَيَنسَخُ اللّهُ مَا يُلْقي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكمُ اللّهُ آياته وَاللّهُ عَليمٌ حَكيمٌ﴾ [الحَج: ٥٢]، أن هذه عادة الشيطان إثر ما يتلوه كل نبيّ على أمته من الأحكام المتجددة التي يوحى بها لسعادة البشر، أنه يحول عنها الأنظار ويسعى لهدم ما أقيمت لأجله.

وإن اللّهَ يحكم آياته وينسخ شبه الشيطان، ليحق الحق ويبطل الباطل. فلما كانت هذه عادته، ولها من الأثر ما لها، احتيج إلى الاستعاذة به تعالى منها، عند قراءة الوحي ونشر تعاليمه.

ثم بين تعالى أن أثر وسوسته إنما يكون فيمن له سلطان عليهم. أي تسلط وولاية من أوليائه المتبعين خطواته. وأما الذين آمنوا وتوكلوا على ربهم، فصبروا على المكاره ولم يبالوا بما يلقون في سبيل الجهاد بالحق من العثرات، فليس له عليهم سلطان. فهم يضادون أمانيه ويهدمون كل ما يلقيه. لأن إيمانهم يفيدهم النور الكاشف عن مكره، والتوكل على اللّه يفيدهم التقوية باللّه، فيمنع من معاندة الشيطان وقوة تأثيره. و(الرجيم) من أوصاف الشيطان الغالبة. أي الملعون المرجوم باللعنة أو المطرود أو المرجوم بالكواكب. والضمير في (بِهِ) لربهم والباء للتعدية. أو للشيطان والباء للسببية أي بسببه وغروره ووسوسته. ورجح باتحاد الضمائر فيه. وأشار بعضهم إلى أن المعنى أشركوه في عبادة اللّه تعالى، وكله مما يحتمله اللفظ الكريم ويصح إرادته.

تنبيه:

في الآية مشروعية الاستعاذة قبل القراءة، وهو شامل لحالة الصلاة وغيرها. وقال قوم بوجوبها لظاهر الأمر. وسرها في غيره ﷺ التحصن به تعالى أن لا يلبس الشيطان القراءة وأن لا يمنع من التدبر والتذكر.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

﴿وإذَا بَدَّلْنا آيةً مَكَانَ آيةٍ وَاللّهُ أعْلَمُ بما يُنزلُ قالوا إنما أنتَ مُفْتَرٍ، بَلْ أكثَرُهُمْ لاَ يعْلَمُونَ، قلْ نَزّلَهُ رُوحُ القُدُسِ من ربّكَ بالحقّ ليُثَبّتَ الّذينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرى للمُسْلمينَ﴾.

التبديل رفع الشيء مع وضع غيره مكانه، فتبديل الآية رفعها بآية أخرى. والأكثرون على أن المعنى نسخ آية من القرآن لفظاً أو حكماً بآية أخرى غيرها، لحكمة باهرة أشير إليها بقوله: **﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾** من ناسخ قضت الحكمة أن يتبدل المنسوخ الأول به. وذهب قوم إلى أن المعنى تبديل آية من آيات الأنبياء

المتقدمين. كآية موسى وعيسى وغيرهما من الآيات الكونية الآفاقية، بآية أخرى نفسية علمية، وهي كون المنزل هدى ورحمة وبشارة يدركها العقل إذا تنبه لها وجرى على نظامه الفطري. وذلك لاستعداد الإنسان وقتئذ، لأن يخاطب عقله ويستصرخ فمه ولبه. فلم يؤت من قبل الخوارق الكونية ويدهش بها كما كان لمن سلف. فبدلت تلك بآية هو كتاب العلم والهدى من نبي أُمّيّ لم يقرأ ولم يكتب. وكون الكتاب بيّن الصدق قاطع البرهان ناصع البيان بالنسبة لمن أوتي ورزق الفهم. وهذا التأويل الثاني يرجحه على الأول، أن السورة مكية. وليس في المكي منسوخ بالمعنى الذي يريدونه.، وللبحث تفصيل في موضع آخر. وقد أشرنا إلى ذلك في آيتين من سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ الخ [البقرة:٢٣]، وقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ [البقرة:١٠٦]، والمقصود أنه تعالى، لما رحم العالمين وجعل القرآن مكان ما تقدم، نسبوا الموحى إليه به إلى الافتراء، ردًّا للحق، وعناداً للهدى، وتولياً للشيطان، وتعبّداً لوسوسته، وما ذاك إلا لجهلهم المتناهي، كما قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ واعتراض قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ لتوبيخ الكفرة والتنبيه على فساد رأيهم.

ثم أمره تعالى بأن يصدع بالحق في شأنه بقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ﴾ أي القرآن المدلول عليه بالآية ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ يعني جبريل عليه السلام. أضيف إلى القدس وهو الطهر. كما يقال (حاتم الجود وزيد الخير وخبر السوء ورجل صدق) والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد وزيد الخيّر والخبر السيءِ والرجل الصادق. وإنما أضافوا الموصوف إلى مصدر الصفة للمبالغة في كثرة ملابسته له واختصاصه به. والمقدس المطهر من الأدناس البشرية وإضافة (الرب) إلى ضميره صلوات الله عليه في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ للدلالة على تحقيق إفاضة آثار الربوبية. وقوله ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي متلبساً بالحق الثابت الموافق للحكمة التي اقتضاها دور عصره، وقوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي على الحق ونبذ وساوس الشياطين. وفي قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ تعريض بحصول أضداد هذه الصفات لغيرهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، لِسَانُ الَّذي يُلْحدُونَ إليهِ أعْجَميٌّ وَهذا لِسَانٌ عربيٌّ مُبينٌ﴾.

يخبر تعالى عن المشركين في قولهم غير ما نقل عنهم قبل من المقالة الشنعاء، وكذبهم وبهتهم أن الرسول إنما يعلمه هذا الذي يتلوه من القرآن، بشر. يعنون رجلاً أعجمياً كان بين أظهرهم يقرأ في الكتب المتقدمة. ربما يتحدث معه النبيّ ﷺ أحياناً. وإنما لم يصرح باسمه للإيذن بأن مدار خطئهم ليس بنسبته صلوات الله عليه إلى التعلم من شخص معين بل من البشر، كائناً من كان. ثم أشار تعالى وضوح بطلان بهتهم، بأن لسان الرجل الذي ينسبون إليه التعليم أعجمي غير بيّن. وهذا القرآن الكريم لسان عربي مبينَ. ذو بيان وفصاحة. ومن أين للأعجمي أن يذوق بلاغة هذا التنزيل، وما حواه من العلوم، فضلاً أن ينطق به، فضلاً أن يكون معلماً له! وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿إنَّ الَّذينَ لاَ يُؤْمِنونَ بآياتِ اللّه لاَ يَهْديهمُ اللّهُ ولَهُمْ عذابٌ أليم﴾ تهديد لهم على كفرهم بالقرآن، بعد ما أماط شبهتهم وردّ طعنهم فيه. وقوله تعالى: ﴿إنَّما يَفْتَري الْكَذبَ الَّذينَ لا يُؤْمنُونَ بآيات اللّه﴾ ردّ لقولهم إنما أنت مفتر. وقلب للأمر عليهم، ببيان أنهم هم المفترون لا هُوَ. يعني إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن، لأنه لا يخاف عقاباً يردعه عنه، وقوله تعالى: ﴿وأُولَئكَ هُمُ الْكَاذبُونَ﴾ إشارة إلى الذين لا يؤمنون، ويدخل فيهم قريش دخولاً أولياً. أي الكاذبون في الحقيقة ونفس الأمر. أو الكاملون فيه. لأنه لا كذب أعظم من تكذيب آياته تعالى، والطعن فيها بأمثال هاتيك الأباطيل. ولا يخفى ما في الحصر، بعد القصر، من العناية بمقامه صلوات اللّه عليه. وقد كان أصدق الناس وأبرّهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً. معروفاً بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يُدْعى بينهم إلا بـ (الأمين محمد). ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم[1] أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها، من صفة رسول اللّه ﷺ، كان فيما قال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس، ويذهب فيكذب على اللّه تعالى.

---

(١) أخرجه البخاريّ في: بدء الوحي، ٦ – حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، والحديث طويل ينبغي الوقوف عليه.

تنبيه:

في هذه الآية دلالة قوية على أن الكذب من أكبر الكبائر وأفحش الفواحش. والدليل عليه أن كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر. والمعنى أن الكذب والفرية لا يقدم عليهما إلا من كان غير مؤمن بآيات الله، وإلا من كان كافراً. وهذا تهديد في النهاية.

وروي[١] أن النبي ﷺ قيل له: هل يكذب المؤمن؟ قال: لا. ثم قرأ هذه الآية أفاده الرازي. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

﴿مَن كفرَ بالله من بَعْدِ إيمانه إلاَ مَنْ أُكْرِهَ وقَلْبُهُ مُطْمَئنٌّ بالإيمان ولَكنَ مَّن شَرَحَ بالْكُفْرِ صَدْراً فعلَيْهم غضَبٌ من اللهَ ولَهم عذابٌ عَظيمٌ، ذلكَ بأَنَّهُم اسْتَحَبُّوا الْحَياة الدُّنْيا علَى الآخرَة وأنَ اللهَ لا يَهْدي الْقَوْمَ الْكافرينَ، أُولئكَ الَذينَ طَبعَ اللهُ على قُلُوبهمْ وَسَمْعِهِمْ وأَبْصارِهِمْ، وأُولئكَ هُمُ الْغافلُونَ، لاَ جرَمَ أَنَّهُمْ في الآخرة هُمُ الْخاسرُونَ﴾.

لما بيّن تعالى فضل من آمن وصبر على أذى المشركين، في المحاماة عن الدين، تأثره ببيان ما للردة وإيثار الضلال على الهدى، من الوعد الشديد، بهذه الآيات. واستثنى المكره المطمئن القلب بالإيمان بالله ورسوله. فإنه إذا وافق المشركين بلفظ، لإيلام قوي وإيذاء شديد وتهديد بقتل، فلا جناح عليه. إنما الجناح على من شرح بالكفر صدراً أي طاب به نفساً واعتقده، استحباباً للحياة الدنيا الفانية، أي إيثاراً لها على الآخرة الباقية، فذاك الذي له من الوعيد ما بينته الآيات الكريمة، من غضب الله عليهم أولاً. وعذابه العظيم لهم، وهو عذاب النار ثانياً.

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في: ٥٦ - ما يكره من الكلام، حديث ١٩.

وعدم هدايتهم باختيارهم الكفر ثالثاً. ورابعاً بالطبع على قلوبهم بقساوتها وكدورتها. فلم ينفتح لهم طريق الفهم، وعلى سمعهم وأبصارهم بسدّ طريق المعنى المراد من مسموعاتهم وطريق الاعتبار من مبصراتهم إلى القلب. فلم يؤثر فيهم شيء من أسباب الهداية من طريق الباطن من فيض العلم وإشراق النور. ولا من طريق الظاهر بطريق التعليم والتعلم والاعتبار من آثار الصنع. وخامساً بكونهم هم الغافلين، بالحقيقة، لعدم انتباههم بوجه من الوجوه. وامتناع تيقظهم من نوم الجهل بسبب من الأسباب. وجليٌّ، أن كل نقمة من هذه الخمس، على انفرادها، من أعظم الحواجز عن الفوز بالخيرات والسعادات. فكيف بها كلها!

قال الرازي: ومعلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا ليكون كالتاجر الذي يشتري بطاعاته سعادات الآخرة. فإذا حصلت هذه الموانع عظم خسرانه. فلهذا قال: ﴿**لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ أي الذين ضاعت دنياهم التي استنفدوا في تحصيلها وسعهم، وأتلفوا في طلبها أعمارهم، وليسوا من الآخرة في شيء إلا في وبال التحسرات.

تنبيهات:

الأول: (مَن) في قوله تعالى: ﴿**مَن كَفَرَ**﴾ موصول مبتدأ خبره ﴿**فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ**﴾ وقوله: ﴿**إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ**﴾ استثناء مقدم من حكم الغضب. وقوله ﴿**وَلَكِن مَن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً**﴾ رجوع إلى صدر الآية وحكمها، بأسلوب مبيّن لمن كفر، موضح له. بمثابة عطف البيان أو عطف التفسير. وهذا الوجه من الإعراب لم أره لأحد، ولا يظهر غيره لمن ذاق حلاوة أسلوب القرآن.

الثاني: استدل بالآية على أن المكره غير مكلف. وأن الإكراه يبيح التلفظ بكلمة الكفر، بشرط طمأنينة القلب على الإيمان. واستدل العلماء بالآية على نفي طلاق المكره وعتاقه، وكل قول أو فعل صدر منه. إلاّ ما استثنى. أفاده السيوطي في (الإكليل).

الثالث: روي عن ابن عباس: أنها نزلت في عمار بن ياسر حين عذَّبه المشركون حتى يكفر بالنبيّ ﷺ فوافقهم مكرهاً. ثم جاء معتذراً. قال ابن جرير: أخذ المشركون عماراً فعذّبوه. حتى قاربهم في بعض ما أرادوا. فشكا ذلك إلى النبيّ ﷺ فقال له: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان. قال ﷺ: إن عادوا فَعُدْ.

وقال ابن إسحاق: إن المشركين عَدَوْا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من

أصحابه. فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين. فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش. وبرمضاء مكة إذا اشتد الحرّ. يفتنونهم عن دينهم. فمنهم من يفتتن من شدة البلاء الذي يصيبه. ومنهم من يَصلُبُ لهم ويعصمه الله منهم. وكان بلال رضي الله عنه عبداً لبعض بني جُمحَ. يخرجه أمية بن خلف، إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة. ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره. ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى. فيقول (وهو في ذلك البلاء): أحدٌ. أحدٌ حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه.

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه، رضي الله عنهم، إذا حميت الظهرة يعذبونهم برمضاء مكة. فيمرّ بهم رسول الله ﷺ فيقول: صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة فاما أمه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام.

قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم. والله! إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه، حتى ما يقدر على أن يستوي جالساً من شدة الضرب الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة. حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم. حتى إن الجُعَل ليمر بهم فيقولون له: هذا الجُعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم. افتداء منهم، مما يبلغون من جَهده.

وقد ذكر ابن هشام في (السيرة) في بحث (عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة) غرائب في هذا الباب، فانظره.

قال ابن كثير: ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي، إبقاء لمهجته. ويجوز له أن يأبى. كما كان بلال رضي اللهُ عنه يأبى عليهم، وهم يفعلون به الأفاعيل، وهو يقول: أحدٌ، أحدٌ. ويقول: والله! لو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها. رضي اللهُ عنه وأرضاه. وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري، لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك.

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي، أحد الصحابة أنه أسرته الروم. فجاءوا به إلى ملكهم. فقال له: تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي. فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب، على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفه عين، ما فعلت. فقال: إذاً أقتلك.

فقال: أنت وذاك. فأمر به فصلب. وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى. ثم أمر به فانزل. ثم أمر بقْدرٍ فأُحميت. وجاء بأسير من المسلمين فالقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح وعرض عليه فأبى. فأمر به أن يلقى فيها. فرفع بالبكرة ليلقى فيها فبكى. فطمع فيه ودعاه فقال: إني إنما بكيتُ لأن نفسي إنما هي نفس واحدة. تلقى في هذا القدر الساعة. فأحببت أن يكون لي، بعدد كل شعرة في جسدي، نفي تعذب هذا العذاب في اللّهِ.

وفي بعض الروايات؛ أنه سجنه ومنعه الطعام والشراب أياماً. ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه. ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال أما هو فقد حلّ لي. ولكن لم أكن لأُشَمِّتَكَ فيّ. فقال له الملك: فقبِّل رأسي وأنا أطلقك وأطلق جميع أسارى المسلمين قال، فقبَّل رأسه. وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده. فلما رجع قال عمر بن الخطاب: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد اللهَ بن حذافة. وأنا أبدأ فقام فقبل رأسه. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

﴿ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ للذينَ هَاجرُوا من بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبرُوا إنَّ رَبّكَ من بَعْدِها لَغفُورٌ رَحيمٌ﴾

بيان للذين كانوا مستضعفينَ بمكة. مهانين في قومهم، وافقوهم على الفتنة ظاهراً، ثم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهاليهم وأموالهم ابتغاء رضوان اللّهِ وغفرانه، وجاهدوا الكافرين وصبروا على مشاقّ الجهاد. أخبر تعالى أن هؤلاء من بعدَ الفتنة المذكورة، أي إجابتهم إليها **﴿لَغفُورٌ رَحيمٌ﴾** فيغفر لهم ما فرط منهم. ويرحمهم بالجزاء الحسن.

والجارّ في قوله: **﴿للَّذينَ﴾** متعلق بالخبر على نية التقديم والتأخير، والخبر لـ(إنّ) الأولى. والثانية مكررة للتأكيد. أو للثانية وخبر الأولى مقدر، وشمل قوله **﴿هَاجَرُوا﴾**من هاجر إلى الحبشة من مكة فراراً بدينه من الفتنة. ومن هاجر بعد إلى المدينة كذلك. كما شمل قوله: **﴿جَاهدُوا﴾** في بث الحق ونشر كلمة الإيمان والدفاع عنه. أو قاتلوا في سبيل اللّهِ ولأجل هذا الاحتمال في الفعلين، قيل: الآية مدنية، وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

﴿ يوْمَ تَأْتي كُلُّ نفسٍ تُجادلُ عن نَّفْسهَا ﴾ منصوب بـ (رحيم) أو بـ (اذكر) واليوم يوم القيامة. ومعنى ﴿ تُجَادل ﴾ أي تحاجّ وتسعى في خلاصها. لايهمها إلا ذاتها وشأنها. ولايغني عنها مال ولا أب ولا ابن ولا شيءٌ مَا ﴿ وتُوفَّى كلُّ نفْسٍ مَّا عملَتْ ﴾ أي من خير وشر ﴿ وهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ في ذلك. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾

﴿ وضرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قرْيَةً كانَتْ آمنةً مُّطْمَئنَّةً يأتيها رزْقُها رغَداً من كُلِّ مكَانٍ فكَفَرتْ بأنْعُم اللَّه فأذاقَها اللَّهُ لباسَ الْجُوعِ والْخَوْف بما كَانُوا يَصْنَعون، ولقَدْ جاءَهُمْ رسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالمُونَ ﴾ اعلم أنه لما هدد الكفار بالوعيد الشديد في الآخرة، أنذرهم بنقمته في الدنيا أيضاً بالجوع والخوف. ومعنى قوله تعالى: ﴿ وضَرَبَ اللَّهُ مَثلاً قَرْيَةً ﴾ أي جعل القرية التي هذه حالها مَثَلاً لكل قوم أنعم اللَّهُ عليهم. فأبطرتهم النعمة. فكفروا وتولوا. فأنزل اللَّهُ بهم نقمته. فيدخل فيهم أهل مكة دخولاً أولياً، أو لقوم معينين، وهم أهل مكة. والقرية إما مقدرة بهذه الصفة غير معنية، إذ لا يلزم وجود المشبه به. أو معينة من قرى الأولين. وقد ضمن (ضَرَبَ) معنى (جعلَ) و(مَثَلاً) مفعول ثانٍ و(قَرْيَةً) مفعول أول.

قال أبو السعود: وتأخير (قرية) مع كونها معفولاً أول، لئلا يحول المفعول الثاني بينها وبين صفتها وما يترتب عليها. إذ التأخير عن الكل مخلّ بتجاذب أطراف النظم وتجاوبها. ولأن تأخير ما حقه التقديم مما يورث النفس ترقباً لوروده، وتشوقاً إليه. لاسيما إذا كان في المقدم ما يدعو إليه. فإن المثل مما يدعو إلى المحافظة على تفاصيل أحوال ما هو مثل. فيتمكن المؤخر عند وروده لديها فضل تمكن. والمراد بالقرية أهلها مجازاً، أو بتقدير مضاف. ومعنى كونها ﴿آمنةً مُّطْمَئنَّةً ﴾ أنه لايزعجها

خوف. و(الرغد) الواسع. و(الأنعم) جمع نعمة.

وفي قوله تعالى: ﴿ **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ** ﴾ شبه أثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم، باللباس الغاشي للابس. فاستعير له اسمه، وأوقع عليه الإذاقة المستعارة، لمطلق الإيصال، المنبئة عن شدة الإصابة، بما فيها من اجتماع إدراكي اللامسة والذائقة، على نهج التجريد. فإنها لشيوع استعمالها في ذلك، وكثرة جريانها على الألسنة جرت مجرى الحقيقة.

قال ابن كثير: هذا مثل أريد به أهل مكة. فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة، يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف. كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِن نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِن أَرْضِنا، أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَهُمْ حَرَماً آمناً يُجْبَى إِلَيْه ثَمَراتُ كُلِّ شَيءٍ رِزْقاً من لَدُنَّا ﴾ [القصص: ٥٧]، وهكذا قال ها هنا و﴿ **يأتيها رزقُها رَغداً** ﴾ أي هنيئاً سهلاً ﴿ **من كُلِّ مكانٍ فَكَفَرتْ بأنعمِ الله** ﴾ أي جحدت آلاء الله عليها، وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم. كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ الَّذينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ الله كُفْراً وَأَحَلُّوا قومَهُمْ دَارَ البَوارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وبئسَ الْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم: ٢٨ - ٢٩]، ولهذا بدلهم اللهُ بحاليهم الأولين خلافهما فقال: ﴿ **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ والْخَوف** ﴾ أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها من كل مكان. وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ، وأبوا إلا خلافه. فدعا[1] عليهم بسبعٍ كسبع يوسف. فأصابتهم سنة أذهبت كل شيءٍ لهم. فأكلوا العلهز: (هو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحر) وقوله ﴿ **والْخَوْف** ﴾ وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول اللهَ ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة، من سطوته وسراياه وجيوشه. وجعل كل ما لهم في دمار وسفال. حتى فتحها اللهُ عليهم. وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه اللهُ فيهم منهم. وامتن به عليهم في قوله: ﴿ لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى الْمُؤْمِنينَ إِذْ بَعَثَ فيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِهِمْ.. ﴾ [آل عمران: ١٦٤] الآية. وقوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الأَلْبابِ الَّذينَ آمَنُوا، قدْ أنزلَ اللهُ إِلَيكُمْ ذِكْراً. رَسُولاً ﴾ [الطلاق: ١٠]، وقوله: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنا فيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكمُ الْكِتابَ والْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ١٥١]، إلى قوله: ﴿ وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾ وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، بدّل اللهُ المؤمنين من بعد خوفهم أمناً، ورزقهم بعد العيلة. وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم. انتهى.

---

(١) أخرجه البخاريّ، تعليقاً، في: الدعوات، ٥٨ - باب الدعاء على المشركين، عن ابن مسعود.

ثم بين تعالى ضلال المشركين في تحريم ما أحل اللّهُ من البحائر والسوائب وغيرها، مفصلاً ما حرمه مما ليس فيه كانوا يحرمونه بأهوائهم. وهو مأذون بأكله، كما قال:

القول في تأويل قوله تعالى:

فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾

﴿ **فكُلُوا ممَّا رزَقَكُمُ اللّهُ** ﴾ أي من الحرث والأنعام ﴿ **حلالاً طَيِّباً واشْكُرُوا نعْمةَ اللّهِ إنّ كُنتُمْ إيَّاهُ تعْبُدُونَ** ﴾ أي تريدون عبادته فاستحلوها، فإن عبادته في تحليلها. واشكروه فإنه المنعم المتفضل بذلك وحده.

ثم ذكر ما حرمه عليهم، مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾

﴿ **إنَّما حرَّمَ علَيْكُمُ المَيْتَةَ والدَّمَ ولَحمَ الْخنزيرِ وَمَا أُهِلَّ لغَيْرِ اللّه به** ﴾ أي ذبح على اسم غيره تعالى: ﴿ **فمنِ اضْطُرَّ** ﴾ أي أجهد إلى ما حرم اللّهُ ﴿ **غَيْرَ باغٍ ولاَ عادٍ** ﴾ أي متعدّ قدر الضرورة وسد الرمق ﴿ **فإنّ اللّهَ غفورٌ رَّحيمٌ** ﴾ أي فلاَ يُؤَاخذُهُ بذلكَ.

وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية. فاغنى إعادته.

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم. في البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وغيرها، مما كان شرعاً لهم ابتدعوه في جاهليتهم، فقال:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

﴿ولاَ تقُولُوا لِمَا تَصفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذبَ هذا حَلالٌ وَهَذا حَرامٌ لِتفْترُواْ عَلَى اللّه

الْكَذِبَ، إنَّ الَّذين يَفْتَرُون عَلى اللّهِ الْكَذبَ لاَ يُفْلِحُونَ، مَتَاعٌ قليلٌ وَلَهُمْ عذابٌ أَليمٌ﴾ أي لا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم، بالحل والحرمة في قولكم ﴿ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا﴾ من غير استناد ذلك الوصف إلى وحي من اللهِ. فـ (الكذب) مفعول (تقولوا) وقوله: ﴿**هَذَا حَلالٌ وَهذَا حَرامٌ**﴾ بدل من (الكذب) واللام صلة للقول. كما يقال: لا تقل للنبيذ إنه حلال، أي في شأنه وحقه. فهي للاختصاص. وفيه إشارة إلى أنه مجرد قول باللسان، لا حكم مصمم عليه. أو ﴿**هَذا حَلال**﴾ مفعول (تقولوا) و(الكذب) مفعول (تصف) واللام في ﴿**لِمَا تَصِفُ**﴾ تعليلية و(ما) مصدرية. ومعنى تصف تذكر. وقوله: ﴿**لِتَفْتَرُوا** ﴾ بدل من التعليل الأول. أي لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لأجل وصف ألسنتكم الكذب، أي لأجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجة. وليس بتكرار مع قوله: ﴿**لَتَفْتَرُوا عَلَى اللّه الْكَذبَ**﴾ لأن هذا لإثبات الكذب مطلقاً، وذلك لإثبات الكذب على اللّه. فهو إشارة إلى أنهم، لتمرنهم على الكذب، اجترؤوا على الكذب على اللّهِ، فنسبوا ماحللوه وحرموه إليه. وعلى هذا الوجه - كون الكذب مفعول (تصف) - ففي وصف ألسنتهم الكذب مبالغة في وصف كلامهم بالكذب، لجعله عين الكذب. ترقى عنها إلى أن خيل أن ماهية الكذب كانت مجهولة، حتى كشف كلامهم عن ماهية الكذب وأوضحها، فـ (تصف) بمعنى توضح. فهو بمنزلة الحد والتعريف الكاشف عن ماهية الكذب. فالتعريف في الكَذِبِ للجنس. كأنَّ ألسنتهم إذا نطقت كشفت عن حقيقته وعليه قول المعرّي:

سَرَى برقُ المَعَرَّةِ بَعْدَ وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الكلاَلاَ

ونحوه (نهاره صائم) إذا وصف اليوم بما يوصف به الشخص، لكثرة وقوع ذلك الفعل فيه. و(وجهها يصف الجمال) لأن وجهها لما كان موصوفاً بالجمال الفائق، صار كأنه حقيقة الجمال ومنبعه، الذي يعرف منه. حتى كأنه يصفه ويعرّفه، كقوله:

أضحتْ يمينُكَ من جودٍ مصوّرةً لا بل يمينك منها صُوِّرَ الجودُ

فهو من الإسناد المجازيّ. أو نقول: إن وجهها يصف الجمال بلسان الحال. فهو استعارة مكنية. كأنه يقول: ما بي هو الجمال بعينه. ومثله ورد في كلام العرب والعجم. هذا زبدة ما في (شروح الكشاف).

وما في الآية أبلغ من المثال المذكور، لما سمعت. أفاده في (العناية). واللام في ﴿لِّتَفْتَرُواْ﴾ لام الصيرورة والعاقبة المستعارة من التعليلية. إذ ما صدر منهم ليس لأجل هذا، بل لأغراض أخر يترتب عليها ما ذكر. وجوز كونها تعليلية، وقصدهم لذلك غير بعيد. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ الآية. وعيد شديد بعدم ظفرهم وفوزهم بمطلوب يعتد به لا في الدنيا ولا في الآخرة. أما في الدنيا، فلأن ما يفترون لأجله متاع قليل ينقطع عن قريب. وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤].

تنبيه:

قال الحافظ ابن كثير: يدخل في الآية كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعيٌّ أو حلل شيئاً مما حرم اللّهُ. أو حرّم شيئاً مما أباح اللّهُ، بمجرد رأيه وتشهيّه.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي نضرة قال: قرأت هذه الآية في سورة النحل. فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا.

قال في (فتح البيان): صدق رحمه اللّهُ. فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى بخلاف ما في كتاب اللّه، أو في سنة رسول اللّه ﷺ. كما يقع كثيراً من المُؤْثرين للرأي المقدّمين له على الرواية. أو الجاهلين بعلم الكتاب والسنة.

وأخرج الطبرانيّ عن ابن مسعود قال: عسى رجل يقول: إن اللّه أمر بكذا أو نهى عن كذا. فيقول اللّهُ عزّ وجلّ: كذبت. أو يقول: إن اللّه حرم كذا أو أحلّ كذا: فيقول اللّه له: كذبت.

قال ابن العربي: كره مالك وقوم أن يقول المفتي: هذا حلال وهذا حرام في المسائل الاجتهادية. وإنما يقال ذلك فيما نص اللّهُ عليه. ويقال في المسائل الاجتهادية: إني أكره كذا وكذا، ونحو ذلك.

ولما ذكر تعالى ما حرمه علينا من الميتة والدم الخ، بيّن ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم مما ليس فيه أيضاً شيء مما حرمه المشركون، تحقيقاً لافترائهم بأن ما حظروه لا سند له في شريعة سابقة ولا لاحقة، فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ يعني اليهود ﴿حَرَّمْنَا ما قَصَصْنا عليكَ من قبْلُ﴾ أي في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَعلَى الَّذين هَادُوا حَرَّمنا كُلَّ ذي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ والْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ [الأنعام:١٤٦] الآية، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي فيما حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ ﴿ولَكن كَانُوا أَنفسَهُمْ يَظْلمُونَ﴾ أي فاستحقوا ذلك. كقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذينَ هَادُوا حَرَّمنا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وبِصَدِّهِمْ عن سَبيلِ اللّه كَثيراً﴾ [النساء:١٦٠]، وقد سلف لنا ما ذكروه في تفسيرها مما يجيء هنا، فتذكر. قالوا: في الآية تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم. فإن هذه الأمة لم يحرم عليها إلاَّ ما فيه مضرة لها. وغيرهم قد يحرم عليهم ما لا ضرر فيه، عقوبة لهم بالمنع، كاليهود. ثم بين تعالى عظيم فضله في قبول توبة من تاب من العصاة بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ للَّذينَ عَملُوا السوءَ بجَهَالَة ثُمَّ تَابُواْ من بَعْد ذَلكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي العمل فيما بينهم وبين ربهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ من بَعْدهَا﴾ أي التوبَة ﴿لَغفُورٌ رَّحيمٌ﴾ ثم نوه تعالى بإبراهيم عليه الصلاة والسلام، دعاءً لهم إلى سلوك طريقته في التوحيد، ورفض الوثنية، وتبرئة لمقامه، مما كانوا يفترون عليه، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾

﴿إِنَّ إِبرَاهيمَ كَانَ أمَّةً﴾ أي إماماً يقتدى به، كقوله تعالى: ﴿إِنّي جَاعلُكَ للنَّاسِ إماماً﴾ [البقرة:١٢٤]، أو كان وحده أمةً من الأمم، لاستجماعه كمالاتٍ لا توجد في غيره ﴿قانتاً للّه﴾ أي خاشعاً مطيعاً له، قائماً بما أمره ﴿حنيفاً﴾ أي مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق ﴿ولَمْ يَكُ من المُشْرِكينَ. شَاكراً لأَنْعُمه﴾ أي قائماً بشكر نعم اللّه عليه، مستعملاً لها على الوجه الذي ينبغي، كقوله تعالى: ﴿وَإِبْراهيمَ الَّذي وَفَّى﴾ [النجم:٣٧]، أي قام بجميع ما أمره اللّه تعالى به ﴿اجْتَبَاهُ﴾ أي اختاره واصطفاهُ للنبوّة ﴿وَهَدَاهُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ وهو عبادة اللّه وحده لا شريك له، على شرع مرضي.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

﴿ وآتيناه في الدُّنْيا حَسَنَةً ﴾ أي من الذكر الجميل. كما قال: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ [مريم:٥٠]، ومن الصلاة والسلام عليه، كما قال: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الصافات:١٠٨-١٠٩]، ومن تمتيعه بالحظوظ ليتقوى على القيام بحقوق العبودية ﴿ وإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ ﴾ أي في عالم الأرواح ﴿ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي المتمكنين في مقام الاستقامة، بإيفاء كل ذي حق حقه، الذين لهم الدرجات العليا في الجنة.

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي بعد هذه الكرامات والحسنات التي أعطيناهُ إياها في الدارين، شرفناه وكرمناه بأمرنا، باتباعك إياه في التوحيد وأصول الدين التي لا تتغير في الشرائع. كأمر المبدأ والمعاد والحشر والجزاء وأمثالها. لا في فروع الشريعة وأوضاعها وأحكامها. فإنها تتغير بحسب المصالح واختلاف الأزمنة والطبائع، وما عليه أحوال الناس من العادات والخلائق. قاله القاشانيّ.

وفي (الإكليل) استدل أصحابنا بهذه الآية على وجوب الختان، وما كان من شرعه، ولم يرد به ناسخ.

لطيفة:

قال الزمخشري: في ﴿ ثُمَّ ﴾ هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ، وإجلال محله، والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم ﷺ من الكرامة، وأجلّ ما أولي من النعمة، اتباع رسول الله ﷺ ملته، من قِبَلِ أنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة، من بين سائر النعوت التي أثنى اللهُ عليه بها.

قال الناصر: وإنما تفيد ذلك ﴿ ثم ﴾ لأنها في أصل وضعها لتراخي المعطوف عليه في الزمان. ثم استعملت في تراخيه عنه في علوّ المرتبة، بحيث يكون المعطوف على رتبته وأشمخ محلاً مما عطف عليه. فكأنه بعد أن عدَّد مناقب الخليل عليه السلام، قال تعالى: وههنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً، وأرفع رتبة، وأبعد رفعة، وهو أن النبيّ ﷺ الأميّ، الذي هو سيد البشر، متبع لملة إبراهيم، مأمور باتباعه بالوحي، متلواً أمره بذلك في القرآن العظيم. ففي ذلك تعظيم لهما جميعاً. لكن نصيب النبيّ ﷺ من هذا التعظيم أوفر وأكبر. على ما مهدناه. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

﴿**إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ**﴾ يعني اليهود، فرض عليهم تقديسه وإراحة أنفسهم ودوابهّم فيه من الأعمال. فاعتدوا فيه واحتالوا لحلّه.

قال القاشاني: أي ما فرض عليك، إنما فرض عليهم. فلا يلزمك اتباع موسى في ذلك، بل اتباع إبراهيم، وقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ أي بالمجازاة على اختلافهم، يعني إفسادهم وزيغهم عن طريق الحق. ثم بين تعالى أدب الدعوة إلى دينه الحق، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ**﴾ أي بالمقالة المحكمة الصحيحة. وهو الدليل الموضح للحق، المزيح للشبهة ﴿**وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾ أي العبر اللطيفة والوقائع المخيفة، ليحذروا بأسه تعالى ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ أي جادل معانديهم بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة، من الرفق واللين وحسن الخطاب، من غير عنف. فإن ذلك أبلغ في تسكين لهبهم. وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ أي عليك البلاغ والدعوة بالصفة المبينة فلا تذهَبْ نفسك، على مَنْ ضَلَّ منهم، حسرات، فإنه ليس عليك هُدَاهُمْ. لأنه هو أعلم بمن يبقى على الضلال وبمن يهتدي إليه. فيجازي كلاً منهما بما يستحقه. أو المعنى: اسلك في الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة. فإن اللّه تعالى هو أعلم بحال من لا يرعوي عن الضلال بموجب استعداده المكتسب. وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما فيه من خير جبلّي. فما شرعه لك في الدعوة، هو الذي تقتضيه الحكمة. فإنه كاف في هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين. أفاده أبو السعود.

تنبيه:

دلّ قوله تعالى: ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ على الحث على الإنصاف في

المناظرة، واتباع الحق، والرفق والمداراة، على وجه يظهر منه أن القصد إثبات الحق وإزهاق الباطل، وأن لا غرض سواه.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾

﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصّابرينَ** ﴾ أي الزموا سيرة العدالة، لا تجاوزوها. فإنها أقل درجات كمالكم. فإن كان لكم قدم في الفتوة، وعرق راسخ في الفضل والكرم والمروءة، فاتركوا الانتصار والانتقام ممن جنى عليكم، وعارضوه بالعفو مع القدرة،واصبروا على الجناية، فإنه ﴿ **لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابِرين** ﴾ ألا تراه كيف أكده بالقسم واللام في جوابه، وترك المضمر إلى المظهر حيث ما قال: (لَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) بل قال: ﴿ **لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابرينَ** ﴾ للتسجيل عليهم بالمدح والتعظيم بصفة الصبر. فإن الصابر ترقى عن مقام النفس وقابل فعل نفس صاحبه بصفة القلب. فلم يتكدر بظهور صفة النفس. وعارض ظلمة نفس صاحبه بنور قلبه. فكثيراً ما يندم ويتجاوز عن مقام النفس. وتنكسر سورة غضبه فيصلح. وإن لم يكن لكم هذا المقام الشريف، فلا تعاقبوا المسيء بسورة الغضب، بأكثر مما جنى عليكم، فتظلموا، أو تتورطوا بأقبح الرذائل وأفحشها. فيفسد حالكم ويزيد وبالكم على وبال الجاني. أفاده القاشانيّ.

تنبيهات:

الأول: في (الإكليل): قال ابن العربيّ: في الآية جواز المماثلة في القصاص. خلافاً لمن قال: لا قود إلا بالسيف. ويستدل بها لمسألة الظفر. كما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن سيرين والنخعيّ؛ أنهما استدلا بها عليها. ولفظ النخعيّ: سئل عن الرجل يخون الرجل ثم يقع له في يده الدراهم؟ قال: إن شاء ذهب من دراهمه بمثل ما خانه. ثم قرأ هذه الآية. ولفظ ابن سيرين: إن أخذ منكم رجل شيئاً، فخذوا مثله.

قال ابن كثير: وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم، واختاره ابن جرير. فعمومها يشمل العدل في القصاص والمماثلة في استيفاء الحق.

الثاني: قال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة النحل كلها بمكة. وهي مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد

أُحد، حين قتل حمزة رضي اللّهُ عنه ومُثِّل به. فقال رسول اللّه ﷺ: لئن أظهرني اللّهُ عليهم لأمثلنَّ بثلاثين رجلاً منهم. فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: واللّه! لئن أظهرنا اللّهُ عليهم لنمثلنَّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط. فانزل اللّه الآية هذه، إلى آخر السورة.

قال الحافظ ابن كثير: هذا مرسل وفيه مبهم لم يسمّ. ورواه الحافظ البزار من وجه آخر موصولاً عن أبي هريرة رضي اللّهُ عنه؛ أن رسول اللّه ﷺ وقف على حمزة ابن عبد المطلب رضي اللّهُ عنه، حين استشهد. فنظر إلى منظرٍ لم ينظر أوجع للقلب منه. وقد مُثِّلَ به. فقال: رحمة اللّه عليك. إن كنتَ لما علمتُ، لوصولاً للرحم فعولاً للخيرات. واللّهُ لولا حزنٌ من بعدكَ عليك، لسرّني أن أتركك حتى يحشرك اللّهُ من بطون السباع (أو كلمة نحوها). أما واللّه! على ذلك لأمثلنّ بسبعين كمثلتك. فنزلت هذه الآية. فكفّر رسول اللّهَ ﷺ يعني عن يمينه، وأمسك عن ذلك.

قال ابن كثير: وهذا إسناد فيه ضعف. لأن صالحاً (أحد رواته) هو ابن بشير المريّ، ضعيف عند الأئمة. وقال البخاريّ: هو منكر الحديث. وروى عبد اللّه ابن الإمام أحمد في مسند أبيه عن أبي بن كعب، قال: لما كان يوم أُحُد قتل من الأنصار ستون رجلاً ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول اللّه ﷺ: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنمثلن بهم. فلما كان يوم الفتح قال رجل: لا تعرف قريش بعد اليوم. فنادى أن رسول اللّه ﷺ قد أمَّن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً – ناساً سمّاهم – فنزلت الآية. فقال رسول اللّه ﷺ: نصبر ولا نعاقب.

أقول: بمعرفة ما قدمنا من معنى سبب النزول – في مقدمة التفسير– يعلمْ أن لا حاجة إلى الذهاب إلى أنها مدنية الحقت بالسورة– ولا إلى ما روي من هذه الآثار. إذ به يتضح عدم التنافي. والتقاء الآثار مع الآية فتذكرْه.

الثالث: قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن. فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل كما في قوله تعالى ﴿وَجَزَآؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. ثم قال ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] الآية. وقال ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] ثم قال ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥] انتهى.

ثم أكّد تعالى الأمر بالصبر، ليقوي الثبات والاحتمال، لكل ما يلاقيه في سبيل الحق، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ** ﴾ أي بمعونته وتوفيقه ﴿ **وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي على الكافرين، أي على كفرهم وعدم هدايتهم ﴿ **وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ** ﴾ أي في ضيق صدر مما يمكرون من فنون المكايد ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾. تعليل لما قبله. أي فإنه تعالى كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك بهم. لأنه تعالى مع المتقين والمحسنين بالمعونة والنصر والتأييد، فيحفظهم ويكلؤهم ويظهرهم على أعدائهم. قال ابن كثير: هذه معية خاصة كقوله تعالى﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ [الأنفال: ١٢]. وقوله لموسى وهارون ﴿ لاَ تَخَافَا، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه :٤٦]. وأما المعية العامة فالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤]. وقوله ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ﴾ [المجادلة: ٧].

قال أبو السعود: تكرير الموصول للإيذان بكفاية كل من الصلتين في ولايته سبحانه، من غير أن تكون إحداهما تتمة للأخرى. وإيراد الأولى فعلية للدلالة على الحدوث. كما أن إيراد الثانية اسمية لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة فيهم. وتقديم التقوى على الإحسان لما أن التخلية متقدمة على التحلية. والمراد بالموصولين إما جنس المتقين والمحسنين، وهو ﷺ داخل في زمرتهم دخولاً أولياً. وإما هو ﷺ ومن شايعه. عبَّر عنهم بذلك، مدحاً لهم وثناء عليهم بالنعتين الجميلين. وفيه رمز إلى أن صنيعه ﷺ مستتبع لاقتداء الأمة به، كقول من قال لابن عباس رضي عنهما ، عند التعزية بأبيه العباس:

اصبر نكُن بك صَابرينَ فَإنَّما صبرُ الرَّعية عندَ صَبْرِ الرَّاسِ

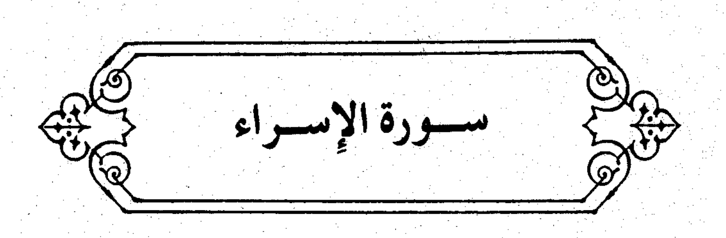
وبعد هذا البيت:

خيرٌ من العباس أجرُكَ بَعْدَهُ واللَّهُ خيرٌ مِنْكَ للعبَّاسِ

قال ابن عباس : ما عزّاني أحد من تعزيته.

وعن هَرِم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار: أوص. قال : إنما الوصية من المال، فلا مال لي. وأوصيكم بخواتيم سورة النحل...

بسم الله الرحمن الرحيم



وتسمى سورة بني إسرائيل وسورة سبحان، ولم يحك خلاف في كونها مكية. نعم استثنى بعضهم منها: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وآية ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء:٧٣]، إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾، وآية ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ﴾ الآية [الإسراء: ٨٨]، وقوله ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا..﴾ الآية [الإسراء: ٦٠]، وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ [الإسراء: ١٠٧]. لما ذكروه في أسباب نزولها. ويأتي البحث في ذلك إن شاء الله تعالى، وآياتها مائة وإحدى عشرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِه لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي باركْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

يمجد تعالى نفسه بقوله ﴿ سُبْحَانَ ﴾ وينزه ذاته العلية عما لا يليق بجلاله، ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدرعليه أحد سواه فلا إله غيره. وقوله تعالى﴿ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أي سيرّه منه ليلاً. و(أسرى) بمعنى (سرى) يقال: أسراه وأسرى به وسرى به. فهمزة (أسرى) ليست للتعدية. ولذا عدي بالباء. وفرق بعضهم بين أسرى وسرى بالمبالغة في (أسرى) لإفادة السرعة في السير ولذا أوثر على (سرى).

والإسراء سير الليل كله، كأسرى ،فقوله تعالى﴿ لَيْلاً ﴾ للتأكيد أو للتجريد عن بعض القيود. مثل: أسعفت مرامه. مع أن الإسعاف قضاء الحاجة. أو للتنبيه على أنه المقصود بالذكر. وقد استظهره الناصر في (الانتصاف) قال: ونظيره في إفراد أحد ما دل عليه اللفظ المتقدم مضموناً لغيره، قوله تعالى: ﴿ لاتَتَّخِذُواْ إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [النحل: ٥١]. فالاسم الحامل للتثنية دال عليها وعلى الجنسية، وكذلك المفرد. فأريد التنبيه على أن أحد المعنيين، وهو التثنية، مراد مقصود ، وكذلك أريد الإيقاظ، لأن الوحدانية هي المقصودة في قوله ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ ولو اقتصر على قوله ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ ﴾ لأوهم أن المهم إثبات الإلهية له. والغرض من الكلام ليس إلا إثبات الوحدانية.

وقيل سرّ قوله ﴿ لَيْلاً ﴾ إفادة تقليل الوقت الذي كان الإسراء والرجوع فيه. أي أنه كان في بعض الليل أخذاً من تنكيره. فقد نقل عن سيبويه أن الليل والنهار إذا

عُرْفا كانا معياراً للتعميم، فلا تقول أرقت الليل، وأنت تريد ساعة منه، إلا أن تقصد المبالغة. بخلاف المنكر فإنه لا يفيد ذلك. فلما عدل عن تعريفه هنا، علم أنه لم يقصد استغراق السرى، وهذا هو المراد من البعضية. وجوز بعضهم أن يكون (أسرى) من (السراة) وهي الأرض الواسعة. وأصله من الواو. أسرى مثل أجبل وأتهم، أي ذهب به في سراة من الأرض، وهو غريب. وفي تخصيص الليل إعلام بفضله لأنه وقت السر والنجوى والتجلي الأسمى، ولذلك كان أكثر عبادته ﷺ بالليل. والمراد (بعبده) خاتم أنبيائه محمد ﷺ. وفي ذكره بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به عزّ وجلّ وانقياده لأوامره - ما لا يخفى.

والعبد، لغةً، الإنسان مطلقاً والمملوك والعبودية الذل والخضوع والرق والطاعة، كالعبادة والعبودة.

قال ابن القيم في (طريق الهجرتين) : أكمل الخلق أكملهم عبودية. وأعظمهم شهوداً. لفقْره وضرورته وحاجته إلى ربه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين. ولهذا كان من دعائه ﷺ: أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك.

ثم قال: ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة، وأعظمهم عنده جاهاً، وأرفعهم عنده منزلة لتكميله مقام العبودية والفقر. وكان يقول: أيها الناس! ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي. إنما أنا عبد. وكان يقول[1]: لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم. إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله. وذكره سبحانه بسمة العبودية في أشرف مقاماته: مقام الإسراء، ومقام الدعوة، ومقام التحدي. فقال: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً** ﴾ وقال: ﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ** ﴾ [الجن:١٩]. وقال ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا** ﴾ [البقرة:٢٣]. وفي حديث الشفاعة: أنَّ المسيح يقول لهم: اذهبوا إلى محمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فنال ذلك بكمال عبوديته لله، وبكمال مغفرة الله له. انتهى.

وقوله تعالى ﴿ **مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴾ يعني مسجد مكة المكرمة. سمي حراماً، كبلده، لكونه لا يحل انتهاكه بقتال فيه، ولا بصيد صيده، ولا بقطع شجره ولا كلئه. وقوله سبحانه ﴿ **إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا** ﴾ هو مسجد بيت المقدس، وكان يعرف

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الأنبياء، ٤٨ - باب ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾، حديث رقم ١٢١٤ .

بهيكل سليمان لأنه الذي بناه وشيده ﴿والأقصا﴾ بمعنى الأبعد. سمي بذلك لبعده عن مكة، وقوله تعالى ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي جوانبه ببركات الدين والدنيا. لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومهبط وحيهم ومنمى الزروع والثمار. فاكتنفته البركة الإلهية من نواحيه كلها. فبركته إذن مضاعفة، لكونه في أرض مباركة، ولكونه من أعظم مساجد الله تعالى. والمساجد بيوت الله. ولكونه متعبداَ الأنبياء ومقامهم ومهبط وحيه عليهم، فبورك فيه ببركتهم ويمنهم أيضاً.

وقيل في خصائص (الأقصا): إنه متعبد الأنبياء السابقين، ومسرى خاتم النبيين، ومعراجه إلى السماوات العلى والمشهد الأسمى. بيت نوّه الله به في الآيات المفصلة، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة. لأجله أمسك الله الشمس على يوشع أن تغرب ليتيسر فتحه على من وعدوا به ويقرب. وهو قبلة الصلاة في الملتين، وفي صدر الإسلام بعد الهجرتين. وهو أولى القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين. لا تشدّ الرحال[١] بعد المسجدين إلا إليه، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه. انتهى. ومن فضائله ما رواه الإمام أحمد[٢] والنسائي والحاكم صححه، عن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً. فأعطاه اثنتين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة.

سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه.

وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه.

وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد - يعني ببيت المقدس - خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه.

قال النبي ﷺ: ونحن نرجو أن يكون الله أعطاه ذلك.

وروي أن ابن عمر كان إذا دخله لا يشرب من مائه. تجريداً لقصد الصلاة.

وقال الشيرازيّ في (عرائس البيان) كان بداية المعراج الذهاب إلى الأقصى. لأن هناك الآيات الكبرى من أنوار تجليه تعالى لأرواح الأنبياء وأشباحهم. وهناك

---

(١) أخرجه البخاريّ في: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، ٦ - باب مسجد بيت المقدس، حديث ٣٧٩، عن أبي سعيد الخدري.
وأخرجه مسلم في: الحج، حديث رقم ٤١٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢ / ١٧٦ والحديث ٦٦٤٤.
وأخرجه النسائي في: المساجد، ٦ - باب فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه.

بقربه طورسينا وطور زيتا ومقام إبراهيم وموسى وعيسى في تلك الجبال، مواضع كشوف الحق. لذلك قال ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾. انتهى.

والالتفات في: ﴿بَارَكْنَا﴾ لتعظيم ما ذكر، لأن فعل العظيم يكون عظيماً. لاسيما إذا عبّر عنه بصيغة التعظيم. والنكتة العامة تنشيط السامعين.

وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ إشارة إلى حكمة الإسراء. أي لكي نُرِي محمداً ﷺ من آياتنا العظيمة التي من جملتها ذهابه في برهة من الليل، مسيرَةَ شهر، ومشاهدةُ بيت المقدس وتمثل الأنبياء له ووقوفه على مقاماتهم العلية.

قيل: أراد تعالى أن يريه ﷺ من الآيات الحسية بعد ما أراه الآيات العقلية. لأن الآيات الحسية أكبر في قطع الشبهة ودفع الوساوس من العقلية. إذ لا يشك أحد فيما كان سبيل معرفته الحس والعيان. وقد تعترض الشبهة والوساوس في العقليات. لأنه لا يشك أحد في نفسه أنه هو. فشاء عزّ وجلّ أن يري رسوله آيات حسية فتدفع المنصفين إلى قبولها والإيمان بها والإقرار له بالرسالة. إذ ليس ذلك عمل سحر ولا افتراء ولا أساطير الأولين، كذا يستفاد من (التأويلات) لأبي منصور.

وما أحسن ما قاله ابن إسحاق: كان في مسراه ﷺ وما ذكر منه بلاء وتمحيص وأمر من أمر اللّه في قدرته وسلطانه. فيه عبرة لأولي الألباب، وهدى ورحمة وثباتاً لمن آمن باللّه وصدق. وكان من أمر اللّه سبحانه وتعالى على يقين. فأسرى به سبحانه وتعالى كيف شاء ليريه من آياته ما أراد. حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التي يصنْع بها ما يريد. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي السميع لأقوال عباده وأفعالهم فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

تنبيهات:

الأول: دلت هذه الآية على ثبوت الإسراء، وهو سير النبيّ ﷺ إلى بيت المقدس ليلاً. وأما العروج إلى السماوات وإلى ما فوق العرش فهذه الآية لا تدل عليه ومنهم من يستدل عليه بأول سورة النجم. والكلام عليه ثمة.

الثانية: ذهب الأكثرون إلى أن الإسراء كان بعد المبعث، وأنه قبل هجرة بسنة. قاله الزهري وابن سعد وغيرهما. وبه جزم النوويّ، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه. وقال: كان في رجب سنة اثنتي عشرة من النبوة.

وفي (إنسان العيون): أن تلك الليلة كانت ليلة سبع عشرة. وقيل سبع وعشرين خلت من ربيع الأول، وقيل: ليلة تسع وعشرين خلت من رمضان، وقيل سبع وعشرين خلت من ربيع الآخر، وقيل: من رجب واختار هذا الأخير، الحافظ عبد الغنيّ المقدسي قال: وعليه عمل الناس. واللّهُ أعلم.

الثالث: في (زاد المعاد) لابن القيم: كان الإسراء مرة واحدة وقيل: مرتين، مرة يقظة ومرة مناماً. وأرباب هذا القول كأنهم أرادوا أن يجمعوا بين حديث شريك وقوله (ثم استيقظت) وبين سائر الروايات. ومنهم من قال: بل كان هذا مرتين: مرة قبل الوحي لقوله في حديث شريك (وذلك قبل أن يوحى إليه) ومرة بعد الوحي كما دلت عليه سائر الأحاديث. ومنهم من قال: بل ثلاث مرات: مرة قبل الوحي ومرتين بعده. وكل هذا خبط وهذه طريقة ضعفاء الظاهرية من أرباب النقل، الذين إذا رأوا في القصة لفظة تخالف سياق بعض الروايات، جعلوه مرة أخرى. فكلما اختلفت عليهم الروايات عددوا الوقائع. والصواب الذي عليه أئمة النقل؛ أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة.ويا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً! كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تفرض عليه الصلوات خمسين ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً، ثم يقول أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي. ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين ثم يحطها عشراً عشراً؟!.

الرابع: قال القاضي عياض، عليه الرحمة، في (الشفا): اختلف السلف والعلماء هل كان إسراء بروحه أو جسده على ثلاث مقالات: فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح، وأنه رؤيا منام. مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحي. وإلى هذا ذهب معاوية. وحكي عن الحسن (والمشهور عنه خلافه) وإليه أشار محمد بن إسحاق. وحجتهم قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ [الإسراء: ٦٠] وما حكوا عن عائشة: ما فقدت جسد رسول اللّهِ ﷺ وقوله (بينا أنا نائم). وقول أنس: (وهو نائم في المسجد الحرام) وذكر القصة. ثم قال في آخرها: (فاستيقظ وأنا بالمسجد الحرام).

وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد وفي اليقظة. وهذا هو الحق، وهذا قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبي هريرة ومالك بن صعصعة وأبي حبة البدريّ وابن مسعود والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة وابن المسيّب وابن شهاب وابن زيد والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وابن جريج. وهو دليل

قول عائشة. وهو قول الطبريّ وابن حنبل وجماعة عظيمة من المسلمين. وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين.

وقالت طائفة: كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس. وإلى السماء بالروح: واحتجوا بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ..﴾ فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء الذي وقع التعجب فيه بعظيم القدرة والتمدح بتشريف النبيّ وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه. قال هؤلاء: ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فيكون أبلغ في المدح.

ثم اختلفت هاتان الفرقتان: هل صلى ببيت المقدس أم لا؟ ففي حديث أنس وغيره صلاته فيه. وأنكر ذلك حذيفة وقال: واللّهُ! ما زالا عن ظهر البراق حتى رجعا.

ثم قال القاضي عياض: والحق في هذا والصحيح، إن شاء اللّه، أنه إسراء بالجسد والروح في القصة كلها. وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار. ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل، إلا عند الاستحالة، وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة. إذ لو كان مناماً لقال (بروح عبده) ولم يقل (بعبده) وقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:١٧]، ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة. ولما استبعده الكفار ولا كذبوه. ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به. إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر. بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته، إلى ما ذكر في الحديث، من ذكر صلاته بالأنبياء ببيت المقدس في رواية أنس (أو في السماء) على ما روى غيره، وذكر مجيء جبريل له بالبراق وخبر المعراج واستفتاح السماء فيقال: ومن معك؟ فيقول: محمد. ولقائه الأنبياء فيها وخبرهم معه وترحيبهم به وشأنه في فرض الصلاة ومراجعته مع موسى في ذلك.

وفي بعض هذه الأخبار: فأخذ، يعني جبريل. بيدي، فعرج بي إلى السماء إلى قوله: ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام. وأنه وصل إلى سدرة المنتهى، وأنه دخل الجنة ورأى فيها ما ذكره. قال ابن عباس: هي رؤيا عين رآها النبيّ ﷺ، لا رؤيا منام.

وعن الحسن فيه بَيْنَا أنا نائم في الحجر جاءني جبريل فهمزني بعقبه فقمت فجلست فلم أر شيئاً فعدت لمضجعي. ذكر ذلك ثلاثاً، فقال في الثالثة: فأخذ بعضدي فجرني إلى باب المسجد، فإذا بدابة. وذكر خبر البراق.

وعن أم هانئ: ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي تلك الليلة. صلى العشاء الآخرة ونام بيننا. فلما كان قبيل الفجر أَهَبَّنَا رسولُ اللّه ﷺ فلما صلى الصبح وصلينا قال: يا أم هانئ! لقد صليت معكم العشاء الآخرة، كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه. ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترون. وهذا بيّن في أنه بجسمه.

وعن أبي بكر (من رواية شداد بن أوس عنه) أنه قال للنبيّ ﷺ ليلة أسري به: طلبتك يا رسول اللّه البارحة في مكانك فلم أجدك. فأجابه: أن جبريل حمله الى المسجد الأقصى.

وعن عمر قال: قال رسول اللّه ﷺ: صليت ليلة أسري بي في مقدم المسجد ثم دخلت الصخرة – وهذه التصريحات ظاهرة غير مستحيلة. فتحمل على ظاهرها.

وعن أبي ذرّ رضي اللّهُ عنه. عن النبي ﷺ: فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ثم أخذ بيدي فعرج بي.

وعن أنس: أتيت فانطلقوا بي إلى زمزم. وعن أبي هريرة: لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي. فسألتني عن أشياء لم أثبتها، فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه اللّهُ لي أنظر إليه. ونحوه عن جابر.

وقد روى عمر بن الخطاب رضي اللّهُ عنه في حديث الإسراء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: ثم رجعت إلى خديجة وما تحولت عن جانبها.

ثم قال القاضي عياض (في إبطال حجج من قال إنها نوم) احتجوا بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا﴾ فسماها (رؤيا). قلنا: قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ يرده لأنه لايقال في النوم (أسرى).

وقوله ﴿فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ يؤيد أنها رؤيا عين وإسراء شخص. إذ ليس في الحلم فتنة ولا يكذب به أحد. لأن كل أحد يرى مثل ذلك في منامه من الكون في ساعة واحدة في أقطار متباينة. على أن المفسرين قد اختلفوا في هذه الآية. فذهب بعضهم إلى أنها نزلت في قصة الحديبية وما وقع في نفوس الناس من ذلك. وقيل غير هذا.

وأما قولهم: إنه قد سمّاها في الحديث مناماً، وقوله في حديث آخر: بين النائم واليقظان. وقوله أيضاً: وهو نائم. وقوله: ثم استيقظتُ – فلا حجة فيه. إذ يحتمل أن أول وصول الملك إليه كان وهو نائم. أو أول حلمه والإسراء به وهو نائم. وليس في

الحديث أنه كان نائماً في القصة كلها إلا ما يدل عليه (ثم استيقظتُ وأنا في المسجد الحرام) فلعل قوله (استيقظت) بمعنى أصبحت . أو استيقظ من نوم آخر بعد وصوله بيته . ويدل عليه أن مسراه لم يكن طول ليلة . وإنما كان في بعضه . وقد يكون قوله : (استيقظتُ وأنا في المسجد الحرام) لمَا كَانَ غَمَرَهُ من عجائب ما طالع من ملكوت السماوات والأرض، وخامر بطنه من مشاهدة الملإ الأعلى، وما رأى من آيات ربه الكبرى . فلم يستفق ويرجع إلى حال البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام . ووجه ثالث؛ أن يكون نومه واستيقاظه حقيقة على مقتضى لفظه . ولكنه أسرى بجسده وقلبه حاضر، ورؤيا الأنبياء حق . تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم .

وقد مال بعض أصحاب الإشارات إلى نحو من هذا . قال : تغميض عينيه لئلا يشغله شيء من المحسوسات عن اللّه، ولايصح هذا أن يكون في وقت صلاته بالأنبياء، ولعله كانت له في هذا الإسراء حالات .

ووجه رابع، وهوأن يعبر بالنوم ههنا عن هيئة النائم من الاضطجاع . ويقويه قوله في رواية عبد بن حميد عن همام : (بينا أنا نائم وربما قال مضطجع) وفي رواية هدبة عنه (بينا أنا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجع) . وقوله في الرواية الأخرى (بين النائم واليقظان) فيكون سمى هيئته بالنوم لما كانت هيئة النائم غالباً . وذهب بعضهم إلى أن هذه الزيادات من النوم وذكر شق البطن ودنوّ الرب، الواقعة في هذا الحديث، إنما هي من رواية شريك عن أنس . فهي منكرة من روايته . انتهى كلام عياض . وبقيت له بقية من شاء فليراجعها .

الخامس : جملة الأقوال في الإسراء والمعراج . على ما حكاه ابن القيم في (زاد المعاد)، ستة : بروحه وجسده وهو الذي صححوه . وقيل : كان ذلك مناماً . وقيل بل يقال أسري به ولا يقال يقظة ولا مناماً . وقيل كان الإسراء إلى بيت المقدس يقظة وإلى السماء مناماً، وقيل : كان الإسراء مرتين، مرة يقظة ومرة مناماً . وقيل بل أسري به ثلاث مرات . وكان ذلك بعد البعث بالاتفاق . وأما ما وقع في حديث شريك أن ذلك قبل أن يوحى إليه، فقيل هو غلط وقيل : الوحي هنا مقيد وليس بالوحي المطلق الذي هو مبدأ النبوة . والمراد قبل أن يوحى إليه في شأن الإسراء، فاسري به فجأة من غير تقدم إعلام . وقد قدمنا أن عائشة ومعاوية والحسن، نقل الأكثرون عنهم؛ أنها رؤيا منام، وكذا حكى ابن جرير عن حذيفة إلا أن ابن القيم نبه على دقيقة غريبة . قال رحمه اللّه : نقل ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية أنهما قالا : إنما كان الإسراء بروحه

ولم يفقد جسده. ونقل عن الحسن البصري نحو ذلك. ولكن ينبغي أن يعلم الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناماً، وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده. وبينهما فرق عظيم. وعائشة ومعاوية لم يقولا كان مناماً وإنما قالا: أسرى بروحه ولم يفقد جسده. وفرق بين الأمرين. فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصور المحسوسة. فيرى كأنه قد عرج به إلى السماء، أو ذهب به إلى مكة وأقطار الأرض وروحه لم تصعد ولم تذهب. وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال. والذين قالوا عرج برسول اللّه ﷺ طائفتان: طائفة قالت: عرج بروحه وبدنه. وطائفة قالت: عرج بروحه ولم يفقد بدنه. وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناماً. وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسري بها وعرج بها حقيقة. وباشرت من جنس ما تباشر بعد المفارقة في صعودها إلى السماوات سماء سماء، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فتقف بين يدي اللّه عزّ وجّل. فيأمر فيها بما يشاء ثم تنزل إلى الأرض. فالذي كان لرسول اللّه ﷺ ليلة الإسراء أكمل مما يحصل للروح عند المفارقة. ومعلوم أن هذا أمر فوق ما يراه النائم. لكن لما كان رسول اللّه ﷺ في مقام خرق العوائد حتى شق بطنه وهو حيّ لايتألم؛ كذلك عرج بذات روحه المقدسة حقيقة من غير إماتة. ومَن سواه،ﷺ، لا تنال ذات روحه الصعود إلى السماء إلا بعد الموت والمفارقة. فالأنبياء إنما استقرت أرواحهم هناك بعد مفارقة الأبدان. وروح رسول اللّه ﷺ صعدت إلى هناك في حال الحياة ثم عادت. وبعد وفاته استقرت في الرفيق الأعلى مع أرواح الأنبياء. ومع هذا فلها إشراف على البدن، وإشراق وتعلق به. بحيث يرد السلام على من سلم عليه. وبهذا التعلق رأى موسى قائماً يصلي في قبره، ورآه في السماء السادسة، ومعلوم أنه لم يعرج بموسى من قبره ثم رد إليه، وإنما ذلك مقام روحه واستقرارها، وقبره مقام بدنه واستقراره إلى يوم معاد الأرواح إلى أجسادها. فرآه يصلي في قبره ورآه في السماء السادسة. كما أنه ﷺ في أرفع مكان في الرفيق الأعلى مستقراً هناك وبدنه في ضريحه غير مفقود. وإذا سلم عليه المسلم، ردّ اللّه عليه روحه حتى يرد عليه السلام ولم يفارق الملأ الأعلى. ومن كثف إدراكه وغلظت طباعه عن إدراك هذا، فلينظر إلى الشمس في علوّ محلها وتعلقها وتأثيرها في الأرض، وحياة النبات والحيوان بها. هذا، وشأن الروح فوق هذا. فلها شأن وللأبدان شأن. وهذه النار تكون في محلها، وحرارتها تؤثر في الجسم البعيد عنها. مع أن الارتباط والتعلق الذي بين الروح والبدن أقوى وأكمل من ذلك وأتم. فشأن الروح أعلى من ذلك وألطف.

فقلْ للعيون الرُّمْدِ إياكِ أنْ ترَيْ سنا الشَّمسِ فاستغشِي ظَلامَ اللَّيَالِيَا

انتهى كلام ابن القيم.

وقال العلامة سعدي في (حواشي البيضاوي): والمعراج بروحه في اليقظة - وهو الذي أشار إليه ابن القيم - خارق أيضاً للعادة. انتهى.

وتعقب العلامة القنوي له: بأنه نوع مراقبة وانسلاخ، والذي ذهب إليه الصوفية ساقط. لأنه فوقه بكثير. بل غيره كما تبين قبل. وبالجملة، فالذي فهمه الأكثرون من قول عائشة ومعاوية وحذيفة والحسن؛ أن ذلك رؤيا منام. وما ذكره ابن القيّم من أنه إسراء بالروح - فيحتمله اللفظ المأثور عنهم.

ونظيره قول بعضهم: إن ذلك كان أمراً إعجازياً. والحقيقة أنه كشف روحانيّ. وقد قرروا في عدم استحالة كونه يقظة بالروح والجسم؛ أن خالق العالم قادر على كل الممكنات. وحصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسده ﷺ ممكن. فوجب كونه تعالى قادراً عليه. وغاية ما في الباب أنه خلاف العادة. والمعجزات كلها كذلك. وفي (العقائد النسفية وحواشيها): الخرق والالتئام على السموات جائز. لأن الأجسام كلها متماثلة في تركبها من الجواهر الفردة، فيصح على كلٍّ ما يصح على الآخر. فالأجسام العنصرية قابلة للخرق والالتئام. وكذا الأجسام الفلكية. واللَّهُ تعالى قادراً على الممكنات كلها. فيكون قادراً على الخرق في السموات، لأنه ممكن فيها. وفي الرازيّ براهين أخر. فانظرها.

جاء في كتاب (إظهار الحق) أن بعض أهل الكتاب مارَى في المعراج، فبُكّتَ بأن صعود الجسم العنصريّ إلى الأفلاك صرّحت به التوراة الموجودة لديهم في (أخنوخ). وأنه نقل حيّاً إلى السماء لئلا يرى الموت. كما في الفصل الخامس من سفر التكوين. وصرّحت في صعود (إليا) في الفصل الثاني من سفر الملوك. وفي إنجيل مرقس في الفصل السادس عشر التصريح برفع المسيح عليه السلام إلى السماء. انتهى.

أقول: أخنوخ هو إدريس عليه السلام المنوّه به في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِياً﴾ [مريم:٥٧]، وإيليا نبيٌّ أرسل إلى آحاب أحد ملوك اليهود الكفرة، الذين شهروا عبادة بعل وغيره من الأصنام بالسامرة. وتسمى الآن: سبَسطِيّة: من قسم الأرض المقدسة زعموا أنه ظهرت على يد إيليا خوارق باهرة. وأنه قتل سدنة بعل وهدم مذبحه. إلى أن ارتفع في مركبة نارية وخيل نارية نحو السماء. جانب نهر الأردن في بطاح أريحا. شاهده خليفته اليشاع النبيّ بعده. كذا في تاريخ الكتاب المقدس، و(إيليا) هو إلياس، و(اليشاع) هو اليسع المذكوران في القرآن المجيد.

وقد نوّه بالأول في سورة الصفات بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ. أَتَدْعُونَ بَعلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخَالِقِينَ، اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ..﴾ [الصافات: ١٢٣ - ١٢٦].

السادس: قيل: إن المسجد الأقصى في زمن الإسراء كان خراباً بشهادة التاريخ. وذلك لأن سليمان عليه السلام بناه على مكان الصخرة. ثم خرب وألقيت على الصخرة زبالة البلد عناداً لليهود. وبقي كذلك حتى فتح أمير المؤمنين عمر رضي اللّهُ عنه القدس. نظر (تاريخ أبي الفداء) وغيره. فكيف أطلق عليه اسم المسجد؟ وأجيب: بأن المسجد في حال هدمه يسمى مسجداً. باعتبار ما كان عليه وما وضع له. كما أطلق المسجد على حرم مكة. وهو لم يكن يومئذ مسجداً. وإنما كان بيتاً للأصنام.

لكن إبراهيم وإسماعيل، لما بنيا الكعبة للعبادة الصحيحة، كما بنى سليمان هيكله هذا لها، سمي مسجداً بهذا الاعتبار. أو يقال: إنه أطلق عليهما اسم المسجد للإشارة إلى ما يؤول إليه أمرهما. وهو كونهما مسجدين للمسلمين.

السابع: في التفاضل بين ليلة القدر وليلة الإسراء. سئل الإمام تقي الدين أحمد ابن تيمية رضي اللّهُ عنه، عن رجل قال: ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر، وقال آخر: بل ليلة القدر أفضل. فأيهما المصيب؟

فأجاب: أما القائل بأن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر، إن أراد به أن تكون الليلة التي أسري فيها بالنبيّ ﷺ ونظائرها من كل عام أفضل لأمة محمد ﷺ من ليلة القدر، بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل منه في ليلة القدر. فهذا باطل لم يقله أحد من المسلمين، وهو معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام. هذا إذا كانت ليلة الإسراء يعرف عينها. فكيف ولم يقم دليل معلوم لا على شهرها ولا عشرها ولا على عينها؟ بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة، ليس فيها ما يقطع به، ولاشرع للمسلمين تخصيص الليلة، التي يظن أنها ليلة الإسراء، بقيام ولا غيره. بخلاف ليلة القدر فإنه قد ثبت في الصحيحين[1] عن النبيّ ﷺ أنه قال: من قام ليلة القدر إيماناً

---

(١) أخرجه البخاريّ في: فضل ليلة القدر، ١ - باب فضل ليلة القدر وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ..﴾ الخ، حديث رقم ٣٣، عن أبي هريرة.
وأخرجه مسلم في: صلاة المسافرين وقصرها، الحديث رقم ١٧٥.

واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وفي الصحيحين[١] عنه: تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان. وقد أخبر سبحانه أنها خير من ألف شهر فإنه نزل فيها القرآن.

وإن أراد أن الليلة المعينة التي أسري فيها بالنبيّ ﷺ، وحصل له فيها ما لم يحصل له في غيرها، من غير أن يشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة، فهذا صحيح. وليس إذا أعطى اللَّهُ نبيهﷺ فضيلة في مكان أو زمان، يجب أن يكون ذلك الزمان والمكان أفضل من جميع الأمكنة والأزمنة. هذا إذا قدِّر أنه قام دليل على أن إنعام اللَّه تعالى على نبيه ليلة الإسراء كان أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر، وغير ذلك من النعم التي أنعم عليه. والكلام في مثل هذا يحتاج إلى علم بحقائق الأمر ومقادير النعم التي لا تعرف إلا بوحي. ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيها بلا علم.

ولا يعرف عن أحد من المسلمين أنه نقل لليلة الإسراء فضيلة على غيرها. لا سيما على ليلة القدر. ولا كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يقصدون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمور ولايذكرونها. ولهذا لا يعرف أي ليلة كانت. وإن كان الإسراء من أعظم فضائله ﷺ ومع هذا فلم يشرع تخصيص ذلك الزمان ولا ذلك المكان بعبادة شرعية. بل غار حراء الذي ابتدئ فيه بنزول الوحي، وكان يتحراه قبل النبوة، لم يقصده هو ولا أحد من أصحابه بعد النبوة، مدة مقامه بمكة. ولا خص اليوم الذي أنزل فيه الوحي بعبادة ولا غيرها. ولا خص المكان الذي ابتدئ فيه الوحي ولا الزمان بشيء. ومن خصَّ الأمكنة والأزمنة من عنده بعبادات لأجل هذا وأمثاله، كان من جنس أهل الكتاب الذين جعلوا زمان أحوال المسيح مراسم وعبادات. كيوم الميلاد ويوم التعميد وغير ذلك من أحواله. وقد رأى عمر بن الخطاب جماعة يتبادرون مكاناً يصلّون فيه. فقال: ما هذا؟ قالوا: مكان صلى فيه رسول اللَّه ﷺ فقال أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا. فمن أدركته فيه الصلاة فليصل، وإلا فليمض. وقد قال بعض الناس: إن ليلة الإسراء في حق النبيّ ﷺ أفضل من ليلة القدر. وليلة القدر بالنسبة إلى الأمة أفضل من ليلة الإسراء. فهذه الليلة في حق الأمة أفضل لهم. وليلة الإسراء في حق رسول اللَّه ﷺ أفضل له. انتهى نقله الشمس ابن القيم (في زاد المعاد).

---

(١) أخرجه البخاريّ في: فضل ليلة القدر، ٣ - باب تحرّي ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر، حديث رقم ١٠٢٥، عن عائشة.
وأخرجه مسلم في: الصيام، حديث رقم ٢١٩.

الثامن: قال الشمس ابن القيم في (زاد المعاد). اختلف الصحابة: هل رأى النبيّ ﷺ ربه تلك الليلة أم لا؟ فصحّ عن ابن عباس أنه رأى ربه. وصحّ عنه أنه قال: رآه بفؤاده وصحّ عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك وقالا: إن قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ [النجم: ١٣ – ١٤]، إنما هو جبريل. وصح عن أبي ذر أنه سأله: هل رأيت ربك؟ قال: نور أَنَّى أراه. أي حال بيني وبين رؤيته النور. كما قال في لفظ آخر: رأيت نوراً. وقد حكى عثمان بن سعيد الدارميّ اتفاق الصحابة على أنه لم يره. قال شيخ الإسلام ابن تيمية، قدس اللَّهُ روحه: وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا. ولا قوله رآه بفؤاده. وقد صح عنه أنه قال: رأيت ربي تبارك وتعالى. ولكن لم يكن هذا في الإسراء ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح. ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه. وعلى هذا بنى الإمام أحمد رحمه اللَّهُ وقال: نعم، رآه حقاً. فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بدَّ. ولكن لم يقل أحمد إنه رآه بعيني رأسه. ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه. ولكن قال مرة: رآه، ومرة قال: رآه بفؤاده. فحكيت عنه روايتان وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه أنه رآه بعيني رأسه. وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك. وأما قول ابن عباس: رآه بفؤاده مرتين. فإن كان استناده إلى قوله تعالى: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ [النجم: ١١]، ثم قال: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ [النجم: ١٣]، والظاهر أنه مستنده، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئي جبريل. رآه مرتين في صورته التي خلق عليها. وقول ابن عباس هذا. هو مستند الإمام أحمد في قوله: رآه بفؤاده. واللَّهُ أعلم.

التاسع: قال الجاحظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه (التنوير في مولد السراج المنير) – بعد ذكره حديث الإسراء من طريق أنس – وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعليّ وابن مسعود وأبي ذرّ ومالك بن صعصعة وأبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس وشداد بن أوس وأبيّ بن كعب وعبد الرحمن بن قُرْط وأبي حبَّةَ وأبي ليلى الأنصاريَيْن وعبد اللَّه بن عمرو وجابر وحذيفة وبريدة وأبي أيوب وأبي أمامة وسمرة بن جندب وأبي الحمراء وصهيب الروميّ وأم هانئ وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق رضي اللَّهُ عنهم، أجمعين، منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره، على ما وقع في المسانيد. وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة. فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون. وأعرض عنه الزنادقة والملحدون. انتهى.

وقد نقل الرازيّ عن بعض المعتزلة رده لجمل فيه - ساقها - صعب عليهم دركها. ولا إشكال فيها في الحقيقة بحمده تعالى. ولكن هم وأمثالهم ممن ضعفت عنايتهم بفن الحديث وغلب عليهم فن المعقول. ولَقَدْ فاتهم بسبب ذلك خير كثير. وليس في الأحاديث الصحيحة ما يناقض المفعول أو الواقع، بوجهٍ ما، يعلم ذلك الراسخون، وفوق كل ذي علم عليم.

وقد بقي ممن رواه من الصحابة. غير من تقدم - سهل بن سعد وعبد اللّه بن حوالة الأزدي وعبد اللّه بن أسعد بن زرارة وأبو الدرداء وعبد اللّه بن عمر. وأما من رواه من التابعين مرسلاً فكثير. منهم الحسن بن الحسين عليهما السلام وكعب ومحمد بن الحنفية وعروة وسفيان الثوري والوليد بن مسلم وعبد الرحمن بن أبي ليلى وآخرون. كما يعلم من مراجعة (الدرّ المنثور) للحافظ السيوطيّ.

وأما طرقه في الصحيحين. فقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : إنها تدور على أنس بن مالك مع اختلاف أصحابه عنه. فرواه قتادة عنه عن مالك بن صعصعة. وليس في أحاديث المعراج أصحّ منه. ورواه الزهريّ عنه عن أبي ذر. ورواه شريك بن أبي نمر وثابت البنانيّ عنه عن النبيّ ﷺ بلا واسطة. وفي سياق كل منهم عنه ما ليس عند الآخر. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

﴿ وآتَيْنَا مُوسى الْكِتاب وجَعَلْناهُ هُدىً لِبَني إسْرائيلَ ألاَّ تَتَّخِذُوا من دُوني وَكيلاً، ذُرِّيَّةَ منْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ، إنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكوراً ﴾.

قال ابن كثير: لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمدﷺ عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه. فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام، وبين ذكر التوراة والقرآن. وقال الرازيّ لما ذكر اللّهُ تعالى في الآية الأولى إكرامه محمداً ﷺ بأن أسرى به، ذكر في هذه الآية أنه أكرم موسى عليه الصلاة والسلام قبله بالكتاب الذي آتاه. وقال الشهاب في (العناية) : عقبت آية الإسراء بهذه، استطراداً بجامع أن موسى عليه الصلاة والسلام أعطي التوراة بمسيره إلى الطور وهو بمنزلة معراجه. لأنه صح ثمة التكليم، وشرّف باسم الكليم مدمجاً فيه تفاوت ما

بين الكتابين ومن أنزلا عليه. وإن شئت فوازن بين ﴿أسرى بعبده﴾. و﴿آتينا موسى﴾ وبين ﴿هدى لبني إسرائيل﴾ و﴿ويهدي للتي هي أقوم﴾. و(الواو) استئنافية أو عاطفة على جملة (سبحان الذي أسرى) الخ لا على (أسرى) لبعده وتكلفه. وضمير (وجعلناه) للكتاب أو لموسى و (لبني إسرائيل) متعلق بـ(هدى) أو بـ(جعلناه)، وهي تعليلية.

وقوله: ﴿أَلاَّ تَتَّخِذُوا من دُوني وَكيلاً﴾ أي ولياً ومعبوداً تكلون إليه أموركم. لأنه تعالى أنزل على كل نبيّ أرسله، أن يعبده وحده لاشريك له، وقد قرئ: ﴿ألاَّ يتَّخذُواْ﴾ بالياء على الغيبة على حذف لام التعليل. والتقدير: جعلناه هدى لئلا يتخذوا وقرئ بالتاء على الخطاب، وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن (أنْ) بمعنى أي. وهي مفسرة لما تضمنه الكتاب من الأمر والنهي.

الثاني: أن (أن) زائدة، أي قلنا: لا تتخذوا.

الثالث: أن (لا) زائدة، زائدة والتقدير: مخافة أن تتخذوا. والوكيل والموكول إليه. أي المفوض إليه الأمور. وهوالرب. فـ(فعيل) بمعنى مفعول. و(دون) بمعنى غير. و(من) زائدة. أو تبعيضية. وقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ منْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ﴾ نصب على الاختصاص أو النداء. وفيه تهييج وتنبيه على المنة. والإنعام عليهم في إنجاء آبائهم من الغرق بحملهم مع نوح في السفينة. وإيماء إلى علة النهي. كأنه قيل: لا تشركوا به فإنه المنعم عليكم والمنجي لكم من الشدائد. وأنهم ضعفاء محتاجون إلى لطفه. وفي التعبير بـ(الذرية) الغالب إطلاقها على الأطفال والنساء، مناسبة تامة لما ذكر. وذكر حملهم في السفينة، للإشارة إلى أنه لم يكن لهم حينئذ وكيل يتكلون عليه سواه. وقوله: ﴿عَبْداً شَكُوراً﴾ أي لمعرفته بنعم الله واستعمالها على الوجه الذي ينبغي. وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره، وحث للذرية على الاقتداء به. وقيل: إنه استطراد. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾

﴿وَقَضيْنا إلى بني إسْرائيلَ في الْكِتابِ﴾ أي كتاب اللوح المحفوظ، أي حكمنا

فيه ﴿**لَتُفْسِدُنَّ في الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ**﴾ يعني أرض فلسطين بيت المقدس التي بارك اللّه حولها. والإفساد بالكفر والمعاصي.

قال السمين: في تعدية (قضينا) بـ (إلى) تضمينه معنى أنفذنا. أي أنفذنا إليهم بالقضاء المحتوم. ومتعلق القضاء محذوف. أي بفسادهم. وقوله: ﴿**لَتُفْسِدُنَّ**﴾ جواب قسم محذوف مؤكد لمعنى القضاء، أو جواب لقوله: ﴿**وقَضَيْنا**﴾ لأنه ضمن معنى القسم. ومنه قولهم (قضاء اللّه لأفعلن كذا) فيُجرون القضاء والقدر مجرى القسم، فيتلقيان بما يتلقى به القسم. و(مرتين) أي إفسادتين. منصوب على أنه مصدر (لتفسدن) من غير لفظه. وعدل عنه، لأن تثنية المصدر وجمعه ليس بمطرد: ﴿**وَلَتعْلُنَّ عُلُوّاً كَبيراً**﴾ أي ولتستكبرن وتتعظمُنَّ عن طاعة اللّه تعالى، أو لتظلمنَ الناس ﴿**فَإِذَا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما**﴾ أي موعود أولى المرتين، أي وما وعدوا به في المرة الأولى، يعني وعد المؤاخذة على أولى المفسدتين: ﴿**بعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأسٍ شَديدٍ**﴾ أي ذوي قوة وبطش في الحرب، شديد ﴿**فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ**﴾ ترددوا خلال أماكنكم ومحالكم للقتل والسبي والنهب ﴿**وكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً**﴾ أي مَقْضياً لا صارف له.

القول في تأويل قوله تعالى:

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨

﴿**ثمّ رددْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عليْهِمْ**﴾ أي بعد هذه المؤاخذة الشديدة، رددنا، عند توبتكم، لكم الغلبة التي كانت لكم في الأصل، عليهم: ﴿**وأَمْدَدْناكُم بأمْوالٍ وبَنين وجَعلْناكُمْ أكثَرَ نفيراً**﴾ أي قوماً ورهطاً. جمع (نفر) أو اسم جمع له. وأصله من ينفر مع الرجل من قومه. وقوله تعالى: ﴿**إنْ أحْسَنتُمْ أحْسَنتُمْ لأنفُسكُمْ وَإنْ أسَأتُم فلَها**﴾ بمثابة التعليل لما قبله. أي فعلنا ذلك لتعلموا أنكم إن أحسنتم توبتكم وأعمالكم، أحسنتم لأنفسكم، بإبقاء الغلبة لها والإمداد بالأموال والبنين وتكثير النفير ﴿**وإنْ أسأتُمْ فلَها**﴾ أي فإساءتكم ضارة لها بغلبة الأعداء وسلب الأموال والبنين والنفير

﴿فَإِذَا جاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ أي مؤاخذة المرة الآخرة وعقوبتها. وقوله تعالى: ﴿لِيَسُوؤا وُجُوهَكُمْ﴾ متعلق بجواب (إذا) المحذوف. أي بعثناهم ليسوؤا وجوهكم، أي ذواتكم بالإذلال والقهر.

قال الشهاب: عديت المساءة إلى الوجوه، وإن كانت عليهم، لأن آثار الأعراض النفسانية إنما تظهر في الوجه. كنضارة الوجه وإشراقه بالفرح. وكلوحه وسواده بالخوف والحزن. فالوجه، بمعنى الذات مجاز مرسل، أو استعارة تبعية. وقيل: الوجوه بمعنى الرؤساء. وهو تكلف. واختير هذا على ﴿لِيَسُوؤكُمْ﴾ مع أنه أخصر وأظهر، إشارة إلى أنه جمع عليهم ألم النفس والبدن، المدلول بقوله: ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ أي الأقصى ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا﴾ أي يدمروا ﴿مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ أي عظيماً فظيعاً، والتتبير: التدمير. وكل شيء كسرته وفتّته فقد تبرته. ثم أشار إلى أن فعله تعالى ليخلصوا توبتهم وأعمالهم بقوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أي إذ أخلصتم للإنابة، وأحسنتم الأعمال، وأقمتم الكتاب وما نزل إليكم، لأنكم علمتم من سنته تعالى أنه لاينزل بلاء إلا بذنب ولا يرفعه إلا بتوبة، ولذا قال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ أي بعد هذه التوبة والإنابة إلى الاستكبار ﴿عُدْنَا﴾ أي إلى تسليط الأعداء وسلب الأموال والأولاد في الدنيا.

﴿وَجَعَلْنا﴾ أي يوم القيامة ﴿جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ أي محبساً وسجناً يحصرهم في العذاب والحرمان عن الثواب.

قال الشهاب: إن كان - (حصيراً) - اسماً للمكان فهو جامد لا يلزم تذكيره وتأنيثه. وإن كان بمعنى حاصراً أي محيطاً بهم، وفعيل بمعنى فاعل، يلزم مطابقته. فإما لأنه على النسب. كلابن وتامر. أو لحمه على (فعيل) بمعنى (مفعول). أو لأن تأنيث جهنم غير حقيقيّ أو لتأويلها بمذكر. انتهى.

وقيل: حصيراً، أي بساطاً كما يبسط الحصير. مثل قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ [الأعراف: ٤١]، فهو تشبيه بليغ. والحصير بهذا المعنى بمعنى محصور لحصر بعض طاقاته على بعض. كما قاله الراغب.

تنبيه:

روي أن بني إسرائيل كان الأمر مستتباً لهم في فلسطين إلى موت سليمان عليه

السلام. فلما ملك ابنه بعده، وذلك قبل المسيح بما ينيف على تسعمائة سنة، وقع من الاختلال في عهده ما أفضى إلى تقريره عبادة الأوثان. فعوجل بعد خمس سنين من ملكه بأخذ ملك مصر بيتَ المقدس وسلب كنوز هيكلها (المسجد الأقصى) ونهب ما فيها. ولما ساء تصرفه تمرد عليه شعبه وخلعوا طاعته. فانقسمت مملكته إلى قسمين: أحدهما دعى مملكة يهوذا وهي المؤلفة من سبطي يهوذا وبنيامين، بقيا خاضعين لابن سليمان.

وثانيهما: دعي مملكة إسرائيل وهي المؤلفة من بقية الأسباط العشرة. وكان أول ملك على مملكة إسرائيل رجل يقال له يربعام. خاف من رجوع رعاياه إلى طاعة ابن سليمان إذا صعدوا إلى أورشليم في الأعياد الاحتفالية ليعبدوا اللّه في الهيكل ويقربوا ذبائحهم هناك. فأقام في مملكته عجلين من ذهب. وأمر رعيته بعبادتهما. ورتب لهم أعياداً احتفالية وكهنة وقامت حروب هائلة بين ملوك هاتين الطائفتين. وكان يتخللهما من الملوك من ينزع عبادة الأوثان. إلا أنه لا يلبث الحال حين يأتي ملك آخر فيعيد الوثنية. واستمرت مملكة إسرائيل نحواً من مائتين وخمسين سنة. وفي نهاية أمرهم عظمت خطيئاتهم فسلط عليهم ملك أشُور ففتح السامرة – بلدهم – وسباهم إلى أشُور وانقرضت مملكة العشرة الأسباطِ ولم يسمع ذكرهم بعد. ثم أرسل ملك أشُور قوماً من بلده وأسكنهم مدن السامرة ليعمروها مع من بقي من أهلها. وأرسل معهم كاهناً من اليهود ليقيم لمن بقي طقوسهم. فعادوا إلى شركهم وعبادة الأوثان مع اللّه تعالى. وأما مملكة يهوذا فبقيت بعد انقراض مملكة إسرائيل ما ينيف على عشرين سنة، وفي أواخر أيامها قام فيها ملك شرير. فزحف إليه ملك بابل نبوخذ ناصر (بختنصر) فسبى قسماً من شعبه، وكان السبي الأول.

ثم قام، بعد ذلك الملك الشرير، ابنُه. فسار على طريقة أبيه. فعاد إليه ملك بابل المذكور واستأسره هو وآله ورؤساءه وقسماً من الشعب. وسلب الهيكل. وكان هذا السبي الثاني بعد ثماني سنين من الأول.

ثم قام فيهم ملك أشَرُّ ممن تقدم – وهو آخر ملوكهم – وفي أيامه حاصر ملك بابل المذكور أيضاً بيت المقدس، وأسره إلى بابل، وأحرق المدينة والهيكل، وسبى كل شعب يهوذا، ما عدا مساكين الأرض، إلى بابل. وهذا هو السبي الثالث والأخير.

وهكذا انقرضت هذه المملكة وكانت إقامتهم في بابل سبعين سنة. ثم أطلقوا من الأسر فعادوا إلى بيت المقدس. وجددوا عمارتها وقيام الهيكل. وبقيت اليهود تحت تسلط ملوك فارس إلى أن ظهر الإسكندر الكبير. وغلبت اليونان الفرس وجاء

الإسكندر إلى سورية فدخل بنو إسرائيل تحت حكم اليونان. وبعد وفاة الإسكندر انقسم ملكه إلى أربعة أقسام:

منها مملكة سورية ومصر. وكانت بينهما حروب متصلة. والإسرائيليون، لما كانوا بينهم، كانوا تارة تحت تملك مصر وأخرى تحت تسلط سورية. واتفق في خلال ذلك أن رفض كثير من اليهود الديانة اليهودية، وتمسكوا بديانة اليونانيين.

ثم استولى الرومانيين على فلسطين. وجرت حروب هائلة بينهم وبين اليهود، أفضى الأمر إلى تسلط الرومانيين عليهم. وتملكوا بيت المقدس. وهدم تيطس، أحد ملوكهم، الهيكل إلى أساسه. وأحرق كتب اليهود وتشتت أمرهم، ولم يبق لهم ملك ولا رئاسة بعده وزعموا أن ذلك بعد رفع المسيح بنحو أربعين سنة، وزعموا أن الهيكل تراجع للعمارة ورمم، إلى أن سارت هيلانة، أم قسطنطين إلى القدس وبنت كنيسة على القبر، الذي يزعم النصارى أنه قبر المسيح. وخربت الهيكل وأمرت أن تلقي فيه قمامات البلد وزبالته فصار موضع الصخرة مزبلة. وبقي كذلك حتى قدم عمر بن الخطاب رضي اللّهُ عنه وفتح القدس. فأمر بتنظيفه وبنى في قبلته مسجداً، إلى أن ملك الوليد بن عبد الملك، فجدد بناءه على أساسه القديم وبنى قبة الصخرة.

وتفصيل هذه الماجريات معروفة في كتب التاريخ. ونحن لم نورد ما أوردناه على أنه تفسير للآية. لأنها بإيجازها غنية عنه، وفي تفسيرنا لألفاظها كفاية في فهمها، إلا أن أكثر المفسرين تطرفوا لبعض ماجريات اليهود هنا، فنقحنامنها أحسن ما حرره المؤرخون المتأخرون، إيضاحاً لأفاعيلهم التي أشارت إليها الآيات الكريمة.

وقد قدمنا في سورة يوسف؛ أنه ليس في القرآن شيءٌ من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار. وإنما هي الآيات في العبر تجلت في سياق الوقائع. ولذلك لم تذكر قصة بتفاصيلها. وإنما يذكر موضع العبرة فيها. كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبابِ ﴾ [يوسف: ١١١].

ثم بيّن تعالى مزية التنزيل الكريم التي فاق بها سائر ما أنزل، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾

﴿ إِنَّ هذاَ الْقُرآنَ يَهدي لِلَّتي هيَ أَقْوَمُ ﴾ أي للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدّها أو للملة، أو للطريقة.

قال الزمخشري: وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف لما في إبهام الموصوف بحذفه، من فخامة تفقد مع إيضاحه.

﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ أي يبشر المخلصين في إيمانهم، وهم الذين يعملون الصالحات كلها، ويجتنبون السيئات؛ أن لهم في الدنيا والآخرة ثواباً وافراً.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ﴾ أي بالبعث والجزاء على الأعمال ﴿أَعْتَدنا لَهُمْ عَذَاباً أليماً﴾ أي في الآخرة، وهو عذاب النار.

﴿وَيَدْعُ الإنسانُ بِالشَّرِ دُعَاءهُ بِالْخَيرِ﴾ أي مثل دعائه بالخير ﴿وَكَانَ الإنسانُ عجولاً﴾ قال أبو السعود: الآية بيان لحال المهديّ إثر بيان حال الهادي. وإظهار لما بينهما من التباين. والمراد بالإنسان الجنس، أُسند إليه حال بعض أفراده. أو حكى عنه حاله في بعض أحيانه. فالمعنى، على الأول: أن القرآن يدعو الإنسان إلى الخير الذي لا خير فوقه من الأجر الكبير. ويحذره من الشر الذي لا شر وراءه من العذاب الأليم، وهو - أي بعض منه وهو الكافر - يدعو لنفسه بما هو الشر من العذاب المذكور، إما بلسانه حقيقة كدأب من قال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحقَّ من عندكَ فأمطرْ علَينا حجَارةً منَ السَّماءِ أَوِ ائتِنَا بعَذَابٍ اليمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، ومن قال: ﴿فَأْتِنَا بما تعدُنا إن كُنتَ من الصَّادقين﴾ [الأعراف:٧٠]، إلى غير ذلك مما حكى عنهم - وإما بأعمالهم السيئة المفضية إليه، الموجبة له مجازاً. كما هو ديدن كلهم. وقوله: ﴿وكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً﴾ يعني بالإنسان من أسند إليه الدعاء المذكور من أفراده. عجولاً يسارع إلى طلب ما يخطر بباله، متعامياً عن ضرره. أو مبالغاً في العجلة يستعجل العذاب وهو آتيه لا محالة. ففيه نوع تهكم به. وعلى تقدير حمل الدعاء على أعمالهم، تحمل العجولية على اللج والتمادي في استيجاب العذاب بتلك الأعمال.

وعلى الثاني: أن القرآن يدعوالإنسان إلى ما هو خير. وهو في بعض أحيانه، كما عند الغضب، يدعه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شر. وكان

الإنسان بحسب جبلته عجولاً ضجراً لا يتانى إلى أن يزول عنه ما يعتريه . أو يدعو بما هو شر وهو يحسبه خيراً. وكان الإنسان عجولاً غير متبصراً لا يتدبر في أموره حق التدبر ليتحقق ما هو خير حقيق بالدعاء به، وما هو شر جدير بالاستعاذة منه. انتهى.

ثم أشار تعالى إلى بعض وجوه الهداية في القرآن، بالإرشاد إلى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية، التي كل منها برهان نيِّرٌ لا ريب فيه. ومنهاج بَيِّنٌ لا يضل من ينتحيه، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ**﴾ أي جعلناهما، بهيئاتهما وتعاقُبهمُا واختلافهما في الطول والقصر، علامتين تدلان على أن لهما خالقاً حكيماً: ﴿**فَمَحَوْنا آية اللَّيل**﴾ أي بجعلها مظلمة ﴿**وجَعَلْنَا آية النَّهارِ مُبْصِرَةً**﴾ أي مضيئة لتمييز الأشياء المحسوسة. والإضافة فيهما إما بيانية، أي الآية التي هي الليل والآية التي هي النهار. وإما حقيقية. وآية الليل والنهار نيِّراهُما. والمراد بمحو القمر خلقه مطموس النور في نفسه. أو نقص ما استفاده من الشمس شيئاً فشيئاً إلى المحاق. وبجعل الشمس مبصرة إبداعها مضيئة بالذات. ذات أشعة تبصر بها الأشياء، فالإسناد في (مبصرة) مجازي إلى السبب العاديّ، أو تجوز بعلاقة السبب. وقوله تعالى: ﴿**لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مّن ربِّكُمْ**﴾ متعلق بـ (جعلنا) أي لتطلبوا في النهار رزقاً منه سبحانه بالانتشار للمعاش والصناعات والأعمال والأسفار. ﴿**ولِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِين وَالْحِسَابَ**﴾ أي الحساب المتعلق بما في ضمن السنين من الأشهر والليالي والأيام، أو الحساب الجاري في المعاملات، كالبيوع والإجارات. وفي العبادات، أي لتعرف مضيّ الآجال المضروبة لذلك. إذ لولاه لما علم أحد حسبان الأوقات ولتعطلت الأمور.

قال السيوطيّ في (الإكليل): هذه الآية أصل في علم المواقيت والهيئة والتاريخ. وفي الآية لف ونشر غير مرتب. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿**وكُلَّ شَيءٍ**﴾ أي مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم ﴿**فصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً**﴾ أي بيناه في القرآن بياناً بليغاً لا التباس معه. كقوله تعالى: ﴿**ونَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِ شَيْءٍ**﴾ [النحل: ٨٩]، فظهر كونه هادياً للتي هي أقوم ظهوراً بيِّناً.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

﴿وكُلَّ إنسانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أي ألزمناه عمله الصادر منه باختياره خيراً وشراً، بحيث لا يفارقه أبداً. بل يلزمه لزوم الطوق في العنق، لا ينفكّ عنه بحال.

قال الطبريّ: المعنى: وكل إنسان ألزمناه ما قضي أنه عامله، وهوصائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله، في عنقه لا يفارقه. وإنما قوله: **﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ في عُنُقِهِ﴾** مثل لما كانت العرب تتفاءل به أو تتشاءم من سوانح الطير وبوارحها.

وذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال؛ وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم إلى خيرٍ أو إلى شر، اعتبروا أحوال الطير: وهو أنه يطير بنفسه أو يحتاج إلى إزعاجه. وإذا طار فهل يطير متيامناً أو متياسراً أو صاعداً إلى الجوّ، إلى غير ذلك من الأحوال التي كانوا يعتبرونها، ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة، فلما كثر ذلك منهم، سمي الخير والشر بالطائر، تسمية للشيءِ باسم لازمه.

قال الطبريّ: فأعلمهم جل ثناؤه أن كل إنسان منهم قد ألزمه ربه طائره في عنقه، نحساً كان ذلك الذي ألزمه من الطائر وشقاءً يورده سعيراً أو كان سعداً يورده جنان عدن. وإنما أضيف إلى العنق ولم يضف إلى اليد أوغيرها من أعضاء الجسد، قيل لأن العنق هو موضع السمات وموضع القلائد والأطوقة وغير ذلك مما يزين أويشين، فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة ببني آدم وغيرهم من ذلك، إلى أعناقهم. وكثر استعمالهم ذلك حتى أضافوا الأشياء اللازمة سائر الأبدان إلى الأعناق. كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد، فقالوا: ذلك بما كسبت يداه. وإن كان الذي جرّ عليه لسانه أو فرجه. فكذلك. قوله: **﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ في عُنُقِهِ﴾** وحاصله - كما قاله الرزيّ - أن قوله: **﴿في عُنُقِهِ﴾** كناية عن اللزوم. كما يقال: (جعلت هذا في عنقك) أي قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به. ويقال: (قلدتك كذا وطوقتك كذا) أي صرفته إليك وألزمته إياك. ومنه (قلده السلطان كذا) أي صارت الولاية،

في لزومها له، في موضع القلادة ومكان الطوق. ومنه يقال (فلان يقلد فلاناً) أي يجعل ذلك الاعتقاد كالقلادة المربوطة على عنقه. وقوله تعالى: ﴿ونَخرِجُ لَهُ﴾ أي نظهر له ﴿يَوْمَ القيامةِ﴾ أي البعث للجزاء على الأعمال ﴿كِتاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً﴾ أي يجده مفتوحاً فيه حسناته وسيئاته. ويقال له: ﴿اقْرأْ كِتَابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ أي شهيداً بما عملت.

قال القاشانيّ: ﴿كِتاباً﴾ هيكلاً مصوراً يصوّر أعماله ﴿يَلْقَاهُ مَنْشوراً﴾ لظهور تلك الهيئات فيه بالفعل مفصلة، لا مطوياً كما كان عند كونها فيه بالقوة. يقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ أي اقرأه قراءة المأمور الممتثل لأمر آمرٍ مطاع يأمره بالقراءة. أو تأمره القوى الملكوتية. سواء كان قارئاً أو غير قارئ. لأن الأعمال هناك ممثّلة بهيئاتها وصورها، يعرفها كل أحد. لا على سبيل الكتابة بالحروف فلا يعرفها الأميّ ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ لأن نفسه تشاهد ما فعلته لازماً إياها، نصب عينها، مفصلاً لا يمكنها الإنكار.

وقوله تعالى: ﴿مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِه﴾ قال أبو السعود: فذلكة لما تقدم من بيان كون القرآن هادياً لأقوم الطرائق، ولزوم الأعمال لأصحابها. أي من اهتدى بهدايته، وعمل بما فيه تضاعيفه من الأحكام، وانتهى عما نهاه عنه، فإنما تعود منفعة اهتدائه إلى نفسه، لا تتخطاهُ إلى غيره ممن لا يهتدي ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي عن الطريقة التي يهديه إليها: ﴿فإنما يَضلُّ عَلَيْهَا﴾ أي وبال ضلاله عليها، لا على من عداه ممن لم يباشره. فقوله: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ مؤكد لما قبله للاهتمام به.

قال أبو السعود: أي لا تحمل نفسه حاملة للوزر، وزر نفس أخرى، حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها. ويختل ما بين العامل وعمله من التلازم. بل إنما تحمل كل منهما وزرها. وهذا تحقيق لمعنى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِه﴾ وأما ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَّهُ نَصِيبٌ مِّنهَا، وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْها﴾ [النساء:٨٥]، وقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥]، من حمل الغير وزر الغير، وانتفاعه بحسنته، وتضرره بسيئته، فهو في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه، وتضرر بسيئته. فإن جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له. وإنما الذي يصل إلى من يشفع، جزاء شفاعته، لا جزاء أصل الحسنة والسيئة. وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين. وما يحمله المضلون، إنما هو جزاء الإضلال لا جزاء الضلال.

وإنما خصّ التأكيد بالجملة الثانية قطعاً للأطماع الفارغة. حيث كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق، فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ بيان للعناية الربانية، إثر بيان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها، وعدم حرمان المهتدي من ثمرات هدايته، وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها. أي: وما صح وما استقام منا، بل استحال في سنّتنا المبنية على الحكم البالغة، أن نعذّب قوماً حتى نبعث إليهم رسولاً يهديهم إلى الحق، ويردعهم عن الضلال، لإقامة الحجة وقطعاً للعذر. والعذاب أعمّ من الدنيويّ والأخرويّ، لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴾ [طه: ١٣٤] وقال تعالى: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ، قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك: ٨ – ٩]، وكذا قوله: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ، أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ، فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى لا يعذب قوماً عذاب استئصال، ولا يدخل أحداً النار إلا بعدإرسال الرسل. قال قتادة: إن اللَّهَ تعالى لا يعذب أحداً حتى يتقدم إليه بخبر أو بيّنة. ولا يعذب أحداً إلا بذنبه. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾ بيان لوقوع التعذيب بعد الرسالة. وأنه إنما كان للتمرد على الرسل والتنكب عن منهجهم. وقد تدل الآية على أن التعذيب المتقدم مراد به الهلاك الدنيويّ لانحصارها فيه. والمعنى: إذا أردنا أن نعذب قوماً عذاب استئصال ﴿ **أمرنا مترفيها** ﴾ يعني متنعميها، بالطاعة على لسان الرسول المبعوث إليهم ﴿ **ففسقوا فيها** ﴾ بمخالفة أمره تعالى والخروج عن طاعته ﴿ **فحق عليها القول** ﴾ فوجب عليها، بمعصيتهم وفسقهم وطغيانهم، وعيد اللَّه الذي أوعد من كفر به وخالف رسله، من الهلاك بعد

الإعذار والإنذار بالرسل والحجج. ﴿فدمرناها تدميراً﴾ أي فخربناها تخريباً لا يكتنه كنهه ولا يوصف. وأهلكنا من كان فيها من أهلها إهلاكاً هائلاً. كما جرى لبيت المقدس، لما انحرف اليهود عن شرعتهم، على ما قدمنا بيانه، وإنما خص المترفين، وهم الجبارون والملوك والرؤساء، بالذكر مع توجه الأمر إلى الكل، لأنهم الأصل في الخطاب والباقي تبع لهم. ولأن توجه الأمر إليهم آكد. وإنما حذف مفعول ﴿أمرنا﴾ لظهور أن المراد به الحق والخير. لا سيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهدي إليه. وفي إيثار ﴿القرية﴾ على أهلها زيادة تهويل وتفظيع، إشارة إلى التنكيل بهم بهدم صروحهم ودورهم، وطمس أثرهم، وهو أوجع للقلب وأنكى للعدّو. ولذلك أتى إثره بالمصدر المؤكد فقال: ﴿تَدْمِيراً﴾ أي كليّاً بحيث لم يبق لهم زرع أو ضرع.

قال القاشانيّ: إن لكل شيء في الدنيا زوالاً. وزواله بحصول استعداد يقتضي ذلك. وكما أن زوال البدن بزوال الاعتدال، وحصول انحراف يبعده عن بقائه وثباته، فكذلك هلاك المدينة وزوالها بحدوث انحراف فيها من الجادة المستقيمة التي هي صراط الله وهي الشريعة الحافظة للنظام. فإذا جاء وقت إهلاك قرية، فلا بد من استحقاقها للإهلاك. وذلك بالفسق والخروج عن طاعة الله. فلما تعلقت إرادته بإهلاكها، تقدمه أولاً بالضرورة فسق مترفيها من أصحاب الترَف والتنعم بطراً وأشراً بنعمة اللهِ، واستعمالاً لها فيما لا ينبغي. وذلك بأمر من اللهِ وقدرٍ منه، لشقاوة كانت تلزم استعداداتهم. وحينئذ وجب إهلاكهم. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا من الْقُرُونِ من بَعْدِ نُوحٍ﴾ أي وكثيراً ما أهلكنا من الأمم الكافرة من بعد زمن نوح، كعاد وثمود وفرعون. ممن قصّت أنباؤُهم في القرآن العظيم ومن لم تقص. و﴿القرون﴾ جمع قرن يطلق على الزمن المعين وعلى أهله المقترنين فيه، وعلى كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد. وخص ﴿نوح﴾ ولم يقل (من بعد آدم) لأنه أول رسول آذاه قومه فاستأصلهم العذاب. ففيه تهديد وإنذار للمشركين.

﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصيراً﴾ أي لا يخفى عليه شيء منها. فيدرك سرها وعلنها وسيجازي عليها.

والآية تدل – كما قال الزمخشريّ: على أن الذنوب هي أسباب الهلكة، وذلك لأنه لما عقب إهلاكهم بعلمه بالذنوب علماً أتمَّ،دل على أنه جازاهم بها.

القول في تأويل قوله تعالى:

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيهَا مَا نَشاءَ لِمَن نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَها مَذْمُوماً مَدْحُوراً، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾.

أي من كان طلبه الدنيا العاجلة، ولها يعمل ويسعى، وإياها يبتغي. لايوقن بمعاد ولا يرجو ثواباً ولا عقاباً من ربه علىَ عمله، عجلنا له فيها ما نشاءُ لمن نريد. أي ما نشاؤه من بسط الدنيا عليه أو تقتيرها لمن أراد اللَّهُ أن يفعل به ذلك. أو من إهلاكه بما يشاء تعالى من عقوباته المعجلة. ثم يصلي جهنم في الآخرة مذموماً على قلة شكره لمولاه، وسوء صنيعه فيما سلف له. مدحوراً مطروداً من الرحمة، مبعداً مقصياً في النار. ومن أراد الآخرة وإياها طلب، ولها عمل عملها الذي هو طاعة اللَّه ومايرضيه عنه، فأولئك كان عملهم مشكوراً بحسن الجزاء.

تنبيه:

قال القفال رحمه اللَّهُ: هذه الآية داخلة في معنى قوله: **﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾** فالآية الأولى تشير إلى من جعل طائر نفسه شؤماً. والثانية لمن جعله يمناً وخيراً. وفي قوله تعالى: **﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾** أي ما يحق ويليق بها من الأعمال الصالحة، تبيين لقوله: **﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ﴾** بأن إرادتها هو بالسعي والنصَب في مغالبة الباطل وإعلاء شأن الحق مع التلبس بالإيمان الصحيح. بفعل المأمور واجتناب المنهيّ عنه. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

﴿كُلاً نُمِدُّ﴾ أي كل واحد من الفريقين. وقوله: **﴿هؤلاء وهؤلاءِ﴾** بدل من

(كلاًّ) ﴿مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ﴾ أي فضله. فيرزقهما جميعاً من رزقه إلى بلوغهما الأمد واستيفائهما الأجل. ما كتب لهما. ثم تختلف بهما الأحوال بعد الممات، وتفترق بهما بعد الورود المصادرُ. ففريقُ مريدي العاجلة، إلى جهنم مصدرهم. وفريقُ مريدي الآخرة، إلى الجنة مآبهم: ﴿وَمَا كَانَ عطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ أي ممنوعاً لا يمنعه من عاصٍ لعصيانه. والجملة كالتعليل لشمول الإمداد للفريقين ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي في الرزق في الدنيا ﴿وَللآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ لأن فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ثم أشار تعالى إلى ما به تنال درجات الآخرة من البراءة من الشرك، ومن الاعتصام بالإيمان وشعبه، بقوله: ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً﴾ أي لا تجعل معه شريكاً في عبادته فتصير مذموماً ملوماً على الشرك، مخذولاً من اللّه. يكلك إلى ذاك الشريك ولا ينصرك ﴿وَإِنَ يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذي يَنصُرُكُمْ مِّن بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

﴿وقَضى رَبُّكَ﴾ أي أمر أمراً مقطوعاً به ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدينَ إِحْسَاناً﴾ أي: وبأن تحسنوا بالوالدين إحساناً. قال القاشاني: قرن سبحانه وتعالى إحسان الوالدين بالتوحيد وتخصيصه بالعبادة، لكونهما مناسبين للحضرة الربوبية، لتربيتها إياك عاجزاً صغيراً ضعيفاً لا قدرة لك ولا حراك بك. وهما أول مظهر ظهر فيه آثار صفات اللّه تعالى من الإيجاد والربوبية. والرحمة والرأفة بالنسبة إليك. ومع ذلك فإنهما محتاجان إلى قضاء حقوقهما، واللّهُ غنيّ عن ذلك. فأهم الواجبات بعد التوحيد، إذاً، إكرامهما والقيام بحقوقهما ما أمكن ﴿إمَّا يبلُغَنَّ عندكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كلاهُما فلاَ تقل لَهُمَا أفٍّ وَلاَ تَنهَرْهُما وَقُل لَهُما قَولاً كَريماً، وَاخفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ من الرَّحْمَةِ وَقُل رَبِّ ارحَمهُمَا كَما رَبَّياني صَغيراً﴾ في هذا من المبالغة في إكرام الوالدين وبرهما ما لا يخفى. و﴿إمَّا﴾ هي (إن) الشرطية زيدت عليها (ما) تأكيداً لها. و﴿أَحَدُهُما﴾ فاعل (يبلغن) و﴿كِلاهُما﴾ عطف عليه. ومعنى ﴿عِندَكَ﴾ هو أن يكبرا ويعجزا، وكانا كلاً على ولدهما، ولا كافل لهما غيره، فهما عنده في بيته وكنفه. وذلك أشق عليه وأشد احتمالاً وصبراً. وربما تولى منهما ما كانا يتوليان منه،

في حال الطفولة. فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ولين الجانب والاحتمال. حتى لا يقول لهما، إذا أضجره ما يستقذر منهما، أو يستثقل من مؤنهما: ﴿ **أف** ﴾ فضلاً عما يزيد عليه. أفاده الزمخشريّ.

وقوله: ﴿ **وَلاَ تنهَرْهُما** ﴾ أي تزجرهم عما لا يعجبك، بغلظة ﴿ **وَقُل لَّهُمَا** ﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿ **قَوْلاً كَرِيماً** ﴾ أي حسناً كما يقتضيه حسن الأدب معهما. ومعنى قوله: ﴿ **واخْفِضْ لَهُما جناحَ الذُّلِّ** ﴾ تَذَلَّل لهما وتواضع. وفيه استعارة مكنية وتخييلية. فشبه الذل بطائر تشبيهاً مضمراً، وأثبت له الجناح تخييلاً، والخفض ترشيحاً. و(خفضه) مايفعله إذا ضم أفراخه للتربية. أو استعارة تصريحية في المفرد وهو الجناح، والخفض ترشيح. و(الجناح) الجانب كما يقال (جناحا العسكر) وخفضه مجاز. كما يقال (ليّن الجانب) و (منخفض الجانب) وإضافة الجناح إلى الذل للبيان. لأن صفة مبيّنة. أي جناحك الذليل. وفيه مبالغة لأنه وصف بالمصدر. فكأنه جعل الجناح عين الذل. أو التركيب استعارة تمثيلية. فيكون مثلاً لغاية التواضع. وسر ذكر الجناح وخفضه، تصوير الذل كأنه مشاهد محسوس. و﴿ **مِنَ** ﴾ من قوله تعالى: ﴿ **مِنَ الرَّحْمَةِ** ﴾ ابتدائية على سبيل التعليل. أي من فرط رحمتك لهما، وعطفك عليهما، لكبرهما وافتقارهما اليوم، إلى من كان أفقر خلق اللّه إليهما بالأمس. وافتقارُ المرء إلى من كان مفتقراً له، غايةٌ في الضراعة والمسكنة. فيرحمه أشد رحمة. كما قال الخفاجيّ:

يا من أتى يسأل عن فاقتي	ما حال من يسأل من سائله؟
ما ذلة السلطان إلا إذا	أصبح محتاجاً إلى عامله

وقوله تعالى: ﴿ **وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيَانِي صَغِيراً** ﴾ أي رب! تعطف عليهما برحمتك ومغفرتك، كما تعطفا عليَّ في صغري، فرحماني وربياني صغيراً حتى استقللت بنفسي، واستغنيت عنهما.

قال الزمخشري: أي لا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها، وادْعُ اللّهُ بأن يرحمهما رحمته الباقية. واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك. والكاف للتعليل. أي لأجل تربيتهما لي.

قال الطيبيّ: الكاف لتأكيد الوجود. كأنه قيل: رب ارحمهما رحمة محققة مكشوفة لا ريب فيها كقوله: ﴿ مِّثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٣]، وهو وجه حسن.

تنبيه:

استحب بعض السلف أن يدعو المرء لوالديه في أواخر التشهد قبيل السلام، لأنه وقت فاضل. وقد جمعتُ من الأدعية المأثورة للوالدين المتوفيين أو أحدهما، جملة ضممتها لكتابي (الأوراد المأثورة). لا أزال أدعو لهما بما في السحر أو بين أذان الفجر وإقامة صلاته، لما أرى من مزية هذا الوقت على غيره. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧)

﴿**رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ**﴾ أي ضمائركم من قصد البر إلى الوالدين والعقوق ﴿**إن تَكُونوا صَالحين**﴾ أي قاصدينَ للصلاح والبرّ دون العقوق ﴿**فإِنَّهُ كَانَ للأَوَّابين**﴾ أي التوابين الرجاعينَ إليه تعالى بالندم عما فرط منهم، والاستقامة على المأمور ﴿**غفُوراً**﴾ أي لهم ما اكتسبوا. ولا يخفى ما في صدر الآية من الوعد لمن أضمر البرّ. والوعيد لمن أضمر الكراهة والاستثقال والعقوق.

قيل: الآية استئناف يقتضيه مقام التأكيد والتشديد. كأنه قيل: كيف يقوم بحقهما وقد تبدر بوادر؟ فقيل: إذا بنيتم الأمر على الأساس، وكان المستمر ذلك، ثم اتفقت بادرة من غير قصد إلى المساءة، فلطف اللّه يحجزُ دون عذابه. ويجوز - كما قال الزمخشريّ - أن يكون هذا عامًّا لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها. ويندرج تحته الجاني على أبويه، التائب من جنايته، لوروده على أثره. ثم وصّي تعالى بغير الوالدين من الأقارب، بعد الوصية بهما، بقوله سبحانه: ﴿**وآتِ ذا القُربى حَقَّهُ**﴾ أي من صلته وحسن المعاشرة والبرّ له بالإتفاق عليه.

قال المهايميّ: لم يقل (القريب) لأن المطلق ينصرف إلى الكامل. والإضافة، لما كانت لأدنى الملابسة، صدق (ذو القربى) على كل من له قرابة ما. ﴿**والْمِسْكينَ**﴾ أي الفقير من الأباعد. وفي الأقارب مع الصدقة صلة الرحم. ﴿**وابْنَ السَّبيلِ**﴾ أي المسافر المنقطع به. أي أعنه وقوّه على قطع سفره. ويدخل فيه ما يعطاه من حمولة أو معونة أو ضيافة. فإن ذلك كله من حقه ﴿**ولاَ تُبذِّرْ تبْذيراً**﴾ أي بوجه من الوجوه، بالإنفاق في محرم أو مكروه، أو على من لايستحق، فتحسبه

إحساناً إلى نفسك أو غيرك. أفاده المهايميّ. وفي (الكشاف): كانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها، وتبذر أموالها في الفخر والسمعة، وتذكر ذلك في أشعارها. فأمر اللّهُ بالنفقة في وجوهها. مما يقرب منه ويزلف.

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي أمثالهم في كفران نعمة المال بصرفه فيما لا ينبغي. وهذا غاية المذمة لأن لاشرّ من الشيطان. أو هم إخوانهم أتباعهم في المصادقة والإطاعة. كما يطيع الصديق صديقه والتابع متبوعه، أو هم قرناؤهم في النار على سبيل الوعيد. والجملة تعليل المنهي عنه عن التبذير، ببيان أنه يجعل صاحبه مقروناً معهم. وقوله: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ من تتمة التعليل. قال أبو السعود: أي مبالغاً في كفران نعمته تعالى. لأن شأنه أن يصرف جميع ما أعطاهُ اللّهُ تعالى من القُوى، أي مبالغاً في كفران نعمته تعالى. لأن شأنه أن يصرف جميع ما أعطاهُ اللّهُ تعالى من القُوى، إلى غير ما خلقت له من أنواع المعاصي. والإفساد في الأرض، وإضلال الناس، وحملهم على الكفر باللّه وكفران نعمه الفائضة عليهم، وصرفها إلى غير ما أمر اللّه تعالى به. وتخصيص هذا الوصف بالذكر. من بين سائر أوصافه القبيحة، للإيذان بأن التبذير، الذي هو عبارة عن صرف نعم اللّه تعالى إلى غير مصرفها، من باب الكفران، المقابل للشكر الذي هو عبارة عن صرفها إلى ما خلقت هي له. والتعرض لوصف الربوبية للإشعار بكمل عتّوه. فإن كفران نعمة الربّ، مع كون الربوبية من أقوى الدواعي إلى شكرها، غاية الكفران ونهاية الضلال والطغيان. انتهى.

وقد استدل بالآية من منع إعطاء المال كله في سبيل الخير، ومن منع الصدقة بكل ماله.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً﴾ أي وإن أن أعرضت عن ذوي القربى والمسكين وابن السبيل، حياء من الردّ، لانتظار رزق من اللّهِ ترجوه أن يأتيك فتعطيه، فلا تؤيسهم وقل لهم قولاً ليناً سهلاً، وعدهم وعداً جميلاً. قال في (الكشف): (ابتغاء) أقيم مقام فقدانه. وفيه لطف. فكأن ذلك الإعراض لأجل السعي لهم. وهو من وضع المسبب موضع السبب. فإن الفقد سبب للابتغاء.

قال السيوطيّ في (الإكليل): في هذه الآية الأمر بالقول الليّن عند عدم وجود ما يعطى منه، وفسّره ابن زيد بالدعاء. والحسن وابن عباس بالعدة. انتهى.

وظاهر، أن القول الميسور يشمل الكل. وذهب المهايميّ إلى أن الآية في منعهم خوفاً من أن يصرفوه فيما لا ينبغي. قال: أي وإن تحقق إعراضك عمن تريد الإحسان إليهم، طلب رحمة من ربك في المنع عنهم لئلا يقعوا في التبذير، بصرف المعطي إلى شرب الخمر أو الزنى، لما عرفت من عاداتهم، فقل لهم في الدفع قولاً سهلاً عليهم، إحساناً إليهم بدل العطاء. انتهى.

ولم أره لغيره. والنظم الكريم يحتمله.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾

﴿**وَلاَ تَجعَلْ يدَكَ مغْلُولةً إلى عُنُقِكَ**﴾ أي لا تمسك يدك عن النفقة والعطية لمن له حق ممن تقدم، بمنزلة المشدودة يده إلى عنقه، الذي لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء ﴿**وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ**﴾ أي بالتبذير والسرف. قال ابن كثير: أي لا تسرف في الإنفاق فتعطي غير طاقتك وتخرج أكثر من دخلك ﴿**فتَقْعُدَ**﴾ أي فتبقى ﴿**مَلُوماً**﴾ يلومك الفقراء والقرابة ﴿**مَّحْسُوراً**﴾ أي نادماً، من (الحسرة) أو منقطعاً بك لا شيء عندك من (حسره السفر) إذا بلغ منه الجهد وأثر فيه.

وفي النهيين استعارتان تمثيليتان شبه في الأولى فعل الشحيح في منعه، بمن يده مغلولة لعنقه، بحيث لا يقدر على مدّها.

وفي الثانية، شبه السرف ببسط الكف بحيث لا تحفظ شيئاً. وهو ظاهر. وجعل ابن كثير قوله تعالى: ﴿**فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً**﴾ من باب اللف والنشر المرتب. قال: أي فتقعد، إن بخلت، ملوماً يلومك الناس ويذمونك. ويستغنون عنك كما قال زهير في المعلقة:

ومَنْ كَانَ ذَا مالٍ فيبخَلْ بماله على قومه يُسْتغنَ عنه ويُذْمم

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدتَ بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير. وهي الدابة التي عجزت عن السير، فوقفت ضعفاً وعجزاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

﴿**إنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ**﴾ أي يوسعه ويضيقه، حسب مشيئته

وحكمته ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ أي خبيراً ببواطنهم، بصيراً بظواهرهم.

قال المهايميّ: ولما وجب إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل، لحفظ أرواحهم، فالأولاد بحفظ الأرواح أولى، لذلك قال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾

﴿**وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادكَمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ**﴾ نهي لهم عما كانوا يفعلونه في الجاهلية من قتلهم أولادهم. وهو وأدهم بناتهم. أي دفنهن في الحياة. كانوا يئدونهن خشية الفاقة وهي الإملاق والفقر، بالإنفاق عليهم إذا كبروا. فنهاهم اللَّهُ وضمن لهم أرزاقهم بقوله: ﴿**نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ**﴾ أي نحن المختصون بإعطاء رزقهم في الصغر والكبر، وقوله تعالى: ﴿**وَإِيَّاكُمْ**﴾ أي الآن بإغنائكم. وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ قَتْلَهُمْ**﴾ أي للإملاق الحاضر والخشية في المستقبل ﴿**كانَ خِطئاً كَبيراً**﴾ أي لإفضائه إلى تخريب العالم. وأي خطء أكبر من ذلك.

تنبيه:

دل قوله تعالى: ﴿**خَشْيَةَ إِملاقٍ**﴾ على أن ذلك هو الحامل لهم على الوأد، لاخوف العار كما زعموا. قال المبرّد في (الكامل): كانت العرب في الجاهلية تئد البنات. ولم يكن هذا في جميعها. إنما كان في تميم بن مرّ، وقيس، وأسد، وهذيل، وبكر بن وائل.

ثم قال: ودل على ما من أجله قتلوا البنات فقال: ﴿**وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ**﴾ وقال: ﴿وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلادهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٢]، فهذا خبر بيّن أنّ ذلك للحاجة. وقد روى بعضهم أنهم إنما فعلوا ذلك أنفة. وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنّى؛ أن تميماً منعت النعمان الإتاوة. فوجه إليهم أخاه الريان بن المنذر، فاستاق النعم وسبى الذراري. فوفدت إليه بنو تميم. فلما رآها أحب البقيا. فأناب القوم وسألوه النساء. ففال النعمان: كل امرأة اختارت أباها ردت إليه، وإن اختارت صاحبها تركت عليه. فكلهن اختار أباها إلا ابنة القيس بن عاصم فإنها اختارت صاحبها عمرو ابن المشمرج. فنذر قيس ألا تولد له ابنة إلا قتلها. فهذا شيء يعتلّ به من وأد، ويقول: فعلناه أنفة، وقد أكذب ذلك بما أنزل اللَّهُ تعالى في القرآن.

وقال ابن عباس رحمه اللَّهُ (في تأويل هذه الآية): وكانوا لا يورّثون ولا

يتخذون إلا من طاعنَ بالرمح ومنع الحريم، يريد الذكران. والخطأ كالإثم، لفظاً ومعنى. ولما نهى عن قتل الأولاد، نهى عن قطع النسل بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾

﴿ **وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كَان فَاحِشَةً** ﴾ أي فعلة قبيحة متناهية في القبح. توجب النفرة عن صاحبه، والتفرقة بين الناس ﴿ **وساءَ سَبيلاً** ﴾ أي بئس طريقاً طريقه. فإنه غصب الأبضاع المؤدي إلى اختلاف أمر الأنساب، وهيجان الفتن غصباً من غير سبب. والسبب ممكن. وهوالصهر الذي شرعه اللّهُ، وقال المهايميّ: ﴿ **سَاءَ سَبيلاً** ﴾ لقضاء الشهرة التي خلقت لطلب النسل، بتضييعه. ثم ذكر ما هو أعظم في التنفير، والتفرقة فقال تعالى مجده:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾

﴿ **وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتي حَرَّمَ اللّهُ** ﴾ أي قتلها وهي نفس الإنسان ﴿ **إلاَّ بالْحقِّ** ﴾ أي إلا بسبب الحق، فيتعلق بـ ﴿ **لا تقتلوا** ﴾ أو حال من فاعل (لا تقتلوا) أو من مفعوله. وجوز تعلقه بـ (حرّم) أي حرّم قتلها إلا بالحق. وحقها أن لا تقتل إلا بكفر بعد إسلام، أو زنى بعد إحصان، أو قوداً بنفس ﴿ **وَمن قُتلَ مَظْلُوماً فقدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّه سُلْطاناً فلا يُسْرف في الْقَتْلِ إنَّهُ كانَ مَنصُوراً** ﴾ أي ومن قتل بغير حق، مما تقدم، فقد جعلنا لوليّه، الذي بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه ﴿ **سُلْطاناً** ﴾ أي تسلطاً على القاتل في الاقتصاص منه. أو حجة يثب بها عليه، وحينئذ فلا يسرف في القتل. أي فلا يقتل غير القاتل، ولا اثنين والقاتلُ واحد، كعادة الجاهلية. كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة. وقوله: ﴿ **إنَّهُ كانَ مَنْصُوراً** ﴾ تعليل للنهي. والضمير للوليّ. يعني: حسبه أن اللّه قد نصره بأن أوجب له القصاص، فلا يستزد على ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾

﴿ولاَ تقْربُوا مَالَ الْيتَيم إلا بالَّتي هي أَحسَنُ﴾ أي لا تتصرفوا في ماله إلا بالطريقة التي هي أحسن، وهي حفظه عليه وتثميره وإصلاحه. وقوله تعالى: ﴿حتَّى يبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ غاية جواز التصرف على الوجه الحسن: أي حتى يبلغ وقت اشتداده في العقل وتدبير ماله وصلاح حاله في دينه ﴿وأَوْفُوا بالعَهْدِ﴾ أي العقد الذي تعاقدون به الناس في الصلح بين أهل الحرب والإسلام، وفيما بينكم أيضاً. والبيوع والأشربة والإجارات ونحوها ﴿إنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسؤولاً﴾ أي مطلوباً. يطلب من المعاهد الثبات عليه، وعدم إضاعته أو: صاحبه مسؤول عن نقضه إياه. والمعنى: لا تنقضوا العهود الجائزة بينكم وبين من عاهدتموهم، فتخفروها وتغدروا بمن أعطيتموهُ إياها.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾

﴿وأَوفُوا الْكَيْلَ إذا كِلتُمْ﴾ أي أتموه إذا كلتم لغيركم ولا تبخسوه ﴿وزِنُوا بالْقِسْطَاس الْمُستَقيم﴾ أي بالميزان السوي؛ بلا اعوجاج ولا خديعة ﴿ذَلكَ خيْرٌ﴾ أي لكم في معاشكم لانتظام أموركم بالعدل، وإيفاء الحقوق أربابها ﴿وأَحْسَنُ تأويلاً﴾ أي عاقبة ومآلاً؛ إذ ليس معه مظلمة يطالب بها يوم القيامة. ثم أمر تعالى برعاية القسطاس المعنويّ.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾

﴿ولاَ تَقْفُ مَا لَيْس لَكَ به علْمٌ﴾ أي لا تتبعه في قول أو فعل، تسنده إلى سمع أوبصر أو عقل. من (قفا أثره) إذا تبعهُ.

قال الزمخشري: والمراد النهي عن أن يقول الرجل ما لا يعلم، وأن يعمل بما لا يعلم. ويدخل فيه النهي عن التقليد دخولاً ظاهراً، لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده، انتهى.

ولا يخفى ما يندرج تحت هذه الآية من أنواع كثيرة. كمذاهب الجاهلية في الإلهيات والتحريم والتحليل. وكشهادة الزور والقذف ورمي المحصنات الغافلات والكذب وما شاكلها ﴿إنَّ السَّمْعَ والْبَصَرَ والْفُؤَادَ كُلُّ أولَئكَ كَانَ عنهُ مسؤولاً﴾ أي كان

صاحبها مَسؤولاً عما نسب إليها يوم القيامة. أو تُسأل نفس الأعضاء لتشهد على صاحبها.

قال المهايمي: قدم السمع لأن أكثر ما ينسب الناس أقوالهم إليه. وأخر الفؤاد، لأن منتهى الحواس. ولم يذكر بقيتها لأنه لايخالفها قول أو فعل.

﴿ولاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً﴾ أي مختالاً. أي مشية المعجب المتكبر. إذ لا يفيدك قوةً ولا علواً. كما قال سبحانه: ﴿إنَّكَ لَنَ تَخرِقَ الأَرْضَ﴾ أي لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها، وشدة وطاتكَ: ﴿ولَن تبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً﴾ أي لن تحاذيها بتطاولك ومدّ قامتك، كما يفعله المختال تكلفاً، وفي هذا تهكم بالمختال، وإيذان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض وبعض أجزائها.

قال الناصر: وفي هذا التهكم والتقريع لمن يعتاد هذه المشية،كفاية في الانزجار عنها. ولقد حفظ اللّهُ عوامَّ زماننا عن هذه المشية. وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا. بينا أحدهم قد عرف مسألتين أو أجلس بينَ يديه طالبين، أو شدَّ طرفاً من رياسة الدنيا، إذا هو يتبختر في مشيه، ويترجع ولا يرى أنه يطاول الجبال، ولكن يحكّ بيافوخه عنان السماء، كأنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون. وماذا يفيده أن يقرأ القرآن أو يُقرأ عليه، وقلبه عن تدبره على مراحل، واللّهُ ولي التوفيق.

القول في تأويل قوله تعالى:

كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

﴿كُلُّ ذلكَ﴾ أي المنهيّ عنه من قوله: ﴿ولاَ تَجعَلْ معَ اللّهِ إلهاً آخرَ﴾ إلى هذه الغاية: ﴿كَانَ سَيِّئُهُ عندَ ربِّكَ مَكْروهاً﴾ قال المهايمي: أما الشرك فلإخلاله بالكمال المطلق الذي لا يتصور مع الشرك. وأما عبادة الغير فلما فيها من تعظيمه المخصوص بذي الكمال المطلق فهو في معنى الشرك، وأما العقوق فلأنه كفران نعمة الأبوين في التربية، أحوج ما يكون المرء إليها. ومنع الحقوق بالبخل تفريط، والتبذير والبسط إفراط. وهما مذمومان، والذميم مكروه. والقتل يمنع الحكمة من بلوغها إلى كمالها... والزنى وإتلاف مال اليتيم في معناه. ونقض العهد مخلّ بنظام العالم. وكذا اقتفاء ما لا يعلم. والتكبر من خواص الحق. وعادة الملوك كراهة أن يأخذ أحد من خواصه شيئاً: ﴿ذلِكَ ممَّا أوْحى إليْك ربُّكَ منَ الْحِكْمة﴾ أي مما يحكم العقل بصحته، وتصلح النفس بأسوته.

قال المهايمي: أي من العلم المحكم الذي لا يتغير بشبهة: ﴿ **وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إلهاً آخَرَ** ﴾ كرره للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاهُ. وأنه رأس كل حكمة وملاكها. ومنْ عَدِمَهُ لم ينفعه علومه وحكمه.

قال أبو السعود: وقد رتب عليه ما هو عائدة الإشراك أوّلاً حيث قيل: ﴿ **فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً** ﴾ ورتب عليه ههنا نتيجة في العقبى فقيل: ﴿ **فَتُلقى في جَهَنَّمَ مَلُوماً** ﴾ أي بالجهل العظيم ﴿ **مَدْحُوراً** ﴾ أي مبعداً مطروداً من الرحمة. وفي إيراد الإلقاء، مبنياً للمفعول، جري على سنن الكبرياء، وازدراء بالمشرك وجعلٌ له، من قبيل خشبة يأخذها آخذ بكفه، فيطرحها في التنور. انتهى. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

﴿ **أَفأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بالْبَنِينَ واتَّخَذَ من الْملائكَةِ إناثاً، إنَّكُم لتَقُولُونَ قَوْلاً عَظيماً** ﴾.

خطاب للذين قالوا من مشركي العرب (الملائكة بنات اللّه) والهمزة للإنكار.
قال الزمخشريّ: والمعنى: أفخصكم ربكم، على وجه الخلوص والصفاء، بأفضل الأولاد وهم الذكور، ولم يجعل فيهم نصيباً لنفسه، واتخذ أدونهم، وهن البنات، وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم، بل تئدونهن وتقتلونهن. فهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم. فإن العبيد لا يؤثَرون بأجود الأشياء، وأصفاها من الشوب، ويكون أردؤها وأدونها للسادات. وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً** ﴾ أي بإضافة الأولاد إليه، وهي خاصة المحدثات. ثم بإيثاركم أنفسكم عليه، حيث تجعلون له ما تكرهون.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾

﴿ **وَلقَدْ صَرَّفْنا في هذا الْقُرْآنِ** ﴾ أي كررنا للناس البيان بوجوه كثيرة، وبينا فيه من كل مثل ﴿ **لِيَذَّكَّرُوا** ﴾ أي ليتعظوا ويعتبروا ويطمئنوا إلى ما يحتج به عليهم ﴿ **وَمَا يَزِيدُهُمْ** ﴾ أي التصريف المذكور ﴿ **إلاّ نُفُوراً** ﴾ أي عن الحق وبعداً عنه ، الذي يقربه وجوه البيان. وقوله تعالى: ﴿ **قلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إذاً لابْتَغَوْا إلى ذي الْعَرْشِ**

سَبيلاً﴾ أي قل لهؤلاء المشركين (الزاعمين أن للّه شركاء من خلقه، العابدين معه غيره، ليقربهم إليه زلفى) : لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تعبد لتقرّب إليه وتشفع لديه، لكان أولئك المعبودونَ يعبدونهُ ويتقربون إليه، ويبتغون الزلفى والطاعة لديه، فاعبدوهُ أنتم وحده كما يعبدهُ من تدعونه من دونه. ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكمْ وبينه. فإنه لايحب ذلك ولايرضاه. بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه. هذا ما اختاره ابن كثير، وسبقه إليه ابن جرير.

وحاصله: أن السبيل بمعنى الوسيلة الموصلة إليه. وفيه إشارة إلى قياس اقترانيّ تقريره هكذا: ولو كان كما زعمتم معهه آلهة لتقربوا إليه. وكل من كان كذلك ليس إلهاً، فهم ليسوا بآلهة. وقيل: معنى﴿**لاَبْتَغَوْا إلى ذي الْعَرْشِ سَبيلاً**﴾ أي لطلبوا إليه سبيلاً بالمغالبة والممانعة، كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض، على طريقة قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فيهما آلِهَةٌ إلاَّ اللَّهُ لَفَسَدتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] وهذا الوجه قدمه الزمخشري على الأول. وقال أبو السعود: إنه الأظهر الأنسب لقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

﴿**سُبْحَانَهُ**﴾ فإنه صريح في أن المراد بيان أنه يلزم مما يقولونه محذور عظيم، من حيث لا يحتسبون. وأما ابتغاء السبيل إليه تعالى بالتقرب، فليس مما يختص بهذا التقرير، ولاهو مما يلزمهم من حيث لا يشعرون. بل هو أمر يعتقدونه رأساً. انتهى. ومعنى ﴿**سُبْحَانَهُ**﴾ أي تنزه عن الولد والشريك تنزهاً حقيقاً به ﴿**وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبيراً**﴾ أي تعاظم عن ذلك تعاظماً كبيراً. فإن مثل هذه الفِرية والبهتان، مما يتنزه عنه مقامه الأسمى.

قال الشهاب: وذكرُ العلوّ، بعد عنوانه بـ (ذي العرش). في أعلى مراتب البلاغة. وقوله تعالى: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَواتُ السَّبْعُ والأَرْضُ وَمن فيهنَّ، وَإن من شَيءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بحَمْدِه وَلكن لا تَفْقَهُونَ تَسْبيحَهُمْ، إنَّه كانَ حَليماً غَفُوراً**﴾ أي تُنزِّهُ اللّه، وتقدسُهُ وتجلُّهُ السمواتُ والأرضُ ومن فيهن من المخلوقات عما يصفه به المشركون. وتشهد جميعها له بالوحدانية في إلهيته وربوبيته، كما قال: ﴿تَكادُ السَّمَواتُ

يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً﴾ [مريم: ٩٠-٩١]، وقوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾ أي لأنها بخلاف لغاتكم.

قال ابن كثير: وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، على أشهر القولين. ثم استدل بما صح من تسبيح الطعام، والحصا، ممَّا خرج في الصحيحين والمسانيد، مما هو مشهور. واختاره الراغب في (مفرداته) وقال: إنه تسبيح على الحقيقة بدلالة قوله: ﴿**وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾ ودلالة قوله: ﴿**وَمَن فِيهِنَّ**﴾ بعد ذكر السموات والأرض لا يصح أن يكون تقديره (يسبح له من في السموات ويسجد له من في الأرض) لأن هذا من نفقهه، ولأنه محال أن يكون ذلك تقديره، ثم يعطف عليه بقوله: ﴿**وَمَن فِيهِنَّ**﴾ والأشياء كلها تسبح له وتسجد بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار. والآية تدل على أن المذكورات تسبح باختيار، لما ذكر من الدلالة. انتهى

وذهب كثيرون إلى أن التسبيح المذكور مجازيّ، على طريقة الاستعارة التمثيلية أو التبعية. كـ(نطقت الحال). فإنه استعير فيه للتسبيح للدلالة على وجود فاعل قادر حكيم واجب الوجود منزه عن الولد والشريك، كما يدل الأثر على مؤثره. فجعلت تلك الدلالة الحالية كأنه تنزيه له عما يخالفهُ.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

قالوا: والخطاب في قوله تعالى: ﴿**وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسبيحُهمْ**﴾ للمشركين. أي لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يفهم تسبيحهم. وقد بالغَ في رد القول الأول واختيار الثاني، الإمام ابن حزم في كتابه (الملل والنحل) ولابأس بإيراده، لما فيه من الغرائب.

قال رحمه اللَّهُ في الرد على من قال: (إنَّ في البهائم رسلاً): إنما يخاطب اللّه تعالى بالحجة من يعقلها. قال اللَّهُ تعالى: ﴿يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقد علمنا بضرورة الحس؛ أن اللّه تعالى إنما خص بالنطق - الذي هو التصرف في العلوم ومعرفة الأشياء على ما هي عليه، والتصرف في الصناعات على اختلافها - الإنسان خاصة. وأضفنا إليهم، بالخبر الصادق، الجن والملائكة. ثم قال رحمه اللَّهُ وقد قاد السخف بعضهم إلى أن جعل للجمادات تمييزاً لمثل قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ**

يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ ونحوه من الآيات. ولا حجة لهم فيه. لأن القرآن واجب أن يحمل على ظاهره، كذلك كلام رسول الله ﷺ. ومن خالف ذلك كان عاصياً للّه عزّ وجّل، مبدلاً لكلماته، ما لم يأت نص في أحدهما، أو إجماع متيقن، أو ضرورة حسّ على خلاف ظاهره، فيوقف عند ذلك. ويكون من حمله على ظاهره حينئذ ناسباً الكذب إلى اللّهِ عزّ وجلّ، أو كاذباً عليه وعلى نبيّه عليه السلام، نعوذ باللّهِ من كلا الوجهين.

وإذ قد بينا قبلُ بالبراهين الضرورية؛ أن الحيوان (غير الإنسان والجن والملائكة) لا نطق له. نعني أنه لا تصرف له في العلوم والصناعات. وكان هذا القول مشاهداً بالحس معلوماً بالضرورة، لا ينكره إلا وقح مكابر لحسّه، وبينّا أن كل ما كان بخلاف التمييز المعهود عندنا، فإنه ليس تمييزاً. وكان هذا أيضاً يعلم بالضرورة والعيان والمشاهدة – فوجب أنه بخلاف ما يسمى في الشريعة واللغة نطقاً وقولاً وتسبيحاً وسجوداً. فقد وجب أنها أسماء مشتركة اتفقت ألفاظها. وأما معانيها فمختلفة، لا يحل لأحد أن يحملها على غير هذا. لأنه إن فعل كان مخبراً أن اللّهَ تعالى قال ما يبطله العيانُ والعقل الذي به عرفنا اللّهُ تعالى، ولولاه ما عرفناهُ.

فاللفظُ مشترك والمعنى هو ما قام الدليل عليه، بيان ذلك: أن التسبيح عندنا إنما هو قول (سبحان اللّهِ وبحمده) وبالضرورة نعلم أن الحجارة والخشب والهوامّ والشحرات والألون لا تقول (سبحان اللّهِ بالسين والباء والحاء والألف والنون واللام والهاء) هذا ما لا يشك فيه من له مسكة عقل. فإذ لا شك في هذا، فباليقين علمنا أن التسبيح الذي ذكره اللّهُ تعالى هو حق وهو معنى غير تسبيحنا نحن بلا شك. فإذ لا شك في هذا فإن التسبيح في أصل اللغة هوتنزيه اللّه تعالى عن السوء. فإذ قد صح هذا، فإن كل شيء في العالم بلا شك منزّه للّه تعالى عن السوء الذي هو صفة الحدوث. وليس في العالم شيءٌ إلا وهو دالّ (بما فيه من دلائل الصنعة واقتضائه صانعاً لا يشبهه) على أن اللّه تعالى منزه عن كل سوء ونقص وهذا هو الذي لا يفهمه ولا يفقهه كثير من الناس كما قال تعالى: **﴿وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾** فهذا هو تسبيح كل شيء بحمد اللّهِ تعالى بلا شك. وهذا المعنى حق لا ينكره موحد. فإن كان قولنا هذا متفقاً على صحتهِ. وكانت الضرورة توجب أنه ليس هو التسبيح المعهود عندنا، فقد ثبت قولنا وانتفى قول من خالفنا بظنه.

وأيضاً فإن اللّه تعالى يقول: **﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾** والكافر الدهريّ شيء لايشك في أنه شيء وهو لا يسبح بحمد اللّهِ تعالى

البتة فصح ضرورة أن الكافر يسبح، إذ هو من جملة الأشياء التي تسبح بحمد اللّه تعالى. وإن تسبيحه ليس هو قوله (سبحان اللّه وبحمده) بلا شك. ولكن تنزيه اللّه تعالى بدلائل خلقه وتركيبه عن أن يكون الخالق مشبهاً لشيء مما خلق. وهذا يقيني لاشك فيه.

فصح بما ذكرنا أن لفظة (التسبيح) هي من الأسماء المشتركة، وهي التي تقعُ على نوعين فصاعداً. انتهى كلامه.

ومحصله نفي أن يكون للجمادات تسبيح وتمييز بالمعنى الموجود في الإنسان. وهو حق لا شبهة فيه ولايسوغ لأحد إنكاره. إلا أنه لا ينفي أن يكون له تسبيح وفيه تمييز يناسبه. فيرجع الخلاف لفظياً. وقد وافق العلم الحديث الآن – كما قاله بعض الفضلاء – على أن في الجماد أثراً من الحياة. وأن فيه جميع الصفات الجوهرية التي تميز الأحياء. وأن ما فيه في الجواهر الفردة ودقائق المادة ليست ميتة، بل هي عناصر حية متحركة لها صورة من صور الحياة الدنيا المشاهدة في جميع أنواع المادة مثل الجذب والدفع. والتأثر بالمؤثرات الخارجية، وتغير قوة التوازن، وتجمع الدقائق على أشكال منتظمة،طبقاً لتراكيب محدودة. وإفراز مركبات كيماوية مختلفة. وبالجملة؛ فما يقوله العلم الجديد عن مشابهة الأجسام غير الحية للأجسام الحية يطابق تصورات الأقدمين والشعراء في ذلك. انتهى

وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً** ﴾ أي حيث لم يعاجلهم بالعقوبة. مع كفرهم وقصورهم في النظر. ولو تابوا لغفر لهم ما كان منهم.

ثم مثل تعالى حالة المشركين مع التنزيل الكريم، حينما يقرؤه عليهم الرسول، صلوات اللّه عليه، يدعوهم إلى العمل بما فيه من التوحيد، ورفض الشرك وغير ذلك من ضلالهم، بمن طمس على بصيرته وبصره وسمعه، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾

﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ** ﴾ أي على هؤلاء المشركين ﴿ **جَعلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ** ﴾ أي لا يصدقون بالبعث ولا يقرّون بالثواب والعقاب، جزاء على الأعمال ﴿ **حِجَاباً مَّسْتُوراً** ﴾ أي من الجهل وعمى القلب. فيحجب قلوبهم عن أن يفهموا ما تقرؤه عليهم فينتفعوا به، عقوبة منّا لهم على كفرهم.

ومعنى كون الحجاب مستوراً، أي عن العيون، فلا تدركه أبصارهم. وعن الأخفش: إن (مفعولاً) يرد بمعنى (فاعل) كميمون ومشؤوم بمعنى يامن وشائم. كما أن (فاعلاً) يرد بمعنى (مفعول) كماء دافق.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾

﴿**وجعلنا على قلوبهم أكنّةً**﴾ أي أغطية كثيرة، جمع (كنان) ﴿**أن يفقهوه**﴾ أي كراهة أن يفقهوه ﴿**وفي آذانهم وقْراً**﴾ أي صمماً يمنعهم من استماعه. وذلك ما يتغشاها من خذلان اللّه تعالى إياها، عن فهم مايتلى عليهم والإنصات له.

قال أبوالسعود: هذه تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشؤون النبيّ ﷺ وفرط نبوّ قلوبهم عن فهم القرآن الكريم، ومجّ أسماعهم له، جيء بها بياناً لعدم فقههم لتسبيح لسان المقال، إثر بيان عدم فقههم لتسبيح لسان الحال. وإيذاناً بأن هذا التسبيح من الظهور بحيث لا يتصور عدم فهمه، إلا لمانع قويّ يعتري المشاعر فيبطلها. تنبيهاً على أن حالهم هذا أقبح من حالهم السابق.

﴿**وإذا ذكرت ربّك في القرآن وحده**﴾ أي غير مشفوع بذكره ذكر شيء من آلهتهم ﴿**ولّوا على أدبارهم نفوراً**﴾ أي هرباً من استماع التوحيد. قال القاشانيّ: لتَشتُّت أهوائهم، وتفرق هممهم في عبادة متعبداتهم، من أصنام الجسمانيات والشهوات. فلا يناسب بواطنهم معنى الوحدة لتألفها بالكثرة واحتجابها بها. ثم أخبر تعالى عما يتناجى به المشركون، رؤساء قريش، بقوله متوعداً لهم:

القول في تأويل قوله تعالى:

نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

﴿**نحن أعلم بما يستمعون به**﴾ أي بسببه أو لأجله من الهزء والاستخفاف واللغو ﴿**إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً**﴾ أي

سُحِر، فجُنَّ فاختلط كلامه ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأمثالَ﴾ أي مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون ﴿فَضَلُّوا﴾ أي عن الحق والهداية بكَ ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ أي فلا يهتدون لطريق الحق لضلالهم عنه وبعدهم منه. وأن اللّهَ قد خذلهم عن إصابته. أو المعنى فلا يستطيعون سبيلاً إلى طعن يمكن أن يقبله أحد، بل يخبطون بما لا يرتاب في بطلانه أحد. كالمتحير في أمره لايدري ماذا يصنع.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

﴿وَقَالُوا أءِذاَ كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً﴾ وهو ما بلي وتفتّتَ ﴿أئنَّا لَمَبْعُوثُون خَلْقاً جديداً، قلْ كُونُوا حِجَارَةً أوْ حَديداً، أوْ خَلْقاً ممَّا يَكْبُرُ في صُدُورِكُمْ﴾ أي يعظم في نفوسكم عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياؤه. فإنه يحييكم ولايعجزه بعثكم. فكيف، إذا كنتم عظاماً مرفوتة وقد كانت موصوفة بالحياة قبل، والشيء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ أي بعد لزوم الحجة عليهم ﴿مَن يُعِيدُنَا، قُلِ الَّذي فَطَرَكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ، فَسَيُنْغِضُونَ إلَيْكَ رؤُوسَهُمْ﴾ أي يحركونها برفع وخفض، تعجباً واستهزاءً ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هُوَ﴾ أي ما ذكرته من الإعادة ﴿قلْ عَسى أن يَكُونَ قَرِيباً، يَوْمَ يَدْعُوكمْ فَتَسْتَجِيبونَ﴾ أي يوم يبعثكم فتنبعثون. قال القاضي: استعار لهما الدعاء والاستجابة. للتنبيه على سرعتهما وتيسر أمرهما. وإن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء. انتهى.

وقيل: إنهما حقيقة كما في آية: ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ من مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٤١]، وفي قوله: ﴿يومَ يَدْعُوكُمْ﴾ وجوه للمعربين. ككونه بدلاً من (قريباً) على أنه ظرف. أو منصوب بـ (يكون) أو بمقدر كـ (اذكر) أو (تبعثون) وقوله تعالى: ﴿بحَمْدِه﴾ أي وله الحمد على ما أحضركم للجزاء وتحقق وعده الصدق ﴿وَتَظُنُّونَ إن لَبِثتُمْ إلاَّ قَليلاً﴾ أي تستقصرون مدة لبثكم في القبور والمضاجع لذهولكم عن ذلك الزمان. أو في الحياة الأولى، لاستقصاركم إياها، بالنسبة إلى الحياة الآخرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤)

﴿وقُلْ لِعبَادي﴾ أي الذين آمنوا معك. إرادة تقريب أصحابهم إلى الصواب، كامر البعث ﴿يقُولُواْ﴾ في النصيحة، الكلمة ﴿الَّتي هِيَ أحْسَنُ﴾ أي فلا يخاشنوا أحداً ولا يغلطوا بالقول ﴿إنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي يفسد ويهيج الشر والمراء، لتقع بينهم المضارّة ﴿إنَّ الشَّيْطَانَ كانَ للإنسان عدُوّاً مُبيناً﴾ وقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أعْلَمُ بِكُمْ إن يَشأ يرْحَمْكُمْ أوْ إن يَشأ يُعذِّبْكُمْ﴾خطاب لهؤلاء المشركين من قريش. أي إن يشأ يرحمكم فيتوب عليكم برحمته وتنيبوا إليه. وإن يشأ يعذبكم بأن يخذلكم عن الإيمان، فتموتوا على الشرك فيعذبكم عليه يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أرْسَلناكَ عَليْهِمْ وَكيلاً﴾ أي موكولاً إليك أمرهم. تقسرهم على الإيمان. وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً،تبلغهم رسالاتنا.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥)

﴿ورَبُّكَ أعْلَمُ بمَن في السَّموات والأرْض﴾ أي فلا يخفى عليه شيء فيهما. فهو أعلم بهؤلاء ضرورة. وفيه إشارة إلى رحمته تعالى ببعثة الرسل. لحاجة الخلق إليها. وإلى مشيئته فيمن يصطفي لرسالته، ويختار لنبوّته. ويعلمه أهْلاً لها. وقوله تعالى:

﴿ولَقدْ فضَّلْنَا بَعْضَ النَّبيِّنَ علَى بَعْضٍ﴾ أي لاقتضاء علمه وحكمته ذلك. فإنه أعلم بمن في السموات والأرض وأحوالهم. فآتى موسى التوراة وكلمه.وعيسى الإنجيل وداود الزبور. فضلهم بما آتاهم على غيرهم. وقد آتى محمداً القرآن ففضله به على الأنبياء كافة. وقوله تعالى: ﴿وءاتَيْنا داوُدَ زَبُوراً﴾ أي يشتمل على الحكمة وفصل الخطاب، ففضلناه به. قيل: الآية ردٌّ عليهم إذ استبعدوا أن يكونﷺ نبياً، دون من يعدّونه عظيماً بينهم في الغنى والجاه، وذكر من في السموات لإبطال قولهم: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئكَةُ﴾ [الفرقان:٢١] وذكر من في الأرض لرد قولهم: ﴿لَوْلا

نُزِّلَ هذا الْقُرْآنُ علَى رَجُلٍ من الْقَرْيَتين عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]، وتخصيص داود بالذكر، إشارة لتفضيل النبيّ ﷺ كما دل عليه ما كتب فيه من ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]ففيه تلميح إلى ما وقع فيه من وصفه بما ذكر فيه. وإيثار الزبور على الملك بيان لحيثية شرفه، وأن بما أوحي إليه من الكتاب والعلم،لا بالملك والمال، كذا قالوا. والظاهر أنه للإشارة إلى أن داود عليه السلام لم يكن في نشأته الأولى ممن يظن أنه يبلغ ما بلغ في الحكمة والملك. وقد اختصه اللّهُ بهما وميزه اللّه على أهل عصره. وإذ كان ذلك اختصاصاً ربانيّاً، فلا غرابة أن يختص سبحانه من العرب، من علم أنهُ أرجحهم عقلاً،وأكملهم فضلاً، لختم نبوته، وهداية بريته، بمنهاجه وشرعته. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذينَ زَعَمْتُم مِّن دُونه فلا يَمْلكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ ولاَ تَحْويلاً، أُولَئكَ الَّذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهمُ الْوَسيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ويَرجُونَ رَحْمَتَهُ ويَخَافُونَ عذابه إنَّ عَذَابَ ربِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾.

أي قل لهؤلاء المشركين، الذين يعبدون من دون اللّه من خلقه، ادعوا من زعمتموهم أرباباً وآلهةً من دونه، عند ضر ينزل بكم، وانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم أو تحويله عنكم إلى غيركم، فتدعونهم آلهة؟ أي فإنهم لا يقدرون على ذلك ولا يملكونه، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم.

روى الطبريّ عن ابن عباس؛ أن الآية عني بها قوم مشركون، كانوا يعبدون المسيح وعزيراً والملائكة. فأخبرهم اللّه تعالى أن هؤلاء عبيده يرجون رحمته ويخافون عذابه. ويتقربون إليه بالأعمال. ونظير هذه الآية في النهي عن أن يشرك به تعالى الملائكة والأنبياء، قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لي من دوُن اللَّه وَلَكن كُونُوا رَبَّانيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ، وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنَ تَتَّخِذُوا الْمَلائكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٧٩-٨٠]، وفي قوله تعالى:

﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذابَهُ ﴾ إشارة إلى أن العبادة لا تتم إلا بالرجاء والخوف. فبالرجاء تكثر الطاعات وبالخوف تقل السيئات. وقوله تعالى: ﴿ مَحْذُوراً ﴾ أي ينبغي أن يحذر منه ويخاف من حلوله. عياذاً باللّه منه. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

﴿ **وإن مِّن قَرْيَةٍ إلاَّ نحنُ مُهْلِكُوها قبلَ يومِ القِيامَةِ أَوْ مُعذِّبُوها عذاباً شديداً، كانَ ذَلِكَ في الكِتابِ مَسْطُوراً** ﴾.

إخبار بأنه حتمَ وقَضى؛أنه ما من قرية يتمرد أهلها على نبيّهم، إلا ويبيدهم، أو ينزل بهم من العذاب شديدهُ. وذلك لذنوبهم وخطيئاتهم وعدم استجابتهم لنبيهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلكِنَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ [هود: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِها وكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً ﴾ [الطلاق: ٩]. وقال تعالى: ﴿ وكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ ﴾ [الطلاق: ٨] الآيات. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

﴿ **وما مَنَعَنا أن نُرْسِلَ بالآيات** ﴾ أي التي يقترحها قريش: ﴿ **إلاَّ أن كَذَّبَ بها الأوَّلونَ** ﴾ أي إلا تَكْذيبَ الأولين الذين هم أمثالهم. كعاد وثمود. وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك. فاستوجبوا الاستئصال. على ما مضت به السنّة الإلهية. وقد قضينا أن لا نستأصلهم، لأن منهم من يؤمن أو يلد من يؤمن. ثم ذكر بعض الأمم المهلَكة بتكذيب الآيات المقترحة، فقال: ﴿ **وآتَيْنا ثُمودَ النَّاقَةَ** ﴾ أي أعطينا قوم صالح الناقة بسؤالهم ﴿ **مُبْصِرَةً** ﴾ أي بينة، تبصر الغَيْر برهانها ﴿ **فَظَلَمُوا بها** ﴾ أي فكفروا بها وظلموا أنفسهم بسبب عقرها، فأبادهم اللّهُ عن آخرهم وانتقم منهم ﴿ **وما نُرْسلُ بالآيات إلاَّ تَخْويفاً** ﴾ أي وما نرسل الآيات المقترحة إلا تخويفاً للناس، ليعلموا السنّة الإلهية مع العاتين، فيتذكروا ويتوبوا.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبيّ ﷺ أن يجعل لهم

الصفا ذهباً. وأن ينحّي الجبال عنهم فيزرعوا. فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن يأتيهم الذي سألوا. فإن كفروا، هلكوا كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم. قال: لا بل استأني بهم[1]، وأنزل اللّهُ قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعنا أن نُرسِلَ﴾ الآية. ورواهُ النسائي.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

﴿وَ إذْ قُلْنا لَكَ إنَّ ربَّكَ أحاطَ بالنَّاسِ﴾ أي علماً، فلا يخفى عليه شيء من كفرهم وتكذيبهم. ومنه ما جرى منهم، إثر الرؤيا والإخبار بالشجرة، من الجحود والهزء واللغو. كما قال سبحانه: ﴿وما جَعَلْنَا الرُّؤيا الَّتي أَرَيْنَاكَ إلاَّ فِتْنَةً للنَّاسِ﴾ قال الأكثرون: يعني مارآه النبيّ ﷺ ليلة الإسراء من الآيات. فلما ذكرها النبيّ ﷺ للناس، أنكر بعضهم ذلك وكذَّبوا. وجعل اللّهُ ذلك ثباتاً ويقيناً للمخلصين. فكانت فتنةً، أي اختباراً وامتحاناً، وتمسك بهذا من جعل الإسراء مناماً، لكون الرؤيا مخصوصة بالمنام. وأجيب بأن قوله تعالى: ﴿إلاَّ فِتْنَةً للنَّاس﴾ يرده. لان رؤيا المنام لايفتتن بها أحد ولا يكذّب. وجاء في اللغة (الرؤيا بمعنى الرؤية مطلقاً) وهو معنى حقيقيّ لها. وقيل: إنها حقيقة في رؤيا المنام ورؤيا اليقظة ليلاً. وقد ذكر السهيلي؛ أنه ورد في كلام العرب بهذا المعنى. وأنه كالقربى والقربة. وقيل: إنه مجاز، إما مشاكلة لتسميتهم له رؤيا، أو جارٍ على زعمهم. أو على التشبيه بها لما فيها من خرق العادة. أو لوقوعها ليلاً. أو لسرعتها. أفاده الشهاب.

وروى الطبري عن الحسن في الآية هذه ؛ قال: أسري به ﷺ عشاءً إلى بيت المقدس فصلى فيه وأراه اللّهُ ما أراه من الآيات. ثم أصبح بمكة فأخبرهم أنه أسرى به إلى بيت المقدس. فقالوا له: يا محمد! ما شأنك؟ أمسيت فيه ثم أصبحت فينا تخبرنا أنك أتيت بيت المقدس؟ فعجبوا من ذلك حتى ارتد بعضهم عن الإسلام.

وقال قوم: الآية في رؤياه ﷺ التي رأى أنه يدخل مكة. فروى البريّ عن ابن عباس. قال: يقال: إن رسول اللّه ﷺ أُرِيَ أنه دخل مكة هو وأصحابه. وهويومئذ بالمدينة. فعجل رسول اللّه ﷺ السير إلى مكة. قبل الأجل: فرده المشركون. فقالت

---

(١) أخرجه في المسند ١ /٢٥٨ والحديث رقم ٢٣٣٣.

أناس: قد رُدّ رسول الله ﷺ وقد كان حدثنا أنه سيدخلها. فكانت رجعتهُ فتنتَهم. وذلك عام الحديبية. ثم دخل مكة في العام المقبل. وأنزل الله عزَّ وجَّل: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بالحَقِّ﴾ ولا يقال: إن السورة مكية وقصة الحديبية بعد الهجرة، لاحتمال أنه رأى تلك الرؤيا بمكة، وتزلت عليه هذه الآية. ولكنه ذكرها عام الحديبية. لأنه كان إذ ذاك بمكة. فعلم أن دخوله بعد خروجه منها. كذا قيل.

وذهب بعضهم إلى أن كثيراً من السور المكية ضم إليها آيات مدنية، كما في (الإتقان) والطبّري رجح الأول وفاقاً للأكثر. وقد قدمنا مراراً؛ أن السلف قد يريدون بقولهم: (نزلت الآية في كذا). أن لفظ الآية مما يشمل ذلك. لا أنه كان سبباً لنزوله حقيقة. وعليه. فلا إشكال.

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ في الْقُرْآنِ﴾ عطف على الرؤيا، والأكثرون على أنها شجرة الزقوم المذكورة في سورة الصافات في قوله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ، إنَّا جَعَلْنَاهاَ فِتْنَةً للظَّالمينَ، إنَّها شجَرَةٌ تَخْرُج في أَصْلِ الْجَحيم، طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤوسُ الشَّياطينِ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٦٥] الآيات، وفتنتهم فيها ما رواه الطبريّ عن ابن عباس وقتادة؛ أن أبا جهل قال: زعم صاحبكم هذا - يعني النبي صلوات الله عليه أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر! فكذبوا بذلك. وفي رواية؛ أن أبا جهل قال: أيخوفني بشجر الزقوم؟ ثم دعا بتمر وزبد وجعل يأكل ويقول: تزقموا، فما نعلم الزقوم غير هذا. والمراد بلعنها في القرآن، لعن طاعمها فيه، على أنه مجاز في الإسناد. أو الملعون بمعنى المؤذي لأنها تغلي في البطون كغلي الحميم. فهو إما مجاز مرسل أو استعارة. وقوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي بذلك وبنظائره من الآيات ﴿فَما يَزِيدُهُمْ﴾ أي التخويف ﴿إلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ أي تمادياً فيما هم فيه من الضلال والكفر.

قال المهايميّ: أي فلو أرسلنا إليهم الآيات المقترحة. لقالوا إنه أجلّ من أحاط بأبواب السحر. فلا فائدة في إرسالها سوى تعجيل العذاب الدنيويّ. لكنه ينافي إظهار دينه على الدين كله. ثم أشار تعالى إلى أن هذا الطغيان من اتباع الشيطان. وأنه وحزبه، لعتوهم وتمردهم عن الحق، في النار، بقوله سبحانهُ.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أي تحيةً وتكريماً ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص:٧٦]، ﴿قَالَ﴾ أي جراءة على الرب وكفراً به ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ أي أخبرني عن هذا الذي كرمته عليَّ بأن أمرتني بالسجود له، لِمَ كرمته عليَّ؟ أو المعنى: أخبرني أهذا الذي كرمته عليَّ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي لأعمنّهم وأهلكنّهم بالإغواء، إلا المخلصين.

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

﴿قَالَ اذْهَبْ﴾ أي امض لشأنك الذي اخترته ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً﴾ أي جزاءً مكملاً ﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ أي استخف وأزعج ﴿مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ أي أن تستفزه فتخدعه ﴿بِصَوْتِكَ﴾ أي بدعائك إلى الفساد. وعبّر عن الدعاء بالصوت تحقيراً له حتى كأنه لا معنى له: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي صح عليهم. من الجلبة (بفتحات) وهي الصياح. و(الخيل) الخيالة أي ركبان الخيل مجازاً. وأصل معنى الخيل الأفراس. (والرّجل) اسم جمع للراجل وهو خلاف الفارس والمراد الأعوان والأتباع مطلقاً.

قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله؟ قلت: هو كلام ورد مورد التمثيل، مثلت حاله في تسلطه على من يغويه، بمغوار - بكسر الميم، الكثير الغارة وهي الحرب والنهب - أوقع على قوم فصوت بهم صوتاً يستفزهم من أماكنهم، ويقلقهم عن مراكزهم. وأجلب عليهم بجنده من خيالة حتى استأصلهم - أي فالكلام استعارة تمثيلية مركبة. استعير فيه المجموع والهيئة للمجموع والهيئة. ووجهه ما ذكره من استئصالهم وإهلاكهم، أو غلبته وتسخيره لهم. وجوز أن يكون التجوز في المفردات تجوزاً بصوته عن دعائه إلى الشر بالوسوسة. وبخيله ورجله عن كل راكب وماش من أهل العبث والفساد بإغوائه. ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾ أي بحمله إياهم على إنفاقها في المعاصي وجمعها من حرام والتصرف فيها تحريماً وتحليلاً بما لا يرضى ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ أي بالتفاخر فيهم

وتضليلهم بصبغهم غير صبغة الدين، وَوَأْدِهِمْ ونحو ذلك مما يعصى اللّه بسببه ﴿وعِدْهُمْ﴾ أي المواعيد الباطلة والأمانيّ الكاذبة من سلامة العاقبة ودوام الغلبة ﴿وما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إلاَّ غُروراً﴾ وهو تزيين الباطل بزينة الحق ﴿إنَّ عبادي﴾ أي المخلصين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾ أي تسلط بالإغواء ﴿وَكَفَى بِربِّكَ وَكيلاً﴾ أي كفيلاً لهم يتوكلون عليه ولا يلجؤون في أمورهم إلا إليه. وهو كافيهم.

وقد أشار القاشانيّ إلى أن الآية تشير إلى انقسام الناس مع الشيطان على أصناف. وعبارته: تمكن الشيطان من إغواء العباد على أقسام. لأن الاستعدادات متفاوتة. فمن كان ضعيف الاستعداد استفزهُ. أي استخفهُ بصوته، يكفيه وسوسة وهمس بل هاجس ولمة. ومن كان قويّ الاستعداد، فإن أخلص استعدادهُ عن شوائب الصفات النفسانية، أو أخلصه اللّهُ تعالى عن شوائب الغيرية، فليس له إلى إغوائه سبيل كما قال: ﴿إنَّ عبادِيَ لَيسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾ وإلا فإن كان منغمساً في الشواغل الحسية، غارزاً رأسه في الأمور الدنيوية، شاركه في أمواله وأولاده،بأن يحرّضه على إشراكهم باللّهِ في المحبة. بحبهم كحب الله . ويسوّل له التمتع بهم، والتكاثر والتفاخر بوجودهم. ويمنيه الأمانيّ الكاذبة ويزين عليه الآمال الفارغة. وإن لم ينغمس، فإن كان عالماً بصيراً بتسويلاته، أجلب عليه بخيله ورجله. أي مكر به بأنواع الحيل. وكاده بصنوف الفتن. وأفتى له في تحصيل أنواع الحطام والملاذ بأنها من جملة مصالح المعاش. وغره بالعلم وحملهُ على الإعجاب. وأمثال ذلك حتى يصير ممن أضله اللّهُ على علم. وإن لم يكن عالماً بل عابداً متنسكاً، أغواه بالوعد والتمنية. وغره بالطاعة والتزكية أيسر ما يكون. انتهى.

ثم بين تعالى بعضاً من آيات وحدانيته وألوهيته بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

﴿رَبُّكُمُ الَّذي يُزجي لَكُمُ الفُلْكَ في البَحْرِ﴾ أي يُسَيِّر لكم السفن في البحر ﴿لتَبْتَغُوا من فَضْله﴾ أي من رزقه. والآية صريحة في ركوب البحر للتجارة ﴿إنَّهُ كانَ بِكُمْ رحيماً﴾ حيث سهل لكم أسباب ذلك.

قال أبو السعود: وهذا تذكير لبعض النعم التي هي من دلائل التوحيد، وتمهيد

لذكر توحيدهم عند مساس الضرّ، تكملة لما مرّ من قوله: ﴿فَلَا يَمْلِكُون﴾ الآية، وذلك قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

﴿**وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ**﴾ أي خوف الغرق: ﴿**ضلَّ من تدْعُونَ إلاَّ إيَّاهُ**﴾ أي ذهب عن أوهامكم وخواطركُمْ كل من تدعونه وتعبدونه، إلاَّ إياه وحده. فإنكم لا تذكرون سواه. فطرةً فطر اللَّهُ الخلق عليها.

وهذه الآية مما يستدل بها على الرجوع إلى الفطرة الصحيحة. وقد استدل لكثير من الأصول بها، كما يعلم ذلك من كلام الأئمة في مسائل شتى. كمسألة وجود الخالق وعلوّه، والمعاد وغيرها. وقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا نَجَّاكُمْ**﴾ أي من الغرق: ﴿**إلى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ**﴾ أي عن التوحيد: ﴿**وكَانَ الإنسَانُ كَفُوراً**﴾ أي بأنعم اللَّه. والجملة كالتعليل للإعراض. قال الشهاب: وفيه لطف. حيث أعرض عن خطابهم بخصوصهم. وذكر أن جنس الإنسان مجبول على هذا. فلما أعرضوا أعرض اللَّهُ عنهم. ثم خوفهم تعالى بقدرته العظيمة، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

﴿**أَفَأَمِنتُمْ أن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ**﴾ أي يغوّره بكم ﴿**أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصباً**﴾ أي ريحاً ترمي بالحصباء يرجمكم بها، فيكون أشدَّ عليكم من الغرق: ﴿**ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكيلاً**﴾ أي من يتوكل بصرف ذلك عنكم ﴿**أَمْ أَمِنتُمْ أن يُعيدَكُمْ فيه**﴾ أي يقوّي دواعيكم لركوب البحر ﴿**تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الرِيحِ**﴾ أي ريحاً شديدة لا تمر بشيء إلا قصفته، فتكسر السفينة وسط البحر ﴿**فَيُغْرِقَكُمْ بما كَفرتُمْ ثُمَّ لا تجدُوا لَكُمْ علَيْنَا به تَبيعاً**﴾ أي مطالباً بما فعلنا. مثل من يطالب على مُغْرِقٍ سوانا. وهذا كقوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس:١٥].

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَني آدَمَ ﴾ أي بالنطق والتمييز والعقل والمعرفة والصورة والتسلط على مافي الأرض والتمتع به ﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ في البَرِّ والْبَحْرِ ﴾ أي يسرنا لهم أسباب المعاش والمعاد بالسير في طلبها فيهما، وتحصيلها: ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ من الطَّيِّبَاتِ ﴾ أي فنون المستلذات التي لم يرزقها غيرهم من المخلوقات ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ على كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضيلاً ﴾ أي عظيماً فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم، بأن يعبدوا المتفضل بها وحده ويقيموا شرائعه وحدوده.

تنبيه:

ظاهر قوله تعالى: (على كثير) أن ثمة من لم يفضل البشر عليه. قيل وهم الذوات المقدسة من الملأ الأعلى. أعني الملائكة.

قال القاشانيّ: وأما أفضلية بعض الناس، كالأنبياء على الملائكة المقربين، فليست من جهة كونهم بني آدم. بل من جهة السر المودع فيهم المشار إليه بقوله: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَتَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠]، وهو ما أعد لذلك البعض من المعرفة الإلهية االتامة. وحينئذ ليس هو بهذا الاعتبار من بني آدم كما قيل:

وإني وإن كنتُ ابنَ آدم صورةً   فلي فيه معنى شاهدٌ بأُبُوَّتي

وذهب قوم إلى تأويل (الكثير) بـ(الكل) كما أوِّل (القليل) بمعنى (العدم) في قوله تعالى: ﴿ فَقَليلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة:٨٨]، والمعنى: وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْجَمِّ الْغَفير ممَّنْ خَلَقْنا أي جميع المخلوقات.

قال القاشانيّ: على أن تكون (من) للبيان والمبالغة في تعظيمه، بوصف المفضل عليهم بالكثرة وتنكير الوصف وتقديمه على الموصوف. أي كثير وأي كثير، وهوجميع مخلوقاتنا . لدلالة (من) على العموم.ولا يخفى أنه لايلزم من تفضيل جنس على جنس آخر تفضيل كل فرد منه على كل فرد من الآخر.والمسألة معروفة في كتب الكلام.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي بمن ائتموا به من نبيّ أو مقدّم في الدين أو كتاب أو دين. فيقال: يا أتباع فلان! يا أهل دين كذا وكتاب كذا وقيل: بكتاب أعمالهم، فيقال: يا أصحاب كتاب الخير! ويا أصحاب كتاب الشر! قالوا: وفيه شرف لأصحاب الحديث. لأن إمامهم النبيّ ﷺ.

وقال القاشانيّ: أي نحضر كل طائفة من الأمم مع شاهدهم الذي يحضرهم ويتوجهون إليه ويعرفونه، سواء كان صورة نبيّ آمنوا به، أو إمام اقتدوا به، أو دين أو كتاب، أو ماشئت. على أن تكون (الباء) بمعنى (مع). أو ننسبهم إلى إمامهم وندعوهم باسمه، لكونه هو الغالب عليهم وعلى أمرهم، المستعلي محبتهم إياه على سائر محباتهم.

ورجح ابن كثير، رحمه اللّهُ، القول بأن الإمام هو كتاب الأعمال، لقوله تعالى: ﴿وكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ في إمامٍ مُّبينٍ﴾ [يس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرى الْمُجْرِمينَ مُشْفقينَ ممَّا فيه﴾ [الكهف:٤٩] الآية، وقال تعالى: ﴿وتَرى كُلَّ أُمَّة جَاثيةً، كُلُّ أُمَّة تُدْعى إلى كتَابها الْيومَ تُجزَوْنَ مَا كُنتمْ تعمَلُونَ، هذا كتَابُنَا ينطقُ عَلَيْكُم بالْحَقِّ، إنَّا كُنَّا نَسْتَنسخُ مَا كُنتمْ تعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٨-٢٩]، وما رجحه رحمه اللّهُ هو الصواب. لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وأول ماينبغي الاهتمام به في معاني الآيات، هو الرجوع إلى نظائرها. وقوله تعالى: ﴿فَمنْ أُوتيَ﴾ أي من هؤلاء المدعوينَ ﴿كِتَابَهُ﴾ أي كتاب أعماله ﴿بِيَمينه فَأُولْئكَ يقرؤونَ كتَابهُمْ﴾ أي فرحاً وابتهاجاً بما فيه من العمل الصالح ﴿ولاَ يُظْلَمُونَ فَتيلاً﴾ أي لاينقصون من أجورهم قدر فتيل، وهوما في شق النواة، أو ما تفتله بين أصبعيك، أو هو أدنى شيء، فإن الفتيل مثل في القلة، كقوله تعالى: ﴿وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ [مريم:٦٠].

﴿ومَن كَانَ في هذهِ أعْمى فَهُوَ في الآخِرَةِ أعْمَى وأَضَلُّ سَبيلاً﴾ أي ومن كان في هذه الحياة الدنيا أعمى عن الاهتداء إلى الحق، فهو في الآخرة أعمى لايرى طريق النجاة، وأضل سبيلاً منه في الدنيا. لأن له في هذه الحياة آلات وأدوات وأسباباً

يمكنه الاهتداء بها. وهو في مقام الكسب باقي الاستعداد. ولم يبق هناك شيء من ذلك. قيل: العمى حقيقة فيمن لا يدرك المبصرات، لفساد حاسته، مجازٌ في عمى البصيرة وهو عدم الاهتداء إلى طريق النجاة. وقيل: هو حقيقة فيهما. وعليه جوز أن يكون (أعمى) الثاني أفعل تفضيل. لأنه من عمى القلب لا عمى البصر. ويجوز أن يصاغ من العيوب الباطنة أفعل تفضيل كالأحمق والأبله.

لطيفة:

قال الناصر: يحتمل أن تكون هذه الآية قسيمة الأولى. أي فمن أوتي كتابه بيمينه فهو الذي يبصره ويقرؤه. ومن كان في الدنيا أعمى غير مبصر في نفسه، ولا ناظر في معاده، فهو في الآخرة كذلك، غير مبصر في كتابه، بل أعمى عنه أو أشد عمى مما كان في الدنيا، على اختلاف التأويلين. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَك عن الَّذي أوْحَينا إليْكَ لتفتري عَلَيْنَا غيْرَهُ وإذاً لأَتَّخَذُوك خليلاً. ولَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاك لَقَدْ كِدتَّ تركَنُ إليْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ إخبار عن تأييده تعالى رسوله، صلوات اللّه عليه وسلامه، وتثبيته وعصمته وتولي أمره وحفظه. فإن المشركين، لكثرة تفننهم في ضروب الأذى وشدة تعنتهم وقوة شكيمتهم، كادوا أن يفتنوه. ولكن عناية اللّه وحفظه، هو الذي ثبت قدمه في مثل مقامه في الدعوة إلى اللّه الذي لا يثبت فيه أحد غيره. وقد روي أن ثقيفاً قالوا؛ لا نؤمن حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب: لا ننحني في الصلاة، ولانكسر أصنامنا بأيدينا، وإن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها. فإن خشيت أن يسمع العرب: (لِمَ أَعْطَيْتَهُمْ مَا لَمْ تُعْطِنا) فقل: اللّهُ أمرني بذلك.

وروي أن قريشاً قالوا: لا ندعك يا محمد أن تستلم الحجر الأسود حتى تمس آلهتنا. وقالوا أيضاً: نؤمن بك إن تمس آلهتنا.

قال الإمام الطبريّ: يجوزُ أن تكون الفتنة فما ذكر. وأن تكون غير ذلك. ولا بيان في الكتاب ولا في خبر يقطعُ العذر أي ذلك كان. فالأصوب الإيمان بظاهره حتى يأتي ما يجب التسليم له، ببيان ما عني بذلك منه.

قال الزجاج: معنى الكلام كادوا يفتنونك. ودخلت (أن)المخففة من الثقيلة و(اللام) للتأكيد. والمعنى: أن الشأن قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك. ويصرفوك عن القرآن أي عن حكمه. وذلك لأن في إعطائهم ما سألوا مخالفة لحكم القرآن. وقوله: ﴿لتفتري علينا غيره﴾ أي غير ما أوحينا إليك وهو قولهم: قُلِ اللَّهُ أمرني بذلكَ ﴿وإذاً لاتَّخذُوكَ خليلاً﴾ أي لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلاً، وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كفرهم، وراض بشركهم. ثم قال: ﴿ولَوْلا أن ثَبَّتْناكَ﴾ أي على الحق بعصمتنا إياك ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إليهِمْ﴾ أي تميل إليهم ﴿شَيْئاً قَليلاً﴾ وقوله ﴿شَيْئاً﴾ عبارة عن المصدر، أو ركوناً قليلاً.

وعن قتادة: لما نزلت هذه الآية. قال النبيّ ﷺ: (اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين). ثم توعده في ذلك أشد التوعد، فقال:

القول في تأويل قوله تعالى:

إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

﴿إذاً لأذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياة وضِعْفَ الْمَمات﴾ أي ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، يريد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. و(الضعف) عبارة عن أن يضم إلى الشيء مثله، ودل على إضمار العذاب، وصف العذاب بالضعف في كثير من الآيات. كقوله تعالى: ﴿رَبَّنا من قدَّمَ لَنا هذاَ فزِدْهُ عَذاَباً ضِعْفاً في النَّارِ﴾ [ص:٦١]، وقال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ ولَكِن لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨].

والسبب في تضعيف العذاب؛ أن أقسام نعم اللّه على الأنبياء أكثر.فكانت ذنوبهم أعظم. فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر. ونظيره قوله تعالى: ﴿ياَ نِساَءَ النَّبيِّ من يأْتِ منكنَّ بِفَاحِشةٍ مُبَيِّنَة يُضاعَفُ لَها العَذابُ ضعفَينِ﴾ [الأحزاب:٣٠].

تنبيهات:

الأول: قال القفال رحمه اللّهُ (بعد ذكره ما روي في سبب نزولها مما قدمناه): ويمكن أيضاً تأويلها من غير تقييد بسبب يضاف نزولها فيه، لأن من المعلوم أن المشركين كانوا يسعون في إبطال أمر رسول اللّه ﷺ باقصى مايقدرون عليه. فتارة كانوا يقولون: إن عبدت آلهتنا عبدنا إلهك فأنزل اللّه تعالى: ﴿قُلْ يا أيُّها الْكَافرُونَ لا أعبُدُ ما تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون:١ -٢]، وقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩]، وعرضوا عليه الأموال الكثيرة والنساء الجميلة ليترك ادعاء النبوة. فأنزل

اللَّهُ تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه:١٣١]، ودعوه إلى طرد المؤمنين عن نفسه فأنزل اللَّهُ تعالى قوله: ﴿ولاَ تَطْرُدِ الَّذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام:٥٢]، فيجوز أن تكون هذه الآيات نزلت في هذا الباب. وذلك أنهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه، وأن يزيلوه عن منهجه. فبين تعالى أنه يثبته على الدين القويم والمنهج المستقيم. وعلى هذا الطريق، فلا حاجة في تفسير هذه الآياتِ، إلى شيء من تلك الروايات. واللَّهُ أعلم.

الثاني: قال القاضي: معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاك﴾ الآية، إنك كنت على صدد الركون إليهم، لقوة خداعهم وشدة احتيالهم. لكن أدركتك عصمتنا فمنعت أن تقرب من الركون، فضلاً عن أن تركن إليهم. وهو صريح في أنه عليه الصلاةُ والسلامُ ما همّ بإجابتهم، مع قوة الداعي إليها. ودليل على أن العصمة بتوفيق اللَّهِ وحفظه.

الثالث: قال الزمخشريّ: في ذكر الكيدودة وتقليلها، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين، دليل بيّن على أن القبيح يعظم قبحه بمقدارعظم شأن فاعله وارتفاع منزلته. وفيه دليل على أن أدنى مداهنة للغواة، مضادة للَّهِ وخروج عن ولايته، وسبب موجب لغضبه ونكاله. فعلى المؤمن، إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها فهي جديرة بالتدبر. وبأن يستشعر الناظر فيها الخشيةَ وازدياد التصلب في دين اللَّهِ.

الرابع: جاء في (حواشي جامع البيان) ما مثاله بالحرف: من الفوائد الجليلة في هذه الآية. أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك، بعد القدرة على هدمها وإبطالها، يوماً. فإنها شعائر الكفر والشرك. وهي أعظم المنكرات فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة. وهكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً وطواغيتَ، تعبد من دون اللَّه. والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذور والتقبيل، لا يجوز إبقاءُ شيء منها على وجه الأرض، مع القدرة على إزالته. وكثير منها بمنزلة اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى، وأعظم شرك عندها وبها. فإن اللات - على ما نقله ابن خزيمة عن مجاهد - رجل كان يلتّ لهم السويق فمات. فعكفوا على قبره يعبدونه ويعظمونهُ. ولم يقولوا إن اللات خلقت السموات والأرض، بل كان شركهم باللاتِ والعزّى ومناة الثالثةَ الأخرى كشرك أهل الشرك من أرباب المشاهد بعينه، من النذور لها ولشرك بها والتمسح بها وتقبيلها واستلامها. وما طلبوا من رسول اللَّهِ ﷺ إلا

مجرد مسّ آلهتهم. كما قالوا نؤمن بك إن تمس آلهتنا.، وما التمسوا منه إلا التمتيع باللات سنة من غير عبادة، فتوعد بهذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد أن لو ركن إليهم. فالرزية كل الرزية ما ابتلي به القبوريون من أهل هذا الزمان. فإنهم لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام، إلا فعلوه بالقبور. فإنا للّه وإنا إليه راجعون. بل كثير منهم، إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه، حلف باللّه فاجراً، فإذا قيل له بعد ذلك: احلف بشيخك. أو بمعتقدك الوليّ الفلاني تلكأ وأبى واعترف بالحق. وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال: (ثالث ثلاثة) فيا علماء الدين! ويا ملوك المسلمين! أيّ رزء للإسلام أشد من الكفر؟ وأيّ بلاء لهذا الدين أضرّ عليه من عبادة غير اللّه؟ وأيّ مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه؟ وأي منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البيّن واجباً؟ فاللّهم! انصر من نصر الحق واهدنا إلى سواء السبيل. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

﴿**وَإن كَادُواْ**﴾ أي أهل مكة ﴿**ليستفِزُّونَكَ من الأرْضِ**﴾ أي ليزعجونك بمعاداتهم من مكة ﴿**لِيُخرِجُوكَ منهَا وَإذاً لا يَلْبَثُونَ خلافك**﴾ أي ولو خرجت لا يبقون بعد خروجك ﴿**إلاّ قَليلاً**﴾ أي زماناً قليلاً ﴿**سُنَّة من قدْ أرسَلْنَا قَبْلَكَ من رُسُلِنَا**﴾ يعني أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم، فسنة اللّه أن يهلكهم. ونصبت نصب المصدر المؤكد. أي سنَّ اللّهُ ذلك سنة ﴿**وَلا تَجدُ لسُنَّتنا تحْويلاً**﴾ أي تغييراً. ولا يخفى أن المراد بعدم لبثهم، إهلاكهم. سواء كان بالاستئصال، أوْ لا. قال ابن كثير: وكذلك وقع. فإنه ﷺ لم يكن بين هجرته من بين أظهرهم، بعد ما اشتد أذاهم له، إلا سنة ونصف، حتى جمعهم اللّهُ وإياه ببدر على غير ميعاد. فأمكنه منهم، وسلطه عليهم، وأظفره بهم. فقتل أشرافهم وسبى سراتهم. ولهذا قال تعالى: ﴿**سُنَّةَ من قدْ أرسَلْنَا**﴾ أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم. يخرج الرسول من بين أظهرهم ويأتيهم العذاب. ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة ، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به. كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

﴿**أقِمِ الصَّلاة لِدُلُوكِ الشَمْسِ إلى غَسَقِ اللَّيْلِ وقُرْآنَ الْفَجْرِ، إنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً**﴾ لما ذكر تعالى، قبلُ، كيد المشركين وكيدودتهم استفزازه من الأرض، أمره بأن يستعين بإقامة الصلوات والإقبال على عبادته تعالى، والابتهال إليه على دفع كيدهم ومكرهم، وتأييده عليهم. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بما يَقُولُونَ، فَسَبِّحْ بحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن منَ السَّاجدينَ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨]، وقوله: ﴿فاصْبِرْ عَلَى مَايَقُولُونَ وَسَبِّح بحمْدِ رَبِّكَ قبلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها، ومِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضى﴾[طه: ١٣٠]، وقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاة﴾ [البقرة: ٤٥]، هذا من حيث نظم الآية مع ما قبلها. وأما معناها، فقوله: ﴿**لِدُلُوكِ الشَّمْسِ**﴾ أي لزوالها. قال ابن تيمية: الدلوك الزوال عند أكثر السلف وهو الصواب. واللام للتاقيت. أي بيان الوقت بمعنى (بعد) وتكون بمعنى (عند) أيضاً. وقيل: للتعليل. لأن دخول الوقت سبب لوجوب الصلاة. وأما ﴿**غسَقِ اللَّيْلِ**﴾ فهو اجتماع الليل وظلمته. وأما ﴿**قُرْآنَ الْفَجْرِ**﴾ فهو صلاة الصبح. سميت قرآناً لأنه ركنها. كما سميت ركوعاً وسجوداً. فهو من تسمية الكل باسم جزئه المهمّ. فيدل على وجوب القراءة فيها صريحاً، وفي غيرها بدلالة النص والقياس. ومعنى ﴿**مشْهُوداً**﴾ يشهدهُ ملائكة الليل والنهار. ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار. أو يشهدهُ الكثير من المصلينَ في العادة! ومن حقه أن يكون مشهوداً بالجماعة الكثيرة. والأكثرون على أن قوله تعالى: ﴿**وَقُرْآنَ الْفَجْرِ**﴾ منصوب بالعطف على (الصلاة) أي: وأقم صلاة الفجر. وجوَّز بعض النحاة نصبه على الإغراء. أي: وعليك قرآن الفجر أو الزم.

تنبيهات:

الأول: هذه الآية جامعة للصلوات الخمس ومواقيتها، فدلوك الشمس يتناول الظهر والعصر تناولاً واحداً. وغسق الليل يتناول المغرب والعشاء تناولاً واحداً. وقرآن الفجر هي صلاة مفردة لا تجمع ولا تقصر. قيل: هذا يقتضي أن يكون الدلوك مشتركاً بينَ الظهر والعصر. والغسق مشتركاً بين المغرب والعشاء. فيدل على جواز

الجمع مطلقاً بين الأولين، وكذا بين الأخيرين. فالجواب: هو كذلك بعذر السفر أو المطر ونحوها. وأما في غيرها فلا وذلك لما بينته السنة من فعل كل واحدة في الوقت الخاص بها، إلا بعذر. قال الحافظ ابن كثير: قد بينت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله، تفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم، مما تلقوهُ خلفاً عن سلف، وقرناً بعد قرن، كما هو مقرر في مواضعه.

وقال العلامة أبو السعود: ليس المراد إقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار، بل إقامة كل صلاة في وقتها الذي عين لها ببيان جبريل عليه السلام. كما أن أعداد ركعات كل صلاة موكولة إلى بيانه عليه السلامُ. ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى في أوقات الصلوات من غير فصل بينها، لما أن الإنسان فيما بين هذه الأوقات على اليقظة. فبعضها متصل ببعض، بخلاف أول وقت العشاء والفجر فإنه باشتغاله فيما بينهما بالنوم، ينقطع أحدهما عن الآخر. ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الأوقاتِ . انتهى.

والظاهر أن مستند من جوز الجمع في الحضر مطلقاً هذه الآية مع أثر ابن عباس.

جاء في (رحمة الأمة) ما مثاله: وعن ابن سيرين أنه يجوز الجمع من غير خوف ولا مرض لحاجة. ما لم يتخذهُ عادة. واختار ابن المنذر وجماعة جواز الجمع في الحضر من غير خوف ولا مطر ولا مرض. انتهى.

وقد روى الشيخان[١] وغيرهما عن ابن عباس قال: صلى النبيّ ﷺ بالمدينة سبعاً وثمانياً: الظهر والعصر، والمغرب والعشاء.

ومن رواية لمسلم: صلّى الظهر والعصر جميعاً، والمغرب والعشاء جميعاً، من غير خوف ولاسفر. وكثير من الرواة حملوا ذلك على ليلة مطيرة. والمسألة شهيرة.

الثاني: قلنا إن هذه الآية إحدى الآيات التي جمعت الصلوات الخمس، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود:١١٤]، فالطرف الأول صلاة الفجر فإن صلاة الفجر في النهار. فإن الصائم يصوم النهار. وهو يصوم من طلوع الفجر. والوتر تصلى بالليل وقد قال النبيّ ﷺ[٢]: صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا

---

(١) أخرجه البخاريّ في: مواقيت الصلاة، ١٢ - باب تأخير الظهر إلى العصر، حديث رقم ٣٥٣
وأخرجه مسلم في: صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم ٥٥.

(٢) أخرجه البخاريّ في: التهجد، ١٠ - باب كيف كان صلاة النبيّ ﷺ، حديث رقم ٣١٤.
وأخرجه مسلم في: صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم ١٤٧.

خفت الصبح فأوتر بركعة. وإذا قيل: نصف النهار فالمراد به النهار المبتدئ من طلوع الشمس. فهذا في هذا الموضوع، ولفظ (النهار) يراد به من طلوع الفجر، ويراد به من طلوع الشمس. لكن قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفي النَّهَارِ﴾ أريد به من طلوع الفجر بلا ريب، لأن ما بعد طلوع الشمس ليس على المسلمين فيه صلاة واجبة، بل ولا مستحبة. بل الصلاة في أول الطلوع منهيٌّ عنها حتى ترتفع الشمس. وهل تستحب الصلاة لوقت الضحى أو لا تستحب إلا لأمر عارض؟ فيه نزاع ليس هذا موضعه. فعلم أنه أراد بالطرف الأول من طلوع الفجر. وأما الطرف الثاني فمن الزوال إلى الغروب. فجعل الصلاة في هذا الوقت صلاة في الطرف الثاني وأشرك بينهما فيه. ثم قال: ﴿وزُلَفاً من اللَّيْلِ﴾ فاجمل الغرب والعشاء في (زلف من الليل). وهو ساعات من الليل. فالمواقيت هنا ثلاثة.

وقال تعالى: ﴿لِيَسْتَئْذِنكُمُ الَّذينَ مَلكَتْ أَيمَانُكُمْ والَّذين لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ منكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، مِّنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحينَ تَضَعُونَ ثيابكُمْ من الظهيرَةِ وَمن بعْدِ صَلاةِ الْعشاءِ﴾ [النور:٥٨]، فذكر الفجر وذكر الظهر وذكر صلاة العشاء. فمن الظهيرة إلى مابعد صلاة العشاء وقتان للصلاة. وقد ذكر الأول من هذ الوقت والآخر من هذا الوقت. وقد دل على المواقيت في آيات أُخر كقوله تعالى: ﴿فَسُبْحانَ اللَّه حينَ تُمْسُونَ وَحينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ الْحَمْدُ في السَّموات والأرْضِ وَعَشيَّاً وَحينَ تُظْهِرونَ﴾ [الروم:١٧-١٨]، فتبين أن له التسبيح والحمد في السموات والأرض، حين المساء وحين الصباح وعشياً وحين الإظهار. فالمساء يتناول المغرب والعشاء، والصباح يتناول الفجر، والعشيّ يتناول العصر، والإظهار يتناول الظهر.

وقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْد رَبِّكَ قَبْلَ طُلوُع الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبهَا، ومنْ ءاناء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضى﴾ [طه:١٣٠]، وفي الآية الأخرى: ﴿قبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقبلَ الْغُروب، وَمنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجود﴾ [ق: ٣٩-٤٠]، فقبل طلوع الشمس هي صلاة الفجر. وقبل غروبها هي العصر، وبذلك فسّرها النبيّ ﷺ في الحديث[1] المتفق على صحته عن جرير بن عبد اللّه قال كنا جلوساً عند رسول اللّه ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: (إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر. فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل

(١) أخرجه البخاريّ في: مواقيت الصلاة، ١٦ - باب فضل صلاة العصر، حديث ٣٥٨.
وأخرجه مسلم في: المساجد ومواضع الصلاة، حديث ٢١١.

غروبها فافعلوا. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك قَبْل طُلُوع الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ ﴿وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ﴾ مطلق في آناء الليل، يتناول المغرب والعشاء. أفاد ذلك تقيّ الدين ابن تيمية في فتواه في (المواقيت الكبرى).

الثالث: هذه الآية من الآيات التي أمر تعالى فيها بإقامة الصلاة لوقتها. قال ابن تيمية. عليه الرحمة، في فتواه المتقدمة: وقت الصلاة وقتان. وقت الرفاهية والاختيار. ووقت الحاجة والعذر. فالوقت في حال الرفاهية خمسة أوقات كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، عن النبيّ ﷺ أنه قال[1]: (وقت الظهر ما لم يصر ظل كل شيء مثلهُ. ووقت العصر ما لم تصفّر الشمس. ووقت المغرب ما لم يغب نور الشفق. ووقت العشاء إلى نصف الليل. ووقت الفجر ما لم تطلع الشمس) وقد روي هذا الحديث من حديث أبي هريرة في السنن. ولم يرو عن النبيّ ﷺ في المواقيت حديث من قوله إلا هذا. وسائر ما روي فعل منه، والأحاديث الصحيحة المتأخرة من فعله توافق هذا الحديث. ولهذا ما في هذا الحديث من المواقيت هو الصحيح عند الفقهاء العارفين بالحديث. والنزاع بين العلماء في آخر وقت الظهر، وأول وقت العصر وآخره، وآخر وقت المغرب. وآخر وقت العشاء وآخر وقت الفجر. فالجماهير من السلف والخلف من فقهاء الحديث وأهل الحجاز وقت الظهر عندهم من الزوال إلى أن يصير ظل كل شيء مثله. سوى الفيء الذي زالت عليه الشمس، وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد. وقال أبو حنيفة: إلى أن يصير ظلّ كل شيء مثليه، ثم يدخل وقت العصر عند الجمهور، وعند أبي حنيفة إنما يدخل إذا صار ظل كل شيء مثليه، ونقل عنه، أن ما بين المثل إلى المثلين ليس وقتاً لا للظهر ولا للعصر. وعلى قول الجمهور، فهل آخر هذا أول هذا أو بينهما قدر أربع ركعات مشترك؟ فيه نزاع. فالجمهور على الأول، والثاني منقول عن مالك. وإذا صار ظل كل شيء مثليه، خرج وقت العصر في إحدى الروايتين عن أحمد. وهو منقول عن مالك والشافعي مع خلاف في مذهبهما. والصحيح أن وقتها ممتد بلا كراهة إلى اصفرار الشمس. وهو الرواية الثانية عن أحمد. كما نطق به حديث عبد اللهِ بن عمرو، مما عمل به النبيّ ﷺ بالمدينة، بعد عمله بمكة. وهذا قول أبي

---

(١) أخرجه مسلم في: المساجد ومواضع الصلاة، حديث ١٧٣.

يوسف ومحمد. فلم يكن للعصر وقت متفق عليه. ولكن الصواب المقطوع به، الذي تواترت به السنن واتفق عليه الجماهير؛ أن وقتها يدخل إذا صار ظل كل شيء مثله. وليس مع القول الآخر نقل عن النبيّ ﷺ لا صحيح ولاضعيف. ولكن الأمراء الذين كانوا يؤخرون الصلاة. لمَّا اعتادوا تأخير الصلاة، واشتهر ذلك، صار يظن من يظن أنه السنة. وقد احتج له بالمثل المضروب المسلمين وأهل الكتاب. ولا حجة فيه لاتفاق أهل الحساب على أن وقت الظهر أطول من وقت العصر، الذي أوّله إذا صار ظل كل شيء مثليه.

وأما أوقات الحاجة والعذر فهي ثلاثة: من الزوال إلى الغروب. ومن الغروب إلى الفجر ومن الفجر إلى طلوع الشمس. فالأول وقت الظهر والعصر عند العذر. واتسع فيها وفيهما من وجهين: أحدهما تقديم العصر إلى وقت الظهر، كما قدمها النبيّ ﷺ يوم عرفة. وكما كان يقدمها في سفرة تبوك. إذا ارتحل بعد أن تزيغ الشمس. وتقديم العشاء إلى المغرب في المطر. فهذا جمع تقديم. والثاني جمع تأخير،العصر فيها إلى الغروب. لقوله ﷺ في الحديث الصحيح[١]: من أدرك ركعة من الفجر قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الفجر. ومن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر. مع قوله ﷺ في الحديث الصحيح: (وقت العصر ما لم تصفرّ الشمس) وأنه لم يؤخر الصلاة قط إلى الاصفرار. ويوم الخندق كان التأخير إلى بعد الغروب. وهو منسوخ في أشهر قولي العلماء بقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقر:٢٣٨]، وهذا مذهب مالك والشافعيّ، وأحمد في أشهر الروايتين عنه وقيل: يخير حال القتال في التأخير والصلاة في الوقت بحسب الإمكان. وهو الرواية الأخرى عنه. وقيل: بل يؤخرها. وهو قول أبي حنيفة أيضاً ففي الحديث الصحيح[٢] عنه ﷺ أنه قال: (تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق. يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقر أربعاً، لا يذكر اللّه فيها إلا قليلاً). فوصف صلاة المنافق بالتأخير إلى حين الغروب والنقر. فدل على المنع من هذا وهذا. فلما قال ﷺ هذا وهذا، علم أن الوقت وقتان. فمن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك مطلقاً. وليس له أن يؤخر إلى ذلك الوقت مع إمكان الصلاة قبله. بخلاف من لا يمكنه الصلاة قبل ذلك.

---

(١) أخرجه البخاريّ في: مواقيت الصلاة، ٢٨ – باب من أدرك من ركعة، حديث رقم ٣٦٠ (عن أبي هريرة). وأخرجه مسلم في: المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ١٦١و ١٦٢و ١٦٣و ١٦٤.

(٢) أخرجه مسلم في: المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ١٩٥ عن أنس.

كالحائض إذا طهرت والمجنون يفيق. والنائم يستيقظ. والناسي يذكر. ودل تقديم العصر يوم عرفة على أنها تفعل في موضع مع الظهر عقيب الزوال. ودل هذا الحديث على أنها يُدرك وقتها بإدراك ركعة منها قبل الغروب. مع أنه بيّن بقوله وفعله؛ أن وقتها إذا صار ظل كل شيء مثله. ما لم تصفر الشمس. فدل ذلك على أن هذا الوقت المختص بها، وقت مع التمكن والرفاهية. ليس لأحد أن يؤخرها عنه ولا يقدمها عليه. وقد عرف من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة وابن عباس؛ أنهم قالوا: (في الحائض إذا طهرت قبل غروب الشمس): تصلي الظهر والعصر. وإذا طهرت قبل طلوع الفجر، صلت المغرب والعشاء. ولم يعرف عن صحابيّ خلاف ذلك. وبذلك أخذ الجمهور كمالك والشافعي وأحمد. وهذا مما يدل على أنه كان الصحابة ترى أن الليل عند العذر مشترك بين المغرب والعشاء إلى الفجر. والنصف الثاني عند العذر مشترك بين الظهر والعصر من الزوال إلى الغروب. كما دل على ذلك السنة والقرآن – يعني الآية المذكورة وأمثالها مما سقناه قبل – والذين ينازعون الجمهور في الوقت المشترك، ويقولون ليس لكل منهما إلا وقت يخصها، يقولون: الفرض إنما ثبت بالقرآن. والقرآن أوجب مطلق الذكر في قوله: ﴿قَدْ أفلَحَ من تزكَّى، وَذَكرَ اسْمَ رَبِّه فصلّى﴾ [الأعلى: ١٤]، فلا موجب لخصوص التكبير عندهم. بل مطلق الذكر. وإن كان النبيّ ﷺ لم يصلّ قط إلا بتكبير. ولا أحد من خلفائه ولا أحد من أئمة المسلمين ولا آحادهم المعروفين يُعْرَفُ أنه صلى إلا بتكبير. ومع هذا فيجوزونه بمطلق الذكر. لأن القرآن مطلق في الذكر. فيقال لهم: القرآن مطلق في آناء الليل وفي غسق الليل. ومطلق في الطرف الأول وفي الطرف الثاني، فدل على جواز الصلاة في هذا وهذا لو قُدّر أن النبي ﷺ داوم على التفريق فكيف إذا ثبت عنه أنه جمع بينهما في الوقت غير مرة؟ وكذلك يقولون: قوله تعالى: ﴿ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧]، مطلق. فهو الفرض. والطمانينة إنما جاء بها خبرُ واحد. فيفيد الوجوب دون الفرضية. وكذلك يقولون في الفاتحة: إن القرآن مطلق في إيجاب قراءة ما تيسر منه، مع أن النبيّ ﷺ والمسلمين من بعده لم يصلّوا إلا بالفاتحة. ومع قوله: (لا صلاة إلا بأم القرآن)[١]. و(إن كل صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهي خداج. فهي خداج. فهي خداج)[٢].

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الأذان، ٩٥ – باب وجود القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، حديث رقم ٤٦٠ (عن عُبَادة بن الصامت).
واخرجه مسلم في: الصلاة، حديث رقم ٣٤ و ٣٥ و ٣٦.

(٢) أخرجه مسلم في: الصلاة، حديث ٤٠ و ٤١ عن أبي هريرة.

ويقولون هذا يفيد الوجوب دون الفرضية. أو هذا خبرُ واحدٍ فلا يقيد به مطلق القرآن. ومعلوم أن القرآن مطلق في الوقت المشترك أعظم من هذا، وليس معهم عن النبيّ ﷺ ما يوجب فعل كل واحدة من الأربع في الوقت الخاص إلا فعله المتواتر، وقوله الذي هو من أخبارالآحاد. مع ما فيه من الإجمال، كقوله[1] لمّا بين المواقيت الخمسة (الوقت ما بين هذين) وقوله[2] (مابين هذين وقت) دلالته على وجوب الصلاة في هذا الوقت دون دلالة قوله: (لاصلاة إلاّ بأمّ الكتاب) وقوله (من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خداج) وكذلك قوله[3] ﷺ في الحديث الصحيح: (سيكون بعدي أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها. فصلوا الصلاة لوقتها. ثم اجعلوا صلاتكم معهم نافلة). ولهذا احتج أحمد على وجوب فعلها في الوقت عند الرفاهية بقوله: ﷺ (فصلوا الصلاة لوقتها) وهو الوقت الذي بيّنه لهم. والأمراء لم يكونوا يؤخرون صلاة النهار إلى الليل. ولا صلاة الليل إلى النهار. وإنما كانوا يؤخرون الظهر إلى وقت العصر والعصر إلى آخر النهار. ودل هذا على أن من فعل هذا لم يقاتل. لأنهم سألوه عن الأمراء، أنقاتلهم؟ قال: (لا. ماصلوا) وهذه كانت صلاتهم. ودل على أن هذه الصلاة لا تجوز بحال، وتفويت يوم الخندق منسوخ. وأما الجمع بينهما في الوقت المشترك فهو ثابت السنة في مواضع متعددة. وبعضها مما أجمع عليه المسلمون، والآثار المشهورة عن الصحابة تبيّن أن الوقت المشترك وقت في حال العذر. كقول عمر بن الخطاب (الجمع بين الصلاتين، من غير عذر، من الكبائر) فدل على أن الجمع بينهما للعذر جائز. وقال عبد الرحمن بن عوف وابن عباس وأبو هريرة: (فيمن طهرت في آخر النهار): إنها تصلي الظهر والعصر. (وفيمن طهرت في آخر الليل): إنها تصلي المغرب والعشاء. وهو قول الثلاثة: مالك والشافعيّ وأحمد، وأما التفويت فلا يجوز بحال، فمن جوز التفويت في بعض الصور، فقوله ضعيف، وإن جوز الجمع. وأما من أوجب التفويت ومنع الجمع، فقد جمع في قوله بين أصلين ضعيفين: بين إباحة ما حرمه اللّهُ ورسولهُ، وتحريمه ما شرعهُ اللّهُ ورسولهُ. فإنه قد ثبت أن الجمع خير من التفويت. فهذا الأصل ينظم كثيراً من المواقيت. وتفويت العصر إلى حين الاصفرار، وتفويت العشاء إلى النصف الثاني أيضاً، لا يجوز إلا لضرورة، والجمع بين الصلاتين خير من الصلاة في هذا الوقت، بل

(١) أخرجه مسلم في: المساجد ومواضع الصلاة، حديث ١٧٨عن أبي موسى.
(٢) أخرجه مسلم في: المساجد ومواضع الصلاة، حديث ١٧٧ عن بُرَيدة.
(٣) أخرجه مسلم في: المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ٢٣٩ عن أبي ذرّ.

الصلاة بالتيمم قبل دخول وقت الضرورة خير من الصلاة بالوضوء في وقت الضرورة. وقد نص على ذلك الفقهاء من أصحاب أحمد وغيره. وقالوا: لا يجوز تأخيرها إلى الاصفرار. بل إذا لم يجد الماء إلا فيه، فإنه يصلي بالتيمم قبل الاصفرار، ولايصليها حين الاصفرار بالوضوء. انتهى كلامه عليه الرحمة.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾

﴿وَمِنَ اللَّيل فَتَهَجَّدْ به نَافلَةً لَكَ﴾ أمرٌ له بصلاة الليل، إثر أمره بالصلوات الخمس وفي ﴿مِنْ﴾ وجهان: أحدهما أنها متعلقة بـ (تهجد) أي تهجد بالقرآن بعض الليل. والثاني أنها متعلقة بمحذوف عطف عليه (فتهجد) أي قم من الليل أي في بعضه فتهجد بالقرآن. والتهجد ترك الهجود وهوالنوم، و(تفعّل) يأتي للسلب كـ (تأثّم وتحرَّج) بمعنى ترك الإثم والحرج. قال الأزهري: المعروف في كلام العرب أن الهاجد النائم. وأما المتهجد فهو القائم إلى الصلاة من النوم. وكأنه قيل له (متهجد) لإلقائه الهجود عن نفسه كما يقال للعابد (متحنث) لإلقائه الحنث عن نفسه. انتهى.

ونقل عن ابن فارس: أن معناه صلّ ليلاً. وكذا عن ابن الأعرابيّ قال: هجد الرجل وتهجد، إذا صلى بالليل. والمعروف الأول. والضمير في (به) للقرآن من حيث هو، لا بقيد إضافته إلى الفجر أو للبعض المفهوم من (من) والباء بمعنى (في) أي تهجد في ذلك البعض. وقوله تعالى: ﴿نَافلَةً لَكَ﴾ أي عبادةً زائدةً لك على الصلوات الخمس.

قال الزمخشريّ: وضع (نافلة) موضع (تهجداً) لأن التهجد عبادة زائدة. فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد. والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة، فريضة عليك خاصة دون غيرك. لأنه تطوع لهم. انتهى.

قال أبو السعود: ولعله هوالوجه في تأخير ذكرها عن ذكر صلاة الفجر، مع تقدم وقتها على وقتها.

وقوله تعالى: ﴿عَسَى أن يَبْعَثَكَ ربُّكَ مَقاماً مَّحْمُوداً﴾ أي يحمدهُ القائمُ فيه وكل من رآه وعرفهُ. وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات. والمشهور أنه

مقام الشفاعة العظمى، للفصل بين الخلائق الذي يحمده فيه الأولون والآخرون. كما وردت به الأخبار الصحيحة[١]. ومعنى النظم الكريم على هذا: كما انبعثت من النوم الذي هو الموت الأصغر، بالصلاة والعبادة، فسيبعثك ربك من بعد الموت الأكبر، مقاماً محموداً عندك وعند جميع الناس. وفيه تهوين لمشقة قيام الليل. أشار له أبو السعود.

تنبيه:

قال ابن جرير ذهب آخرون إلى أن ذلك المقام المحمود، الذي وعد اللَّهُ نبيه ﷺ أن يبعثه إياه، هو أن يجلسه معه على عرشه، رواه ليث عن مجاهد. وقد شنع الواحديّ على القائل به، مع أنه رواه عن ابن مسعود أيضاً وعبارته – على ما نقلها الرازيّ – وهذا قول رذل موحش فظيع، ونص الكتاب ينادي بفساد هذا التفسيرويدل عليه وجوه:

الأول: أن البعث ضد الإجلاس،يقال بعثت النازل والقاعد فانبعث ويقال: بعث اللَّهُ الميت، أي أقامه من قبره. فتفسير البعث بالإجلاس تفسير للضد بالضد وهو فاسد.

الثاني: أنه تعالى قال: ﴿مَقَامًا مَّحْمُوداً﴾ ولم يقل مقعداً. والمقام موضع القيام لا موضع القعود.

الثالث: لو كان تعالى جالساً على العرش، بحيث يجلس عنده محمد عليه الصلاة والسلامُ لكان محدوداً متناهياً. ومن كان كذلك فهو محدث.

الرابع: يقال: إن جلوسه مع اللَّه على العرش ليس فيه كثير إعزاز، لأن هؤلاء الجهال والحمقى يقولون (في كل أهل الجنة): إنهم يزورون اللَّه تعالى وإنهم يجلسون معه وإنه تعالى يسألهم عن أحوالهم التي كانوا عليها في الدنيا، وإذا كانت هذه الحالة حاصلة عندهم لكل المؤمنين، لم يكن لتخصيص محمد ﷺ بها مزيد شرف ورتبة.

الخامس: أنه إذا قيل: السلطانُ بعث فلاناً، فهم منه أنه أرسله إلى قوم لإصلاح مهماتهم. ولا يفهم منه أنه أجلسه مع نفسه. فثبت أن هذا القول كلام رذل سقط، لا يميل إليه إلا إنسان قليل العقل عديم الدين. انتهى كلام الواحديّ.

---

(١) أخرجه البخاريّ في: التفسير، ١٧ – سورة الإسراء، حديث رقم ٧٨٧، عن ابن عمر.

وليتهُ اطلع على ما كتبه ابن جرير حتى يمسك من جماح يراعه ويبصر الأدب مع السلف مع المخارج العلمية لهم. وهاك ما قاله ابن جرير رحمه اللّهُ (بعد ما نقل عن مجاهد قوله المتقدم)

وأولى القولين بالصواب،ما صح به الخبر عن رسول اللّه ﷺ أنه مقام الشفاعة – ثم قال – وهذا وإن كان هو الصحيح في القول، في تأويل المقام المحمود، لما ذكرنا من الرواية عن رسول اللّه ﷺ وأصحابه والتابعين. فإن ما قاله مجاهد من أن اللّه يقعد محمداً ﷺعلى عرشه، قوله غير مدفوع صحتهُ. لا من جهة خبر ولا نظر. وذلك لأنه لا خبر عن رسول اللّه ﷺ ولا عن أحد من أصحابه، ولا عن التابعين، بإحالة ذلك. فأما من جهة النظر فإن جميع من ينتحل الإسلام إنما اختلفوا في معنى ذلك على أوجه ثلاثة: فقالت فرقة منهم: اللّهُ عزَّ وجلّ بائن من خلقه، كان قبل خلقه الأشياء، ثم خلق الأشياء فلم يماسّها، وهو كما لم يزل، غير أن الأشياء التي خلقها، إذا لم يكن هو لها مماسّاً، وجب ان يكون لها مبايناً. إذ لا فعّال للأشياء إلا وهو مماس للأجسام أو مباين لها، قالوا: فإذ كان ذلك كذلك، وكان اللّه عزّ وجلّ فاعل الأشياء، ولم يجز في قولهم إنه يوصف بأنه مماس للأشياء، وجب بزعمهم أنه لها مباين – فعلى مذهب هؤلاء سواء اقعد محمداً ﷺ على عرشه أو على الأرض (إذ كان من قولهم إن بينونته من عرشه وبينونته من أرضهْ بمعنى واحد. في أنه بائن منهماكليهما غير مماس لواحد منهما) وقالت فرقة أخرى: كان اللّهُ تعالى ذكره قبل خلقه الأشياء لا شيء يماسهُ ولا شيء يباينهُ، ثم خلق الأشياء فاقامها بقدرته وهو كما لم يزل قبل خلقه الأشياء لا شيء يماسهُ ولاشيء يباينهُ. فعلى قول هؤلاء أيضاً سواء أقعد محمداً ﷺ على عرشه أو على أرضه (إذ كان سواء على قولهم. عرشه وارضه، في أنه لا مماس ولا مباين لهذا، كما انه لا مماس ولامباين لهذه).

وقالت فرقة أخرى: كان اللّهُ عزّ ذكره قبل خلقه الأشياء لا شيء يماسه ولا شيء يباينهُ ثم أحدث الاشياء وخلقها، فخلق لنفسه عرشاً استوى عليه جالساً وصار له مماسّاً، كما انه قد كان قبل خلقه الأشياءَ لاشيءٍ يرزقه رزقاً ولا شيء يحرمه ذلك. ثم خلق الأشياء فرزق هذا وحرم هذا وأعطى هذا ومنع هذا. قالوا: فكذلك كان قبل خلقه الأشياء، لاشيء يماسه ولايباينهُ. وخلق الأشياء فماسّ العرش بجلوسه عليه دون سائر خلقه فهومماسّ ماشاء من خلقه ومباين ماشاء منه. فعلى مذهب هؤلاء أيضاً سواءٌ أقعد محمداً على عرشه أو أقعده على منبر من نور، إذ كان من قولهم: أن جلوس الرب على عرشه ليس بجلوس يشغل جميع العرش ولا في إقعاد محمد ﷺ

موجباً له صفة الربوبية، ولا مخرجه من صفة العبودية لربه. كما أن مباينة محمد ﷺ ما كان مبايناً له من الأشياء، غير موجبة له صفة الربوبية ولا مخرجته من صفة العبودية لربه. من أجل أنه موصوف بأنه مباين له، كما أن اللَّه عزّ وجلّ موصوف - على قول قائل هذه المقالة بأنه مباين لها. هومباين له. قالوا: فإذا كان معنى (مباين ومباين) لا يوجب لمحمد ﷺ الخروج من صفة العبودية، والدخول في معنى الربوبية فكذلك لايوجب له ذلك قعودهُ على عرش الرحمن. فقد تبين إذاً بما قلنا أنه غير محال في قول أحد ممن ينتحل الإسلام ما قاله مجاهد، من أن اللَّهَ تبارك وتعالى يقعد محمداً على عرشه، فإن قال قائل: فإنا لا ننكر إقعاد اللَّه محمداً على عرشه، وإنما ننكر إقعاده معه «حدثني» عباس بن عبد العظيم قال حدثنا يحيى بن كثير عن الجريري، عن سيف السدوسيّ عن عبد اللَّه بن سلام قال، إن محمداً ﷺ يوم القيامة، على كرسي الرب، بين يدي الرب تبارك وتعالى. وإنما ينكر إقعادهُ إياه معهُ قيل: أفجائز عندك أن يُقعدهُ عليه لا معه؟ فإن أجاز ذلك صار إلى الإقرار بأنه إما معه أو إلى أنه يقعدهُ، واللَّهُ للعرش مباين، أو لا مماسٌ ولا مباين، وبأي ذلك قال، كان منه دخولاً في بعض ما كان ينكره. وإن قال: ذلك غير جائز منه، خروجاً من قول جميع الفرق التي حكينا قولهم،وذلك فراق لقول جميع من ينتحل الإسلام: إذ كان لا قول في ذلك إلا الأقوال الثلاثة التي حكيناها. وغير محال في قول منها ما قال مجاهد في ذلك. انتهى كلام ابن جرير رحمه اللَّهُ.

وأقول: لك أن تجيب أيضاً عن إيرادات الواحديّ الخمسة، التي أفسد بها قول مجاهد. أما جواب إيرادهُ الأول، فإن مجاهداً لم يفسر مادة البعث وحدها بالإجلاس. وإنما فسر بعثهُ المقام المحمود بما ذكر.

وعن الثاني: بأن المقام هوالمنزلة والقدرة والرفعة، معروف ذلك في اللغة.

وعن الثالث: بدفع اللازم المذكور، لأنه كما اتفق على أن له ذاتاً لا تماثلها الذوات فكذلك كل ما يوصف به مما ورد في الكتاب والآثار، فإنه لايماثل الصفات. ولايجوز قياس الخالق على المخلوق.

وعن الرابع: بأنه مكابرة. إذ كل أحد يعرف - في الشاهد - لو أن ملكاً استدعى جماعة للحضور لديه، ورفع أفضلهم على عرشهِ، أن المرفوع ذو مقام يفوق به الكل.

وعن الخامس: بأنه من واد آخر غير ما نحن فيه، إذ لا بعث لإصلاح المهمات

في الآخرة، وإنما معنى الآية: إنه يرفعك مقاماً محموداً. وذلك يصدق على ما قاله مجاهد وما قال الأكثر.فتأمل وأنصف. وقد أنشد الحافظ الذهبيّ في كتابه (العلوّ للّه العظيم) للإمام الدار قطنيّ في ترجمته، قولَه:

حديث الشفاعة في أحمدٍ ... إلى أحمدَ المصطفى نُسْنِدُهْ
وأما حديثٌ بإقعاده ... على العرشَ أيضاً فلا نَجْحَدُهْ
أمِرُّوا الحديثَ على وجههِ ... ولا تُدخلوا فيه ما يُفْسِدُهْ

وقال الذهبيّ في كتابه المنوه به، في ترجمة (محمد بن مصعب) العابد شيخ بغداد ما مثاله: وقال المروذيّ سمعت أبا عبد اللّه الخفاف. سمعت ابن مصعب وتلا ﴿عَسَى أَن يَبعثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ قال: نعم يقعدهُ على العرش – ذكر الإمام أحمد محمد بن مصعب فقال: قد كتبت عنه. وأيّ رجل هو! قال الذهبيّ: فأما قضية قعود نبيناعلى العرش، فلم يثبت في ذلك نص، بل في الباب حديث واهٍ. ومافسر به مجاهد الآية، كما ذكرناه. فقد أنكره بعض أهل الكلام. فقام المروذيّ وقعد بالغ في الانتصار لذلك وجمع فيه كتاباً وطُرقَ قول مجاهد، من رواية ليث بن أبي سليم، وعطاء بن السائب، وأبي يحيى القتات وجابر بن يزيد. وممن أفتى في ذلك العصر، بأن هذا الأثر يُسَلَّم ولا يعارض. أبو داود السجستانيّ صاحب السنن وإبراهيم الحربيّ وخلق. بحيث إن ابن الإمام أحمد قال عقيب قول مجاهد: أنا منكرٌ على كل من رد هذا الحديث.وهو عندي رجل سوء متهم. سمعته من جماعة. ومارأيت محدثاً ينكره. وعندنا إنما تنكره الجهمية. وقد حدثنا هارون بن معروف. ثنا محمد بن فضيل عن ليث، عن مجاهد في قوله: ﴿عَسَى أَن يَبعثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُوداً﴾ قال: يقعده على العرش. فحدثت به أبي رحمه اللّهُ فقال لم يُقَدَّرْ لي أن أسمعه من ابن فضيل: بحيث إن المروذيّ روى حكايةً بنزولٍ، عن إبراهيم بن عرفة. وسمعت ابن عمير يقول: سمعت أحمد بن حنبل يقول: هذا قد تلقته العلماء بالقبول. وقال المروذيّ: قال أبو داود السجستانيّ: ثنا ابن أبي صفوان الثقفي . ثنا يحيى بن أبي كثير. ثنا سلم بن جعفر، وكان ثقة ، ثنا الجريريّ ثنا سيف السدوسي عن عبد اللّه ابن سلام، قال: إذا كان يوم القيامة جيء بنبيكم ﷺ حتى يجلس بين يدي اللّه عزّ وجلّ على كرسيه. الحديث. وقد رواه ابن جرير في تفسيره. (أعني قول مجاهد) وكذلك أخرجه النقاش في تفسيره. وكذلك رد شيخ الشافعية ابن سريج على من أنكرهُ. بحيث إن الإمام أبا بكر الخلّال قال في كتاب (السنة) من جمعه: أخبرني الحسن بن صالح العطار. عن محمد بن علي السراج. قال: رأيت النبيّ ﷺ في النوم

فقلت: إن فلاناً الترمذيّ يقول: إن اللهَ لا يقعدك معه على العرش. ونحن نقول: بل يقعدك. فاقبل عليّ شبه المغضب وهو يقول: بلى، واللّهُ!بلى، واللّه! يقعدني على العرش. فانتبهت. بحيث إن الفقيه أبا بكر أحمد بن سليمان النجاد المحدّث قال: (فيما نقله عنه القاضي أبو يعلى الفراء): لو أن حالفاً حلاف بالطلاق ثلاثاً؛إن اللهَ يقعد محمداً ﷺ على العرش. واستفتاني، لقلت له: صدقت وبررت.

قال الذهبيّ: فابصر، حفظك اللّه من الهوى، كيف آل الغلوّ بهذا المحدث إلى وجوب الأخذ باثر منكر. واليوم يردّون الأحاديث الصريحة في العلّو. بل يحاول بعض الطغام أن يرد. قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى ﴾ [طه: ٥]. انتهى.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

﴿ **وَقُلْ رَبِّ أدخلني مُدْخَلَ صدق** ﴾ أي مدخلاً حسناً مرضياً بلا آفة ﴿ **وَأَخرِجْني مُخْرَجَ صِدْق** ﴾ أي مُخرجاً حسناً مرضيّاً من غير آفة الميل إلى النفس، ولا الضلال بعد الهدى. و ﴿ **وَاْجْعَل لِيّ من لَدُنكَ سُلْطَاناً نَصيراً** ﴾ أي عزّاً ناصراً للإسلام على الكفر، مظهراً له عليه.

وقد رأى المهايمي ارتباط الآية بماقبلها في معناها حيث قال: ﴿ **وَقُل رَّبِّ أدْخلْني** ﴾ أي في هذه العبادات فإنها لا توصلك إلى المقام المحمود، إلا إذا صدق دخولك فيها وخروجك عنها، ولا يتم إلا بإمداد اللّه بعد استمدادك منه. وقولك: ﴿ **رَبِّ أدْخِلْني مُدْخَلَ صدْقٍ** ﴾ أي بمشاهدتك في هذه العبادات، وتخليتي عن الرياء والعجب، وتصفيتي بإخلاص العمل، وإخلاص طلب الأجر، ورؤية المنة للّه، ورؤية التقصير فيها. ﴿ **وأَخْرِجْني** ﴾ عنها ﴿ **مُخْرَجَ صِدْقٍ** ﴾ فلا تستعملني فيما يحبطها عليَّ، ولا تردني على نفسي. وإذا غلبني الشيطانُ أو النفس أو الخلق، أو وردت عليَّ شبهة، فاجعل لي من لدنك، لا من عند فكري، ﴿ **سُلْطَاناً** ﴾ أي حجة ﴿ **نصيراً** ﴾ ينصرني على ما ذكر. ليبقي عليّ عبادتي فيوصلني إلى المقام المحمود. انتهى

واللفظ الكريم محتمل لذلك. ويظهر لنا أنه إشارة للهجرة كما ستراه.

﴿ **وقُلْ** ﴾ أي استبشاراً بقرب الظفر والنصر، وترهيباً للمشركين ﴿ **جَاءَ الْحقُّ** ﴾

وهوالوعد بالسلطان النصيروالإسلام ودولته ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ أي ذهب وهلك. وهو الشرك وجولته ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ أي مضمحلاً غير ثابت في كل وقت.

تنبيه:

سياق هذه الآيات مع سباقها أعني قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَك من الأَرْضِ﴾ يدل على أن نزولها في أوقات الاهتمام للهجرة إلى المدينة، ومبارحة مكة، وأنه تعالى أمر نبيَّه بأن يبتهل إليه في تيسير إدخاله لمهاجَره على ما يرضيه، وإخراجه من بلده كذلك. وأن يجعل له حماية من لدنهُ، تعز جانبه وتعصمهُ ممن يرومه بسوء.

وأسلوب التنزيل العزيز في مثل هذا الدعاء، هو إرادة الخبر بحصول المدعوّ، ومشيئة اللّه بوقوعه عن قرب. ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وزهَقَ الْبَاطِلُ﴾ إعْلاماً بأن الأمر تم، والفرج جاء، ودحر الباطل ورجع إلى أصله، وهوالعدم.

روى الحافظ أبو يعلى عن جابر رضي اللّهُ عنه قال: دخلنا مع رسول اللّه ﷺ مكة. وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، تعبد من دون اللّه. فأمر بها رسول اللّه ﷺ فأكبّت على وجوهها. وقال: ﴿جاءَ الْحقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ ورواهُ الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود، بنحوه.

قال في (الإكليل) فيه استحباب تلاوة هذه الآية عند إزالة المنكر.

ثم بيّن تعالى خسار المشركين، بإعراضهم عما يشفي أمراضهم المعنوية، وهو القرآن الكريم، ونجاح المؤمنين بالاستشفاء بهداه ورحمته، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾

﴿وَنُنَزِّلُ من الْقُرآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ للمؤمنينَ ولاَ يَزِيدُ الظّالمين إلاَّ خَسَاراً﴾ أي وننزل عليك من القرآن ما يستشفى به من الجهل والضلالة. ورحمة ببيان الحقائق وإقامة البراهين للمؤمنين به، دون الكافرين. لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض اللّه وشرائعه. فيدخلهم الجنة وينجيهم من العذاب. فهو لهم رحمة ونعمة. ولا يزيد الظالمينَ، بكفرهم وشركهم، إلا خساراً. أي إهلاكاً. لأنهم كلما جاءهم أمر من اللّهِ أو نهي، كفروا به، فزادهم خساراً إلى ما كانوا فيه قبلُ، ورجساً إلى رجسهم.

قال الشهاب: (الشفاء) استعارة تصريحية أو تخييلية. بتشبيه الكفر بالمرض. و(مِن) بيانية. قدمت على المبيّن وهو (ما) اعتناءً.

تنبيه:

ذهب بعضهم إلى أن القرآن مما يستشفى به من الأمراض الحسّية لهذه الآية. بحمل قوله ﴿ شِفَاءٌ ﴾ على معنيين من باب عموم المجاز. أو حمل المشترك على معنييه، وممن قرر ذلك الرازيّ. وعبارته: اعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية. وشفاء أيضاً من الأمراض الجسمانية. أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر. وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان: الاعتقادات الباطلة. والأخلاق المذمومة. أما الاعتقادات الباطلة، فأشدها فساد الاعتقادات في الإلهيات والنبوّات والمعاد والقضاء والقدر. والقرآن مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب، وإبطال المذاهب الباطلة فيها. لا جرم كان شفاءً من هذا النوع من المرض الروحاني وأما الأخلاق المذمومة، فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاسد، والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة، والأعمال المحمودة. فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض. فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية.

وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية، فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض. ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأن لقراءة الرقي المجهولة والعزائم التي لا يفهم منها شيء آثاراً عظيمة في تحصيل المنافع ودفع المفاسد - فلأنْ تكونَ قراءة هذا القرآن العظيم، المشتمل على ذكر جلال اللّهِ وكبريائه، وتعظيم الملائكة المقربين، وتحقير المردة والشياطين سبباً لحصول النفع في الدين والدنيا - كان أولى. ويتأكد ما ذكرنا بحديث: (من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه اللّهُ تعالى) وأما كونه رحمة للمؤمنين، فاعلم أنا بينا أن الأرواح البشرية مرضية بسبب العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة. والقرآن منه ما يفيد الخلاص من شبهات الضالين وتمويهات المبطلين، وهو الشفاء. ومنه مما يفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية والأخلاق الفاضلة، التي بها يصل الإنسان إلى جوار رب العالمين، والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين، وهو الرحمة. ولما كانت إزالة المرض مقدمة على السعي في تكميل موجبات الصحة، لا جرم بدأ اللّه تعالى، في هذه الآية، بذكر الشفاء ثم أتبعهُ بذكر الرحمة. انتهى.

وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) في بحث الأدوية والأغذية المفردة، التي جاءت على لسانه ﷺ في حرف القاف: (قرآن): قال اللّه تعالى: ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾. والصحيح أن (منْ) ههنا لبيان الجنس، لا للتبعيض.

وقال تعالى: ﴿ يَا أيُّها النَّاسُ قدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِمّا في الصُّدُورِ ﴾ [يونس:٥٧]، فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية. وأدواء الدنيا والآخرة. وما كل أحد يؤهَّل ولا يوفق للاستشفاء به. وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه – لم يقاومه الداء أبداً. وكيف تقاوم الأدواءُ كلامَ رب الأرض والسماء، الذي لو أنزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها. فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل للدلالة على دوائه وسببه والحمْية منه، لمن رزقه الله فهماً في كتابه. فمن لم يشفهِ القرآن فلا شفاهُ اللّهُ. ومن لم يكفهِ فلا كفاهُ اللّهُ.

ثم قال في (حرف الكاف): ورخص جماعة من السلف في كتابة بعض القرآن وشربه، وجعل ذلك من الشفاء الذي جعل اللّهُ فيه. ثم ذكر ما كان يكتبه شيخ الإسلام ابن تيمية للرعاف. فانظره.

وذكر، قبلُ، في فاتحة الكتاب، من سرّ كونها شفاءً، حقائق بديعة. وكذا في بحث الرقي. وذكر أيضاً أن من الأدوية التي تشفي من الأمراض، ما لم يهتد إليها عقول أكابر الأطباء، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم وأقيستهم، من الأدوية القلبية والروحانية وقوة القلب واعتمادهُ على اللّه والتوكل عليه والالتجاء إليه، والانطراح والانكسار بين يديهِ، والتذلل له والصدقة والصلاة والدعاء والتوبة والاستغفار، والإحسان إلى الخلق وإغاثة الملهوف والتفريج عن المكروب. فإن هذه الادوية قد جربتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها. فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لم يصل إليه علم أعلم الأطباء، ولاتجربته ولا قياسه وقد جرّبنا نحن وغيرنا من هذا أموراً كثيرة. ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسيّة وهذا جارٍ على قانون الحكمة الإلهية، ليس خارجاً عنها. ولكن الأسباب متنوّعة، فإن القلب متى اتصل برب العالمين، وخالق الداء والدواءِ، ومدبّر الطبيعة ومصرّفها على ما يشاء، كانت له أدوية أخرى غير الأدوية التي يعاينها القلب البعيد منه، المعرض عنه. وقد علم أن الأرواح متى قويت وقويت النفس والطبيعة، تَعَاونَا على دفع الداء وقهره. فكيف ينكر لمن قويت طبيعته ونفسه، وفرحت بقربها من بارئها وأنسها به وحبّها له وتنعمها بذكره، وانصراف قواها كلها إليه، وجمعها عليه، واستعانتها به، وتوكلها عليه – أن يكون ذلك لها من أكبر الأدوية، ويوجب لها هذه القوة دفع الألم بالكلية. ولا ينكر هذا إلا أجهل الناس وأعظمهم حجاباً وأكثفهم نفساً، وأبعدهم عن اللّه وعن حقيقة الإنسانية.

وقد أسهب، عليه الرحمة، أيضاً في كتاب (إغاثة اللهفان) في بيان تضمن القرآن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه،بما تنبغي مراجعته، ليزداد المريد علماً.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾

﴿ وَإِذا أنعمْنا على الإنسانِ أعْرَض ونأى بجانبه وإذا مَسَّهُ الشرُّ كانَ يؤوساً ﴾ إشارة إلى السبب في وقوع هؤلاء الضالين في أودية الضلال. وهو حب الدنيا وإيثارها على الأخرى، وكفران نعمه تعالى. بالإعراض عن شكرها، والجزع واليأس من الفرج عند مسّ شرٍ قضى عليه. وكل ذلك مما ينافي عقد الإيمان. فإن المؤمن ينظر بعين البصيرة، ويشاهده قدرة اللّه تعالى في كلتا الحالتين. ويتيقن في الحالة الأولى؛ أن الشكر رباط النعم. وفي الثانية أن الصبر دفاع النقم. فيشكر ويصبر. ويعلم أن المنعم يقدر فلم يعرض عند النعمة بطراً وأشراً. ولم يغفل عن المنعم ولم يجزع عند النقمة جزعاً وضجراً.

فالآية وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذه الصفة. كقوله تعالى: ﴿ ولئنْ أذقْنا الإنسانَ منّا رحمةً ثُمَّ نزعْناها منْهُ إنهُ ليَؤوسٌ كفورٌ، ولئن أذقْناهُ نعْماءَ بعدَ ضرَّاء مسَّتْهُ ليقولَنَّ ذهبَ السَّيئاتُ عنّي إنَّهُ لَفرِحٌ فخورٌ، إلاَّ الّذينَ صبَروا وعَمِلُوا الصَّالحات أُولئكَ لَهُمْ مَّغْفرةٌ وأَجرٌ كَبيرٌ ﴾ [هود: ٩ – ١١].

قال الزمخشريّ: ﴿ ونأى بجانبه ﴾ تأكيد للإعراض. لأن الإعراض عن الشيء أن يُولّيه عرض وجهه. والنأي بالجانب: أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهرهُ. أو أراد الاستكبار، لأن ذلك من عادة المستكبرين.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْملُ على شاكلَته ﴾ أي على مذهبه وطريقته وخليقته وملكته الغالبة عليه، الحاصلة له من استعداد حقيقته، التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة. من

قولهم (طريق ذو شواكل) وهي الطرق التي تتشعب منه لتشاكلها. أي تشابهها في الشكل. فسميت عادة المرء بها، لأنها تشاكل حاله. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ **فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً** ﴾ أي أسدّ مذهباً وطريقة، من العاملين: عامل الخير بمقتضَى سجية القلب الفاضلة، وعامل الشر بمقتضى طبيعة النفس، فيجازيهما بحسب أعمالهما.

وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾

﴿ **وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ** ﴾ قال القاشاني: أي الذي يحيا به بدن الإنسان ويدبره ﴿ **قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** ﴾ أي ليس من عالم الخلق حتى يمكن تعريفه للظاهريين البدنيين، الذين يتجاوز إدراكهم الحس والمحسوس، بالتشبيه ببعض ما شعروا به، والتوصيف. بل من عالم الأمر، أي الإبداع الذي هو عالم الذوات المجردة عن الهيولى، والجواهر المقدسة عن الشكل واللون والجهة والأين، فلا يمكنكم إدراكه أيها المحجوبون بالكون، لقصُور إدراككم وعلمكم عنه ﴿ **وَما أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ هو علم المحسوسات. وذلك شيء نزر حقير بالنسبة إلى علم الله والراسخين في العلم – هذا ما قاله القاشانيّ – وحاصل الجواب عليه: أن الروح موجود محدَث بأمره تعالى بلا مادة، وتولد من أصل كاعضاء الجسد، حتى يمكن تعريفه ببعض مبادئه، بل هو من عالم الأمر لا من عالم الخلق. فيكون الاقتصار في الجواب على قوله: ﴿ **قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** ﴾ كما اقتصر موسى في جواب قول فرعون ﴿ **وَما رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الشعراء:٢٣]، على قوله ﴿ **رَبُّ السَّموات والأرْضِ** ﴾ [الشعراء:٢٤]، إعلاماً بان إدراكه بالكُنْه على ما هو عليه، لا يعلمه إلا الله تعالى. وأنه شيء بمفارقته يموت الإنسان. وبملازمته له يبقى. كما أومأ إليه قوله تعالى: ﴿ **وَما أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ أي علماً قليلاً تستعيدونه من طرق الحواس. وهو هذا القدر الإجماليّ.

قال الشهاب: والسؤال – على هذا – عن حقيقتها. والجواب إجماليّ بانها من المبدعات من غير مادة. ولذا قيل: إنه من الأسلوب الحكيم. كما في قوله: ﴿ **يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّة** ﴾[البقرة:١٨٩]، إشارة إلى أن حقيقتها لا تعلم، وإنما يعلم منها هذا المقدار. فالمراد بـ (الأمر) على هذا التفسير (قول كن) ولذا قالوا لمثله: عالم الأمر. انتهى.

قال أبو السعود عليه الرحمة: وليس هذا من قبيل قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذا أرادَ شَيْئاً أن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فإن ذلك عبارة عن سرعة التكوين. سواء كان الكائن من عالم الأمر أو من عالم الخلق. بل إنه من الإبداعيات الكائنة بمحض الأمر التكوينيّ من غير تحصلٍ من مادة. وحكى، عليه الرحمة، قولاً آخر وهو: أن الأمر بمعنى الشأن. قال: والإضافة للاختصاص العلميّ لا الإيجادي، لاشتراك الكل فيه. وفيها من تشريف المضاف ما لا يخفى. كما في الإضافة الثانية من تشريف المضاف إليه. أي هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأسرار الخفية التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر. وعليه، فـ (من) بيانية أو تبعيضية. ويكون نهياً لهم عن السؤال عنها، وتركاً للبيان. وهذا رأي كثيرين. امسكوا عن الخوض فيها، وقالوا: إنها شيء استأثر الله بعلمه ولم يطلع أحداً من خلقه. فلا يجوز البحث عنها بأكثر من أنها شيء موجود، بل غلا بعضهم وقال: إن الإفاضة في بحث الروح بدعة في الدين. إذا لم يبينه الله لرسوله بأكثر مما في الآية. فالاشتغال بالتفتيش عنه غلوٌ فيما لم يرد به قرآن ولم يقم عليه برهان، وما كان كذلك فهو عناد.

وأجاب الخائضون في بحثها، بأن الآية لا يدل معناها على ذكر دلالة قطعية، ولا دلالة فيها على المنع من الخوض فيها، ولا على أنه ﷺ لم يكن يعلمها. وغاية الأمر أنه أمر بترك الجواب عنها تفصيلاً. إما لأن الإمساك عن ذلك كان عند اليهود السائلين عنها، من دلائل نبوّته ﷺ، أو لأن سؤالهم كان تعنتاً. فإنها تطلق على معان: منها الراحة وبرد النسيم. وعلى جبريل والقرآن وعيسى عليه السلام والحياة والقلب والرحمة وغير ذلك. فأضمروا على أنه إذا أجاب بأحد هذه الأمور، قالوا: لم نرده، وإنما أردنا كذا.

ثم الأقاويل فيها من الحكماء والعلماء الأقدمين مختلفة. ولا يتم الجواب في محل الخلاف. فأتى بالجواب مجملاً على وجه يصدق على كلٍّ من ذلك مرموزا، ليعلمه العلماء بالله. واقتضت المصلحة العامة منع الكلام فيه لغيرهم. لأن الأفهام لا تحتمله. خصوصاً على طريقة الحكماء. إذ من غلب على طبعه الجمود لا يقبله ولا يصدق به في صفة الباري. فكيف يصدق به في حق الروح الإنسانيّ. بل قال بعض المدققين: إن في الآية والجواب ببيان حقيقتها، وأنها من إبداعاته الكائنة بتكوينه، من غير سبق مادة – وهو ما ذكرناه أولاً– وفي الجواب بذلك ما فيه الكفاية لذوي البصائر والدراية. ومقنع لمن كان له في النزاع، إذا فُصِلَ، مطمع. وقد استحسن بعضهم هذا الجواب وقال مذيلاً له: فيكون قوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ على أن

السؤال عن حقيقتها- مطابقاً. إلا أنه إجماليّ. أي من الممكنات التي يمكن الوقوف على حقائقها، وإن كان بإعمال روية وإيقاظ فكر كباقي عالم الأمر. وعلى أن السؤال عن قدمها وحدوثها كذلك. إلا أنه تفصيليّ. وأيًّا ما كان، فلم يترك بيانها، ولو كانت مما لا سبيل إلى معرفته لقيل: ﴿قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِندَ رَبِّي﴾ كما قيل في الساعة، أو نحو ذلك. بل لو لم يكن السبيل لمعرفته، ولو بوجه ما، متيسّراً لكثير من الناس، لم يكن لأمره بالتفكر فيها، والتّبصر في أمرها، للاستدلال بها عليه، والتوصل بواسطة معرفتها إليه، الذي هو الغاية القصوى والثمرة العظمى- منْ فائدة. بل كان عبثاً. فدل قوله تعالى: ﴿أو لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أنفُسِهِم﴾ [الروم:٨]، وقوله: ﴿وَفِي أنفُسِكُمْ، أفلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، ونحو ذلك، أنها أمر تدركه العقول، وبه يكون إليه تعالى الوصول.

ثم إن الذين خاضوا في البحث عنها، أُثِرَت عنهم أقوال شتى. وقد أفردت لذلك تآليف قديمة وحديثة، والذي يهمنا معرفته ما عول عليه الأئمة المدققون، الذين نقبوا عن أقوال المتقدمين، ونقدوها بمحك الكتاب والسنة، فنبذوا ما يخالفهما وتمسكوا بما يوافقهما.

فمنهم الإمام ابن حزم. قال رحمه الله في كتابه (الملل والنحل) بعد سرد مذاهب شتى: وذهب سائر أهل الإسلام والملل المقرّة بالمعاد، إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكان. عاقلة مميزة مصرّفة للجسد. قال: وبهذا نقول. والنفس والروح اسمان لمسمى واحد، ومعناهما واحد. ثم قال: وأما من ذهب إلى أن النفس ليست جسماً، فقولٌ يبطل بالقرآن والسنة وإجماع الأمة. فأما القرآن، فإن الله عز وجل قال: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس:٣٠]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجزَى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ، لا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر:١٧]، وقال تعالى: ﴿كل امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١]، فصح أن النفس هي الفعالة الكاسبة المجيبة المخطئة. وقال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تقومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آل فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾ [غافر:٤٦]. وقال تعالى: ﴿ولا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّه أمْواتٌ، بَلْ أحْياءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٥٤]، وقال تعالى: ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّه أَمْواتاً، بَلْ أحْياءٌ عِندَ رَبِّهِم يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِه﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠] فصح أن الأنفس، منها ما يعرض على النار قبل يوم القيامة، فيعذب. ومنها ما يرزق

وينعم فرحاً، ويكون مسروراً قبل يوم القيامة. ولا شك أن أجساد آل فرعون وأجساد المقتولين في سبيل الله، قد تقطعت أوصالها وأكلها السباع والطير وحيوان الماء. فصحّ أن الأنفس منقولة من مكان إلى مكان. ولا شك في أن العرَض لا يلقى العذاب ولا يحس، فليست عرَضاً. وصح أنها تنتقل في الأماكن قائمة بنفسها، وهذه صفة الجسم لاصفة الجوهر عند القائل به، فصح، ضرورةً، أنها جسم.

وأما من السنن فقول رسول الله ﷺ[1] (إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر في الجنة) وقوله ﷺ[2]، إنه (رأى نَسم بني آدم عند سماء الدنيا عن يمين آدم ويساره) فصح أن الأنفس مرئيّة في أماكنها، وقوله عليه السلام[3] (إن نفس المؤمن إذا قبضت، عرج بها إلى السماء وفعل بها كذا. ونفس الكافر إذا قبضت فعل بها كذا) فصح أنها معذبة ومنعمة ومنقولة في الأماكن، وهذه صفة الأجسام ضرورة.

وأما من الإجماع، فلا اختلاف بين أحد من أهل الإسلام في أن أنفس العباد منقولة بعد خروجها من الأجساد، إلى نعيم أو إلى صنوف ضيق وعذاب. وهذه صفة الأجسام.

ثم قال: ومعنى قول الله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾. إنما هو لأن الجسد مخلوق من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم عظماً ثم لحماً ثم أمشاجاً. وليس الروح كذلك. وإنما قال الله تعالى آمراً له بالكون (كن فكان). فصح أن النفس والروح والنسمة أسماء مترادفة لمعنى واحد، وقد يقع الروح أيضاً على غير هذا. فجبريل عليه السلام الروح الأمين. والقرآن روح من عند الله.

وقال ابن حزم أيضاً، قبل ذلك، في بحث عذاب القبر: والذي نقول به في مستقر الأرواح، هو ما قاله الله تعالى ونبيه ﷺ لا نتعداه، فهو البرهان الواضح وهو أن الله تعالى قال: ﴿وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ من بَنِي آدَمَ من ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وأَشْهَدَهُمْ على أنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرِبِّكُمْ، قَالُوا بَلى شَهِدْنا أن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذا غافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا

(١) أخرجه مسلم في: الإمارة، حديث رقم ١٢١ عن عبد الله بن مسعود.

(٢) أخرجه البخاريّ في: الصلاة، ١- باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، حديث ٢٣٥، عن أبي ذر.

(٣) أخرجه ابن ماجة في: الزهد، ٣١ - باب ذكر الموت والاستعداد له، حديث ٤٢٦٢، عن أبي هريرة.

لِلْملائكَة اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُواْ﴾ [الأعراف:١١]، فصح أن الله عز وجل خلق الأرواح جملة، وهي الأنفس. وكذلك أخبر عليه السلام[١] (إن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) – وهي العاقلة، الحساسة – وأخذ عز وجل عهدها وشهادتها – وهي مخلوقة مصورة عاقلة، قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم، على جميعهم السلام. وقبل أن يدخلها في الأجساد. والأجساد يومئذ تراب وماء. ثم أقرّها تعالى حيث شاء. لأن الله تعالى ذكر ذلك بلفظة (ثُمَّ) التي توجب التعقيب والمهلة. ثم أقرها عز وجل حيث شاء. وهو البرزخ الذي ترجع إليه عند الموت. لا تزال يبعث منها الجملة، بعد الجملة. فينفخها في الأجساد المتولدة من المنيّ، المنحدر من أصلاب الرجال وأرحام النساء. كما قال تعالى ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ [القيامة:٣٧-٣٨]، وقال عز وجل: ﴿وَلَقدْ خَلَقْنا الإنسانَ من سُلالَة مِّن طين ثُمّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَّكينٍ ثُمّ خَلَقْنا النُّطْفَة علَقَةً فَخلَقْنا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنا الْمُضْغَةَ عظاماً﴾ [المؤمنون:١٢-١٤]، الآية وكذلك أخبر رسول الله ﷺ[٢]؛ أنه (يجمع خَلق ابن آدم في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح) فيبلوهم الله عز وجل في الدنيا كما شاء. ثم يتوفاها فترجع إلى البرزخ الذي رآها فيه رسول الله ﷺ ليلة أسري به عند سماء الدنيا: أرواح أهل السعادة عن يمين آدم عليه الصلاة والسلام، وأرواح أهل الشقاوة عن يساره عليه السلام. وذلك عند منقطع العناصر، وتعجل أرواح الأنبيياء عليهم السلام وأرواح الشهداء إلى الجنة.

وقد ذكر محمد بن نصر المروزيّ عن اسحاق بن راهويه، أنه ذكر هذا القول الذي قلنا بعينه، وقال: على هذا أجمع أهل العلم.

ثم قال ابن حزم: ولا تزال الأرواح هنالك، حتى يتم عدد الأرواح كلها بنفخها في أجسادها ثم برجوعها إلى البرزخ المذكور. فتقوم الساعة، ويعيد عز وجل الأرواح ثانية إلى الأجساد. وهي الحياة الثانية. ويحاسب الخلق: فريق في الجنة وفريق في السعير، مخلدين أبداً. انتهى.

---

(١) أخرجه البخاريّ في: الأنبياء، ٢ – باب الأرواح جنود مجندة، حديث رقم ١٥٧٦، عن عائشة.
وأخرجه مسلم في: البرّ والصلة والآداب، حديث رقم ١٥٩، عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاريّ في: بدء الخلق، ٦ – باب ذكر الملائكة، حديث ١٥١٤، عن عبد الله بن مسعود.

فصــل

ومنهم شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية، عليه الرحمة، قال في: (تفسير سورة الإخلاص) بعد أن ذكر نزاع المتكلمين المتفلسفة في الملائكة. هل هي متحيزة أم لا؟ وكذلك نزاعهم في روح الإنسان التي تفارقه بالموت، على قول الجمهور الذين يقولون:هي عين قائمة بنفسها ليست عرضاً من أعراض البدن كالحياة وغيرها. ولا جزءاً من أجزاء البدن كالهواء الخارج منه. فإن كثيراً من المتكلمين زعموا أنها عرض قائم بالبدن، أو جزء من أجزاء البدن. لكن هذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والخلف. ولقول جماهير العقلاء من جميع الأمم. ومخالف للأدلة، وهذا مما استطال به الفلاسفة على كثير من أهل الكلام.

قال القاضي أبو بكر: أكثر المتكلمين على أن الروح عرض من الأعراض. وبهذا نقول: إذا لم يعن بالروح النفس، فإنه قال: الروح الكائن في الجسد ضربان: أحدهما الحياة القائمة به والآخر النفَس. والنفَس ريح ينبثّ به، والمراد بالنفس، ما يخرج بنفس التنفس من أجزاء الهواء المتحلل من المسامّ. وهذا قول الإسفرائينيّ وغيره. وقال ابن فورك: هو ما يجري في تجاويف الأعضاء. وأبو المعالي خالف هؤلاء وأحسن في مخالفتهم فقال: إن الروح أجسام لطيفة مشابكة للأجسام المحسوسة. أجرى الله العادة بحياة الأجساد مااستمرت مشابكتُها لها. فإذا فارقتها تعقب الموت الحياة في استمرار العادة. ومذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر سلف الأمة وائمة السنة، وأن الروح عين قائمة بنفسها. تفارق البدن وتنعم، وتعذب. ليست هي البدن، ولا جزءاً من أجزاءه كالنفَس المذكور.

ثم الذين قالوا: إنها عين، تنازعوا: هل هي جسم متحيز؟ على قولين: كتنازعهم في الملائكة. فالمتكلمون منهم يقولون: جسم. والمتفلسفة يقولون: جوهر عقليّ ليس بجسم. وأصل تسميتهم المجردات والمفارقات، هو مأخوذ من نفس الإنسان. فإنها لما كانت تفارق بدنه بالموت، وتتجرد عنه، سموها مفارقة مجردة. ثم أثبتوا ما أثبتوه من العقول والنفوس وسموها. مفارقات ومجردات. لمفارقتها المادة التي هي عندهم الجسم. وهذه المفارقات عندهم ما لا يكون جسماً ولا قائماً بجسم. لكن النفس متعلقة بالجسم تعلق التدبير. والعقلُ لا تعلق له بالأجسام أصلاً. ولا ريب أن جماهير العقلاء على إثبات الفرق بين البدن والروح التي تفارق.

والجمهور يسمون ذلك روحاً وهذا جسماً- لكن لفظ الجسم في اللغة ليس هو الجسم في اصطلاح المتكلمين. بل الجسم هو الجسد. وهو الجسم الغليظ، أو غِلَظُه. والروح ليست مثل البدن في الغلظ والكثافة ولذلك لا تسمى جسماً. فمن جعل الملائكة والأرواح جسماً بالمعنى اللغويّ، فما أصاب في ذلك. وأما أهل الاصطلاح من المتكلمة والمتفلسفة، فيجعلون مسمى الجسم أعم من ذلك. وهو ما أمكنت الإشارة الحسية إليه. وما قيل إنه هنا وهناك وما قَبِل الأبعاد الثلاثة ونحو ذلك.

ثم قال عليه الرحمة: وما يقوله هؤلاء المتفلسفة في النفس الناطقة، من أنها لا يشار إليها ولا توصف بحركة ولا سكون ولاصعود ولا نزول، وليس داخل العالم ولا خارجه- هو كلام باطل عند جماهير العقلاء. ولا سيما من يقول منهم، كابن سينا وأمثاله: إنها لا تعرف شيئاً من الأمور الجزئية. وإنما تعرف الأمور الكلية. فإن هذا مكابرة ظاهرة. فإنها تعرف بدنها وتعرف كل ما تراه بالبدن وتشمه وتسمعه وتذوقه وتقصده وتأمر به وتحبه وتكرهه، إلى غير ذلك مما تتصرف فيه بعلمها وعملها. فكيف يقال: إنها لا تعرف الأمور المعينة وإنما تعرف أموراً كلية!؟ وكذلك قولهم: إن تعلقها بالبدن ليس إلا مجرد تعلق التدبير والتصريف كتدبير الملك لمملكته- من أفسد الكلام.فإن الملك يدبر أمر مملكته، فيأمر وينهى. ولكن لا يصرفهم هو بمشيئته وقدرته، إن لم يتحركوا هم بإرادتهم وقدرتهم.

والملك لا يلتذ بلذة أحدهم ولا يتالم بتألمه، وليس كذلك الروح والبدن. بل قد جعل الله بينهما من الاتحاد والائتلاف ما لا يعرف له نظير يقاس به. ولكن دخول الروح فيه ليس هو مماثلاً لدخول شيء من الأجسام المشهودة. فليس دخولها فيه كدخول الماء ونحوه من المائعات في الأوعية. فإن هذه إنما تلاقي السطح الداخل في الأوعية لا بطونها ولا ظهورها وإنما يلاقي الأوعية منها أطرافها دون أوساطها. وليس كذلك الروح والبدن. بل الروح متعلقة بجميع أجزاء البدن باطنه وظاهره. وكذلك دخولها فيها ليس كدخول الطعام والشراب في بدن الآكل. فإن ذلك له مجار معروفة، وهو مستحيل إلى غير ذلك من صفاته. ولا جريانها في البدن كجريان الدم. فإن الدم يكون في بعض البدن دون بعض. ففي الجملة كل ما يذكر من النظائر لا يكون كل شيء منه متعلقاً بالآخر. بخلاف الروح والبدن. لكن هي مع هذا في البدن قد ولجت فيه. وتخرج منه وقت الموت. وتسلّ منه شيئاً فشيئاً. فتخرج من البدن شيئاً فشيئاً. لا تفارقه كما يفارق الملك مدينته التي يدبّرها. والناس لما لم يشهدوا

لها نظيراً، عسر عليهم التعبير عن حقيقتها. وهذا تنبيه لهم على رب العالمين، حيث لم يعرفوا حقيقته، ولا تصوروا كيف هو سبحانه وتعالى. وإن ما يضاف إليه من صفاته هو على ما يليق به جل جلاله. فإن الروح، التي هي بعض عبيده، توصف بأنها تعرج إذا نام الإنسان. وتسجد تحت العرش. وهي مع هذا في بدن صاحبها لم تفارقه بالكلية. والإنسان. في نومه، يحس بتصرفات روحه تصرفات تؤثر في بدنه . فهذا الصعود الذي توصف به الروح لا يماثل صعود المشهودات. فإنها إذا صعدت إلى مكان فارقت الأول بالكلية. وحركتها إلى العلوّ حركة انتقال من مكان. وحركة الروح بعروجها وسجودها ليس كذلك. انتهى.

فصــــل

وكتب بعض المنقبين عن مباحث المدققين العصريين في الروح ما مثاله: إن نظرية الروحيين التي يستدلون عليها في أوربا بالحسّ في هذه الأيام، هي أن للإنسان روحاً هبطت عليه من الملأ الأعلى. لا يصل العقل إلى إدراك كنهها. وإنها متصلة بهذا الجسد الطينيّ، بواسطة هيكل لطيف شفاف على شكل الجسد تماماً. ولكنه ليس من طبيعته ولا محكوماً بقوانينه. وإنه كغلاف للسرّ الإلهي المسمى روحاً. ولعل في هذا ما يشبه قول الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه عن الروح (هي صورة كالجسد) ويقولون: إن الروح وغلافها هذا يخرجان من الجسد عند حصول الموت للشخص، إلى عالم غير هذا العالم. ولكنهما لا ينفصلان عنه كل الانفصال، بل أرواح الموتى منتشرة حولنا في كل جهة. ولكنا لا نراها بأعيننا، لعدم استعداد أعيننا لذَلكَ. كما أنها ليست مستعدة لرؤية أشعة (رونتجن) مع أنها موجودة كما تدل عليه الآية التي صنعها له. وقد دخلت تطبيقاتها في علم الطب وأفادت العلم الطبيعيّ فائدة كبرى. ولكن يوجد أشخاص فيهم استعداد خاص به يرون الأرواح رائحة غادية، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، رؤية حقيقية. انتهى. ملخصاً.

تنبيه:

جميع ما قدمناه، بناء على أن المراد بالروح في الآية روح الإنسان.

قال ابن القيم في كتاب (الروح): وفي ذلك خلاف بين السلف والخلف. وأكثر السلف، بل كلهم، على أن الروح المسؤول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم. بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه، أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة،

وهو ملَك عظيم. وقد ثبت في الصحيح[1] عن عبد الله قال: بينا أنا أمشي مع رسول الله ﷺ في حرّة المدينة، وهو متكئ على عسيب، فمررنا على نفر من اليهود. فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح؟ وقال بعضهم:لا تسالوه عسى أن يخبر فيه بشيء تكرهونه. وقال بعضهم: نسأله. فقام رجل فقال: يا أبا القاسم! ما الروح؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ. فعلمت أنه يوحى إليه. فقمت. فلما تجلى عنه قال: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية، ومعلوم أنهم إنما سالوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحي. وذلك هو الروح الذي عند الله لا يعلمها الناس. وأما أرواح بني آدم فليست من الغَيب. وقد تكلم فيها طوائف الناس من أهل الملل وغيرهم. فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة. فإن قيل: فقد روى أبو الشيخ عن السديّ عن أبي مالك، عن ابن عباس قال: بعثت قريش عقبة بن أبي معيط وعبد الله بن أمية بن المغيرة إلى يهود المدينة يسألونهم عن النبي ﷺ. فقالوا: إنه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبيّ. وليس على ديننا. ولا على دينكم. قالوا: فمن تبعه؟ قالوا: سفلتنا والضعفاء والعبيد ومن لا خير فيه. وأما أشراف قومه فلم يتبعوه. فقالوا: إنه قد أظلّ زمانُ نبيٍّ يخرج، وهو على ما تصفون من أمر هذا الرجل، فأتوه فاسألوه عن ثلاث خصال فأمركم بهن. فإن أخبركم بهن فهو نبيٌّ صادق. وإن لم يخبركم بهن فهو كذّاب. سلوه عن الروح التي نفخ الله تعالى في آدم. فإن قال لكم: هي من الله، فقولوا: كيف يعذب الله في النار شيئاً هو منه.؟ فسأل جبريل عنها فأنزل الله الآية. يقول: هو خلق من خلق الله ليس هو من الله.

قيل: مثل هذا الإسناد لا يحتج به. فإنه من تفسير السديّ عن أبي مالك. وفيه أشياء منكرة. وسياق هذه القصة في السؤال، من الصحاح والمسانيد، كلها تخالف سياق السدّيّ. وقد رواها الأعمش والمغيرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: مر النبيّ ﷺ على ملأ من اليهود. وأنا أمشي معه. فسألوه عن الروح، قال فسكتَ. فظننت أنه يوحى إليه. فنزلت ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ يعني اليهود ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي...﴾ الآية. وكذلك هي في قراءة عبد الله. فقالوا كذلك نجد مثله في التوراة أن الروح من أمر الله عز وجل. رواه جرير بن عبد الحميد وغيره عن المغيرة. وروى يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال:

(١) أخرجه البخاريّ في: العلم، ٤٧ – باب قوله تعالى: ﴿وما أُوتيتُم مِّنَ العِلْم إلاَّ قَليلاً﴾. حديث رقم ١٠٦.

أتت اليهود إلى النبي ﷺ فسألوه عن الروح. فلم يجبهم النبي ﷺ بشيء. فانزل الله عز وجل الآية. فهذ يدل على ضعف حديث السدّي، وأن السؤال كان بمكة، فإن هذا الحديث وحديث ابن مسعود صريح أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود. ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة، لم يسكت النبي ﷺ، ولبادر إلى جوابهم بما تقدم من إعلام الله له، وما أنزل الله عليه. وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أعظم اضطراب. فإما أن تكون من قبل الرواة، أو تكون أقواله قد اضطربت فيها. ثم ساق ابن القيم الروايات عنه مسندة، ثم قال: والروح في القرآن على عدة أوجه:

أحدها: الوحي، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنا﴾ [الشورى:٥٢]، وقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنَ يشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ [غافر:١٥]، وسمى الوحي روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح.

الثاني: القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين، كما قال: ﴿أولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمانَ وأيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المحادلة:٢٢].

الثالث: جبريل كقوله تعالى: ﴿نزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ على قَلْبِكَ﴾ [الشعراء::١٩٣-١٩٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِجبْريلَ فإنَّهُ نَزَّلَهُ على قلْبِكَ بِإذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٩٧]، وهو روح القدس، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل:١٠٢].

الرابع: الروح التي سأل عنها اليهود فاجيبوا بأنها من أمر اللّه. وقد قيل إنها الروح المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ والْمَلائكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبأ:٣٨]، وإنها الروح المذكورة في قوله: ﴿تَنَزَّلُ الْملائكَةُ والرُّوحُ فيها بِإذنِ رَبِّهِمِ﴾ [القدر:٤].

الخامس: المسيح عيسى ابن مريم. قال تعالى: ﴿إنَّما الْمَسيحُ عيسى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وكَلِمَتهُ ألْقاها إلى مريَمَ ورُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١]، أما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها بالقرآن إلا بالنفس، قال تعالى: ﴿يا أيَّتها النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر:٢٧]، وقال: ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:٢]، وقال: ﴿إنَّ النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بالسُّوءِ﴾ [يوسف:٥٣]، وقال: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٣]، وقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاها، فَأَلْهَمهَا فُجُورَها وَتَقْوَاها﴾ [الشمس:٧-٨]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح. انتهى.

قال ابن كثير: رواية عبد اللّه في الصحيح المتقدمة، تقتضي فيما يظهر ببادئ الرأي، أن هذه الآية مدنية. وأنها إنما أنزلت حين سأله اليهود عن ذلك المدينة. مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية. كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك. أو إنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ انتهى.

وقد روى ابن جرير عن قتادة: أن الروح في الآية هو جبريل عليه السلام. وحكاه عن ابن عباس.

أقول: الذي أراه متعيناً في الآية، لسابقها ولاحقها، أن المراد بالروح الوحي بالقرآن، وهو قريب من قول قتادة. ووجه تعينه أن هذه الآية في سياق ذكر القرآن وتنزيله والمنّةَ بكونه شفاء ورحمة، وقد سمى تعالى الوحي بالقرآن روحاً: قال تعالى: ﴿وكَذَلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] وقال تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى من يَشاءُ مِنْ عِبادِهُ﴾ [غافر:١٥] فكانوا إذا سمعوا الروح، وصدعوا بالإيمان به، يتعنتون في السؤال عنه، استبعاداً لأن يكون من لدنه سبحانه، ولأن يكون بشر مثله مبعوثاً بأمره تعالى أن يبين لهم أنه وحي أوحاه اللّهُ، وأنه روح من لدنه، وإلقاء من أمره. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ [يونس:٥٣] وقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، عن النَّبَأ العَظِيمِ، الَّذي هُمْ فيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾[النبأ:١-٣]، أي بعضهم ينكره وبعضهم يتردد في صحته. وذلك لأنهم قوم جاهليون، لا عهد لهم بالعلوم والمعارف، فضلاً عن الوحي وخصائص النبوةَ، للأمّية والجهالة الفاشيتين فيهم. كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم من الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً﴾ أي مما تناله مشاعركم وتصل إليه فطنكم. وما هو في جنب معلومات لا تحصى، إلا كالقطرة من البحر والذرة من الكثيب. والقاعدة أن القرآن متجاوب الأطراف، يفسر بعضه بعضاً.

وجميع ما ذكره المتقدمون، غير ما ذكرناه، جريٌ مع ما يحتمله نظم الآية الكريمة. وكذا رواية ابن مسعود أنه أجيب بها اليهود، لأنها لما كان لها وجوه من المعاني، ومنها ما سألوا عنه، ألقموا بها، واللّهُ سبحانه وتعالى أعلم.

ثم أشار تعالى إلى نعمته فيما أوحاه من هذا التنزيل والهداية به، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾

﴿**وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالَّذي أَوْحَيْنا إليكَ**﴾ أي من القرآن الذي هو شفاءٌ ورحمة للمؤمنين: وإنما عبر عنه بالموصول، تفخيماً لشأنه. ووصفاً له بما هو في حيز الصلة، وإعلاماً بأنه ليس من قبيل كلام المخلوق ﴿**ثُمَّ لاَ تَجِدُ لكَ بهِ عَلَيْنا وَكيلاً**﴾ أي من يتوكل علينا برده.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

﴿**إلاَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ**﴾ أي ولكن رحمة من ربك تركته غير مُشاءٍ الذهاب به بل تولت حفظه.

قال الزمخشريّ: وهذا امتنان من اللّه تعالى ببقاء القرآن محفوظاً، بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه. فعلى كل ذي علم أن لا يغفل عن هاتين المنّتين والقيام بشكرهما. وهما منة اللّه عليه بحفظه العلم ورسوخه في صدره، ومنته عليه في بقاء المحفوظ: ﴿**إنَّ فَضلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبيراً**﴾ أي تفضله بالإيحاء والتعليم الربانيّ، والاصطفاء للرسالة، ثم أمره تعالى أن يخاطب أولئك المشركين الذين لم يفقهوا قدر التنزيل، وأنه وحي ربانيّ، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

﴿**قُلْ لَئنِ اجْتَمَعت الإنسُ والْجنُّ**﴾ أي اتفقت ﴿**عَلَى أن يَأْتوا بمثْلِ هذا الْقُرآنِ لا يَأْتُونَ بمثْلِه ولَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً**﴾ أي معيناً. وفي تقاصر قوى هؤلاء جميعهم عن ذلك، مع طول الزمن، دليل قاطع على أنه ليس ما اعتيد صدورهُ عن البشر، بل هو كلام عالم الغيب والشهادة.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

﴿**ولَقَدْ صَرَّفْنا**﴾ أي رددنا وكررنا وبينَّا ﴿**للنَّاسِ في هذا الْقُرآن من كُلِّ مَثَلٍ**﴾ أي

من كل معني، هو كالمثل في غرابته وحسنه، ليتقرز ويرسخ في نفوسهم، ويزدادوا تدبراً وإذعاناً. فكان حالهم على العكس، إذ لم يزدادوا إلا كفراً، كما قال سبحانهُ: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ أي جحوداً.

ولما تبين إعجاز القرآن، وأنه الآية الكبرى، ولزمتهم الحجة وغلبوا، أخذوا يتعللون باقتراح الآيات، فعلَ المبهوت المحجوج المتعثر في أذيال الحيرة، فيما حكاهُ تعالى عنهم بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا من الأَرْضِ يَنبُوعاً﴾ أي تشقق لنا من أرض مكة عيوناً ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ من نَّخيلٍ وَعِنَبٍ﴾ أي بستان منهما ﴿فَتُفَجِّرَ الأَنْهارَ خلالها تفجيراً﴾ وإنما قدموا في عنتهم هذا المقترح، لأنهم كانوا يَرِدُونَ بلاد الشام والعراق، ويرون ما فيها من البساتين والأنهار.

قال ابن جرير فيما رواه، إنهم قالوا للنبيّ ﷺ : لقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً. ولا أقل مالاً. ولا أشد عيشاً منا. فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا. وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق. ثم زادوا في الاقتراح فقالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾ أي قطعاً بالعذاب ﴿أَوْ تَأْتي باللَّهِ والْمَلائِكَة قَبِيلاً﴾ أي كفيلاً بما تقول، شاهداً بصحته ﴿أو يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرفٍ﴾ أي ذهب: ﴿أَوْ تَرقَى في السَّمَاءِ، ولَن نُّؤْمنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي وحدهُ ﴿حَتَّى تُنزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقرؤُهُ﴾ أي كتاباً من السَّماء، فيه تصديقك ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ أي تنزيهاً له. والمراد به التعجب من اقتراحاتهم ﴿هلْ كُنتُ إلاَّ بَشراً رَّسُولاً﴾ أي كسائر الرسل. وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهرهُ اللَّهُ عليهم من الآيات، حسبما يلائم حال قومهم. ولم يمكن أمر الآيات إليهم، ولا لهم أن يتحكموا على اللّهِ بشيء منها.

تنبيه:

لا يخفى ما في اقتراح هذه الآيات من الجهل الكبير بسنة الله في خلقه، وبحكمته وجلاله. وبيان ذلك - كما في كتاب (لسان الصدق) - أن ما اقترحه قريش فيها (منه) ما أرادوا به مصلحتهم دون مصلحة العباد مما يخالف حكمة الله تعالى المقتضية لإخلاء بعض البقاع من العيون النابعة والأنهار الجارية والجنان الناضرة دون بعض. وإرساء الجبال الشم في موضع دون آخر، لمصالح يعلمها هو جلت عظمتهُ. ولا يعلمها الخلق. فليس مقترحهم هذا من العجز في شيء. مع أن مثله لاتثبت به النبوة. فإننا نعلم أن أناساً قد استنبطوا العيون وغرسوا الجنان من النخيل والأعناب ونحتوا الجبال ولم يكونوا بذلك أنبياء (ومنه) ما يناقض إرادة الله سبحانه وهو قولهم: ﴿أَوْ تُسقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾ فإن إنزال السماء قطعاً مقتضٍ لهلاك العالم بحذافيره. والله يريد إبقاءه إلى أجل معلوم (ومنه) ما هو مستحيل في نفسه غير ممكن وقوعه أصلاً وهو قولهم: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً﴾ فإن الإتيان بالله والملائكة حتى يشاهدهم المشركون أو غيرهم مما لا يمكن أن يكون. فلا يجوز طلبه، وليس من أنواع المعجز (ومنه) ما لا يصلح للأنبياء، ولو حصل لم يكن معجزاً وهو قولهم: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُفٍ﴾ فإن هذا غير صالح للأنبياء. وليس بمعجز، لحصول مثله عند أشباه فرعون (ومنه) ما وعدوا بعدم إيمانهم به لو حصل، وأردفوه بما لا يجوز وهو قولهم: ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ﴾ فيه - على ما ذكر في الرواية - من الله العظيم إلى فلان وفلان وفلان، لقوم من قريش بأسمائهم. أما بعد. فإن محمداً رسولي فآمنوا به. والصعود في السماء لا مرية فيه، لأنهم قالوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ فلو كان، لكان عبثاً. وإنزال كتاب عليهم على المعنى المذكور يستلزم جعلهم أنبياء، لأن ذلك وحي مثل التوراة والإنجيل. والوحي مختص بالأنبياء، والكفارُعنه معزولون. فلم يكن شيء مما اقترحوه في الآيات معجزاً. وإنما هي أمور مستحيلة في نفسها، أو لأمر آخر. اقترحوها تكبراً وتعنتاً وجهلاً. على أنهم بعد تلك الأقوال كلها قال قائل منهم: وأيم الله! لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك. وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الأنعام: ١١١]، فكان الأولى في جوابهم عما اقترحوه، هو ما أجاب به ﷺ من قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً﴾ أي تنزه ربي عن فعل ما اقترحتموه من المحال وما يناقض حكمته. وما أنا إلا بشر رسول. عليّ أن أبلغكم رسالات ربي

وأنصح لكم. وقد أتيتكم بما يدل على صدق رسالتي مما أوحاه إليّ. وذلك ما تحديتكم بالإتيان بسورة مثله في الهداية والإصلاح. كما أمرني ربي. ولا أقترح عليه، سبحانه، ما لا يجوز أن يكون. أو ما يكون فعله عبثاً، لخلوّه عن الفائدة. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾

﴿**وما منع النّاس**﴾ أي الذين حكى تعنتهم ﴿**أن يُؤْمِنواْ إذْ جاءَهُمُ الْهُدَى إلاَّ أنْ قَالُواْ أَبَعثَ اللّهُ بَشَراً رَسُولاً**﴾ أي إلاّ تعجبهم من بعثة إنسانٍ رسولاً. بمعنى إنكارهم أن يكون الرسول من جنس البشر. كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] والآيات في ذلك كثيرة. ثم نبه تعالى على لطفه ورحمته بعباده، أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه، ويمكنهم مخاطبته ومكالمته. حتى لو كانت الأرض مستقراً لملائكته، لكانت رسلهم منهم، جرياً على قضية الحكمة.

فقال سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾

﴿**قُل لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائكةٌ يَمْشُونَ**﴾ أي على أقدامهم كما يمشي الإنس ﴿**مُطْمَئِنِّينَ**﴾ أي ساكنين في الأرض قارّين ﴿**لنَزَّلْنا عَلَيْهِم مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً**﴾ أي من جنسهم، ليعلمهم الخير ويهديهم المراشد. ولما كنتم أنتم بشراً، بعثنا فيكم رسلاً منكم. كما قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسولاً مِنْكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

تنبيه:

في الآية إشارة إلى حاجة من يستقر في الأرض إلى الرسالة. وقد قضت رحمة الباري تعالى وعنايته بذلك، فمنّ على الخلق بالرسل وأتم حاجتهم بخاتم أنبيائه فأنقذهم من الحيرة، وخلصهم من التخبط، وأخرجهم من الظلمات إلى النور.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

﴿**قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**﴾ أي على أني بلغت ما أرسلت به إليكم، وإنكم كذبتم وعاندتم. وقرر الرازيّ أن المعنيّ بالشهادة هو الشهادة على رسالته عليه الصلاة والسلام بإعجاز القرآن. أي كفى بما أكرمني به تعالى من هذا المعجز، شاهداً على صدقي. ومن شهد تعالى على صدقه فهو صادق. فقولكم، معشر المشركين، بعد هذا، يجب أن يكون الرسول ملكاً، تحكم فاسد.

وناقشه أبو السعود بأن ما قرره لا يساعده قوله تعالى ﴿**بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**﴾ وما بعده من التعليل. ثم قال أبو السعود. وإنما لم يقل بيننا تحقيقاً للمفارقة، وإبانة للمباينة. وقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً**﴾ أي عالماً بأحوالهم. فهو مجازيهم. وهذا تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للكفرة.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾

﴿**وَمَن يَهْدِ اللَّهُ**﴾ أي إلى الحق بما جاء من قبله إلى الهدى ﴿**فَهُوَ الْمُهْتَدِ، وَمَن يُضْلِلْ**﴾ أي يخلق فيه الضلال بسوء اختياره، كهؤلاء المعاندين ﴿**فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ**﴾ أي أنصاراً يهدونهم ويحفظونهم من قهره، وإنما أوثر ضمير الجماعة في (لَهُمْ) حملاً على معنى (مَنْ) وأوثر في ما قبله الإفراد، حملاً على اللفظ. وسر الاختلاف في المتقابلين الإشارة إلى وحدة طريق الحق، وقلة سالكيه، وتعدد سبل الضلال وكثرة الضُّلَّال ﴿**وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ**﴾ أي يسحبون عليها كقوله ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر:٤٨]

وقال القاشانيّ: أي ناكسي الرؤوس لانجذابهم إلى الجهة السفلية! وعلى وجوداتهم وذواتهم التي كانوا عليها في الدنيا. كقوله (كَمَا تَعِيشُونَ تَمُوتُونَ وَكَمَا تَمُوتُونَ تُبْعَثُونَ) إذ (الوجه) يعبر به عن الذات الموجودة مع جميع عوارضها ولوازمها. أي على الحالة الأولى من غير زيادة ونقصان. وقوله تعالى ﴿**عُمْياً وَبُكْماً**

وَصُمّاً﴾ أي كما كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق، ويتصامّون عن استماعه - فهم في الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقر أعينهم، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم، ولا ينطقون بما يقبل منهم ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِه أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾ [الإسراء:٧٢] - كذا في (الكشاف) ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي سكن لهيبها، بأن أكلت جُلُودَهُمْ ولحومهم ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ أي توقداً. بأن نبدل جلودهم ولحومهم، فتعود ملتهبة مستعرة.

قال الزمخشريّ: كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء، جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنيها. ثم يعيدها. لا يزالون على الإفناء والإعادة ليزيد ذلك في تحسرهم على تكذيبهم البعث. ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد. وقد دل على ذلك بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ أي لَمُحْيَوْنَ خَلقاً جديداً، بإعادة الروح فينا، إذا تلف لحمنا وبقينا عظاماً. بل رقت عظامنا فصارت رفاتاً. ثم احتج تعالى عليهم، ونبههم على قدرته على ذلك بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ﴾ أي يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي يوم القيامة. يُنْشِئُهُمْ نشأة أخرى ويعيدهم كما بداهم. والمعنى: قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السموات والأرض، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس. لأنهم ليسوا بأشد خَلْقاً منهن. كما قال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ﴾ ولا الإعادة أصعب عليه من الإبداء. بل هي أهون.

قال الشهاب: ولا حاجة إلى جعل (مثل) هنا كناية عنهم. كقوله: (مثلك لا

يبخل) مع أنه صحيح. ولو جعل خلق مثلهم عبارة عن الإعادة، كان أحسن ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ أي جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بد من انقضائها. كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]، ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾ أي بعد قيام الحجة عليهم ووضوح الدليل: ﴿إِلاَّ كُفُوراً﴾ أي جحوداً وتمادياً في باطلهم وضلالهم.

لطيفة:

قال الشهاب: هذه الجملة - جملة وجعل الخ - معطوفة على جملة ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ لأنها وإن كانت إنشائية، فهي مؤولة بخبرية - كما في (شرح الكشاف) إذ معناها: قد علموا بدلالة العقل أنه قادر على البعث والإعادة ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ﴾ أي لإعادتهم ﴿أَجَلاً﴾ وهو يوم القيامة يعني أنهم علموا إمكانها وإخبار الصادق بها وضربه لها أجلاً. فيجب التصديق به. أو جعل لهم أجلاً، وهو الموت والانسلاخ عن الحياة. ولا يخفى على عاقل أنه لم يخلق عبثاً. فلا بد أن يجزى بما عمله في هذا الدار. فلا معنى للإنكار. فظهر ارتباط المتعاطفين، لفظاً ومعنى و ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ ظاهر على الثاني. وعلى الأول معناه: لا ينبغي إنكاره لمن تدبر. وقيل إنها معطوفة على قوله: ﴿يَخْلُقَ﴾. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

﴿قُل لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ أي رزقه وسائر نعمه على خلقه: ﴿إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ﴾ أي لبخلتم بها مخافة نفادها بالإنفاق. مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً. لأن هذا من طباعكم وسجاياكم. ولهذا قال سبحانه ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً﴾ أي بخيلاً.

تنبيهات:

الأول: هذه الآية بلغت بالمشركين، من الوصف بالشح، الغاية التي لا يبلغها الوهم، كما قاله الزمخشريّ.

الثاني: ما اقتضاه آخر الآية من بخل كل أحد فأما بالنسبة إلى الجواد الحقيقي سبحانه؛ لأن المرء إما ممسك أو منفق. والثاني لا يكون إلا لغرضٍ للعاقل، إما دنيويّ

كعوض ماليّ، أو معنويّ كثناء جميل، أو خدمة واستمتاع، كما في النفقة على الأهل. وما كان لعوض ماليّ كان مبادلة لا مباذلة. أو هو بالنظر إلى الأغلب، وتنزيل غيره منزلة العدم كما قيل:

عَدِّنَا في زماننا عن حَديث المَكَارِمِ
مَنْ كَفَى الناس شَرَّهُ فهو في جُودِ حَاتِمِ

أفاده الشهاب.

وقال ابن كثير: إن اللّه تعالى يصف الإنسان من حيث هو. إلا من وفّقه اللّه وهداه، فإن البخل والجزع والهلع صفة له. كما قال تعالى ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢] ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز.

الثالث: ذكر هذه الآية إِثْرَ ما قبلها، لتقرير انفراده تعالى بملك خزائن الرحمة، وسعة كرمه وجوده وإحسانه. كما انفرد بتلك القدرة الباهرة من خلق السموات والأرض، كي تنجلي لهم قدرته العظمى، وسعة خزائنه الملأى. فيصلوا بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه الرسول ﷺ، وحقية ما يدعوهم إليه.

وذكر هذا المعنى في أسلوب بيان ما فطر عليه الإنسان، تذكيراً له بنقصه وضعفه، وإشفاقه وحرصه. ليعلم أنه غير مخلوق سدى، يُخَلَّى بينه وبين ما تتقاضاه به نفسه وهواه. والمعنى: أفلا تعتبرون بسعة رحمته وعميم فضله، مما يبرهن على وحدانيته في ألوهيته، ولا ترون ما أنتم عليه من أنكم لو ملكتم ما لا نفاد له من خزائنه، لضننتم بها. مما يدلكم على أنه هو مالك الملك، وأنكم مُسَخَّرُونَ لأمره. وهذه الآية كقوله تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً﴾ أي لو أن لهم نصيباً في ملك اللّه، لما أعطوا أحداً شيئاً ولا مقدار نقير. وقد جاء في الصحيحين[١]: (يَدُ اللّه مَلأَى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار. أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه).

وقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاريّ في: التوحيد، ١٩ - باب حدثنا معاذ بن فضالة حديث ٢٠١٢، عن أبي هريرة.
وأخرجه مسلم في: الزكاة، حديث رقم ٣٦و ٣٧.

القول في تأويل قوله تعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾

﴿ وَلَقَدْ ءاتيْنا مُوسَى تِسْعَ آيات بَيِّنات ﴾ واضحات الدلالة على صحة ما أرسله الله به. وقد مضى الكلام عليها في سورة الأعراف في قوله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ.. ﴾ الآية، ﴿ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرَئِيلَ ﴾ أي عنها: فإنهم يعلمونها، مما لديهم من التوراة. فيظهر للمشركين صدقك، ويزداد المؤمن بك طمأنينة قلب. لأن الأدلة إذا تظاهرت، كان ذلك أقوى وأثبت ﴿ إِذْ جاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرعَونُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَامُوسى مَسْحُوراً ﴾ أي فذهب إلى فرعون وأظهر آياته، ودعاه للإيمان به تعالى ولإرسال بني إسرائيل معه. فقال له فرعون ما قال. وقوله ﴿ مَسْحُوراً ﴾ بمعنى سُحِرْتَ فخولط عقلك. أو بمعنى ساحر، على النسب أو حقيقة. وهو يناسب قلب العصا ثعباناً. وعلى الأول هو كقوله ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧].

القول في تأويل قوله تعالى:

قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ أي يا فرعون ﴿ مَآ أَنزَلَ هَؤُلاءِ ﴾ أي الآيات التسع ﴿ إِلاَّ رَبُّ السَّمواتِ وَالأَرْضِ بَصائِرَ ﴾ أي بيِّنات مكشوفات لا سحر ولا تخيّل. ولكنك معاند مكابر. ونحوه ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل: ١٤]، (والبصائر) جمع بصيرة بمعنى مبصرة أي بيّنة. أو المراد الحجج، بجعلها كأنها بصائر العقول. وتكون بمعنى عبرة ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾ أي هالكاً.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

﴿ فَأَرَادَ ﴾ أي فرعون ﴿ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِن الأَرْضِ ﴾ أي يفزعهم ويزعجهم بما يحملهم على خفة الهرب فَرَقاً منه. أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال. والضمير لموسى وقومه. و (الأرض) أرض مصر. أو الأرض التي أذن لهم بالمسير

إليها وسكناها وهي فلسطين، وقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَعَهُ جَمِيعاً﴾ أي فحاق به مكره. لأنه تعقبهم بجنوده بعد ما أذن لهم بالسفر من مصر إلى فلسطين، ليرجعهم إلى عبوديته، فدمره الله تعالى وجنوده بالإغراق ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ﴾ أي من بعد إغراقه ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ﴾ وهي أرض كنعان، بلد أبيهم إسرائيل التي وعدوا بها.

قال ابن كثير: في هذا بشارة للنبيّ ﷺ. بفتح مكة، مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة. وكذلك وقع فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء:٧٦]. ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة، على أشهر القولين، وقهر أهلها ثم أطلقهم حلماً وكرماً. كما أورث الله القوم، الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل، مشارق الأرض ومغاربها وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم كما قال ﴿كَذَلِكَ أَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَئِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩] وقال ههنا ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَاءِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ أي قيام الساعة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ أي جمعاً مختلطين أنتم وعدوكم. ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم. ثم نزه سبحانه ساحة القرآن أن يكون مفترى. وبيّن اشتماله على ما يلائم الفطر ويطابق الواقع، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى:

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ أي بالحقيقة أنزلناه كتاباً من لدنّا فأين تذهبون؟ كما قال تعالى ﴿لَكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء:١٦٦]، ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي متلبساً بالحق الذي هو ثبات نظام العالم على أكمل الوجوه. وهو ما اشتمل عليه من العقائد والأحكام ومحاسن الأخلاق وكل ما خالف الباطل. كقوله تعالى ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤٢]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً وَقُرْءَاناً فَرَقْنَاهُ﴾ أي نزلناه مفرقاً منجماً. وقرئ بالتشديد. والقراءتان بمعنى ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ أي على مهل وتؤدة وتثبت، فإنه أيسر للحفظ وأعون في الفهم ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ أي من لدنّا على حسب الأحوال والمصالح.

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩ (١٠٩)

﴿قُلْ ءامنواْ به أَوْ لاَ تُؤْمنواْ، إِنَّ الَّذين أُوتواْ الْعلْمَ من قَبْله إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخرُّون للأَذْقَان سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخرُّونَ للأَذْقَان يَبْكُون وَيَزيدُهُمْ خُشُوعاً﴾.

قال الزمخشريّ: أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشانهم، وأن لا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه. وإنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك، فإن خيراً منهم وأفضل، وهم العلماء الذين قرأوا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع، قد آمنوا به وصدقوه. وثبت عندهم أنه النبيّ العربيّ الموعود في كتبهم. فإذا تلي عليهم خرّوا سجداً وسبحوا اللّه تعظيماً لأمره، ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة، وبشر به من بعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه. وهو المراد بالوعد في قوله ﴿إن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾.

فإن قلت ﴿إِنَّ الَّذينَ أُوتُواْ الْعلْمَ﴾ تعليل لماذا؟ قلت: يجوز أن يكون تعليلاً لقوله ﴿ءَامِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ﴾، وأن يكون تعليلاً لـ (قل) على سبيل التسلية لرسول اللّه ﷺ وتطييب نفسه. كأنه قيل: تسلَّ عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء. وعلى الأول: إن لم تؤمنوا به لقد آمن به من هو خير منكم. فإن قلت: ما معنى الخرور للذقن؟ قلت: السقوط على الوجه. وإنما ذكر الذقن، وهو مجتمع اللحيين، لأن الساجد أول ما يلقي به الأرض من وجهه، الذقن. فإن قلت: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى، إذا قلت خرَّ على وجهه وعلى ذقنه، فما معنى اللام في (خَرَّ لذقنه ولوجهه) قال:

* فخر صريعاً لليدين وللفم؟ *

قلت: معناه جعل ذقنه ووجهه للخرور. واختصه به. لأن اللام للاختصاص. فإن قلت: لم كرر يخرون للأذقان؟ قلت: لاختلاف الحالين، وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين، وخرورهم في حال كونهم باكين. انتهى.

تنبيه:

دل نعت هؤلاء ومدحهم بخرورهم باكين، على استحباب البكاء والتخشع.

فإن كل ما حمد فيه من النعوت والصفات التي وصف اللّه تعالى بها من أحبه من عباده، يلزم الاتصاف بها. كما أن ما ذَمّ منها من مَقَتَهُ منهم، يجب اجتنابه.

وقد عدّ الإمام الغزاليّ في (الإحياء) من آداب ظاهر التلاوة البكاء. قال: البكاء مستحب مع القراءة. قال رسول اللّه ﷺ[1] (اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا) وقال ابن عباس رضي اللّه عنهما: إذا قرأتم سجدة سبحان، فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم، فليبك قلبه. وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن. فمن الحزن ينشأ البكاء، ووجه إحضار الحزن، أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود. ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي. فإن لم يحضره حزن وبكاء، كما يحضر أرباب القلوب الصافية، فليبك على فقد الحزن والبكاء. فإن ذلك أعظم المصائب. انتهى.

وذكر السيوطيّ في (الإكليل) أن الشافعيّ استدل بقوله تعالى ﴿**وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا**﴾ الآية، على استحباب هذا الذكر في سجود التلاوة. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾

﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ**﴾ ردٌّ لما أنكره المشركون من تسمية الرحمن، وإذْنٌ بتسميته بذلك. أي سموه بهذا الاسم أو بهذا. و (أوْ) للتخيير. ﴿**أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ أي أيُّ هذين الاسمين سميتم وذكرتم فهو حسن. وقد وضع موضعه قوله ﴿**فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه. إذ حسن جميع أسمائه يستدعي حسن ذينك الاسمين. فأُقيم فيه دليل الجواب مقامه، وهو أبلغ.

ومعنى كونها أحسن الأسماء، أنها مستقلة بمعاني الحمد والتقديس والتعظيم. وهذه الآية كآية ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ﴿**وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ**﴾ أي بقراءة صلاتك. بتقدير مضاف، أو تسمية القراءة صلاة، لكونها من أهم أركانها. كما تسمى الصلاة ركعة ﴿**وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا**﴾ أي تُسرّ وتخفي

(١) أخرجه ابن ماجة في: الإقامة، ١٧٦ - باب في حسن الصوت بالقرآن. حديث ١٣٣٧ عن سعد بن أبي وقاص.

﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ أي بين الجهر والمخافتة، أمراً وسطاً. فإن خير الأمور أوساطها.

قال أبو السعود: والتعبير عن ذلك بالسبيل، باعتبار أنه أمر يتوجه إليه المتوجهون، ويؤمه المقتدون، ويوصلهم إلى المطلوب.

روى الشيخان[1] أن رسول الله ﷺ كان يرفع صوته بقراءته. فإذا سمعها المشركون لغو وسبوا. فأمر بأن يتوسط في صوته، كيلا يسمع المشركون، وليبلغ من خلفه قراءته.

ثم بيّن سبحانه استحقاقه للحمد لاختصاصه بنعوت الكمال وصفات الجلال، بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ أي لَمْ يَكُنْ علةً لموجود من جنسه، لضرورة كون المعلول محتاجاً إليه، ممكناً بالذات، معدوماً بالحقيقة. فكيف يكون من جنس الموجود حقّاً، الواجب بذاته من جميع الوجوه؟ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ أي من يساويه في قوة القهر والمملكة من الشريك في الملك. وإلا لكانا مشتركين في وجوب الوجود والحقيقة. فامتياز كل واحد منهما عن الآخر، لا بدّ وأن يكون بأمر غير الحقيقة الواجبة. فلزم تركبهما، فكانا كلاهما ممكنين لا واجبين. وأيضاً فإن لم يستقلا بالتأثير، لم يكن أحدهما إلهاً. وإن استقل أحدهما دون الآخر فذلك هو الإله دونه، فلا شريك له. وإن استقلا جميعاً، لزم اجتماع المؤثرين المستقلّيْن على معلول واحد، إن فعلاً معاً. وإلا لزم إلهية أحدهما دون الآخر، رضي بفعله أو لم يرض. أفاده القاشانيّ.

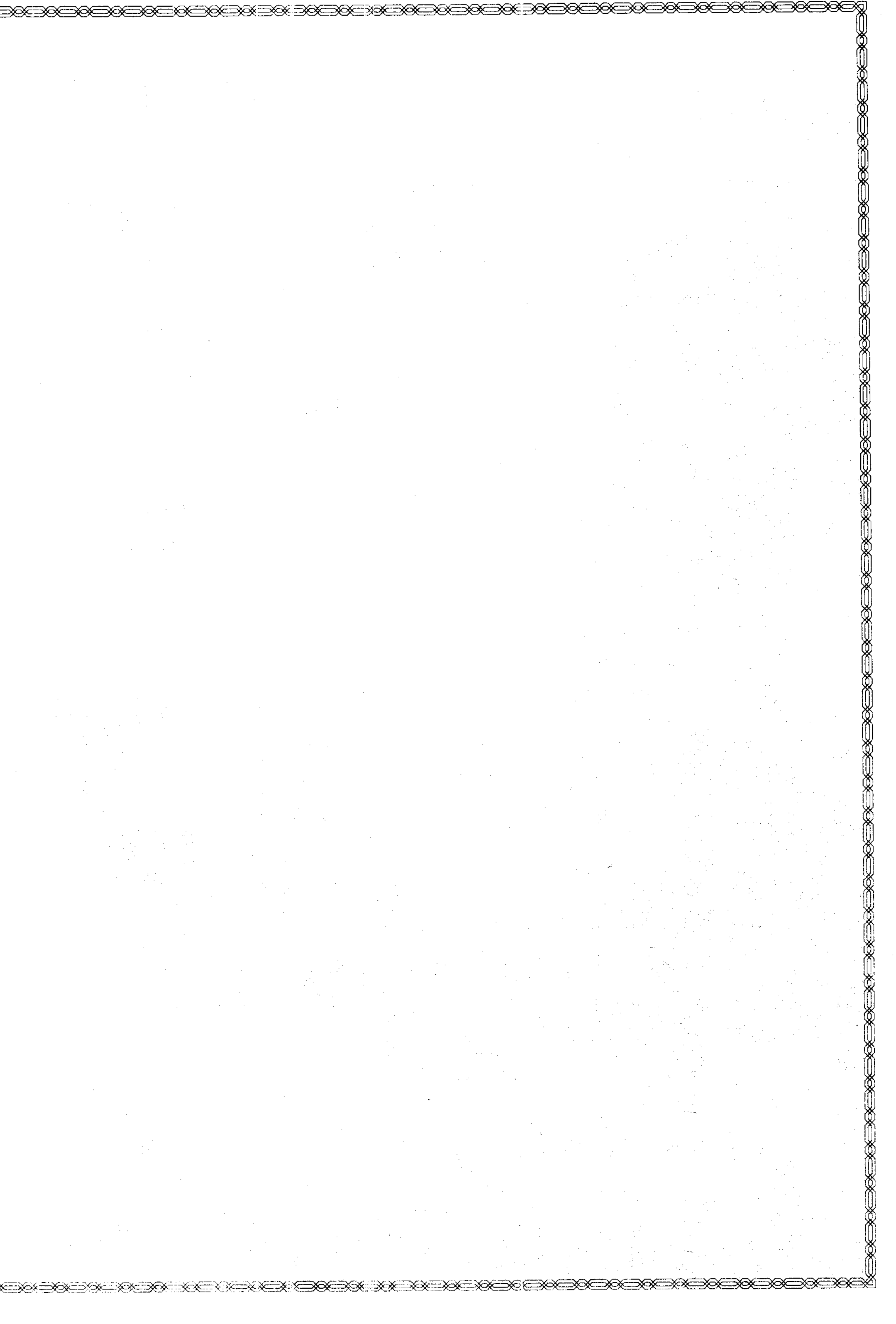
﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾ أي ناصر من الذل ومانع له منه، لاعتزازه به. أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به، ليدفعها بموالاته ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ أي عظمه عن أن يلحقه شيء من هذه النقائص تعظيماً جليلاً.

تمّ ما علقناه على هذه السورة الكريمة، ضحوة السبت في ٢٦ شوال سنة ١٣٢٣ في سدّة جامع السنانية بدمشق الشام. يسر الله لنا بعونه الإتمام، والحمد لله وحده.

تم الجزء السادس، ويليه، إن شاء الله تعالى، الجزء السابع، وفيه تفسير:
(١٨ – سورة الكهف، و ١٩ – سورة مريم، و ٢٠ – سورة طه، و ٢١ – سورة الأنبياء، و٢٢– سورة المؤمنون، ٢٣– سورة النور، ٢٤– سورة الفرقان، و٢٥– سورة الشعراء، و٢٦– سورة النمل).

---

(١) أخرجه البخاريّ في: التفسير، ١٧ – سورة الإسراء، ١٤ – باب ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها، حديث ٢٠٢٠ عن ابن عباس.
وأخرجه مسلم في: الصلاة، حديث رقم١٤٥.



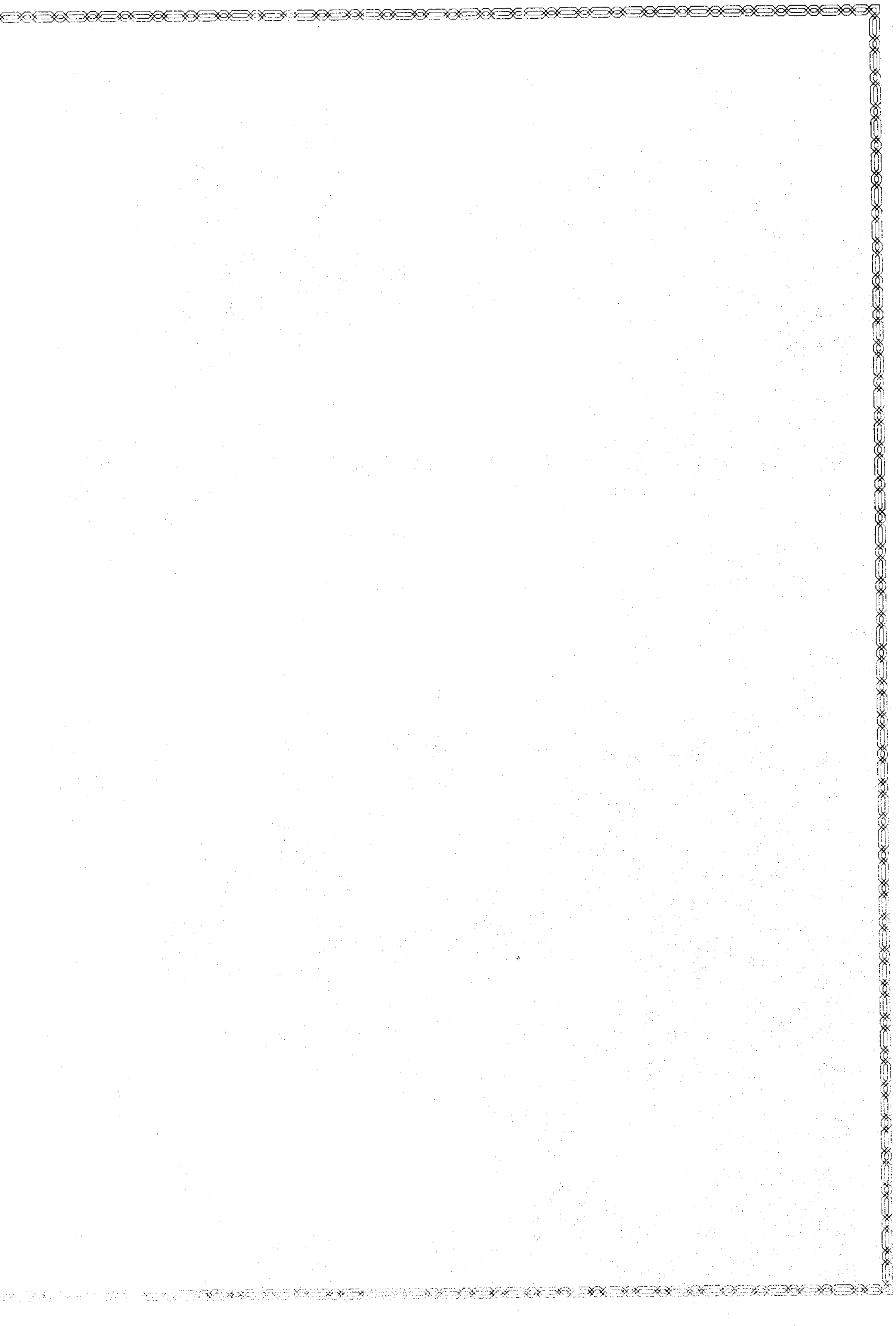
فهرس الجزء السادس

من

كتاب تفسير القاسمي

المسمى

محاسن التأويل



فهرس الجزء السادس

سورة يونس

الآية ١ ٤
الآيتان ٢ و٣ ٥
الآية ٤ ٦
الآية ٥ و٦ ٧
الآيات ٧ – ١٠ ٨
الآية ١١ ٩
الآيات ١٢ – ١٤ ١٠
الآية ١٥ ١١
الآية ١٦ ١٢
الآية ١٧ ١٣
الآية ١٨ ١٤
الآيتان ١٩ و ٢٠ ١٥
الآيتان ٢١ و ٢٢ ١٦
الآيتان ٢٣ و ٢٤ ١٧
الآيتان ٢٥ و ٢٦ ١٩
الآيتان ٢٧ و ٢٨ ٢٠
الآيتان ٢٩ و ٣٠ ٢١
الآيتان ٣١ و ٣٢ ٢٢
الآيتان ٣٣ و ٣٤ ٢٣
الآيتان ٣٥ و ٣٦ ٢٤
الآيتان ٣٧ و ٣٨ ٢٦
الآية ٣٩ ٢٧
الآيات ٤٠ – ٤٤ ٢٨
الآيات ٤٥ – ٤٧ ٢٩
الآيتان ٤٨ و ٤٩ ٣٠
الآية ٥٠ ٣١
الآية ٥١ ٣٢
الآيتان ٥٢ و ٥٣ ٣٣
الآيات ٥٤ – ٥٦ ٣٤
الآيتان ٥٧ و ٥٨ ٣٥
الآيات ٥٩ – ٦١ ٣٦
الآيات ٦٢ – ٦٤ ٣٧
الآيتان ٦٥ و ٦٦ ٤٦
الآيتان ٦٧ و ٦٨ ٤٧

الآيات ٦٩ – ٧١ ٤٩
الآيتان ٧٢ و ٧٣ ٥٠
الآيات ٧٤ – ٧٧ ٥١
الآيات ٧٨ – ٨١ ٥٣
الآيات ٨٢ – ٨٤ ٥٤
الآيتان ٨٥ و ٨٦ ٥٥
الآيتان ٨٧ و ٨٨ ٥٦
الآيتان ٨٩ و ٩٠ ٥٧
الآيتان ٩١ و ٩٢ ٥٨
الآية ٩٣ ٦١
الآية ٩٤ ٦٢
الآيات ٩٥ – ٩٨ ٦٣
الآية ٩٩ ٦٥
الآيات ١٠٠ – ١٠٢ ٦٦
الآيات ١٠٣ – ١٠٥ ٦٧
الآيتان ١٠٦ و ١٠٧ ٦٨
الآية ١٠٨ ٦٩
الآية ١٠٩ ٧٠

سورة هود

الآيتان ١ و ٢ ٧٢
الآيات ٣ – ٥ ٧٣
الآيتان ٦ و ٧ ٧٤
الآية ٨ ٧٦
الآيات ٩ – ١١ ٧٧
الآية ١٢ ٧٨
الآيتان ١٣ و ١٤ ٨٠
الآيتان ١٥ و ١٦ ٨٢
الآية ١٧ ٨٣
الآيتان ١٨ و ١٩ ٨٤
الآيات ٢٠ – ٢٣ ٨٥
الآيات ٢٤ – ٢٦ ٨٦
الآية ٢٧ ٨٧
الآيتان ٢٨ و ٢٩ ٨٩
الآيتان ٣٠ و ٣١ ٩٠
الآيات ٣٢ – ٣٤ ٩١
الآيات ٣٥ – ٣٧ ٩٢
الآيات ٣٨ – ٤٠ ٩٣
الآية ٤١ ٩٤
الآية ٤٢ ٩٥
الآية ٤٣ ٩٦
الآية ٤٤ ٩٧
الآية ٤٥ ١٠١

الآية ٤٦ ١٠٢
الآيتان ٤٧ و ٤٨ ١٠٣
الآيات ٤٩ – ٥١ ١٠٦
الآيتان ٥٢ و ٥٣ ١٠٧
الآيتان ٥٤ و ٥٥ ١٠٨
الآيتان ٥٦ و ٥٧ ١٠٩
الآيتان ٥٨ و ٥٩ ١١٠
الآيتان ٦٠ و ٦١ ١١١
الآيتان ٦٢ و ٦٣ ١١٢
الآيات ٦٤ – ٦٧ ١١٣
الآيتان ٦٨ و ٦٩ ١١٤
الآيات ٧٠ – ٧٢ ١١٥
الآيتان ٧٣ و ٧٤ ١١٦
الآيتان ٧٥ و ٧٦ ١١٧
الآية ٧٧ ١١٨
الآية ٧٨ ١١٩
الآيتان ٧٩ و ٨٠ ١٢٠
الآية ٨١ ١٢١
الآيات ٨٢ – ٨٤ ١٢٢
الآية ٨٥ ١٢٣
الآيتان ٨٦ و ٨٧ ١٢٤
الآية ٨٨ ١٢٥
الآيات ٨٩ – ٩١ ١٢٦
الآيتان ٩٢ و ٩٣ ١٢٧
الآيات ٩٤ – ٩٦ ١٢٨
الآيات ٩٧ – ٩٩ ١٢٩
الآيات ١٠٠ – ١٠٣ ١٣٠
الآيات ١٠٤ – ١٠٨ ١٣١
الآية ١٠٩ ١٣٢
الآيتان ١١٠ و ١١١ ١٣٣
الآيتان ١١٢ و ١١٣ ١٣٤
الآية ١١٤ ١٣٦
الآية ١١٥ ١٣٨
الآية ١١٦ ١٣٩
الآيتان ١١٧ و ١١٨ ١٤٠
الآية ١١٩ ١٤١
الآيتان ١٢٠ و ١٢١ ١٤٢
الآيتان ١٢٢ و ١٢٣ ١٤٣

سورة يوسف

الآيتان ١ و ٢ ١٤٥
الآيتان ٣ و ٤ ١٤٦
الآية ٥ ١٤٧

الآية ٦	١٤٨	الآية ٤٠	١٧٧
الآية ٧	١٥٣	الآية ٤١	١٧٨
الآية ٨	١٥٤	الآية ٤٢	١٧٩
الآية ٩	١٥٥	الآيتان ٤٣ و ٤٤	١٨٠
الآيات ١٠ – ١٢	١٥٦	الآية ٤٥	١٨١
الآيات ١٣ – ١٥	١٥٧	الآيات ٤٦ – ٤٩	١٨٢
الآيتان ١٦ و ١٧	١٥٨	الآية ٥٠	١٨٤
الآية ١٨	١٥٩	الآية ٥١	١٨٥
الآية ١٩	١٦١	الآيتان ٥٢ و ٥٣	١٨٦
الآية ٢٠	١٦٢	الآية ٥٤	١٩٠
الآيتان ٢١ و ٢٢	١٦٣	الآية ٥٥	١٩١
الآية ٢٣	١٦٤	الآية ٥٦	١٩٢
الآية ٢٤	١٦٦	الآيتان ٥٧ و ٥٨	١٩٣
الآيتان ٢٥ و ٢٦	١٦٩	الآيات ٥٩ – ٦٢	١٩٤
الآيتان ٢٧ و ٢٨	١٧٠	الآيات ٦٣ – ٦٥	١٩٥
الآيتان ٢٩ و ٣٠	١٧١	الآية ٦٦	١٩٦
الآية ٣١	١٧٢	الآية ٦٧	١٩٧
الآيتان ٣٢ و ٣٣	١٧٣	الآية ٦٨	١٩٨
الآيات ٣٤ – ٣٦	١٧٤	الآيتان ٦٩ و ٧٠	٢٠٢
الآية ٣٧	١٧٥	الآيات ٧١ – ٧٣	٢٠٣
الآيتان ٣٨ و ٣٩	١٧٦	الآيات ٧٤ – ٧٦	٢٠٤

الآيتان ٧٧ و ٧٨	٢٠٥
الآيتان ٧٩ و ٨٠	٢٠٦
الآيات ٨١ – ٨٣	٢٠٨
الآية ٨٤	٢٠٩
الآيات ٨٥ – ٨٧	٢١١
الآية ٨٨	٢١٢
الآية ٨٩	٢١٣
الآيات ٩٠ – ٩٢	٢١٤
الآية ٩٣	٢١٥
الآية ٩٤	٢١٧
الآيات ٩٥ – ٩٧	٢١٨
الآيتان ٩٨ و ٩٩	٢١٩
الآية ١٠٠	٢٢٠
الآية ١٠١	٢٢٢
الآية ١٠٢	٢٢٤
الآية ١٠٣	٢٢٥
الآيتان ١٠٤ و ١٠٥	٢٢٦
الآية ١٠٦	٢٢٧
الآية ١٠٧	٢٣١
الآية ١٠٨	٢٣٢
الآية ١٠٩	٢٣٤
الآية ١١٠	٢٣٥
الآية ١١١	٢٣٧

سورة الرعد

الآية ١	٢٥٤
الآية ٢	٢٥٥
الآية ٣	٢٥٦
الآية ٤	٢٥٨
الآيتان ٥ و ٦	٢٥٩
الآية ٧	٢٦١
الآيتان ٨ و ٩	٢٦٢
الآية ١٠	٢٦٣
الآية ١١	٢٦٤
الآيتان ١٢ و ١٣	٢٦٩
الآية ١٤	٢٧١
الآية ١٥	٢٧٢
الآية ١٦	٢٧٣
الآية ١٧	٢٧٥
الآيات ١٨ – ٢٠	٢٧٩
الآيات ٢١ – ٢٤	٢٨٠
الآيات ٢٥ – ٢٧	٢٨١
الآية ٢٨	٢٨٢

الآيتان ٢٩ و ٣٠	٢٨٣
الآية ٣١	٢٨٤
الآيتان ٣٢ و ٣٣	٢٨٦
الآيتان ٣٤ و ٣٥	٢٨٨
إلآيتان ٣٦ و ٣٧	٢٨٩
الآيتان ٣٨ و ٣٩	٢٩٠
الآيتان ٤٠ و ٤١	٢٩٢
الآيتان ٤٢ و ٤٣	٢٩٤
سورة إبراهيم	
الآيات ١ ــ ٣	٢٩٧
الآية ٤	٢٩٨
الآية ٥	٢٩٩
الآية ٦	٣٠٠
الآيتان ٧ و ٨	٣٠١
الآية ٩	٣٠٢
الآية ١٠	٣٠٤
الآية ١١	٣٠٥
الآيات ١٢ ــ ١٤	٣٠٦
الآية ١٥	٣٠٧
الآيات ١٦ ــ ١٨	٣٠٨
الآيتان ١٩ و ٢٠	٣٠٩
الآية ٢١	٣١٠
الآية ٢٢	٣١١
الآيات ٢٣ ــ ٢٥	٣١٣
الآيتان ٢٦ و ٢٧	٣١٤
الآيات ٢٨ ــ ٣٠	٣١٥
الآية ٣١	٣١٦
الآيات ٣٢ ــ ٣٤	٣١٧
الآيتان ٣٥ و ٣٦	٣١٨
الآيتان ٣٧ و ٣٨	٣١٩
الآيات ٣٩ ــ ٤٢	٣٢٠
الآيتان ٤٣ و ٤٤	٣٢١
الآيات ٤٥ ــ ٤٧	٣٢٢
الآيتان ٤٨ و ٤٩	٣٢٣
الآية ٥٠	٣٢٤
الآيتان ٥١ و ٥٢	٣٢٦
سورة الحجر	
الآيات ١ ــ ٣	٣٢٨
الآيات ٤ ــ ٨	٣٢٩
الآيات ٩ ــ ١٣	٣٣٠
الآيتان ١٤ و ١٥	٣٣١
الآيات ١٦ ــ ١٩	٣٣٢

الآيات ٢٠ – ٢٣	٣٣٣
الآيات ٢٤ – ٢٧	٣٣٤
الآيات ٢٨ – ٣٨	٣٣٥
الآيات ٣٩ – ٤٨	٣٣٦
الآيات ٤٩ – ٥٦	٣٣٧
الآيات ٥٧ – ٦٤	٣٣٨
الآيات ٦٥ – ٧٧	٣٣٩
الآيات ٧٨ – ٨١	٣٤٢
الآيات ٨٢ – ٨٧	٣٤٣
الآيات ٨٨ – ٩٠	٣٤٤
الآيات ٩١ – ٩٣	٣٤٥
الآيات ٩٤ – ٩٦	٣٤٦
الآيات ٩٧ – ٩٩	٣٤٧
سورة النحل	
الآيتان ١ و ٢	٣٥٠
الآيات ٣ – ٦	٣٥١
الآيتان ٧ و ٨	٣٥٢
الآية ٩	٣٥٤
الآيتان ١٠ و ١١	٣٥٥
الآية ١٢	٣٥٦
الآية ١٣ و ١٤	٣٥٧
الآيتان ١٥ و ١٦	٣٥٩
الآيتان ١٧ و ١٨	٣٦٠
الآيات ١٩ – ٢٣	٣٦١
الآيتان ٢٤ و ٢٥	٣٦٢
الآيتان ٢٦ و ٢٧	٣٦٣
الآيتان ٢٨ و ٢٩	٣٦٤
الآيات ٣٠ – ٣٢	٣٦٥
الآيات ٣٣ – ٣٦	٣٦٦
الآيات ٣٧ – ٤٠	٣٧٣
الآية ٤١	٣٧٤
الآيات ٤٢ – ٤٤	٣٧٥
الآيات ٤٥ – ٤٨	٣٧٦
الآيات ٤٩ – ٥١	٣٧٧
الآيات ٥٢ – ٥٥	٣٧٨
الآيتان ٥٦ و ٥٧	٣٧٩
الآيات ٥٨ – ٦٠	٣٨٠
الآيتان ٦١ و ٦٢	٣٨١
الآيات ٦٣ – ٦٦	٣٨٢
الآية ٦٧	٣٨٣
الآيتان ٦٨ و ٦٩	٣٨٤
الآيتان ٧٠ و ٧١	٣٨٨

الآيات ٧٢ – ٧٤	٣٨٩
الآية ٧٥	٣٩٠
الآية ٧٦	٣٩١
الآيات ٧٧ – ٧٩	٣٩٥
الآية ٨٠	٣٩٧
الآية ٨١	٣٩٨
الآيات ٨٢ – ٨٦	٣٩٩
الآية ٨٧	٤٠٠
الآيتان ٨٨ و ٨٩	٤٠١
الآية ٩٠	٤٠٢
الآية ٩١	٤٠٣
الآية ٩٢	٤٠٤
الآيتان ٩٣ و ٩٤	٤٠٥
الآيات ٩٥ – ٩٧	٤٠٦
الآيات ٩٨ – ١٠٠	٤٠٧
الآيتان ١٠١ و ١٠٢	٤٠٨
الآية ١٠٣	٤٠٩
الآيتان ١٠٤ و ١٠٥	٤١٠
الآيات ١٠٦ – ١٠٩	٤١١
الآية ١١٠	٤١٤
الآيات ١١١ – ١١٣	٤١٥
الآيات ١١٤ – ١١٧	٤١٧
الآيتان ١١٨ و ١١٩	٤١٩
الآيات ١٢٠ – ١٢٣	٤٢٠
الآيتان ١٢٤ و ١٢٥	٤٢٢
الآية ١٢٦	٤٢٣
الآيتان ١٢٧ و ١٢٨	٤٢٥
سورة الإسراء	
الآية ١	٤٢٧
الآيتان ٢ و ٣	٤٤٠
الآيتان ٤ و ٥	٤٤١
الآيات ٦ – ٨	٤٤٢
الآية ٩	٤٤٥
الآيتان ١٠ و ١١	٤٤٦
الآية ١٢	٤٤٧
الآيات ١٣ – ١٥	٤٤٨
الآية ١٦	٤٥٠
الآية ١٧	٤٥١
الآيات ١٨ – ٢٢	٤٥٢
الآيتان ٢٣ و ٢٤	٤٥٣
الآيات ٢٥ – ٢٧	٤٥٥
الآية ٢٨	٤٥٦

الآيتان ٢٩ و ٣٠	٤٥٧
الآية ٣١	٤٥٨
الآيات ٣٢ – ٣٤	٤٥٩
الآيات ٣٥ – ٣٧	٤٦٠
الآيتان ٣٨ و ٣٩	٤٦١
الآيات ٤٠ – ٤٢	٤٦٢
الآيتان ٤٣ و ٤٤	٤٦٣
الآية ٤٥	٤٦٦
الآيات ٤٦ – ٤٨	٤٦٧
الآيات ٤٩ – ٥٢	٤٦٨
الآيات ٥٣ – ٥٥	٤٦٩
الآيتان ٥٦ و ٥٧	٤٧٠
الآيتان ٥٨ و ٥٩	٤٧١
الآية ٦٠	٤٧٢
الآيتان ٦١ و ٦٢	٤٧٣
الآيات ٦٣ – ٦٥	٤٧٤
الآية ٦٦	٤٧٥
الآيات ٦٧ – ٦٩	٤٧٦
الآية ٧٠	٤٧٧
الآيتان ٧١ و ٧٢	٤٧٨
الآيتان ٧٣ و ٧٤	٤٧٩
الآية ٧٥	٤٨٠
الآيتان ٧٦ و ٧٧	٤٨٢
الآية ٧٨	٤٨٣
الآية ٧٩	٤٩٠
الآيتان ٨٠ و ٨١	٤٩٥
الآية ٨٢	٤٩٦
الآيتان ٨٣ و ٨٤	٤٩٩
الآية ٨٥	٥٠٠
الآيات ٨٦ – ٨٩	٥١١
الآيات ٩٠ – ٩٣	٥١٢
الآيتان ٩٤ و ٩٥	٥١٤
الآيتان ٩٦ و ٩٧	٥١٥
الآيتان ٩٨ و ٩٩	٥١٦
الآية ١٠٠	٥١٧
الآيات ١٠١ – ١٠٤	٥١٩
الآيتان ١٠٥ و ١٠٦	٥٢٠
الآيات ١٠٧ – ١٠٩	٥٢١
الآيتان ١١٠ و ١١١	٥٢٢

